

الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي

(في مؤلفات غيثان بن علي بن جريس)

(ق٢ – ١٥هـ / ق٨ - ٢١م)

الجزء الأول

محمد بن أحمد مُعبِّر

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

معبر، محمد أحمد محمد

الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي في مؤلفات غيثان بن جريس./
محمد أحمد محمد معبر .- الرياض، ١٤٣٩هـ - ٢ مج
٥٦٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٧ - ٧٢٨٧ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٤ - ٧٢٨٨ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)

١- المنطقة الجنوبية (السعودية) - وصف ورحلات أ- العنوان
ديوي ٩١٥,٣١٥٠٤ ١٤٣٩/٨٦٩٠

رقم الإيداع ١٤٣٩/٨٦٩٠
ردمك: ٧ - ٧٢٨٧ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٤ - ٧٢٨٨ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

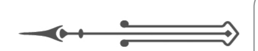
الرياض: مطابع الحميضي

خميس مشيط: ص . ب : (٣٧٦) - الرمز البريدي : (٦١٩٦١)
الفاكس : (٠١٧/٢٢٣٩٤١٦)
Email:Maam9412@gamail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



الفهرس العام للجزئين





المقـــــدمه



الحمد للّه ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

فلا يجهل أي باحث في التاريخ والحضارة أهمية الرّحلات في الكتابة التاريخية، إذْ هي من المصادر التاريخية التي لا تقل عن غيرها .

وقد كان الجَنوب السعودي مسرحاً لكثير من الرَّحَّالة عَبْرَ القرون السابقة، حيث دَوّنوا ما شاهدوه في أماكن متعددة، ثم تناقلت الأجيال هذه المدونات التي حفظت لنا جانباً مهمّاً من تاريخ وحضارة هذه البلاد، بل إنّ بعض ما في هذه الرحلات من المعلومات لا يكاد يوجد في غيرها من المصادر .

ونَظَر الدكتور غَيْثَان بن علي جُرَيس إلى هذا التُّراث، فوجد فيه ثروة من المعلومات التاريخية والحضارية المتعلّقة بمناطق الجنوب السعودي، وأدرك أهميتها، فأخذ على عاتقه مُهمّة استخلاص هذه المعلومات، ووضع لكل جهة أو منطقة بحثاً مستقلاً أودع فيه هذه المستخلصات، مع التحليل والمُقَارنة لما جاء فيها، والتّعريف بالرّحالة ومدوناتهم منذ القرن الثاني للهجرة .

وأنجز في سبيل ذلك تسعة أبحاث، وهي :

- بلاد القنفذة في عيون الرّحّالة المسلمين وغير المسلمين .
- مرتفعات عسير ونجران في نظر الرّحّالين وكتب السِّيَر اليمنيّة .
- جازان في عيون بعض الرَّحَّالة المسلمين وغير المسلمين .
- الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرَّحَّالة المسلمين وغير المسلمين .
- رَنْيَة، وتُرَبَة، والخُرْمة في عيون بعض الجغرافيين والرَّحَّالين المسلمين وغير المسلمين .
- الطائف في عيون بعض المؤرّخين والرَّحَّالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين .

- إقليم عسير في عيون الرحّالة الأوربيين .
- جنوب السعودية في كتاب : (مرتفعات الجزيرة العربية) لهاري سانت جون فيلبي (دراسة تاريخية تحليلية) .
- بلاد عسير في كتابات فيلبي، وفيليب ليبنز .

وتم نشر هذه الأبحاث في بعض كتبه وفي أجزاء من كتابه (القول المكتوب في تاريخ الجنوب) .

أمّا الجانب الآخر المتعلق بالرحلات في الجنوب السعودي، فهو رحلات غيثان - نفسه - في أجزاء من هذه البلاد، ودَوَّن مشاهداته وانطباعاته عن كل جهة أو منطقة زارها منذ سنة ١٤١٢هـ وحتى الآن، مع الاستعانة ببعض ما جاء عنها في المصادر والمراجع والوثائق، وأخرج لنا الرحلات التالية :

- محافظة القنفذة كما سَمِعْتُ عنها ورأيتها .
- رحلات للمؤلف في نواح من عسير (سراة عبيدة) و (المجاردة) .
- منطقة جازان كما سَمِعْتُ عنها ورأيتها .
- منطقة الباحة (بلاد غامد وزهران) كما سَمِعْتُ عنها وشاهدتُها .
- لمحة عن محافظة بَلْقَرن كما قرأت عنها وشاهدتها .
- ظهران الجنوب في بعض المصادر، والوثائق، والمشاهدات خلال العصر الحديث والمعاصر .
- من بارق عسير إلى قلوة زهران (مشاهدات، وقراءات في بعض الكتب، والوثائق والبحوث) .
- الطائف كما سَمِعْتُ عنها ورأيتها .

وأمام هذه الإنجازات العلمية في الرَّحَلات والرّحّالة في الجنوب السعودي، عَرَضْتُ على الدكتور غيثان فكرة جمع رحلاته وما كتبه عن الرَّحّالة ورحلاتهم، وإصدارها في كتاب مستقل، فهذا أدْعى إلى جانب التّخصّص في أدب الرّحلات، وأصبحت الفكرة من الواقع المتمثل في هذا الكتاب الذي بين يديك .

ويتألّف الكتاب من قسمين، هما :

- **القسْم الأول : الرَّحّالة ورحلاتهم في الجنوب السعودي .**
- **القَسْم الثاني : رحلات غَيْثَان بن جُرَيس في الجنوب السعودي .**

وأسـأل اللّه تعـالى أن ينفع بهذه الأبحاث والرّحَـلات، وأن يوفقنا لما في الخَيْر والصلاح .

محمد بن أحمد مُعَبر
خميس مشيط

المملكة العربية السعودية
١٤٣٩/٣/٨هـ
ص.ب : ٣٧٦
الرمز البريدي : ٦١٩٦١
الفاكس : ٠١٧ / ٢٢٣٩٤١٦
(Maam 9412 @ gmail . com)



غيثان بن علي بن جريس

إلى الشمال من مدينة أبها - قاعدة منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية - تمتد سراة الحَجْر المكونة من قبائل (بللحمر ، وبللسمر ، وبني شهر ، وبني عمرو) وهي من قبائل الأزد المعروفة .

وفي قرية (آل مقبول) ببلاد بني عمرو ولد غيثان بن علي بن عبد الله بن جريس الجبيري الشهري عام ١٣٧٩هـ .

وقرية آل مقبول قرية أجداده لأمه ، فوالده ينتمي إلى قرية آل زريق ببني شهر . وقد بقي في قرية آل مقبول حتى بلغ سِنّ الخامسة ، ثم انتقل إلى منزل والده .

التحق بالمدرسة السعودية الابتدائية في النماص عام ١٣٨٣هـ / ١٣٨٤هـ وتخرج فيها ، والتحق بالمرحلة المتوسطة في عام ١٣٨٩/١٣٩٠هـ ، وتخرج فيها ، والتحق بالمرحلة الثانوية في مدينة النماص عام ١٣٩٢هـ/١٣٩٣هـ ، وحصل على شهادة الثانوية (قسم أدبي) بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٣٩٦هـ ، ثم التحق بكلية التربية فرع جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً) بأبها عام ١٣٩٦هـ/١٣٩٧هـ ، وتخرج فيها بعد حصوله على درجة البكالوريوس في التاريخ والحضارة الإسلامية عام ١٤٠٠هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

وبعد مرور سنة دراسية من تعيينه معيداً ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الماجستير ، وتم ذلك في جامعة أنديانا بمدينة بلو منجتون (Bloomington) وحصل عليها بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى في أوائل عام ١٤٠٥هـ ، وعاد إلى كلية التربية في أبها ليعمل محاضراً بها ، واستمر على هذا الحال حتى أواخر عام ١٤٠٦هـ ، ثم ذهب لنيل درجة الدكتوراه في قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر (University of Manchester) في بريطانيا ، وحصل على هذه الدرجة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى في أواخر عام ١٤٠٩هـ (١٩٨٩/١٩٩٠م) . وكان موضوع رسالة الدكتوراه : **التاريخ الاجتماعي والحرفي والتجاري في الحجاز خلال العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٣٢هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٧م .**

(The social, Industrial and Commercial History of the Hijaz Under The Early Abbassids(132 – 232 \ 747 – 847)

عاد إلى كلية التربية بأبها ليعمل أستاذاً مساعداً بقسم التاريخ في الكلية ، وفي أواخر عام ١٤١٠هـ أصبح رئيساً لقسم التاريخ في الكلية حتى عام ١٤٢٣هـ ، وقد ترقى إلى درجة أستاذ مشارك في أوائل عام ١٤١٤هـ ، ثم ترقى إلى درجة أستاذ متميز في ١٤١٨/١/٢٠هـ . ويعد أول من حصل على درجة الأستاذية من خريجي فرعي جامعة الملك سعود والإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها (جامعة الملك خالد حالياً).

تميز الدكتور غيثان بالنشاط العملي والعلمي منذ حصوله على درجة الدكتوراه، فشهدت كلية التربية (فرع جامعة الملك سعود بأبها) ثم جامعة الملك خالد مسيرة عملية وعلمية حافلة ، وامتد أثرها ليشمل منطقة عسير ، ثم بلاد تهامة والسراة من الطائف ومكة شمالاً إلى نجران وجازان جنوباً .

ويمكن رسم هذه الرحلة المباركة – بإذن الله تعالى – في السطور التالية:

١. عمل معيداً ثم محاضراً ، ثم أستاذاً مشاركاً فأستاذاً بكلية التربية بأبها فرع جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً) ثم (جامعة الملك خالد حالياً).

٢. عضو مركز البحوث بالكلية من عام ١٤١٠هـ) حتى عام ١٤١٧هـ.

٣. رائد اللجنة الاجتماعية بالكلية لمدة عامين منذ بداية عام ١٤١١هـ.

٤. عمل ممثلاً لكلية التربية في أبها لدى نادي أبها الأدبي منذ ١٤١٠/٣/٣٠هـ، وحتى عام ١٤١٩هـ .

٥. عمل منسقاً للموسم الثقافي التاريخي الذي نظمه قسم التاريخ في الكلية من عام ١٤١١هـ حتى عام ١٤١٣هـ وخلال عام ١٤١٥هـ.

٦. أشرف على تأسيس وتنظيم مكتبة قسم التاريخ في الكلية .

٧. أشرف على أكثر من ثلاثمئة بحث تَخَرُّج لطلبة قسم التاريخ ، وذلك خلال المدة الممتدة من عام ١٤١٣هـ –١٤٢٣هـ . وقد فهرس منها (٢٠٠)

بحث ، ونشر هذا الفهرس في كتابه : **دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية** تحت عنوان : (ببليوجرافيا لأبحاث طلاب قسم التاريخ بجامعة الملك سعود - كلية التربية فرع أبها (القسم الأول) . ص ص٢٦٧ - ٣١٢. ثم فهرس الأبحاث الباقية في كتابه : **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر** ص ص٤٢٩ - ٤٤٤ .

٨. شارك ببعض المقالات القصيرة في المجلات والمنشورات التي تصدر عن اللجنة الثقافية بالكلية خلال عامي ١٤١٣/١٤١٤هـ .

٩. ساهم في مناقشة بعض المواضيع والمناهج الخاصة بقسم التاريخ على وجه الخصوص ، مثل مراجعة وفحص الكتب الدراسية المقررة على الطلاب في معظم المواد والخاصة بالكلية أو فرع الجامعة في الجنوب على وجه العموم .

١٠. شارك في عضوية العديد من اللجان الإدارية والأكاديمية في جامعة الملك خالد ، وأحياناً رأس بعض اللجان العلمية والأكاديمية المختلفة في الجامعة ، وبعض تلك اللجان كانت على مستوى كلية التربية ثم كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية في جامعة الملك خالد ولجان أخرى على مستوى الجامعة تم تشكيلها من قبل مدير الجامعة .

١١. أشرف على إعداد خطة برنامج الماجستير في التاريخ حتى تم إقرارها في أوائل عام ١٤٢٣هـ .

١٢. تولّى تدريس عدد كبير من مواد التخصص لسنوات طويلة خلال مرحلة البكالوريوس مثل :

(١) تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام .
(٢) تاريخ السيرة النبوية والخلفاء الراشدين .
(٣) تاريخ الدولتين الأموية والعباسية .
(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية .
(٥) تاريخ الجزيرة العربية من القرن الثالث الهجري حتى العهد العثماني.
(٦) علم التاريخ عند المسلمين .

(٧) تاريخ الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق .
(٨) تاريخ الأندلس .
(٩) تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية .
(١٠) تاريخ الحروب الصليبية .
(١١) أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا .
(١٢) الأقليات الإسلامية في العالم .
(١٣) حاضر العالم الإسلامي .
(١٤) تاريخ المملكة العربية السعودية .
(١٥) موضوع خاص في تاريخ أفريقيا . وكذلك موضوع خاص في تاريخ الشرق الأقصى .
(١٦) منهج البحث التاريخي .
(١٧) انتشار الإسلام في آسيا وأفريقيا .
(١٨) تاريخ العرب الحديث .
(١٩) تاريخ العرب المعاصر .
(٢٠) تاريخ أوروبا في العصر الحديث والمعاصر .
(٢١) تاريخ العالم الجديد .

١٣. يقوم الآن ومنذ عدة سنوات بتدريس بعض مقررات التخصص لطلاب الدراسات العليا بالجامعة ، بالإضافة إلى إشرافه على العديد من الرسائل العلمية .

١٤. شارك في بعض المحاضرات المنبرية التي قدمت خلال النادي الأدبي بأبها ، أو في بعض كليات المنطقة .

١٥. شارك في إدارة بعض المحاضرات والندوات التي أقيمت في بعض الكليات أو المؤسسات الحكومية في منطقة عسير .

١٦. اشترك في مسامرة بنادي أبها الأدبي حول موضوع " قضايا تاريخية في بلاد عسير قديماً وحديثاً " خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر صفر عام ١٤١٣هـ .

١٧. ساهم في البرنامج الإذاعي ((من القلب)) الذي تم بثه عن طريق إذاعة البرنامج الثاني بجدة في الفصل الدراسي الأول لعام ١٤١١هـ .

١٨. المشاركة في حلقة بالتلفاز السعودي القناة الأولى عن ((المكتبة المنزلية)) في تاريخ ١٤١٤/٢/٢٠هـ .

١٩. شارك في ندوات عديدة عن أزمة الخليج في صحف البلاد ، والرياض ، وعكاظ خلال الفصل الدراسي الأول من عام ١٤١١هـ .

٢٠. له مشاركات عديدة في بعض الصحف والمجلات الثقافية المحلية والعربية.

٢١. حكّم ولازال يُحكّم عدداً من الأبحاث المنشورة في بعض المجلات العلمية، وكذلك بعض الكتب العلمية والثقافية ، كما حكّم مجموعة من الكتب التي نشرت أو يراد نشرها في الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة المقام في عام ١٤١٩هـ .

٢٢. ناقش عدداً من رسائل الماجستير والدكتوراه داخل المملكة وخارجها .

٢٣. يعمل منذ عام (١٤١٨هـ) متعاوناً مع وزارة الثقافة والإعلام (إدارة مطبوعات بالرياض) على فحص وتقييم بعض الكتب والدراسات التي يرغب في طباعتها ونشرها بعض الكتاب والمؤلفين .

٢٤. قام ولازال يُدرّس ويشرف على العديد من طلاب الدراسات العليا في مرحلتي (الماجستير والدكتوراه) بالجامعة .

٢٥. شارك في المؤتمر العالمي للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، في شهر شوال عام (١٤١٩هـ) بالرياض . وعنوان البحث الذي شارك به صاحب السيرة هو : **(ابن إلياس ورسالته في تاريخ عسير في عهد الملك عبد العزيز)** .

٢٦. شارك بعدد من المحاضرات في مناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية في كل من نادي أبها الأدبي ، وجامعة الملك خالد ، والحرس الوطني بالرياض ، وقسم التاريخ بجامعة الملك سعود في الرياض.

٢٧. قدّم بعض المحاضرات العامة في نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، ونادي مكة المكرمة الثقافي ، ونادي المدينة المنورة الأدبي ، ونادي جازان الأدبي ، ونادي الطائف الأدبي ، ونادي الباحة الأدبي.

٢٨. تولى رئاسة بعض اللجان التي قامت بالإعداد لإصدار أطلس التاريخ السعودي الصادر من دارة الملك عبد العزيز بالرياض، ضمن فعاليات الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

٢٩. عمل في عدد من اللجان العلمية الأخرى بإمارة منطقة عسير ، التي هدفها تقديم بعض الدراسات المختلفة عن منطقة عسير بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية .

٣٠. شارك في عدة معارض داخل المملكة العربية السعودية وخارجها ، بعرض نماذج من وثائقه ومخطوطاته الخاصة ، بالإضافة إلى عرض أبحاثه ومؤلفاته الكثيرة والمتنوعة .

٣١. شارك ولازال يشارك في استشارات محلية وإقليمية علمية وتاريخية تخص تراث وحضارة شبه الجزيرة العربية أو تاريخ الدولة السعودية.

٣٢. أشرف على اللجان التنظيمية لعقد اللقاء العلمي الأول لتاريخ الملك خالد، الذي نظمه كرسي الملك خالد للبحوث العلمية بجامعة الملك خالد يوم الثلاثاء ١٤٢٨/٤/٢١هـ .

٣٣. أجري معه لقاء تلفزيوني على القناة الفضائية السعودية لمدة ساعة، تحدث فيه عن أجزاء من حياته العلمية والعملية على مدار (٣٣) عاماً ، دار اللقاء حول بعض مؤلفاته وكتبه ، وذلك في مساء يوم السبت (١٤٣٢/١/١هـ) بمقر تلفزيون أبها ، الساعة الثامنة مساءً .

ويمتد العطاء المتدفق للدكتور غيثان من خلال عضويته في المجالس واللجان في الجامعات والجمعيات والمؤسسات المحلية والعربية ومن ذلك:

١. عضو مركز البحوث بكلية التربية جامعة الملك سعود في المدة (١٤١٢-١٤١٧هـ) .
٢. رئيس قسم التاريخ بكلية التربية ثم بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية، وعضو مجلس الكلية في المدة (١٤١٠هـ - ١٤٢٣هـ) .
٣. عضو في لجان عديدة بالكلية .
٤. رئيس تحرير مجلة بيادر منذ عام (١٤١٥هـ) ، ورئيس اللجنة العلمية والطباعة والنشر بنادي أبها الأدبي حتى عام (١٤١٩هـ) .
٥. عضو لجنة التاريخ والتراث بنادي أبها في المدة (١٤١٢هـ- ١٤١٤هـ) .
٦. عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ عام (١٤١٢هـ) .
٧. عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة منذ عام (١٤١٢هـ) .
٨. عضو جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي منذ عام (١٤٢٠هـ) .
٩. عمل عضواً وأحياناً رئيساً لبعض اللجان التي ساهمت ولازالت تساهم في تنظيم وتنسيق وتنفيذ جائزة أبها للنشاط الجامعي .
١٠. عضو في اللجنة الثقافية بالتنشيط السياحي بمنطقة عسير منذ عام ١٤١٤هـ .
١١. عضو في مجلس التعليم بمنطقة عسير من تاريخ ٨ /١/١٤١٧هـ وحتى نهاية العام الدراسي ١٤١٨ـــ١٤١٩هـ .
١٢. عضو في المجلس الاستشاري بكلية خدمة المجتمع والتعليم المستمر في جامعة الملك خالد في المدة (١٤٢١ ـــ ١٤٢٣هـ) .
١٣. عضو متعاون بوزارة الثقافة والإعلام لفحص بعض الكتب والدراسات .
١٤. المشرف والمؤسس لكرسي الملك خالد للبحوث العلمية منذ (١٤٢٧/٥/١هـ) حتى (١٤٢٨/٤/٣٠هـ) .

وتتويجاً لهذه الجهود العلمية حصل الدكتور غيثان على جائزة عبد الحميد شومان في العلوم الإنسانية الصادرة في المملكة الأردنية الهاشمية عام ١٩٩٦م . وقد منح أثناء حصوله على تلك الجائزة شهادةً ودرعاً .

ثم تم تكريمه من قبل نادي أبها الأدبي في ١٤١٨/٢/٥هـ ، بمناسبة حصوله على درجة الأستاذية بتميز ، وقد منح في ذلك التكريم درع النادي وشهادة.

تم تكريمه في ملتقى قبائل بني شهر الأول، المنعقد في الرياض، برعاية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبد العزيز آل سعود، أمير منطقة عسير، يوم الخميس (١٤٣٣/١١/٢٥هـ=٢٠١٢/١٠/١١م) .

تم تكريمه ضمن شوامخ المؤرخين العرب في مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة عام (٢٠١٣م) ، وتاريخ هذا التكريم كان يوم الأربعاء (٢/ محرم/ ١٤٣٥هـ الموافق ٦/نوفمبر/٢٠١٣م) .

تم تكريمه من قبل وزارة الثقافة والإعلام السعودي في معرض الكتاب الدولي الثامن بالرياض عام (١٤٣٦هـ/٢٠١٥م) .

مؤلفاتـــــه :

١. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية).
ط١ : ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، الرياض ، مطابع الفرزدق التجارية، ٥٨٤ص .
ط٢ : ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م ، الرياض ، مطابع الحميضي ، ٥٨١ص.

٢. افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية .
ط١ : ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، أبها ، نادي أبها الأدبي .
ط٢ : ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
ط٣ : ١٤١٥هـ /١٩٩٥م .
ط٤ : ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، جدة ، دار البلاد للطباعة والنشر، ٨٠ ص .

٣. بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الجزء الأول) .
تقديم ومراجعة : أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور، رئيس إتحاد المؤرخين العرب .
ط١: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٣٣٤ص .

٤. بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الجزء الثاني) .
ط١ : ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الاسكندرية، دار السماح للطباعة، ٤١٨ص .

٥. بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر
ط١ : ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، جدة، العويفي للدعاية والإعلان، ٤٤٤ص .

٦. بلاد بني شِهْر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. ط١ : ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، أبها، مازن للطباعة، ١٩٢ص .
ط٢ : ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٥٢ص .

٧. بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠-١٥هـ= ق١٦-٢١م).
دراسة تاريخية حضارية .
ط١ : ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٢٧ص .

٨. تاريخ الأقليات الإسلامية في العالم (أفريقيا) (الجزء الأول).
ط١ : ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، أبها، نادي أبها الأدبي، ٢٠٦ص .
ط٢ : ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، جدة، ٢٠٦ص .
ط٣ : ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، الرياض، مطابع العبيكان .

٩. تاريخ التعليم العام والعالي في منطقة عسير خلال عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (١٤٠٢-١٤٢٢) = (١٩٨٢-٢٠٠٢م).
ط١ : ١٤٢٣هـ، الرياض، وزارة التعليم العالي، أبها، جامعة الملك خالد، ٢٩٨ص .
ط٢ : ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ٤٥١ص .

١٠. تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤-١٣٨٦هـ= ١٩٣٤-١٩٦٦م) (الجزء الأول).
ط١ : ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، جدة، دار البلاد للطباعة والنشر، ٣٤٨ص .

١١. دراسات في تاريخ أفريقيا والجزيرة العربية خلال العصور الإسلامية.
ط١ : ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، جازان، نادي جازان الأدبي، ٢٠٨ص.

١٢. دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١هـ - ق١٠هـ = ق٧م – ق١٦م) (الجزء الأول).
ط١ : ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، أبها، ٤٣٧ص .

١٣. دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١هـ - ق١٠هـ = ق٧م – ق١٦م) (الجزء الثاني).
ط١ : ١٤٣١-١٤٣٢هـ /٢٠١٠-٢٠١١م، الرياض، مطابع الحميضي ٦١٩ص .

١٤. دراسات في تاريخ الحجاز السياسي خلال العصر الإسلامي (ق١هـ - ق١٠هـ = ق٧م – ق١٦م) .
ط١ : ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي الأدبي ٣٥١ص .

١٥. دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية.
طا : ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الرياض، ٣٢٦ص .
ط٢ : ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، الرياض، مطابع الحميضي (الجزءان الأول والثاني) ٦٥٦ص .

١٦. دراسة عن قسمي التاريخ بفرعي جامعة الملك سعود والإمام محمد بن سعود الإسلامية في أبها (١٣٩٦-١٤٢٣هـ=١٩٧٦-٢٠٠٢م) (النشأة- التطور-الإلغاء).
طا : ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، جدة، الرواد، ٢٠٥ص .

١٧. صفحات من تاريخ عسير (الجزءان: الأول والثاني). ط١٤١٤:١هـ/١٩٩٤م، جدة، دار البلاد للطباعة والنشر، (الجزء الأول) ١٩١ص ط٢ : ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، الرياض مطابع العبيكان (الجزءان : الأول والثاني) ٤٧٥ص .

١٨. عبد الوهاب أبو ملحة في جنوبي البلاد السعودية (١٣٤٠-١٣٧٤هـ = ١٩٢١-١٩٥٤م) (دراسة تاريخية وثائقية).
طا :١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، الرياض، مطابع الحميضي ،٥٩٤ ص .

١٩. عسير : دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ = ١٦٨٨-١٩٨٠م) .
طا : ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، جدة، دار البلاد للطباعة والنشر، ٢٥٥ص.

٢٠. عسير في عصر الملك عبد العزيز (دراسة تاريخية للحياة الإدارية والاقتصادية)
طا : ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جدة، ٢٨٧ص .

٢١. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير أنموذجاً) (الجزء الأول).
طا : ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الرياض، مطابع العبيكان، ٥٦٧ص .

٢٢. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) (الجزء الثاني).
طا : ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، الرياض، مطابع الحميضي، ج٢، ٥٢٧ص .

٢٣. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير ونجران) (الجزء الثالث) .
ط١ : ١٤٣٢-١٤٣٣هـ/٢٠١١-٢٠١٢م، الرياض، مطابع الحميضي، ٦٢٥ص .

٢٤. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير وجازان والقنفذة) (الجزء الرابع).
ط١ : ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٧٢ص .

٢٥. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) (الجزء الخامس).
ط١: ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، الرياض، مطابع الحميضي، ٦٠٥ص .

٢٦. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (جازان وعسير ونجران) (الجزء السادس).
ط١ : ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٥٠ص .

٢٧. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير ونجران) (الجزء السابع).
ط١ : ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٤٦ص .

٢٨. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (نجران وعسير والباحة) (الجزء الثامن).
ط١ : ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٢٥ص .

٢٩. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير ونجران وجازن) (الجزء التاسع).
ط١ : ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٧٦ص .

٣٠. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والباحة ونجران) (الجزء العاشر).
ط١ : ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٧١ص .

٣١. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (أجزاء من عسير) (الجزء الحادي عشر) .
ط١ : ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٧٥ص.

٣٢. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (أجزاء من تهامة والسراة) (الجزء الثاني عشر) .
ط١ : ١٤٣٩هـ / ٢٠١٧م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٨٠ص .

٣٣. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الطائف وأجزاء من الجنوب) (الجزء الثالث عشر) .
ط١ : ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٨٦ص.

٣٤. القــول المكتــوب في تاريــخ الجنوب (أجــزاء من الحجــاز واليمن وما بينهما) (الجزء الرابع عشر) .
طا :١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٨٦ ص.

٣٥. مــن رواد التربية والتعليم في المملكة العربية الســعودية : محمد أحمد نور (دراسات - وشهادات - ووثائق) .
طا : ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، الرياض، مطابع الحميضي، ٦٠٦ص .

٣٦. نجران : دراسة تاريخية حضارية (ق١-ق٤هـ = ق٧-ق١٠م) (الجزء الأول).
طا : ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، الرياض، مطابع العبيكان، ٥٣١ص.
ط٢: ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، الرياض، مطابع الحميضي، ٥٦٢ص.

٣٧. الهجــرات العربية إلى ســاحل شــرقي أفريقية في العصــور الوســطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري .
طا : ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، أبها، جامعة الملك سعود، كلية التربية، مركز البحوث، ٥٢ص .

٣٨. الوجود الإسلامي في أرخبيل الملايو أندونيسيا وماليزيا أنموذجاً (ق١-ق١٠هـ=ق٧-ق١٦م).
طا : ١٤٣٠- ١٤٣١هـ/٢٠٠٩-٢٠١٠م،الرياض، مطابع الحميضي، ٤٨٥ص .

الرَّحَلات والرَّحَّالة
في
مؤلفات غَيْثَان بن علي بن جُرَيْس

تمهيد :

اهتمّ الدكتور غيثان بالرّحلات والرّحالة في الجنوب السعودي، فأخذت حَيّزاً كبيراً في بعض كتبه، وهي :

١. بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر .
٢. بلاد القنفذة .
٣. دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية .
٤. صفحات من تاريخ عسير .
٥. سلسلة (القول المكتوب في تاريخ الجنوب) في الأجزاء : (٢، ٣، ٤، ٥، ٩، ١١، ١٢، ١٣) .

وبلغ عدد الأعمال (١٧) عملاً، وهي تنقسم على قسمين، وهما :

١. الحديث عن الرّحالة المسلمين وغير المسلمين، ورحلاتهم في جهة مُعَيَّنة – كالباحة أو جازان مثلاً – ويُعرّف بالرّحّالة ومدوناتهم، ثم يقوم بالتحليل والمقارنة لما جاء في مدوناتهم، ونحو ذلك .
٢. الرحلات التي قام بها، إذ يُسجّل مشاهداته وانطباعاته .

فإذا نظرنا إلى هذين القسمين بِتَمَعُّن في مضمونهما، لوجدنا حُسن هذا الصَّنيع وفوائده، ومن هذه الفوائد ما يلي :

١. المستخلصات التي يُقدّمها المؤلف – غيثان – ومستخرجة من مدونات الرَّحَّالة، فيما يخص كل جهة أو منطقة من مناطق الجنوب السعودي.
ومن خلال ذلك يتعرف القارئ أو الباحث على هؤلاء الرّحّالة وما دونوه عن البلاد التي زاروها .



٢. التحليل الذي أجراه المؤلف على هذه النصوص المستخلصة يعطي دلالات واضحة لما ذكره الرّحالة من وصف لأحوال الأرض والناس وما يتعلق بذلك، مما لا تخفى فائدته عند من يُمارس الكتابة التاريخية .

٣. حصول القارئ أو الباحث على دراسة علمية في أدب الرحلات، تختص ببلد مُعَيّن، على امتداد زمني يصل إلى ثلاثة عشر قَرْناً، مع حشد أكبر عدد من الرّحّالة والجغرافيين والمؤرخين، وذلك يختصر جهد الباحث الذي يكتب عن هذا البلد الذي زاره هؤلاء الرحالة .

٤. رحلات الدكتور غيثان، مع بحوثه عن الرحلات والرّحّالة، تُعطي القارئ والباحث فرصة المقارنة والتحليل بين وضع الناس والبلد في زمن الرّحّالة السابقين، وبين ذلك الوضع الذي شاهد فيه غيثان البلد نفسه .

٥. تُعَدّ رحلات الدكتور غيثان من التّسجيل الحَيّ لواقع البلاد التي زارها، ولن تظهر فائدة ذلك إلاّ بعد مرور فترة من الزّمن .

الرّحّالة ورحلاتهم في الجنوب السعودي :

كتب الدكتور غيثان عن الرّحّالة ورحلاتهم في الجنوب السعودي تسعة أبحاث، وهي :

١. بلاد القنفذة في عُيون الرَّحّالة المسلمين وغير المسلمين .
٢. مرتفعات عسير ونجران في نظر الرَّحّالين وكتب السِّير اليَمَنِيّة .
٣. جازان في عيون بعض الرّحّالة المسلمين وغير المسلمين .
٤. الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرّحّالة المسلمين وغير المسلمين .
٥. رَنْيَة، وتُرَبَة، والخُرْمَة في عيون بعض الجغرافيين والرَّحّالين المسلمين وغير المسلمين .
٦. الطائف في عيون بعض المؤرّخين والرَّحّالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين .
٧. إقليم عسير في عيون الرحّالة الأوربيين .

٨. جنوب السعودية في كتاب : (مرتفعات الجزيرة العربية) لهاري سانت جون فيلبي (دراسة تاريخية تحليلية) .

٩. بلاد عسير في كتابات فيلبي، وفيليب ليبنز .

ومن ركائز كلّ بحث من الأبحاث السابقة ما يلي :

١. التعريف بالرّحالة تعريفاً جامعاً، مع التعريف بمدوناتهم وتقييمها .

٢. دراسة ثقافة الرّحالة .

٣. مصادر الرّحالة في مدوناتهم .

٤. التحليل والمقارنة لما جاء في هذه المدونات حول البلد الذي زاروه.

ويمتد زمن الرحلات والرّحّالة في هذه الأبحاث من القرن الثانِي الهجري، حتى القرن الخامس عشر الهجري، أي بما يقرب من ثلاثة عشر قرناً .

أمّا النِّطَاق المكاني فيمتد ليشمل بعض أجزاء من منطقة مكة المكرمة، وبذلك يخرج عن مصطلح (الجنوب) الذي يتمثل في أربع مناطق إدارية، وهي (الباحة، وجازان، وعسير، ونجران)، وقد شملت أبحاث الدكتور غيثان الأماكن التالية :

- الباحة .
- تُرَبَة .
- جازان .
- الخُرْمة .
- رَنْيَة .
- الطائف .
- عسير .
- القنفذة .
- نجران .

ويمكن المُقَارَبة بين هذه الأماكن إذا أُدْرِجت ضمن مصطلح (الغرب الجنوبي) للبلاد السعودية، فالأماكن :(تُرَبَة، الخُرْمَة، رنية، الطائف، القنفذة) تتصل بالجنوب السعودي – في المكان – اتصالاً مباشراً، بل تتقارب في بعض سِمَاتها الحضارية مع الجنوب .

ولا يقـف الدكتور غيثان مع مدونات الرّحّالة فحسـب، بل هو يسـتأنس ببعض مؤلفات المؤرخين والجغرافيين، وكُتب السِّيَر، إذ يجدُ فيها ما تُسْتكْملُ به الصُّور التاريخية والحضارية في إطار كل بحث .

والأهَمُّ في هـذه الأبحاث أنّهـا تُمثل أحد الجوانـب المُهمّة في عمليـة التدوين التاريخي والحضـاري في جنوب البلاد السـعودية، ولا سـيما عند عدم وجود بعض المعلومات التاريخية والحضارية إلاّ في مُدونات الرّحّالة .

ومن هنا نُدرك أهمية أبحاث الدكتور غيثان عن الرّحّالة ورحلاتهم مع غيرهم مـن الجغرافيين والمؤرّخين، فهو حين يَخُصّ بعض البلاد ببحث يتناول فيه ما كتبه هـؤلاء عـن ذلـك البلد يسـير في اتجاه التركيـز في نطاق مُعَـيّن، وهـذا أدْعى إلى الاستغراق في مدونات الرّحّالة واستخلاص ما يتعلّق بذلك النطاق المكاني .

ولأنّ لـكل فرد طاقة علميّة أو جسـديّة محدودة، فإن ما قـام به غيثان في هذا الجانب من الجهد العلمي والجسـدي ما يُشـكر عليه، ويكفيه من ذلك – على أقلّ تقدير – أنّه فتح المجال لاستكمال مسيرة البحث حول الرّحّالة ورحلاتهم في الجنوب السـعودي، ويُنَاط ذلك بالباحثين من أهل البلاد، ولا أشـك في ترحيب غيثان بأي نقد أو تعليق على أبحاثه السـابقة، ومن ثمّ نشـره في سلسلة كتابه (القول المكتوب في تاريـخ الجنـوب) بل سينشـر أي بحث يتعلق بالرّحالـة ورحلاتهم مما يكون في النطاق الجغرافي لكتابه (القول المكتوب ...) .

رحلات غَيْثان بن جُرَيْس في الجنوب السعودي :

تُعَـدُّ رَحَلات الدكتور غيثان في الجنوب السـعودي امتـداداً في الزّمـان والمكان لمسـيرة الرحلات التي قـام بها الرّحّالة منذ القرن الثـاني الهجري، وقد بدأ ذلك برحلتين قصيرتين، إحداهما إلى (سراة عبيدة ١٤١٢هـ) والأخرى إلى (المجاردة ١٤١٣هـ) ونشرهما في الجزء الثاني من كتابه (القول المكتوب في تاريخ الجنوب)، ثم تتالت رحلاته التي نشـرها في أجزاء من القـول المكتوب...) أو في كتابه (بلاد القنفذة) ، وهي كما يلي :

١. محافظة القُنفذة كما سَمِعْتُ عنها ورأيتها .

٢. رحلات للمؤلف في نواح من عسير (سراة عبيدة) و (المجاردة) .
٣. منطقة جازان كما سَمِعْتُ عنها ورأيتها .
٤. منطقة الباحة (غامد وزهران) كما سَمِعْتُ عنها وشاهدتُها .
٥. لمحة عن محافظة بَلْقَرن كما قرأتُ عنها وَشاهدتُها .
٦. ظهران الجنوب في بعض المصادر، والوثائق، والمشاهدات خلال العصر الحديث والمعاصر .
٧. من بَارِق عسير إلى قلوة زهران (مشاهدات، وقراءات في بعض الكتب، والوثائق، والبحوث) .
٨. الطائف كما سَمِعْتُ عنها ورأيتها .

وقد تناول في كل رحلة ما يلي :

١. التركيبة الجغرافية والبشرية .
٢. الحياة الاجتماعية : الأسرة والمجتمع، والعمران، والطعام والشراب، واللباس والزينة، والعادات والتقاليد .
٣. الحياة الاقتصادية : الصيد، والرعي، والزراعة، والحرف والصناعات، والتجارة .
٤. الحياة التعليمية والثقافية .

ويتوافق الحدّ المكاني لهذه الرحلات مع الحدّ المكاني الذي ذكرته سابقاً تحت عنوان (الرّحّالة ورحلاتهم في الجنوب السعودي) .

ويسير الدكتور غيثان في بناء (الرّحلة) في مسارين، هما :

١. الجولات الميدانية في البلد المقصود، ويحرص على وجود الرُّفقة أو الدليل من أهل البلد ذاته، ويسجل مشاهداته، ويلتقي ببعض الأفراد ليسألهم عن بعض ما رآه، أو يسمع منهم بعض الذكريات عن تاريخ وحضارة البلد، وربما يطلعونه على بعض الوثائق، ونحو ذلك مما يُفيد في تدوين الرحلة .

٢. يعمدُ بعد عودته من جولته الميدانية - مُباشرة - إلى التفرّغ لتدوين الرّحلة، ويستعين بالكتب والوثائق ذات الصلة بالبلد الذي رحل إليه .

وتظهـر بعض رحـلات الدكتـور غيثان بمظهـر البحث التاريخي الحضـاري، وذلـك لغلبة أسـلوب المؤرّخ عليـه، ولعل رحلته ذات العنـوان : (منطقة جازان كما سـمعت عنها ورأيتها) أكثر عمقاً وأطول زمناً، بل تتمثل فيها السِّمَات الفنية لأدب الرحلات .

ومـع هذا فـإنّ رحلات الدكتور غيثان ذات فوائد كثيرة، وسـتزيد هذه الفوائد مع تقادم السّـنين، فستصبح مشاهداته في جولاته الميدانية من المصادر التاريخية والحضارية التي لن يعثر عليها الباحث في أي مصدر آخر، وهو الحال الذي يكتنف الكثـير مـن مدونات الرّحالة في الأزمنة السـابقة، إذ نجد فيها مـا لا نجده في أي مصدر آخر .



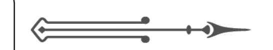
نِطَاق جغرافية كتاب (القول المكتوب في تاريخ الجنوب)
(من عمل الباحث)



القسم الأول

الرحالة ورحلاتهم
في
الجنوب السعودي





فهرس القسم الأول

١- بـلاد القنفـذة
في عيون الرحـالـة المسلمين وغير المسلمين*

* نشر في كتاب :
بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠ - ١٥هـ/ ١٦ - ٢١م) (دراسة تاريخية حضارية) ط١ : ١٤٣٢هـ الرياض ، مطابع الحميضي ، ص ص ١٥٩ - ٢٣٠ .

بلاد القنفذة في عيون الرحالة المسلمين وغير المسلمين



أولاً : تمهيد :

تتميز جزيرة العرب بموقع استراتيجي يربط بين شرق العالم وغربه، لذا كانت مطمعاً لكثير من القوى السياسـية منذ عصور التاريخ القديم(١) .وبعد أن أصبحت العاصمة الأولى للإسلام، وازدهر تاريخها الإسلامي العقدي والحضاري، وصارت بلاد الحرمين قبلة عموم المسـلمين قاطبة، ازداد الاهتمام بها، وصارت جميع قوى الأرض تولي هذه البلاد كبير اهتمام(٢). ولسـنا في هذه الدراسـة بصدد الإسهاب في الطـرق والأهـداف التي جعلت الأمم الإسـلامية وغير الإسـلامية تحرص على الاتصال بهذه الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام حتى يومنا الحاضر، وإنما الذي سـوف نركز عليه هو الرحلات ودور الرحالين في زيارة ودراسـة نواحي عديدة من جزيـرة العرب، وحتى نكون عمليين وعلميين فدراسـتنا سـوف تنصب على بعض الأجـزاء التهامية الواقعة على سـاحل البحر الأحمر الشـرقي وعلى وجه التحديد علـى منطقة القنفذة الممتدة من جنوب الليث إلى بلدة البرك جنوباً مشـتملة على الأجزاء الداخلية لهذه المنطقة التي تمتد شـرقاً إلى سفوح جبال السروات الغربية الواقعة إلى الشمال من تهامة عسير(٣).

سوف نستعرض معظم الرحالين المسلمين وغير المسلمين الذين ذكروا أو جاؤوا إلى بلاد القنفذة منذ القرون الإسـلامية الأولى حتى عصـرنا الحديث والمعاصر، وبعد الاطلاع في سـجلات ومحتويات المكتبات العربية والأجنبية اسـتطعنا حصـر سـبعة عشـر رحالة لهم كتب أو دراسـات أشـاروا فيهـا إلى منطقـة القنفذة منذ القرن (٥هـ/١١م) حتى القرن (١٤هـ/٢٠م)، ولن نسهب في دارسة هذه الكتب أو

---

(١) للمزيد عن أهمية الجزيرة العربية قبل الإسـلام، انظر: جواد على . المفصـل في تاريخ العرب قبل الإسـلام (بغداد : جامعة بغداد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ج١، ص ٥٢٩ وما بعدها . ج٢، ص٥-٧٣، سباتينو موسكاتي . الحضارات السامية القديمة . ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، د . ت) .

(٢) من يستقرئ عصور التاريخ الإسلامي يجد جميع الأمم والدول الإسلامية التي كانت في شرق العالم وغربه كانت تحرص على الاتصـال بالحرمين وأهله، ناهيك عن عموم المسـلمين في أقطار الأرض فقلوبهم تهوي إلى بلاد الحرمين لاحتضانها الكعبة المشرفة وقبر الرسول الكريم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(٣) وبخاصـة بلاد العرضـيتين (الجنوبية والشـمالية) التي تقع عند سـفوح السـروات الغربية لبلاد خثعم وشمران وبلقرن. وللمزيد انظر: ابن جريس . القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) ج٢، ص ٣٩٨ وما بعدها .

الدراسات وتحليل كل ما ذكرت أو أشارت إليه عن القنفذة، لأن البعض من هؤلاء الرحالين قد أورد الكثير من التفصيلات عن هذه الناحية، وبالتالي إذا أطلقنا العنان لأنفسنا فإننا قد نخرج دراسة مطولة تقع في مئات الصفحات، وحتى لا نسير في هذا الاتجاه فإننا سوف نركز البحث على إشارات نذكر فيها تراجم موجزة لكل رحالة، ثم نشير إلى أهم ما اشتملت عليه رحلته عن منطقة القنفذة .
وقد استقر أمرنا على هذا الرأي لعدة أسباب منها :

١. أن هذا العمل العلمي بحث مختصر سوف ينشر في مجلة علمية أو كتاب أكاديمي علمي، ومن ثم فلا بد من الالتزام بصفحات محددة لهذا الغرض.

٢. التنبيه إلى أهمية بلاد القنفذة عبر التاريخ الإسلامي الوسيط والحديث والمعاصر، والإشارة إلى أنها كانت تحتضن الكثير من المستوطنات البشرية، وإن البعض من الرحالة وأرباب القلم كانوا يأتون إليها، ويتجولون في أرضها ويكتبون تاريخها .

٣. الإشارة إلى الكثير من الأمور والقضايا والتواريخ السياسية والحضارية التي دونها هؤلاء الرحالة . وهذا مما يفتح أبواباً للباحثين أو طلاب وطالبات برامج الدراسات العليا في جامعاتنا فيتخذوا من هذه الموضوعات أو الأحداث عناوين لأطروحاتهم العلمية، وعندئذ يتوسعون في دراسة ما أشرنا إليه، أو يصححون ما وقع فيها الرحالةً أو وقعنا فيه من قصور وأخطاء علمية أو منهجية، ومن ثم يتم إثراء الساحة العلمية والفكرية والثقافية في بلادنا [1] .

٤. لا ندعي أننا أحطنا بمدونات كل العلماء والرحالين الذين زاروا القنفذة، وإنما نتطلع إلى من يصحح أو يستكمل ما وقعنا فيه من أخطاء، أو ما لم نطلع عليه ونستطيع إدراجه ضمن هذا البحث . ونحن على يقين أن هناك أدباء ورحالة جابوا منطقة القنفذة ولم نعثر على أعمالهم العلمية حتى الآن، ونتمنى أن يأتي بعدنا من يدرس هؤلاء الرحالين دراسة مستفيضة،

---

(١) بلاد القنفذة من المناطق البكر إن صح التعبير في باب الدراسة والبحث، ومن يتخذها مجالاً لدراساته التاريخية والأدبية والحضارية والفكرية فإنه - بدون شك - سوف يجد مجالاً جيداً وجديراً بالبحث والتقصي والدراسة .

ويستكمل أعمال جميع العلماء والرحالة الذين لم يردوا في هذا العمل العلمي[١].

ثانياً : التعريف بالرحالة ومدوناتهم :

١ ـ ناصر خسرو (ق ٥ هـ / ١١ م) :

هو معين الدين ناصر خسرو بن حارث القبادياني المروزي، أحد أشهر الرحالة المسلمين في القرن (٥هـ/١١م)، ولد في بلدة قباديان من نواحي بلخ عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م) وتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) في أقصى بلاد الأفغان عند حدود كشمير[٢].

نشأ أول حياته نشأة عريقة في أسرة فارسية، حفظ القرآن، وتعلم شيئاً من الخطب والأشعار العربية، ثم آلت به الأمور إلى العمل في بلاط الدولتين الغزنوية والسلجوقية، وكان معظم عمله في دواوين هاتين الدولتين[٣]. خلف هذا الرحالة الكثير من الأعمال العلمية وأغلبها ضاع، أما الذي وصل إلينا فهي قليلة جداً، مثل: زاد المسافر : وهو من أمهات علم الكلام في المذهب الإسماعيلي، وكتاب الديوان، وقد جمع فيه الكثير من شعر شعراء الفرس في القرن (٥هـ/١١م)[٤]، وكتاب سفرنامه، وهو الرحلة التي قام بها لعدة سنوات (٤٣٧ـ٤٤٤هـ/٩٤٨ـ١٠٥٢م)، وقد ذكر فيها الكثير من النواحي التي زارها في البلاد الشرقية من الخلافة العباسية، وبقايا الغزنويين في القارة الهندية، وبلاد الأفغان اليوم، وأشار في حديثه إلى أجزاء من آسيا الصغرى، والشرق الأدنى، ونواح من العراق وإفريقيا وبخاصة بلاد تونس ومصر، كما زار الجزيرة العربية في عام (٤٤٢هـ/١٠٥٠م)، وتنقل ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف واليمامة والأحساء والبحرين وغيرها[٥].

---

(١) هناك فقهاء وأدباء وعلماء وساسة ورجال دولة عرفوا أو اجتازوا منطقة القنفذة، وقد يكون لهم مدونات أو أقوال وأشعار متناثرة في كتب التراث، حبذا أن يأتي من أبنائنا وطلابنا من يبحث هذا الموضوع بطريقة علمية أكاديمية مستوفاة .

(٢) معين الدين ناصر خسرو . سفر نامة (رحلة ناصر خسرو) القبادياني ترجمه من الفارسية إلى العربية أحمد خالد البدلي (الرياض : عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) . انظر: مقدمة المترجم، ص ٥ .

(٣) (١) المصدر نفسه، ٥ ـ ٦ .

(٤) (٢) المصدر نفسه، ١٧ ـ ٢١ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٩ وما بعدها .

وهذا الرحالة لم يزر بلاد القنفذة، ولم يتحدث عنها بشكل مباشر، لكنه أشار إلى المنطقة التهامية الممتدة من مكة المكرمة إلى عدن، والتي تقع منطقة القنفذة ضمن هذا الجزء الساحلي، فقال : " أرض العرب تمتد من الكوفة إلى مكة، أما من مكة إلى عدن فيسمى أرض حمير "[(١)] .ويذكر أن سكان هذه البلاد قبائل صحراوية، وهم أهل إبل وماشية ومساكنهم الخيام [(٢)] . ويقسم هذا الرحالة بلاد حمير التي أشار إليها في رحلته إلى ثلاثة أقسام: الأول : يقع على ساحل البحر الأحمر، وذكر أن به مدناً عامرة . والثاني: نجد ونواحيه، وهي شديدة البرودة وبها مضايق جبلية وحصون محكمة . والثالث : شرق تهامة ويوجد به قرى كثيرة، وبواد لا تدخل تحت الحصر، وذكر أن في كل بادية حاكماً مستبداً لا يخضع لأي سلطة مركزية، وتكثر في هذه النواحي السرقة والنهب، وبها أعداد كثيرة من السكان[(٣)] .

ومن هذه الإشارات المختصرة لهذا الرحالة، خرجنا بالعديد من النتائج والآراء :

أ ـ قدم هذه الرحلة التي حفظت الكثير من التفصيلات القيمة عن الجزيرة العربية وبخاصة بلاد الحجاز ونجد والبحرين، أما ما أشار إليه من البلدان الواقعة جنوبي الطائف ومكة المكرمة، فمن الثابت أن خسرو لم يزر هذه الديار وإنما جمع معلوماته عنها من بعض الحجازيين والنجديين، الذين لم يكونوا هم دقيقين في رواية معلوماتهم [(٤)] . ومن ثم فقد وقع في أخطاء عديدة، لأنه خلط في وصفه لهذه البلاد بين السهول الساحلية والمناطق المرتفعة من بلاد السراة وما يأتي شرقها[(٥)] ، وقوله بلاد حمير من مكة إلى عدن فهذا غير صحيح، لأن المتأمل في أنساب سكان هذه البلاد يجدها خليطاً من القبائل العدنانية والقحطانية، وليست جميعها حميرية يمانية كما ذكر خسرو[(٦)] .

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ١٤٢ .

(٥) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ بلاد تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، انظر: كتابي ابن جريس عن هذه البلاد من القرن (١ ـ ١٠هـ/ ٧ ـ ١٦م) . جزءان .

(٦) المصدر نفسه .

ب ـ نتفق مع هذا الرحالة في وصفه بعض الأجزاء السروية أو الشرقية من بلاد تهامة والسراة، وبخاصة ما يتعلق بشدة برودة جوها في الشتاء، أما الصيف فجوها لطيف ومعتدل[١]. وما يوجد بها من حصون وقلاع حصينة ومضايق جبلية، أما هيمنة القبائل على هذه النواحي، فالشيوخ والأعيان في السابق كانوا أصحاب الحل والعقد في بلادهم [٢].

ج ـ لم يرد عند خسرو أي إشارة لأي جزء من بلاد القنفذة وبخاصة مواطنها القديمة مثل: حلي، ودوقة، وعشم، والبرك، وضنكان، وقنونا، ويبة وغيرها[٣]، لكنها ـ في اعتقادي ـ ليست بعيدة في تركيبتها السكانية عما كان عليه غيرها من البطون والعشائر في البلاد الشرقية أو السروية . ويبدو لو قدر لهذا الرحالة القدير زيارة جنوبي الطائف ومكة بما فيها موضوع بحثنا (القنفذة) فإنه بدون شك سوف يكون حفظ لنا الشيء الكثير من تاريخ وحضارة هذه الديار.

٢ ـ ابن بطوطة (ق٨هـ/١٤م) :

هو محمد بن عبد الله اللواتي، ويكنى بأبي عبد الله، وابن بطوطة شهرة اشتهر بها هو وأسرته . ولد في مدنية طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب عام (٧٠٣هـ/١٠٣٤م) وتجول في العديد من الأقطار في قارات: آسيا وأوربا وإفريقيا، وزار الجزيرة العربية عدة مرات، وحج ست مرات ومات عام(٧٥٦هـ/١٣٥٥م)[٤].

وفي إحدى رحلاته من بلاد السودان إلى بلاد اليمن نجده ينزل في بلاد حلي ابن يعقوب بمنطقة القنفذة عام (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، ويدون لنا معلومات قيمة نادرا لا نجدها في أي مصدر آخر، شرح فيها بعض ما شاهده في بلاد حلي، فقال : " وبعد ستة أيام من خروجنا من جزيرة سواكن وصلت مدينة حلي، وتعرف باسم حلي

(١) مشاهدات الباحث وتنقله في أرجاء هذه البلاد خلال الخمسة العقود الماضية

(٢) هذا ما وجده الباحث في مئات الوثائق التي يقتنيها وجمعها عن هذه البلاد .

(٣) للمزيد عن هذه المواضع انظر القسمين الأول والثاني في هذا الكتاب .

(٤) استغرقت رحلات ابن بطوطة حوالي خمس وعشرين سنة، ووصلنا كتابه الرحلة المسمى : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . حقق أكثر من مرة، وترجم إلى العديد من اللغات، واعتمدنا على طبعة (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) (تحقيق علي المنتصر الكتاني)، (انظر : الجزء الأول من كتاب الرحلة)

ابن يعقوب، وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديماً، وهي كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وكنانة [١]، وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين، لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط، ولم أر بها حين لقائي له شيئاً، إلا إبريق الوضوء، وسفرة من خوص النخيل فيها كسرة شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر، فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك، ويسمع به أصحابه فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء، وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب، وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقعه للتنفل، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة، فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل، ثم انصرفوا، ويعودون في أول الثلث الثالث إلى المسجد، فيتهجدون إلى الصبح، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق، فينصرفون بعد صلاتها، ومنهم من يقيم إلى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد، وهذا دأبهم أبداً، ولقد أردت الإقامة معهم باقي عمري ولم أوفق لذلك، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه[٢] .

وسلطان حلي، عامر بن ذؤيب، من بني كنانة، وهو من الفضلاء والأدباء والشعراء، سافرت في حجته من مكة إلى جدة، وكان قد حج في سنة ثلاثين[٣]، ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني، وأقمت في ضيافته أياماً ..." [٤] .

وفي هذه الخلاصة نجد هذا الرحالة البارع يشرح لنا بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي كانت سائدة في بلاد حلي بن يعقوب، بل أشار إلى أمير تلك البلاد ابن ذؤيب الذي ذكر أنه كان على مستوى جيد من الأخلاق، بل كان من العارفين بعلوم الشعر والأدب [٥].

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن حلي بن يعقوب انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب .

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ٢٧١ .

(٣) أي عام (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) .

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج ١، ٢٧١ .

(٥) وبلاد حلي بن يعقوب، التي هي جزء من منطقة القفنذة اليوم، كانت على مستوى جيد من الرقي والتحضر، وقد حلت محلها بلدة القنفذة منذ القرن (١٠هـ/١٦م) . للمزيد من التفصيلات انظر القسم الثاني من هذا الكتاب .

٣ـ السلطان الملك المجاهد الرسولي (ق٨هـ/١٤م) :

رحلة السلطان الملك المجاهد الرسولي من تعز إلى مكة المكرمة في الفترة الممتدة من شهر شوال (٧٤٢هـ إلى شهر صفر ٧٤٣هـ/١٣٤١ـ١٣٤٢م)[١]. والسلطان الأشرف أبو العباس الرسولي، قام بتدوين رحلة السلطان الملك المجاهد[٢]، وضمنها كتابه : **فاكهة الزمان ومفاكهة الآداب والفتن في أخبار من ملك اليمن**[٣].

هذه الرحلة استغرقت (٥٩) يوماً من تعز إلى مكة ذهاباً وإياباً براً، وقد ورد في ثنايا الرحلة الكثير من المعلومات عن طبيعة المحطات الرئيسة على الطريق الساحلي الذي يربط بين اليمن والحجاز، وهناك إشارات أخرى لبعض الشخوص الذين رافقوا أو قابلوا السلطان في سفره[٤].

رحلة السلطان في بلاد القنفذة ذكر المؤلف العديد من المحطات التي مر عليها الملك المجاهد، مثل : حمضة، وذهبان، والدبسا، وحلي بن يعقوب، ودوقة حتى وصل إلى الليث ثم ميقات أهل اليمن يلملم (السعدية)[٥]. وفي العودة أشار إلى قنونا التي لم يشر إليها في الذهاب[٦].

---

(١) السلطان الملك المجاهد سيف الإسلام أبو الحسن علي بن الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي الرسولي، ولد سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) أحد حكام الدولة الرسولية، التي حكمت اليمن أكثر من قرنين من الزمان (٦٣٠هـ ـ ٨٥٨هـ /١٢٣١ـ١٤٥٤م) . وتولى السلطة أكثر من أربعة عقود (٧٢١ـ٧٦٤هـ/ ١٣٢١ـ١٣٦٢م) . للمزيد انظر: كتاب العقود اللؤلؤية، للخزرجي ج١، ص٢ وما بعدها، العقد الثمين للفاسي ج٦، ص ١٥٨ـ١٧٤ .

(٢) هو السلطان الأشرف أبو العباس بن الأفضل العباس بن المجاهد علي بن المؤيد بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي الرسولي ولد سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) تولي السلطة بعد وفاة ولده الأفضل ودام حكمه حوالي (٢٥) سنة (٧٧٨ـ ٨٠٣هـ/١٣٧٦ـ ١٤٠٠م) .انظر: با مخرمة . تاريخ ثغر عدن . تحقيق أوسكر لوففرين (بيروت : منشورات المدينة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ج٢، ص٢٠ .

(٣) للمزيد انظر: محمد بن عبد الرحمن الثنيان . (رحلة السلطان الملك المجاهد الرسولي من تعز إلى مكة المكرمة . مجلة الدارة . العدد (١)، سنة (٢٥) (١٤٢٠هـ) ص ١١٧ـ ١٨٠ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٠ .

(٥) هذه المواقع لازالت تحمل الأسماء نفسها حتى اليوم، وتقع في البلاد الممتدة من القحمة جنوباً إلى السعدية (يلملم) جنوباً . مشاهدات البلاد لهذه المواقع في الفترة الممتدة من (١٤٢٤ـ١٤٣١هـ/٢٠٠٣ـ٢٠١٠م) . للمزيد انظر: البلادي، ص ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٦ـ ٢٢٩، ٢٣٣ . محمد بن بليهد . صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج ٣، ص ٩٣ .

(٦) المصادر نفسها .

وهذه الرحلة في مجملها تشير إلى تفصيلات قيمة على طول الرحلة من تعز إلى مكة، إلا أننا لا نجد أي إضافات ذات قيمة علمية فيما يخص بلاد القنفذة، اللهم إلا ذكر أسماء بعض المحطات ـ كما أسلفنا ـ، ومثل هذه الأسماء وردت بشكل أدق وأفضل في كثير من كتب التراث الإسلامي المبكر وبخاصة كتب الجغرافيا والرحلات[١]. ويبدو أن صاحب الرحلة كان يتوقف في بعض المحطات، مثل : حلي بن يعقوب ودوقة وما جاورها فيوزع بعض الهدايا والهبات، لكن لا نعلم هل كان هذا التوزيع يشمل علية القوم في تلك النواحي فقط، أم أن عامة الناس كان ينالهم نصيب منها . ولم نجد لصاحب الرحلة أي جهود تاريخية أوحضارية تذكر مع أهالي بلاد القنفذة[٢] .

٤ ـ العباس بن علي الموسوي (ق١٢هـ/١٨م) :

العباس بن علي بن نور الدين بن أبي الحسن المكي الحسيني الموسوي، ولد وعاش في مكة المكرمة، رحل سائحاً في العراق والهند واليمن من سنة (١١٣١ - ١١٤٢هـ/ ١٧١٨ - ١٧٢٩م)، وانتهى به المطاف في التردد بين بندر المخا ومكة، ثم استقر في المخا سنة (١١٤٥هـ/١٧٣٢م)، وانصرف إلى جمع ما لديه من أوراق وسجلها في رحلته المسماة : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، في مجلدين انتهى منه في (٤) شوال (١١٤٨هـ/١٧٣٥م)، وجعله هدية إلى والي بندر المخا[٣].

وفي شهر شوال (١١٤١هـ/١٧٢٨م) انفرد الموسوي بوصفه الطريق من الطائف إلى تهامة[٤]. وأشار إلى بعض النواحي في تهامة غامد وزهران، مثل قرية الخليف[٥]، ثم سار إلى منطقة القنفذة فذكر بلدتي دوقة، و القنفذة، فقال : " ثم

(١) لمزيد من التوضيحات عن أسماء محطات الحج والتجارة على الطريق الساحلي بين اليمن والحجاز، انظر: غيثان بن جريس " بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل (ق٣ـق٨هـ) . مجلة المؤرخ العربي . العدد (٢) . المجلد (١) مارس (١٩٩٤م)، ص ٧٣ وما بعدها . وهذا البحث تم نشره في كتاب للمؤلف . دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء الأول، ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢) الثنينان، " رحلة السلطان المجاهد ..." ص ١٢٨ وما بعدها .

(٣) للمزيد انظر: خير الدين الزركلي. الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، ط٦، ج٣، ص٢٦٣ .

(٤) انظر : ناصر علي الحارثي . موسوعة الآثار الإسلامية في محافظة الطائف من خلال كتابات المؤرخين والرحالة (الطائف : دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ص ٢١.

(٥) الخليف : بلدة قديمة أثرية في محافظة قلوة بمنطقة الباحة، وتقع إلى الناحية الشمالية الغربية بحوالي خمسة كيلومترات من مدينة قلوة، المركز الإداري للمحافظة المنسوبة إليها (محافظة قلوة) . للمزيد انظر، أحمد عمر الزيلعي . الخلف والخليف : آثارهما ونقوشهما الإسلامية (الرياض : مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٧هـ) ص ١١، وما بعدها .



خرجنا من دوقة في ساعة مسعدة، ودخلنا القنفدة [١]، فرأيتها قرية الفقر بها قاطن" ثم استرسل ما شاء في إسباغ أسوأ الأوصاف عليها، وأورد من شعره فيها، قوله :

لما أتيت القنفدة	تباً لها من قنفدة
رأيتها بُلَيدةً	من كل خير مُبعَدَة
ثلاث أيام مضت	بحالة مُنكّدة
مكثتُ فيها طاوياً	والجوعُ نار موقدة
ولم أجد فيها فتى	ذا همة مسددة
إلا الوزير الشهم من	شاد العلى وأيده
(رضوان) [٢] مأوى الضيف ما	أعزه وأرشده
فهو الذي أحلَّني	جنته المخلده
من بعد نار مالك	أعني بلاد القنفدة
أبقاه رب العرش في	رياسة مؤبّدة
وحفّه بلطفه	طول المدى وأسعده [٣]

وإذا وقفنا أمام هذا الشعر الذي قاله الموسوي في بلدة القنفذة وأهلها، نجد فيه مبالغة وتجاوزاً في بعض الكلمات والعبارات التي أوردها، ومن يقرأ ويتعرف على ديدن الموسوي وهواه يجده رحالة يتنقل في الأقطار بحثاً عن العطايا والهبات، ومن لا يحسن استقباله يصمه بأقذع الأوصاف، ولا نستبعد أنه لم يجد عند أهل القنفذة ما كان يتطلع إليه . نعم إن الناس جميعاً آنذاك كانوا في فقر وجوع وضيق ذات اليد، لكن سكان القنفذة مسلمون عارفون بالقيم والأعراف وحقوق الضيافة، وهذا فعلاً ما وجده عند مضيفه الوزير رضوان الذي أشار إليه [٤].

---

(١) أورد الموسوي اسم القنفدة بالدال المهملة غير مضبوطة، ولكن السجعة والقافية تدل عنده بالدال المهملة، انظر: حمد الجاسر " مع الموسوي المكي في رحلته (٨) : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس " مجلة الفيصل . العدد (٢٣٠) السنة (٢٠) (شعبان /١٤١٦هـ)، ص ٣٥ ـ ٣٧ .

(٢) لم نجد ترجمة لهذا الرجل (رضوان) ، الذي سماه الموسوي الوزير ، ولا نعلم لماذا اختار هذا اللقب، فهل كان أميراً لبلدة القنفذة ؟ ولا نعتقد ذلك ، لأنه لو كان كذلك لسماه بلقب الأمير بدلاً من الوزير . وربما كان من أعيان الناس وأغنياء القنفذة . ويبدو من اسمه أنه من أصول تركية ، لأن اسم (رضوان) يكثر بين الأتراك العثمانيين .

(٣) للمزيد انظر : الجاسر " مع الموسوي ... " ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٧ .

٥- يحيى بن المطهر (ق ١٢-١٣ هـ / ١٨-١٩م) :

يحيى بن المطهر بن إسماعيل بن يحيى بن الحسين، ولد في صنعاء عام (١١٩٠هـ/١٧٧٦م)، تربى في كنف والده وأخذ العلم على أيدي الكثير من مشائخ اليمن، ومن أبرزهم العلامة محمد بن علي الشوكاني[(١)] . اشتغل بالدرس والتدريس حتى تبحر في العلوم، له العديد من المؤلفات القيمة، وتوفي عام (١٢٦٨هـ/١٨٥١م) [(٢)] .

رحلة هذا الرحالة مدونة في كتابه: **بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام**، ويعد من نوادر المخطوطات وأنفسها في مجال الرحلات[(٣)] التي خلفها علماء اليمن، وهو رحلة بدأها ابن المطهر من صنعاء في شهر شوال (١٢١١هـ/١٧٩٦م)، وسار على الطريق البري حتى وصل الحديدة، ثم ركب البحر إلى جزيرة كمران ثم إلى القنفذة والليث[(٤)]، وأخيراً جدة[(٥)]. تحدث هذا الرحالة عن الموانئ التي مر عليها من الحديدة إلى جدة، وعند وصوله إلى بلدتي القنفذة والليث، لا يذكر تفصيلات كثيرة عنهما، اللهم إلا إشارته إلى نزولهم من مركبهم في البلدتين كي يتزودوا ببعض المؤن كالطعام والشراب، وشاهد العديد من الجمالة الذين كانوا ينتظرون المسافرين بالبحر كي ينقلوهم براً إلى مكة . ويذكر أن سمعة الجمالة كانت سيئة لما يقومون به من ابتزاز للمسافرين، وأحياناً يعتدي اللصوص وقطاع الطرق على الجمّالة والمسافرين الذين يسافرون على الطريق الساحلي البري إلى مكة، ولهذا فضل الذهاب بالبحر من القنفذة إلى جدة بعد أن كاد يترك البحر ويذهب مع الجمالين براً [(٦)]. ولم يفدنا هذا الرحالة كثيراً عن أوضاع التاريخ الحضاري لبلاد القنفذة، مع أنها كانت من الحواضر الهامة آنذاك وبخاصة للقوى السياسية في كل من الحجاز وعسير ونجد والعثمانيين وغيرهم[(٧)] .

---

(١) محمد علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ/١٧٦٠-١٨٣٤م) من كبار علماء اليمن عاش في صنعاء وتولى القضاء فيها، ومات حاكما بها، وله العديد من المؤلفات القيمة مثل: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، والبدر الطالع، وفتح القدير وغيرها . للمزيد انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦ ،ص٢٩٨ .

(٢) للمزيد انظر : عبد الله محمد الحبشي . الرحالة اليمنيون : رحلاتهم شرقاً وغرباً (صنعاء : مكتبة الإرشاد، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص ٨٣-٨٤ .

(٣) لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً حتى الآن .

(٤) الليث / بلدة تقع على ساحل البحر الأحمر، إلى الجنوب الغربي من مكة بحوالي (١٨٠) كيلاً . للمزيد انظر: ابن بليهد، صحيح، ج ٢، ص ٩٧، البلادي . بين مكة واليمن، ص٣٠-٤٤ .

(٥) الحبشي، الرحالة، ص ٨٦-١٠٠ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٩٥-١٠١ .

(٧) للمزيد عن تاريخ القنفذة السياسي والإداري خلال العصر الحديث انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب.

٦ ـ محسن بن عبد الكريم إسحاق (ق١٢ـ١٣هـ/ ١٨ـ١٩م):

هو الأديب محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم، ولد في صنعاء عام (١١٥١هـ/١٧٣٨م)، وأخذ العلم من لفيف من العلماء في اليمن. ذكره الإمام الشوكاني وأثنى عليه، فقال: "روي له شعر، فلم تمر إلا أيام قلائل حتى ظهر له النظم الجيد، وما زال ينمو نمو الهلال حتى بلغ أعلى المراتب"[١]، وتوفي عام (١٢٦٦هـ/١٨٤٩م)[٢].

خرج ابن عبد الكريم من صنعاء في رحلة بغرض الحج يوم الخميس (٢١) شوال (١٢٣٧هـ/١٨٢١م)، فذهب مع رفاقه براً إلى الحديدة، ثم ركبوا البحر حتى نزلوا في ميناء القنفذة، وساروا براً حتى دخلوا مكة المكرمة[٣]

ومعظم تفصيلات رحلة هذا الرحالة قالها في أرجوزة شعرية جيدة شرح فيها الكثير مما شاهد براً وبحراً من صنعاء إلى مكة والمدينة. وذكر ما عانوه في البحر من متاعب وأهوال، وكيف غمرتهم الفرحة عندما نزلوا على اليابسة في القنفذة[٤]، وسرد بعض التفصيلات عن أحوالهم وما رأوا في منطقة القنفذة حتى بلدة الليث، وقد أدرج ذلك شعراً، فقال:

فأجمع الرأي بلا مجادل ... على السلوك من طريق الساحل
به قصدنا للخروج(القنفذة) ... وقد (زبلنا)[٥] تعباً و(قلفدة)[٦]

ودع الركاب البحر غير آسفين وأخذوا يعدون العدة لقطع الفيافي والرمال، وكان لابد لهم من سفن أخرى تقلهم هي سفن الصحراء (الجمال)، وكانت الجمال في تلك اللحظات من العملة الصعبة حيث يبلغ كراؤها (إيجارها) مبلغه من ارتفاع فاحش فلا حيلة ولا مناص للجميع إلا الاستسلام لأصحابها فيما طلبوه، فقال:

فأطبقوا على الخروج عنها ... يوم الخميس لا عدول عنها

---

(١) الحبشي، الرحالة، ص١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٣٣ـ ١٥٠ .
(٤) المصدر نفسه . للمزيد انظر: اسماعيل جغمان ، رحلة الحج من صنعاء إلى مكة المكرمة . كتاب الدارة (الكتاب التاسع)، تحقيق محمد الثنيان، ص ١٦ .
(٥) زبل : ضاق وضجر.
(٦) قلفدة : انتكاس الحال .

في يوم عشرين لشهر القعدة مستصحبين للطريق العدة
ثم اكتروا سبعاً من الجمال تحملهم في الخبت والرمال
بأربعين فوق مئتين كالكرا من القروش المين[١]

وقبل الرحيل من ميناء القنفذة يلقهاهم هناك عاملها والكاتب بها ويجتمعون هناك بأحد الصوفية من السودان من أسرة آل المرغني .

وجاءنا وزيرها والكاتب وجملة ممن بها يناسب
ثم أتى فيها حفيد المرغني عثمان وهو بالتلاقي يعتني
في بلد السودان كان غائباً يسيح فيها جانباً فجانباً[٢]

ثم يزمع هو ومن معه على الرحيل مواصلاً سيره إلى الأماكن المقدسة وذلك بعد عصر الجمعة والجو ممطر ينذر بتوقف السير لولا حصول لطف من الله عز وجل:

ولم نزل نقطع تلك الأرضا نطلب من أعاننا أن يرضى
وكانت الأمطار متتابعة لولا حصول اللطف كانت قاطعة
كان الشداد بعد عصر الجمعة والسير دفعة عقيب دفعة[٣]

وتتابع المراحل فيصبحون في الحسبة (الأحسبة) بعد سير الليل بطوله ثم النهار ويأتي عليهم الظهر وهم في "دوقة" ، وهنا يستحسن الجماعة المبيت بها فما يكادون يستقرون بها حتى تهطل السماء عليهم بأمطارها الغزيرة :

حتى أتينا بعد فجر (الحسبة) وهي محل بالزروع خصبة
وأول الظهر رحلنا العبسا واستحسنوا في (دوقة) العرسا
وبعد حط الرحل والأثقال أرخت علينا سحبها العزالى[٤]

يبيتون ليلها وردحاً من يوم الظهر في (دوقة) ، وعند الظهيرة وقد بردت الشمس يواصلون العزم في سير دقيق حتى (يرخي عليهم الليل سدوله) ، وقد أنذرت السماء بأمطارها ، فهنا سكنوا تحت ظلال أشجار (المرخ) الوارفة :

---

(١) انظر: الحبشي ، الرحالة ، ص ١٤٢ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .
(٤) المصدر نفسه .

ثم رحلنا بعد ظهر الأحد نطوي بحمد الله كل فدفد
وبعدما أرخى الدجا سدوله أرخى السحاب فوقنا سيوله
فنزلوا تحت غصون المرخ وعقد غيث السحب فيه مرخي
والكل في ظلاله قد قالا وزاده بثوبه ظلالاً(١)

لكن الحال لم يستمر لهم طويلاً تحت ظلال المرخ وقد خشي الركب من تزايد الأمطار وحدوث السيول فعزموا بهمة كبيرة لقطع الطريق حتى يصلوا إلى أقرب بلدة، فيصلوا إلى بلدة (الشاقة) .

وها هنا قاموا لقطب الشدة يحاذرون مطراً وشدة
فلم نزل حتى وردنا(الشاقة) وما رأينا قط حالا شاقة (٢)

وفي هذه البلدة تناخ الجمال وقد وصلوها بعد صلاة العصر فاستكن القوم وذهبوا إلى مضاجعهم مبكرين حتى لا تفوتهم صلاة الصبح غداً فلا يأتي وقت الضحى إلا وهم في سيرهم المتتابع :

ثم حططنا الرحال بعد العصر ثمة نمنا لصلاة الفجر
والسير قد كان إلى وقت الضحى والكل منا بالمقام فرحا

إن بعض حالات الرحلة يكون فيها متعة ونزهة خاصة عندما يكون الجو رطباً ملبداً بالغيوم، وهنا يعجب الركب بموضع قد ملئ بأشجار المرخ الوارفة وبجانبه بئر تفيض بالماء العذب فيستقر الرأي على المكوث بهذا الموضع وإعداد الطعام فيه بعد أن ذبحوا تيساً لطعامهم كما يقول شاعرنا:

وجعلوا المرخ لهم ظلالا وذبحوا تيساً لهم أُكالا
وأوجد الله به حسّيا كانت لهم نظافة وريا
ثم تغدينا ونمنا ساعة والظهر صلينا به جماعة(٣)

ويخرج هذا الرحالة من بلاد القنفذة إلى منطقة الليث ثم مكة المكرمة، ومن ثم فقد زودنا بتفصيلات لابأس بها عن بعض الجوانب الجغرافية والاجتماعية

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .

والاقتصادية في بلاد القنفذة، وكنا نتطلع إلى المزيد وبخاصة في الأحوال السياسية والإدارية والحضارية الأخرى [١].

٧ـ إسماعيل جغمان (ق١٣هـ/١٩م) :

هو العلامة إسماعيل بن حسين بن هادي بن صلاح بن يحيى جغمان، ولد في صنعاء عام (١٢١٢هـ/١٧٩٧م) وتلقى العلم على عدد من علماء الزيدية في اليمن، وتولى القضاء للإمام الناصر بن عبد الله بن الحسن بن المتوكل (١٢٥٢ـ١٢٥٦هـ/١٨٣٦ـ١٨٤٠م) [٢].

ويعد إسماعيل جغمان من جهابذة علماء عصره، له العديد من المؤلفات في التاريخ، والعلوم الشرعية، وعلم الكلام، وأدب الرحلات [٣]. وكتابه : **نيل الوطر في ذكر أحوال السفر إلى الحرم الأزهر والنبي الأنور** (ﷺ)، هو الذي وردت فيه تفاصيل رحلة هذا الرحالة من اليمن إلى مكة، بدأها في عام (١٢٤١هـ/١٨٢٥م) وانتهى منها في العام الذي يليه [٤]. والمتأمل في خط رحلة جغمان أثناء الذهاب يلاحظ أنه بدأها بالسفر براً من صنعاء إلى الحديدة، ثم ركب البحر من ميناء الحديدة إلى ميناء القنفذة وأخيراً سافر براً من القنفذة إلى مكة المكرمة [٥].

ومنذ وصوله إلى بلاد القنفذة إلى أن خرج منها نحو ديار الليث، نجده يفصل الحديث عما قابله وشاهده في منطقة القنفذة، فيقول : " وصلنا في البحر إزاء بندر القنفذة وكان قد ضاق بنا الحال، ولم تكن تصبر النفس على البقاء في البحر بحال، يسر الله تعالى أن ساعد أكثر الركاب على الخروج من ذلك المحل، وأجمع الرأي على خروج القاضي عز الدين محمد بن أحمد البهكلي [٦]، صنو مجتهد نجد

(١) للمزيد عن تاريخ القنفذة السياسي والإداري انظر : القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) للمزيد انظر: محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة. نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر الهجري (القاهرة : د. ن، ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠هـ) ج٢، ص ١٧٤ـ ٢٧٩، جغمان، الرحلة، ص ١٧ .

(٣) المصدران نفسهما، للمزيد انظر: الحبشي، الرحالة اليمنيون، ص ١٥١ وما بعدها.

(٤) انظر: جغمان، الرحلة، ص ١٩. وأثناء عودة الرحالة جغمان إلى اليمن خرج من جدة إلى ميناء اللحية بحراً، ثم واصل رحلته براً إلى صنعاء. المصدر نفسه، ص ٢٠ .

(٥) المصدر نفسه، انظر: أيضاً الحبشي، الرحالة، ص ١٥٥ وما بعدها.

(٦) القاضي محمد البهكلي الضمدي الصبياني التهامي ولد عام (١٢٠٩هـ/١٧٩٤م)، ارتحل إلى مدينة زبيد طلباً للعلم، وتولى القضاء في مدينة بيت الفقيه، وكانت وفاته عام (١٢٦٨هـ/١٨٥١م). انظر: زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

وتهامة، ومن هو في غرة العلماء شامة عبد الرحمن بن أحمد [١] . وكان عز الدين صاحب فطنة عظيمة وخبرة بالأمور ومعاودة، وكان خروجه من البندر لينظر بعين البصيرة رخص الكراء وأمن الطريق وتيسير الأمور أو عدمها ؛ فما أفرح علينا من خروجه صبح الجمعة بالخبر السار من رخص الكراء وأمن الطريق وتيسير الجمال وغير ذلك . فخرجنا من القنفذة تلك الساعٍ[٢] بجميع أدباشنا[٣]، ولم يبق في الساعية إلا القليل حتى بلغ جملة الخارجين نحواً من مئة نفر، وخرجت أنا والرفقة المقدم ذكرهم، وقيلنا في القنفذة بقية يومنا ولم أر كيوم الجمعة في البحر شدة كما مضى ولا كيومه في القنفذة سروراً وفرحاً بالخلاص واستئناساً بأكثر المألوف . وبندر القنفذة بندر عجيب له سور مقضض[٤] . أكثره أبواب وبيوت عامرة وخانات[٥]، وسوق وسيع يوجد فيه الحبوب والبُقسماط[٦] وهو طعام يصنع في البلاد الشامية ويحمل إلى كل محل منها، كما يحمل الكعك في بلادنا إلا أنه لا يمكن استعماله إلا بعد ترطيبه بالماء أو المرق .

وأكثر أهل البندر (من) الحضارم، ورتبته وواليه من الأتراك لأنها (محكمة إلى السلطنة)، واسم واليه جمعة، ولعله من عبيد الأتراك، وهو رجل عجيب لاسيما في تأنيس الغريب . وأما سمن البندر المذكور وعسله فأكثر سمنه البحري[٧] وهو ضعيف، وعسله أكثره المستخرج من الرطب، وبه مسجد عظيم ومنبر وخطيب وإمامه مفتي

---

(١) عبد الرحمن البهكلي الشقيق الأكبر لمحمد البهكلي، ولد عام (١١٨٢هـ/١٧٦٨م)، وتلقى العلوم على يدي كوكبة من علماء عصره، تولى الإمارة والقضاء في مدينة بيت الفقيه عام (١٢١١هـ/١٧٩٦م)، وكانت وفاته عام (١٢٤٨هـ/١٨٣٢م) . للمزيد انظر: زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص ٢٣ ـ ٢٥ .

(٢) تلك الساع : أي في الحال واللحظة نفسها، ويدل كلامه على سرعة خروجهم من البحر إلى البر . للمزيد انظر جغمان، الرحلة، ص ٦٥ .

(٣) أدباشنا : أي أمتعتنا وأغراضنا الشخصية، وهذه لفظة عامية في اليمن .

(٤) القضاض : خلطة تتكون من الحصى والنورة والماء، وأحياناً يضاف إليها شحوم الحيوانات، تعمل لطلاء المنشآت المائية بوجة خاص . جغمان، الرحلة، ص ٦٥ .

(٥) الخانات : ومفردها (خان) وهي كلمة فارسية معربة تعني حانوت التاجر، أو نزل المسافرين .

(٦) البقسماط : البسكويت المجفف، الخبز الجاف الخشن، واللفظة مأخوذة من كلمة بكسماط التركية. جغمان، الرحلة، ص ٦٥، الحبشي، الرحالة، ص ١٦١ .

(٧) أي السمن المستورد عن طريق البحر، وهو على عكس السمن البري الذي يأتي إلى سوق القنفذة من الظهير البري للمدينة، والمصطلح معروف في القفنذة، وأحياناً يسمى (السمن البندري) نسبة إلى بندر القنفذة .

البلد، وحاكمه السيد أحمد السقاف من الحضارم[١]. ولعله قد سكن صنعاء وأخذ من طباع أهلها ولطافتهم.

وارتحلنا منه ليلة السبت على جمال لأهل الحسبة[٢] ولم أكد أنظر ألطف منهم في الطباع وحسن المعاملة والمحافظة على الصلوات. كان خروجنا من القنفذة ليلة السبت لعله (١٢) (من) شهر (ذي القعدة)، وكان قد أمرنا على الحجاج السيد أحمد بن قاسم حيدرة لنسبة الشريف وعضده في المشاورة كاتب الأحرف، وفي متاخمة الجمالين والمكاراة وغيرها القاضي عز الدين، ثم شددنا الرحال وخرجنا فلم ندرك باب البندر مفتوحاً وضاق بنا الحال، وبعد أن سلم القاضي عز الدين المتقدم ذكره[٣] للأتراك الذين على الباب نصف ريال وفتحوا لنا باب البندر. ومن هاهنا يسمى القرش الحجر ريالاً[٤]. والقرش عبارة عندهم عن الزلطة[٥] وهي درهم منقوش عليه اسم الضارب ومكانه، وبالقرش الحجر منها في القنفذة ستة عشر، وفي جدة خمسة عشر، وفي مكة أربعة عشر، وفي المدينة ثلاثة عشر، ويزاد وينقص في بعض الأحايين؛ وثمة ضربة ذهب تسمى برغوثة عبارة عن ثلاثة قروش إلا ربع زلط، وضربة أم عشرين وهي عبارة عن نصف الزلطة، وأم عشرة عن ربعها، وأم خمسة عن ثمنها، والديواني فضة خالصة وهو شيء يسير عبارة

---

(١) بنو السقاف من البيوت المشهورة والكبيرة في حضرموت، وينتسب إليهم عدد كبير من الأدباء والعلماء. للمزيد انظر: إبراهيم أحمد المقحفي. معجم البلدان والقبائل اليمنية (صنعاء: د.ن، ١٩٨٨م) ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) الحسبة: يقصد بها وادي الأحسبة وهو من فحول الأودية وينبع من سروات غامد ويصب في البحر الأحمر إلى الشمال من بلدة القنفذة، والأحسبة من ضمن المحطات الرئيسة على الطريق الساحلي بين اليمن والحجاز، انظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) أي عز الدين محمد البهكلي الضمدي التهامي.

(٤) يتحدث صاحب الرحلة عن الوضع النقدي القائم آنذاك في منطقة الحجاز وحواضرها، وركز على مقدار صرف القرش الحجر (المسمى أيضاً قرش حجر، أو ريال حجر، أو ريالاً)، وهو عن العملة النقدية الفضية النمساوية المتصفة بكبر الحجم والمعروف باسم (دولار) ماريا تريزا أو الفرانسي، وقد استمر التعامل بها في بعض نواحي من جنوب ووسط الجزيرة العربية حتى عام (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م). للمزيد انظر: أحمد محمد الجرافي. حوليات العلامة الجرافي (١٣٠٧-١٣١٦هـ/ ١٨٨٩-١٩٠٠م)، ص ١٠٧، وهامش رقم (٢٨).

(٥) الزلط / لفظة يمنية دارجة حتى الآن ويقصد بها المال أو الفلوس والثروة. كما تعني لفظة الزلط أو الزلطة: العملة المساوية الواحد بالمئة من الريال. أما الريال فلفظة إسبانية، وهو عبارة عن عملة فضية فرنسية تم التداول بها في بلاد اليمن منذ بداية القرن العشرين (١٩١٨م) عندما استبدلت بـ (دولار) ماريا تريزا الذي عرف في اليمن بالريال الفرنسي، أو ريال فرنساوي أو فرانصي. جغمان، الرحلة، ص ٦٧.

عن ربع عشـر الزلطة، والأرباع الفرائص[١] كثيرة يتعامل بها، والزلط أنفق منها، وثمة ضـربة زلط كبار جيدة الفضـة تباع الواحدة منها بثـلاث زُلط من النحاس، وتجد الصـيارفة كثيراً في الأسـواق تأخذ ما أردت منهم . وهذا عارض من القول، ثم كان السـفر والرحيل بقية ليلتنا إلى آخر صـبح يوم السـبت فوصلنا الحَسَبَة[٢] بعد مشـقة السـفر، وهان عندنا ذلك بالنظر إلى ما كنا عليه في البحر فوصـلناها ذلـك الوقت . وكان قد شـق بنا بطء الغداء[٣] لأنها كانـت أول المراحل في البر، لم يتفطن الأصـحاب شيئاً من موجودنا مثل الكعك[٤] والتمر وإنما هو في الجوالق[٥] وكأنـه عند الاحتياج إليه في السـفر أبعد بعيد، وبعد ذلك توسـلناه وكنت أجعله في كيـس وآخذه معي حتى إذا ركبت جعلته على ظهـر الجمل فإذا احتجت إليه أخذت منه، وينبغي لكل أحد استصـحاب شـيء من ذلك وأن لا يخرج من المحط الأول إلا وقـد تنـاول من الطعام ما حضـر عنده، ولا يغتر بقرب المرحلـة فلاختلاف الديار تأثير زيادة في الإضرار ومعاشرة الجمالين وإتحافهم، فإني كنت لا آخذ من الكيس المذكور لنفسـي شـيئاً إلا وقـد أعطيت الجمال منـه قبل ذلك . وقيلنـا ببئر بقرب الحَسَبَة[٦] تحت أشجار مدوحة هنالك إلى بعيد عصر يومنا وارتحلنا نحو دَوْقَة[٧] .

ووصلنا دوقة ثلثي ليلة الأحد فعرسنا[٨] بالقرب من سوقها المشهور تحت دوحات كبار، وبتنا بقية ليلتنا وأصـبحنا بذلك المكان . وكان اليوم يوم السوق المذكور رأينا

---

(١) الفرائص : نسبة إلى الفرنسي (الفرنساوي) .

(٢) الحَسَبَة : أي بلاد أو وادي الأحسبة .

(٣) الغداء : قصد صاحب الرحلة وجبة الإفطار، ويمكن أن تطلق اللفظة نفسها أيضاً على وجبة منتصف النهار.

(٤) الكعـك : فطـيرة تعمل من الطحين والبيض والسـمن، وأحيانـاً تطلى ببذور حب الكمـون . انظر جغمان، الرحلة، ص ٦٩، الحبشي، الرحالة، ص ١٦٢ .

(٥) الجوالق : كلمة فارسية معربة، وهي من أوعية حفظ الحاجيات .

(٦) الحسبة : أي الأحسبة .

(٧) دوقة، أو وادي دوقة : من فحول أودية تهامة زهران ويقع إلى جنوب مكة بحوالي (٢٨٠) كم، وعند مصبه في البحر توجد قرية تسـمى (دوقة القديمة) ، للمزيد انظر: ، ابن بليهد، صـحيح الأخبار، ج٣، ص ٩٣، البـلادي، صـ ٦٧ وما بعدها، علي بن صـالح السـلوك الزهراني . المعجم الجغرافي لبـلاد غامد وزهران (جدة : دار البلاد، ١٤١٧هـ) ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٨) التعريـس : أو المعرس : المسـافر الذي يسـافر بالنهار ويعرس أي يتوقف للاسـتراحة والمبيـت أول الليل أو منتصـفه أو آخره . انظر: عبد الملك بن محمد الثعالبي . كتاب فقه اللغة وأسـرار العربية . تحقيق محمد إبراهيم سليم (القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص ١٣٧ .

الغنم وأحمال الدخن والتمر وغيرها، وبقينا فيه إلى ناصفة النهار ثم ارتحلنا منه بين صلاتي العصرين إلى الشاقة الأولى[١] وهي كاسمها وأختها كذلك[٢].

أي بعد مرحلة دوقة الشاقتين، والأمر للمسافر بالمبادرة لبعد شقتهما. فكان خروجنا من دوقة بين صلاتي العصرين وقطعنا تلك الأودية التي أكثر ثمرتها الدخن، بؤرها مالحة، وشعابها عظيمة وهي تتصل بجبال الحجاز، ولم نصل إلى وادي الأراك[٣] إلا بعد صلاة فجر يوم الإثنين، وقد كلت الجمال عن السير فوصلناها صباحاً. وهو واد عظيم، في أشجاره ثمر الأراك وهي كثيراً ما توجد في بنادر تهامة وغيرها، أشبه شيءٍ صورتها بالحدق[٤]، وفيها حراقة كحراقة ماوية العروق التي يستاك منها للصلاة. وعند وصول ذلك الوادي ينعم الإنسان صباحاً لقرب المقيل وحط الرحل الثقيل. فإنه كان وصولنا المحط عقيب شروق شمس يوم الإثنين، وقيلنا تحت أشجار صغار، جعلنا الخيام على أعلاها بالقرب من بئر هنالك، وكانت قيلولتنا إلى قبل عصر اليوم، وارتحلنا نحو الليث" [٥].

٨ـ السير كيناهان كورنواليس (Sir. K . Cornwallis)
٩ـ وروبن بدول(R. Bidwell) :

هذان الرحالان انجليزيا الجنسية، عاشا خلال القرنين (١٣ـ١٤هـ/١٩ـ٢٠م)، ولهما بعض المساهمات الفكرية وبخاصة الثاني (R.Bidwell) فهو أكاديمي بجامعة كمبردج وله العديد من الدراسات والمؤلفات، وقد ترجم بعضها إلى اللغة العربية [٦].

---

(١) الشاقة الأولى : يعرف جغرافياً باسم وادي عُلَيب خاصة في قسمه العلوي الجبلي، وعند نزوله في تهامة الساحل يطلق على الوادي نفسه الشاقة الجنوبية، يقع مجرى الوادي بين وادي حلية شمالاً، ووادي دوقة جنوباً . البلادي، بين مكة واليمن، ص ٦١ـ ٦٤، أحمد الزيلعي . نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عُليب (الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ١٧ .

(٢) أي الشاقة الثانية، أو الشامية (الشمالية : الوادي المعروف جغرافياً باسم وادي حلية خاصة قسمه العلوي في جبال السراة، أما قسمه الساحلي (التهامي) فيطلق عليه اسم الشاقة الشامية ويشتهر بغاباته ويقع إلى الجنوب من الليث بمسافة تصل إلى (٦٠) كم انظر: البلادي، ص ٥٤ ـ ٥٨، الزيلعي، نقوش إسلامية في حمدانة، ص ١٧ .

(٣) لعله يقصد وادي الشاقة الشمالية لوفرة غاباته وبخاصة من شجر الأراك . (مشاهدات الباحث خلال عام ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م) .

(٤) الحدق : نوع من أنواع النباتات، ويطلق على الباذنجان اسم الحدق. انظر:جغمان، الرحلة، ص ٧١.

(٥) للمزيد انظر: الحبشي، الرحالة، ص ١٦٠ـ١٦٣، جغمان، الرحلة، ص ٦٤ـ ٧٢ .

(٦) انظر: روبن بدول . الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية . ترجمة عبد الله آدم نصيف (الرياض: د . ن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص ٧ وما بعدها .

أمـا كورنواليس فهو معاصر للمستشرق بدول، وكان يعمل بالمكتب العربي بالقاهرة الذي أنشئ بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى بهدف جمع المعلومات التي قد تفيد الدوائر العسكرية البريطانية وتسهل عليها مواصلة مخططاتها وسياساتها في البلاد العربية، وكان هذا المكتب بمثابة الجهاز المركزي للمخابرات البريطانية في الشرق الاوسط[١].

جاء كورنواليس إلى بلاد عسير وتجول في أرجائها وكتب تقريره التفصيلي عن منطقة عسير في عام (١٣٣٥هـ/١٩١٦م)[٢]. وهذا التقرير الذي نحن بصدده كتب في الأصل وطبع في القاهرة عام (١٩١٦م)، ثم أعيد طبعه على يد مؤسسة أوليانـدر - فالكون ببريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٧٦م). بهدف تقديمه إلى جمهور أوسع، وأصبح عنوانه الرئيس: **عسير قبل الحرب العالمية الأولى**[٣]. Asir before World War . 1 ، وهذا الكتاب لازال موجوداً بلغته الرئيسة (الإنجليزية)، مع العلم أنه قد ترجم ترجمة شعبية غير رسمية أو منشورة منذ ثلاثين سنة، وأصبحت هذه الترجمة متداولة عند بعض المتعلمين والدارسين في المملكة العربية السعودية وبخاصة في منطقة عسير، ونتطلع إلى أن يقوم أحد طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا السعودية، أو أحد الباحثين الجادين على ترجمته ودارسته دراسة علمية جادة، مع العلم أنه يوجد به تفصيلات قيمة، لكن يوجد به أيضاً الكثير من المغالطات والأخطاء العلمية الفادحة[٤].

---

(١) للمزيد انظر: مديحة درويش. تاريخ الدولة السعودية خلال الربع الأول من القرن العشرين (الرياض: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ١١١ وما بعدها، غيثان بن جريس. بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة: دار العويفي للنشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) يعد كورنواليس أول أوربي يزور عسير بعد الطبيب الفرنسي تاميزيه الذي جاء مع الجيوش المصرية التي جاءت إلى منطقة عسير في النصف الأول من القرن (١٣هـ/١٩م). للمزيد عن رحلة تاميزيه انظر: موريس تاميزية. رحلة في بلاد العرب الحملة المصرية على عسير (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م). ترجمة محمد آل زلفة (الرياض: مطابع الشريف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١١ وما بعدها.

(٣) هذا الكتاب يقع في (١٥٥) صفحة باللغة الإنجليزية، ومقاس ورقه من القطع الصغير. وللمزيد من التفصيلات عن هذا الكتاب، انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى "كتاب عسير قبل الحرب العالمية الأولى، للسير كيناهان كورنواليس" مجلة دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية. العدد (٢٤) السنة (٦) (أكتوبر ١٩٨٠م/ذو القعدة ١٤٠٠هـ) ص ١٦٩ - ١٧٨.

(٤) للأسف لقد قام أحد المدعين للعلم والبحث العلمي بسرقة تلك الترجمة الشعبية الآنفة الذكر، ونشر الكتاب تحت اسمه دون أن يجري عليه أي تعديلات أو تصحيحات علمية نافعة، ومثل هذا العمل لا يجوز شرعاً ولا عرفاً، وكما ذكرت في المتن أعلاه حبذا أن نرى من يتصدى لهذا الكتاب في نصه الأصلي فيقوم على ترجمته وتحقيق ما ورد به من أخطاء علمية.

أمـا كتـاب روبـن بدول الذي يصب في صـميم دراسـتنا هـذه فهـو بعنوان : **الشخصيـات العربيـة في مطلع القرن العشريـن . Arabian Personalities of The Early Twentieth Century** . ولا يزال حسب علمي بلغته الرئيسة (الإنجليزية) ما عدا الفصلين الثاني والعاشر، فلقد قام أحد الباحثين المحدثين بترجمتهما ترجمة أولية إلى العربية، لكنه لم ينشـرهما حتى الآن [1]، وهذان الفصلان يحتويان على تفصيلات قيمة عن عسير والمخلاف السليماني [2].

وعند الاطلاع على مادة كتابيّ : كورنواليس وبدول وبخاصـة ما يتعلق بمنطقة القنفذة يتضح لنا عدة أمور، أهمها :

أ ـ التشـابه الشـديد في مادة الكتابين، ومن ثم يتضـح لنا أن المصدر الرئيس لهذه المادة هو كورنواليس، وجاء بعده بدول فجمع مادة كتابه من الوثائق والتقارير البريطانية، وكان تقرير كورنواليس الأساس فيما دون عن منطقة القنفذة [3].

ب ـ الكتابـان اشـتملا على تفصـيلات كثـيرة عن الشـخوص والأعـلام في بلاد القنفـذة، فأوردوا أسـماء كثيرة من الشـيوخ والتجـار والأعيان في الديـار القنفذية، مثل : ابن خيرة شـيخ النواشـر من قبيلة بلعير، والشـريف حسـن أبو منديل، شيخ آل ذوي بركات ما بين الليث والقنفذة، وحسـن بن خضـر شـيخ بني زيد، وسيد الجفري تاجر الجلود والأصماغ والسمن والحيوانات، وسيد درويش مفتي القنفذة من أسرة آل الأهدل، والشيخ علي بن عبده، شيخ بني هلال بالبرك، وعلي بن مديني الشيخ الأعلى لقبيلة بلعير . وغيرهم من رموز القنفذة في أوائل القرن العشرين الميلادي [4].

ج ـ تحـدث هـذان المستشـرقان عن بعض عشـائر القنفذة، مثـل قبائل بلعير، وأهـالي حلـي، وقبائـل بني هـلال، فذكروا مواطنهـم في البلاد الممتـدة من بلدة

---

(١) إسماعيل بن محمد البشري أستاذ التاريخ الحديث . بجامعات الإمام محمد بن سعود الإسلامية ثم الملك خالد، وأخيراً الشـارقة، والآن عضـو بمجلس الشورى السـعودي . قام بترجمة هذين الفصلين، وأتمنى أن نراهما منشورين في متناول أيدي الباحثين والدارسين والمتخصصين .

(٢) يوجد صورة من هذين الفصلين المترجمين ترجمة أولية، ضمن مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (قسم البحوث والدراسات غير المنشورة) .

(٣) انظر : كورنواليس (النص الإنجليزي) PP.18 FF ، بدول، النسخة العربية غير الرسمية، ص٢، وما بعدها .

(٤) للمزيد من التفصيلات عن هؤلاء الأعلام وغيرهم في الكتابين الآنفي الذكر، انظر : Cornwallis PP. 84 -103 روبن بدول، النص العربي المترجم، ص ١ ـ ١٩ .

القنفذة شمالاً إلى بلدة البرك وما حولها . وأشارا إلى بعض صفات هذه القبائل كشدة بأسهم في القتال، كما أنهم كانوا يمارسون مهن الرعي والزراعة ويوجد ببلادهم خيرات كثيرة تسد حاجتهم[١] .

د ـ ذكروا أن سكان هذه البلاد كانوا في صفوف الأتراك أثناء قدومهم إلى بلاد عسير، لكن بعد ظهور الإدريسي في جازان [٢] . فضلوا الانضمام إلى جانبه، والانقياد في دفع الضرائب إليه [٣] . كما عمل هذان الإنجليزيان على ذكر إحصائيات لبعض القبائل والعشائر القنفذية لكن ما قدما من معلومات حيال هذا الجانب لم يكن دقيقاً، ولازال يحتاج إلى جهد علمي كبير لدراسة ما دونا، ويبدو أن مصادرهما لم تكن دقيقة وصحيحة فيما ذكرا من أرقام سكانية لكل عشيرة أو ناحية.

هـ ـ وإذا أجرينا مقارنة على ما قدم هذان الغربيان عن تاريخ القنفذة نجد معلومات كورنواليس أشمل وأدق من معلومات بدول، وربما وقوف هذا الرحالة على أحوال وحياة العسيريين، وتنقله في أرجاء بلادهم جعله يدون لنا معلومات أكثر عمقاً وتفصيلاً[٤] . كما أنه انفرد بذكر بعض التفصيلات الحضارية، مثل: الإشارة إلى أهمية ميناء القنفذة لاستيراد وتصدير البضائع المختلفة، وبخاصة في عهد سيطرة الأتراك على هذا الميناء[٥] . كما أشار إلى العملات والأوزان والمقاييس والمكاييل التي كانت معروفة ومستخدمة عند عموم سكان القنفذة[٦] ، وعدد الكثير من القرى والمحطات المنتشرة على ساحل البحر من الليث شمالاً إلى جازان جنوباً[٧] ، وأورد بعض الإضافات عن بلدة القنفذة، فقال: " إنها مدينة مسورة صغيرة، وهي على بعد (٢٠٠) ميل تقريباً جنوب جدة وهي ميناء

---

(١) انظر: Cornwallis. PP. 44 FF، روبن بدول، النص العربي المترجم، ص ١٠١ـ١٠٩ .

(٢) انظر : Carnwallis, PP 23 FF

(٣) المصدر نفسه، PP. 44 FF روبن بدول، النص العربي المترجم، ونسخة منه في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية . ص١٠١ وما بعدها .

(٤) كورنواليس جاء إلى بلاد عسير وتنقل في أرجائها، والتقى بأهلها وسمع منهم، في حين جمع بدول مادته كتابة من الوثائق والتقارير البريطانية الخاصة ببلاد عسير، وكان تقرير كورنواليس من أهم مصادر بدول .

(٥) انظر: Cornawa, PP. 19- 20

(٦) المصدر نفسه .

(٧) المصدر نفسه . PP. 22- 24

لأبها[١]، ويتراوح سكانها بين (٢٠٠٠-٨٠٠٠) نسمة تقريباً، وفيها حامية تركية صغيرة، وبيوتها تقريباً مبنية من الحجارة، وفيها خمسة مساجد، وبيوت الحكومة موجودة في قلعة خارج المدينة، وتأتيها المواد من المناطق المجاورة، ومن قرى بني زيد الرئيسة"[٢].

ويتحدث كورنواليس عن خمسة عشر طريقاً برية في بلاد عسير[٣]، ويذكر منها ثلاث طرق رئيسة تصل إلى بلاد القنفذة هي: طريق محائل القنفذة عبر بارق، ومحائل البرك، ومحائل حلي[٤]. وفصل الحديث عن المحطات والقرى التي تمر عليها هذه الطرق، بل وصف طبيعة سكان تلك المحطات من حيث مستواهم الاجتماعي والاقتصادي. وذكر وجود المنازل المبنية بالحجارة في النواحي القريبة من بارق ومحائل، مع أن كثير من بيوت السكان في بلدان القنفذة وحلي والبرك تكاد تكون من العشش والقش[٥].

١٠ـ الشريف البركاتي (ق١٤هـ/٢٠م):

الشريف شرف بن عبد المحسن بن حازم الحسني البركاتي الحسيني[٦] (١٢٨٨-١٣٥٨هـ/ ١٨٧١-١٩٣٩م)، من كبار الأشراف ومن المقربين إلى الشريف حسين بن علي[٧]، ولاه قائم مقام إمارة مكة، ثم معتمداً للحكومة العربية الهاشمية بمصر، وبعد دخول الحجاز تحت حكم الملك عبد العزيز رجع الشريف البركاتي إلى مكة وتولى بعض الأعمال الإدارية في حكومة ابن سعود مثل: مأمورية عربان

---

(١) كانت القنفذة الميناء الرئيس لبلاد عسير خلال عهد المتصرفية العثمانية في عسير (١٢٨٩-١٣٣٧هـ/١٨٧٢-١٩١٨م)، وحتى منتصف القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م). يوجد في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية مئات الوثائق غير المنشورة التي تؤكد هذا القول.

(٢) للمزيد انظر، Cornwallis, P. 34

(٣) المصدر نفسه، PP. 107 ff

(٤) للمزيد عن محطات هذه الطرق الثلاث انظر، Cornwallis, PP. 136 ff

(٥) المصدر نفسه، PP. 137 ff

(٦) الحسيني: نسبة إلى ذوي حسن من الأشراف ذوي بركات. انظر: مقدمة عاتق بن غيث البلادي الذي قام بدراسة وتحقيق رحلة الشريف البركاتي المسماة: الرحلة اليمانية (بيروت: دار النفائس، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص ٩-١٣.

(٧) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون الشريف الحسني الهاشمي، قائد الثورة العربية، وأول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الترك. للمزيد انظر: مقدمة عاتق البلادي، لكتاب، الرحلة اليمانية، ص ١٤-١٧.

جدة وملحقاتها، ثم رئيساً للجنة التحقيق والتفتيش عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م). كان كثير الاطلاع لكتب الأدب والتاريخ، وكان لطيف المعشر حلو الحديث حسن الخلق، مات عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)[(١)].

كتابه المعروف باسم: **الرحلة اليمانية**[(٢)]، يتحدث فيه عن تفاصيل رحلة الشريف الحسين بن علي عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م) التي خرج فيها مع العديد من الجيوش ذاهباً على طريق الساحل لمواجهة جيش الإدريسي الذي صار يسيطر على مناطق عديدة في بلاد جازان وعسير، بل حاصر مدينة أبها وصارت على وشك السقوط في حوزته[(٣)]. والكتاب يشتمل على تفصيلات كثيرة عن سير حملة الشريف والمواقع التي نزل فيها، وكيف قابل جيوش الإدريسي، وكيف واصل طريقه عبر عقبة ساقين في تهامة بني شهر، ثم سار على السراة حتى وصل أبها، وفك حصار الإدريسي عنها، ثم عودته على الطريق الشرقي للسراة عبر بلاد شهران وبيشة حتى الطائف ومكة[(٤)].

والكتاب يشتمل معلومات تاريخية وحضارية قيمة يصعب أن نجدها في مصدر آخر[(٥)]. وفما يخص بلاد القنفذة يذكر وصول الشريف الحسين وجيشه إلى وادي دوقة شمال منطقة القنفذة في غرة جمادى الأولى عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م). ويشير إلى رخاء ذلك الوادي فيقول: " هو وادي خصب التربة، يزرع فيه الذرة والدخن والسمسم والقطن الهندي، وجميع محصولاته ترسل إلى ميناء دوقة، ومنها ترسل إلى مرافئ الحرمين الشريفين بواسطة سفن شراعية"[(٦)]. ويذكر قدوم شيخ

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩-١٣.

(٢) هذه الرحلة نشرت أكثر من مرة، وأول طبعة لها عام (١٣٣٠هـ/١٩١٢م)، وتلاها طبعات عديدة داخل المملكة العربية السعودية وخارجها. والنسخة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة هي طبعة (بيروت: دار النفائس، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، قام على تحقيقها والتعليق عليها الأستاذ عاتق بن غيث البلادي.

(٣) للمزيد عن امتداد النفوذ الإدريسي في جازان وعسير، وحصاره لأبها والسعي إلى الاستيلاء عليها، انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، ج٢، ص ٦٨٣-٧٠٠، عبد المنعم الجميعي. الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير (١٣٢٦-١٣٤٩هـ/ ١٩٠٨-١٩٣٠م) (خميس مشيط: دار جرش للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، ص ٦ وما بعدها.

(٤) انظر: كتاب الرحلة اليمانية، تحقيق البلادي، ص ٣١، وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه. ٣٥.

مشائخ زبيد علي الشريف الحسين وتقديم فروض الولاء والطاعة[١] ، ويشير إلى أودية قرماء، وناوان، والأحسبة، وقنونا وتقديم عشائرها الطاعة لحكومة الشريف[٢] كما سمع بعض القصص التي ذكرها بعض الرواة في حضرة الشريف الحسين عن ممارسات رجال الإدريسي القساة وظلمهم الرعية جنوبي بلدة القنفذة [٣] .

وعند دخول هذا الرحالة إلى بلدة القنفذة يصفها قائلاً : "بندر القنفذة واقع على البحر الأحمر، وهو مرفأ عظيم حتى أن البواخر البحرية تسير فيه إلى قريب الشاطئ . وهذه المدينة ثلثها مبني بأحجار، والثلثان الباقيان أكواخ مصنوعة من جريد النخل وخشب أشجار السمر والطرفاء، ولهم فيها صناعة جميلة واعتناء تام حتى إنها تمكث ثلاثين سنة تقريباً، وأغلب البيوت المبنية بالأحجار طبقة واحدة عدا محلات الحكومة والأغنياء من التجار فبيوتهم طبقتان" [٤] .

" وبها محجر صحي[٥] ، وثكنة للجند العثمانيين وجمرك، وجميعها مبنية بالحجر بناءً جميلاً [٦] ، وفي خارج البلد قلعة للحكومة العثمانية ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، وبهذه المدينة ـ القنفذة[٧] ـ سوق عظيم يوجد فيه جميع ما يحتاجه الإنسان من ملبس ومأكل وخلافه، وتردها أنواع الخضر، والليمون، والموز، والقطن، والسمسم، والعدس وما شاكلها من أوديتها، أما الفواكه فترد لها من جهة بين تهامة والحجاز تسمى (المخواة)[٨] وبها ثلاث حوانيت عظيمة لبيع أصناف البقالة،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٤١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٢ .

(٥) لم يعد للمحاجر الصحية وجود بعد التقدم الطبي الذي تعيشه البلاد السعودية في وقتنا الحاضر، وللمزيد عن تاريخ الحجر الصحي في الحجاز وما جاورها في العصر الحديث، انظر: جولدن صاري يلدز الحجر الصحي في الحجاز (١٨٦٥ـ ١٩١٤م) ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٦) يوجد في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية، عشرات الوثائق التي تحدثت عن الجمرك، وبعض المعاقل العسكرية في منطقة القنفذة وما جاورها خلال القرنين (١٣ـ ١٤هـ/١٩ـ٢٠م) .

(٧) إضافة من الباحث .

(٨) المخواة : مدينة صغيرة عند سفوح سروات غامد وزهران الغربية، وتقع في صدر وادي الأحسبة، وهي إحدى محافظات منطقة الباحة في وقتنا الحالي، وتبعد عن مكة (٣٥٠) كيلاً جنوباً (مشاهدات الباحث وزياراته لبلاد القنفذة وتهامة غامد وزهران في نهاية عام (١٤٣١هـ/٢٠١٠م)

أحدهما لشخص رومي، والدجاج فيها بكثرة، وهو رخيص، فثمن الواحدة قرشان مصريان، وبها مسجدان عظيمان للصلاة ..." [(١)]

ويفصل صاحب الرحلة الحديث عن بعض الجوانب الحضارية في نواح من منطقة القنفذة، مثل وادي يبة وما يتميز به من ثراء اقتصادي، فقال: " وادي يبة خصيب التربة، كثير المزروعات، يأتية الماء من جبل الحجاز، والأراضي المزروعة به يبلغ قدرها سبعين ألف فدان تقريباً، من أجود الأطيان [(٢)]، ويزرع في كل عام ثلاث مرات، ومزروعاته الذرة، والدخن، والسمسم، والنيلة، والليمون، والخضر بكثرة، وطينته صفراء، وهو مقسم إلى حياض كتقسيم الأراضي الزراعية بمصر [(٣)]. وبهذا الوادي آبار كثيرة لسقي الأرض، غزيرة الماء، أما أشجاره فكثيرة، إذا كل قطعة أو حوض هي محفوفة بأشجار الأثل بشكل منتظم حتى إن المقبل على الوادي يظنه غابة لكثرة الأشجار فيه .." [(٤)].

وفي مكان آخر يذكر البركاتي بأن القنفذة كانت إحدى المراكز الإدارية الرئيسة التابعة لمتصرفية عسير، ويطلق عليها قائم مقام القنفذة [(٥)]، كما أشار إلى أعداد السكان لبعض العشائر والقبائل في بلاد القنفذة، لكن ما أورده في هذا الجانب لم يكن بعيداً عن جانب التخمين والحصول على رواياته من أناس غير دقيقين في ذكر إحصائيات السكان، وهذه مشكلة وقع فيها معظم الرحالة السابقين الذين أشاروا إلى تعداد السكان في تلك النواحي [(٦)].

---

(١) البركاتي، الرحلة، ص ٤٢ـ ٤٣ .

(٢) لاشك أن وادي يبه وقنونا تشمل على تربة جيدة صالحة للزراعة، أما قول البركاتي إن مزروعات وادي يبة تقدر بـ (٧٠) ألف فدان، فهذا رأي غير دقيق، وربما مبالغ فيه، وما ذكره البركاتي وجهة نظر تحتاج إلى قياسات ودراسات علمية دقيقة

(٣) الحياض والقصبات التي شاهدها البركاتي في مزارع وادي يبة نظام زراعي قديم عرفه العرب منذ العصور السابقة للإسلام . وللمزيد عن نظام الزراعة والري عند العرب قديماً، انظر: جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص ٤٥ وما بعدها

(٤) البركاتي : الرحلة، ص ٦١ـ ٦٢ .

(٥) متصرفية عسير في أبها خلال النفوذ العثماني الأخير (١٢٨٩ـ١٣٣٧هـ/١٨٧٢ـ١٩١٨م)، كان يتبع لها ستة مراكز رئيسة، وكل مركز يحمل اسم قائم مقام مثل (القنفذة، ومحائل، الشعبين . بلاد رجال ألمع، والنماص، ورغدان في بلاد غامد، وصبيا في جازان) . انظر: غيثان بن جريس . أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٥٢ . للمزيد انظر: البركاتي، الرحلة، ص ٩٠، ١٣٢ـ ١٣٣ .

(٦) كونرواليس، وروبن بدول، والبركاتي، وفلبي، وتوتشيل أشاروا إلى عدد السكان في بعض نواحي القنفذة وجميعهم غير دقيقين في رواياتهم لأنهم كانوا يستندون على مصادر شعبية بعيدة عن توخي الدقة فيما يذكرون .

وعن الصلات السياسية والمعارك الحربية التي وقعت على أرض القنفذة بين الشريف الحسين بن علي وجيوش الإدريسي، نجد صاحب الرحلة يسهب في الحديث عنها، ويوضح كيف تم الصدام بين الطرفين، وما بذل كل واحد منهما، وفي النهاية كانت الغلبة والنصر للشريف الحسين على قوات الإدريسي التي استطاع أن يهزمها ويدحرها ويستولي على الكثير من أسلحتهم وعتادهم(١). ويتضح لنا مما دون صاحب الرحلة في هذا الشأن عدة أمور، نجمل أهمها في النقاط التالية :

أ. هذا الكتاب يعد من المصادر الهامة والرئيسة في وصف المعارك التي حدثت عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، مع أن ما ذكره البركاتي لا يزال يحتاج إلى تحليل وتحقيق لكثير من الشخوص والوقائع الحربية التي حدثت .

ب. يظهر من حديث صاحب الرحلة تحيزه للشريف الحسين، ولا نلومه في ذلك، لأنه أحد أفراد الجيش المعادي للإدريسي، الذي جاء لإنقاذ مدينة أبها من حصار الأخير، ومن ثم يظهر في روايات البركاتي المبالغة في النصر الذي أحرزه الشريف علي الإدريسي، والذي يبدو أن جيوشه انسحبت من أرض المعركة دون خسائر كبيرة . ودليلنا على ذلك أن نجد الإدريسي وجيوشه وإن انسحبت من بلدة القنفذة وما حولها، ومن حصار أبها، إلا أنهم بقوا قوة متماسكة وذات شأن سياسي وعسكري لبعض الوقت، وإن الشريف الحسين عاد إلى الحجاز، ولم يدم طويلاً في سلطانه(٢).

١١ ـ الشريف عبد الله بن الحسين . في كتابه مذكراتي(٣) (ق١٤هـ/٢٠م) :

عبد اللّه بن الشريف الحسين بن علي، لا ننظر إليه من فئة الرحالة، وسبب إدراجه في هذه الدراسة، أنه دون كتابه الموسوم بـ : **مذكراتي**، وتحدث فيه عن تجاربه وخبراته منذ ولادته حتى خروج الأشراف من الحجاز(٤)، واستقرارهم في

(١) انظر: البركاتي، الرحلة، ص ٦١ ـ ٦٩ .

(٢) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ الإدريسي والشريف الحسين بعد أحداث عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م) انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، ج٢، ص ٧٠١ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، (مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص١٤ـ٩، ١٨١ وما بعدها .

(٣) انظر: عبد اللّه بن الحسين، مذكراتي (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، د. ت) ص٦٢ وما بعدها.

(٤) للمزيد عن نهاية تاريخ الأشراف في الحجاز انظر: العثيمين، المصدر نفسه، ص١٤ـ٩، ١٨٢ وما بعدها.

العـراق والأردن وما جاورهما[١]. والذي دفعنا لإيراده ضـمن الرحالة الآخرين في هذا البحث، عدة أسباب أهمها :

أ ـ الشريف عبد الله كان أحد القادة الرئيسين في الحملة العسكرية التي قادها والده إلى أبها لفك حصار الإدريسي عنها، وإذا كان الشريف البركاتي في كتابه **الرحلة اليمانية** قد أسـهب في ذكر الكثير من القضايا التاريخية والحضـارية التي شاهدها أثناء سيره مع الحملة الآنفة الذكر، فإن الشريف عبد الله لم يتعرض لشيء مما ذكر البركاتي.

ب ـ والشـيء الوحيد الذي فصـل الشـريف عبد الله الحديـث فيه، في حوالي ثمان صـفحات من القطع المتوسـط، هو ما جرى في معركة أبا العير (بلعير) التي حدثت بين الإدريسـي وجيوش الشريف في بلاد القوز، الذي كان الشريف عبد الله أحـد أقطاب تلك المعركة[٢] . ويتضـح من تفصـيلات كل من الشـريفين عبد الله والبركاتـي أنهمـا ذكرا ما جـرى في تلك المعركة من اسـتعدادات من الطرفين وما حصل فيها من كر وفر حتى انتهت بانتصارٍ الشريف الحسين على جيش الإدريسي مع الإشـارة إلى انسـحاب الأخير منهزماً وترك الشـيء الكثير من سـلاحه ومؤنه الحربية، وكذلك فقدان الكثير من رجاله الذين سقطوا في أرض المعركة[٣].

ج ـ وكما أشرنا سابقاً انحياز البركاتي في روايته عما جرى في أرض المعركة، وما حاز عليه الشريف من نصر باهر على خصومه، وقد نهج الشريف عبد الله المنهج نفسه، وأوضـح عدوان الإدريسـي وجوره ثم ما ناله من هزيمة واندحار أمام جيوش الشريف البواسل . والذي درسناه في مصادر ووثائق أخرى أنه كان في صفوف الإدريسي الكثير من العشائر والقبائل التهامية القاطنة جنوب القنفذة إلى حلي والبرك وبارق ومحائل والقحمة والشقيق وصبيا وغيرها . ونعلم أن رجال هذه النواحيٍ كانوا على درجة عالية من البسالة والشجاعة، ومن ثم فمن المؤكد أنهم أبلوا بلاءً حسناً في التصدي للشريف وجيوشه، بل وألحقوا بهم الكثير من الخسائر في رجالهم ومؤنهم الحربية[٤].

---

(١) عبد الله بن الحسين، مذكراتي، ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٤ وما بعدها .

(٣) انظر: البركاتي، ص ٤٥ ـ ٥٥، عبد الله بن الحسين، مذكراتي، ص ٦٣ وما بعدها .

(٤) لدى الباحث عشرات الوثائق التي تعكس ما جرى من أحداث في معارك عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، وما قام به الإدريسـي ورجاله من بطولات في تلك الحروب . المصـدر : مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق العامة) (وثائق القرن١٤هـ/٢٠م) .

١٢ ـ هاري سانت جون فلبي :(H. St. J. Philby) (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

جون فلبي، إنجليزي الجنسية، ويدعى اختصاراً جاك، أو (عبد الله فلبي) من مواليد (١٨٨٥م)، انخرط بداية حياته في وظائف عدة بالحكومة البريطانية، ثم جاء إلى الجزيرة العربية عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، وقابل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في العام نفسه[١].

يعد فلبي أفضل وأكثر من كتب عن الجزيرة العربية، وبخاصة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، يقول عنه الجاسر: " الحقيقة التي يجب أن تقال، هي : أن فلبي أسدى الجزيرة العربية يداً قصّر عن مدها إليها من سواه" [٢]. ويذكر عنه المستشرق جورج رنتز (George Rentz) " أنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد" [٣].

يقصد الجزيرة العربية ـ مشيراً إلى أن السبب في تلك الغزارة ترجع إلى مؤهلات فلبي الجيدة في مجال الكتابة التاريخية وكذلك معرفته وزيارته معظم نواحي الجزيرة العربية[٤].

وإذا كان فلبي قد تفانى في عمله مع حكومته بريطانيا، إلا أنه اتصل بالملك عبد العزيز، وأصبح من المقربين إليه، بل أرسله في العديد من المهمات، وهذا ما ذكره فلبي في كتبه ومذكراته[٥]. وله عشرات الكتب والدراسات التي كتبت في الأساس بلغة المؤلف الرئيسة، (الإنجليزية)، وترجم العديد منها إلى العديد من اللغات، وبخاصة اللغة العربية[٦].

---

(١) حمد الجاسر . (فيلبي:رحلاته في البلاد العربية) مجلة العرب. (١٤٠٩ـ١٤١٠هـ) مج، ١٠٥ـ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه. للمزيد انظر: ابن جريس، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ص ١٢٦.

(٣) جورج رنتز " فلبي مؤرخاً للملكة العربية السعودية " ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي . مجلة الدرعية السنة الأولى، عدد (٢) (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص ٦١ .

(٤) لقد مكث فلبي أكثر من (٤٠) سنة متجولاً وقاطناً في الجزيرة العربية (١٣٣٦ـ ١٣٨٠هـ/١٩١٧ـ ١٩٦٠م) . جورج رنتز، ص ٦١ ـ ٦٣، وللمزيد من التفصيلات عن فلبي، انظر: كتاب اليزابيث مونرو(Elizabeth Monroe) في كتابها الشهير فيلبي العرب، الذي طبع عام (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ص ٣٠٧ ـ ٣١٣ .

(٥) المصدر نفسه . للمزيد انظر: ابن جريس، بحوث في تاريخ عسير، ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٦) هناك مؤلفات عديدة لفلبي تم ترجمتها إلى اللغة العربية ومكتبة العبيكان مشكورة، ترجمت خلال العشرين سنة الماضية أكثر من عشرة من تلك المؤلفات . للمزيد عن عناوين تلك الكتب وغيرها، انظر: ابن جريس، بحوث، ١٢٧، ج . د . نورتون " فيلبي رجل الجزيرة العربية " . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (الكويت، العدد الثالث، جمادى الآخرة (١٣٩٥هـ)، ص ١٥١ـ ١٥٩ .

ولفلبي كتاب بعنوان : **مرتفعات الجزيرة العربية** (**Arabian Highlands**)، طبع باللغة الإنجليزية في مطابع كورنل أثاكا في نيويورك عام (١٩٧٦م)، ويقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، وقام على نشره آنذاك جمعية الشرق الأوسط واشنطن دي .سي (Washington. D. C) [١] (وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على النسخة العربية التي قامت مكتبة العبيكان مشكورة على ترجمتها وطباعتها ونشرها عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) [٢].

والكتاب يقع في ستة أبواب تحتوي على (٣٣) فصلاً، اشتملت على الحديث عن أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية، ابتداءً من الطائف إلى بيشة وأبها وخميس مشيط وما حولها، ثم نجران، وجازان، وأخيراً البلاد الساحلية الممتدة من جازان إلى مكة وجدة [٣].

وما يخصنا في موضوع البحث الذي بين أيدينا هو الفصل الثالث والثلاثون في الباب السادس، والموسوم بـ : **الطريق الساحلي (محافظة القنفذة)**، ويقع في (٥٩) صفحة بدأها من بلدة القحمة إلى جدة ومكة عام (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) [٤].

أشار هذا الرحالة إلى بعض الطيور، والنباتات والحشرات التي شاهدها على طول الطريق من القحمة إلى بلدتي القنفذة والليث [٥]، كما أشار إلى طبيعة الأودية والجبال والوهاد والسبخات وأحياناً بعض الغابات التي شاهدها أثناء السير في

---

(١) تم الاطلاع على هذه النسخة في صورتها الأصلية الإنجليزية، ويوجد نسخة من الكتاب في مكتبة الباحث، مع العلم أن هناك طباعات أخر لهذا الكتاب وسابقه لعام (١٩٧٦م)، ولم نستطع الاطلاع عليها حتى الآن.

(٢) الكتاب يقع في مجلدين كبيرين، عدد صفحاتهما (١٤٤٩)، وقد قام بترجمتها بتعميد من مكتبة العبيكان د. حسن مصطفى حسن، ومراجعة وتعليق وتقديم أ. د غيثان بن علي بن جريس .

(٣) للمزيد من التفصيلات عن كتاب فلبي (المرتفعات)، انظر: غيثان بن جريس (إقليم عسير في عيون الرحالة الاوربيين " ورقة عمل قدمت ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة من (١٤٢٠/٨/١٠-٨-١٦/١١/١٩٩٩م) ونشرت في كتاب ضمن أعمال الندوة بعنوان : العرب وأوربا عبر عصور التاريخ (القاهرة : منشورات الاتحاد، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٤٠٩ وما بعدها، للمؤلف نفسه " جنوب السعودية في كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية . لهاري سانت جون فلبي " ونشر ضمن أعمال ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، حصاد (١٢) في كتاب: العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة (القاهرة : منشورات الاتحاد، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص ٢٤١ وما بعدها .

(٤) المصدران نفسهما . للمزيد انظر: كتاب فيلبي (المرتفعات) النسخة العربية (ترجمة ونشر مكتبة العبيكان)، ج٢، ص ١٢٦٣ وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه .

أنحاء منطقة القنفذة [١]، لم يغفل أيضاً عن ذكر بعض النشاطات الاقتصادية وبخاصة التجارة وحركة الأسواق في بلدة القنفذة وقرية المظيلف وما يصدر منها أو إليها من السلع الداخلية والخارجية [٢].

أورد بعض المعلومات القيمة عن بعض المراكز الحضارية على قارعة طريق الحج والتجارة من البرك إلى القنفذة، فيقول عن الأولى (البرك) : " يتكون جزؤها الرئيسي من حوالي مئة من العشش التي تشبه خلايا النحل، إلى جانب البناء المركزي للحكومة بلونه الأبيض، ويقع في وسطه عدد من المنازل المبنية البيضاء من حولها . يقف هذا القسم من القرية فوق سلسلة حمم بركانية منخفضة تطل على البحر، وعلى حافتها حقول قليلة تم إعدادها للزراعة، ويقع قسم آخر، وهو قرية صغيرة تشتمل على بعض المباني المطلية بالجبس عند سفح ربوة على يميننا، كان هناك إلى جانب هذين القسمين للقرية، القلعة التي تقف بارزة فوق قمة ربوة منخفضة، يقع خليج خور البرك على يسار القرية، وهو مرسى طويل محمي أكثر منه ميناء ... " [٣]. ويذكر فيلبي إضافات كثيرة عن سور البرك القديم، وبعض الآثار الظاهرة للعيان من حول البلدة، ويشير إلى تواجد بعض موظفي الميناء والجمارك الذين قابلهم في تلك الناحية [٤]. ولم ينس في حديثه إعطاء بعض التفصيلات عن وادي حلي، مع الإشارة إلى بعض قراه، وبدائية نمط العمارة في تلك الناحية، وكيف كان القش وسعف النخل هو الأساس في بناء الكثير من المنازل هناك [٥].

وعند وصول هذا الرحالة إلى بلدة القنفذة يورد بعض مشاهداته عنها، فيقول: " .. سرعان ما ترجلنا عن الدواب عند مدخل منزل الحكومة، كان عبد الله بن مبارك أمير القنفذة يرأس المجلس [٦]، غير أنه أمر بانصراف حشد موكله وخصومه، وانصرف لقضاء حاجاتنا وتلبية مطالبنا ... أعد منزلاً لضيافتنا

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٦٩ .
(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٧٠ـ ١٢٧١ .
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٨١ـ ١٢٨٢ .
(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩٢ وللمزيد من التفصيلات عن تطور تاريخ الإمارة في بلاد القنفذة، انظر القسم الثاني من هذا الكتاب .

أثناء ما كنا نحتسي القهوة مع الحاكم ونأكل التمر وجدت نفسي عند الظهر داخل بناء إضافي من الخشب فوق سطح أحد المباني المبنية من الشعاب المرجانية، وهو أحد المباني التي تقع على امتداد الجبهة البحرية التي هي متنزه القنفذة، بينما شغل رفاقي الغرف في الطابقين أسفل مني، كان المنزل واحداً من بين العديد التي تكون الجناح الإداري والتجاري ومقر سكن الطبقة الراقية ويقع عند الطرف الشمالي للبلدة "(١)، وذكر أن القنفذة " قرية كبيرة غير منتظمة أكثر منها بلدة، كانت عشش القسم الأكثر فقراً من السكان، على ضواحي القرية مهجورة وبائسة بما يفوق الوصف، وعلى عكس هذا فإن أحسن المنازل كانت في الحي التجاري ذات واجهات فخمة مطلية بالجبس، وتدل على درجة عالية من الازدهار والتطور . توجد مساحة كبيرة خارج مباني الرئاسة الحكومية تؤدي وظيفة المستودع للبضائع التجارية ..."(٢). ويتحدث عن سوق القنفذة، فيقول : " كان السوق في قمة نشاطه عندما مررنا به، ويبدو أنه غني بالبضائع المحلية والمستوردة (٣).. كانت تجارة البلد في أيدي الهنود والحضارمة، وقد قيل: إن هناك حوالي ثلاثين أسرة هندية وخمسين أسرة حضرمية مقيمة في البلد تعتمد على التجارة(٤). ويمثل البيوت التجارية الأوربية القائمة في جدة مندوبون محليون لها هنا . كان بقية السكان العرب معظمهم مقيمون جاؤوا من قرى مقاطعة وادي قنونا، وبلا شك تتخللهم عناصر من مناطق أبعد من ذلك .." (٥).

ويشير هذا الرحالة الأوربي إلى بعض الجوانب الدينية في بلدة القنفذة، وبخاصة المساجد، فيقول : " يوجد بالقنفذة ثلاثة مساجد، ولا توجد بها مبان أخرى عامة ذات مغزى(٦)، وكان من أبرز قاطنيها في هذا الوقت محمد الأمين

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٩٢ . للمزيد من التفصيلات عن تطور تاريخ الإمارة في بلاد القنفذة، انظر القسم الثاني من هذا الكتاب .

(٢) المصدر نفسه ج٢، ص ١٢٩٢ .

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٩٣ .

(٤) المصدر نفسه، يوجد في حوزة الباحث مئات الوثائق الإدارية والمالية الخاصة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي في بلاد القنفذة، وربما نخرجها في سفر منفصل في المستقبل (بإذن الله تعالى) .

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩٣ .

(٦) هذا الحديث في أوائل النصف الثاني من القرن الهجري الماضي، ومن يزور منطقة القنفذة اليوم يجد بها مئات المساجد المتفاوتة في الصغر والكبر، بل يوجد بها آلاف العمارات المسلحة والمتعددة الأدوار، وهذا يعكس ما تمر به القنفذة وغيرها في عصرنا الحاضر من نمو وازدهار، نسأل الله أن يحفظ ديننا وبلادنا من كل سوء إنه على كل شيء قدير .

الشنقيطي"[١]. ويذكر فلبي بعض الرحالة الأوربيين الذين شاهدوا القنفذة في القرن (١٣هـ/١٩م)، فيقول: " وصل إلى القنفذة الفرنسيان أي كومبس، وم. تاميزيه قادمين من جدة في السابع عشر من فبراير (١٨٣٥م)[٢]، وقد وجداها مكاناً ذا أهمية ضئيلة تتاجر فقط مع جدة، كانت مياهها جيدة إلى حد ما، غير أن مناخها خاصة في الشتاء كان ثقيلاً وغير صحي ويؤدي إلى أوجاع كثيرة .."[٣]. والجميل في شروحات هذا الرحالة أنه يورد بعض التفصيلات عن القنفذة نقلاً مما سجله تاميزيه عن تلك الناحية خلال النصف الأول من القرن (١٣هـ/١٩م) فيقول " .. علق تاميزيه فيما سجله عن جدة أنها أفضل موقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وأن القنفذة الأسوأ، ويعزو هذا إلى الرياح الجنوبية التي تهب عليها باستمرار .."[٤].

١٣ ـ ك . س . تويتشل (K . S . Twitchell) (ق١٤هـ/٢٠م) .

تويتشل أحد الرواد الأمريكيين الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب في بداية النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) (١٣٥٠ـ ١٣٥١هـ/ ١٩٣١ـ١٩٣٢م)، من أجل البحث عن المياه والمصادر الطبيعية في الحجاز وجزيرة العرب عموماً . وقد قام بالعديد من الرحلات في أجزاء عديدة من هذه الجزيرة، ودون الكثير من التفصيلات التي جمعها في جولاته في كتابه الموسوم بـ:

---

(١) الشيخ الشنقيطي جاء إلى بلدة البرك عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) وعمل بها بعض الوقت ثم ذهب إلى جازان مع أمير القنفذة، وأخيراً استقر في بلدة القنفذة حتى مات انظر: فلبي، مرتفعات، ج٢، ص ١٢٩٤ . حاشية رقم (١) .

(٢) هذان الفرنسيان ضمن جيوش محمد علي باشا التي جاءت إلى جزيرة العرب للقضاء على الدولة السعودية الأولى، والسيطرة على بلاد عسير التي كانت الساعد الأيمن لمناصرة ومساندة آل سعود الأوائل. للمزيد عن الرحالة الطبيب تاميزيه، انظر : كتابه : رحلة في بلاد العرب، ترجمة محمد آل زلفة، ص٣١ وما بعدها. وهذان الفرنسيان وغيرهما من الرحالة الذين قدما إلى القنفذة لم نستطع العثور على مدوناتهم التي كتبوها عن بلاد القنفذة أو غيرها، حبذا أن نرى من طلابنا أو طالباتنا في الدراسات العليا، أو الباحثين والدارسين الآخرين من يستكمل أولئك الرحالة، أو يصحح ما وقعنا فيه من أخطاء أو نقص في هذه الدراسة .

(٣) فلبي، مرتفعات، ج٢، ص ١٢٩٤ ـ ١٢٩٥ .

(٤) ويشير فلبي نقلاً عن تاميزيه بأن منازل القنفذة كانت من الطين، وكان يطوق تلك البلدة سور من الحجر، كما أشار إلى شروحات ذلك الرحالة الفرنسي حول الصدامات العسكرية والحربية التي وقعت بين جيوش محمد علي باشا وجيوش عسير في محيط منطقة القنفذة . انظر: مرتفعات الجزيرة، ج٢، ص ١٢٩٥ . وعن الصراع بين أهالي عسير وجيوش محمد باشا، انظر: أحمد آل فائع، ص ٢٤٧ وما بعدها .

المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية[١] **(Saudi Arabian : With an Account of its Natural Resources)**، ويتضح من مادة هذا الكتاب أن المؤلف كان على صلة قوية بملك المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، بل قضى فترة طويلة ينتقل في أرجاء البلاد السعودية، ولهذا يقول عنه حافظ وهبة، مقدم كتابه الآنف الذكر المترجم إلى اللغة العربية: "إني أعتقد أنه لم يتح لأمريكي، بل ولا بريطاني-إذا استثنينا مستر فيلبي-ما أتيح لمستر توتشل من التجول والبحث، ونجد هذا مفصلاً في كتابه: المملكة العربية السعودية، الذي نقدم ترجمته للقراء "[٢]. وقال توتشيل نفسه " أنه أكثر من أي أمريكي آخر حتى سنة (١٩٤٦م) على أوثق صلة لأطول مدة بالملك عبد ابن سعود، وهناك الكثير من بقاع البلاد السعودية لم يسبق أن زارها سواي من غير المسلمين، وكنت أستطيع التجوال فيها بحكم عملي مع الحكومة السعودية .. "[٣].

وكتاب توتشيل الآنف الذكر يشتمل على (١٧) مبحثاً جميعها تدور حول أجزاء عديدة من التاريخ السياسي والحضاري الذي مرت به المملكة العربية السعودية أثناء التأسيس، ومن البلدان التي زارها هذا الرحالة في الخمسينيات من القرن الهجري الماضي بلاد القنفذة التي قال عنها[٣]: " القنفذة ميناء هام لعسير، ويبلغ سكانها من (٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠) نسمة، وهي منطقة تقع خلف نطاق الساحل في الهضاب الواقعة في مقدمة سلسلة جبال الحجاز-عسير-على مسافة تتراوح من (١٠-١٢) ميلاً، باتجاه الشرق. وعمارتها المؤلفة من طابقين، ذات سطح منبسط ونوافذ واسعة ومتعددة، وتبيض بالجير من الداخل والخارج. أما أماكن السكن المتواضعة فهي ذات جوانب وسطوح من القش محبوكة فوق إطار خشبي كثيف، ويجلب إليها الماء من حفر تبعد

---

(١) صدر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإنجليزية من دار قرين وود في نيويورك (Green Wood Press New York) عام (١٩٤٧م)، ثم أعيد طباعته عدة مرات، وأخيراً ترجمه الأستاذ شكيب الأموي إلى اللغة العربية ونشرته دار إحياء الكتب العربية في القاهرة عام ١٩٥٥م وهي النسخة التي سوف نعتمد عليها في هذه الدراسة. انظر: كتاب توتشيل، المملكة العربية السعودية (النسخة العربية)، ص ٢.

(٢) انظر: مقدمة المؤلف (النسخة العربية)، ص ٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣ ومابعدها. يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تعكس استقبال توتشيل في عسير وجازان، وما بذل أمراء تلك النواحي والشيخ عبد الوهاب أبو ملحة رئيس ماليات الجنوب من تسهيلات لهذا المستشرق أثناء تجواله وتنقلاته في نواحي عديدة من جنوبي البلاد السعودية. المصدر: مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق العلمية) وثائق القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٢,٥) ميل إلى الداخل ويعتبر تحسين هذه البلدة وبلدة أبها والنهوض بهما من الضروريات للمصلحة العامة للإقليم كله ..." [١].

وفي مكان آخر يشير توتيشل إلى رداءة الطرق التي تربط مكة بجازان عبر الساحل، لما يوجد بها من رمال كثيفة، ويقترح أن يكون هناك طريق جيد من الجهة الشرقية التهامية، والقريبة من سفوح السروات الغربية، ثم تربط تلك الطريق بطرق عرضية تربط ما بين الساحل والأجزاء التهامية الداخلية، وهذا مما ينمي النشاط التجاري والاقتصادي في البلاد [٢].

١٤ـ ولفرد ثسيجر (ق١٤هـ/٢٠م):

ولد هذا الرحالة البريطاني، في أديس أبابا عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م)، ودرس في جامعة أكسفورد، ثم عمل في السودان والحبشة وسوريا، ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية (١٣٥٩ـ١٣٦٥هـ/١٩٤٠ـ١٩٤٥م) استهوته المغامرات فقام بالعديد من الرحلات في عدد من الأقطار المختلفة ومنها جزيرة العرب [٣]. وفي عام (١٣٦٥ـ١٣٦٦هـ/١٩٤٥ـ١٩٤٦م) قام برحلة عبر تهامة وعسير وجبال تهامة، ودون تفصيلات جيدة عن المجتمعات التي زارها [٤]. وكان من مهامه في تلك الرحلة أنه حصل على إذن [٥] من جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لدراسة

---

(١) توتيشل، المملكة، ص ٧٨ . والقنفذة بدون شك كانت من البلدان الهامة جداً ليس لأبها فحسب وإنما لعموم منطقة عسير حيث ترد إليها السلع والتجارات البحرية عن طريق القنفذة . يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تعود إلى القرنين (١٣ـ١٤هـ/١٩ـ٢٠م) وتؤكد على نشاط وأهمية ميناء القنفذة لبلاد تهامة والسراة الممتدة من أبها ومحائل عسير جنوباً إلى بلاد غامد وزهران شمالاً .

(٢) هذه اقتراحات توتيشل، والزائر الآن لبلاد تهامة الممتدة من جازان إلى مكة يجدها أصبحت مرتبطة بشبكة من الطرق البرية الجيدة التي تساعد على دفع عجلة التنمية والتحضر في تلك النواحي . ومثل هذه الخدمات أصبحت منتشرة في كل بلدة أو ريف أو ناحية من نواحي المملكة العربية السعودية . فلله الحمد والفضل والشكر على ما من به من خيرات لا تعد ولا تحصى . كما نشكر دولتنا الرشيدة وندعو لها بالتوفيق والتمكين والسداد . (والله من وراء القصد).

(٣) انظر: ولفرد ثسيجر "رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز" ترجمة د. أحمد عمر الزيلعي . مجلة الدارة، العدد (١). السنة (١٤) (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، شوال١٤٠٨هـ/ مايو١٩٨٨م)، ص٩٣ـ١٢٣ .

(٤) مقدمة المترجم للدراسة الآنفة الذكر، ص٩٣ . وقد نشرت هذه المعلومات لأول مرة باللغة الإنجليزية عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) في المجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن .

(٥) حصوله على إذن من الملك عبد العزيز سهلت له الرحلة التي استغرق فيها ثلاثة شهور، وقد أورد ذلك في آخر مدونته فقال : "... أمراء المناطق والمراكز الذين قابلتهم خلال هذه الشهور الثلاثة، قدموا لي الكثير من المساعدة وكرم الضيافة التي اشتهرت بها الجزيرة العربية، وقد سافرت بين قبائل كثيرة لم يقابل أهلها إلا قليل من الفرنجيين المسيحيين، هذا إذا كانوا قد قابلوا أياً منهم، وكنت دائماً استقبل استقبالا جيدا، لأن المسافر الذي يسافر (في هذه البلاد) بإذن ابن سعود، يتكفل له في كل مكان بالأمن والمساعدة" ولفرد ثسيجر، ص ١١٢ .

أوضــاع الجراد الــذي اجتاح نواحي عديدة مــن الجزيرة العربيــة[١]. وكان لذلك الإذن الأثر الكبير في تسـهيل مهمته وحصـوله على المسـاعدات والتسـهيلات من أمــراء وأعيــان المناطق التي مر عليها[٢] ويظهر من قراءة رحلة شـيجر أنه تجنب وصـف الموائد في بيوت من استضــافوه، أو الحديث عن نفســه، كما يفعل كثير من الرحالة الذين يسـهبون في هذا الجانب، وركز على تدوين المعلومات والمشـاهدات العلميــة المجردة . وهذا مما جعل مادة هذا الرحالة على محدودية معلوماتها ذات قيمة علمية هامة ورائدة [٣].

وقد بدأ هذا المستشــرق رحلته من وادي الأحسـبة في منطقــة القنفذة، ذاهباً إلى بلدة المخواة، ثم عرج على بعض النواحي من أرض العرضـيتين، ثم أجزاء من تهامة بني شهر إلى بلاد حلي والبرك ثم محائل وواصل سيره في أجزاء أخرى من جازان وعسير السراة وسروات غامد وزهران حتى مدينة الطائف[٤]. واشتملت هذه الرحلة على معلومات دقيقة وجميلة عن أجزاء من بلاد القنفذة وما جاورها، يصعب أن نجدها في أي مصدر آخر، ولهذا نوردها كما وصلتنا حتى تعم فائدتها، ويطلع عليها أكبر شريحة من القراء الكرام، بدلاً من اختزالها في نقاط مختصرة ومحدودة، فهو يقول : " بدأت رحلتي من وادي الأحسبة إلى الشمال من القنفذة، وكان بصحبتي أحد أخوياء الإمارة، وهو شاب من الأشراف، وجمَّالان، وأربعة من الجمال المستكراة التي تسـير، حسب العرف السائد في تهامة، ورؤوسـها مقطورة إلى ذيول بعضها البعض،

---

(١) كان الجراد يمثل خطراً كبيراً خلال العهود الماضـية فيجتاح الزروع وممتلكات الناس العقارية، ويلحق بها الكثير من الخراب والدمار وكانت الدول والمؤسسـات الرسـمية والأهلية تعاني من كوارث الجراد، وتسعى إلى الحد منه ومن مخاطره على حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية .

(٢) لم يكن غريباً أن يجد هذا المستشـرق مسـاعدات من الدولة السعودية، فهذا ديدن الملك عبد العزيز الذي كان يسعى إلى استقطاب الكفاءات العلمية الجيدة ومساعدتها لدراسة أحوال البلاد، وهذا فعلاً ما حصل مع علماء ورحالة آخرين مثل فلبي وتوتيشل وغيرهما . إن موضوع العلماء العرب وغير العرب الذين اتصلوا بابن سـعود ووجدوا منه الدعم والتأييد جدير بالبحث والدراسـة حبذا أن يظهر من طلابنا وطالباتنا في برامج الدارسات العليا من يتصدى لمثل هذا الموضوع الجيد .

(٣) انظر: نص الرحلة المترجم إلى العربية، مجلة الدارة (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ٩٣-١٢٣ .

(٤) المصـدر نفسـه، ص ٩٣-١١٢ . ويذكر شيجر أنه ذهب في رحلة أخرى عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) عبر طريق السـاحل من القنفذة إلى صـبيا وجـازان وأبو عريش وجبل فيفا ثم إلى ظهـران الجنوب ونجران وأبها في عسير، للمزيد عن هذه الرحلة انظر :
H. St. B. Philby (The Land of Sheba "(Gagr . J . 92(1938) 1-21, 107- 32. and , Shaba,s Daughter (London , 1939).

حيث لا يسمح لهذه الجمال بأن ترعى، بل إن افواهها تكمم، بصفة مؤقتة، بسلال على هيئة شبكة ذات فتحات[١] . يقدم من خلالها بواسطة اليد غذاء الجمال المكون من قصب الذرة الذي تحمله علي هيئة حزمتين كبيرتين توضعان فوق الأحمال من الجانبين، وهي في الغالب لا تحصل على كفايتها من العلف لما في ذلك من الصعوبة وارتفاع التكلفة، وتستطيع جمال تهامة أن تنقل أحمالا ثقيلة، ولكنها غير قادرة على الحركة فوق الصخور، وسرعان ما يصيبها الحفا عندما تسير على أرضية حجرية[٢]، وهي ترد الماء يومياً وأحياناً مرتين في اليوم عندما يكون الجو حاراً، ويسافر هؤلاء الأعراب ليلاً خلال الصيف، وعندما ينامون يتكورون فوق الأحمال، وجمالهم تسلك الطريق دونما تردد [٣] .

" وفي طريقنا إلى المخواة[٤]، سلكنا وادي الأحسبة حيث يسكن الأشراف العبادلة في السهل الساحلي من هذا الوادي، ولكنه سرعان ما يدخل الطريق في منطقة صخرية وعرة، لا توجد فيها إلا قرى قليلة، وزراعة حقيرة، وكانت تقع أمامنا بمسافة بعيدة أصدار جبال الحجاز[٥]، وبالقرب منا تنتصب قمتان من الجرانيت يصل ارتفاعها (٨٠٠٠) قدم هما : شدا اليماني، وشدا الشامي، وهما أحد المعالم البارزة التي يسهل التعرف عليهما من بعيد[٦] . وينمو شجر البن على هذين الجبلين، بالرغم أنه لم يستنبت حتى الآن على سلسلة الجبال الرئيسة الواقعة إلى الشمال منها" [٧] .

---

(١) هذه السلال تعرف محلياً باسم الفَدَائم، ومفردها فِدَامة، وهي تصنع من الطفي أو الحصير الذي يصنع من ورق أشجار الدوم الموجود بكثرة في تهامة . شيجِر، الرحلة، ص ٩٤، حاشية رقم (٣) .

(٢) الجمال تسير في الأراضي السهلة والمستوية بشكل أفضل وآمن من المنحدرات أو الطرق الجبلية الوعرة.

(٣) ولفرد شيجر، ص ٩٤-٩٥ . الجمال من الحيوانات الأليفة والموجودة إلى حد ما في أرض تهامة، لكن صحاري نجد وما شابهها مليئة بالجمال المتنوعة في أشكالها، وأنواعها، وفصائلها، وتعد من الوسائل الرئيسة لحمل الأمتعة والأثقال بخلاف تهامة التي تتوفر فيها الحمير بكثرة للغرض نفسه.

(٤) المخواة : بلدة في تهامة غامد وزهران، وهي إحدى محافظات منطقة الباحة اليوم . مشاهدات الباحث لهذه المدينة خلال عامي (١٤٢٤هـ-١٤٣١هـ/٢٠٠٣-٢٠١٠م) .

(٥) (٢) الأصدار جمع (صدر) هي : المنحدرات الغربية لجبال السروات الممتدة من اليمن إلى الحجاز.

(٦) هذان الجبلان على مقربة من بلدة المخواة، ويعرفان باسم : شدا الأعلى وشدا الأسفل . الأول : يقع إلى الجنوب من مدينة قلوة وأغلب سكانه من قبيلة زهران، والثاني إلى الجنوب من شدا الأعلى ويسكنه بعض بطون من قبيلة غامد . على السلوك . المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (غامد وزهران) (الرياض : منشورات اليمامة، وبيروت، ١٣٩١هـ) ص ٣٤١-٣٤٣ . ويوجد في هذين الجبلين الكثير من النقوش والرسومات الصخرية، حبذا أن يظهر أحد الباحثين الآثاريين فيدرس هذه الآثار التي ربما تحتوي على الكثير من التفصيلات التاريخية والحضارية الهامة .

(٧) ولفرد شيجر، ص ٩٥ .

وعند وصـول هـذا الرحالة إلى المخواة ذكر بعض المعلومـات التاريخية القيمة عـن تلال البلـدة، ثم خرج منهـا متجهاً إلى بلاد العرضـيتين ونواحـي أخرى من بـلاد القنفـذة وتهامة عسـير[١]، وعند ذهابه مـن المخواة قال: " وعنـد مغادرتنا المخواة،سرنا عبر تلال جبليةذات حوائط عمودية شديدة الانحدار، يبلغ ارتفاعها فوقنا (٣٠٠٠قـدم). وهذه المنطقة تخص فخذاً من قبيلة غامد القوية التي يسـكن معظمها في الجبال إلى الشرق من هذا الموقع[٢].

وتتناثـر مزراعهم على طول وادي بطـاط[٣]. حيث اكتظت ضـفتاه بالزراعة التي تروى من الآبار والسيول معاً. ثم اجتزنا وادي قنونا إلى الوراء من بطاط، ودخلنا بلاد بلعريان[٤] وهي منطقة جرانيتية خصبة، يقوم على حراستها العديد من أبراج المراقبة. ووصـلنا في اليـوم التالي إلى مركز إمارة ثريبان الصـغيرة حيث احتفـى بنا أميرها وأكرمنا[٥]. ثم سافرنا من هنا في برد الصباح، وسط حشد من القرويين المتجهين على الحمير، والجمال المحملة إلى سوق الثلاثاء الواقع على ضفتي وادي يبة، في وسط بيئة من التلال المكونة من الصـخور الجرانيتية، حيث يكتظ هذا الوادي بأشـجار النخيل. ورأينا هناك محاصيل ممتازة من الذرة، والسمسم، تسقى من جدول يتدفق في الوادي، حيـث يقوم سـوق عمارة (الذي يعقد كل يـوم ثلاثاء)[٦]. وعمارة قبيلة جذابة، تشـبه أعراب تهامة، يلبس أفرادها مآزر قصيرة من القماش، ويشد الواحد منهم جنبية على وسـطه من الأمام. أما شـعورهم الطويلة، فقد زينت بنباتات زكية الرائحة، اشـتريت من السـوق لهذا الغرض. ويلبس معظم النسـاء وقليل من الرجال قبعات مصنوعة من

---

(١) مثل بلاد خاط والمجاردة في تهامة بني شهر، وبلدتي بارق ومحائل وما جاورهما، مع أن تهامة عسير تمتد من درب بني شعبة جنوباً إلى بلاد العرضيتين من منطقة القنفذة شمالاً. مشاهدات الباحث وتنقلاته في هذه النواحي منذ أربعين عاماً.

(٢) يعرف هذا الفخذ باسم: غامد الزناد وتنتشر ديارهم في بطاط، والفرعة، ونصبة، والعطوة، وييس وتمتد ديارهم من الغرب إلى بلاد زبيد في منطقة القنفذة، السلوك، ص ١٤.

(٣) وادي بطاط: يطلق على أعلى وادي الأحسـبة، وهو مقر شـيخ قبيلة غامد الزناد. ولفرد ثسيجر، ص ١١٤. حاشية رقم (١٢).

(٤) بلعريـان: إحـدى فروع خثعـم التهامية في العرضـيتين الجنوبية من منطقـة القنفذة، وللمزيـد عن بطون وعشائر العرضيتين (الجنوبية الشمالية) انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م). الجزء الثاني، ص٤٠٨-٤٠٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٢ وما بعدها.

(٦) للمزيد عن بطون وعشائر بلاد العرضيتين مثل عشيرة عمارة وغيرها، انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٤٠٤ وما بعدها.

الحصـير، حيث تتميز قبعات الرجال بأن حوافها واسـعة ومرتخية، أما قبعات النساء فهي قصيرة الحواف، ومتصلبة، وتيجانها مرتفعة [١].

وعندمـا اجتزنا الجدول، كان ثمة راع شـاب، يشـبه رمز الغابـات أو الجمال عند الرومان؛ وقد ملأ بسـاتين النخيل بترديده لأنغام موسـيقية شجيه تنبعث من مزماره [٢]، ثم دخلنا أرضاً مجدبة تتكون من الصخور النارية، والتلال الناتئة حيث توجد شـجيرات متفرقة من السمر، ولو أنها عديمة الأوراق المزهرة . وتستمر هذه المنطقة المهجورة حتى وصـلنا وادي خاط [٣]، ثم أراضي قبيلة حُميضة الزراعية في بارق [٤]. وهي تشـبه قبيلة عمارة ويسـكن أفرادها في بيوت مستوية الأسقف، بنيت من الحجارة بشـكل جيد، وهذه القبائل المسـتقرة تملـك قليلاً من الجمال وبعض الأبقـار، وأحجامهـا جيدة مـن قطعان الضـأن والماعز، ولكنهم أساسـاً مزارعون يقومون بزراعة الدخن والذرة سـواءً في سـهول صغيرة تسـقى عن طريق السيول، أو في بقـع طينيـة في بطـون الأودية . وإلى الوراء من آل حميضـة، توجـد قبيلة آل جبلـي وهم يسـكنون على ضـفتي وادي آل جبلي أحد روافـد وادي حلي المهمة [٥]. وقد استطعنا أن نطوي هذا الوادي حتى نصل إلى وادي حلي الذي كنت تواقاً لتتبع مجراه حتى الشاطئ، لكي أزور أعراب تهامة المتعين [٦].

نحن الآن خارج المنطقة الزراعية، وبالتحديد في أرض البدو، وهذا الاصطلاح يستخدم هنا للدلالة على القبائل التي تعتمد أساساً على الرعي، وتسكن في المنطقة الوعرة الواقعة بين المرتفعات الجبلية، والسـهل الساحلي . إنهم، وقبل كل شيء، رعاة قطعـان الماعـز، ولكنهم يملكـون بعض الضـأن، والبقر وقليلاً من الجمـال، ويقومون بزراعة بقع صـغيرة على طول ضفتي الوادي، ويسكن هؤلاء البدو في بيوت صغيرة من

---

(١) وتسـمى الواحدة من هذه القبعات مظلة، أو طفشـة، وتصنع من أوراق شجر الدوم (الطفي)، ومن خوص النخيل . ولفرد ثسيجر، ص ١١٤، حاشية (١٦) .

(٢) المقصود ب (المزمار) محلياً أي الصفريقة، وهي تصنع من لحاء عروق الشجر آنذاك .

(٣) وادي خاط : أحد الأودية الرئيسة في تهامة بني شهر وبني عمرو . للمزيد انظر: غيثان بن جريس : بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣-١٤هـ/ ١٩-٢٠م) (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) (الطبعة الثانية)، ص ٣٥٤ وما بعدها .

(٤) بارق : إحدى المراكز الحضـارية التابعة لمحافظة المجاردة، وتتكون من مجموعة من العشـائر التي تسـكن المنطقة البارقية وتحمل اسم بلاد بارق . مشاهدات الباحث وتنقلاته في بلاد بارق عام (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

(٥) حلـي : واد كبـير ترفده كثير مـن الأودية الصـغيرة، وينبع من جبال السـروات ويصـب في البحر. انظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ١٧٦ وما بعدها .

(٦) للمزيد عن وادي حلي، انظر: الزيلعي " المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي"، ص ٧٩ وما بعدها .

الحصر تعرف باسم الخدور، ولا يستطيع المرء أن يرى، في غرب جبال الحجاز، الخيام السوداء " بيوت الشعر " المعروفة في وسط الجزيرة العربية. وأثاثهم الوحيد قليل من الأسرة المحبلة بحبال من الحصير . وهؤلاء البدو هم ربيعة الطحاحين، وموسيفرة، وبنو هلال ومنجحة، وإلى الجنوب منهم فخوذ من بدو بني نمار، وشهران، وقحطان، وخولان، والريث[١] . وقد كانت لهؤلاء في الماضي القريب جداً، سمعة سيئة كقطاع طرق، وأهل عنف، ولكن تبدل هذا السلوك في الوقت الحاضر لهيبتهم من ابن سعود . ويلبس هؤلاء مآزر قصيرة من القماش مصبوغة باللون الأخضر، والأزرق، أو البني المشوب بحمرة . ويلبس النساء قبعات من القش قصيرة الحواف عالية التيجان[٢] .

ثم وصلنا إلى حلي على امتداد يعرف باسم حلوية، حيث يوجد، عبر منطقة صخرية مكشوفة، جدول صغير يتدفق في الوادي ويحف به نبات الحلفا، وأحراش السلم، والسمر وغيرها من الأشجار البرية مثل شجر الأراك، والمرخ، والمض ذي الزهر الأحمر، وشجرة العدن بزهورها المحببة إلى النفس، وجذوعها العارية القبيحة، ولبنها الذي تدره من أغصانها ليتحول إلى صمغ، ثم نبات الصبار الذي ينمو في التلال المكونة من الصخور النارية . ورأيت على طول مجرى الغيل الذي يعج ماؤه بصغار السمك، كثيراً من طيور البجع، وطائر أبي منجل اللماع، ولوحظ أيضاً طائر اللقلق [أبو مشط أو أبو مطرقة]، وطائر البلشون الأبيض، ومالك الحزين، وفي بعض الأحيان طائر الخطاف، والدجاج السوداني أو الغرغر، وطائر الدُّراج الذي يشبه الحجل، وطائر البوقير، وآكل النحل ذو اللون الأَخضَر، وطائر التُّمَّر ذو البريق المعدني، وطائر الصُّرد أو الدَّغناس، وطائر البابلر أو الأصفر العينين، وطائر البلبل، وطائر الوقواق، وأحياناً طائر النسر، وينساب وادي حلي عبر ممر حصن الطرفين الضيق إلى سهل ساحلي رملي، حيث توجد أول قرية في هذه المنطقة السبطة التي تسكنها قبيلة العُمور، وفيها سوق الأربعاء أحد أسواق وادي حلي[٣]

تحتوي تهامة على سهل ساحلي رملي يتراوح عرضه بين (١٢ ـ ٢٠) ميلاً، وهي تنقسم إلى تهامة الشام، وتمتد من البرك إلى الليث شمالاً، ثم تهامة عسير وتهامة

---

(١) للمزيد عن هذه البطون والعشائر، انظر: العقيلي، المخلاف، ج١، ص ٧٩ وما بعدها . البلادي، بين مكة واليمن، ص ٢٢٢ ـ ٢٣٠، ٢٨٨، ٢٩٦ـ ٢٩٧ .

(٢) للمزيد عن الألبسة والزينة في بلاد عسير وما جاورها انظر: ابن جريس، عسير ١١٠٠ـ ١٤٠٠هـ، ص ٦٥ ـ ٧٣ .

(٣) للمزيد من التفصيلات عن بلاد حلي، انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٣٨٨ـ٣٩٣ .

اليمن . وتعرف المنطقة الجبلية التي تتوسط بين تهامة الشام وسفوح جبال السراة، ويتراوح ارتفاعها بين (٥٠٠-٤٥٠٠) قدم، باسم (العُرضية)[١] بينما يطلق على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أبها اسم (الحباطة) ويطلق على جميع هذه السلسلة الجبلية بما في ذلك عسير التي يزيد ارتفاعها عن (٩٠٠٠) قدم، اسم " الحجاز" ويستخدم هنا بشكل شامل اصطلاح الشام الذي يطلق على الشمال، واليمن على الجنوب، والجبلي على الشرق، والبحري على الغرب . ويعرف سكان تهامة باسم التهاميين، ويتمركزون في الأودية التي تستمد سيولها من الجبال . وهم بصفة عامة مستقرون، ولا يوزع الرجل منهم أرضه خارج عشيرته، ولا يبيعها إذا كان له أبناء كبار دون أخذ موافقتهم . ويرث الأبناء حصصاً متساوية، والبنات نصف حصة الرجل، والأودية الرئيسة الواقعة في الشمال [تهامة الشام] هي الليث، ودوقة، والأحسبة، وقنونا، ويبة، وحلي[٢] . وفي جميع الاعتبارات فإن وادي حلي، بروافده الواسعة الممتدة من شري في الشمال إلى تيه في الجنوب، يعد من أعظمها أهمية، ولا يتفوق عليه إلا وادي بيش الذي يعتبر مع وادي عتود وضمد الصغيرين من الأودية الرئيسة في تهامة . وينتسب التهاميون بصورة عامة إلى أوديتهم، وهكذا، فإن سكان حلي يسمون (الحلاونة)، وأهل يبة (اليبابنة) .

ويستوطن هذه الأودية كثير من القبائل المختلفة ففي وادي حلي أربع قبائل كبرى هم: العلاونة، والصحب، وكنانة، والعمور . ومن القبائل في وادي يبه بنو يعلى، والنواشرة، وبلعير، والشوادرة، وتسكن في الأحسبة قبيلة الأشرف العبادلة . ولا يجمع هذه القبائل أصل مشترك، ولكنهم عند إعلان الحرب يتحدون تحت راية واحدة ... وعندما لا يسيل أحد الأودية فإن سكانه يهاجرون إلى أي مكان آخر في تهامة، حيث يستقبلون بالترحاب، ويساعدون في الحصاد، ثم يعودون بعد ذلك إلى أوطانهم، ومعهم أحمال من الحبوب. وعلى العكس عندما يصب الخير في ديارهم في بعض السنوات الأخرى، فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين. وهذا النظام يشمل الإقليم الممتد من جازان إلى الليث، وقد صادفت أسراً من أهالي المنطقة المحيطة بمدينة صبيا في طريقهم إلى القنفذة[٣] .

---

(١) وجبال العرضيتين أقل ارتفاعاً من جبال السروات الرئيسة .

(٢) وهذه الأودية الرئيسة في بلاد القنفذة .

(٣) كانت ظاهرة التعاون والتكاتف والتكامل الاجتماعي قوية ونشيطة بين الناس قديماً، واليوم ضعفت مثل هذه الظاهرة، وتراجعت قيم الناس ومبادؤهم في هذا الجانب . انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢ ، ص ٢٧٢ وما بعدها .

وتعــاني الأودية الصـغرى كثيراً من سـنوات الجفاف العديـدة، إلا أن وادي حلي ووادي بيش يسـتطيعان الاعتماد على السيول سنويا، ففي السنة الماضية انفجر العَقْم الرئيس في وادي حلي، وتبعاً لذلك، أصبح الوادي الذي في أعلى البيضين مهجورا فقد انتقل سـاكنوه إلى وادي يبة . وتأتي السـيول في أي شـهر خلال السـنة، ولكن فصـلي الخريف والشتاء أكثرها اعتيادا، حيث تحجز وتوزع على مساحات كبيرة بواسطة عدد من السـدود الترابية تعرف باسـم " زبير " وهي تحتاج إلى انتباه منتظم ؛ لأن السيول التي لا تستطاع السيطرة عليها، ربما يلحق فيضانها أذى بالمحاصيل اليافعة .

والمحصـولان الرئيسـان في تهامة همـا : الذرة التي تنمو في الأراضـي الطينية الرسـوبية، وتنتج من بذرة واحدة من ثلاث إلى خمس حصـدات[١] . والدخن الذي يبذر بصـورة عامـة على المطر، وينمو في الخبت أو الأراضـي الرمليـة بين الأودية. وتحصـد الذرة بعد ثلاثة أشـهر من بداية زراعتها، ثم بعد ذلك كل شهرين، بينما يصـرم الدخن مرة واحدة بعد ثلاثة أشـهر من تاريخ غرسه . ويعتبر قصب الذرة، وليس الدخن، علفاً جيداً حتى ولو كان يابساً، والمحاصيل التي يكتمل نموها في شهري يوليه وأغسـطس تستخدم فقط لهذا الغرض، لأن الرياح الحارة التي تهب في ذلك الفصـل تساعد على تجفيف الحبوب، ويزرع السمسم في أطراف الأراضي السيلية، حيث تزرع أيضاً مقادير صغيرة من القطن والفاصوليا . وليس لدى أهل تهامة دورة زراعية للمحصولات، فهم يبذرون كلما وجد السيل . وتوجد حول بعض الآبار بساتين صغيرة تسنبت فيها الطماطم، والباذنجان، والبامية، والدباء، والحبحب والخربز، والنباتات ذات الروائح الزكية[٢] . ولا ينمو هنا البصل والثوم، والفلفل الأحمر، فهذه المحاصـيل مع محاصيل أخرى هي الليمون، والعنب، والمشـمش، والخوخ، والرمان، والموز، والبطاطس، والبرك، والشـار، تجلب إلى أسـواق تهامـة من جبال الحجاز، والتمر قليل، وينمو معظمه في أعلى وادي يبة، وعلى طول الساحل بين عَمق والقحمة . وجملة التمور المسـتهلكة هنا تصـل عن طريق البحر، أو من واحة وادي بيشة، أما شجر الدوم الذي تصدر أوراقه، وأيضاً تباع في هذه الأسواق، ويصنع منها الحصر، والزنابيل، والسلال، والحبال، فإنه ينمو فقط في أودية تهامة عسير[٣] .

---

(١) المصـدر نفسـه : للمزيـد مـن الإيضـاح عـن الزراعـة في عسـير وجـازان ومـا جاورهـا، انظـر: ابن جريس، عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ، ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه . للمزيد انظر: ولفرد شيجر، ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه . للمزيد انظر: ولفرد شيجر، ص ٩٩ وما بعدها.

ولا يملك التهاميون إلا قليلاً من الجمال، ومعظمها تمتلكها القبائل الساكنة إلى الشمال من القنفذة، وهم يستخدمون البقر في حرث الأرض وإقامة العُقُم، أو السدود الترابية، وقد علمت أن رجلاً غنياً يمتلك من ثلاثين إلى أربعين رأساً من البقر، لذا فمن الواضح، أنهم يمتلكون أكثر مما رأيت . وتوجد أحجام طيبة من قطعان الماعز، وبعض الضأن التي تودع بصورة عامة عند جيرانهم البدو لحفظها . وتربية الدجاج شائعة حول القرى، والحمير دواب ركوبهم المفضلة، وهم يسافرون عليها مسافات طويلة في وقت قصير يبعث على الدهشة، ويستخدمونها أيضاً في جلب الماء من الآبار في جرار كبيرة تعلق في شباك من الحبال على جانبي الحمار. والحطب شحيح على الرغم من وجود بقع من شجر الأراك، والأثل في الأودية، ويحافظون على أشجار السدر الكبيرة في الحقول لفاكهتهم[1] . ويسكن هؤلاء الأعراب في عشش مستديرة الشكل، جيدة التركيب، تبنى في العادة على هيئة كتلة واحدة، على هيكل من الأغصان بدون عمود خشبي، وتكلس من الداخل بالطين، ومن الخارج تغطى بالحشيش الذي يحكم رباطه بحبال رفيعة . وتتكون المنازل في القرى من مجموعات، بينما يحاط بعضها بأفنية عالية مبنية من الأخشاب الرفيعة، ويحاط البعض الآخر بزريبة من مراميد قصب الذرة . وقد جرت العادة أن تترجل عن الجمل، وتمشي على رجليك عندما تمر عبر هذه القرى [2].

أواني الطبخ، والماء، وفناجين القهوة، مصنوعة محلياً، وبصورة عامة من الفخار الأحمر، وأقداح الشرب مصنوعة من الخشب . أما أطباق الطعام والسلال فهي من ورق الدوم [الطفي]، وأواني الزبدة من لحاء الدباء، وهذه تعلق على جدران المنازل في معاليق جلدية[3] . وتستخدم الأسرة المصنوعة من الخشب والحبال، للنوم والجلوس معاً، لأن أرضية المنازل تغص بالكُرش [القراد الصغير] ولو أن حشرات البق والبراغيث لا وجود لها في هذه القرى .

القهوة بالزنجبيل هي الشراب العام، والفنجان يملأ دائماً، ويعطى الضيف فنجانين دفعة واحدة "[4]. والغذاء الرئيس هو خبز أو ثريد الذرة، وفي حالة عدم

---

(١) ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ١٢٦، ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥، ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٥ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٦٤ .

وجوده أو انعدامه فإن الدخن يؤكل عريكاً بسمن الزبدة النقي . ويؤكل السمك المجفف والتمر بصورة عامة، ولكن اللحم وجبة ترفيهية، والحليب شحيح (١).

ويلبس الرجال بصورة دائمة مآزر من القماش مع خنجر أو جنبية مشدودة في الوسط من الأمام، ويلبس جميع الذكور حتى الأطفال أحزمة من الجلد تحيط بالخصر (٢). وفي إحدى المرات كان أحد الأطفال يأكل معنا، وقد نسي أن يلبس حزامة بعد الاستحمام، وحالما لاحظ عدم وجوده على بطنه . رفض أن ينهي وجبته وهرع لأخذه، وتلبس في الاحتفالات، بصورة خاصة، صديرية قصيرة، زاهية الألوان، ضيقه الأكمام، ويمتلك الأطفال، والشباب شعوراً طويلة فرق في الوسط، وتمرخ على طول المفرق بمعجون اللباب الأبيض المسحوق . ويلف الشعر بشريط جلدي رفيع، مزخرف في بعض الأحيان بالفضة، في حين تلبس بصورة دائمة عصابة من البرك، أو حزمة من النباتات الزكية الرائحة تغرز في الشلاف (٣). إنهم شعب نحيل البنية، وملونون، وشعورهم سوداء مموجة، بجانب ما يظهر عليهم من صفات المرح، والسعادة، والانطلاق، كما أنهم يعرفون بضحكهم، ووداعتهم، وعدم جديتهم، وكذلك بتصرفاتهم العفوية، وقد لاحظت عدداً من حالات التراخوما، وقليلاً من قرحة المناطق الحارة، وحالة واحدة تقريباً مؤكدة من حالات الزائدة الدودية، ويوجد هنا مرض الدودة الغينية (٤). وقد رأيت فيها بعد حالات متعددة حول صبيا .

وصلت إلى البيضين، قرية المشايخ، لأجد الأهالي وجيرانهم يحتفلون بالختان. وهذا الاحتفال ذو أهمية عظيمة بين هؤلاء القبائل . وهو مناسبة للرقص الذي يستمر من أسبوعين إلى شهر . وتتم عملية الختان لفتيان بين سن السادسة عشرة والخامسة والعشرين . وقد ختن في هذه المناسبة أربعة أولاد فقط رغم أن عدد المختونين يصل في بعض الأحيان من ٨ ـ ١٠ أشخاص . إنهم يرتدون ثياباً مميزة تتكون من سروال ذي طرفين مشغولين بخيوط حمراء تحيطان بأسفل الساقين تحت تنورة كاملة البياض مشدودة بحزام على الوسط، ومعاطف حمراء براقة [صديرية] (٥) .

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، الشلاف : تعرف أيضاً بـ (المشقة) وهي نباتات عطرية تغرز مع عصابة مصنوعة من الريحان والاشجار الزكية .

(٤) ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ص ٣٩٢ وما بعدها .

(٥) ابن جريس، عسير ١١٠٠ـ ١٤٠٠هـ، ص ٨٥ ـ ٨٧ .

يتجمع الجمهور كل عصرية وفي المساء، والثلابة يرقصون بينهم، والموسيقيون زنوج، وأدواتهم الموسيقية هي: الزلفة، وهي طبل واسع يضرب باليدين، واثنان من الأزيار [مفرد زير] يدقان بواسطة المضاريب، وزمارتان تدعى الواحدة منهما صفريقة.

تدار بواسطة الزلفة حركات الركض المعقدة التي تخضع لطابع معين، ويرقص الثلابة جماعة وفرادى، وهم يجثمون ويحنجلون [يهكعون ويقفزون] بينما يحملون في أياديهم خناجر مسلولة، يحركونها أمام أجسامهم، وقد انضم إليهم طفلان صغيران ليتعلما الرقص، وبقية الأطفال يتدربون خارج الحشد، بينما يوجد خلفهم الجيش أو الفرسان في صف واحد، وهم يهزون أنفسهم على وقع الطبول، ويحملون في أيديهم سيوفهم المسلولة والمشرعة إلى أعلى، وتراهم في ضوء القمر متوجين بالزهور، ونصف عارين [١].

وقبل إجراء عملية الختان بيومين، انطلق الأولاد راكبين جملين، وبصحبتهم أصدقاؤهم، وتتقدمهم راية، ليدوروا حول القرى المحيطة بهم، حيث يحتفى بهم فيها، ويرقصون في كل منها .

ويوم الختان يتجمع حشد كبير من المتفرجين، وبعد ظهر هذا اليوم بوقت متأخر، يرقص الأولاد، ثم ينسحبون إلى عشة معدة لتغيير ملابسهم، حيث يلبس الواحد منهم إزاراً من القماش، ويصعدون على أكتاف العبيد ثم ينزل هؤلاء الثلاثة، ويمشون بثبات أمام الجماهير ويقفون وأيديهم مشدودة إلى صدورهم، وعندئذ يتم تنفيذ عملية الختان بواسطة اثنين من العبيد . ثم يصعد الثلاثة مرة أخرى على ظهور العبيد الذين يأخذونهم إلى الفرقة الموسيقية، ويدورون بهم بين الجماهير، وهم يؤدون بأذرعهم، وأكتافهم حركات راقصة . وقد عرض أحد هؤلاء الثلاثة عن الركب، وقدم عرضاً طويلاً ومدهشاً من الرقص، ولم يظهر على أحدهم أي شيء من علامات الألم . وبالرغم من أن هذه العملية قد خففت في هذه الأيام بناءً على أوامر الملك [عبد العزيز] وأجرى عليها تعديل بمنع السلخ الذي كان سائداً في الماضي القريب، إلا أنها تجرى بطريقة شاذة ومؤلمة [٢].

وغادرنا حلي من كياد، وهي سوق كبيرة تعقد يوم الأحد، وتستخدم من قبل البدو المحيطين بها، وسرنا محاذين لقوس [حافة] وادي حلي عبر أراضي بني

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥، ١٠٨ وما بعدها .

(٢) للمزيد عن عادة الختان في بلاد عسير، انظر: محمود شاكر، عسير (دمشق، ١٣٩٦هـ)، ص ٨٥، محمد عمر رفيع، في ربوع عسير (القاهرة، ١٣٧٣هـ) ص ٨٤ـ ٨٧، فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ١٠٩ ـ ١١١ .

هـلال . وهـذه القبيلة تسـكن حالياً في منطقـة بركانية تمتد بـين محايل، والبرك، والقحمة[١] . وتنسب الرواية المحلية بطولات أبي زيد الهلالي إلى منطقة وادي حلي، ويذكـر أن قبر ابنـه عبد العزيز هنـاك . وكان قطع الطريق، والقتـل المتعمد، حتى وقت قريب، علامة مميزة لبني هلال، ويعتبرون حتى اليوم مبعث خوف المسـافرين الذين يسـلكون هذا الطريق . إنهم قليلو العدد ويعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانيـة[٢] . وقـد حدث في الماضـي كثـير من الثـورات، من جبل الشـريف الذي تقـع بالقـرب منه نواة بركانية كانت في حالة نشـطة جداً، وحقـل الحرة الذي يبدو بوضـوح أنـه خمد منـذ زمن طويل . وهي تمتـد نزولاً من هنا حتـى البحر فيما بين عمق والرقبة، الواقعة إلى الجنوب من القحمة، بما في ذلك حبحب الشـيخ المشهور بالقرب من البرك، ثم اجتزنا وادي حلي مرة أخرى بالقرب من محايل، وهي قرية تتبع مدينة أبها إداريا، وبها سوق السبت الهام، وتقع على ارتفاع (١٦٩٠) قدم فوق سطح البحر، وهي مثل جميع قرى العرضية، منازلها مبنية من الأحجار، ومن طبقة واحدة، وتنمو على سطوحها المستوية، في أوان خاصة، النباتات الذكية الرائحة" .

١٥ـ عبد الله بن علي العمودي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م) :[٣]

العمـودي من أعيان أبـي عريش . بمنطقة جازان، كان قد أعد بحثاً بعنوان: الرحلة الملكية السعودية إلى المنطقة الجنوبية[٤] ، رصد فيه لمحات من زيارة الملك سعود بن عبد العزيز آل سـعود (١٣٧٣ـ١٣٨٤هـ/١٣٥٣ـ١٣٨٤هـ) إلى منطقة ساحل البحر الأحمر من جـدة إلى جـازان عام (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م) ، ثم أرسـل هذه الدراسـة إلى معتمد وزارة المعارف في جازان، بهدف الاطلاع عليها ونشـرها ، فكتب عليها الأخير خطابا وأرسـلها إلى الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، رئيس وصاحب مجلة المنهل لنشرها في مجلته، فلم يكن على الأخير إلا الترحيب ونشرها في المجلد (١٧) عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)[٥] .

---

(١) للمزيد عن بلاد البرك انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب، وانظر: كتابنا: القول المكتوب، ج٢، ص ٤٠٢ .

(٢) هذه البلدان وغيرها في أنحاء البلاد السـعودية أصـبحت اليوم بلاداً آمنة مطمئنة، وذلك بفضل الله عز وجل ثم بفضل حكومة المملكة العربية السعودية التي نشرت الأمن والأمان في ربوع البلاد فلله الحمد والمنة.

(٣) عبد الله بن علي باسـندي العمودي من مواليد مدينة أبي عريش في عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م) ، رحل إلى اليمن لطـب العلـم، وبقي بها عدة سـنوا ت، ثم عاد إلى مسـقط رأسـه في أبـي عريش وتولى القضـاء في بعض قرى جازان لسنوات عديدة في عهدي الإدريسي والملك عبد العزيز . له العديد من المؤلفات في التاريخ وبعض العلوم الشرعية الأخرى، ومعظمها لازال مخطوطاً . وقد عُمر إلى حوالي مئة سنة، وتوفي عام (١٣٩٨هـ/١٩٧٧م) .

(٤) بحث منشور في مجلة المنهل (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م) ، مج (١٧) السنة (٢٠) الجزء التاسع، ص٦٠٩ـ٦١٢ .

(٥) المصدر نفسه .

وفي هـذه الدراسـة معلومات عن بلدة القنفذة وكيف اسـتقبل أهلها الملك سـعود بكل حفاوة وترحيب[١] . ثم يشـير إلى بعض النواحي الاجتماعية في القنفذة فيقول : " والقنفذة بلد قديم يقع على سيف البحر الأحمر، وبه مساكن مبنية بالحجر، وثكنة للدولة تقع خارج البلدة ... "[٢] .

ويذكر سفر الملك بحراً من القنفذة إلى البرك، ونزوله فيها، وفرح الأهالي بقدومه، وكان في مقدمتهم شـيوخها وأعيانها، ثم يضـيف بأن " أغلب أهل برك الغماد بادية، وكان على برك الغماد سور عظيم لا تزال آثاره باقية إلى الآن، كان بناه الملك الأشرف، صاحب اليمن[٣] ، وفي برك الغماد من النخيل ما يثمر كل عام، وأهله من بني هلال "[٤] .

١٦ ـ عاتق بن غيث البلادي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م) :

البلادي : أحد الرحالة ومؤرخي العصـر الحديث في المملكة العربية السـعودية، وله العديد من المؤلفات المنشـورة في الأنسـاب، والمعاجـم الجغرافية، والرحلات، وبعض الكتب التاريخية والأدبية [٥] .

وكتابه : **بين مكة واليمن (رحلات ومشاهدات)** [٦] ، و الذي يهمنا في هذه الدراسة، قيامه برحلة ميدانية في شهر صفر (١٤٠٣هـ/ نوفمبر ١٩٨٢م) بدأها بمكة المكرمة على طريق السـاحل ماراً ببلدة القنفذة حتى وصـل إلى جازان، ثم عاد أدراجه إلى درب بني شـعبة ثم محائل عسـير فبلاد المخواة حتى التقى ببلدة المظيلف التي دخل منهـا إلى مدينـة القنفـذة في بداية رحلته[٧] . وفي زمن آخر قـام في (١٨ربيع الآخر ١٤٠٣هـ/فبراير١٩٨٣م) قام برحلة أخرى من مكة إلى بلاد العرضـيتين (الجنوبية

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) العمودي، المصدر نفسه، ص ٦١٠ .

(٣) الملك الأشـرف : هو السـلطان الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسـف بن المنصور عمر بن علي رسـول، ولد سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) ، وحكم الدولة الرسـولية في اليمن ما يقارب خمسـاً وعشرين سـنة (٧٧٨ـ٨٠٣هـ / ١٣٧٦ ـ ١٤٠٠م) . انظر: با مخرمة، تاريخ ثغر عدن (بيروت : منشورات المدينة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ، ص ٢٠ .

(٤) العمودي، المصـدر نفسـه، ص ٦١٠ . هذه الدراسـة لا تشتمل على تفصـيلات دقيقة عن قدوم الملك سعود لبلاد القنفذة، وما وزع على أهلها من الهدايا والأعطيات .

(٥) قضـى البلادي حياته في الدراسة والبحث والترحال، ودار مكة للطباعة والنشر في مكة المكرمة قامت على طباعة ونشر أغلب مؤلفاته، وانتقل إلى رحمة ربه (بإذن الله تعالى) في عام (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) .

(٦) طبع هذا الكتاب لأول مرة بدار مكة للطباعة والنشر، عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ويقع في (٤١٩) صفحة.

(٧) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٢٢٦ .

والشـمالية) التابعتين لإمارة القنفذة [١]، وبعد الاطلاع على ما شاهده هذا الرحالة في بلاد القنفذة، نجده يركز على عدة أمور نجملها في النقاط التالية :

١. أورد أسـماء العديـد من الأعـلام والشـيوخ الذين التقى بهـم في منطقة القنفـذة في أوائل هـذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، لكنه لم يذكر تفصـيلات كثيرة عـن دورهم التاريخي ومراكزهم الاجتماعيـة في بلادهم، وإن كان أشار إلى بعضهم بشكل موجز [٢].

٢. فصل الحديث عن بعض القرى والأودية والجبال والهضاب، من حيث مواقعها، وطبيعتها، وأشكالها، بل ذكر ما ورد عن البعض منها في كتب التراث الإسلامي القديم، مثل : بلدان، دوقة، والأحسبة، وقنونا، ويبة، وحلي، والبرك وغيرها [٣].

٣. أشار إلى بعض الأحداث السياسية والمعارك الحربية التي وقعت في ديار القنفذة بين جيوش الإدريسـي والشريف الحسـين بن علي، عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، ومعظم المادة المدونة في كتاب البلادي مسـتقاة من كتابي : **الرحلة اليمانية، للشريف البركاتي، ومذكراتي، للشريف عبد الله بن الحسين** [٤].

٤. أدرج بحثـاً تاريخياً موجزاً لتاريـخ القنفذة من القرن (١٠هـ/١٦م) حتى عصـرنا الحالي، وكان هذا البحث من إعداد أحد الأعيان الرئيسـيين في القنفذة، بل يعد المؤرخ الأول لتلك الناحية في عصرنا الحديث، إنه الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه [٥].

٥. فصـل الحديث إلى حد ما عن أسـماء معظم البطون والعشائر والأفخاذ وبعض أسر المشيخات في منطقة القنفذة أثناء زيارته لها، والمتأمل في واقع البـلاد وما ذكر هذا الرحالة يجد عنده بعض الأخطاء العلمية فيما ذكر من أسماء ومواقع بعض البطون والعشائر، وربما يعود السبب إلى حصوله على مادته العلمية من رواة غير متأكدين من صحة رواياتهم، وكان الأجدر

---

(١) المصـدر نفسـه، صـ ٣٣٧ـ ٣٥٧ . وللمزيـد عن العرضـيتين انظر : ابـن جريس، القول المكتـوب في تاريخ الجنوب، ج٢، ص ٣٨٧ ـ ٤٣٢ .

(٢) انظر : البلادي، المصدر السابق، ٥٣ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، ص٦٧ وما بعدها . وللمزيد من التفصيلات عن هذه المواقع انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب

(٤) البلادي، المصـدر السابق، ص ١٥٢ وما بعدها . للمزيد من التفصيلات عن هذين الكتابين انظر ذكرهما في صفحات سابقة من هذا القسم .

(٥) البلادي، المصدر السابق، ص ١١٧ ـ ١٣٨ . وللمزيد عن ما دونه حسن الفقيه عن بلاد القنفذة، وعن الدور الذي أسداه لدياره ومسقط رأسه . انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ٣٣١ ـ ٣٥٨ .

به أن يتثبت من مصداقية كل ما وصل إليه من مادة أو رواية [١] .

٦. أشار في رحلته إلى زيارته ووقوفه على بعض المواقع الأثرية في بلاد القنفذة مثل مدينتي حلي بن يعقوب، وعشم [٢] . كما وصف مدينة القنفذة عند زيارته لها، أثناء ذهابه من مكة إلى جازان، فقال: " إنها مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر الشرقي، على قرابة (٣٤٣) كيلاً، ذات أسواق ومباني من طبقتين وثلاث، وبها جميع مرافق الدولة، وبها إدارة تعليم وتتبعها مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية، وإدارة تعليم للبنات أيضا، وبها إمارة تابعة لإمارة مكة تصل حدودها جنوبا إلى ما بين وادي حلي ووادي عمق، وتتبعها تسع إمارات من الدرجة الثالثة .." [٣] .

٧. إذا كان كتاب البلادي قد جمع معلومات تاريخية كثيرة ومتناثرة، إلا أنه لازال يفتقر إلى إيراد تفصيلات عن بعض الجوانب الحضارية لمنطقة القنفذة، مثل: النشاطات الاقتصادية، والاجتماعية، والتعليمية والثقافية والفكرية .

١٧ـ يحيى إبراهيم الألمعي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م) :

يحيى الألمعي : أحد رجال منطقة عسير المثقفين والمتعلمين، عاش فترة النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ولازال على قيد الحياة حتى يومنا هذا، وقد عمل في العديد من الأعمال الحكومية، وقام بتأليف كتابه الموسوم بـ : **رحلات في عسير (نصوص، وانطباعات، ووصف، ومشاهدات)** [٤] . وهذا الكتاب جولات قصيرة في نواح عديدة من منطقتي عسير ونجران، دون خلالها بعض مشاهداته وانطباعاته [٥] ، كما ضمن كتابه بعض المقالات عن أجزاء من بلاد عسير من تأليف بعض معاصريه مثل : حمد الجاسر، وعلي علوان الألمعي، وتركي الماضي، وسعيد الغماز، وعبد الله بن حميد، وأحمد مطاعن وغيرهم [٦] .

---

(١) البلادي، المصدر السابق، ص ٥٣ وما بعدها، انظر أيضاً، ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٣٨٧ ـ ٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤، ١٧٦ . وللمزيد من التوضيحات التاريخية القديمة عن بلدتي عشم وحلي انظر: أحمد الزيلعي، " المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ق٣ـ٩هـ/٩ـ١٥م)" ص ١١ وما بعدها، حسن إبراهيم الفقيه، مخلاف عشم (مطابع الفرزدق بالرياض، ١٤١٣هـ) ص ٢٦ وما بعدها، انظر: أيضا القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٣) البلادي، المصدر السابق، ص ١١٢ . وتدوين هذه المعلومات . يعود إلى عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، مع أنه جرى العديد من التعديلات . على نظام الإمارات والمناطق، وأصبحت القنفذة من المحافظات الرئيسة التابعة لمكة، وما يتبعها من قطاعات إدارية مباشرة يسمى مركزاً وليس إمارة.

(٤) أشار إلى هذا الكتاب بأنه (الجزء الأول)، ولا يوجد عليه معلومات النشر، مثل: مكان النشر، واسم الناشر وتاريخه.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١ وما بعدها .

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص ١٦، ٢٠، ٣٧، ٤٠، ١٦٧ . وعبد الله بن حميد، علي علوان، وسعيد الغماز، وأحمد مطاعن من رموز الحياة الثقافية والفكرية في جنوبي البلاد السعودية، خلال العصر الحديث، أرجو من الله عز وجل أن يوفقنا إلى جمع ودراسة إسهامات ونشاطات رموز بلاد عسير الثقافية والفكرية في القرن (١٤هـ/٢٠م) .

لا يوجد في كتاب الألمعي كثير معلومات عن ديار القنفذة، اللهم إلا ما أشار إليه عن تهامة بلقرن، أثناء حديثه عن البلاد القرنية[١]، فذكر حدود أطرافها التهامية، وأشار إلى بعض قراها الرئيسة مثل : ثريبان، ونخال، والجوف، وقرية الحصنة . كما ذكر سوقها الرئيس في ثريبان، وما يباع فيه ويشترى من السلع[٢]. ولم يذكر تبعية هذه الناحية الإدارية، إلا أنها من أجزاء العرضية الجنوبية التابعة لمحافظة القنفذة (إمارة القنفذة سابقاً)، والواقعة عند سفوح سروات شمران وعليان وبلقرن الغربية[٣]. وأشار في شروحاته إلى انعزال هذه الناحية، وعدم معرفة معظم الناس بها [٤].

ثالثاً : وقفة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم :

من خلال استعراض السبعة عشر رحالة السابقين وما ذكروه في مدوناتهم عن بلاد القنفذة بشكل عام، ومدينة القنفذة بشكل خاص، اتضح لنا عدة أمور نذكرها في النقاط الآتية :

١- تنوع ثقافاتهم :

عند إجراء دراسة على بيئات هؤلاء الرحالة، نجد منهم اثني عشر من أرومة عربية وإسلامية، ومن هؤلاء الاثنى عشر اثنان من خارج الجزيرة العربية، هما: ناصر خسرو من بلاد فارس، وابن بطوطة من ديار المغرب العربي، أما العشرة الباقون فهم من داخل الجزيرة العربية، وتحديداً من الحجاز واليمن وما بينهما. والخمسة الباقون فهم من جنس أجنبي غربي، أربعة من الجنسية الإنجليزية البريطانية والخامس من البلاد الأمريكية . ومن خلال تنوع أوطانهم الرئيسة يظهر لنا أمر آخر وهو تنوع مشاربهم وثقافاتهم وأحياناً مذاهبهم . فالعرب والمسلمون منهم يدينون بدين الإسلام، وأغلبهم على مذهب أهل السنة، ما عدا ناصر خسرو

(١) الألمعي، المصدر نفسه، ص ١٦٩ .

(٢) المصدر نفسه . للمزيد عن بلاد بلقرن التهامية التابعة للقنفذة، انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٤٠٣ ـ ٤٣٤ .

(٣) المصدران نفسهما .

(٤) بلاد العرضيتين منعزلة عند سفوح سروات شمران وخثعم وبلقرن الغربية، وبلاد العروض الممتدة من جازان إلى مكة، أي منحدرات السروات الغربية، كانت تعيش خلال القرون الماضية في عزلة شديدة لصعوبة تضاريسها وشدة بأس أهلها، وفي العقود الماضية المتأخرة امتدت إليها يد التنمية والتطوير، ومن ثم أصبحت اليوم تعيش أزهى عصورها من التقدم الحضاري التنموي.

وإسماعيل جغمان فكانا على المذهب الشيعي . أما الأمريكي والأربعة الإنجليز الآخرون فكانوا على دين النصرانية، ما عدا فلبي الذي دخل الإسلام مؤخراً [١] .

أما ثقافات هؤلاء الرحالة فكانت هي الأخرى متنوعة ومختلفة من شخص إلى آخر. فمنهم السلاطين العظام والعلماء الكبار الذين أثروا المكتبة العربية والإسلامية بإنتاجهم الفكري الجيد أمثال : ناصر خسرو، وابن بطوطة، والسلطان الملك المجاهد الرسولي، ومؤلف رحلة هذا السلطان الملك الأشرف (الثاني) الرسولي[٢]. ويحيى ابن المطهر، ومحسن بن عبد الكريم، وإسماعيل جغمان، وفلبي، وعاتق البلادي . فهؤلاء لهم من النتاج العلمي الشيء الكثير، ولم تكن الرحلة لبعضهم إلا مساهمة بسيطة مما دونوا من علوم في مجالات شيء . وكذلك الباقون من الرحالة الآخرين كانوا على قدر جيد من المعرفة والثقافة جعلتهم يسهمون في علم الرحلات ببعض ما قدموا لنا من إسهامات علمية وثقافية وفكرية . والبعض من هؤلاء الرحالة لم يكن هدفه تدوين رحلاته حتى تكون علماً متداولاً بين أيدي الناس، وإنما جاء منطقة دراستنا وما جاورها لإنجاز مهمة معينة، مثل : جمع معلومات استخباراتية كما فعل السير كيناهان كورنواليس[٣]، أو دراسة بعض الظواهر السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وغيرها أمثال : فلبي، وتوتيشل، وولفرد ثسيجر[٤].

٢- المصادر والمنهج المستخدم في جمع مادة المدونات :

أعتمد جميع الرحاله على السفر والترحال، ما عدا بدول الذي جمع مادته من السجلات والتقارير البريطانية التي تحدثت عن جنوبي الجزيرة العربية وبخاصة جازان وعسير وما جاورهما . ومعظم رحالتنا جاؤوا إلى بلاد القنفذة، واعتمدوا على المشاهدات وأحياناً على الرواية الشفوية، وإجراء المقابلات مع بعض أهالي المنطقة. وجلهم كانوا يلتقون فقط بسكان الساحل من منطقة القنفذة[٥]. وأحياناً

(١) بعد اتصال فلبي بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وإقامته في الجزيرة العربية سنوات عديدة اعتنق الإسلام، ومكث في الجزيرة العربية حوالي (٤٠) سنة، دون خلالها عشرات الكتب والدراسات .

(٢) كان الكثير من سلاطين وأمراء الدولة الرسولية في اليمن من العلماء والمؤرخين والأدباء ويوجد في المكتبات العربية والإسلامية الكثير من نتاج أولئك السلاطين العلماء . للمزيد انظر: عبد الرحمن عبد الله الأحمري . تدوين التاريخ المحلي لليمن خلال القرن الثامن الهجري . رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) انظر تفصيلات أكثر في كتابه : عسير قبل الحرب العالمية الأولى ، PP. 15ff

(٤) للمزيد انظر: كتبهم ودراساتهم الرئيسة والمعنية في هذا البحث .

(٥) معظم الرحالة كانوا يسيرون على الطريق الساحلي، ومن ثم يشاهدون بلاد الساحل فقط، دون أن يعرفوا أو يروا حياة الناس في الأوطان الداخلية .

بأهالي موانئ البرك أو حلي أو القنفذة لمن يسافر عن طريق البحر، وهذا ما حدث مع كل من ابن بطوطة ويحيى بن المطهر [١]. وبعض رحالتنا كانوا يتولون نفقات سفرهم، وأحياناً ينزلون ضيوفاً على أهل البلاد فيقومون لهم بحق الضيافة، ومن ثم يسجلون ما رأوه وشاهدوه عن أهل البلاد [٢]. وآخرون كانوا في معية رفاق سفر أو حرب كالشريفين عبد الله بن الحسين والبركاتي في حملة الشريف الحسين بن علي إلى أبها عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، وصنف ثالث مثل: فلبي / وتوتيشل، وثسيجر خدمهم الحظ حيث كانوا مدعومين من قبل حاكم المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز، فلم يجدوا صعوبة في جمع مادتهم العلمية، حيث كان محتفى بهم أينما نزلوا ومن ثم فرجال دولة ابن سعود بالبرك ومحائل عسير إلى القنفذة ودوقة كانوا يبذلون قصارى جهودهم في تقديم العون وكافة المساعدات المطلوبة لهم، وبخاصة جون فلبي الذي حصل على فوائد ومميزات جيدة ليس في القنفذة وحسب وإنما في معظم أجزاء الجزيرة العربية [٣].

وإذا تفحصنا المنهج المستخدم في تدوين معلومات هؤلاء الرحالة وجدنا معظمهم يعتمدون. كما أشرنا. على الانطباعات والمشاهدات، بل نجدهم يتفاوتون فيما دونوا. فهناك من ذكر ملاحظات عابرة على ما شاهدوه في بلدة القنفذة، أو حلي بن يعقوب، أو دوقة، أثناء الذهاب والإياب في هذه النواحي، وآخرون أشاروا إلى نقاط معينة، مثل: كورنواليس الذي كان عمله ينصب على نقاط محددة يجب إدراجها في تقريره السياسي الاستخباراتي. وفريق ثالث أسهبوا في التفصيلات أمثال: محسن بن عبد الكريم، وإسماعيل جغمان، والشريف البركاتي، وفلبي، وولفرد ثسيجر، وعاتق البلادي فقد دونوا لنا الشيء الكثير عن جوانب عديدة في أبواب التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة القنفذة، وأفضلهم تقريباً ثسيجر وفلبي فقد حفظا لنا مادة تاريخية متنوعة، وبأسلوب يمتاز بالجودة، مع العلم أنهما كانا يسألان أحياناً عن بعض النواحي أو الأشياء التي يرغبان معرفة معلومات عنها، إلا أنهما غالباً كانا يعتمدان على المشاهدة ودقة التفاصيل في جزئيات معينة، وبخاصة فلبي، الذي نجده أحياناً يفقد الربط بين

---

(١) لم يذهب هذان الرحالان على الطريق البري في منطقة القنفذة، وكذلك الملك سعود بن عبد العزيز، كما ذكر العمودي فكانوا يسلكون البحر ويتوقفون في هذه الموانئ للراحة أو التزود ببعض الأمتعة.

(٢) وما ذكر الموسوي عن أهل القنفذة، وعدم إكرامهم للضيف يتعارض مع الواقع فهم غير ذلك، بل هم كرماء يرحبون بالغريب والضيف ويقومون على إكرامه. مشاهدات الباحث وجولاته في بلاد القنفذة من عام (١٤٢٤-١٤٣١هـ).

(٣) كل الرحالة الأجانب حظوا بالرعاية الجيدة من حكومة ابن سعود، لكن فلبي أفضل أوربي على الإطلاق نال الرعاية والدعم الكبيرين في جميع رحلاته، ومن ثم خلف لنا كماً هائلاً من الكتب والدراسات القيمة عن الجزيرة العربية، بل يعد الأفضل والأكثر إنتاجاً فكرياً في هذا الباب.

أفكاره، فتراه مثلاً يكتب عن مكان محدد أو عشيرة معينة، لكنه أثناء حديثه قد يخوض في تفصيلات دقيقة كان يتحدث عن بعض الحشرات أو الطيور أو النجوم أو الآثار وغيرها من الأشياء التي شاهدها أثناء إقامته أو حديثه عن العشيرة أو المكان الذي يتحدث عنه [١].

٢- دراسة ومقارنة مدونات الرحالة :

١. تعرض هؤلاء الرحالة موضوع الدراسة إلى الأحوال الجغرافية في بلاد القنفذة، فأشار معظمهم إلى طبيعة الأرض، وقربها من ساحل البحر الأحمر، والمحطات التجارية الواقعة ضمن حدودها والمرتادة بالحجاج والمسافرين [٢]. وعلى الرغم من ذكرهم لهذه الجوانب، إلا أنهم لم يكونوا على مستوى واحد فيما دونوه، فهناك من اكتفى فقط بالإشارة إلى ناحية أو معلم جغرافي، فيذكر ناحية أو بلدة بعينها مثل: حلي، أو البرك، أو القنفذة، أو دوقة وغيرها، ولا يضيف تفصيلات عن تضاريسها، أو مناخها، أو ثروتها الحيوانية والنباتية [٣]. وبعضهم مثل: كورنواليس، وفلبي، وولفرد تسيجر، والبلادي ناقشوا الكثير من الجوانب الجغرافية المختلفة، مع أنهم أيضاً يتفاوتون في حجم ما رصدوه ولكنهم جميعاً تعرضوا لهذا الجانب بشيء من التفصيل [٤] لكن فلبي أكثرهم إسهاباً في الحديث عن أودية وجبال وهضاب القنفذة، كما أشار إلى أنواع الرياح والمناخ الذي كان يسود تلك البلاد، وتعرض أيضاً إلى طبيعة الحياة النباتية والحيوانية [٥]. والمعروف عن هذا الرحالة أنه زار مواطن عديدة في عسير وجازان ونجران بل في عموم الجزيرة العربية، وهذا مما جعله أحياناً يقارن بين ما شاهده في القنفذة وبين تلك المناطق التي زارها من حيث المناخ والتضاريس والحياتان الحيوانية والنباتية، مع العلم أن حديثه عن تضاريس ومناخ منطقة القنفذة لم يكن مجموعاً في مكان واحد، وتحت عنوان محدد، وإنما تراه موزعاً في أماكن عديدة من التسع والخمسين

---

(١) هذا ما يظهر على كتابات فلبي مع أن أسلوبه يمتاز بالرصانة والدقة، وللمزيد انظر: ما دون عن منطقة القنفذة خلال زيارته لها . مرتفعات الجزيرة العربية، ج٢، ص ١٢٦٣ ـ ١٣٢٢ .

(٢) هذا ما ذكره معظم رحالتنا، بل هم أنفسهم سلكوا الطريق البري، أو البحري الذي يصل بين اليمن والحجاز عبر منطقة القنفذة .

(٣) في الغالب كان هؤلاء الرحالة يشيرون في مدوناتهم إلى المواطن أو البلدان التي مروا عليها أثناء سفرهم في منطقة القنفذة، وكانت هذه الأماكن المذكورة أعلاه هي أهم المدن أو النواحي التي نزلوا فيها وشاهدوها .

(٤) للمزيد من التفصيلات انظر: مدونات كل من كورنواليس، وفلبي، وتسيجر، والبلادي .

(٥) انظر فلبي : مرتفعات الجزيرة، ج٢، ١٢٦٣-١٣٢٢ .

صفحة التي سجلها عن هذه البلاد الساحلية[١]. وربما يأتي شيجر من حيث الأهمية بعد فلبي في ذكر جوانب عديدة في الجوانب الجغرافي[٢].

٢. الشيء الجميل مدونات هؤلاء الرحالة أنها تمتد على فترة زمنية تغطي تقريباً عشرة قرون، ولهذا عكسوا لنا إلى حد ما طبيعة الحياة السياسية التي كانت تعيشها بلاد القفنذة وما جاورها، فناصر خسرو أشار إلى طبيعة القبيلة وكيف كان شيوخها أصحاب الحل والعقد في بلادهم، ومنطقة القنفذة استوطنها العديد من العشائر القحطانية والعدنانية، ولازالوا حتى اليوم يعيشون فيها، ومالكين لأرضها [٣]. ويشير ابن بطوطة إلى أمير حلي[٤]. والمعروف أن حلياً جزء من منطقة القنفذة، وكان أمراء حلي أصحاب قوة ونفوذ في البلاد الممتدة من شمال المخلاف السليماني (جازان حالياً) إلى شمال بلدة القنفذة [٥].

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كانت الدولة الرسولية في اليمن تمد نفوذها أحياناً إلى المخلاف السليماني والبرك وحلي وما جاورها، ولهذا كان السلطان الملك المجاهد، عندما نزل في بعض المواطن من ديار القنفذة يوزع الهبات والعطايا [٦]، وإذا كان مدون رحلته لم يذكر أسماء من وزع عليهم الهبات، لكن لا نستبعد أن تكون على علية القوم والأعيان والشيوخ كي يشتري دعمهم ومساندتهم، ومن ثم يكونون موالين له بدلاً من أشراف مكة الذين كانوا دائماً يسعون للسيطرة على البلاد الواقعة جنوبي مكة والممتدة إلى حلي والبرك وما حولهما[٧].

أما الفترة الزمنية الممتدة من القرن (٨-١١هـ/ ١٤-١٧م) فلا نجد أي رحالة جاء إلى بلاد القنفذة، ولا نستبعد أنها كانت في مد وجزر بين القوى السياسية المسيطرة على الحجاز واليمن آنذاك[٨]، أما أجزاؤها الداخلية فنجزم أنها كانت

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) للمزيد انظر:، ولفرد شيجر، "رحلة في تهامة عسير..." ص ٩٥ وما بعدها.

(٣) انظر: ناصر خسرو، ص ١٤٢. مشاهدات الباحث وجولاته في بلاد القنفذة خلال الفترة من (١٤٢٤-١٤٣١هـ/٢٠٠٣-٢٠١٠م).

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ٢٧١.

(٥) الزيلعي، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي ..." ص ١١ وما بعدها، للمزيد من التفصيلات عن تاريخ بلاد حلي انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٦) انظر: الثنيان "رحلة السلطان المجاهد ..." ص ١٢٨ وما بعدها.

(٧) المصدر نفسه، وللمزيد انظر: القسم الثاني في هذا الكتاب.

(٨) للمزيد من الاطلاع انظر: المصادر المحلية الحجازية واليمنية التي تؤرخ لفترة العصور الإسلامية الوسيطة، أمثال، الفاكهي، وابن ظهيرة، والفاسي، والعصامي، والخزرجي، والجندي، وعمارة اليمني، ومؤرخون آخرون ظهروا في اليمن خلال عصر دول بني صليح، وبني رسول، والزيدية وغيرهم.

تحت هيمنة شيوخها وأعيانها القبليين [١]، وذلك لبعدها إلى الداخل عن الطريق الرئيس الساحلي، وكذلك لصعوبة تضاريسها وانعزال أهلها وشدة بأسهم [٢].
ويظهر الرحالة الموسوي في القرن (١٢هـ/١٨م) فلا يذكر أي شيء عن الحياة السياسية في القنفذة[٣]. وخلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) نجد العديد من الرحالة الذين يشيرون إلى وضع القنفذة السياسي ويذكرون نفوذ بعض الإمارات المحلية في عسير[٤]، ثم النفوذ التركي، ممثلاً في حكام بني عثمان في الحجاز وعسير، كيف كانوا أصحاب السلطة والنفوذ في ديار القنفذة [٥]، وإذا وقعت بعض الصدامات العسكرية بين الحجازيين والعسيريين على أرض القنفذة، فالمحرك الرئيس لتلك الحروب هو تلك القوى التابعة في كل من أبها ومكة المكرمة. وفي النصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) يظهر الإدريسي في منطقة جازان، ثم ابن سعود في نجد ولم تسلم بلاد القنفذة من تلك التبدلات السياسية، ونالها الكثير من الحروب والخسائر حتى استقرت أحوال الدولة السعودية الحالية [٦]، وامتد نظام الأمن والعدل إلى منطقة القنفذة، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذه الدولة العصرية التي نعيش تحت ظلالها وننعم بخيراتها (المملكة العربية السعودية) [٧]

وإسماعيل جغمان، وكورنواليس، وبدول، والشريفان عبد الله والبركاتي، وشيجر، والعمودي، والبلادي جميعهم أشاروا إلى صورة سياسية متنوعة من حيث

---

(١) سبب جزمنا هنا لأن من يستقرئ المصادر والمخطوطات الإسلامية المبكرة والوسيطة لا يجد أي ذكر لهذه الأوطان الداخلية، ولا يذكر في الغالب إلا ما يقع على طريق الساحل بين مكة والحديدة.

(٢) ونقصد بذلك بلاد العرضيتين وما جاورهما من البلدان الواقعة عند سفوح السروات الغربية والممتدة من تهامة قحطان إلى تهامة الطائف وبني سعد. وهذه البلاد لازالت على هذا الوضع إلى العقود المتأخرة الماضية، وبعد أن بدأت التنمية تصلها صار أهلها يتدرجون في سلم التطور الحضاري حتى أصبحت بعض النواحي فيها تضاهي غيرها من البلدان والمواطن المتحضرة والقريبة من مراكز التمدن منذ زمن بعيد. مشاهدات الباحث وتنقله في أرجاء هذه النواحي، بالإضافة إلى اطلاعه على العديد من الوثائق التي تؤكد ما ذهبنا إليه.

(٣) الجاسر "مع الموسوي المكي في رحلته .." ص ٣٥ وما بعدها.

(٤) للمزيد عن تاريخ منطقة عسير خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)، ودور بلاد القنفذة في ذلك التاريخ، انظر: على عسيري، عسير، (مطبوعات نادي أبها، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٦٧ وما بعدها، أحمد آل فائع، دور آل المتحمي، ص ٩٩ وما بعدها.

(٥) ابن جريس، صفحات من تاريخ عسير، ج١+٢، ص ٩١-١٢٠، ٢٣٥-٢٧٤، سعيد مفرح، الإدارة العثمانية في متصرفية عسير (رسالة ماجستير من جامعة الملك سعود، قسم التاريخ، ١٤١٧هـ)، ص٢٩ وما بعدها.

(٦) للمزيد عن ظهور الإدريسي وابن سعود وامتداد نفوذهما إلى بلاد عسير والقنفذة، انظر: العقيلي، المخلاف، ج٢، ص٦١٩ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٥-٢٤، ١٧٣-١٨٠، ابن جريس، عسير في عصر الملك عبد العزيز، ص ١٩ وما بعدها.

(٧) المصادر نفسها.

الكم والموضوع [١]، لكن أكثرهم تفصيلاً الشريفان عبد الله والبركاتي وكورنواليس وأحياناً فلبي فقد ذكروا بعض الحروب التي وقعت في القنفذة بين الشريف الحسين والإدريسي، كما ذكروا الكثير من التفصيلات عن أسماء بعض الأمراء أو شيوخ وأعيان القبائل الذين كان لهم أثر وقوة في بلادهم وما قدموا من عون ومساعدات للقوى السياسية التي وصلت إلى منطقتهم [٢].

ج ـ مدونات رحالتنا غنية بمعلوماتها في الجانب الاجتماعي، فلا يخلو أي واحد منهم من الإشارة لجانب وصورة اجتماعية مع التفاوت فيما وصلنا منهم، فناصر خسرو يذكر وضع قبائل جنوبي مكة المكرمة من حيث إدارتهم لبلادهم، وسيطرة النظام القبلي في أوطانهم[٣] وهذا الوضع السياسي الاجتماعي استمر إلى العصر الحديث فكورنواليس، وبدول، والشريفان (البركاتي، وعبد الله)، وفلبي، وثسيجر، والبلادي ، أشاروا إلى الوضع نفسه مع الفارق في العرض والتحليل[٤]. فغلب على مدونة خسرو القدم التاريخي والعمومية فلم يحدد ناحية أو بلاداً بعينها[٥]، بخلاف الرحالة المحدثين (ق١٣ـ١٤هـ/١٩ـ٢٠م) فجميعهم يؤكدون على سطوة وهيمنة القبائل في بلاد القنفذة، بل بعضهم فصل الحديث عن موقع كل قبيلة، وعدد سكانها، وما قامت به في بعض الأدوار السياسية والحربية التي وقعت في منطقة القنفذة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) [٦].

وقد وقع بعض منهم في أخطاء كثيرة مثل: كورنواليس، والشريفان، وفلبي، والبلادي عندما دونوا إحصائيات لسكان بعض العشائر أو البلدان في منطقة القنفذة[٧]. وهذه مهمة صعبة لأنهم اعتمدوا في جمع معلوماتهم على رواة محليين، وغالباً مثل هؤلاء الرواة يختلفون في الثقافة أو الرغبات والأهواء، ومن ثم فقد يعطون معلومات مغلوطة، وهذا فعلاً ما وقع مع هؤلاء الرواة، ومثل هذه المشكلة

---

(١) انظر إلى مدوناتهم المذكورة في هذه الدراسة .

(٢) المصادر نفسها .

(٣) خسرو، ص١٤٢

(٤) خسرو، المصدر السابق .

(٥) انظر: مدونات الرحالة المعنيين في المتن وهي مذكورة في أول هذا البحث .

(٦) مثل : كورنواليس، والشريفان : البركاتي وعبد الله، والبلادي .

(٧) انظر مدوناتهم المعنية في هذه الدراسة .

لازالت تقع معنا منذ ثلاثة عقود ونحن نتجول في أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة جنوبها [١]. ثم إن بعض هؤلاء الرحالة أجنبي ويجهل الكثير من عادات ومصطلحات أهل البلاد، وهذا مما يضاعف الوقوع في أخطاء علمية كبيرة [٢].

كانت القبيلة العربية هي الشريحة الاجتماعية الرئيسة التي تسوس بلاد القنفذة، لكن قبائل هذه الديار تختلف في أنسابها فمنها العدنانية وأخرى قحطانية، وقد ذكر بعض رحالتنا وجود شرائح أخرى غير عربية مثل: الأفارقة والأتراك والهنود وغيرهم [٣].

وهذا أمر معروف للقنفذة فهي من الموانئ الرئيسة على البحر الأحمر ويرتادها الكثير من الأجناس العربية وغير العربية، وربما البعض من الصنف الثاني كانوا يقيمون في هذه البلاد، ومع مرور الزمن أصبحوا من فئات المجتمع القنفذي [٤].

أما القرى وهيئة المنازل والأبنية في بلاد القنفذة فقد أخذت حيزاً جيداً عند معظم رحالتنا، ومدينة القنفذة حصلت على النصيب الأكبر، فالسلطان الملك المجاهد يذكر المحطات التي مر عليها مثل بلدة قنونا [٥]، ثم يأتي جغمان، وكورنواليس، والبركاتي، وفلبي، وتوتيشل، والعمودي، والبلادي فيذكرون ما شاهدوا من أبنية في هذه البلدة، وبعضهم فصل الحديث عن مواد البناء، وأنواع الأبنية مثل: المنازل، والمساجد، والقلاع العسكرية، وأحياناً عدد الطوابق لبعض البيوت، وأثاثها، أو المرافق المحيطة بالمنزل سواءً كانت من الحجارة، أو القش وسعف النخيل [٦]. والغالب على بلدة القنفذة في القرن (١٣هـ/١٩م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) البساطة فكانت مدينة متواضعة في كل إمكاناتها

---

(١) هذا ما لمسه الباحث ولازال يعاصره من خلال رحلاته وتنقلاته في مناطق الباحة وجازان ونجران وعسير والطائف وغيرها منذ أكثر من ثلاثة عقود.

(٢) مثل: كورنواليس وفلبي، مع أن البلادي والشريفين من سكان الحجاز وعلى علم بأحوال وأهل منطقة القنفذة لكنهم وقعوا في أخطاء عديدة عندما ذكروا بعض الأرقام والإحصائيات لبعض العشائر والبلدان القنفذية.

(٣) للمزيد انظر جغمان، ص ٦٥ وما بعدها، كورنواليس، PP. 23 ff، البركاتي، ص ٤٢ وما بعدها، فلبي، ج٢، ص ١٢٩٣، ولفرد تسيجر، ص ٩٩-١٠٠، ١٠٣.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) الثنيان "رحلة السلطان.." ص ١٢٠.

(٦) للمزيد عما ذكر معظم رحالتنا عن بلدة القنفذة انظر، جغمان، الرحلة، ص٦٥، كورنورواليس، P. 34، البركاتي، ص٤٢-٤٣. فلبي، ج٢، ص١٢٩٢-١٢٩٣، الحبشي، الرحالة، ص١٥٥. تفصيلات جيدة عن العمارة في بلدة البرك. انظر: مرتفعات، ج٢، ص١٢٦٩. للمزيد عن رحالة آخرين أشاروا إلى العمارة في القنفذة انظر: توتيشل، ص٧٨، العمودي، ص ٦١٠، البلادي، ص١١٢.

العمرانية[١] لكن منذ بداية القرن (١٥هـ/ ٢٠-٢١م) بدأت العمارة الحديثة تنتشر في منطقة القنفذة حتى أصبحنا نرى الكثير من العمارات والأبنية الضخمة[٢].

ويشير بعض رحالتنا إلى بعض الألبسة وأدوات الزينة التي شاهدوا أهل القنفذة يلبسونها في مزارعهم ودور عبادتهم وأسواقهم[٣]، إلا أن ولفرد شسيجر أكثرهم تفصيلاً من حيث ذكر بعض الألبسة التي كان يستخدمها الرجال والنساء والأطفال، وبخاصة في مناطق القنفذة الداخلية مثل : بلاد العرضيتين، وأجزاء من بلاد حلي [٤].

وأحياناً كان ابن بطوطة، ومحسن بن عبد الكريم، وجغمان، والشريف البركاتي، وفلبي والبلادي يذكرون بعض الأطعمة والأشربة التي شاهدوها في أسواق أو نواحي من القنفذة، بل بعضهم تناولها [٥] . لكن فلبي وشسيجر والبلادي ساعدتهم الظروف التي جاؤوا فيها، فقد قضوا بعض الوقت في أجزاء عديدة من المنطقة، كما تم استضافتهم على أكثر من وجبة أو مناسبة أو وليمة في بيوت بعض الأمراء والأعيان في المنطقة، ومن ثم أعطوا تفصيلات لا بأس بها عن بعض المأكولات التي كانت تقدم على الموائد في تلك البلاد [٦] . وإذا كان ذكر بعض أسماء الأطعمة والأشربة في بيوت المقتدرين مادياً من الناس، فإن غالبية المجتمع القنفذي كانوا فقراء، وأغلب أطعمتهم من الحبوب التي تنتجها أراضيهم، أو من منتوجات حيواناتهم التي يقومون على تربيتها [٧] .

---

(١) المصادر نفسها .

(٢) انظر : البلادي الذي زار القنفذة في بداية القرن (١٥هـ/ ٢٠-٢١م) . مشاهدات الباحث وزياراته للقنفذة من عام (١٤٢٤-١٤٣١هـ/ ٢٠٠٣-٢٠١٠م)

(٣) انظر : ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٧١ .

(٤) ولفرد شسيجر، ص ٩٧، ١٠٢-١٠٣ . دراسة تاريخ اللباس والزينة في جنوبي البلاد السعودية جدير بالبحث والدراسة، وهو فعلاً من الموضوعات الحضارية الجيدة ومن يدرس هذا الموضوع فإنه سوف يضيف للمكتبة العربية والإسلامية موضوعاً علمياً هاماً وجيداً .

(٥) ابن بطوطة، ج١، ص ٢٧١، جغمان، الرحلة، ص ٦٥-٦٦، ٦٩، البركاتي، ص ٣٥، ٤٢-٤٣، ٦١، فلبي، مرتفعات، ج ٢، ص ١٢٦٩، البلادي، ص ٩٣ وما بعدها .

(٦) للمزيد انظر: فلبي، ج٢، ص ١٢٦٩، ولفرد شسيجر، ص ٩٧، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، البلادي، ص ٩٦ وما بعدها .

(٧) المصادر نفسها . طالعنا الكثير من الوثائق غير المنشورة التي تشير إلى محدودية الأطعمة والأشربة في عموم بلاد القنفذة، أما في مواطن التمدن مثل : بلدة القنفذة، وحلي، والبرك، فكانت الأطعمة المحلية والمستوردة تتوفر بها إلى حد ما . المصدر : مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق العامة) .

وقد تخلل مدونات بعض الرحالة إشارات إلى بعض العادات والتقاليد السائدة في القنفذة مثل : عادات الزواج، والختان، وبعض الفنون الشعبية التي عرفها أهل المنطقة، وغيرها كثير[١] . لكن ولفرد تسيجر أفضل من دون الكثير من التفصيلات في هذا الباب، والجميل في مدوناته أنه تميز على غيره في ذكر تقاليد وأعراف وعادات عند سكان البوادي والقرى الداخلية من منطقة القنفذة، وهذا العمل يعد سبقاً علمياً رائداً وبخاصة بين الغربيين الذين جاؤوا إلى بلاد تهامة والسراة خلال القرون الماضية المتأخرة[٢] .

د ـ أما باب الاقتصاد فقد حظي بنصيب جيد عند بعض الرحاليين مثل : يحيى بن المطهر، وجغمان، وكورنواليس، والبركاتي، وفلبي، وثسيجر، والبلادي، فذكروا بعض النشاطات التجارية، وبخاصة في بلدة القنفذة [٣] . وجغمان، وفيلبي وثسيجر أسهبوا عن وضع بعض الأسواق، والسلع التي ترد إليها، والأسعار، وثسيجر فصل إلى حد ما وضع بعض الأسواق والسلع التي ترد إليها، والأسعار، والأوزان، وطرق التعامل[٤] . أما كورنواليس فقد أشار إلى الطرق التي تربط منطقة القنفذة مع غيرها، فذكر أسماءها ومحطاتها والسكان الذين يعيشون على أطراف تلك الطرق [٥]، مع الإشارة إلى بعض العقبات التي تقع على تلك الطرق [٦] .

ويشير بعض الرحالة إلى وجود مهن اقتصادية أخرى في القنفذة، مثل: الرعي والزراعة وبعض الحرف الصناعية التقليدية[٧]. لكن ولفرد تسيجر يعد أفضلهم في ذكر هذه النقاط، حيث فصل الحديث إلى حد ما في بعض المهن، وأشار إلى وفرة الزروع والمزروعات في البلاد، وشاهد العديد من الصناعات والحرف اليدوية التي كانت تمارس في نواح من المنطقة [٨] .

---

(١) دراسة عادات وتقاليد بلاد تهامة الممتدة من جازان إلى مكة جديرة بالبحث والدراسة، حبذا أن نرى من طلابنا وطالباتنا في برامج الدراسات العليا من يطرق مثل هذه الأبواب الغنية في مادتها والجديدة في طرحها .

(٢) انظر: ولفرد تسيجر، ص ٩٥ وما بعدها .

(٣) جغمان، الرحلة، ص ٦٤ ـ ٦٦، كورنواليس، PP. 136ff، البركاتي، ص ٤٢ ـ ٤٣، فلبي، ج٢، ص ١٢٩٢ ـ ١٢٩٣، الحبشي، ص ٩٥ ـ ١٠١ .

(٤) ولفرد تسيجر، ص ٩٥ وما بعدها .

(٥) كورنواليس، PP. 136 ff .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) جغمان، الرحلة، ص ٦٤ وما بعدها، كورنواليس، PP. 34 ff، البركاتي، ص ٤٢ وما بعدها، فلبي، ج ٢، ص ١٢٦٥ وما بعدها، ولفرد تسيجر، ص ٩٤ وما بعدها .

(٨) ولفرد تسيجر، ص ٩٦ وما بعدها .

رابعاً : الخلاصة :

وخلاصة القول إن هؤلاء الرحالة جاؤوا في فترات متباعدة إلى منطقة القنفذة لأهداف وأغراض حضارية وسياسية مختلفة، وإذا كانت الظروف السياسية والحربية دفعت الشريفين البركاتي، وعبد الله بن الحسين ليأتيا مع جيش الشريف الحسين إلى بلاد عسير، فربما لم يكن ذلك مدروساً من قبل ليدونا رحلتيهما عن هذه المنطقة، وذلك الوضع مع كل من ابن بطوطة، والسلطان المجاهد، ومحسن بن عبد الكريم، وإسماعيل بن جغمان، فجميعهم عبروا من بلاد القنفذة بهدف أداء مناسك الحج، أو الرجوع من مكة إلى بلاد اليمن، كما حدث لكل من ابن بطوطة والسلطان المجاهد، ومن ثم فقد ذكرت القنفذة في مدوناتهم بشكل عابر ومختصر .

أما كورنواليس، وفلبي، وتوتيشل، وشيجر فقد جاؤوا بدعم من قوى سياسية مختلفة لجمع وتدوين معلومات عن نواح عديدة من جنوبي شبه الجزيرة العربية، والقنفذة جزء صغير من تلك البلاد . فكورنواليس جاء بدعم من قوى استعمارية هي الإمبراطورية البريطانية، في حين فلبي، و توتيشل، وشيجر جاؤوا بدعم من ملك المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، أما البلادي فقد جاء إلى القنفذة بدافع السفر والاطلاع والتدوين . وكون الظروف والأهداف التي جاء من أجلها أولئك الرحالة متنوعة، إلا أننا - معشر المؤرخين والباحثين والدارسين - قد استفدنا كثيراً من المعلومات القيمة التي سجلها هؤلاء الرحالة، والتي نادراً ما نجدها في مصادر أخرى، فقد ألقت الكثير من الأضواء على نواح مجهولة من تاريخ وحضارة بلاد القنفذة، وبخاصة أن هذه المنطقة في حد ذاتها فقيرة في معلوماتها، وفيما دون عنها سواءً قديماً أو حديثاً، لكن الحصول على بعض الشيء أفضل من لا شيء . وإنني آمل أن تفتح هذه الدراسة أبواباً أوسع لطلاب البحث العلمي فتدرس الكثير من الظواهر والأبواب التاريخية والحضارية المتنوعة، والشيء الذي لاشك فيه أن هذه الديار لازالت بكراً إن صح التعبير، فهناك كثير من أوضاعها العلمية الهامة والتي هي بحاجة إلى البحث والتقصي والدراسة . والله من وراء القصد .

٢- مرتفعات عسير ونجران في نظر الرحالين وكتب السير اليمنية*

* نشر في كتاب:
القول المكتوب في تاريخ الجنوب
ط١: ١٤٣٢ - ١٤٣٣هـ الرياض، مطابع الحميضي،
ج٣، ص ص ٣٢١ - ٣٩٤

مرتفعات عسير ونجران في نظر الرّحّالين وكتب السِّيَر اليمنيّة

أولاً : تمهيد :

إذا قلنا : مرتفعات عسير ونجران، فإننا نقصد البلاد الممتدة من نجران إلى بيشة وشمران، وهذه الديار تأتي ضمن واسطة العقد الممتد من صنعاء وصعدة إلى الطائف ومكة المكرمة والتي نالها الكثير من التجاهل والنسيان عند كثير من مدوني كتب التراث الإسلامي الوسيط (١) . وفي العصر الحديث والمعاصر نالها أيضاً شيءٌ من النسيان الذي خيم عليها في العهود الإسلامية المبكرة (٢) .

وهذه الأوطان مر عليها كثير من الأحداث التاريخية والحضارية المتعددة الجوانب، ولكن تلك الأزمات والوقائع لم تدون، وإذا دون بعضها فتلك أخبار وروايات متناثرة في كثير من الكتب والمصادر المختلفة في أبوابها ومناهجها . ناهيك عن آثارها فهي الأخيرة ميدان واسع لهذا الباب المعرفي، لكنه أيضاً لم يدرس ولازال يحتاج إلى جهود مالية وإدارية وعلمية جبارة تنهض به، ويكتشف ما تحتوي هذه النواحي من تواريخ متعددة الجوانب والغايات (٣) .

وفي هذا القسم الموسوم بـ : مرتفعات عسير ونجران في نظر الرحالين وكتب السير اليمنية، نكشف للقارئ الكريم مدى أهمية هذا الجزء الجغرافي الهام الذي يربط بين اليمن والحجاز ولا ندعي أننا شملنا في هذا المبحث كل الرحالين وكتب السير اليمنية التي أشارت إلى جغرافية وتاريخ هذه الديار، ولكننا أدرجنا اسم عشرين كتاباً أو بحثاً، وجميعها لرحالين أو أصحاب سير يمنية زيدية،

---

(١) ابن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق١ق١٠هـ/ق٧ـق١٦م)، مكتبة العبيكان، ومطابع الحميضي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) . مجلدان .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) هذا ما لمسه الباحث أثناء تجواله في هذه الأوطان خلال شهر جمادى الآخرة عام (١٤٣٢هـ/٢٠١١م) .

أبتدئ بالحسن الهمداني في القرن (٣-٤ هـ/٩هـ-١٠م)، وأنتهي بفراج الملحم (ق١٤هـ/٢٠م) . والناظر إلى فهرس هذا القسم يجد ست سير و رحالين أشاروا إلى هذه البلاد من القرن (٣-٧هـ/٩-١٣م) . ثم نجد الفترة الممتدة من القرن (٧-١٢هـ/ ١٣-١٨م) كانت مغيبة تماماً فلم نجد حتى الآن أي رحالة، أو كاتب سيرة، تعرض لهذه الأوطان بينما نجد أربعة عشر رحالة آخرين ذكروا تفاصيل كثيرة عن القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)،وبخاصة القرن (١٤هـ /٢٠م) فقد حاز النصيب الأكبر من هذه الدراسة [1] . وهناك أسباب عديدة جعلتنا نركز على هذا الجانب التاريخي الهام مثل:

١. الإشارة إلى أهمية هذه الديار، ومن ثم نلفت نظر الباحثين إلى أنها أرض بكر في مجال البحث والتنقيب، ثم إن لها تاريخاً وحضارةً، لكن لا زالت تحتاج إلى بذل الجهود على مستوى المؤسسات العلمية الأكاديمية، وعلى مستوى الأفراد من مؤرخين وباحثين جادين منصفين.

٢. التنبيه أيضاً إلى أن مادة التاريخ لهذه البلاد ليست محصورة في كتب التاريخ، ولكن هناك مصادر كثيرة مثل: كتب السير اليمنية، وكتب الرحالين منذ التاريخ القديم إلى عصرنا الحاضر، والباحث في مصادر ومراجع أخرى تراثية وفكرية وحضارية وثقافية سوف يجد لها أيضاً ذكراً في مثل تلك المصادر المختلفة .

٣. إذا ادعينا أننا شملنا في هذه الدراسة كل كتب السير اليمنية ومدونات الرحالين التي تعرضت للحديث عن هذه البلدان العسيرية والنجرانية، فإننا نجانب الصواب لأن هذه البلاد كانت دائماً معبراً للمسافرين والحجاج والعلماء وغيرهم الذين يسافرون ما بين اليمن والحجاز، ومن ثم فمن المؤكد أن هناك عشرات بل مئات الساسة والعلماء وأرباب القلم الذين دونوا وناقشوا تاريخ هذه الأوطان، وكثير من تلك المدونات والأخبار لم تصلنا . وقد يأتي في المستقبل من يكشف لنا ما لم نعرف ونطلع عليه. ومن المؤكد أن هناك نقصاً وقصوراً فيما تم عرضه أيضاً، وسوف يأتي- بإذن الله تعالى- من يستكمل هذا النقص أو يصحح ما وقعنا فيه من أخطاء غير مقصودة .

---

(١) انظر فهرس القسم الرئيسي وكذلك التفصيلات المدونة بهذا القسم .

٤. التأكيد على مقولة (العلم رحم بين أهله) يظهر لنا صحة هذه الفكرة، وذلك من خلال استعراض هؤلاء العشرين الذين أدرجنا أسماءهم، كرحالة وكتاب سيرة، في فهرس هذا القسم، حيث نجد منهم : المسلم وغير المسلم، العربي وغير العربي، الأمريكي والأوروبي. بل نجد منهم من كان يدين بدين الإسلام السني أو الشيعي أو الزيدي ،أو النصراني وغير ذلك . وهذا فضل من رب العالمين أن تنوعت العقائد والجنسيات في مثل هؤلاء الذين جاءوا من أصقاع مختلفة لتدوين وكتابة تاريخ هذه البلاد النجرانية والعسيرية. واليوم أصبح في هذه البلاد جامعات ومؤسسات علمية بحثية، ومؤرخون وأدباء ومثقفون وغيرهم، ومن ثم فالمسؤولية عليهم كبيرة لبذل جهود أكبر في خدمة أوطانهم علمياً وعملياً، وهذا المؤمل فيهم، وما نتطلع إليه .

ثانياً : التعريف بالرحالين وكتب السير ومدوناتهم

١ـ الحسن بن أحمد الهمداني (ق٣ـ٤هـ/٩ـ١٠م) [١]

هذا العالم الرحالة اليمني، ويكنى بابن يعقوب، ويعرف بالنسابة، أو ابن الحائك، ويسمي نفسه بـ (لسان اليمن) ، ويكنى نفسه أيضاً بأبي محمد . وبلاده ومسقط رأسه بلاد همدان، وقد أشار إلى أوطان همدان بشكل مستفيض في كتابه: **الإكليل**، الجزء العاشر[٢] . ولد في سنة (٢٨٠هـ /٨٩٣ م) ، ولم تذكر المصادر المبكرة شيئاً عن طفولته، وفي شبابه كان يذهب مع والده في مهنة الجمَّالة التي كانت قائمة آنذاك على نقل الحجاج والتجار من اليمن إلى الطائف ومكة المكرمة. وقد أشار إلى ذلك بقوله " وكنت أنظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة" [٣] . ومن خلال تنقلاته في بعض حواضر الجزيرة العربية، سنحت له الفرصة بالالتقاء بالعلماء وأرباب الفكر والثقافة فتعلم على أيديهم، وتدرج في

(١) للمزيد من التفصيلات عن الهمداني وكتبه وبخاصة كتاب : صفة جزيرة العرب، انظر: ابن جريس " بلادة السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب " مجلة الدارة، العدد (٣) السنة (١٩) (ربيع الآخر والجماديان /١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ص ٧٦ـ١١١ .

(٢) كتاب: الإكليل من أهم كتب الهمداني، ويقع في عشرة أجزاء، وللأسف لم يظهر حتى الآن إلا أربعة أجزاء فقط هي : (الأول، والثاني، والثامن، والعاشر) . ونتطلع إلى أن يتم العثور على الأجزاء الباقية (بإذن الله تعالى) .

(٣) الحسن الهمداني . صفة جزيرة العرب . تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض : منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م) ، ص ٣٥٦. ويبدو أن نشاطات الهمداني وأغلب رحلاته كانت خلال العقود الأولى من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . ويذكر أن وفاته كانت (٣٤٥هـ / ٩٦٥م) .

سلم المعرفة حتى ذاع صيته بين الناس وأصبح معروفاً عند كثير من العلماء بعلمه وقوةٍ بيانه، وقد أثنى عليه بعض العلماء فقالوا: " إنه لم يولد مثله في اليمن، علماً وفهماً، ولساناً وشعراً، ورواية وذكراً، وإحاطته بعلوم العرب من النحو واللغة والغريب منه والشعر "[١]. ومن مؤلفات هذا العالم اليمني المنشورة (غير الإكليل): **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، وكتاب الدامغة، وكتاب صفة جزيرة العرب**، وجميع هذه الكتب[٢] قامت على الدراية والخبرة والتجارب والرحلات العلمية، وكل واحد منها يستحق أن يكون موضوعاً لرسالة أو بحث علمي أكاديمي.

والذي يهمنا في هذه الدراسة، هو كتاب: **صفة الجزيرة**، الذي قامت مادته على الرحلة والمشاهدة والاستقرار لبلاد وسكان جزيرة العرب[٣]، وبخاصة البلاد التهامية والسروية الممتدة من حواضر اليمن إلى مدن الحجاز الكبرى. ونجد بلاد نجران ومرتفعات عسير (من بلاد قحطان إلى شمران) قد نالها النصيب الجيد من هذا الكتاب[٤].

ونلحظ أن الجانب الجغرافي والبشري ورد بشكل جيد عند هذا الرحالة الذي فصل الحديث عن الأجزاء الجبلية والتهامية الممتدة من نجران وجازان إلى الطائف ومكة المكرمة، فذكر جبالها ووهادها وأوديتها، ثم عرج للحديث بشكل مركز على كل ناحية من نجران إلى غامد وزهران، فذكر كل سراة بأهلها، ولم تكن إشارته لهذه البلدان لمرة واحدة، وإنما أورد تفصيلات عنها في أكثر من رحلة ما بين صنعاء ومكة المكرمة[٥].

وأشار إلى حياة الناس الاجتماعية فذكر أسماء كثير من العشائر والبطون التي كانت تسكن الديار الممتدة من نجران إلى أبها وبيشة وما جاورها، وظهر لنا من

---

(١) انظر مقدمة حمد الجاسر في كتاب الهمداني (صفة جزيرة العرب)، ص١٨.

(٢) جميع هذه الكتب مطبوعة ومنشورة وفي متناول أيدي الباحثين. مع العلم أن هناك بعض المؤلفات الأخرى للهمداني ضاعت ولم تصلنا.

(٣) الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا السفر، هي طبعة دار اليمامة بالرياض بإشراف حمد الجاسر وتحقيق الأستاذ الأكوع (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

(٤) للمزيد انظر: ابن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب " ص ٧٧ وما بعدها، للمؤلف نفسه. دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة. (ق١ق١٠هـ/ق٧ق١٦م) (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج١، ص١٢٧-١٦٤.

(٥) يظهر أن الهمداني كان كثير الترحال ما بين الحجاز واليمن، وقد ذكر ذلك في أكثر من موضع من كتابه: صفة الجزيرة. للمزيد انظر: الهمداني، صفة، ص ١١٥ وما بعدها، ابن جريس، دراسات، ج١، ص١٢٨ وما بعدها، للمؤلف نفسه " بلاد السراة ".."، ص ٧٨ وما بعدها.

حديثه هيمنة القبائل على أوطانها، فكانت صاحبة الحل والعقد في بلادها . ولم يغفل من ذكر بعض طبقات المجتمع الأخرى مثل: الموالي والعبيد في بلاد جرش (عسير) وما حولها[١] . كما ذكر أسماء بعض الأعيان والشيوخ، وأشار إلى أسماء كثير من القرى والمستوطنات في نجران والمرتفعات العسيرية[٢] . وعرج بشكل موجز على أسماء بعض الألبسة والموائد التي شاهدها في صنعاء ونجران . وسروات عسير[٣] .

ومن ملاحظات هذا الرحالة (يرحمه الله) انتباهه إلى اللهجة والجانب اللغوي عند النجرانيين وسكان جبال عسير، ومقارنتها بالجوانب اللغوية الأخرى عند سكان اليمن أو بعض الأجزاء التهامية، وخلص إلى أن أهل مرتفعات عسير ونجران أكثر فصاحة في القول، وسلامة في اللغة، فيقول : " الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزبيد، فبني الحارث مما اتصل ببلاد شاكر من نجران إلى أرض يام، فأرض سنحان، فأرض نهد وبني أسامة فعنز، فخثعم، فهلال، فعامر بن ربيعة، فسراة الحجر ... غير أن أسافل سروات هذه القبائل ... دون أعاليها في الفصاحة ... " [٤]

أما الحياة الاقتصادية فقد أشار إلى أسماء كثير من المزروعات[٥]، وذكر بعض الحيوانات البرية والأليفة في سروات عسير، كما أشار إلى أسماء بعض مواطن الرعي لتلك الحيوانات[٦] . ولم يغفل ذكر العديد من المهن والحرف والصناعات التقليدية التي شاهدها عند سكان بلدان نجران وعسير أثناء ذهابه وإيابه من خلالها[٧] . كما أشار إلى الطرق التجارية التي كانت تربط اليمن بالحجاز مارة بأجزاء من مرتفعات عسير. والطريف أن الهمداني ذكر طول المسافة بين كل محطة وأخرى بالأميال . وهذا يعكس لنا دقته في قياس طول الطريق أثناء ذهابه وإيابه معها [٨] .

---

(١) المصادر نفسها .

(٢) فصل الحديث في ذكر أسماء بلاد يام، وقحطان، وشهران، وعسير، ورجال الحجر، فذكر شيوخهم، وأسماء الكثير من قراهم والبطون أو الفخوذ التي تسكنها . الهمداني، صفة، ص٢٥٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٠، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ . للمزيد انظر : ابن جريس، دراسات، ج١، ص١٤٧ .

(٥) الهمداني، صفة، ص٢٢٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٣٠١ . وذكر العديد من أسماء الأشجار والنباتات الموجودة في البلاد الممتدة من ظهران الجنوب وقحطان إلى بيشة والنماص وتنومة وما حولها .

(٦) المصدر نفسه . ص ٢٦٢ .

(٧) للمزيد انظر : ابن جريس، دراسات، ج١، ص١٥٠، ١٦٢ .

(٨) الهمداني . صفة، ص ٣٣٨-٣٤٠ .

واتضح لنا من شروحاته عدم وجود نشاط علمي فكري جيد، ويبدو أنه كان شديد الملاحظة للتركيبة السكانية، وبعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وإشارته إلى فصاحة سكان هذه البلدان، لكنه لم يشر إلى شاعر أو عالم أو أديب أو مثقف أو مفكر بهذه الأوطان، ولو كان فيها أحد من هؤلاء لكان ألمح إليه[١]. مع أننا نجده يذكر الشاعر أبا الحياش الحجري الذي شاهده في مكة وهو يقرض بعض نتاجه الأدبي هناك[٢].

٢ـ الإمام القاسم بن علي المعروف بـ (العياني) (ق٤هـ / ١٠م) :

هذا الإمام من سلالة الحسين بن علي بن أبي طالب، أحد أئمة الزيدية الكبار[٣]. ولد سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م) في تباله من بلاد خثعم (سراة عسير)، وعاش معظم حياته في مرتفعات عسير، وله رحلات إلى الحجاز واليمن، مع أن جل وقته قضاه في العبادة والقراءة والتأليف[٤]. إلى جانب أنه كان على صلات بأحوال اليمن السياسية، وبخاصة مواطن الزيدية فيها، مثل : صنعاء، وصعدة[٥]. وفي نهاية حياته (٣٨٨هـ/٩٩٨م) ترك مسقط رأسه في سراة عسير، وذهب إلى صعدة داعياً لنفسه بالإمامة في اليمن[٦]. لقد مارس حياته السياسية إماماً وحاكماً

---

(١) ربما كان لوعورة تضاريس نجران وعسير، انعزال كثير من أجزائها أثر في جعلها فقيرة في الجوانب الفكرية والعلمية والثقافية . للمزيد عن الحياة العلمية والثقافية والفكرية في بلاد نجران وعسير خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، انظر: ابن جريس، دراسات، ج١، ص ٢٤٩ـ ٣٣٤ ، للمؤلف نفسه، نجران (ق١ ـ ق٤ هـ)، ج١، ص٣٧٣ـ ٤٣٦ ، للمؤلف نفسه، تاريخ التعليم في منطقة عسير، ج١، ص١٦ ـ ٥٠ .

(٢) للمزيد انظر القصيدة التي قرضها أبو الحياش الحجري في مكة المكرمة . مع أن هذه القصيدة، وهذا الشاعر يحتاج إلى دراسة مستفيضة، حبذا أن نرى أحد الباحثين يتولى هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الجادة . انظر: الهمداني، صفة، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٣) للمزيد عن هذا الإمام، انظر: الحسين بن أحمد بن يعقوب . سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني . تحقيق عبد الله محمد الحبشي (صنعاء : دار الحكمة اليمانية، ١٤١٧هـ/١٩٦٦م)، ص٢٧ وما بعدها، وانظر: مجموعة كتب ورسائل الإمام القاسم العياني . تحقيق عبد الكريم أحمد جدبان (صعدة : مكتبة التراث الإسلامي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٥٣ وما بعدها .

(٤) المصادر نفسها .

(٥) انظر ابن جريس، دراسات، ج٢، ص٤٧١ـ ٥٣٤، للمؤلف نفسه " رسائل الإمام القاسم بن علي العياني إلى أهل عثر ونجران في أواخر القرن (٤هـ/١٠م) (٣٨٨ـ٣٩٣هـ/٩٩٨ـ١٠٢٣م) (دراسة تاريخية تحليلية) . نشر هذا البحث في مداولات اللقاء العلمي السنوي السابع لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليج العربية. والذي عقد في المنامة (مملكة البحرين) من (٢٠ـ٢٢ ربيع الأول، ١٤٢٧هـ الموافق ١٨ـ٢١ أبريل، ٢٠٠٦م)، ص ١٩٧ ـ ٢٥٠ .

(٦) لم يكن العياني يرغب في هذا المنصب السياسي الديني، ولكن بالإلحاح الشديد من اليمنيين الذين كانوا يترددون عليه في بلدة تبالة من بلاد خثعم، نزل عند رغبتهم ووافق ثم ذهب معهم إلى اليمن . انظر : الحسين بن يعقوب، سيرة الإمام، ص٣١ وما بعدها .

للأجزاء الجبلية من اليمن، وعانى فيها الكثير من الاضطرابات والتمرد على حكمه، وكانت بلاد نجران وصنعاء من أكثر البلدان التي ظهر بها مناوئون وأعداء له، ويذكر أنه بعث بالعديد من الجيوش إلى نجران فحاربهم وخرب بعض بلادهم ومزارعهم [١]. وبعد مرور خمس سنوات تخلى عن العمل السياسي واعتزل في بلدته عيان باليمن حتى وافاه الأجل (٣٩٣هـ/١٠٠٢م) [٢].

دون الفقيه القاضي الحسين بن أحمد بن يعقوب سيرة هذا الإمام [٣]، ويظهر في هذه السيرة الكثير من الوثائق السياسية والإدارية الجيدة التي لا نجدها في أي مصدر آخر، كما يوجد بها بعض المعاهدات والإرشادات العامة التي كان يوجهها الإمام إلى أتباعه وعماله في النواحي التابعة لإمامته، ومن تلك النصائح كيفية تصريف الأموال وقبض الجبايات، كما توجد ضمن تلك الوثائق نصائح سياسية في دقائق الحكم وإرشاد الحاكم.

والفاحص لسيرة الإمام العياني، ومجموعة الوثائق الخاصة به لا يجد تفصيلات كثيرة لها علاقة كبيرة بمرتفعات عسير ونجران، مع أن جل حياته قضاها في سروات عسير، فلا نجد ذكراً لنشاطاته السياسية أو العقدية في مسقط رأسه تبالة ببلاد بيشة، مع أن الوفود اليمنية كانت تتردد دائماً عليه ما بين صعدة وبيشة. والثابت أنه ولد وعاش ومات على مذهبه الزيدي، ومن ثم فلا نجد أثراً لهذا المذهب في مرتفعات عسير وبخاصة النواحي التي عاش بها العياني وأفراد أسرته في منطقة بيشة [٤].

أما علاقة هذا الإمام بنجران فلم تظهر واضحة للعيان إلا بعد أن أصبح إماماً لبلاد اليمن (٣٨٨-٣٩٣هـ/٩٩٨-١٠٠٢م)، فكان يسعى جاهداً إلى السيطرة على الأوطان النجرانية، لكن النجرانيين لم يرضخوا له وإنما تصدوا له، فجرد لهم العديد من الجيوش لإخضاعهم، بل أرسل لهم العديد من الرسائل المطولة التي يهددهم فيها ويذكرهم بوجوب الطاعة والانقياد لحكمه. والمتأمل في تلك الرسائل

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٠ وما بعدها، ابن جريس، دراسات، ج٢، ص٤٧٥.

(٢) الحسن بن يعقوب، ص٣٠ وما بعدها، وللمزيد انظر: مجموعة كتب ورسائل العياني، ص٥٣ وما بعدها.

(٣) المصدران نفسهما، للمزيد انظر: ابن جريس، دراسات، ج٢، ص ٤٧١ وما بعدها، وللمؤلف نفسه "رسائل الإمام القاسم بن علي العياني .." ص ١٩٧ وما بعدها.

(٤) انظر: ابن جريس، دراسات، ج٢، ص ٤٧٢ وما بعدها، المؤلف نفسه "رسائل الإمام العياني" ١٩٩ وما بعدها.

والأشعار التي قيلت في حروب العياني مع أهل نجران يتضح ضراوة الحروب والصراعات والكراهية بين الطرفين[١].

٣- الأميران الشريفان القاسم ومحمد ابنا جعفر بن الإمام العياني (ق٥هـ / ق١١م) :

هذان الأميران: هما ابنا جعفر بن القاسم (العياني)، عاشا تحت رعاية عمهما الحسين ووالدهما جعفر، بعد موت جدهما الإمامِ القاسم العياني. تولى الحسين حكم اليمن بعد موت والده، لكنه لم يعمر طويلاً، وإنما قتل على يدٍ قبائل همدان عام (٤٠٥هـ/١٠١٣م). وجاء من بعده أخوه جعفر، فحكم شهوراً، وماتٍ سنة (٤٠٥هـ/١٠١٤م) [٢]. ثم جاء ولدا جعفر القاسم ومحمد، اللذان بذلا جهوداً كبيرة في السيطرة على بلاد اليمن الجبلية التي كانت تحت حكم أبيهما وجدهما. وفي عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) سعيا إلى التصدي لمؤسس الدولة الصليحية، علي بن محمد الصليحي[٣]، لكنه هزمهما، وأجبرهما على الخروج من اليمن، فذهبا إلى مسقط رأسٍ جدهما (العياني) في بلاد تباله وترج بأعالي وادي بيشة [٤]، وبقيا فيها بعيداً عن أذى الصليحيين حوالي تسع سنوات (٤٥١-٤٥٩هـ/١٠٩٥-١٠٦٦هـ)، ثم عادا إلى اليمن لمواصلة حروبهم ضد ملوك الدولة الصليحية [٥].

ويأتي الأمير جعفر بن محمد بن جعفر بن القاسم العياني، الملقب بـ (عمدة الإسلام) فيكلف أحد الرجال المقربين من أبيه وعمه الحسين، ويدعى مفرح بن أحمد الربعي[٦] بتدوين سيرة والده وعمه، مع التركيز على صراعاتهم مع

---

(١) انظر الحسن بن يعقوب، سيرة الإمام، ص٢٧، ١٢٤، ١٣٥، مجموعة كتب ورسائل الإمام العياني، ص٢٢١ وما بعدها، ابن جريس " رسائل الإمام العياني ... " ص١٩٩ وما بعدها. لقد عالجنا هذا الجانب في بعض بحوثنا، لكن الإمام العياني وعلاقته ببلاد نجران وبلاد السروات الممتدة من صعدة إلى الطائف لازال بحاجة إلى جهود بحثية أوسع، ونأمل أن نرى من طلابنا أو أحد الباحثين الجادين من يتولى هذا الموضوع بالبحث والدراسة العميقة. ومن يفعل ذلك فسوف يضيف لنا جديداً لم ينشر حتى الآن.

(٢) للمزيد انظر: ابن جريس، دراسات، ج٢، ص ٥٣٧ - ٥٤٢، للمؤلف نفسه. " بلاد السراة في كتاب سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين القاسم ومحمد ابني جعفر الإمام العياني من عام (٤٥١-٤٥٩هـ/ ١٠٥٩-١٠٦٦م). بحث قدم في الندوة العالمية السادسة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود (٢٨-١٤٢٧/١٠/٢٩هـ الموافق ١٩-٢٠٠٦/١١/٢٠م) منشور ضمن أعمال الندوة في الكتاب السادس من دراسات تاريخ الجزيرة العربية، والخاص بالعصر العباسي (ق٥هـ-ق٦هـ)، ص١٢٩-١٥٦.

(٣) للمزيد عن مؤسس الدولة الصليحية ومن جاء بعده من الحكام الصليحيين، انظر: عبد الله بن عبد الكريم الجرافي. المقتطف من تاريخ اليمن (بيروت: منشورات العصر الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ١١٧-١٢٢.

(٤) ابن جريس، دراسات، ج٢، ص٥٤١-٥٤٢.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مفرح الربعي: أحد رجالات ربيعة خولان في صعدة، التي كانت على صلة قوية بالأميرين، ومن أنصارهما. أما مفرح فكان مرافقاً للأميرين وشاهد عيان للكثير من الأحداث التي حصلت في عهدهما.

الصليحيين في اليمن، وقد قام بهذه المهمة معتمداً على ما شاهده وعرفه، ومستعيناً بأقوال وروايات البعض ممن عاصر وعمل في خدمة هذين الأميرين الزيديين [١] .

وهذه السيرة تم طباعتها ونشرها في كتاب تحت عنوان : سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين : القاسم ومحمد ابني جعفر ابن الإمام القاسم بن علي العياني . تحقيق ودراسة رضوان السيد، وعبد الغني محمود عبد العاطي، (بيروت: دار المنتخب العربي، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م) . وهذه النسخة التي تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة[٢] . والكتاب بجميع ملاحقه وفهارسه يقع في حوالي (٤٠٠) صفحة، معظمها تؤرخ لحياة الأميرين في بلاد اليمن، أما رحلاتهما ما بين نجران وبلاد بيشة فلا تزيد المادة المكتوبة في هذا الجانب عن (١٢-١٣) صفحة، وقد ناقشناها في بحث علمي أكاديمي مستقل[٣] .

وأهم ما ورد في رحلات الأميرين بمرتفعات عسير ونجران، نذكرها في النقاط التالية .

١. مرورهما ببدر الجنوب في نجران ثم سنحان فشريف فعبيدة حتى دخلا إلى بلاد شهران واستقرا في وادي ترج على وادي بيشة . ولم يتركا تلمس أخبار اليمن والحجاز، فكانا مع بعض رجالهما يسافران إلى الطائف ومكة المكرمة، وربما أرسلا من قبلهما من يجمع لهما أخبار اليمن السياسية والاجتماعية [٤] .

٢. قابلا العديد من شيوخ وأعيان القبائل الممتدة من نجران إلى سراة عسير بل نزلوا ضيوفاً على بعضهم، ونالوا رعايتهم وحمايتهم حتى خرجا من ديارهم. ومن نصوص الرحلة اتضح لنا وعورة الطرق، وعدم وجود الأمن،

---

(١) لم يكن جعفر بن محمد (عمدة الإسلام) الوحيد ممن سعى إلى تدوين سيرة والده وعمه، وإنما هناك من سبقه، أو جاء بعده من رجالات الدولة الزيدية الذين دونوا العديد من المدونات والسير عن بعض الأئمة الزيدية . والمفيد في هذه السير أنها لا تخلو من مواد علمية جيدة عن بلاد السراة الممتدة من نجران وقحطان إلى شمران وزهران . ونأمل أن نرى من طالباتنا وطلابنا من يعكف على مثل هذه السير، ومصادر الدولة الزيدية الأخرى ويستخلص ما بها من تفصيلات عن هذه البلاد السروية المنسية بحثياً خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة .

(٢) لقد أجرينا دراسة على ما ورد في هذا الكتاب عن بلاد السراة، للمزيد انظر: ابن جريس " بلاد السراة في كتاب سيرة الأميرين... " ص١٢٩ وما بعدها، للمؤلف نفسه، دراسات، ج٢، ص٥٣٧ وما بعدها .

(٣) المصدران نفسهما . وللمزيد انظر : الكتاب نفسه، سيرة الأميرين، ص١٢٠ وما بعدها .

(٤) الربعي، سيرة الأميرين، ص ١٢٠ وما بعدها .

وأحياناً ظهور لصوص وقطاع طرق يعتدون على الغريب الذي يمر ببلادهم . وقد حصل للأميرين الشريفين أكثر من قصة كادت أن تسبب لهما بعض الأذى أثناء اجتيازهما بلاد نجران وقحطان وشهران عند خروجهما من اليمن حتى وادي بيشة (١) .

٣. عند إقامة الشريفين في وادي ترج مارسا مهنة الزراعة، وصاهرا بعض العشائر هناك، وعاشا في شبه عزلة عن عامة الناس، فتراهم مع رجالهم يمارسان عباداتهم ويتدارسان فيما بينهم بعض العلوم والكتب الشرعية، وبخاصة ماله علاقة بالمذهب الزيدي(٢) .

٤. لا نجد في صفحات هذه السيرة تفصيلات عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية الفكرية، مع أن عموم المنطقة الممتدة من بدر في نجران إلى ترج وتبالة كانت ولا زالت مأهولة بالسكان مع توفر جميع مقومات الحياة الجيدة فيها .

٤ ـ الإمام أحمد بن سليمان (ق٦هـ/١٢م) :

هو الإمام المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق (مؤسس الدولة الزيدية في اليمن) (٣) بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب(٤) . ولد عام (٥٠٠هـ/١١٠٦م) ببلاد صعدة . تولى الحكم في بلاد اليمن حوالي ثلاث وثلاثين سنة (٥٣٢-٥٦٦هـ/ ١١٣٧-١١٧٠م) ، وامتد نفوذه إلى صنعاء والجوف ونجران وبلاد زبيد في تهامة . له العديد من المؤلفات مثل: **أصول الأحكام في الحديث مرتب على أبواب الفقه، وحقائق المعرفة في علم الكلام**، وغيرهما، كان شاعراً فصيحاً جرت بينه وبين القاضي نشوان بن سعيد الحميري مكاتبات شعرية عديدة (٥) .

---

(١) المصدر نفسه . للمزيد انظر: ابن جريس، دراسات، ج٢، ص ٥٤٦ وما بعدها .

(٢) انظر : الربعي، السيرة، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٣) للمزيد عن تاريخ الدولة الزيدية في اليمن وأئمتها، انظر، عبد الواسع الواسعي . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحَزَن في حوادث وتاريخ اليمن (صنعاء: الدار اليمنية للنشر، ١٤١٤هـ/١٩٨٤م)، ص١٧٩ وما بعدها، الجرافي، المقتطف، ص١٦٥ وما بعدها .

(٤) انظر: الجرافي، المقتطف، ص١٧٨ - ١٧٩ .

(٥) المصدر نفسه . كان القاضي نشوان عالماً لغوياً أصولياً له تصانيف مشهورة منها شمس العلوم في اللغة العربية، وله شعر جيد من ذلك قصيدته المشهورة في ملوك حمير، توفي في ذي القعدة سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) .

لهذا الإمام سيرة بعنوان : سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، لمدونها سليمان بن يحيى الثقفي . هذا السيرة وجدت مخطوطة في جامع صنعاء الكبير، قام بدراستها وتحقيقها الدكتور عبد الغني محمود عبد العاطي، ونشرتها دار عين للدراسات والبحوث بالقاهرة (٢٠٠٢م)، وتقع في (٣٤٧) صفحة من القطع المتوسط . ويظهر فيها رصد تاريخي لحياة هذا الإمام وبخاصة في عصر حكمه لأجزاء من بلاد اليمن، واللافت للنظر أنه يوجد بها حوالي (٥٠-١٠٠) صفحة متفرقة تدون صلات هذا الإمام مع بلاد نجران، وأجزاء من بلاد وادعة وقحطان، ونجمل ما خرجنا به من هذه الصفحات في النقاط التالية :

١. أن الإمام أحمد بن سليمان كان يتردد على بلاد نجران وربما أجزاء من ديار قحطان الجنوبية بهدف إخضاعها لنفوذه . ونجده منذ عام (٥٣٣-٥٥٩هـ/ ١١٣٨-١١٦٣م) يذهب إلى تلك النواحي أكثر من مرة . وفي كل مرة يأتيها يقدم معه بعض أعوانه، وأحيانا يكون معه جيوش تتصدى لمن يقف في وجه الإمام من قبائل يام وسنحان وشريف وأحيانا عبيدة . ويظهر أنه كان له أعوان ومؤيدون من تلك البلدان، بل كان يعين من قبله من يتولى القضاء والإمارة في نجران [١].

٢. من خلال هذه الصفحات يتضح لنا أسماء العديد من الأعيان والشيوخ وأصحاب النفوذ في نجران وما جاورها من بلاد قحطان، وبعض أولئك الأشخاص نجدهم من مناصري الإمام، وآخرين معادين له ولأعوانه . والجميل في هذه المادة العلمية أننا لا نجدها في أي مصدر آخر [٢].

٣. يتخلل هذه السيرة بعض المعلومات الحضارية الجيدة في الجوانب الاجتماعية، كالأطعمة والأشربة، وطبقات المجتمع، وعادات وتقاليد أخرى . وفي الحياة الاقتصادية هناك العديد من الإشارات إلى المزارع ومحاصيلها المتنوعة، وما حل بالكثير من هذه المزارع من الخراب والدمار أثناء الحروب بين جيوش الإمام وأهالي البلاد . ولا تخلو السيرة أيضاً من معلومات عن السلع والطرق التجارية التي كانت معروفة في تلك البلاد خلال القرن (٦هـ/١٢م) [٣].

---

(١) انظر : سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، ص٤١ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣ وما بعدها . ونأمل أن نرى من طالباتنا وطلابنا من يدرس تاريخ نجران ومرتفعات عسير من خلال كتب وسير الأئمة الزيدية، لأنه يوجد بهذه المصادر مادة علمية يصعب أن نجدها في مصادر أخرى . ثم إن هذه البلاد فقيرة في كل ما دون عنها خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة .

(٣) سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، ص٥٧ وما بعدها .

٤. هناك بعض الإشارات إلى المعوقات للحياة الاقتصادية في نجران وما حولها، مثل: انتشار الجوع والفقر، والجدب والقحط الذي حل بالبلاد أحياناً، واللصوص وقطاع الطرق والاعتداء على التجار وغيرهم [(١)]. يتخلل السيرة كثير من الأشعار التي قالها الإمام أثناء حروبه مع النجرانيين وتردده على بلادهم. ولا تخلو أيضاً من شذرات في الجوانب العلمية والثقافية والفكرية [(٢)].

٥ـ الإمام عبد الله بن حمزة (ق٦ـ ٧هـ/ ق١٢ـ ١٣م):

هو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي، ينتسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، عاش في بلاد الجوف بأرض اليمن، واستطاع السلطان طغكتين الأيوبي (٥٧٩ـ٥٩٣هـ/١١٨٣ـ١١٩٦م) أن يضيق الخناق على الإمام المنصور بالله في موطنه الجوف، وبعد موت هذا الحاكم الأيوبي عام (٥٩٣هـ/١١٩٦م)[(٣)]. اشتد ساعد الإمام المنصور بالله، وسعى إلى توسيع نفوذه ومحاربة الأيوبيين في اليمن، ونجح إلى حد ما في إلحاق العديد من الهزائم بهم[(٤)].

كان الإمام المنصور بالله، عبد الله بن حمزة، فصيحاً مترسلاً وشاعراً بليغاً، له مؤلفات عديدة ورسائل وفتاوى وقصائد كثيرة. ومن مؤلفاته الشهيرة: **كتاب الشافي**، الذي رد به على فقيه الخارقة في أربعة مجلدات، وله رسائل عديدة متبادلة مع كثير من عظماء زمانه[(٥)]. أما سيرته فقد دونها أحد أتباعه وهو: فاضل بن عباس بن علي بن محمد بن أبي القاسم ويعرف بأبي فراس بن دعثم. وقد وصلنا معظمها، حيث جمع شتاتها الدكتور عبد الغني محمود عبد العاطي وحققها وأخرجها في مجلدين بعنوان: **السيرة الشريفة المنصورية سيرة الإمام عبد الله بن حمزة (٥٩٣-٦١٤هـ/ ١١٩٦- ١٢١٧م)** طبع ونشر دار الفكر المعاصر في بيروت (١٤١٤هـ/١٩٩٣م). وتقع في (١٠٣٨) صفحة مشتملة على الحواشي والمقدمة والفهارس[(٦)].

---

(١) المصدر نفسه. ص ٦٣ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) هذه بداية سيرة الإمام المنصور بالله، واستمرت إلى سنة وفاته عام (٦١٤هـ/١٢١٧م).

(٤) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ بني أيوب في اليمن، انظر: محمد بن علي مسفر عسيري. الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩ـ٦٢٦هـ) (جدة: دار المدني، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٣٧ وما بعدها.

(٥) للمزيد عن هذا الإمام وأعماله، انظر سيرته المعنية في هذه الدراسة، مجلدين، انظر أيضاً الجرافي، المقتطف، ص ١٨١ـ١٨٥.

(٦) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ الإمام المنصور بالله انظر، السيرة في المجلدين الآنفي الذكر.

وعند استقراء هذه السيرة وجدناها تفصل الحديث عن تاريخ الإمام المنصور بالله في بلاد اليمن، لكنها - أيضاً - لم تذهب بعيداً عن سيرة الإمام أحمد بن سليمان، بخصوص نجران وما حولها، فقد أشارت في حوالي عشرين صفحة متفرقة عن صلات دولة هذا الإمام بالنجرانيين [(١)]. فلم تتوان عن الاتصال بأرض نجران والسعي إلى مد نفوذها عليه، وتعيين من يتولى أمرها السياسي والإداري للإمام. لكن النجرانيين كانوا في حالة مد وجزر، فعندما يرسل لهم الإمام جيوشاً جرارة، يستطيع إخضاعهم وتعيين من يتولى أمر بلادهم، لكن الأمور لا تدوم طويلاً، فلا تعود جيوش الإمام إلى اليمن، إلا وتظهر ثورات النجرانيين من جديد[(٢)]. ومن خلال تلك الصراعات التي جرت بين النجرانيين والإمام المنصور بالله ظهر العديد من الآثار السلبية في بلاد نجران وما جاورها وبخاصة في الجوانب الحضارية: كالزراعة، والتجارة وغيرها[(٣)].

٦- جمال الدين يوسف بن يعقوب المعروف بـ (ابن المجاور) (ق٧هـ/١٣م):

ابن المجاور من رحالي القرون الإسلامية الوسيطة، من مواليد عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٧م). وهناك اختلاف في نسبه ومسقط رأسه، فقيل إنه دمشقي، ورأي آخر يذكر أنه فارسي، والرأي الثاني ربما يكون الصحيح[(٤)].

والذي يخصنا في هذا القسم، هو كتاب رحلته في جزيرة العرب والموسوم بـ: **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز أو تاريخ المستبصر**، وأول من نبه إلى هذا الكتاب في العصر الحديث المستشرق سبرنجر في عام (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، ثم

---

(١) للمزيد: انظر السيرة، ج١، ص ٦٤، ١٧٧، ١٨٤، ٢٠٥، ٢٤٧، ٢٥٤، ٤٠١، ٤٢٤ .ج٢، ٥٠٧، ٥٢٨، ٦٨٧، ٦٩٣، ٧٩٨-٨٠٠، ٨٣، ٨٦٦، ٩٠٦، ٩٢، ٩٤٢ .

(٢) الصراعات بين الأئمة الزيدية والنجرانيين خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة جديرة بالبحث والدراسة، وهي تستحق أن يفرد لها كتاب علمي مستقل، أو تدرس من خلال أطروحات علمية لدرجتي الماجستير والدكتوراة. ونأمل أن نرى بعض طالباتنا وطلابنا أن يولوا مثل هذا الجانب كبير اهتمام في بحوثهم ودراساتهم.

(٣) انظر السيرة، الصفحات السابقة. ومن يدرس التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد نجران خلال القرون الإسلامية الوسيطة فسوف يجد في سير الأئمة الزيدية وكذلك المصادر الزيدية الأخرى كثيراً من التفصيلات في هذه الجوانب الحضارية.

(٤) من يقرأ كتابه: تاريخ المستبصر، يجد أن هذا الرحالة خبير بثقافة، ومعارف وأشعار الفرس، وهذا مما يؤكد على أنه من أصول فارسية. انظر: الكتاب نفسه، وللمزيد انظر: بشير إبراهيم بشير "ابن المجاور: دراسة تقويمية لكتابه: تاريخ المستبصر" بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض (الملك سعود) (٥-١٠ جمادى الآخرة (١٣٩٧هـ/١٩٧٩م). دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الكتاب الثاني)، ص٤١-٦٠.

جاء بعده المستشرق أوسكار لوفغرين فدرسه وعلق عليه، ثم طبع ونشر بمطبعة بريل في مدينة ليدن (١٩٥١م)، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة. وهذا الكتاب يقع في جزئين بمجلد واحد، في (٣٠٣) صفحة من القطع المتوسط[١]. ومن عنوان الكتاب يتضح لنا أنه خاص ببلاد اليمن والحجاز، لكنه لا يخلو من تفصيلات عن نجد، وأرض السراة، والبحرين. والجيد في معلومات هذا السفر أنها قامت على الرحلة والمشاهدة [٢]. وهناك مواضع عديدة في الكتاب تحدث فيها هذا الرحالة عن قضايا تاريخية وحضارية في كل من نجران وسروات عسير. فيشير إلى صور من الحياة الاجتماعية في مرتفعات عسير وما جاورها من سروات أخرى، فيذكر أنها " قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر، وكل قرية منها مقيمة بأهلها، كل فخذ من فخوذ العرب وبطن من بطون البدو في قرية، ومن جاورهم لا يشاركهم في نزلها ولا يسكنها أحد سواهم. وقد بنى في كل قرية قصراً من حجر وجص، وكل ساكن في القرية له مخزن في القصر يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزة وملكه، ولا يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيع. ويحكم كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشيره عليهم ويحكم فيهم. وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون خراجاً، ولا يسلمون قطعة، إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه، لا يزال القتال دأبهم، ويتغلب بعضهم على مال بعض، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طوال الدهر على هذا الفن. وجميع زروعهم الحنطة والشعير وشجرة الكروم والرمان واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات، وأكلهم السمن والعسل. وهم في دعة الله وأمانه، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب" [٣].

وذكر في موضع آخر صورة من التركيبة السياسية في سراة عسير السراة، فقال: " إنهم قبائل وفخوذ من العرب، ليس يحكم عليهم سلطان، بل مشائخ منهم

(١) انظر الكتاب نفسه، للمزيد انظر: بشير إبراهيم بشير، ص٤٢ وما بعدها.

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) رحم الله ابن المجاور فقد ذكر الكثير من طباع وحياة أهل سروات عسير، ومن جاورهم من السرويين القاطنين ما بين الطائف ونجران. والمتجول في هذه البلاد يجد نسبة الحقيقة عالية فيما أورده هذا الرحالة، وربما في بعض أقواله، وهي قليلة، نظر ويجب الوقوف عندها والتثبت من صحتها، لكن ما أورده من الصعوبة أن نجده في مصادر أخرى. للمزيد انظر، ابن المجاور، ج١، ص٣٧-٣٨.

وفيهم، وهم بطون متفرقون"[١]. ويشير إلى بعض نشاطاتهم التجارية، وتصدير سلعهم إلى مكة، فيقول " إذا دخلوا مكة ملؤوها خبزاً من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب، وما يشابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة حاج الطرق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو. يقصد سروات الطائف والباحة وعسير. أمنا نكسب منهم القوت ... "[٢]. ويذكر بعض الطرق التي تخرج من نجران إلى نجد، كما يسرد بعض المحطات والمسافات على الطرق التي تخرج من بلاد يام في نجران إلى وادعة ورفيدة وطريب ونواحي أخرى في بلاد عسير الجبلية[٣].

وفي عنوان مستقل سماه : **من صعدة إلى نجران**، أشار إلى بعض المواضع في منطقة نجران، ثم ذكر طبيعة الجانب العقدي في نجران، فقال: " مدينة الأصل نجران، وعليها المعول في البيع والشراء . وينقسم أهلها على ثلاث ملل : ثلث يهود، وثلث نصارى، وثلث مسلمين . فالمسلمون الذين بها ينقسمون على ثلاثة مذاهب : ثلث شافعية، وثلث زيدية، وثلث مالكية .. "[٤].

٧. موريس تاميزيه (ق١٣هـ/١٩م) :

هذا الرحالة من أوائل الرحالين الأوربيين الفرنسيين الذين رافقوا حملة محمد علي باشا على عسير عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م)[٥]، ودون يومياته بشكل تفصيلي عن تلك الحملة بصفته كاتباً للبعثة الطبية التي كانت ترافق الحملة[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦ . ويذكر صفحات اجتماعية عن أهالي هذه البلاد، لكنه بالغ فيما ذكر، بل خرج عن الصواب في بعض رواياته . وربما شاهد أو سمع بعض الروايات المغلوطة، التي تتعارض مع شريعة الإسلام، ثم يعممها على مجتمعات بأكملها . ومن يقرأ الكتاب يجده كرر مثل هذه الروايات والأقوال . وآمل أن نرى من طلابنا الجادين، أو من الباحثين المخلصين من يتخذ هذا الكتاب موضوعاً لرسالته أو بحثه، فيدرسه دراسة علمية أكاديمية، ويغربل الكتاب، وينقد الروايات التي يظهر عليها التجني والمبالغات .

(٢) ابن المجاور، ج١، ص٢٧ .

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٨ . لم يسهب ابن المجاور في هذا الجانب، مع أننا في أمس الحاجة إلى معرفة أسماء حواضر نجران وعسير في العصر الإسلامي الوسيط . وهذه الفترة جديرة بالبحث والدراسة، حبذا أن نرى من طلابنا من يتصدى لهذا الموضوع، وربما يجد في المصادر اليمنية، وبخاصة الزيدية، ما يفيد ويثري هذا الجانب .

(٤) ابن المجاور، ج٢، ص٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٥) سبق تاميزيه أوربي آخر يدعى جيوفاني فانتاني، إيطالي الجنسية، عمل مع جيش نابليون بونابرت، ثم مع محمد علي في مصر والجزيرة العربية، وقد ساهم في بعض معارك محمد علي في تهامة وبخاصة في القنفذة عام (١٢٢٦هـ/ ١٨١١م)، وأخيرا أملى مذكراته على تاجر بريطاني، ونشرت باللغة الإنجليزية في لندن عام (١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م) . انظر ابن جريس " إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين " بحث مقدم ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٨-١٠ شعبان /١٤٢٠هـ الموافق ١٦-١٨ نوفمبر/ ١٩٩٩م)، ونشر في كتاب الندوة : العرب وأوربا عبر عصور التاريخ (بحوث ودراسات) (القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ص٤٠٩ وما بعدها، للمؤلف نفسه . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر . (جدة : العويفي للنشر والإعلان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص ١٦٥ .

(٦) المصدران نفسهما .

ولا نملك تفصيلات دقيقة عن هذا الرحالة، وأول من أشار إلى رحلته الأستاذة جاكلين بيرين الفرنسية في كتابها عن الرحالين الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية[١]. ويبدو عنده إلمام باللغة العربية إلى حد ما، وقد زار الجزيرة العربية وبلاد الحبشة ودون رحلاته في هذين البلدين [٢]. وكتاب رحلته الذي يهمنا في هذا الباب بعنوان: **رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية على عسير (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م)**، وقد طبع لأول مرة باللغة الفرنسية في باريس عام (١٨٤٠م)، ويقع آنذاك في مجلدين في سبعمائة وثلاث وتسعين صفحة تحت عنوان: **رحلة في الجزيرة العربية**، والجزء الأول يدور في فلك دخوله الجزيرة حتى الحجاز، أما الجزء الثاني (٤٠٢) صفحة فهو الخاص ببلاد عسير وحملة محمد علي عليها، وقد أعيدت طباعته في فينا عام (١٩٧٦م) [٣].

والجزء الثاني من الكتاب الذي تولى ترجمته إلى اللغة العربية الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في دراستنا، فالكتاب يقع في (٣٥٨) صفحة من القطع المتوسط مشتملاً على مقدمة المترجم وفهارس أخرى، وفي حوالي خمسة عشر فصلاً يدون تاميزيه الأحداث السياسية والحضارية التي زامنت حملة محمد علي باشا على عسير منذ خروجه من جدة والطائف عبر بلاد تربة ورنية وبيشة حتى وصل مدينة أبها، حاضرة عسير[٤]. ويتضح من شروحات هذا الرحالة عدة أمور أهمها:

١. أن مادة الكتاب قامت على المشاهدات لهذا الرحالة الذي كان مرافقاً لجيش محمد علي بهدف السيطرة على بلاد عسير، كما اعتمد على الرواية وأقوال العديد من أعيان وشيوخ المناطق التي اجتازوها من بيشة إلى أبها [٥].

٢. احتوى الكتاب على معلومات قيمة يصعب العثور عليها في مصادر أخرى مثل: أسماء بعض الأشخاص والأعيان الذين قابلوا محمد علي وكان لهم دور

---

(١) انظر جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب (خمسة قرون من المغامرة والعلم). ترجمة قدري قلعجي (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت)، ص ٢٥١ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، للمزيد انظر: ابن جريس "إقليم عسير ..." ص٤١٥ وما بعدها.

(٣) ابن جريس "إقليم عسير ..." ص ٤٢٠ وما بعدها. للمؤلف نفسه. بحوث في تاريخ عسير، ص١٢٨.

(٤) تاميزيه، النسخة المترجمة، ص٥٧ وما بعدها، ولدراسة رحلة هذا الرحالة وغيره من الرحالين في بلاد عسير، انظر، ابن جريس "إقليم عسير" ص٤١٨ وما بعدها، للمؤلف نفسه، بحوث في تاريخ عسير، ص١٠٩ - ١٨٣.

(٥) تاميزيه، النسخة المترجمة، ص٩١، وما بعدها.

مؤثر في أوطانهم وبين قبائلهم في منطقة عسير . كما أشار إلى وضع بلاد عسير السياسي، وما قام به الأمير عائض بن مرعي، حاكم منطقة عسير، من جهود وأعمال حربية وسياسية من أجل حماية بلاده والحفاظ عليها[١] .

٣. الإشارة إلى عناصر جيش محمد علي من المصريين والمغاربة وغيرهم الذين جاءوا إلى بلاد عسير لأول مرة، وما عانوه من المتاعب فيها لعدم تعودهم على السير في أوطان مثل تضاريس البلاد العسيرية . وإذا كان تاميزيه أشار إلى هذه الجزئية، فكنا نتطلع إلى معرفة الآثار الاجتماعية والثقافية لمثل هذه العناصر على منطقة عسير، وهل نتج من قدومهم إلى هذه الديار جوانب إيجابية أو سلبية على أهل البلاد أنفسهم؟[٢] .

٤. لا يخلو كتاب تاميزيه من تفصيلات جيدة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وجوانب حضارية أخرى شاهدها عند العسيريين أثناء ترحاله في بلادهم ما بين أبها وخميس مشيط وبيشة [٣].

٩+٨ - السير كيناهان كورنواليس، وروبن بدول (ق ١٤هـ/ ٢٠م) : .

هذان الرحالان هما انجليزيا الجنسية . فالأول : أحد رجالات المخابرات البريطانية، أرسلته حكومته إلى الشرق الأوسط، وجاء إلى منطقة عسير لدراستها من جميع الجوانب، ودون عنها تقريراً رفعه إلى المكتب العربي، التابع للاستخبارات البريطانية في القاهرة. وقد خرج هذا التقرير، فيما بعد، في هيئة كتاب بعنوان: **عسير قبل الحرب العالمية الأولى**، وهذا الكتاب يقع في (١٥٥) صفحة باللغة الإنجليزية، ونشر في مدينة كمبردج ببريطانيا عام (١٩٧٦م)، ويحتوي على سبعة عشر فصلاً قصيراً وهي النسخة التي اعتمدنا عليها[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٥ وما بعدها . وللمزيد عن تاريخ عسير في عهد إمارة آل عائض، انظر : علي أحمد عيسى عسيري . عسير من(١٢٤٩هـ/١٢٨٣م-١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) (دراسة تاريخية) أبها : نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) تاميزيه، النسخة المترجمة، ص١٢٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، للمزيد انظر : ابن جريس " إقليم عسير ..." ص٤١٢ وما بعدها . للمؤلف نفسه . بحوث في تاريخ عسير، ص١٠٩ وما بعدها .

(٤) انظر النسخة الإنجليزية، PP.7FF . وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ترجمة شعبية، ولم يطبع في هيئة كتاب . وهذه الترجمة متداولة بين أيدي الناس . كما أن هذه النسخة المترجمة قد اعتدي عليها من أحد أبناء منطقة عسير، وأخرجها في صنعاء على هيئة كتاب مدعياً أنها من عمله وترجمته وهذا قول غير دقيق ولا صحيح .

أمــا الثــاني : روبن بدول، فلا يعد رحالة، وإنما هــو أكاديمي بجامعة كمبردج، ولــه العديــد مــن الدراســات والمؤلفــات الأكاديمية، وقــد ترجم بعضــها إلى اللغة العربية[1] . وله كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان : **الشخصيات العربية في مطلع القرن العشرين** : ولا يزال هذا الكتاب بلغته الرئيســة، ما عدا الفصــلين الثاني والعاشر، فقد قام أحد الباحثين العســيريين بترجمتهما ترجمة أولية إلى اللغة العربية، لكنه لم ينشرهما حتى الآن، وجل مادة هذين الفصلين عن تاريخ وشخصيات عديدة في عسير وجازان . وهذه المسودة المترجمة هي التي رجعنا إليها في هذه الدراسة[2] .

وإذا كنا قد أشــرنا إلى هذين الأســتاذين الإنجليزيين في أكثر من دراســة من بحوثنا وكتبنا المنشــورة [3] . فلا مانع من الإشــارة إلى أهم ما ورد في كتابيهما عن مرتفعات عسير[4] . وسوف نذكر ذلك في النقاط التالية :

١. نجــد هذيــن الرحالين قد تشــابها كثيراً في مدوناتهما عن جبال عســير، وفي اعتقادنــا أن كورنواليس كان المصــدر الرئيس لمعلومات بدول الذي جمع مادة كتابه من التقارير والوثائق المختلفة في دور الأرشيف المتنوعة في بريطانيا [5] .

٢. نجد أنهما أوردا تفصــيلات متنوعة عن قبائل وعشــائر مرتفعات عســير الممتــدة من شــمران شــمالاً إلى ظهران الجنــوب جنوباً . كما رصــد أكثر من مئة شخصــية من شــيوخ وأعيان هذه البلاد، بالإضافة إلى ذكر بعض الحواضــر الرئيسة في المنطقة العســيرية الجبلية، مثل: النماص، وتنومة، وأبها، وخميس مشيط وغيرها[6] .

---

(١) انظر، روبن بدول . الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية . ترجمة عبد الله آدم نصــيف . " الرياض : د . ن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٧ وما بعدها .

(٢) الدكتور إسماعيل البشري من قام على ترجمة هذين الفصلين، ويوجد صورة منها ضمن مكتبتنا . مع العلم أننا قدمنا دراسة مطولة عن كل من كورنواليس، وروبن بدول في كتابنا : بلاد القفنذة خلال خمسة قرون (ق١٠-١٥هـ/ ق١٦-٢١هـ) (دراســة تاريخية حضارية) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، صــ ١٨٣-١٨٤ . وللمزيد عن دراســة أخــرى لكورنواليس انظر: ابن جريس " إقليم عســير .. " ص٤١٤ وما بعدها، وللمؤلف نفسه . بحوث في تاريخ عسير، ص١٠٩ وما بعدها .

(٣) المصادر نفسها .

(٤) لم يتعرضــا في كتابيهمــا للحديــث عــن بلاد نجــران، في حــين أن جــازان كان لها بعض التفصــيلات في دراستيهما .

(٥) انظر كورنواليس، النسخة الإنجليزية، ص١١ وما بعدها، روبن بدول، المسودة العربية، ص١ وما بعدها .

(٦) المصدران نفسهما . وللمزيد عن هذين الرحالين، انظر ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص ١٨١ وما بعدها . للمؤلف نفسه . بحوث في تاريخ عسير، ص ١٠٩ وما بعدها .

٣. لا يخلو الكتابان من معلومات قيمة عن إحصائيات لبعض القرى والعشائر في جبال عسير، بالإضافة إلى تفصيلات أخرى عن جوانب تجارية وزراعية وصناعات وحرف تقليدية عرفها العسيريون. وإذا قارنا مادة الكتابين وجدنا شروحات كورنواليس وبخاصة في الجوانب الاقتصادية وأحياناً السياسية أشمل وأعم [١].

٤. حبذا أن يظهر من الباحثين الجادين من يترجم ويدرس هذين الكتابين وبخاصة ما يتعلق ببلاد عسير (تهامة وسراة)، وذلك لندرة مادتهما، واحتوائهما على حقائق ومعلومات عن تاريخ وشخصيات عسيرية لا نجدها في أي مصدر آخر[٢].

١٠ـ الشريف البركاتي (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي (١٢٨٨-١٣٥٨هـ/١٨٧١-١٩٣٩م) عمل في حكومة الشريف حسين بن علي، وبعد زوال ملك الأشراف من الحجاز عمل في دولة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود[٣]. وقد دون رحلته المعروفة بـ: **الرحلة اليمانية**، وهي نتاج لرحلة الشريف حسين بن علي (أمير مكة). عندما خرج من الحجاز إلى أبها عبر منطقة الساحل عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، من أجل فك حصار الإدريسي على أبها [٤]. ومعظم الرحلة التي تقع في أكثر من (١٥٠) صفحة تدور حول النشاط العسكري والحصار الذي شاهده أو قام به الشريف وجيشه منذ خرج من مكة إلى القنفذة ثم أبها، وبعد أن دحر الإدريسي عن أبها عاد الشريف مع رجاله عبر بلاد شهران فبيشة حتى وصل إلى الطائف ومكة المكرمة [٥].

---

(١) المصادر نفسها.

(٢) انظر تفصيلات أكثر في الكتابين نفسهما.

(٣) للمزيد من التفصيلات عن هذا الشريف انظر: كتاب الرحلة اليمانية. تحقيق عاتق بن غيث البلادي (بيروت: دار النفائس، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٥ وما بعدها، ابن جريس. بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص ١٩٠ وما بعدها. وهذا الكتاب قد قام على تحقيقه ونشره أكثر من واحد، وقام بطباعته أكثر من دار نشر، وأول طبعة خرجت منه كان في عام (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) وقد اعتمدنا في دراستنا على طبعة دار النفائس في بيروت (تحقيق البلادي).

(٤) للمزيد من التفصيلات عن الإدريسي وحصاره لمدينة أبها انظر: محمد العقيلي. تاريخ المخلاف السليماني. (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج٢، ص٦١٩ـ ٦٢٢، ٦٦٥ـ ٧٠٦.

(٥) انظر كتاب الرحلة، ص١٢ وما بعدها.

لم يكن لمرتفعات عسير نصيب كبير في هذه الرحلة، وإنما أشار إلى بعض الأودية والنواحي في منطقة عسير مثل[١]: وادي بيشة وبعض العشائر الخثعمية الشهرانية القاطنة فيه، كما ذكر أودية أخرى بين أبها وبيشة مثل[٢]: وادي راشد، ووادي الجنفور، ووادي المسيريق، ووصف الكثير من المحاصيل والمزروعات التي شاهدها في هذه الأودية، كما أشار إلى وفرة المياه في هذه الأودية، ولم يغفل عن ذكر بعض السلع والنشاطات التجارية المتنوعة في بلدة بيشة[٣]، وأشار إلى أسماء بعض الأعيان والشيوخ في تلك الناحية[٤].

كما وصف مدينة أبها، فقال: " مدينة عظيمة واقعة في ميدان متسع مربع الشكل[٥]، تحيط بها الجبال من جهاتها الأربع كسور لها، وفي قمة كل جبل قلاع وعددها جميعها عشرون، محصنة أحسن تحصين[٦]. وأبها محتوية على أربع قرى منفصلة عن بعضها.. "[٧] وذكر مناظر، والقابل، والخشع، والقرى[٨]، " والمباني فيها جميعها من طبقتين إلى ثلاث[٩]، وجميع البناء بشكل عربي شرقي، ووادي أبها من أخصب الأودية كثير المزروعات والبساتين، مياهه تسيل على وجه الأرض، وهواء البلد عظيم، وإن كان بردها شديداً ... "[١٠].

---

(١) المصدر نفسه، ص٨٩-٩٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٤-٩٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) لقد بالغ في وصفها بـ (عظيمة)، ويبدو أنها كانت قرية كبيرة تحوي العديد من الأحياء. انظر تفصيلات عن أبها. ابن جريس. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية)، ص١٤ وما بعدها.

(٦) لقد اندثرت جميع الحصون والقلاع التي في أبها وغيرها من بلاد عسير، ويجب على الهيئة العليا للسياحة أن تبذل جهوداً كبيرة في الحفاظ على العمران القديم مهما كان نوعه.

(٧) انظر: كتاب الرحلة، ص ٨٩.

(٨) هناك قرى وأحياء أخرى لم يذكرها، وللمزيد انظر، ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ص١٥ وما بعدها.

(٩) كان هناك بعض المنازل المكونة فقط من طابق واحد، وإذا خرج الإنسان من أبها آنذاك فقد يجد منازل من العشش والصفيح والخيام وغيرها.

(١٠) البركاتي، الرحلة، ص٨٩. وللمزيد عن تاريخ أبها بشكل عام، انظر: ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ص١٥ وما بعدها.

١١ـ هاري سانت جون فلبي (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

فلبي إنجليزي الأصل، جاء إلى الجزيرة العربية عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ومكث فيها أكثر من (٤٠) سنة، حظي بالقرب من الملك عبد العزيز، وكلفه بالعديد من المهمات الداخلية والخارجية، ألف أكثر من أربعين كتاباً معظمها عن تاريخ وحضارة جزيرة العرب[١]. ويعد أفضل من كتب عن هذه الجزيرة في العصر الحديث[٢]. وكتابه **مرتفعات الجزيرة العربية**، هو الذي يهمنا في هذه الدراسة. طبع باللغة الإنجليزية عام (١٩٧٦م)، في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، ثم ترجم ونشر في مكتبة العبيكان عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، وهذه النسخة العربية تقع في مجلدين كبيرين من (١٤٤٩) صفحة، وهي النسخة التي سوف نعتمد عليها في بحثنا هذا"[٣]. وقد نشرنا بعض البحوث عن هذا الكتاب، وعن فلبي نفسه، وما بذل من جهود بحثية عن جنوبي البلاد السعودية[٤]. ونجد هذا الكتاب يقع في ستة أبواب، في ثلاثة وثلاثين فصلاً، خصص لكل باب منطقة جغرافية، ولكل فصل بلدة أو ناحية من جنوبي السعودية. ومرتفعات عسير ونجران فازت بنصيب الأسد من هذا الكتاب الموسوعي. ففي الفصلين الثاني والثالث ناقش فيهما البلاد الممتدة من بيشة إلى الطائف وأجزاء أخرى من بلاد الحجاز[٥]. أما الباب الثاني،

---

(١) للمزيد عن حياة فلبي انظر: اليزابيث مونرو. فيلبي العرب (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٣٠٧ وما بعدها، ج. د. نورتون. "فيلبي رجل الجزيرة العربية" مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. الكويت، عدد (٣). جمادى الآخرة (١٣٩٥هـ)، ص١٥١ـ ١٥٩.

(٢) المصدران نفسهما. يقول عنه حمد الجاسر " الحقيقة التي يجب أن تقال، هي: إن فلبي أسد الجزيرة العربية يد قصر عن مدها إليها من سواها " انظر مجلة العرب (١٤٠٩هـ ـ ١٤١٠هـ) مج٢٤، ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٣) هذا الكتاب قمنا على مراجعته وتدقيق معلوماته، وكتبنا تقديماً له في سبع صفحات. أما فلبي نفسه ودراساته عن جنوبي الجزيرة العربية فقد أخرجنا عنه عدة دراسات منشورة تحت العناوين التالية (١) " إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين " وفلبي أحدهم. (٢) " بلاد عسير في كتابات فيلبي وفيلب لينز " منشور في اللقاء العلمي السنوي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج (مسقط: جامعة السلطان قابوس، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٥٢٣ـ ٥٩٤. وأعيد نشر هذا البحث في كتابنا: صفحات من تاريخ عسير (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ج٢، ص٢٧٥ـ٣٤٨. (٣) جنوبي البلاد السعودية في كتاب مرتفعات الجزيرة العربية لفلبي " ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (١١ـ١٢/١٠/١٤٢٥هـ الموافق ٢٤ـ٢٥/١١/٢٠٠٤م) ونشر هذا البحث في كتاب الندوة والذي عنوانه: العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة. حصاد (١٢) (القاهرة، ١٤٢٥هـ، ص ٢٤١ـ٢٧٦. وأعيد نشر هذا البحث في كتابنا: دراسات في تاريخ إفريقيا والجزيرة العربية، منشورات نادي جازان الأدبي (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص١٤١ـ١٨٨.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) انظر: كتاب المرتفعات (طبعة العبيكان)، ج١، ص٢٩ـ١٤٨.

فيشتمل على سبعة فصول، هي (٤-١٠) من فهرس الكتاب العام، والثلاثة الأولى (٤-٦) فيها تتحدث عن الخرمة ورنية ونواحي أخرى من الحجاز، أما الأربعة الأخيرة (٧-١٠) فقد ركزت على أربع نواح في عسير هي: بيشة، وخميس مشيط، وأبها وما حولها . أطلق عليها فلبي مرتفعات عسير، ووادي تثليث[١]. ناقش فيها هذا الرحالة كثيراً من التفصيلات الجغرافية : كالتضاريس، والمناخ، وأشار إلى كثير من النباتات والحيوانات الموجودة في هذه المناطق، كما تعرض لشروحات عديدة عن الزراعة، والتجارة، مع ذكر السلع والعملات التي كانت تتداول في الأسواق الأسبوعية وبخاصة في بيشة، وخميس مشيط، وأبها، كما أشار إلى بعض الأحداث العسكرية التي حدثت في منطقة عسير خلال الحكم العثماني، وحكم آل عائض على هذه البلاد[٢]. ولم ينس الإشارة إلى الكثير من الحرف والمهن التي كان يمارسها السكان مع الإشارة إلى كثير من العادات والأعراف التي كان يقوم بها أهل هذه المنطقة، ومنها ما يتعلق بالطعام والشراب، واللباس، والزينة، والبناء والعمران، وكذلك الزواج والاحتفالات والفنون العلمية والفكرية والشعبية . كما تعرض لذكر أسماء وأوصاف بعض الأمراء والشيوخ والوجهاء في معظم جبال عسير[٣]. ولم يغفل الحديث عن بعض الآثار والنقوش والرسومات التي شاهدها في نواح عديدة بالبلاد الممتدة من بيشة إلى أبها وتثليث [٤].

الباب الثالث : بعنوان بلاد يام[٥]. ويحتوي على ستة فصول وأرقامها في فصول الكتاب من (١١-١٦)، وقد اشتملت جميعها على تاريخ وحضارة نجران في القديم والحديث، ففي الفصل الأول من هذا الباب والحادي عشر من فصول الكتاب العامة، الذي أسماه : عتبة نجران ناقش فيه وادي حبونا من الناحيتين الجغرافية والبشرية، وأشار إلى وجود بعض الآثار الدينية القديمة في هذا الوادي[٦].

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٩-٣٩٦ .
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٤٣ وما بعدها .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه . ج١، ص٣٩٧ .
(٦) المصدر نفسه . ج١، ص٣٩٩-٤١٠ .

أما الفصول الخمسة الأخرى : فقد وضع لكل منها عنواناً مستقلاً هي : كعبة نجران، أولى الخطى إلى نجران، الأخدود، الحياة في نجران، الزيارة الثانية إلى نجران(١) . وتحدث في هذه الفصول عن كثير من آثار نجران القديمة، وتعرض للتاريخ السياسي القديم لهذه البلاد، وبخاصة أثناء قيام ممالك الجنوب مثل: دولة معين، وسبأ، وحمير(٢) ، كما اهتم بذكر تفصيلات عن قبائل يام وفروعها ومشيخاتها الرئيسة، ولم يغفل الإشارة إلى بعض النواحي الاجتماعية عند النجرانيين كالأطعمة والأشربة، وكذلك بعض العادات والأعراف القبلية . وذكر أيضاً بعض المعلومات عن المكارمة الإسماعيلية في بلدة خشيوة بنجران(٣) .

وفي الفصل الأخير من هذا الباب المدون تحت عنوان : **الزيارة الثانية إلى نجران**، وذلك بعد خروجه من نجران حوالي (٨٠) يوماً ذهب فيها إلى مأرب وحضرموت وشبوة في بلاد اليمن، وأفرد هذه الرحلة في كتاب آخر سماه : بنات سبأ (٤) . ثم عاد إلى نجران مرة ثانية وتحدث عن بعض النواحي التجارية في أسواق نجران، وأورد في نهاية هذا الفصل ثلاث صفحات تحت اسم " قرى نجران " ذكر فيها عدداً من القرى والبيوت والمزارع التي كانت تابعة للفروع الرئيسة في قبيلة يام (٥) .

الباب الرابع والموسوم بـ : (الهضبة المرتفعة، ويشتمل على سبعة فصول، وتحتل الأرقام (١٧-٢٣) من فصول الكتاب الرئيسة ، وعناوينها على النحو التالي : الطريق إلى حبونا، وادي حبونا، وطن السفاحين، وتثليث الأعلى، المنابع العليا لحبونا، تخوم الهضبة، عودة إلى شراقب (٦) .

---

(١) المصدر نفسه . ج١، ص٤١١-٤١٢ .

(٢) ذكر فلبي الكثير من التفصيلات عن تاريخ نجران خلال العصور التاريخية القديمة، معتمداً في تدوين معلوماته على النقوش والآثار التي شاهدها في المنطقة، بالإضافة إلى رجوعه إلى بعض المراجع والمصادر القديمة. ولكن في اعتقادنا أنه يجب أخذ ما أورده هذا الرحالة حول هذه الجزئية بنوع من الحيطة والحذر لأن هذه المنطقة لازالت تحتاج إلى تضافر جهود الآثاريين للوقوف على التاريخ الحقيقي لها في عصور ما قبل الإسلام . انظر فلبي، مرتفعات الجزيرة العربية، ج١، ص ٤٩٠ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه . ج١، ص٥٣٣ .

(٤) انظر الكتاب في نسخته العربية (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) وفي الصفحات الأولى من هذا الكتاب بعض المعلومات عن سكان نجران، وبعض عاداتهم ونشاطاتهم الاقتصادية، انظر الكتاب نفسه، ص٣٩-٤٥ .

(٥) فلبي، مرتفعات الجزيرة، ج١، ص ٦٠٩-٦١٢ .

(٦) المصدر نفسه . ج٢، ص ٦١٩ وما بعدها .

عمل في تدوين هذه الفصول على نفس المنهج الذي سلكه في الفصول السابقة، معتمداً على المشاهدة والمقابلات مع أعيان وبعض سكان هذه المناطق، ولم يغفل الحديث عن بعض الأحداث السياسية والعسكرية التي وقعت في بلاد نجران مع بعض القوى اليمنية خلال العقد الرابع من القرن الميلادي الماضي(١).

١٢ـ فؤاد حمزة. (١٣) محمد عمر رفيع. (١٤) طلعت بك وفا (ق١٤هـ/٢٠م):

هؤلاء الرحالة الثلاثة عملوا في مجالات مختلفة في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود. فالأول: كلفه ابن سعود بالعديد من المهمات الداخلية والخارجية (٢)، ومنها رئاسة الوفد السعودي الذي التقى بالوفد اليمني في أبها عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م) من أجل المشكلة السعودية اليمنية على الحدود (٣). وعند مجيء فؤاد حمزة في تلك المهمة دون رحلته من الحجاز إلى عسير، ونشرت تلك الرحلة في كتابه: **في بلاد عسير**، وهو الكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة (٤).

أما رحالتنا الثاني، الأستاذ محمد رفيع، فهو من أهل مكة جاء ضمن بعثة تعليمية إلى عسير عام (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، وتولى أول وظيفة مدير لمدرسة رجال ألمع، ودون كتاباً سماه: **في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ)**(٥)، جمع فيه بين منهجي الرحلة، والبحث في كتب ومصادر أخرى(٦).

وطلعت بك وفا، الرحالة الثالث، كان رجل شرطة، وهو أول من تولى إدارة الشرطة في أبها خلال خمسينيات القرن الهجري الماضي(٧). وتقلد العديد

---

(١) المصدر نفسه. وللمزيد انظر: ابن جريس "جنوبي السعودية ..." ص ٢٤٢ وما بعدها، للمؤلف نفسه. دراسات في تاريخ إفريقيا والجزيرة العربية، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) فؤاد حمزة من أسرة لبنانية عمل مع الملك عبد العزيز في العديد من المهمات ومات في لبنان عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م). للمزيد انظر، خير الدين الزركلي. الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، ج ٥، ص ١٥٩.

(٣) للمزيد من التفصيلات عن مشاكل الحدود بين اليمن والسعودية، انظر العقيلي، تاريخ المخلاف، ج٢، ص ١٠٣٥ وما بعدها.

(٤) هذا الكتاب نشر في طبعته الأولى (الرياض: مكتبة النصر الحديثة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م). وقد اعتمدنا في هذا البحث على الطبعة الثانية (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، من هذا المؤلف.

(٥) طبع لأول مرة في مكتبة المعارف بالطائف (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، وهذه النسخة هي التي تم الرجوع إليها في هذه الدراسة.

(٦) للمزيد انظر، المصدر نفسه، ص٤ وما بعدها.

(٧) للمزيد عن دور طلعت وفا في إدارة الشرطة بأبها، وكذلك بعض نشاطاته العلمية والثقافية في عسير، انظر: ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ط١، ص ٤٤٧.

من المناصب في وزارة الداخلية حتى وصل إلى مرتبة المفتش العام للأمن العام في المملكة، وله العديد من الإسهامات العلمية والفكرية [١]. بل قام بالعديد من الرحلات والجولات في نواحي عديدة من جنوبي البلاد السعودية، ويذكر أن له كتاباً مخطوطاً بعنوان: **في جنوب المملكة العربية السعودية**، لم نطلع عليه حتى الآن، إلا أننا اطلعنا على جزء منه بعنوان (نجران)، وقد قامت مجلة المنهل مشكورة بنشر عدة صفحات في هذا الموضوع، وهي التي تم الاعتماد عليها في هذا المبحث [٢].

ويتضح من أقوال فؤاد حمزة أنه عزم على إنجاز مهمته السياسية الدبلوماسية التي جاء من أجلها إلى عسير، إلا أنه خطط أيضاً أن يدون مشاهداته وبعض ما قرأه عن منطقة عسير، وكان يعتزم أن لا يتوقف في مدينة أبها حاضرة عسير [٣]، وإنما كان يسعى أن يكتب عن المرتفعات الجبلية الممتدة من نجران إلى خميس مشيط، فأبها، ثم النماص، فالباحة حتى الطائف، مدركاً أن هذه الديار مجهولة على كثير من الباحثين وأرباب القلم [٤]. لكن ظروفاً جعلته لا يحقق هذه الأمنية فاكتفى بالكتابة عن أجزاء من بلاد عسير الجبلية، وصفحات قليلة عن بلاد نجران [٥].

وفي هذا الكتاب الذي يقع في (١٩٢) صفحة من القطع المتوسط نجده يرصد الكثير مما شاهده منذ خروجه من الطائف إلى أبها ثم بلاد الحجر، فالنماص وما حولها، ثم بلاد قحطان فوادعة وأخيراً نجران [٦]. ومنذ خروجه من بيشة إلى خميس مشيط ثم أبها وما حولها يذكر طبيعة هذه البلاد الجغرافية مع الإشارة إلى بعض جبالها وأوديتها، ويذكر وفرة المياه والنشاط الزراعي في بلاد شهران، وبعض نواحي من حاضرة أبها، كما عرج لذكر بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) المصادر نفسها.

(٢) انظر، مجلة المنهل مجلد (٧)، عدد (١) (المحرم ١٣٦٦هـ)، ص ٢١ - ٢٤ .

(٣) انظر أقواله: في بلاد عسير، ص ١٢ وما بعدها.

(٤) من يستقرئ الرحالة منذ فجر الإسلام حتى العصر الحديث يتأكد له أن هذه المرتفعات السروية كانت معزولة، فلم يرتدها أحد من مدوني التراث الإسلامي، وإن تم الإشارة إليها عند بعضهم، مثل: الهمداني مثلاً، فلا نجد صورة واضحة عن هذه الناحية. أما في العصر الحديث فقد أصابها الإهمال والنسيان عند معظم الرحالين المعتبرين، وإن ذكرها بعضهم فلم يوفها حقها من الدراسة والمشاهدة والتحليل.

(٥) فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص٥ وما بعدها.

(٦) المصدر نفسه.

في هـذه الناحية مثـل: العمارة وطبيعة المنـازل والقرى، ونشـاطات الناس التجارية وممارسـة بعض الحـرف والصـناعات التقليديـة . كما أشـار إلى بعض العادات والتقاليد، وأنواع من الألبسة والأطعمة والأشربة التي كانت عند هؤلاء العسيريين[١].

وذكر موجزاً مختصـراً عن بـلاد قحطان ووادعـة، ووادي تثليث، فعدد بعض قراها وأوديتها[٢]. ولم يسـهب في الحديث عن بلاد نجران، وإنما أشـار إلى بعض أوديتها الرئيسـة وموقعها، وطبيعة سكانها، ثم ذكر عن بعض قراها. وأخيراً أورد بعض اللمحات التاريخية القديمة عن الديار النجرانية[٣].

أما الأسـتاذ ابن رفيع فقد سـلك الطريق التي سـلكها فؤاد حمزة حتى وصـل إلى أبها، ثم ذهب إلى موقع عمله الجديد مديراً لمدرسـة رجال ألمع[٤]، ولكنه جاب أجزاء عديدة من منطقة عسـير تهامة والسراة، مثل: تنومة، والنماص، ومحائل. بل ذهب في بعض المهمات التعليمية إلى بعض القرى والمدن الجازانية [٥].

وعند وصـوله إلى بيشـة ذكـر بعض قراهـا الرئيسـة، وعدداً من المؤسسـات الإدارية التي كانت فيها، مثل: الإمارة، والمحكمة، ومأمور المالية، والمدرسة، والبريد واللاسلكي وغيرها[٦]. وأشار إلى مزارعها المتنوعة وبخاصة التمور، كما ذكر بعض البلدان الواقعة بين بيشة وأبها مثل: خيبر، وتندحة، وخميس مشيط، وأسهب بعض الشـيء عن بلدة خميس مشـيط وذكر بعض وجهائها مثل : عبـد الوهاب أبو ملحة

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٤-١٣٧ .

(٢) المصـدر نفسه، ص ١٣٨-١٥٠ . والدارس عن تاريخ بلاد قحطان ووداعة وبلاد تثليث يجدها فقيرة جداً في كل ما كتب عنها، مع أن السـائح في أرجاء هذه البلاد يتضـح له عراقة تاريخها البشري والجغرافي. وربما لصعوبة أرضها وشدة بأس أهلها جعلت كثيراً من الباحثين يعزفون عن دراستها . ونأمل من المتخصصين وطالبات وطلاب الدارسـات العليا في أقسـام التاريخ بجامعاتنا المحلية أن يولوا مثل هذه الأوطان وغيرها من النواحي المنسية بحثياً كثيراً من التركيز والاهتمام بالبحث والتأليف .

(٣) فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص١٦٥ وما بعدها .

(٤) للمزيـد عـن هذا الرائد التعليمي في بلاد عسـير، انظر بعض التفصـيلات عنه في كتابنـا : تاريخ التعليم في منطقـة عسـير، ج١، صـ٥٨ - ٥٩ . ٢٥٤-٢٥٦ . ونقـول إن رواد منطقة عسـير في العصـر الحديث منذ الأربعينيات إلى ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) جديرون بالبحث والتأليف عن حياتهم وتراجمهم، ونتطلع إلى أن يظهـر مـن أبنائنـا وإخواننا الباحثين الجادين مـن يولي هذا الجيل وهذا الموضـوع اهتماماً كبيراً فتخرج لنا دراسة علمية جادة عن ذلك الرعيل الجاد العصامي .

(٥) محمد رفيع، في بلاد عسير، ص١٠ وما بعدها .

(٦) المصدر نفسه، ص١٦ - ١٩ .

الذي استقبله وضيفه[١]. وعند وصوله إلى مدينة أبها فصل الحديث عن منازلها، وأحيائها، وشكل العمارة فيها، وسكانها وطبقاتهم، وتضاريسها، وطقسها، والطرق الرئيسة التي تخرج منها، كما أشار إلى العديد من الألبسة، والألعاب، وبعض المفردات واللهجة، وكذلك دور المرأة في المجتمع العسيري[٢].

وعند زيارته لتنومة والنماص، أشار إلى ضآلة منازلهم، وشيء من لهجاتهم وألبستهم وأطعمتهم وأشربتهم[٣].

أما طلعت وفا فذكر بعض لمحات عن نجران كشجر النخيل الموجودة بكثرة هناك، لكن ثمره غير صالح لعدم الاعتناء به من قبل السكان[٤]، ونوه إلى نوع المنازل وعمارتها، وإلى بعض أنواع الأطعمة المعروفة عند النجرانيين مثل: القعنون : وهو عبارة عن عصيدة ممزوجة بالسمن[٥]. وشاهد كثرة الخدم والعبيد الذين يعملون في زراعة أنواع عديدة من الفواكه والخضروات والمحاصيل الزراعية الأخرى[٦]. كما أشار إلى بداية أوضاع الناس في التطور الحضاري وبخاصة بعد دخول الأرض النجرانية تحت ولاية الدولة السعودية الحديثة[٧].

١٥ـ فيليب ليبنز : (ق١٤هـ/٢٠م) :

هذا الرحالة أحد الضباط البلجيكيين الذين كانت لهم مغامرات في الصحراوات الغربية. وهو واحد من أهم الشخصيات التي تكون منها فريق الاستكشاف الذي قاده فلبي للقيام برحلة علمية استكشافية ارتاد فيها وسط وجنوب غرب الجزيرة العربية عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م) . وقد أفردنا دراسة مستقلة لكل من فلبي وفيليب لينز عندما جاءا إلى بلاد عسير وما جاورها [٨].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩ ـ ٢٣ .

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤ ـ ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٤) طلعت وفا " نجران "، مجلة المنهل، مج ٧ ـ عدد (١) المحرم (١٣٦٦هـ)، ص٢١ وما بعدها .

(٥) للمزيد عن صور من الحياة الاجتماعية في نجران انظر: القول الثاني والرابع في القسم الرابع من هذا الكتاب .

(٦) طلعت وفا، المصدر نفسه، ص٢٣ .

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٤ .

(٨) انظر هذه الدراسة في مداولات اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجي، والموسومة بـ " بلاد عسير في كتابات فيلبي وفيلب ليبنز " (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٥٢٣ وما بعدها . وهي منشورة أيضاً في كتابنا: صفحات من تاريخ عسير، ج٢، ص٢٧٥ وما بعدها .

ومن خلال رحلة ليبنز في جنوب الجزيرة العربية ووسطها، ألف في ذلك كتاباً سماه: **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**، ونشره باللغة الفرنسية، ثم تولت دارة الملك عبد العزيز ترجمته ونشره بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)[١]. وهذه النسخة العربية، هي التي اعتمدنا عليها في عملنا هذا، وتقع في (٢٧٥) صفحة من القطع المتوسط. شرح فيها صاحب الكتاب بداية الرحلة من جدة إلى بيشة وأبها ونجران وأخيراً الرياض[٢]. وفي التفصيلات التي أوردها عن مرتفعات عسير من بيشة إلى أبها وخميس مشيط وأبها ثم تثليث وأخيراً نجران، نجده يشير إلى العديد من الجوانب التاريخية الحضارية في هذه الأوطان، ومن تلك الموضوعات ما يلي:

١. وجود الحيوانات البرية والأليفة والطيور والحشرات والزواحف في جبال ووهاد وأودية عسير ونجران، وذكر أسماء العديد من تلك الحيوانات والطيور التي شاهدها ما بين بيشة وأبها وتثليث ونجران. كما أشار إلى كثرة النقوش ورسوم الطيور والحيوانات على صخور وجبال تلك النواحي، وهذا مما يؤكد قدم تلك الكائنات الحية في هذه البلدان[٣].

٢. لم يغفل الإشارة إلى العديد من الحرف الاقتصادية في حواضر وأرياف عسير ونجران مثل: الرعي والتجارة[٤]. مع الإشارة إلى العديد من المحاصيل الزراعية التي شاهدها أثناء اجتيازه هذه الديار. وذكر وفرة سقوط الأمطار وبخاصة في بلاد عسير، كما لفت نظره انتشار الآبار في جميع نواحي نجران وعسير[٥].

٣. تعرض للحديث عن جوانب اجتماعية عديدة، مثل: طبقات المجتمع في بعض نواحي الديار العسيرية والنجرانية، ومنازلهم التي تتفاوت في أحجامها وأشكالها ومواد بنائها، وأشار إلى وجود أغنياء ووجهاء يمتلكون

---

(١) انظر تفصيلات عن المترجم والمراجع والناشر في الصفحات الأولى من الكتاب نفسه.

(٢) فيليب ليبنز، رحلة استكشافية ..، ص١٥ وما بعدها.

(٣) فيليب لينز، الرحلة، ص٥٤، ٥٥، ٦١، ٦٢، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٩٤، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨، ١١٠، ١١٨.

(٤) أشار إلى نشاط الأسواق التجارية الأسبوعية وما يصدر إليها من السلع المتنوعة. للمزيد انظر: ليبنز، الرحلة، ص ١٤٤-١٤٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٥٦، ٨٢، ٨٤، ٩٠، ١٢٥-١٢٦، ١٣٠. وللمزيد عن أسماء الكثير من الآبار التي شاهدها هذا الرحالة في عسير، انظر: المصدر نفسه، ص٩٨-١١٦.

منازل وحصوناً واسعة وكبيرة، بخلاف الفقراء والمعوزين الذين يعيشون في بيوت ومساكن متواضعة . كما نوه إلى بعض المدن والحواضر والقرى الكبيرة، مثل : بيشة، وأبها، ونجران وما يوجد فيها من صور عمرانية وبعض المؤسسات الإدارية [١] . وذكر دور المرأة في نجران وعسير، وما تقوم به من إسهامات في بناء أسرتها ومجتمعها وعلاقاتها مع بني جنسها ومع الرجال من أجل الحياة وكسب لقمة العيش . وأشار أيضاً إلى بعض النواحي الاجتماعية المتعلقة ببعض الأطعمة والأشربة، واللباس وأدوات الزينة، وعادات وأعراف وتقاليد أخرى[٢] .

٤. ذكر أيضاً النزاعات القبلية في مدن وقرى عسير ونجران، وكيفية معالجة دولة ابن سعود لهذه النزاعات وبسط الأمن وإقرار النظام والقانون . وأشار إلى أن أغلب أسباب تلك النزاعات انحصرت في الثأر والسرقة والصراع على آبار المياه، لكن تزايد هيبة المسؤولين، وقوة النظام المركزي ـ وبخاصة مع تطبيق الشريعة الإسلامية بكل جوانبها ـ أثر في انخفاض معدل الجريمة وتواريها[٣] .

٥. وفي مجمل شروحاته أشار إلى العديد من الأعيان والمسؤولين والوجهاء في بيشة، وأبها، وخميس مشيط، وتثليث، ونجران . وذكر بعض التفصيلات عن أوصافهم وكرمهم وحسن استقبالهم له ولفريق البعثة الذين كانوا معه بقيادة فلبي . ومن أهم الشخصيات التي ذكرها أميرا نجران وعسير تركي بن ماضي وتركي السديري، وسعيد بن مشيط، وعبد الوهاب أبو ملحة [٤]، وابن هذيل أمير الكهيف بوادي تثليث[٥] .

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٨، ٦٢ ـ ٦٨، ٧٩ ـ ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨، ٦٢، ٨٠، ٨٧، ١٢٦ . ويشير أيضاً إلى بعض الرياضات عند أهل البلاد ويذكر رياضة صيد الصقور والغزلان والحبارى . المصدر نفسه، ص٦٨، ٩٣ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٣، ٦٣، ٦٧ . وأجرى مقارنات بين ما سمع عنه من فوضى واضطراب في سالف الأيام وما شاهده بنفسه في نواح عديدة من بلاد نجران وعسير. المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٣، ٧٥، ١٢٨ .

(٥) ويذكر ليبنز أن هذا الأمير استضاف فريق البعثة على مائدة جيدة وكان معه عشرة من أعيان منطقته. ووصف قصره بأنه مبني من الطوب اللبن، في حين أن مكان الضيافة كان في مجمع صحراوي مقام من سعف النخيل مكون من ثلاث غرف . الأولى يستقبل فيها الأمير ضيوفه، والثانية مخصصة للنساء، والثالثة لإقامة الخدم . المصدر نفسه، ص ٩٢ .

٦. كان من أبرز المهام لقدوم بعثة ليبنز ورفاقه إلى نجران دراسة مدينة الأخدود وما يوجد بها من آثار، ولهذا فقد أورد تفصيلات عن زيارتهم لتلك المدينة، وما شاهدوه من نقوش وآثار مختلفة، مع أنهم لم يستطيعوا إجراء أي تنقيب أو حفريات في تلك المنطقة الأثرية، لتواضع إمكاناتهم ومحدوديتها [١].

١٦ـ ك . س . توتيشل (ق١٤هـ/٢٠م) :

توتيشل أمريكي الجنسية، جاء إلى الجزيرة العربية في أوائل النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وحاز على دعم وحماية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وكان من مهماته البحث عن المياه والمصادر الطبيعية في البلاد السعودية، وقد قام بالعديد من الرحلات في نواح عديدة من المملكة العربية السعودية، وجمع مشاهداته وانطباعاته في كتاب سماه: **المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية**، نشر باللغة الإنجليزية عام (١٩٤٧م)، وترجمه الأستاذ شكيب الأموي إلى اللغة العربية ونشر عن طريق دار إحياء الكتب العربية في القاهرة عام (١٩٥٥م) . وهذه النسخة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة[٢]. وقد تحدث هذا الرحالة عن مدينة أبها، فقال : موقع هذه المدينة جميل أخاذ ، ويقرب سكانها من (١٥٠٠٠) نسمة، وهي عاصمة مقاطعة عسير . وترتفع عن سطح البحر (٧٠٠٠) قدم ،وهي محاطة بحقول مدرجة وقرى كثيرة وجبال تعلو (٥٠٠٠ قدم)، يجللها الضباب من الغرب والشمال الغربي . وتقع فيها أمطار تبلغ (١٠ـ١٢) بوصة، مما يجعل منحدرات الجبال كأنها مغطاة ببساط من سندس واستبرق، وتزرع بعض الحقول بدون حاجة إلى إروائها، ووادي أبها ذلك الجدول الرقراق الصغير يفيض عدة مرات في السنة الواحدة متدفقاً خلال الجهة الشمالية من المدينة [٣].

---

(١) ليبنز، الرحلة، ص ١٣٢ ـ ١٣٩ . لقد قرأنا عن العديد من الرحلات الأثرية التي زارت نجران في الخمسة العقود الماضية، لكنه حتى الآن لا نجد أي دراسات علمية أكاديمية موسعة عن آثار مدينة الأخدود، ونأمل أن تبذل الهيئة العليا للسياحة جهوداً أكبر في هذا المجال حتى تصدر لنا بحوثاً علمية معمقة في هذا الجانب .

(٢) وللمزيد عن هذا الكتاب وهذا الرحالة، انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠ـ١٥هـ/ق١٦ـ٢١م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ص١٩٧ ـ ١٩٩.

(٣) للمزيد عن تاريخ وحضارة مدينة أبها، انظر: ابن جريس . أبها حاضرة عسير، ص١٤ وما بعدها .

إن حاكم عسير الأمير تركي السديري جاد مَشوق للعمل على تقدم مقاطعته، وعلى ذلك تراه راغباً كل الرغبة في أن يقوم بإنشاء طرق جديدة، وأن يتوسع في تنشيط المشروعات الزراعية . وقد دعاني لإجراء بحث فيما إذا كان ممكناً بناء سد لتخزين مياه الفيضان من وادي أبها، فقمت بذلك مع أ . ل . واثن أحد رجال البعثة الزراعية الأمريكية، في سنة (١٩٤٢م) ، واقترحنا موقعاً مناسباً لذلك السد تاركين تنفيذ ذلك وفق إرادة الحكومة [١] .

ومعظم بنايات أبها من الحجر واللَّبِن من النوع المزدوج الرفارف كعمارات عسير تماماً ، باستثناء مكاتب الحاكم الشبيهة بالقلاع، ومقره هو وثكنة المعسكر مبنية كلها من الحجر . وهنالك أسطح منبسطة حيثما اتجهت . كما توجد قنطرتان (جسران) مقوستان ذاتا بناء جيد من الحجر خلال وادي أبها [٢] . ومعظم قمم التلال والجبال المحيطة بأبها متوج بقلاع حجرية كان قد بناها الأتراك سابقاً . وفي عهد حكم ابن سعود أخليت هذه القلاع كلها ما عدا واحدة فقط . هي تلك التي تشرف على الطريق الرئيس في أعلى سهول تهامة، كما تشرف على أبها والطريق المؤدية إليها والممتدة من قرية خميس مشيط إلى الشرق[٣] .

كما أشار توتيشل إلى جوانب عديدة في نجران، فقال: " يقع وادي نجران في النهاية الجنوبية الشرقية من عسير . وتقع حدود اليمن بمحاذاة الجبال إلى الشمال من الوادي بالضبط . ومعدل ارتفاع الوادي(٤٠٠٠) قدم وطوله (٢٧) ميلاً من رأسه عند السد القديم المدعو موفجة، حتى التلال ومنها إلى السهول الواسعة الممتدة شرقاً إلى الربع الخالي . ويبلغ معدل عرض الوادي حوالي ثلاثة أميال . وهنالك عدة قرى في هذا الوادي، لكن النشاط والحياة الجدية العملية في نجران تتركز حول مركز رياسة الحاكم الشبيهة بالقلعة، على بعد أربعة أميال من ذلك الرأس . وأما الدوائر والمقر الرسمي والثكنات العسكرية وبيت الضيافة والمجلس

---

(١) لم ينفذ سد أبها إلا في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود (١٣٨٤-١٣٩٥هـ/ ١٩٦٤-١٩٧٥م)

(٢) وهذه الأبنية من آثار المتصرفية العثمانية في عسير (١٢٨٩-١٣٣٧هـ/ ١٨٧٣-١٩١٨م) .

(٣) للمزيد عن القلاع المحيطة بمدينة أبها، انظر: محفوظ الزهراني، تحصينات مدينة أبها في الفترة بين سنة (١٢٨٨-١٣٣٧هـ) (دراسة تحليلية مقارنة) (الرياض : وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ص٢٧ وما بعدها . ابن جريس، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ص٣٣ وما بعدها .

والمستودعات فتقع داخل الأسوار، وكذلك المحطة اللاسلكية، ويقع خارجها إلى الشرق مستشفى الحكومة [١].

وبنايات الحاكم مؤلفة من طابقين من الطوب المجفف بالشمس وليس من الآجر، وهو نموذج من البناء يشبه - بحسب معرفتي - ما هو عليه في عسير، وأما بيوت المزرعة في ذلك الوادي فمحاطة بحقول البرسيم المسورة، وبشجر النخيل. وتتألف من أربعة طوابق أو خمسة، وكان بناؤها بالأصل للدفاع وصد هجمات الغزو، وكذلك لاستعمالها كأحياء مريحة للنوم . والماشية تشغل الطابق الأرضي الذي يستعمل كمخزون للمحاصيل الزراعية. وتخزن الحبوب المحصودة عادة في الطابق الثاني" [٢].

ويواصل هذا الرحالة ذكر بعض الإشارات عن الآثار أو مواقع أثرية في كل من وادي تثليث ونجران، فقال : " وفي جوار الحمض في وادي تثليث على بعد (١٨٣) ميلاً من نجران ـ عسير، توجد بساتين مهجورة وآثار وبقايا منجم للذهب، مما يدل على أن هذا الوادي كان في العهود القديمة مأهولاً عامراً بالسكان . ويقال إن قبيلة شمَّر التي تسكن الآن حول حائل وإلى الشمال هاجرت من هذا الإقليم .

وتقع في وادي نجران المدينة العظيمة الخربة ذات الأخدود، وتغطي مساحة (٢٠) فداناً، والمساحة المسورة نفسها تحوي (١٢) فداناً، وحاكم نجران الحالي الأمير تركي بن ماضي يقدر قيمة الأخدود الأثرية وعظمتها، وقد كان حكيماً إذ حظر إجراء أية حفريات عفو الخاطر، خوفاً على الآثار من الانتهاب، ويرى هنالك رحا طاحون ضخمة وجرن كبير وشظايا كثير من الفخار والحفريات الحميرية القديمة، كما يوجد لوحة حجرية قياسها (٩) أقدام (٩) بوصات في (٣) أقدام و(٣) بوصات في (٢) قدم وبوصة، تدل على مهارة هندسية فائقة وهي مثبتة بقطاع كبير من الحجارة في بقايا الجدران.

---

(١) للمزيد عن الحياة الإدارية وبعض الجوانب الاجتماعية الحديثة في نجران، انظر القسمين الثالث والرابع من هذا الكتاب .

(٢) المصدر نفسه . كما أن تاريخ نجران الاجتماعي والاقتصادي والعلمي جدير بالبحث والدراسة منذ فجر الإسلام حتى عصرنا الحاضر.

١٧- ولفرد ثسيجر (ق١٤هـ/٢٠م) :

هـذا الرحالة إنجليزي الأصـل، قـام بالعديد من الرحـلات في بلدان عديدة، ومنها جزيرة العرب، وقد جاء إلى أجزاء من بلاد تهامة والسـراة، الواقعة ما بين اليمن والحجاز، فكتب من خلال المشـاهدات في جوانب متعددة . ومن حسن حظه أنه فاز بما حصـل عليه توتيشـل، وفيلبي، وفيليب لينز مـن رعاية وحماية من قبل حاكم البلاد السـعودية، الملـك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سـعود، فقد منحه إذن التنقـل في البـلاد، وقد أشـار إلى ذلك في رحلته التي نشـرت لأول مرة باللغة الإنجليزيـة عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) ، **والمجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافيـة الملكيـة في لنـدن، هـي التي تولى نشرهـا** . وقد قام الدكتـور أحمد عمر الزيلعـي بترجمة هذه الرحلـة، **ونشرها في مجلة الـدراة، العـدد (١) السنة (١٤) عام (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)** [١]. وهذه النسخة المترجمة التي اعتمدنا عليها في مبحثنا هـذا [٢]. ونجد ثسـيجر يرتاد مرتفعات عسـير من أبها إلى بـلاد قحطان ووداعة وبعض أجزاء من جبالهـا التهامية، ثم يعود أدراجه إلى سـروات تنومة والنماص ثـم بلاد غامد حتـى الطائف، ولجودة ما حفظه لنا هذا الرحالـة رأينا أن نورد ما وصـلنا من تفصيلات قيمة يصعب أن نجدها في أي مصدر آخر، وبعد أن فرغ من التجـوال في أجزاء من تهامة عسـير وأصبح في بلدة محائل متجهـاً إلى مرتفعات عسـير قال: هنـا [في محائل] غيرنا جمالنا مرة أخـرى، لأن الجمال لا يمكن أن تستكرى للسفر بعيداً عن القرى الخاصة بها . ثم سلكنا وادي تية إلى عقبة شعار، الممر الذي يصعد عن طريقه إلى جبال الحجاز . وتية واد غني مزروع بشكل كثيف مـن قبل فخـوذ قبائل بني ثوعة المسـتقرة[٣]. وقد عملت السـيول هنا على إحداث قطـع بعمـق (٤٠) قدماً نزولاً في الطين الرسـوبي إلى قاع الحصـباء في الأسـفل، ولكن ثمة سلسـلة من القنوات تسـقي جميع المستويات، حيث توجد محاصيل جيدة سـقيت بسيول حديثة. وقد جلبت الأمطار الشـديدة التي نزلت على الجبال خلال الأيام العشرة الماضية، إلى الوادي طبقة كثيفة من الطمي . وهذا الوادي لا تزيد

---

(١) انظر : مجلة الدارة، ص ٩٣-١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عقبـة شـعار مـن العقبات التـي يسـلكها التجار والمسـافرون والجيوش التي تذهـب ما بين أبهـا وتهامة عسـير، وقد لعبت هذه العقبة دوراً هاماً في الأحداث السياسـية التي عرفتها منطقة عسـير خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)

نهايته من أعلى عن (٢٠٠) ياردة في العرض. وهو حجري للغاية، ومعزول بواسطة جبال من الصخور الجرداء الشديدة الانحدار، إنه منظر رائع ويبعث على الرهبة، ومهجور إلى أبعد حد، والصخور التي حول عقبة شعار لها لمعان فضي غريب. وفي أعلى العقبة، وهي سهلة نسبياً، توجد حلقة من القلاع التركية [١]. ويوجد هنا أيضاً طريق تركي جيد يؤدي إلى أبها عبر بلاد بني مالك [٢].

وقبائل عسير مجتمعة هي: بني مغيد، وبنو مالك، وعلكم، وربيعة ورفيدة، بالإضافة إلى القبائل الصغرى المكونة من عاصم ورجال ألمع الذين يسكنون في أسفل السودة [٣]. وعلى طول الطريق الذي يمر في أودية صغيرة عبر التلال الجبلية، توجد القرى، وحقول القمح والشعير، وبساتين الفاكهة والمنازل هنا مميزة، وهي مبنية من الطين، ولها مداميك متعددة على هيئة شرفات بارزة من الحجر أو القرميد، وضعت في النصف الأعلى من الجدران، لتقيها من التعرية. وتحرس الحقول والنقاط المرتفعة بواسطة كثير من أبراج المراقبة، سواء المربعة منها أو الدائرية، وقد بنيت من الصخور الكبيرة المشذبة، وزخرفت بأربعة أشرطة خارجية من المرو الأبيض. بينما الأخرى مستديرة الشكل بصفة دائمة، ومبنية من الطين سواءً بشرفات بارزة من القرميد، أو بدون ذلك [٤].

وأبها مدينة صغيرة تقع على ارتفاع حوالي (٧٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقد بنيت حول قلعة، وبها عدد من الدكاكين، وهي مركز إداري هام، يتولى إمارتها الأمير تركي السديري، أكبر أبناء عائلة مشهورة يتولى أفرادها أيضاً حكم جيزان، والقنفذة، وجدة، والجوف، والظهران على الخليج. ويعقد سوق أبها يوم الثلاثاء، وهو فريد في ألوانه، حيث تلبس النساء فيه فساتين زاهية الألوان، ويضعن على رؤوسهن شيلات براقة. ويوجد من بين الأنواع الكثيرة من القبائل التي تهبط هذا السوق، رجال من قبائل تهامة، ونجديون في عباءات مصنوعة من وبر الجمال،

---

(١) لا زالت آثار هذه القلاع ماثلة للعيان، وكثير من المصادر والوثائق تشير إلى أهميتها في عهد المتصرفية العثمانية (١٢٨٩-١٣٣٧هـ/ ١٨٧٣-١٩١٨م).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر بعض التفصيلات عن هذه القبائل في القسم الأول من هذا الكتاب.

(٤) للمزيد عن العمارة في عسير، انظر: ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص٣٧-٥٧.

وبدو من الصحارى العظيمة إلى الشرق، ورجال من الجبال بثيابهم الفضفاضة المطرزة بأشغال الإبرة، ورؤوسهم المتوجة بعصائب من النباتات العطرية، وبينهم أيضاً زوار من اليمن، وعبيد من خدم الأمير . وتباع في هذا السوق، وفي زاوية مفصولة عن الأخرى، كل من الحبوب، والزبدة، والسمن، والحطب، والملح، والموز والجص أو البويات، والبن، والعسل، والبهارات، والأواني الفخارية، والأدوات الجديدة، والحصر، والسلال، والحبال، والملابس، والجلود، والفاكهة، والأعشاب ذات الرائحة الذكية [١]، والأعلاف، وقليل من الماشية . ويزرع في هذه الجبال البر، والشعير في الشتاء، والذرة في الصيف . وقد وصلت أبها في الثاني من شهر مايو عندما كانت كثير من الحقول خالية، في حين أن بعضاً من الذرة كانت تبذر في الحال، وأن الشعير، والبر لم يحصد كله بعد . وقد عُملت المنحدرات المزروعة في كل مكان على شكل مدرجات، وقليل من الحقول تروى بواسطة الآبار، وفاكهة الحجاز هي: المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكمثرى، والتفاح الأخضر الصغير، والعنب، والرمان، والتين، والبرشومي، واللوز[٢] .

ثم سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب التي وصلناها بعد أربعة أيام ونصف. مررنا خلالها ببلاد شهران، ثم قحطانٍ، إلى الوراء من تمنية، وهما قبيلتان كبريتان وقويتان . ومما يبعث على السرور حقاً، هو أن من يسافر عبر هذه المناطق الباردة والمنعشة حيث توجد قرى متصلة، يحصل على متعة لا نهاية لها . فهناك منازل متباينة في أشكالها، وطرق بنائها والتي أعدت للدفاع، وبنيت بأحجام كبيرة من أدوار متعددة، ولكنها جميعاً على درجة من البهجة، والجمال المتناغم . وغرف الضيوف [في هذه البلاد] هادئة، ورحبة، والجدران مزخرفة من الأسفل بأشرطة من الألوان الخضراء ،والحمراء، والسوداء، حيث قضينا أمسيات طويلة، وسعيدة بين رجال القبائل الذين يتجمعون حول محمصة البن، والذين لم تقتحمهم بعد تأثيرات الغرب النشاز[٣] .

---

(١) مدينة أبها حاضرة يرتادها الكثير من عشائر وبطون وأفخاذ بلاد عسير . للمزيد عن هذه الناحية، انظر ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ص١٤ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر شروحات المترجم لهذه الرحلة (الزيلعي) ، ص١١٨-١١٩ . وهذه البلاد القحطانية لازالت بحاجة إلى دراسات علمية موثقة، ونأمل أن نرى من طلابنا في برامج الدراسات العليا من يوليها كثيراً من البحث والعناية العلمية .

ثـم اجتزنـا عقبة قـواري التـي يبلـغ ارتفاعهـا (٩٠٠٠) قدم والتي تكتسـى منحدراتهـا بأزهـار ذهبية اللون، ووصـلنا في اليـوم التالي إلى الظهـران، بعد أن سـافرنا في نصـف اليوم الأخير عبر طبقة من الصخور النارية المهجورة التي تعلو طبقة أخرى من الصـخور الجرانيتية . وتقع الظهـران على ارتفاع (٧٥٠٠) قدم، وهي تسـترعي النظر، لضـيق، وازدحام، وكثرة أدوار منازلها التي بنيت على طول وادي عريـن، حيث ينمو فيه قليل من شـجر البن . وتشـيع في هـذه المدينة أمراض العين بصـورة غير عادية . ثم نزلنا من هنا إلى وادي قاعة عن طريق عقبة مفتاح الخشبة، وهي عقبة صعبة، وقد تأكد لنا من قبل، أنها لا تصلح لسير الجمال[١] .

كانت الجبال هنا مغطاة ببسـاط من الأزهار البرية، وأشجار العرعر المتناثرة التـي تنمو علـى طول أعـالي الجرف، حيث سـلكنا هـذا الوادي عـبر منطقة من شجيرات المناطق الحارة التي تكثر فيها طيور الغرغر أو الدجاج السوداني . وسرنا بمحاذاة سلسـلة جبال مشـيت [مشـيط] حتى وصـلنا جلة المـوت[٢] . وهي بقعة مشـؤومة يبلغ ارتفاعها (٣٥٠٠) قـدم، وتقع على نقطة التقـاء وادي دفا مع وادي ضـبعة في حوض بين جبال مرتفعة [٣] . وفيها مركز حكومي صـغير مات به من أثر الحمـى أربعة وأربعـون رجلاً من خدم الإمارة خلال سـنتين . هنا في هذه المنطقة النائيـة المقفرة، التي يصـعب الوصـول إليها، والمتفشـية فيها الحمـى، بين قبائل متوحشـة لم يتم إخضـاعهم إلا قريبـا، يعمل على تطبيق القانـون، وحفظ النظام فيها، أمير، ومجموعة من الأخويا، بفضل هيبة، واحترام ابن سعود[٤] .

ويوجـد إلى الشـرق من وادي دفا بـدو قحطان، وإلى الغرب منـه توجد قبائل الريـث، والعَزِّيـيِّن، وعلى طول الحـدود اليمنية قبائـل خولان آل تليـد وقبائل بني مالك، وبلغازي . وقد وجدت هؤلاء القبائل مضـيافة، ويختلفون في المظهر عن بدو العرضـية [٥] . فألوانهـم فاتحـة، وأنوفهم معقوفـة، ولحاهم بارزة، وهم يشـبهون

---

(١) بلاد ظهران الجنوب، وكانت تسمى أيضاً (ظهران اليمن) ، وكذلك العقبات التي تربط بينها وبين تهامة ومنطقة الإصدار هناك جديرة بالبحث والدراسة .

(٢) انظر: تعليقات المترجم لهذه الرحلة، ص١١٩ .

(٣) وادي دفا، أحد روافد وادي بيش، انظر: عبد الرحمن الشريف، جغرافية المملكة، ج٢، ص١٨٢ وما بعدها .

(٤) هذه البلاد صـعبة التضـاريس معزولة إلى حد ما، واليوم وصـلت إليها عجلة التنمية الحضـارية، وأصبح أهلها يتمتعون بالكثير من الخدمات المتنوعة .

(٥) يقصـد العرضـيتين الشـمالية والجنوبية في بلاد القنفـذة، انظر: ابـن جريس، القول المكتـوب في تاريخ الجنوب(عسير والقنفذة) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص٤١٦ وما بعدها.

بدو وسط الجزيرة العربية. إنهم يلبسون مآزر قصيرة جداً من القماش لا تكاد تستر عوراتهم عندما يجلسون القرفصاء، وشعورهم طويلة، ولكن أولئك الذين لم يختتنوا منهم بعد يحتفظون في أعلى رؤوسهم ببقعة واسعة محلوقة [١]. ويؤخر الختان عند هؤلاء حتى يبلغوا سن العشرين إلى الثلاثين سنة، وربما يكونوا قد تزوجوا، ولهم أطفال. وهم مسلحون بشكل جيد، ومعظم بنادقهم صناعة إيطالية مؤرخة سنة (١٨٨٩م). إنهم يقطنون في دائرة بسيطة، ووضيعة، ويأوون إلى مساكن من الحجر الخشن المسقوف بالحشائش وأغصان النبات، ويضعون عليها في الجو الرطب جلوداً مدبوغة لكي تبعد المطر، وتقي ما بداخلها من البلل. ولديهم قطعان كبيرة من الضأن، والماعز، وبعض البقر، ويمتلكون من الجمال أكثر مما تملكه القبائل التي إلى الشمال منهم، وينمو عندهم، في أعالي الجبال، بعض شجر البن، وقليل من البر، والذرة، والتنباك، ولكنهم بصفة عامة لا يشتغلون بالزراعة، وإنما يتاجرون بالسمن في سبيل الحصول على الحبوب والبن من أسواق تهامة، وحدود اليمن، حيث يعملون على جلب السمن على ظهور جمالهم عبر جبال شديدة الانحدار، عديمة المسالك، وبدلاً من استعمال الشداد أو الخي، فإنهم يربطون الأكياس المصنوعة من جلد الماعز على ظهور الجمال، فوق جلد آخر مطوي [٢].

ويذكر شيجر تفصيلات عن بعض الأجزاء التهامية التابعة لمنطقة جازان، مثل: وادي بيش وأجزاء من صبيا، ثم يعود مرة أخرى إلى مرتفعات عسير فيقول: عدت الآن إلى أبها عن طريق وادي عتود، وعقبة ضلع السهلة، حيث يكثر الحمام الأخضر في هذا الوادي، وتوجد فيه أيضاً طيور الحباك، وطيور الرفراف، والكروان، والشبد أو الضوع، وطائر الأبلق ذو اللون الأشهب والذيل الطويل. ويشيع في هذه الجبال وجود طائر العقاب الكاسر الجناح، وهو يهبط عبر التلال الجبلية إلى مستوى (٢٠٠٠) قدم، وتنمو هنا أنواع كثيرة من الزهور سواءً على الصخور البركانية التي تكون الوجه الغربي للجبل، أو على القمة الجرانيتية [٣].

---

(١) انظر: تعليق المترجم ص١١٩-١٢٠.

(٢) لقد شاهدنا في العقود الأربعة الماضية الكثير من هذه العادات والأنماط في تهامة عسير وقحطان، ولازال البعض منهم إلى اليوم متمسكين بعاداتهم القديمة. حبذا أن نرى من يدرس هذه العادات وتاريخهم دراسة علمية جادة.

(٣) في الحقيقة أن بعض المستشرقين أمثال هذا الرحالة أسدوا لنا فضلاً كبيراً، بل سخرهم الله عز وجل أن يأتوا إلى بلادنا فيكتبوا عن تاريخها وحضارتها، وما نقرأه في هذه الصفحات ليس إلا نزرٌ يسير مما خلفوا لنا في مجالات عديدة.

ونظـراً لأن الطريـق الجبلي إلى الطائـف غير عملي لاسـتخدام الجمال ولأن الاسـتئجار ينتج عنه تأخير متواصـل، فقد اشـتريت من أبها ثلاثـة من الحمير. وكان طريقنا هذا يمتد عبر النماص والظفير على طول امتداد قمم سلسـلة جبال السـروات. حيـث توجـد عقبات كبـيرة متعددة، وأضـلاع لا نهاية لهـا من التلال المتباعدة الشـديدة الانحدار. وعموماً، فمن المسـتحيل عليّ، تبعاً لذلك، أن أركب، لذا مشـينا ثلاثـة أرباع الطريق إلى الطائف، حيث وجدت صـعوبة في المشـي على قدميّ لأن حذائي تقطعت، ولم يكن في وسعي الحصول على أخرى [١].

تحتوي الجبال التي خلف عقبة شـعار على صخور جرداء، ولكن توجد بالقرب من بيحان غابة كثيفة من شجر العرعر. وبعد أن تنقلت أسفل المنحدرات الجبلية، ثم على امتداد ذرى الجبال حتى الظهران، اعتقدت أن شجر العرعر الذي شاهدته حول السـودة قبل سـنة، كان اسـتثناء في جبال جرداء خالية من الأشجار، ما عدا شجر الطلح المتناثر هنا وهناك. وكان عليّ الآن أن أجد ذلك إلى الشمال من أبها. إن قمة سلسلة جبال الحجاز جيدة التشجير بصورة عامة، وهي في بعض الأماكن، كثيفة حقاً، ومكتظة بأشجار العرعر، والزيتون البري، والسماق، والسنط، والطلح. ويـتراوح ارتفاع هـذه الجبال بين (٦٥٠٠ - ٩٠٠٠) قدم فوق سـطح البحر، بحيث يكون أقصى ارتفاعها حول السودة، وهضبة بيحان [٢].

وعموم الصـخور هنا من أصل بركاني، ولكن القليل من القمم المشهورة مكونة مـن الحجـر الجرانيت، مثـل جبل منعاء في تنومة، وجبل قشـنة، جنـوب الظفير، وجبل إبراهيم في بلاد بني مالك، وجبل إبراهيم هذا يشـاهد من مسـافة كبيرة، وهو عجيب الشكل ناعم الوجه، وذو نواة جرانيتية، ترتفع من هضبة بازلتية [٣].

---

(١) كانت الطريق ما بين أبها والطائف صعبة ووعرة، وهذا ما نسمعه من الآباء والأجداد الذين كانوا يسلكون تلك النواحي. والدليل أيضاً على صعوبتها أن جل الرحالة والمؤرخين وكتاب التراث كانوا لا يرتادونها وإنما يذهبون في ذهابهم وإيابهم ما بين اليمن والحجاز عن طريق الساحل أو الطريق الشرقية عبر بيشة ورنية وتربة.

(٢) بلاد السـراة ما بين أبها والنماص والباحة فقيرة فيما كتب عنها من بحوث ودراسـات ونأمل من الباحثين وطلاب الدراسات العليا في جامعة الملك خالد أن يولوا هذه المنطقة كبير اهتمام في بحوثهم ودراساتهم.

(٣) كوني ابن هذه السراة، شاهدتها وعشت فيها خلال العقود الخمسة الماضية، كما قدمت عنها وغيرها بعض الدراسـات، لازلت أقول إنها تسـتحق فعلاً جهوداً متضـافرة كي يخرج عنها بحوث علمية عميقة وموثقة، وهذا ما نأمله في أبناء وبنات هذه الديار وبخاصـة من نال درجات علمية عالية في مجال العلوم التاريخية والنظرية الأخرى.

ويلاحظ أنه من حدود اليمن إلى وادي جدرة، جنوب الطائف تجري المياه بالقرب من سفوح الجبال، أحياناً في حدود (١٠٠) ياردة من الطرف، وقلما ترتد عنها إلى أكثر من ميل . ويلف تهامة سديم دائم، وهو كثيف جداً في بعض الأحيان حتى أن الجرف الشديد الانحدار الواقع على ارتفاع (٣٠٠٠) قدم يقع كلية تحت غشاوة تجعل رؤيته مفقودة .

وتتدنى الرؤية خلال أشهر الصيف إلى أميال قليلة على السهل الساحلي، بسبب سحاب بحري عال، وتكون هذه الرؤية مستقرة في أوقات الصباح الأولى، ولكنها تنخفض خلال النهار بفعل رياح غربية قوية للغاية، تهب في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً وتتلاشى عند الغروب [(١)] . وتقتصر الحياة النباتية على السفوح الشرقية، لأن المنحدرات الغربية الشاهقة صخرية، وتفتقر إلى التربة الصالحة، والعوامل المساعدة على الإنبات . والأعشاب غير شائعة هنا، ما عدا الورود البرية، والعوسج، وزهر العسل، وزهور الربيع المتعددة الألوان، وزهور القرنفل، والكحلاء، والكزبرة، والسرخس مع الحماض، والقراص [القطبة أو الزغب]، والبرسيم، وجميعها تنمو على امتداد الممرات، وبوفرة تشبه وفرتها في الصيف الإنجليزي، في حين تعطر نباتات الخزامى والشذاب بعبقها الهواء الدافئ . ويوجد قليل من شجر الصفصاف على امتداد الأودية، وكلما أمكن فإن جانبي الجبال والأودية مزودة بمدرجات تنمو عليها محاصيل البر، والشعير، والسيال والذرة [(٢)] .

وتعتمد هذه الزراعة على الأمطار، ما عدا قليل من الحقول، غالباً حقول البرسيم، التي تسقى عن طريق الآبار، حيث يرفع منها الماء، بواسطة الحيوانات، في غروب جلدية تنزل إلى البئر على بكرة يحملها قائمان [سانية] [(٣)] . وهي الطريقة الوحيدة المتبعة في رفع الماء من الآبار بغرض الري، سواءً في الحجاز، أو في تهامة، وتنمو أشجار الكروم بشكل مألوف على عروش فوق هذه الآبار . ويزرع البطاطس، والطماطم، والكوسة في المنطقة المحيطة بالنماص[(٤)] . وتسقط الأمطار

---

(١) انظر تعليقات المترجم، ص١٢٠ .

(٢) دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلدان السروية جديرة بالاهتمام والبحث من قبل أصحاب التخصصات التاريخية والحضارية الاجتماعية .

(٣) انظر تعليقات المترجم، ص١٢٠ .

(٤) بلاد النماص وتنومة في بلاد بني شهر من الحواضر الرئيسة في بلاد السراة الممتدة من الطائف إلى أبها، وجديرة بالبحث والدراسة . انظر، ابن جريس . بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣-١٤هـ/ ١٩-٢٠م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص٢٤ وما بعدها (الطبعة الثانية) .

في أي شهر، ولكنها أكثر اعتياداً بين نوفمبر ويناير، أو في أغسطس وسبتمبر . وقد كان ثمة مطر حديث إلى الجنوب من النماص، عندما مررت بها، ولكن إلى الشمال لم تكن هنالك إلا زخات خفيفة فقط منذ شهر نوفمبر .

وقبائل شمال عسير هم : بللحمر، وبللسمر، وبنو عمرو، وبنو شهر الذين يسكنون حول النماص، وهذه القبائل الأربع تعرف جميعاً باسم رجال الحجر[١] . وهم يسكنون في منازل متعددة الأدوار، مبنية من كتل كبيرة من الحجر المشذب، ومكسوة أحياناً بغطاء من الجص الأبيض، ومزخرفة، حسب العرف السائد في بلاد الحجاز، بنماذج من المرو مثبتة حول النوافذ الضيقة . وتسكن القبائل الواقعة خلف النماص في بيوت بنيت بضخامة، وتتكون من طابق واحد، ولها في الغالب فتحات ذات أحجام كبيرة، وسقوفها تستند إلى صف من دعائم عملت من خشب العرعر، والطلح المزخرف بنماذج محفورة، والمطلي بالقار الأسود، وفي بعض الأحيان، يسكنون في غرف أصغر، بنيت في العراء فوق سطوح مكشوفة . أما بالنسبة لحشرات البق، والبراغيث فهي شائعة في البيوت في هذه الجبال [٢] .

وصلنا النماص في يوم الاحتفال بالختان، وهذه القبائل تقتصر فقط في احتفالاتها بهذه المناسبة على اليوم الذي يسبق هذه العملية والتي تتم لصبية من سن العاشرة إلى الثانية عشرة سنة . إنهم يحتفون بجميع القادمين على عكس الاحتفال في وادي حلي[٣]، فقد ظهر هنا نحو (١٥٠) فرداً من رجال القبائل مسلحين ببنادق المسكيت التي لا تطلق بواسطة زناد، وإنما بواسطة فتيل بطيء الاشتعال، ثم انقسموا إلى أربع فرق، واندفعوا مسرعين وفي تتابع مستمر إلى جرين خال، حيث أخذوا يرمون بنادقهم عالياً في الهواء، ثم أطلقوا وابلاً من النار المحتدمة، وتراجعوا ليعيدوا تعبئة بنادقهم مرة أخرى، بينما اندفع أفراد الفريق التالي بخفة، وهم يلبسون أفخر ثيابهم، ويتمنطقون بحلية من قنائن البارود الفضية، ويتزينون بأكسية أخرى مزركشة، فكانوا في منظر بطولي عبر دوامة من

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) تاريخ العمارة والحياة الاجتماعية في بلاد الحجر وما جاورها جدير بالاهتمام والدراسة .

(٣) للمترجم تعليقات حول هذه الجزئية، انظر، ص١٢٠-١٢١ .

سحب الدخان، وجماهير كثيفة من المتفرجين الذين يغطون الأسقف والسطوح المجاورة، وهم يصمون الآذان بضجيج لا نهاية له [١].

١٨ـ يحيى إبراهيم الألمعي :

كما أشرنا من قبل عن الأستاذ يحيى الألمعي[٢]، بأنه أحد أبناء منطقة عسير المثقفين، بل نعده رائداً في العصر الحديث والمعاصر في باب الرحلة والتجوال في بلاد عسير وجزء من منطقة نجران. ومن يطالع كتابه الموسوم بـ **رحلات في عسير (نصوص، وانطباعات، ووصف، ومشاهدات)** [٣]، يجد أن المؤلف جمع بين مشاهداته، ومشاهدات الآخرين، وأخرج هذا الكتاب في حوالي (٢٠٠) صفحة، منها (١٤٠) صفحة تدور حول موضوعات عديدة عن منطقة عسير، معظمها من تدوين الألمعي، مثل : **عسير بلد الجمال وموطن السحر الحلال، ورحلة في رياض القرعاء، ورجال ألمع، وأيام في بلاد الحجر، ورحلة الصيف في الصحراء** [٤]. **وكنت في ظهران، وماذا تعرف عن ظهران الجنوب ؟، وبلاد بلقرن، وبلاد شهران، ومحائل** [٥].

وهناك مقالات ومشاهدات لكتّاب آخرين، قام الاستاذ الألمعي بجمعها مع مدوناته في هذه الدراسة، وجميعها تصب في الهدف الرئيس الذي قام عليه كتابنا هذا، ومن هذه المدونات والمشاهدات ما يلي : **مدينة أبها، لحمد الجاسر، وبحوث تاريخية عن عسير**، لتركي الماضي، والمصايف في عسير، لعلي علوان، **ومقاطعة أبها ومصايفها، لسعيد الغماز، وبحوث تاريخية، لعبد الرحمن الحاقان** وغيرهم [٦].

وفي حوالي (٢٤) صفحة أخرى في نهاية الكتاب تتعلق بمنطقة نجران . الأولى:

---

(١) الفنون الشعبية في بلاد الحجر وبخاصة عند قبائل بني شهر تمتاز بالدقة والألعاب الجميلة، وهذه الفنون جديرة بالبحث والدراسة . ويواصل هذا الرحالة حديثه عن بلاد غامد وزهران حتى وصل إلى الحجاز، وهذه النواحي خارج اهتمامنا في هذا المبحث .

(٢) للمزيد انظر : ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة)، ج٢، ص٢١٧-٢١٨ .

(٣) لا يظهر على هذا الكتاب معلومات النشر، ولكن مؤلفه ذكر في الصفحات الأخيرة عبارة (جدة، ١٣٩٢/١٠/٢٣هـ). وربما كانت هذه السنة هي سنة النشر . انظر الكتاب نفسه، ص١٨٤ .

(٤) وقصد ببلاد (الصحراء) أي بلاد تثليث والأمواه وما حولها، انظر : المصدر نفسه، ص١١٦-١٣٢ .

(٥) للمزيد انظر المصدر نفسه، ص ١١ وما بعدها .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٦ وما بعدها .

لصاحب الكتاب بعنوان :التاريخ والآثار في نجران والأخدود [١]. **والثانية**: للأستاذ أحمد مطاعن، تحت عنوان : **أيام في نجران** [٢].

والمتأمل في مادة هذا الكتاب، ومن قام بتدوينها يلحظ أموراً عديدة، نذكر أهمها :

١. إن جل المادة المنشورة قامت على المشاهدة والتنقل في أرجاء منطقتي عسير (الجبلية) ونجران، ثم إن معظم هذه الدراسات منشورة ما بين عامي (١٣٧٩ـ ١٣٨٣هـ/ ١٩٥٩ـ١٩٦٣م) [٣]. ومن ثم فهي تعكس جوانب تاريخية وحضارية هامة لتلك الحقبة التي سادها الكثير من العناء والمشقة أثناء بدايات البناء والتنمية للبلاد السعودية الحديثة[٤].

٢. من خلال قراءة كل مقالة نجد أن صاحبها حفظ لنا تفصيلات جغرافية، وأحياناً سياسية وغالباً اجتماعية واقتصادية وثقافية جديرة و يصعب أحياناً أن نعثر عليها في مصدر آخر [٥].

٣. كثير من هذه التفصيلات في هذه المدونات أسهبت في الحديث عن أبها حاضرة عسير من حيث جمال طبيعتها، وجودة مناخها، ووفرة المزروعات والخيرات فيها . وهناك مقالات أخرى مميزة ونادرة في معلوماتها مثل : أيام في بلاد الحجر[٦]، ورحلة الصيف في الصحراء [٧]، وماذا تعرف عن ظهران الجنوب ؟ [٨].، وأيام في نجران [٩].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣ ـ ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٢ ـ ١٦٧ .

(٣) نشر أغلب هذه المقالات في جريدة الرائد، أو في صفحة عسير التي كانت تنشر ضمن جريدة عكاظ، أو في جريدة الرياض وغيرها . انظر الكتاب نفسه، ص ١١ وما بعدها .

(٤) الدارس لتلك الفترة يلحظ أن الفقر والجوع وضعف الأمن والجهل كانت من الركائز الرئيسة السائدة في المجتمع، ومن ذلك الزمن بدأت الأوضاع تسير في الاتجاه الأفضل حتى وصلت اليوم (ولله الحمد) إلى فضل وخير كبيرين شمل أرجاء البلاد .

(٥) انظر كل دراسة، وسوف تجد تميز كل عمل بمعلومات قيمة، مع تفاوت كل واحدة عن الأخرى من حيث طول الصفحات، ومن حيث نوعية المواضيع التي تم مناقشتها .

(٦) يقصد بذلك بلاد بني عمرو، وبني شهر، وبللسمر، وبللحمر، المصدر نفسه، ص ٨٥ـ١١٦ .

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٦ وما بعدها .

(٨) المصدر نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٤٣ .

(٩) المصدر نفسه، ص١٦٢ ـ ١٦٥ .

٤. معظم كتّاب هذه المدونات من سكان منطقة عسير مثل: إبراهيم الألمعي ،وعلي علوان، وسعيد الغماز، وأحمد مطاعن وآخرين . وهناك مؤلفون آخرون عاشوا وعرفوا مرتفعات عسير مثل : تركي الماضي، أميراً للمنطقة، وعبد الرحمن الحاقان، رئيساً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء جميعاً سبروا أغوار البلاد العسيرية، وتنقلوا في أرجائها، واختلطوا بأهلها، ودونوا معلوماتهم عما شاهدوه وعرفوه [١].

٥. من يجري مقارنة على ما تم تدوينه عن مرتفعات عسير ونجران يجد أن الجزء الأول (عسير) نالت النصيب الأكبر من هذه التفصيلات . والسبب أن أبها تعد حاضرة عسير، بل الجنوب عامة . ثم إن معظم مدوني هذه المقالات كانوا من سكان عسير أو ممن عاشوا في أبها لسنوات طويلة [٢].

١٩. عاتق بن غيث البلادي (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

هذا الرحالة جاب العديد من المناطق في البلاد العربية السعودية، ودون العديد من كتب الرحلات [٣]. ومؤلفه الذي يخصنا في هذا الباب، هو: **بين مكة وحضرموت (رحلات ومشاهدات)، من مطبوعات دار مكة للنشر والتوزيع عام (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)** [٤]. وهذا الكتاب يقع في (٤٠٧) صفحة بجميع فهارسه ومحتوياته، وهو رحلة قام بها المؤلف في شهر شعبان عام (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) إلى كل من سروات الطائف، والباحة، وعسير، وبلاد نجران، واستغرق خلالها حوالي ثمانية أيام سجل فيها الكثير من المشاهدات والتفصيلات الجغرافية والتاريخية والحضارية [٥]. ومن خلال قراءة هذا السفر وجدنا فيه العديد من الفوائد والاستنتاجات العلمية التي نشير إليها في النقاط التالية :

---

(١) كل شخص من هؤلاء الرجال المدونين لهذه المقالات يحتاج إلى دراسة مستقلة، حبذا أن نرى من طلابنا في برامج الدراسات العليا من يولي هؤلاء الرموز وأمثالهم عناية واهتماماً في بحوثهم ودراساتهم الأكاديمية .

(٢) من يقرأ تاريخ مدينة أبها منذ الأربعينيات إلى ثمانينيات القرن الهجري الماضي، يجد أنها امتلأت برجال كثيرين، وكانوا من أهلها أو ممن وفدوا إليها، وغالبيتهم على قدر جيد من الثقافة والتعليم . وذلك الجيل جدير بالبحث والدراسة، حبذا أن يظهر لنا من الباحثين الجادين من يدون تراجم أعلام أبها أو أعلام عسير في القرن (١٤هـ/٢٠م) ومن يحقق هذا فسوف يضيف إلى المكتبة العربية عملاً علمياً جيداً .

(٣) للمزيد عن هذا الرحالة، انظر : ابن جريس . القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة)، ج٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٧ .

(٤) عاتق البلادي، الكتاب نفسه، ص ٥ وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه .

١. إن البلادي اجتاز سروات عسير من بلاد خثعم وشمران وبلقرن شمالاً إلى سراة ظهران الجنوب وما جاورها من بلاد قحطان الجبلية، ثم دخل إلى نجران فتجول في بعض نواحيها مثل: مدينة نجران وواديها، ووادي حبونا، ويدمة، كما سار إلى أرض شرورة والوديعة، وسجل معلومات جيدة عن جغرافية هذه النواحي، وتعرض إلى بعض الحواضر التي شاهدها في هذه البلاد الواسعة مثل: النماص، وتنومة، وأبها، وخميس مشيط، وأحد رفيدة، وسراة عبيدة، وظهران الجنوب، ومدينة نجران، والوديعة وشرورة. ومن خلال الشروحات التي سجلها ذكر بعض المعالم الحضارية التي رآها في تلك البلدان في بداية هذا القرن الهجري، كما ذكر العديد من أعلام البلاد الذين التقى بهم، وغالبيتهم كانوا من موظفي الدولة وبخاصة في نجران، مثل: الأمير، وبعض القضاة وغيرهم [(١)].

٢. إذا قارنا ما سجله عن كل من نجران ومرتفعات عسير، نجد أنه أسهب في التفصيلات الخاصة ببلاد نجران، ومعظم صفحات الكتاب عن تاريخ نجران القديم والوسيط والحديث، كما أورد الكثير من المعلومات عن منطقة نجران أثناء زيارته لها، ولم يسهب في تفصيلاته عن تاريخ وحضارة جبال عسير، وقد تعمد ذلك كما أشار في كتابه بأن الغرض الرئيس من هذه الرحلة هو زيارة بلاد نجران والكتابة عنها[(٢)].

٣. الكتاب به معلومات جديدة في بابها، وبخاصة ما نقله عن طريق الرواية والمشاهدات، ومع هذا فلا يخلو العمل من بعض الأخطاء في مسميات القرى والبطون والأفخاذ والعشائر، وكذلك بعض النواحي الجغرافية. ونأمل أن نرى بعض الباحثين الجادين الذين يتتبعون ما قام به هذا الرحالة ليستكملوا ما لم يذكره، ويصححوا ما وقع فيه من أخطاء غير مقصودة، ثم رصد ما جرى لهذه الديار التي زارها البلادي من تطور وتنمية خلال ثلاثة العقود الماضية [(٣)].

---

(١) المصدر نفسه. ص١٧ وما بعدها.

(٢) قضى في رحلته حوالي ثمانية أيام، اثنين منها في الطريق من الطائف إلى نجران، وبقية الأيام مكثها في نجران. انظر: المصدر نفسه، ص٧ وما بعدها.

(٣) وجدنا هذا الرحالة يذكر تواضع الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بعض النواحي التي مر عليها. مثل محدودية أو ندرة الأطعمة والأشربة، أو طرق المواصلات، أو أماكن السكن كالفنادق والاستراحات وغيرها. والذاهب اليوم في نفس الطريق التي سار فيها يجد التطور الهائل الذي تعيشه هذه الديار في شتى المجالات. ودراسة تاريخ التطور والتنمية في كل مدن وحواضر المملكة جدير بالدراسة والبحث. وهذه مهمة مراكز البحوث في الجامعات المحلية أن تولي مثل هذه المواضيع كبير اهتمام.

٤. القارئ للكتاب يدرك تنوع مادته التاريخية من حيث الرصد التاريخي القديم والإسلامي المبكر والوسيط في نجران، كما يلحظ توافر مادة علمية اجتماعية، واقتصادية وثقافية عن هذه البلدان العسيرية والنجرانية [(١)].

٢٠ـ فراج بن شافي الملحم (ق١٤هـ / ٢٠م) :

فراج بن شافي أحد المهتمين بالكتابة عن المواضع والبلدان في جنوبي الجزيرة العربية، **وله العديد من المقالات المنشورة في مجلة العرب**[(٢)]. وكثير من مدوناته تعتمد بالدرجة الأولى على الرحلة والمشاهدة وخبرته بالنواحي التي يتولى الكتابة عنها . وابن شافي قحطاني الأصل، ومن سكان وادي جاش شرق بلاد قحطان[(٣)]. وقد عددته ضمن رحالتنا في هذا القسم، واعتمدنا على دارسة له بعنوان : **رحلة في بلاد يام**[(٤)]، قام بها في بعض الأجزاء الشرقية من بلاد قحطان ونواحي من نجران، بناءً على طلب من الشيخ حمد الجاسر الذي شجعه على الذهاب إلى بلاد نجران والتثبت من بعض المواقع التي أشار إليها الهمداني في كتابيه : **الصفة**، **والجوهرتين**، وقد بدأ الأستاذ فراج رحلته من قريته (المعتلأ) في وادي جاش يوم الجمعة الموافق (١٤٠٧/٦/٢٩هـ)، وسار من موطنه إلى الأمواه، ثم تثليث فبلاد يدمة، وثار، وحبونن في المنطقة النجرانية، وعند عودته خرج من مدينة نجران إلى ظهران الجنوب، ثم سراة عبيدة حتى عاد إلى مسقط رأسه في قريته (المعتلأ) [(٥)]. وفي هذه الرحلة التي استغرقت فقط يومين (الجمعة والسبت ٢٩ـ١٤٠٧/٦/٣٠هـ) نجد صاحبها يشير إلى جوانب جغرافية وتاريخية حضارية متعددة، نذكر منها ما يلي :

---

(١) تلاحظ تفصيلات كثيرة لمشاهدات هذا الرحالة عن طبيعة القرى وبعض أنواع العمارة، وعن بعض العادات الاجتماعية مثل: الكرم واستقبال الضيوف، والصلات العائلية والاجتماعية بين الأسر وأفراد القرية الواحدة، وكذلك الأسواق الأسبوعية في كثير من المناطق التي زارها، وغير ذلك من المعلومات الحضارية القيمة. انظر: البلادي، بين مكة وحضرموت، ص٢٦ وما بعدها .

(٢) مجلة العرب : هي مجلة أسسها ورعاها صاحبها حمد الجاسر، وهي مهتمة بتاريخ حضارة وتراث العرب والمسلمين وبخاصة في الجزيرة العربية ويوجد بها آلاف الدراسات القيمة في مواضيع تاريخية وجغرافية، ولا يستغني عنها أي باحث في تاريخ وحضارة الجزيرة العربية .

(٣) وادي جاش : يتبع هذا الوادي إدارياً محافظة تثليث وهو أحد روافد وادي تثليث ومعظم سكان جاش من قبيلة المساردة .

(٤) هذه الرحلة نشرها حمد الجاسر في مجلة العرب (ج١٢/١١ سنة ٢٢ الجماديان ١٤٠٨هـ/ يناير فبراير ١٩٨٨م)، ص ٨٠٦ـ ٨١٩ .

(٥) المصدر نفسه .

١. ذكر العديد من المعالم الجغرافية مثل: الجبال، والهضاب، والأودية والطرق في كل من جاش والأمواه وتثليث ويدمة . وحبونن، كما أشار إلى بعض الأسر الرئيسة في بعض النواحي من هذه البلدان [١].

٢. ذكر العديد من القرى والهجر وموارد مياه على طول الطريق من جاش إلى نجران وظهران الجنوب . كما سجل أسماء بعض البطون والعشائر على طول الطريق وبخاصة قبيلة كعب بن الحارث بن كعب التي كانت صاحبة الهيمنة على نجران خلال قرون سابقة قبل الإسلام وبعده [٢].

٣. ذكر بعض التفصيلات عن وادي حبونن، كما أشار إلى عدد من المواضع التي ذكرها الهمداني في بلاد نجران، وذكر بعض الشروحات والتعليلات عن تلك المواقع [٣].

٤. أشار إلى بعض آثار التنمية والتطور الذي بدأ يسود على شرق قحطان ونواح عديدة من منطقة نجران وبخاصة شق الطرق وتوفير الأمن والاستقرار للسكان [٤].

٥. يظهر على مقالة رحالتنا الاختصار الشديد، حيث تقع فقط في حوالي (١٣) صفحة ،وكنا نتطلع إلى أن يزودنا ببعض التفصيلات عن البلاد التي مر عليها من حيث التطور الإداري والاقتصادي في تلك النواحي، وكذلك التعليم والجانب الثقافي والفكري، والعديد من الأعراف والعادات والتقاليد التي تعيشها تلك الأوطان . كما أنه لم يذكر أي شيء عن أسواقها الأسبوعية، ولا عن العقبات والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعانيها أهل تلك الديار . كنا نأمل الإسهاب في هذه الجوانب وغيرها

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه . ص ٨٠٩ وما بعدها . للمزيد عن تاريخ وحضارة كعب بن الحارث انظر: ابن جريس، نجران دراسة تاريخية حضارية (ق١ـ ق٤ هـ / ق٧ـ ق١٠م)، ج١، ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) فراج بن شافي الملحم، المصدر نفسه، ص ٨١٢ـ ٨١٤ .

(٤) كما أشرنا سابقاً، تاريخ التنمية والتطور الذي بدأ يسود جنوبي البلاد السعودية من العقود الأخيرة في القرن (١٤هـ/٢٠م) حتى اليوم جدير بالبحث والتقصي والدراسة . وهذه مسؤولية الباحثين وأصحاب التخصص في مجالات التاريخ والحضارة والاجتماع .

وبخاصة أن صاحب هذه المدونة من أهالي شرق قحطان المجاورين لبلاد نجران، فهو يعرف ما لا يعرفه الغريب الذي يزور تلك البلدان، وإن زارها الأجنبي فلن يكون في مشاهداته وملاحظاته مثل ابن البلاد نفسها [١].

ثالثاً: وقفة قراءة ومقارنة للرحالين وكتب السير:

١. تنوع ثقافات هؤلاء الرحالة وأصحاب السير:

إن الناظر في أخبار هؤلاء الرحالة وأصحاب السير العشرين يتضح له أنهم ظهروا في أزمان وقرون مختلفة امتدت من القرن (٣-١٤هـ/٩-٢٠م)، والمتأمل في هذه القرون العديدة يجد أنه تخللها الكثير من الأحداث التاريخية والحضارية المتنوعة في أسبابها ونتائجها[٢]. وأصحاب مدوناتنا هذه عاشوا واختلطوا بشعوبهم ومجتمعاتهم على مر تلك القرون، ومن ثم صار لكل منهم فكر وعقيدة وثقافة. ولو بدأنا مع رحالتنا الهمداني، ومن جاء بعده من أصحاب السير اليمنية، من الأئمة والأمراء الزيدية، وكذلك ابن المجاور فكلهم كانوا على مستوى عالٍ من الفكر والثقافة في شتى المعارف العربية والدينية[٣]. وبخاصة بعض الأئمة الزِّيدية، مثل: العياني وأحفاده، والإمامان أحمد بن سليمان، وعبد الله بن حمزة فكانوا على دراية كبيرة بعلوم الشريعة [٤]. وكل ما له علاقة بالمذهب الزيدي. وإن كانت سيرهم قد كتبت لهم من بعض أقاربهم أو المؤيدين لهم، إلا أن تلك السير تعكس ما كانوا عليه من فقه وثقافة عالية في علوم العربية مثل: النحو والأدب والبلاغة وغيرها، بالإضافة إلى أنهم كانوا على فقه المذهب الزيدي في رؤاهم ونظرياتهم ومعتقداتهم [٥].

أما الرحالة الذين ظهروا في العصر الحديث ابتداءً بموريس تاميزيه حتى فراج بن شافي الملحم فكلهم كانوا على مستوى ثقافي وفكري متفاوت من حيث

---

(١) أكرر القول بأن نواحي شرق قحطان وأجزاء من بلاد نجران البعيدة عن المدينة نفسها، مثل: يدمة، وثار، وحبونن، والوديعة، وشرورة، وخباش، والخرخير لازالت بحاجة كبيرة إلى دراستها تاريخياً وحضارياً عبر العصور وفي شتى الجوانب ونعول على جامعتي الملك خالد ونجران أن تولي هذا الجانب العلمي اهتماماً كبيراً.

(٢) إن الدارس لأحداث وتواريخ الأمة الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى يومنا الحاضر يلحظ الكثير والكثير من الكوارث والرزايا والسقوط والنهوض، وما مرت ولازالت تمر به هذه الأمة من وقائع وسلبيات وإيجابيات يصعب أن نحصرها في هذه السطور المعدودة. وكتب التاريخ مليئة بالأخبار والروايات والمدونات لمن أراد الاطلاع والاستزادة.

(٣) للمزيد انظر سيرهم وكتبهم المطبوعة والمنشورة والوارد ذكر بعضها في صفحات سابقة من هذا القسم.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) للمزيد انظر: كتب السير الخاصة بهؤلاء الأئمة والأمراء الزيديين حتى يتأكد لك مقدار فكرهم وثقافتهم العلمية والشرعية.

العقيدة، فبعضنهم مثل : تاميزيه، وكورنواليس، وبدول، وفلبي، وليبنز، وتوتيشيل، وشسيجر كانوا على غير دين الإسلام [١]، بل إنهم جميعاً ولدوا وتربوا وعاشوا فترات من أعمارهم في مجتمعات نصرانية . ثم إن لغة معظمهم الرئيسة كانت الإنجليزية [٢]. وقد تعلم أغلبهم اللغة العربية وأجادها [٣]. وجميعهم كانوا على قسط جيد من المعرفة والثقافة العامة، وهذا مما ساعدهم في تدوين لفيف من المعارف حول البلاد التي زاروها في عسير ونجران .

وبقية رحالتنا مثل: البركاتي، وفؤاد حمزة، وطلعت وفا، ويحيى الألمعي، والبلادي، وفراج الملحم، لديهم أيضاً نصيب لا بأس به من المعرفة والثقافة العامة، بل بعضهم ألفوا وكتبوا مؤلفات عديدة في بعض الجوانب الجغرافية والتاريخية الخاصة بالجزيرة العربية [٤]. وكان لمنطقتنا نصيب لا بأس به في مدوناتهم المطبوعة والمنشورة [٥].

٢- المصادر المستخدمة في جمع مادة رحلاتهم وسيرهم :

أغلب هذه الرحلات قامت على التنقل والترحال والمشاهدة، فالهمداني، في باب الرحلات والمشاهدة دون كتابه : **صفة جزيرة العرب**، بل معظم مؤلفاته قامت على الخبرة والتجارب، لكنه – أيضاً – لم يغفل الاطلاع على بعض المصادر والمدونات الأخرى [٦]. أما أصحاب السير من الأئمة والأمراء الزيديين فقد جمعت سيرهم من بعض مؤيديهم . وهذا الجمع قام على الرواية والمقابلات الشخصية مع من عاش وعرف أصحاب السير، وأحياناً يكون الجامع للسيرة قد عاش في عصر صاحب السيرة فيدون ما شاهده وعرفه عنه، لكنه أيضاً يلتقي بأشخاص آخرين كانوا أكثر معرفة وعلماً بصاحب السيرة فتجمع بعض الروايات والأخبار منهم [٧].

(١) ما عدا فلبي الذي يذكر أنه دخل الإسلام مؤخراً، وهذا ما لمسناه في بعض كتبه المتأخرة حيث يذكر أنه أسلم وأدى فريضة الحج وغيرها من العبادات الإسلامية المشروعة .

(٢) كانت الفرنسية هي لغة تاميزيه الرئيسة . والبلجيكية لغة ليبنز، أما الباقون فهم إنجليز ولغتهم الإنجليزية، ما عدا توتيشيل الذي كان من جنسية أمريكية .

(٣) مثل فلبي الذي كان أفضل هؤلاء الرحالة الغربيين في ثقافته ومعرفته اللغة والثقافة العربية .

(٤) ومن أكثر من كتب في هذه المجالات عاتق البلادي الذي ألف ونشر العديد من الكتب في علم الرحلات والأنساب والمعاجم الجغرافية وغيرها .

(٥) انظر كتبهم ودراساتهم الوارد ذكرها في هذا القسم، والتي تتفاوت أحجامها فيما تم جمعه وتصنيفه عن بلاد نجران ومرتفعات عسير .

(٦) انظر كتبه مثل: الجوهرتين، والإكليل، والصفة تجد أن خبرة المؤلف وتجاربه ومشاهداته كانت واضحة في ثنايا هذه الكتب .

(٧) انظر السير المطبوعة والمنشورة الخاصة بهؤلاء الأئمة والأمراء الوارد ذكرها في هذا القسم .

أمـا بقيـة الرحالة من ابن المجـاور إلى فـراج الملحم فقد قامـت رحلاتهم على السـفر والترحال[١]، وجميعهم جاءوا إلى عسـير، أو نجران، أو إلى هـاتين الناحيتين معـاً[٢]. وبعضـهم جاء إلى هـذه البـلاد المعنية في هذه الدراسـة من باب الدراسـة والاطلاع والمشاهدة مثل: البلادي، وطلعة وفا، وفراج الملحم، وإبراهيم الألمعي وغيره ممـن ذكرهم في كتابـه[٣]. وهنـاك فريق آخر جاءوا إلى هـذه النواحي لتحقيق بعض الأهـداف السياسـية أو الإدارية أو الاجتماعيـة وغيرها، مثل: فلبـي، وفيليب ليبنز، وتوتيشـل، وتاميزيـه، وفؤاد حمزة ومحمد رفيع، والشـريف البركاتي، وكورنواليس، وولفرد تسيجر، فجميعهم جاءوا إلى عسير ونجران أو أحدهما من أجل عمل رسمي، سياسـي، أو تعليمي، أو صـحي، أو غيره، ومن ثم دونوا كتبهم التي اسـتقوا معلوماتها من جولاتهم ومشاهداتهم في بلدان عديدة من الجزيرة العربية وبخاصة جنوبها[٤].

فالرحالتان تاميزيه والبركاتي جاءا إلى عسير مع جيوش عثمانية مصرية من أجل السـيطرة على البلاد العسـيرية[٥]. وكورنواليس قدم إلى عسـير تحت مظلة الاسـتخبارات البريطانية[٦]. وفلبي، وليبنز، وتوتيشـل، وتسـيجر جميعهم جاءوا إلى نجران وعسـير من أجل تحقيق بعض الأهداف المرسـومة لهم من بريطانيا أو أمريكا، لكن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لم يقف في طريقهم، وإنما اسـتقبلهم أحسـن استقبال ثم وفر لهم السـير في مناكب بلاده، ومن ثم خلفوا لنا تراثاً علمياً فكرياً من الصعب أن نجده في أي مصادر أخرى[٧].

---

(١) ما عدا بدول الذي لم يأت إلى نجران وعسير وإنما جمع مادة كتابه من السجلات والوثائق في بريطانيا.

(٢) هناك من جاء إلى عسير فقط أو إلى نجران أو إلى المنطقتين معاً. انظر: مدوناتهم في الصفحات الأولى من هذا القسم.

(٣) هناك رحالة من أهالي جنوبي البلاد السـعودية كتبوا عن بلاد عسـير ونجران وأشار إليهم إبراهيم الألمعي مثل: سعيد الغمار، وأحمد مطاعن وغيرهما، وقد أدرج الألمعي مدوناتهم في كتابه. للمزيد، انظر الكتاب نفسه.

(٤) للمزيد انظر: كتب هؤلاء الرحالين الوارد ذكرها في صفحات متقدمة من هذا القسم.

(٥) انظر كتبهم السابق ذكرها في صفحات متقدمة من هذا القسم.

(٦) انظر كتابه النسخة الإنجليزية، ونأمل أن نرى أحد الطلاب الباحثين الجادين يتولى هذا الكتاب بالدراسة والتحقيق والتعليق.

(٧) هناك الكثير من الرحالة الأجانب الذين اتصلوا بالملك عبد العزيز، ومن ثم سـخرهم في السـير في ربوع البلاد السـعودية والكتابة عنها، فأخرجوا لنا العديد من الدراسـات والكتـب القيمة التي لا نجد مثلها في بعض القضايا العلمية والفكرية المختلفة.

٣ـ : دراسة تحليلية مقارنة :

بعد استعراض هؤلاء الرحالة وكتب السير، نلمس التفاوت فيما كتب عن كل من نجران أو مرتفعات عسـير، فهناك من تحدث عن هاتين الناحيتين مثل: الهمداني، وسـيرة الأميرين الشـريفين، وابن المجاور، وفلبي، فيما سـجلوا عن كل ناحية [١]. وهناك سير رحالون قصروا مدوناتهم إلى حد ما على نجران فقط مثل سير الأئمة الزيدية : العياني، وأحمد بن سـليمان، وعبد الله بن حمزة [٢]، وطلعت وفا، وفراج الملحم [٣] . وآخرون ركزوا على عسير فقط مثل : تاميزيه، والبركاتي، وكورنواليس، وبدول، ومحمد رفيع، وشيجر [٤].

ونسـتطيع القول : إنه لا يخلو أي بحث أو كتاب من هذه المصـادر من مادة علمية قيمة تصـب في خدمة تاريخ وحضـارة بلاد نجران وعسـير، أو في أحدهما، لكن هذه المعلومـات تتفاوت في جودة الصـياغة، وعمق المعلومة، وقدمهـا وحداثتها. فالهمداني يـكاد يكون الرائد في أصـالة كثير من المعلومات التي أوردها، وفي كتب السـير اليمنية هناك أخبار سياسـية وحضـارية يصعب أن نجدها أيضـاً في أي مكان آخر . ثم تأتي المصادر الحديثة وجميعها جيدة لكن فلبي يفوق غيره في كل ما دون عن عسير ونجران من حيث العمق والرصانة وغزارة المعلومات التي وصلتنا عن طريق هذا الرحالة البارع، كذلك شيجر أورد لنا معلومات قيمة جداً عن بعض النواحي في سروات عسير [٥].

وفي الصـفحات التاليـة نحاول ذكر نماذج مقارنة عـن بعض الجوانب العلمية الواردة في هذه المدونات، وهي على النحو التالي :

أ ـ الناحية الجغرافية :

معظم الرحالين أشـاروا إلى جغرافية البلاد التي جاؤوا إليها، لكن الهمداني، وكورنواليسـ، وفلبـي، وفؤاد حمـزة، وليبنز، وشـيجر، والبلادي مـن أكثر الذين

---

(١) انظر مدوناتهم السابق ذكرها في هذا القسم .

(٢) الأئمة الزيدية كانوا على صلات سلبية وإيجابية ببلاد نجران، والحروب كانت في الغالب هي القاسم المشترك بين الطرفين . مع أن بعض هؤلاء الأئمة كان يمتد نفوذهم أحيانا إلى بلاد قحطان وشهران، ولكن لم يكن لهم تأثير قوي في هذه البلاد .

(٣) انظر مدوناتهم المذكورة في صفحات سابقة من هذا القسم .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) للمزيد انظر مدونات الرحالة وكتب السير الوارد ذكرها في صفحات سابقة من هذا القسم . وهناك كتب سـير ورحالين مثل: العياني، وأحمد بن سـليمان، وعبد الله بن حمزة، وفلبي، وشيجر تحتاج إلى دراسات أعمق وتستحق أن يخرج عنها أكثر من رسالة ماجستير .

تعرضوا لتضاريس ومناخ البلاد التي شاهدوها، وهناك من يركز على أسماء الجبال والأودية، وأحياناً النبات والحيوان والمناخ، وبعضهم يذكر جانباً دون الآخر. وربما كان الهمداني من أفضل هؤلاء الرحالة في وصف تضاريس ومناخ البلاد الممتدة من صعدة ونجران وقحطان إلى غامد وزهران، والبلادي وشيجر كان لهما جهود جيدة في هذا المجال. لكن فلبي تميز بمهارته في علم الجغرافيا والرحلات فنجده يذكر بدقة وصف تضاريس ومسميات لبعض المناطق التي مر عليها من بيشة إلى أبها فتثليث ونواح عديدة في نجران، بل كان يحدد ارتفاع المناطق التي شاهدها عن سطح البحر مستفيداً مما لديه من تقنيات حديثة في هذا المجال [1]. ويسهب هذا الرحالة في ذكر الكثير من النباتات والأشجار والطيور والحيوانات التي شاهدها في جبال عسير ونجران، كما أشار إلى سقوط الأمطار بكثرة في أبها. وخميس مشيط وأجزاء من بلاد قحطان ونجران.

ب ـ التركيبة السكانية :

كل المدونات والسير التي وردت معنا في هذا الباب أشارت إلى السكان في النواحي التي تحدثت عنها، وغالبية بلاد نجران وعسير قبائل قحطانية سكنت هذه الديار منذ عصور قديمة. والهمداني لازال هو أفضل من فصل الحديث عن القبائل والبطون الساكنة في نجران وجبال عسير، بل أورد شروحات كثيرة عن أنساب تلك القبائل. وجاء بعده أصحاب السير فأسهبوا في الحديث عن قبائل نجران، ثم جاء ابن المجاور وذكر تركيبة سروات عسير السكانية وكيف كانت القبيلة هي صاحبة الحل والعقد في أوطانها. ثم ظهر الرحالون المتأخرون في العصر الحديث: مثل فلبي وكورنواليس وتوتيشل وشيجر والبلادي والألمعي فأعطوا معلومات عن كثافة السكان في منطقة عسير وبخاصة كورنواليس وبدول وغيرهما لكن تلك الإحصاءات لازالت تحتاج إلى دراسات علمية موثقة، وربما أن بعض أولئك الرحالة كانوا يسجلون إحصائيات بعض السكان في بعض النواحي بناءً على روايات أفراد غير موثوقين، وأحياناً لا يدركون أهمية ما يدلون به من معلومات.

ج ـ الناحية السياسية :

كتب السير أغنى المصادر التي تحدثت عن الحروب والصراعات السياسية في بلاد نجران وأحياناً في النواحي الجنوبية الشرقية من بلاد قحطان مثل: وادعة،

---

(١) كان لدى فلبي العديد من الأجهزة الخاصة بقياس درجة الحرارة وعوامل مناخية أخرى. انظر العديد من مؤلفاته التي ذكرت بعض الآلات العديدة التي كان يصطحبها معه في رحلاته.

وسنحان، وشريف، وأجزاء من تثليث . والمتأمل في سير الزيدية التي اطلعنا عليها تجدها مليئة بروايات وأحداث تاريخية وسياسية كثيرة [١] . كذلك كتب تاميزيه، وكورنواليس، والبركاتي، والبلادي يتخللها الكثير من التفصيلات التاريخية التي تعكس الوضع السياسي في بلاد عسير وأحياناً في نجران. وفي هذه الكتب المتقدمة والمتأخرة ذكر بعض المعارك والحروب التي وقعت في الديار النجرانية والعسيرية، وما نتج عن تلك الحروب من خراب وهلاك للناس في أرواحهم وممتلكاتهم . وربما كورنواليس من أكثر الكتب التي فصلت الأوضاع السياسية في عسير قبل الحرب العالمية الأولى، مع الإشارة إلى دور بعض القوى الأجنبية مثل : إيطاليا وبريطانيا في البلاد العسيرية وما جاورها .

د ـ الناحية الاجتماعية :

كان الهمداني متفوقاً في تفصيلاته عن طبيعة الناس الاجتماعية في نجران وسروات عسير من قحطان إلى شمران، فذكر القبائل وتركيبتها الاجتماعية، مع الإشارة إلى بعض شيوخها، كما أشار إلى بعض الأطعمة والأشربة والألبسة وبعض العادات عند العسيريين السرويين . وبعض كتب السير ذكرت بعض الطبقات الاجتماعية وبخاصة القبائل العربية في ضبط بلادهم . ويأتي ابن المجاور فيذكر معلومات قيمة عن العلاقات الاجتماعية بين سكان القرية الواحدة، ويشير إلى طبيعة بناء المنازل . ويذكر الرحالون المتأخرون بعض الأعراف والعادات الاجتماعية عند العسيريين والنجرانيين، ولكن فلبي وثسيجر، ومحمد عمر رفيع، وفؤاد حمزة أفضل من فصل لنا الحديث في هذا المجال وبخاصة في مجالات : الطعام والشراب، والألبسة والزينة، وبعض الفنون الشعبية، وطبيعة العمارة، وعادات وأعراف وتقاليد أخرى .

هـ ـ الناحية الاقتصادية :

هذا الجانب ناله نصيب جيد عند معظم الرحالين وأصحاب السير . ففي نجران نجد أن كتب السير تسهب في الحديث عن المزارع، وما أصابها من الخراب والهلاك أثناء الحروب . كذلك الهمداني أشار إلى العديد من البضائع والسلع التي كانت معروفة عند النجرانيين وعسير السراة . وإذا نظرنا في كتب الرحالين من تاميزيه إلى فراج الملحم

(١) انظر تفصيلات أكثر في تلك السير الآنف ذكرها في صفحات سابقة من هذه الدراسة .

نجد جل هذه المدونات تشير إلى جوانب اقتصادية عديدة مثل : أسماء بعض الحرف، أو التجارة وبخاصة الطرق التجارية، والأسواق الأسبوعية وما يعرض فيها من سلع وتجارات مختلفة والأسعار، والعملات، والمكاييل وغيرها، والمحاصيل الزراعية المتنوعة والمنتشرة في نواح عديدة من عسير ونجران، أيضا ذكرت بعض المعوقات للحياة الاقتصادية، مثل : القحط والجفاف، وآفة الجراد والقرود، واللصوص وقطاع الطرق وغيرها [١].

و ـ الناحية الإدارية :

الهمداني، وكتب السير، وابن المجاور أكدوا على دور القبيلة في إدارة بلادها، بل ذكروا الدور المهم المنوط بشيوخ القبائل الذين هم أصحاب القرار في بلادهم. وكتب السير ذكرت الأئمة الزيدية الذين كانوا يسعون للسيطرة على نجران، وعندما تدخل في حوزتهم يولون من قبلهم ولاة وقضاة يتولون أمر البلاد . والظاهر على مرتفعات عسير أنها كانت تحت سيطرة شيوخها خلال القرون الإسلامية الوسيطة . وفي العصر الحديث نجد إمارات ظهرت في نجران وجبال عسير وكانت صاحبة السلطة على هذه البلاد، إلا أن شيوخ القبائل كانوا الآمرين الناهين في بلادهم . ونلحظ أن تاميزيه وكورنواليس وبدول، والبركاتي، وفلبي، وفيليب ليبنز، وفؤاد حمزة، ومحمد رفيع، والبلادي يذكرون أسماء عديد من شيوخ وأعيان القبائل التي مروا عليها من بيشة إلى أبها وخميس مشيط ونجران كما ذكر بعضهم الأمراء الذين كانوا يتولون حكم البلاد لإمارة آل عائض في القرن (١٣هـ/١٩م)، ودولة ابن سعود في القرن (١٤هـ/٢٠م).

ز ـ الناحية العلمية والدينية :

لا يخلو كتاب الهمداني من إشارات عن الحياة العلمية في سروات عسير، وفي كتب السير إشارات أيضاً إلى بعض النشاطات العلمية والدينية في نجران، ويأتي ابن المجاور فيذكر العقائد التي كانت في نجران خلال القرن (٧هـ/١٣م)، وفي العصر الحديث نجد بعض الرحالين يشير إلى بعض النشاطات العلمية في منطقة عسير وبخاصة في عصر دولة ابن سعود (ق١٤هـ/٢٠م) فذكر فلبي والبلادي والألمعي بعض المدارس التي شاهدوها في عسير ونجران . كما ذكر محمد رفيع

---

(١) الجانب الاقتصادي في مرتفعات عسير ونجران جدير بالبحث والدراسة حبذا أن نرى من طلابنا في برامج الدراسات العليا من يتصدى بالبحث والدراسة لهذا الجانب المهم .

تفصـيلات عن بداية التعليم النظامي في نواح من منطقة عسـير، بل هو نفسه كان مشـرفاً علـى التعليم في بلاد رجال ألمـع، وزار بعض المدارسـ النظامية في كل من النماصـ ومحائل وأبهـا وغيرها . كما ذكـر فلبي، وفيلب ليبنـز، والبلادي، بعض النقوش والآثار في كل من جبال عسير ونجران وأهمية دراستها واستخلاص ما ورد بها من أخبار وروايات تاريخية متنوعة .

رابعا : الخلاصة مع بعض النتائج :

وفي نهاية هذا القسم نخلص إلى بعض النتائج والتوصيات، مثل:

١. غنى مرتفعات عسـير ونجـران بالأخبار والأحـداث التاريخية المختلفة في مجالات حضارية متنوعة . ومدونات هؤلاء الرحالة وأصحاب السير ليست إلا أنموذجاً يسيراً عما عرفته وعاصرته هذه البلدان [1] .

٢. إن تنـوع هـذه المدونات، واختـلاف ثقافات وخلفيـات أصـحابها العقدية والثقافيـة والفكرية يدل علـى أهمية هذه الأوطـان الجغرافية والتاريخية والحضارية، ومن ثم فالحرص على البحث عن تراثها وثم جمعه وإخراجه للقراء من الواجبات المهمة على أبناء وبنات البلاد العسـيرية والنجرانية. بل إن المؤسسـات التعليمية والجامعات المحليـة في هذه النواحي عليها هي الأخرى مسـؤولية وواجب كبيران تجاه سـكان هذه البلـدان ليعملوا ما في وسعهم للارتقاء بكل ما يحفظ فكر وتاريخ وثقافة مواطني هذه النواحي .

٣. الدارسـ لظروف وإمكانـات معظم الرحالين ومدوني كتب السـير يجدها كانت صـعبة وقاسية ومحدودة، ومن ثم أخرجوا لنا مدونات وتراثاً قيماً، ولو لم يقوموا بهذه الأعمال العلمية لضـاع علينا الشيء الكثير، ونسأل الله أن لا يحرمهم أجر ما قدموا وحفظوا لنا . وفي عصـرنا الحاضـر توفر لنا من الإمكانات ورغد العيش ما يصـعب وصـفه في هـذه العجالة، وبالتالي فعلينا نحن معاشر الفكر والثقافة والأدب والتاريخ أن نوظف ما تعلمنا وما حصـلنا عليها من علوم ومعارف في خدمة بلادنـا وعقيدتنا ومجتمعاتنا،

(١) نأمل أن نرى بعض الباحثين الجادين يعكفون على جمع ورصـد كل المدونات والأخبار المتعلقة بديار نجران وعسـير . ومـن يعد إلى كتب التراث الإسـلامي المختلفة يجدها مليئة بمعلومـات قيمة وجديدة في معارف متنوعة عن هذه الأوطان .

وهـذا أقل واجب يجب أن نفعله . ونأخذ من هؤلاء العلماء والرحالة الذين وردوا معنا في هذا القسم وغيرهم من أعلام العلم والثقافة قدوة ومنهاجا في أعمالنا وإسهاماتنا، كل في مكانه وحسب طاقته وقدرته .

٤. عندما يأتي الحديث عن مرتفعات عسير ونجران تسمع كثيراً من الأقوال والآراء التي تنفي وجود تاريخ وحضارة لهذه الأجزاء . وهذه الأخبار لا يدعيها ويقولها إلا جاهل، لأنه يتوفر في هذه المواضع جميع مقومات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية، والذاهب في نواحيها يتأكد له قدم وعراقة التاريخ فيها [(١)]. وما أورده أصحاب السير والرحالون في هذا الفصل ليس إلا أنموذجاً بسيطاً فيما حوته هذه الديار من تاريخ وحضارة . وإذا أجريت دراسات تاريخية وأثرية عميقة وجادة على هذه البلاد نفسها وما جاورها من البلدان فإنه سوف ينكشف زيف وجهل من قال : ليس لها حضارة وتاريخ .

٥. كما يقول المثل " جحا أولى بلحم ثوره " ونحن أصحاب التخصصات العلمية النظرية، وكذلك العلمية البحتة في جامعاتنا السعودية، يجب أن نرد جزءاً من الجميل الذي أعطتنا إياه قيادتنا وبلادنا، ومن ثم يسخر كل منا جهده في مجال تخصصه عن وطنه الذي جاء منه، أو عن أي جزء من بلده الكبير الذي يعيش في ظله فيخرج لقومه وبني جلدته عصارة فكره وثقافته فيما يعود بالنفع والفائدة على أهله ومجتمعه . ونكرر القول مرة ثانية : هؤلاء رحالة أجانب جاؤوا من أقصى الدنيا لدراسة إنسان وطبيعة هذه الأوطان، وذلك يوم أن كان الناس في جهالة وأمية عارمة، أما اليوم فلا عذر لنا في تسخير علمنا وفكرنا وثقافتنا فيما يعود على أهلنا وبلادنا بفائدة وفوز في الدين والدنيا (بإذن الله تعالى) .

---

(١) من ذهب من قعر نجران إلى بيشة وشمران والباحة يجدها بلاداً مأهولة بالسكان، مليئة بأرزاق الطبيعة من حيوانات ونباتات وأشجار ناهيك عن مواردها الزراعية والحيوانية ووفرة مياهها، وكل هذه الأسباب من أهم عوامل الجذب والاستيطان . أما موقعها الجغرافي فهي بلاد تربط بين اليمن واليمامة والحجاز، وهذا مما جعلها معبراً حضارياً وتجارياً لأمم وأقوام مختلفة عبر أطوار التاريخ .

٣- جـــــازان
في
عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين*

* نُشر في كتاب :
القول المكتوب في تاريخ الجنوب
ط١ : ١٤٣٣هـ ، الرياض ، مطابع الحميضي ، ج٤ ،
ص ص ٢١ - ٨٦

جازان في عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين

أولاً : مدخل :

عندما نقول جازان، فالمقصود بذلك المنطقة الممتدة من جنوب محافظة القنفذة شمالاً إلى بلدة الموسم جنوباً ،ومن ساحل البحر الأحمر غرباً إلى مرتفعات جازان الشرقية، والمحاذية لسروات قحطان وشهران وعسير من الناحية الغربية . وهذه الديار الجازانية ذات تاريخ سياسي وحضاري عريق منذ القدم، بل ذات موقع استراتيجي مهم يربط بلدان اليمن التهامية مع سروات عسير الممتدة من أبها وبيشة شمالاً إلى ظهران الجنوب ونجران وصعدة جنوباً . كما أنها ذات كثافة استيطانية كبيرة، وذات خيرات وموارد طبيعية متعددة . أشار إليها المؤرخون والشعراء وأرباب القلم في كثير من المدونات، كما عبر أرضها الحجاج والعلماء والفقهاء والرحالون الجغرافيون وغيرهم . وعند البحث في كتب التراث المبكرة نجدها ذكرت في بعضها بشيء من الإيجاز، وأحياناً بالاختصار الشديد[١] .

والحقيقة أن الأوطان الجازانية عرفت الكثير من الأحداث التاريخية السياسية والحضارية، وتحتاج إلى تكاتف الجهود بين الباحثين الجازانيين والمؤسسات العلمية والأكاديمية حتى يتم جمع موروثها الحضاري والتاريخي، وجامعة جازان خير من يتبنى هذا المشروع، وإن فعلت ذلك فسوف تقدم للمجتمع الجازاني خدمة جليلة، وتطلع أجيال اليوم والمستقبل على تاريخ وأمجاد آبائهم وأجدادهم[٢] .

وفي هذا القسم الموسوم بـ: **جازان في عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين**، سوف نعمل على اطلاع القارئ الكريم على أهمية منطقة جازان التي ارتادها الكثير من العلماء، والرحالين شريحة صغيرة من أولئك العلماء الذين احتوت مدوناتهم على تواريخ وروايات عن تاريخ وحضارة هذه الديار الجازانية، ولا نجزم بأن دراستنا هذه شملت جميع المؤرخين الرحالين الذين اجتازوا

---

(١) انظر ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق١-ق١٠هـ)، جزءان . منطقة جازان لازالت بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية تاريخية عبر عصور التاريخ منذ العهد القديم إلى بداية العصر الحديث . ونأمل أن نرى طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا السعودية فيتولوا هذه الحقب التاريخية بالاهتمام والبحث والتنقيب .

(٢) حبذا أن تقوم جامعة جازان بتفعيل وتطوير أقسام التاريخ والآثار والاجتماع (والفلكلور) ، فتجلب لها الأساتذة الأكفاء، وتنشئ لها المكتبات الجيدة وتستقطب لها الطالبات والطلاب الجادين الأذكياء، وتشجع ميادين البحث ومراكزه، وإن قامت بذلك فسوف تجني ثماراً طيبة (بإذن الله تعالى) .

جـازان وذكروهـا في كتبهـم ومدوناتهـم، ولكننا أدرجنـا (١٧) كتابـاً أو بحثاً[١]، وجميعهـا لرحالـين، ابتـداءً بالحسـن الهمـداني في القرنـين (٣-٤هـ/٩-١٠م)، وانتهـاءً ببعض المؤرخين والرحالين الجازانيـين، وآخرهم محمد بن أحمد العقيلي (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م). والناظر في فهرس هذا القسـم يجد أربعة رحالين أشـاروا إلى جـازان مـن القـرن (٣-٨هـ/٩-١٤م). أما الفـترة الممتدة من القـرن (٩ إلى القـرن ١٣هـ/١٥-١٩م) فلم نجد خلالها أي رحالة تعرض لتاريخ هذه البلاد[٢]. وفي القرنين (١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م) نجد (١٣) كاتباً أو رحالة تعرضـوا لذكر منطقة جازان مع التفاوت والتنوع في مدوناتهم وأطروحاتهم. وهنـاك بعض الأسباب التي جعلتنا نفرد قسـماً مسـتقلاً في هذا السـفر عن بعض المؤرخـين والرحالين الذين جابوا وعرفوا هذه البلاد التهامية المهمة، ونذكرها في النقاط التالية:

١. الإشـارة إلى أن كتـب الرحلات من المصـادر الرئيسـة في دراسـة التاريخ، وهذا النوع من المدونات تحتوي على حقائق وتفصـيلات تاريخية وحضـارية قـد لا توجد في غيرهـا من المصـادر والمراجع. ولهذا نلفـت أنظار الباحثين والأكاديميـين إلى وجوب الاطلاع علـى كتب الرحالين لأهميتهـا، واحتوائها أحياناً على نسبة عالية من الدقة والمصداقية[٣].

٢. نحـن على يقين أنه لا زال هنـاك أخبار وروايات نقلهـا رحالة جابوا منطقة جـازان، والبعض مـن أولئك قد لا يكون اهتمامهم تدويـن رحلاتهم، لكنهم كانـوا حُجّاجاً أو تجاراً، أو علماء وفقهاء، أو رجال سياسـة وحروب، وذكروا بعض مشـاهداتهم عن بلاد جازان، ومن ثم دونت أقوالهم من خلال عملهم

(١) أوردنا في الفهرس العام فقط (١٣) اسماً لهم بحوث وكتب في عالم الرحلات، والمجموع الكلي فعلاً هم (١٧) كاتب أو رحالة. لأن الرقم (١٤) والموسوم بـ: بعض المؤرخين والرحالين الجازانيين (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م)، اشـتمل على أربعة مؤرخين رحالين جازانيين هم: عبد الله العمودي، ومحمد زارع عقيل، والسـيد إبراهيم سالم العمار العريشي، ومحمد أحمد العقيلي.

(٢) هناك العديد من الكتب التاريخية اليمنية وغيرها أشارت إلى تاريخ جازان خلال القرون (٩-١٣هـ/١٥-١٩م)، لكن لم أجد فعلاً كتاب رحلات ذكر هذه البلاد في تلك الفترة، ولا يعني أنه لا يوجد على الإطلاق رحالون جابـوا هـذه المنطقـة في ذلك التاريخ. ونأمـل أن يظهر في المسـتقبل من يأتي بما لم نسـتطع العثور عليه، ويستكمل ما لم نقدر على تدوينه، أو تصحيح ما وقعنا فيه من زلات أو أخطاء غير مقصودة.

(٣) كتب الرحلات لا تتصـف بالصـدق – دائمـاً – والحيادية، ولكن الكثير منها تـورد معلومات دقيقة ومهمة وربما صادقة، لأن أصحابها شهود عيان.

أو عبورهم تلك البلاد. ونأمل أن نرى في المستقبل من يتقصى هذا الجانب، وقد يخرج لنا معلومات علمية تاريخية لم نجدها فيما عرفنا من مدونات، أو يصحح ما وقعنا فيه من نقولات عن الرحالين المذكورين في هذا القسم .

٣. من يستقرئ حياة كل رحالة أوردنا اسمه وعمله العلمي في هذا القسم يجد تنوع ثقافاتهم ومشاربهم ومواطنهم، وأحياناً عقائدهم وتوجهاتهم، والأهداف التي جعلتهم يقدمون إلى بلاد جازان . ولهذا الاختلاف والتنوع فائدة عظيمة في إيراد معلومات متنوعة وثرية في أبوابها وتفاصيلها .

٤. إن عرض مثل هذا الجانب المعرفي قد يبعث الحماس عند مثقفي وشباب اليوم وخاصة في منطقة جازان فيدرسوا مادون الرحالون الأوائل، ثم يصححون ما وقعوا فيه من أخطاء، أو يسيرون على المنهج الذي ساروا عليه فيدونون انطباعاتهم ومشاهداتهم عن بلادهم . وإن فعلوا ذلك فسوف يفيدون أوطانهم، ويحفظون للأجيال القادمة ما نعيشه اليوم من نعمة وأمن ورخاء، وربما يظهر في المستقبل من يقارن عصرنا الحالي مع عصر من سبقنا، ومن ثم تستخلص الدروس والعبر من تلك المقارنات والتحليلات .

ثانياً : التعريف بالرحالة ومدوناتهم :

١ـ الحسن بن أحمد الهمداني (ق٣ـ٤هـ/٩ـ١٠م):

الهمداني أقدم وأشهر الرحالة اليمنيين [١] . ويعرف بالنسابة، أو ابن الحائك، ويسمي نفسه بـ (لسان اليمن) ، ويكنى بأبي يعقوب ،ويكني نفسه أيضاً بأبي محمد، ووطنه ومسقط رأسه بلاد همدان[٢] . وقد فصل الحديث عن ديار همدان في كتابه: الإكليل، الجزء العاشر[٣] . ولد عام (٢٨٠هـ/٨٩٣م) ، ولا نعرف شيئاً عن طفولته

---

(١) لم يبرع هذا العالم اليمني في علم الرحلات فقط، وإنما كان بارعاً في معارف عديدة وبخاصة في علوم الأنساب، والجغرافية، والنحو واللغة والشعر، والمعادن وغيرها . ومن كتبه التي وصلتنا كتاب، صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين، وكتاب الإكليل، وكتاب الدامغة. وهناك كتب أخرى عديدة لم تصلنا . للمزيد انظر: مقدمة كتاب صفة جزيرة العرب، للهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض : منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م) ، ص٥ـ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه، للمزيد انظر: ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير ونجران) (الرياض : مطابع الحميضي ١٤٣٣ـ٣٢هـ/١٠ـ٢٠١١م) ، ج٣، ص٣٢٦ .

(٣) كتاب الإكليل : أهم كتب الهمداني، ويقع في عشرة أجزاء والموجود منها أربعة أجزاء فقط .

وبداية حياته المبكرة، أما في شبابه فكان يعمل مع والده وبعض أقاربه في مهنة الجمَّالة التي تقوم على نقل المسافرين من الحجاج والتجار من اليمن إلى الحجاز . وهذا العمل مكنه من التنقل والترحال في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية وخاصة جنوبها، كما سنحت له الفرصة في الالتقاء بالعديد من العلماء وأرباب الفكر والثقافة في اليمن والحجاز وغيرها من البلاد العربية الإسلامية[١].

نبغ الهمداني وذاع صيته وصار معروفاً عند كثير من علماء القرن (٤هـ/١٠م). حتى أن بعض العلماء أثني عليه فقال: " إنه لم يولد مثله في اليمن، علماً وفهماً ولساناً وشعراً، ورواية وذكراً، وإحاطته بعلوم العرب من النحو واللغة"[٢].

والكتاب الذي يعنينا في هذا القسم هو كتاب: صفة جزيرة العرب[٣]. قامت مادة هذا السفر المهم على الرحلة والمشاهدة لبلاد وسكان الجزيرة العربية، وبخاصة الأوطان التهامية والسروية الممتدة من مدن الحجاز الكبرى إلى أقصى بلاد اليمن الجنوبية[٤].ونلحظ أن منطقة جازان الممتدة من الموسم جنوباً إلى بيش والدرب شمالاً قد نالها بعض الذكر في هذا الكتاب . وإذا قارنا ما أورده هذا الرحالة من تفصيلات عن بلدان تهامة والسراة الممتدة من جازان ونجران إلى الطائف ومكة نجده قد أسهب في الحديث عن تاريخ وحضارة المرتفعات السروية، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن جل أسفاره ورحلاته بين اليمن والحجاز كانت عبر السروات الممتدة من صنعاء وصعدة وبلاد همدان إلى سروات بلاد قحطان، وشهران، ورجال الحجر، وغامد وزهران حتى الطائف ثم مكة المكرمة[٥].

---

(١) أبو محمد الهمداني (لسان اليمن) يستحق إلى أن يفرد له دراسة أكاديمية، حبذا أن نرى إحدى الأقسام الأكاديمية التاريخية في جامعاتنا السعودية فتخصص هذا الموضوع عنواناً لأطروحة علمية لنيل درجة الدكتوراة . وهو فعلاً موضوع يستحق وجدير بالبحث والدراسة العلمية الجادة.

(٢) انظر: تقديم حمد الجاسر لكتاب الهمداني، صفة جزيرة العرب للهمداني، ص ١٨ .

(٣) انظر هذا الكتاب تحقيق محمد علي الأكوع، فهي النسخة التي اعتمدنا عليها، وهناك طبعات أخرى عديدة قام عليها محققون آخرون، ولكن تحقيق الأكوع وإشراف الشيخ حمد الجاسر على هذه النسخة جعلها الأجود والأفضل بين جميع النسخ الأخرى المحققة .

(٤) هذا الكتاب في اعتقادي جدير إلى أن يكون عنواناً لموضوع درجة الماجستير أو الدكتوراة في إحدى جامعاتنا السعودية الجنوبية . ونأمل أن نرى أحد طالباتنا أو طلابنا من يتولاه بالدراسة والتحقيق والتحليل.

(٥) هذا ما تم استقراؤه من مادة الكتاب، للمزيد انظر: غيثان بن علي بن جريس. " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب " . مجلة الدارة . العدد (٣) . السنة (١٩) (ربيع الآخر والجماديان/ ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص٧٦ ـ ١١١.

ويتحدث هذا الرحالة عن الحواضر والبلدان التهامية من عدن حتى أجزاء من منطقة جازان الشمالية . وعند مجيئه من ناحية الجنوب دخولاً إلى بلاد جازان قال : " ... ثم الساعد من أرض حكم بن سعد قرية الحكم [(١)] ..والسقيفتان [(٢)]. قرية لحكم على وادي خلب ويكون بها وبالساعد أشراف حكم بن عبد الجد، ثم الهجر قرية ضمد وجازان، وفي بلد حكم قرى كثيرة يقال لها المخارف. وصبيا، ثم بيش، وبه موالي قريش، وساحله عَثّر وهو سوق عظيم شأنها ... " [(٣)] .. ونلحظ من هذا الوصف أنه يذكر أسماء بعض نواحي منطقة جازان اليوم الممتدة من مدينة جازان إلى محافظتي صبيا وبيش، ويشير إلى أنها ذات قرى كثيرة، وهذا يدل على كثرة الاستيطان، ولا تخلو من أسواق عظيمة مثل: سوق عثر.

وفي مكان آخر يذكر تفصيلات عن بعض الديار الجازانية، أو ما عرف ببلاد حكم في عهده [(٤)]، فقال : " ... بلاد حكم ... وملوكه من حكم آل عبد الجد وفيه مدن مثل: الهجر، والخصوف، والساعد، والسقيفتين .. وببلد حكم قرى كثيرة، مثل: العداية، والركوبة، والمخارف، ... ووادي عبس، ووادي الحيد، ووادي تعشر.. ووادي خلب ... ووادي ضمد وجازان وصبيا "[(٥)]. ثم يعدد بعض المواطن وأهلها وأخيراً يقول: " ... ثم مخلاف عثر: وعثر ساحل جليل، ومدينة بيش"[(٦)].

ويعدد الهمداني أسماء الأودية التي تتجه غرباً من جبال السروات وتمر مياهها عبر منطقة جازان فذكر واديي جازان وضمد وهما ينحدران من جبال بني رازح في بلاد خولان باليمن، ثم قال عن هذين الواديين " .. ويسقيان أرض ضمد

---

(١) لا نجد ذكراً لهذه القرية اليوم . انظر الهمداني، صفة، ٧٥ . حاشية (٤) .

(٢) السقيفتان : أصبحت أطلالاً في وادي خلب . الهمداني، صفة، حاشية (٥) .

(٣) الهمداني، صفة، ص ٧٦ . وبعض البلدات التي ذكرها هذا الرحالة اختفى ذكرها وأثرها، لكن لازال هناك حواضر كبرى في منطقة جازان قديماً وحديثاً مثل: ضمد، وجازان، وصبيا، وبيش وغيرها . للمزيد عن هذه المدن انظر: عبد الرحمن الشريف، جغرافية المملكة، ج٢، ص١٦٥ ـ ٢٢٠، وللمزيد انظر: العقيلي، المعجم الجغرافي (ط٢/ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ٢٢ وما بعدها .

(٤) للمزيد عن تاريخ منطقة جازان منذ فجر الإسلام، ثم عبر العصور الإسلامية . انظر: محمد العقيلي. تاريخ المخلاف السليماني (الرياض : منشورات اليمامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، أحمد عمر الزيلعي: الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان في العصور الإسلامية الوسيطة (الرياض : مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٢٥ وما بعدها.

(٥) الهمداني، صفة، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ .

وجازان إلى البحر ... " [١]. ويذكر أودية أخرى مثل أودية : صبيا ، وبيش، ودفأ[٢]، ويواصل حديثه عن أدوية جازان وبخاصة التي تأتي مصباتها من سروات قحطان وعسير وشهران مثل أودية : بيض، وعتود، وريم، وعرمرم [٣]. وإشارته إلى هذه الأودية. كانت بشكل موجز جداً دون أن يفصل حياة سكانها تاريخياً وحضارياً[٤].

لا نجد هذا الرحالة يذكر لنا شيئاً عن حياة أهالي منطقة جازان الاجتماعية والاقتصادية، وإنما ذكر طرق الحاج والتجار الذين يخرجون من حواضر اليمن الكبرى عبر تهامة إلى مكة مروراً ببلاد جازان، واقتصر على ذكر أسماء بعض المحطات[٥]، ولم يذكر أي شيء عن تاريخ الناس في تلك المراكز[٦] .

ويشير أيضاً إلى لغة أهل جازان ومن حولهم فيذكر أنه لا بأس بها في البوادي والأرياف. ثم يقارن مستوى الفصاحة اللغوية عند سكان السروات وتهامة، ثم يقول: " إن أسافل سروات هذه القبائل دون أعاليها في الفصاحة.."[٧].

٢ـ عمارة الحكمي اليمني (ق٦هـ/١٢م) :

هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن محمد بن زيدان الحكمي اليمني الملقب نجم الدين الشاعر، فهو من قحطان ثم من قبيلة سعد العشيرة الكهلانية، ولم نجد مصدراً محدداً ذكر سنة ميلاده، ولكن مولده - تقريباً - كان في أوائل العقد الثاني من القرن السادس الهجري، لأنه يذكر نفسه أنه بلغ الحلم سنة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٦ . وللمزيد عن أودية جازان " انظر: الشريف، جغرافية، ج٢، ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢) المصدر والمراجع نفسهما .

(٣) المصدر والمراجع نفسهما .

(٤) لازالت بلاد جازان تحتاج إلى دراسات علمية أكاديمية موثقة وبخاصة خلال القرون الإسلامية الأولى.

(٥) ذكر خمس محطات بمنطقة جازان على طريق صنعاء مكة عبر تهامة، وتلك المحطات هي " بلد حكم، ثم الهجر، ثم عثر، ثم بيض، ثم زنيف " . وعلى طريق عدن إلى عثر حتى مكة أشار إلى بعض المعالم في بلاد جازان مثل: الشرجة (الموسم)، وعثر (بيش) . الهمداني، صفة، ص٣٤٢ .

(٦) كما أشرنا سابقاً، لم تنل منطقة جازان رعاية كبيرة عند هذا الرحالة، الذي حاز على نصيب الأسد في شروحاته هي البلدان السروية الممتدة من صنعاء إلى الطائف . .

(٧) الهمداني، صفة، ص ٢٧٩ .

(٥٢٩هـ/١١٣٤م)[١]، ويذكر أيضاً أن مولده كان في قرية الزرائب من بلاد بيش[٢]. والمتأمل في حياة وإسهامات عمارة يجده فقيهاً، شاعراً، واعظاً، بل عمل أحياناً سفيراً لبعض القوى السياسية في عصره[٣]، وقد يسأل القارئ، لماذا أدرج ضمن الرحالة؟ وفي هذا الجزء الخاص بمنطقة جازان. ونقول إن هذا العالم الحكمي اليمني يعد من الرحالين الأوائل فلقد رحل في طلب العلم وكسب لقمة العيش إلى كل من زبيد وعدن في اليمن، وإلى مكة المكرمة في الحجاز، ثم إلى مصر[٤]، ووصلنا بعض نتاجه الأدبي والفكري[٥]، ولكن كتابه: تاريخ اليمن، المسمى: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، هو ما سوف نعتمد عليه في هذه الدراسة، لأنه فَصَّل الحديث فيه عن جوانب من التاريخ السياسي والحضاري في بلدان اليمن[٦]، ولا يخلو هذا الكتاب من بعض المعلومات الجديدة والقيمة عن أجزاء من بلاد جازان، فهو يشير إلى سليمان بن طرف، حاكم منطقة جازان في القرن (٤هـ/١٠م)، فيقول: "... وممن امتنع من أعمال؟ (أبي الجيش بن زياد)[٧] سليمان بن طرف صاحب عَثَّر وهو من ملوك تهامة وعمله ـ أي مساحة إمارته ـ مسيرة سبعة أيام في عرض يومين، وهو

---

(١) هناك العديد من كتاب التراث الإسلامي مثل: ياقوت الحموي، وابن خلكان، والسيوطي، والمقريزي، والخزرجي ـ والجندي أوردوا ترجمة لعمارة. للمزيد انظر، كتاب تاريخ اليمن المسمى (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد)، لنجم الدين عمارة اليمني (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، مقدمة محقق الكتاب محمد علي الأكوع، ص٣١ ـ ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٣) للمزيد انظر: مقدمة الأكوع في كتاب: المفيد، ص٣١ وما بعدها، عبد الله محمد الحبشي. الرحالة اليمنيون (رحلاتهم شرقاً وغرباً) (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٧ ـ ١٨.

(٤) المراجع نفسها.

(٥) من كتبه: تاريخ اليمن، وقد طبع ونشر عدة مرات في أوربا والقاهرة واليمن. والنسخة التي اعتمدنا عليها هي طبعة المكتبة اليمنية، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م). وكتاب: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، الذي قاله أثناء إقامته في مصر.

(٦) أورد هذا الكتاب معلومات أولية عن بعض القوى السياسية في اليمن مثل: تواريخ وأحداث في عصر الدول الزيادية والصليحية والنجاحية وآل مهدي. كما ذكر العديد من شعراء وأدباء اليمن خلال القرون الإسلامية الوسيطة. انظر: عمارة، المفيد، ص٤٥ وما بعدها.

(٧) ظهرت الدولة الزيادية في تهامة اليمن في أوائل القرن (٣هـ/٩م)، وكانت تحكم باسم الخلافة العباسية أجزاء من سهول ومرتفعات اليمن. ويقصد بأبي الجيش، أحد أحفاد محمد بن زياد أول أمير للأسرة الزيادية. للمزيد عن تاريخ الدولة الزيادية في تهامة اليمن انظر: عمارة، المفيد، ص٤٥ وما بعدها، عبد الله الجرافي. المقتطف من تاريخ اليمن (بيروت: منشورات العصر الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٧٨م)، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

من الشرجة إلى حلي[١]، ومبلغ ارتفاعه[٢] في السنة خمسمائة ألف دينار عثرية، وكان مع امتناعه عن الوصول إلى ابن زياد يخطب له ويضرب له السكة على اسمه ويحمل إليه مبلغاً من المال في كل سنة وهدايا.. [٣].

وفي مكان آخر من كتابه : المفيد، يذكر بعض الأخبار عنه وعن بلاده ومسقط رأسه صبيا وبيش وما حولها من منطقة جازان فيشير إلى غزو علي بن أحمد الصليحي[٤] للمخلاف السليماني عام (٤٦٠هـ/١٠٦٧م)، وقتال أهله وهزيمتهم في معركة الزرائب[٥]، ويقول عن ناحية الزرائب وما جاورها بأنها " من أعمال ابن طرف، وهو الموطن الذي ولدت فيه وبها أهلي إلى اليوم "[٦]. وذكر بعض التفصيلات عما حل بأهل الزرائب من هزيمة على يد الصليحي حتى قال : " .. ولم يبق منهم أحد إلا ألف رجل أجارهم جدي أحمد بن محمد في حصنه بعكوة، والعكوتين جبلان منيعان لا يطمع أحد في حصارهما.. "[٧].

ويذكر هذا العالم اليمني شذرات من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد وسكان الزرائب والعكوتان، فيقول : " .. وجبلي عكاد فوق مدينة الزرائب[٨]، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم، ولم تتغير لغتهم بحكم

---

(١) الشرجة : المعروفة في وقتنا الحالي بـ (الموسم) . أما حلي : فهي حلي بن يعقوب الواقعة اليوم ضمن منطقة القنفذة من الناحية الجنوبية. انظر محمد أحمد العقيلي. التاريخ الأدبي لمنطقة جازان (جازان): نادي جازان الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ،ج١، ص١٨ ، غيثان بن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠ـ١٥هـ/١٦ـ٢١م)، ص٥٦ـ ٧٦ .

(٢) مبلغ ارتفاعه : أي مجموع إيرادات إمارة سليمان بن طرف السنوية .

(٣) عمارة، المفيد، ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٤) علي بن محمد الصليحي، مؤسس الدولة الصليحية التي حكمت أجزاء من بلاد اليمن حوالي قرن من الزمان (٤٣٩ـ٥٣٢هـ/ ١٠٤٧ـ١١٣٧م) . للمزيد عن هذه الدويلة انظر: عمارة، المفيد، ص٨٣ وما بعدها، الجرافي، المقتطف، ص ١١٧ ـ ١٢٢ .

(٥) الزرائب لا نجد لها ذكراً اليوم في منطقة جازان، ومن خلال الإشارات التي ذكرها عمارة نرى أنها من نواحي المخلاف السليماني وربما كانت ضمن بلاد صبيا وبيش وما حولها . انظر عمارة ، المفيد، ص ١٠٣ .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٣ .

(٧) المصدر نفسه . والعكوة، تثنى فيقال : (العكوتان) ، جبلان شرقي صبيا أحدهما يعرف بـ (العكوة اليمانية) وآخر بـ (العكوة الشامية) . العقيلي، المعجم الجغرافي، ص٢٩٨ـ٣٠٠.

(٨) لا نجد ذكراً اليوم لاسمي (عكاد، والزرائب) . أما العكوتان فكما أشرنا سابقاً لازالت معروفة بهذا الاسم في محافظة صبيا حتى اليوم . انظر: العقيلي، المعجم، ص٢٩٨ وما بعدها، أيضاً مشاهدات الباحث في شهري ربيع الثاني، وجمادى الأول عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحة ولا مساكنة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه.. "[١] . ونستنتج من هذا النص أن الزرائب مدينة، وعكاد أو العكوتين قريبتين من هذه المدينة، ثم إن أهل عكاد ذو لغة فصيحة خالية من اللحن، وهم مقيمون في مساكنهم لا يذهبون إلى غيرها دليلاً على رخاء عيشهم ووفرة أموالهم . والناظر في بلدان محافظات صبيا وبيش اليوم والتي ربما كانت توجد بها مدينة الزرائب وجبلي عكاد، أو (العكوتين) يجدها أرض خيرات تتوفر بها المزارع والمياه، ومأهولة بالاستيطان السكاني، بالإضافة إلى نشاط أسواقها التجارية، وموقعها الاستراتيجي الذي يربط بين نواحي العديد من بلدان تهامة والسراة[٢] .

٣ـ جمال الدين يوسف بن يعقوب المعروف بـ (ابن المجاور / ق٧هـ/١٣م) :

هـذا الرحالة من أهل القرن (٧هـ/١٣م)، ويقال أنه من بلاد الشام، ورأي آخر ينسبه إلى الفرس، وربما القول الثاني هو الصحيح [٣] . والذي يهمنا في هذا القسم الخاص برحلته في جزيرة العرب والمسمى بـ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ويعرف أيضاً بـ : تاريخ المستبصر[٤] . وعني بدراسته بعض المستشرقين وطبع في بعض المطابع الغربية والعربية، والطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا القسم هي طبعة مطابع بريل في مدينة ليدن الهولندية عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م)[٥] . ويقع هذا الكتاب في جزأين في مجلد واحد، وفي (٣٠٣) صفحة من القطع المتوسط [٦] . وقد ذكر هذا الرحالة تفصيلات عما رأى وشاهد وقرأ في كل من حواضر اليمن والحجاز، وبلاد تهامة والسراة، ونواحي من وسط وشرق الجزيرة العربية [٧] .

---

(١) عمارة، المفيد، ص ١٠٣ .

(٢) مشاهدات الباحث في شهري ربيع الثاني وجمادى الأولى (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

(٣) الناظر في كتاب : تاريخ المستبصر يجد أن ابن المجاور على اطلاع وثقافة جيدة بمعارف وأشعار الفرس، وهذا مما يجعلنا نؤيد الرأي الذي ينسبه إلى بلاد الفرس، أو إلى مشرق العالم الإسلامي.

(٤) تحقيق المستشرق أوسكر لوفغرين (ليدن : مطبعة بريل، ١٩٥١م) . جزءان .

(٥) المصدر نفسه . وأول من نبه إلى هذا الكتاب في العصر الحديث المستشرق (سبرنجر) في عام (١٢٨١هـ/١٨٦٤م) . انظر: ابن جريس (القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير ونجران)، ج٣، ص ٣٣٩ـ٣٤١ .

(٦) انظر الكتاب نفسه (تاريخ المستبصر)، وللمزيد انظر: بشير إبراهيم بشير " ابن المجاور"، دراسة تقويمية لكتابه : " تاريخ المستبصر" بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية"، جامعة (الملك سعود) (١٠ـ٥ جمادى الآخرة / ١٣٩٧هـ/١٩٧٩م) . دراسات تاريخ الجزيرة العربية . الكتاب الثاني، ص٤١ ـ ٦٠ .

(٧) انظر ابن المجاور، المستبصر، جزءان، ص ٣ وما بعدها .

وعن بلاد جازان، أو المنطقة الساحلية التهامية الممتدة من مكة المكرمة إلى جنوبي جازان نجده يورد خمس صفحات عن بعض المواقع الجغرافية، ويذكر معلومات عن العادات والتقاليد والأعراف عند بعض سكان هذه الأوطان التهامية[١]. وقد حاولت أن أقتبس من أقوال هذا الرحالة لكنني لم أستطع، وذلك لعدة أسباب نذكر منها:

١. أشار إلى بعض المعلومات حول بعض الأعراف والتقاليد التي نسبها إلى بعض نواحي هذه البلاد، وبعد التأمل فيما أورد وجدته لا يتوافق أويقرب مما قرأنا عن تاريخ هذه الديار في مصادر إسلامية قبل وبعد هذا الرحالة[٢]. وأغلب مدوناته لا تتوافق مع الشريعة الإسلامية السمحة التي عاش ولازال يعيش عليها سكان تهامة. كما ذكر تفصيلات عن بعض العادات التي لا تصدق لما بها من قذف وإساءة لبعض النواحي التي أشار إليها[٣]. وعندما تصفحت كتاب هذا الرحالة من أوله إلى آخره وجدته نال بعض النواحي في الجزيرة العربية بالإيذاء والتعدي على حقوق الناس[٤].

٢. ذكر شيء من أقوال هذا الرحالة المجوجة والسيئة عن بعض الديار التهامية لا يفيد البحث في شيء، ثم أنني غير مصدق ولا مقتنع بما ذكره من روايات، لأنها غير دقيقة وصادقة، وربما حصل على بعضها من رواة غير أسوياء أخلاقياً وعقدياً، ولو كان حريصاً على توخي الصدق والنزاهة، لكان عمل واجتهد في السؤال والبحث عن الحقيقة، والبعد عن النيل من كرامة وأعراض مجتمعات عربية إسلامية.

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٥٢ـ٥٧.

(٢) من يستقرئ العديد من مصادر التراث الإسلامي التي دونت تاريخ وحضارة البلاد التهامية الممتدة من مكة إلى زبيد يجدها منصفة في حفظ حقوق سكان هذه الأوطان، فكانوا على منهج الإسلام، وعلى مذهب الإمام الشافعي، بل تجدهم أصحاب كرم ونخوة ومروءة ونجدة، فكانوا يعيشون على مبدأ الصدق والتعاون وحسن الجوار. وهذه القيم عند ابن المجاور غير مذكورة وإنما سعى إلى ذكر عادات سيئة لا يصدقها العقل ولا تستقيم مع ذوق ومروءة الإنسان المسلم.

(٣) إن مادة كتاب ابن المجاور لا تخلُ من الإيجابيات والسلبيات للعديد من المجتمعات في الجزيرة العربية. ونأمل أن نرى باحثاً جاداً يتقصى روايات هذا الرحالة بالدراسة والتحليل، ومن يفعل ذلك فسوف يصحح الكثير من التجاوزات والأخطاء التي وقع فيها هذا الرحالة الفارسي.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٥٢ـ٥٧.

٣. من خلال الاطلاع على أقوال الرحالة الذين جابوا الأوطان التهامية من جازان إلى مكة لا نجد أحداً منهم أشار ولو بشكل خفي أو موجز إلى ما ذكر ابن المجاور من سيء الروايات التي سطرها في سفر[١]. وفي استطاعة أي باحث نزيه منصف أن يقرأ ما ذكر، وبخاصة ممن درس أو عرف أعراف وقيم عرب تهامة، ومن ثم يحكم على ما دون هذا الرحالة .

والحسن الذي دونه لنا ابن المجاور أنه أشار إلى بعض المعلومات عن جزيرة فرسان، فذكر أنه شاهدها، وهي عبارة عن مدينتين من بناء الفرس، وأهلها كانوا على تقى وصلاح، ويجري فيها نهر عذب الماء، ثم يقول: "وقد نبت على شاطئ النهر شجر وخضر وحشائش، ويزرع فيها - أي الجزيرة - من جميع الحبوب والخضروات، وعندهم من سائر الدواب الأهلية مثل: البقر والمعز والضأن والإبل والدواب، وعندهم من سائر الأسماك ودواب البحر .."[٢]. وأشار إلى أن طيور السمان كانت تنزل بأعداد كبيرة على شاطئ البحر، ويصيد منها أهل هذه الجزيرة كثير من طعامهم طوال العام[٣].

٤. ابن بطوطة (ق٨هـ/١٤م) :

محمد بن عبد الله، ويكنى بأبي عبد الله، واشتهر بلقب ابن بطوطة، ولد في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب عام (٧٠٣هـ/١٠٣٤م)، جاب العديد من البلدان في قارات : آسيا وأوربا وإفريقيا، وزار الجزيرة العربية وحج عدة مرات، ومات عام (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)[٤].

---

(١) انظر أقوال (١٧) رحالة (مسلمين وغير مسلمين) تحدثوا عن تاريخ وحضارة الأجزاء التهامية الواقعة بين جازان ومكة، وبخاصة منطقة القنفذة . وكل أقوالهم لا تخلو من ذكر سلبيات عديدة، لكنهم جميعاً لم ينزلقوا إلى ما وقع فيه ابن المجاور . وكان بالإمكان وضعه ضمن أولئك الرحالة، لأنه ذكر أجزاء من بلاد القنفذة، ولكن لم يتم ذلك لسوء وعدم مصداقية المعلومات التي حفظها كتاب : تاريخ المستبصر . للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٥٩-٢٣٠ .

(٢) ابن المجاور، ج٢، ص ٢٤٤ .

(٣) المصدر نفسه . ج٢، ص ٢٤٤ .

(٤) لقد وقعت في خطأ عندما ذكرت في إحدى مؤلفاتي أن ابن بطوطة مات عام (٧٥٦هـ/١٣٥٥م). وهذا التاريخ هو السنة التي انتهى فيها من تدوين كتابه الرحلة ، أما سنة وفاته الحقيقية فكانت في عام (٧٧٩هـ) . انظر : محمد بن بطوطة. رحلة ابن بطوطة . شرحه وكتب هوامشه طلال حرب (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ط٤، ص١٠٧، للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد القفنذة خلال خمسة قرون، ص ١٦٦ .

قضـى هذا الرحالة حوالي (٣٠) عاماً اتصل خلالها بكثير من الملوك والأمراء، وفي منتصف القرن الثامن عاد إلى المغرب، وعكف على كتابة رحلته وفرغ من تدوينها في (٣ ذي الحجة عام ٧٥٦هـ/ ديسـمبر١٣٥٥م)، وسماها : **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، وهذا الكتاب هو الذي رجعنا له في هذا القسم [١].

وفي إحـدى رحلاتـه مـن السـودان إلى بـلاد اليمـن نجـده ينزل على سـاحل البحـر الأحمـر الشـرقي، وفي بـلاد حلـي بـن يعقـوبٍ بمنطقـة القنفـذة [٢]. عام (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، ثم يواصـل سـيره في البحر جنوبـاً حتى نزل في بلدة الشـرجة (الموسـم حالياً)، ويدون لنـا معلومات قيمة جديدة، عن تاريخ سـكان هذه البلدة، فذكر أنها " ... بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي، وهم طائفة من تجار اليمن، أكثرهم سـاكنين بصعدة، ولهم فضـل وكرم وإطعام لأبناء السبيل، ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم، وقد عرفوا بذلك واشتهروا به، وكثر الله من أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير..." [٣].

هـذا النصـ الوحيـد الذي وجدنـاه عند هذا الرحالـة المغربـي، وذكره بعض الصـفات التي كان يتمتع بها أهل الشـرجة (الموسـم) في القرن الثامن الهجري (الرابع عشـر الميلادي)، يدل على أن أهل تهامة أصـحاب كـرم وإيثار ومروءات وهذا يدحض أقوال ابن المجاور التي وصـف بعض نواحيهم بأسـوأ الصفات . وإذا قارنا بين الرحالتين من حيث الدقة والصدق في القول، فابن بطوطة شيخ الرحالة، وصاحب مدرسة في الرصد والتوثيق والمصداقية [٤].

٥+ ٦ السير كيناهان كورنواليس، وروبن بدول (ق١٤هـ/ ٢٠م):

هذان رجلان إنجليزيان عاشـا خـلال القرنين (١٣-١٤هــ/١٩-٢٠م)، فالأول كورنواليـس (Sir. K. Cornwallis) أحـد رجـالات المخابرات البريطانية، أرسـلته حكومته إلى الشـرق الأوسـط من أجل دراسـة أحوالها من شـتى الجوانب، واسـتطاع أن يـدون عنهـا تقريـرا في عام(١٣٣٥هــ/١٩١٦م) رفعـه إلى المكتـب العربـي التابع

(١) انظر: كتاب الرحلة، تحقيق طلال حرب، ص ٨ وما بعدها .

(٢) للمزيد عن بلاد القنفذة وحلي، انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص٥٣ وما بعدها .

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٦٤ .

(٤) عن ترجمة حياة ابن بطوطة، انظر المقدمة المدونة في كتاب الرحلة نفسه، ص٥-٢٢ .

للاستخبارات البريطانية في القاهرة[١]، وقد أعيد طبع هذا التقرير في لغته الرئيسة (الإنجليزية)، ونشر في بعض المطابع البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية عام (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، وخرج في هيئة كتيب من القطع الصغير، بعنوان: **عسير قبل الحرب العالمية الأولى** (Asir before World War.1) ويقع في (١٥٥) صفحة،ويحتوي على (١٧) فصلاً قصيراً وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا القسم[٢].

أما روبن بدويل (R. Bidwell)، فليس رحالة بقدر ما هو أستاذ جامعي أكاديمي بجامعة كمبردج، وله العديد من الدراسات، وقد ترجم بعضها إلى اللغة العربية[٣]. وله كتاب لازال باللغة الإنجليزية بعنوان : **الشخصيات العربية في مطلع القرن العشرين**، وقد قام أحد الباحثين العسيريين بترجمة الفصلين الثاني والعاشر، من هذا الكتاب[٤]، وهذه الترجمة لازالت مسودة أولية، ولم تنشر في هيئة كتاب حتى الآن، وجل مادة هذين الفصلين عن تاريخ بلدان وشخصيات في منطقتي جازان وعسير،وهذه المسودة هي التي رجعنا إليها في هذا القسم[٥].

ونجد كورنواليس يذكر بعض الشروحات عن مناخ وتضاريس وتجارات منطقة عسير في عهده[٦]. وفي عنوان مستقل سماه : **منطقة الإدريسي**[٧]. ذكر تفصيلات

---

(١) للمزيد عن هذا الرحالة، وعن وظيفة هذا المكتب العربي التابع للاستخبارات البريطانية . انظر: مديحة درويش . تاريخ الدولة السعودية خلال الربع الاول من القرن العشرين (الرياض: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ١١١ وما بعدها، غيثان بن جريس : بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة : دار العويفي للنشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص١٢٤ ـ١٢٥، للمؤلف نفسه، انظر كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص٣٤٤، وبلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ١٨٢ .

(٢) انظر النسخة الإنجليزية، PP.7ff ، وهذا الكتاب ترجم ترجمة شعبية إلى اللغة العربية . منذ بداية القرن (١٥هـ/٢٠م) . وهذه الترجمة متداولة بين أيدي الناس، وقد اعتدي على هذه الترجمة من أحد أبناء منطقة عسير، وطبعها في هيئة كتاب مدعياً أنها من عمله وترجمته، وهذا قول غير دقيق . ونأمل من طالباتنا وطلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أن يطلعوا على هذا الكتاب وعلى ترجماته، ونتطلع إلى أن يقوم أحدهم باتخاذه عنوانا لرسالته في درجة الماجستير، وإذا حدث مثل هذا الأمر فقد يدرس الكتاب أكاديمياً ويستفيد منه أكبر شريحة من الباحثين والمؤرخين وطلاب العلم والمعرفة .

(٣) للمزيد عن روبن بدول انظر، كتابه : الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية . ترجمة عبد الله آدم نصيف (الرياض : د. ن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٧ وما بعدها، ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص ١٨٢ .

(٤) أ . د إسماعيل بن محمد البشري، مدير جامعة الجوف الآن، ورئيس جامعة الشارقة سابقاً، هو الذي قام بترجمة هذين الجزءين ونأمل أن يسعى إلى ترجمة الكتاب كاملاً ونشره .

(٥) يوجد صورة من هذين الفصلين المترجمين، ترجمة أولية، في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (قسم البحوث والدراسات غير المنشورة) .

(6) Cornwallis,PP.7-22

(٧) المصدر نفسه، PP.22 - 23

جيدة عن الضرائب التي كان يستوفيها الإدريسي على الصادرات والواردات التي تدخل منطقته وتخرج منها [١]. ونوه بالتنظيم العسكري من حيث قوته وعدده وأدوات تسليحه في كل من عسير، والقنفذة [٢]، ومنطقة جازان التي يسيطر عليها السيد الإدريسي[٣]. وفي قسم آخر من كتابه يشير إلى سكان السهل الساحلي من الليث إلى بلاد جازان[٤]، ثم يقسم منطقة جازان إلى ثلاثة أقسام:[٥] القسم الشمالي ويضم سكان بني شعبة والدرب وما حولها[٦]. والقسم الوسط ويمتد من بلاد بيش (أم الخشب) إلى أبو عريش[٧]. والقسم الثالث والأخير في الجنوب من أحد المسارحة إلى بلاد ميدي وحرض[٨]. ويشير بشكل لا بأس به في هذه الأقسام الثلاثة إلى القرى، والأعيان، وأعداد السكان.

وفي جزء آخر من تقريره يذكر ترجمات مختصرة لحوالي (١٥٠) شخصية في مناطق القنفذة، وعسير، وجازان، وغامد وزهران[٩]. ونجد من هذا العدد الكلي حوالي (٣٠) شخصية من منطقة جازان الممتدة من الشقيق والدرب إلى أبو عريش والمسارحة وما جاورها[١٠]. ومن تلك الشخصيات سيد أبو علامة، وعدد من رجالات آل عرار والخواجيين في صبيا[١١]، وإبراهيم فتح الدين في جازان، وإبراهيم سرحان، ومحمد يحيى باصهي في صبيا، وأحمد مساوي في المسارحة وغيرهم. وجل من ذكرهم قامات اجتماعية أو تجارية أو إدارية أو دبلوماسية في المنطقة الجازانية [١٢].

---

(١) المصدر نفسه، PP.22 - 23

(٢) المصدر نفسه، PP.26 - 9

(٣) المصدر نفسه، PP.29 - 30

(٤) المصدر نفسه، PP.32 ff

(٥) المصدر نفسه، PP.39 - 42

(٦) المصدر نفسه، PP.39-40

(٧) المصدر نفسه، PP.40 - 41

(٨) المصدر نفسه، PP.41 - 42

(٩) المصدر نفسه، PP.48 - 103

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) لا زال يوجد حتى الآن أسر رئيسة في منطقة صبيا من آل عرار والخواجيين. مشاهدات الباحث وجولاته في شهري ربيع الثاني وجمادى الآخرة عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(١٢) انظر كورنواليس (ط. اللغة الإنجليزية) PP. 84ff

وفي فصل آخر يذكر اسم : **طرق عسير**، ويشير إلى (١٥) طريقاً تصل أبها بغيرها في بلاد عسير وجازان والقنفذة[١] . وهناك طريقان من أبها إلى الدرب[٢] .، ومن أبها إلى صبيا[٣] . وقد ذكر ما يوجد على الطريقين من قرى رئيسة، وأحياناً يذكر سكان بعض القرى أو المعالم الجغرافية التي توجد على الطريقين[٤] .

أما روبن بدول فكان أكثر تنسيقاً لدراسته من كورنواليس[٥] . فقد أورد محورين رئيسين، الأول: عن شخصيات المخلاف السليماني . والثاني: عن سكان أو قبائل المخلاف[٦] . وذكر في **القسم الأول** حوالي (٤٠) شخصية جلهم من الشخصيات التي أوردها كورنواليس . والجميل في تراجم بدول أنه دون تفصيلات مطولة لبعض الأشخاص الذين ذكرهم مثل: محمد يحيى باصهي، ومحمد بن علي الإدريسي وغيرهما . كما أشار إلى معلومات أخرى قيمة حول الوظائف والأدوار التاريخية والاجتماعية لهؤلاء الرجال المترجم لهم[٧] .

أما القسم الثاني، الموسوم بـ: **قبائل المخلاف السليماني**، فذكر حوالي (١٣) ناحية في المنطقة الممتدة من الشقيق والدرب إلى بلدة الموسم جنوب جازان، وهي : أهل الشقيق، وقبائل بني شعبة ،وقبيلة نجع (النجوع) ، وأهل صبيا ، وقبيلة الجعافرة، وقبيلة بني محمد ، وقبيلة المسارحة، وقبيلة جعدة، وقبيلة بني مروان، وقبيلة الخميسين، وقبيلة بني حسن، وقبيلة بني ناشر، وقبيلة بني عبس[٨] . وفي هذه الجزئية يشير

---

(١) المصدر نفسه، PP.107ff

(٢) المصدر نفسه، PP.108 - 109

(٣) المصدر نفسه، PP.110 - 111

(٤) المصدر نفسه، PP.108 -111

(٥) بدول أستاذ جامعي أكاديمي بخلاف كورنواليس الذي عمل في بلاط السياسة والاستخبارات، والحصول على المعلومات كانت من أهم أهدافه بعكس الرجل الأكاديمي الذي يتبع منهجية علمية في بحوثه ودراساته كروبن بدول .

(٦) انظر المسودة المترجمة من كتاب بدول، ص ١١٠ ـ ١٢٠ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٩ . نجد هذا الرحالة أورد اسم قبيلة على الناحية التي ليس فيها إلا القبيلة، أو العشيرة المذكورة . وعند ذكر اسمي: الشقيق، وصبيا ، أورد كلمة (أهل) قبل هذين الاسمين، وربما كان السبب في ذلك أن مناطق صبيا والشقيق يقطنها لفيف من الطبقات الاجتماعية مثل: بعض العشائر العربية القحطانية أو العدنانية، بالإضافة إلى عناصر أخرى ربما جاءت إليها منذ زمن طويل . المصدر نفسه .

الكاتب إلى القرى والشيوخ والأعيان وتعداد السكان والمهن التي يمارسها أهل هذه البلدان، وأحياناً يشير إلى صلاتهم بمن حولهم من العشائر والبلدات[(١)].

وإذا قارنا بين المعلومات المدونة عن منطقة جازان عند هذين الرحالين كورنواليس وبدول، اتضح لنا ما يلي:

١. أن كورنواليس يعد مصدراً لروبن بدول، لأن بعض المعلومات المدونة عند الأخير منقولة من كورنواليس. مع أن بدول أضاف بعض التفصيلات الجديدة والخاصة بتراجم بعض الشخصيات، أو الحياة العامة عند بعض القبائل أو النواحي التي أشار إليها.

٢. كورنواليس اطلعنا على تفصيلات جديدة وقيمة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في جازان خلال سيطرة الحكومة الإدريسية عليها. وكذلك بدول، لكن كورنواليس أفضل وأوسع.

٣. هذان الرحالان حفظا لنا معلومات تاريخية جديدة وجيدة ومن الصعب أن نحصل عليها عند غيرهما خلال النصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م). ونأمل أن نرى كتابيهما المذكورين في هذه الصفحات مترجمين محققين باللغة العربية حتى يستفيد منهما الباحثون في البلاد العربية.

٤. الحواضر والنواحي الساحلية والسهلية في منطقة جازان من الشقيق إلى أحد المسارحة كانت البلاد المذكورة في مدونات هذين الرحالتين. ولم يكن للأجزاء الجبلية الجازانية ذكر عندهما، مع أن هذه المرتفعات مأهولة بالسكان، وجميع المقومات الحضارية[(٢)].

٧ـ أمين الريحاني (١٤٠٠هـ/٢٠م) [(٣)].

هو أمين بن فارس بن أنطون بن يوسف بن عبد الأحد البجاني، ويعرف باسم (الريحاني) نسبة إلى نبات الريحان، ولد في قرية الفريكة بلبنان عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، بدأ تعليمه في لبنان ثم سافر إلى أمريكا وهو في الحادية عشرة من عمره ،عمل في التجارة، ثم عاد إلى لبنان عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، وتردد بين الشام

(١) المصدر نفسه.

(٢) مشاهدات الباحث وجولاته في منطقة جازان خلال شهري ربيع الثاني وجمادى الأولى (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(٣) للمزيد عن ترجمة الريحاني، انظر: خير الدين الزركلي. الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م) ط٦، ج٢، ص١٨ـ١٩.

وأمريكا حوالي ثماني مرات خلال خمسين عاماً (١٣٠٦-١٣٥٧هـ/ ١٨٨٨-١٩٣٨م)، وزار نجداً والحجاز واليمن والعراق ومصر وفلسطين والمغرب والأندلس ولندن وباريس[١].

للريحاني العديد من الكتب باللغتين العربية والإنجليزية، ومن مؤلفاته بالعربية في التاريخ: **فيصل الأول، وتاريخ نجد الحديث، ونبذة في الثورة الفرنسية**. وفي المقالات السياسية والاجتماعية والفلسفية: **القوميات**، جزءان. **والريحانيات**، جزءان. وفي النقد الأدبي والمقالات الأدبية والشعر والرواية والقصة: **أنتم الشعراء، أدب وفن، وقصتي مع أمي، وهتاف الأودية، وزنبقة الغور، ووفاء الزمان**. أما في علم الرحلات فله العديد من الكتب مثل: **نور الأندلس، وقلب العراق، وقلب لبنان، وملوك العرب**[٢].

والكتاب الأخير (ملوك العرب) في جزءين[٣]. ناقش فيه مؤلفه ما رآه وعرفه أثناء مقابلته أئمة وملوك وأمراء الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن (١٤هـ/ ٢٠م)[٤]. والذي يهمنا في هذا القسم هو منطقة جازان ومقابلته للسيد الإدريسي في مدينة جازان، وقد أفرد حوالي (١٦٥) صفحة من الجزء الأول تحدث فيها عن بلاد الإدريسي الممتدة من الحديدة واللحية في تهامة اليمن إلى صبيا وبيش وأجزاءٍ من تهامة عسير، وعرج في شروحاته إلى مناخ وتضاريس هذه البلدان، وذكر شيئاً من تاريخ وصول الصوفية والتصوف إلى بلاد الإدريسي وإمام اليمن، كما أشار إلى بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في بعض الأجزاء التهامية الواقعة بين جازان والحديدة[٥].

وفي عنوان مستقل سماه: **جيزان**، في حوالي (١١) صفحة ذكر وصوله إلى ميناء جازان ومعه بعض الرفاق، وما جرى لهم من استقبال وضيافة من قبل رجالات الإدريسي، وما شاهد في بلدة جازان من منازل القش وبعض القلاع والحصون

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، انظر أيضاً: قائمة بأسماء مؤلفات الريحاني في نهاية بعض مؤلفاته مثل كتاب: ملوك العرب، ج٢، ص ٩٥٨-٩٥٩.

(٣) وعنوانه: ملوك العرب (رحلة في بلاد العرب) (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ط٢، جزءين في (٩٥٩) صفحة من القطع المتوسط. للمزيد عن الريحاني انظر مقدمة هذا الكتاب.

(٤) ولقد قابل حوالي ثمانية ملوك وسلاطين هم: الملك حسين بن علي في الحجاز، والإمام يحيى بن حميد الدين في اليمن، والسيد الإدريسي في جازان، وسلاطين مشايخ لحج في اليمن، وعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في نجد، وأحمد آل الصباح في الكويت، وآل خليفة في البحرين، والملك فيصل بن الحسين في العراق. المصدر نفسه، ص٢١ وما بعدها.

(٥) الريحاني، ملوك العرب، ج١، ص ٢٣٠ وما بعدها.

والمساجد التي كانت في بعض نواحيها[١]. ثم يورد وصفاً لأهمية مدينة جازان الاقتصادية والتجارية، فيقول: " كانت جيزان .. المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان القسم الغربي من شبه الجزيرة أو جله يستقي من مواردها، فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة إلى ميدي. أما اليوم فجيزان هي إحدى عاصمتي الإدريسي[٢]. وهذا أول مصادر الخير فيها، هي نقطة دائرة خصبة أنحاؤها، غضة حواشيها، يؤمها الناس من المغرب الأقصى ومن مصر ومن أعالي عسير ومن المدن في تهامة جنوباً وشمالاً، فيأتي معهم الرزق، التجارة والكسب والخيرات، يحمل الحنطة إليها تجار ميدي وأبناء الجبال، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تأتي بها بواخر القهوجي والسنابيك[٣]. جيزان مركز استيراد وتوزيع، جيزان مورد تجري إليه الأموال من هذه الجهة ومن تلك، فتتوزع منه إلى الجهات كلها، وهكذا تعيش جيزان من لاشيء يرى، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان، وتغدق على كل محترم كسلان "[٤]. ومن هذا الوصف يتضح لنا أهمية ميناء جازان التجاري ليس لمنطقة جازان فحسب وإنما لنواحي عديدة داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وقد ذهب الريحاني مع رفاقه في أزقة جازان حتى وصلوا إلى منزل السيد الإدريسي في البلدة نفسها[٥]. ونوه هذا الرحالة بتواضع الحياة العمرانية والحضارية في هذه المدينة. وعند مقابلتهم للسيد الإدريسي أشار إلى بعض الحوارات التي دارت معه وكانت تجمع بين الجانب السياسي والثقافي والاجتماعي، ثم عرج على ذكر بعض الملامح والأوصاف الخَلْقِية للسيد الإدريسي، وأخيراً خرج ببعض الانطباعات الحسنة عنه[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٢) بلدة صبيا / عاصمة الإدريسي الثانية، بل هي العاصمة الرئيسة لإمارته .

(٣) هذا نوع من أنواع السفن التي كانت ترسو في ميناء جازان، والسفن التجارية الاقتصادية خلال القرنين (١٣ـ١٤هـ/١٩ـ٢٠م) تغدو وتروح في ميناء جازان والقنفذة وجدة .

(٤) الريحاني، ملوك العرب، ج١، ص ٣٣٦ـ ٣٣٧ .

(٥) كان مقر الإدريسي الرئيس في صبيا، وله مقر آخر في مدينة جازان، وهو يتنقل بين المكانين من وقت لآخر.

(٦) الريحاني، ملوك، ج١، ٣٣٧ ـ ٣٤٢ . ومن تلك الانطباعات الفصاحة التي كان يتمتع بها الإدريسي، إلى جانب كرم أخلاقه، وحسن تحاوره، وصدق تعامله، المصدر نفسه ٣٣٩ ـ ٣٤٢ . وفي مكان آخر يذكر الريحاني شدة حرارة الشمس والرطوبة في مدينة جازان . ولم يذكر لنا أي شيء عن نواحي منطقة جازان الأخرى، والثابت أنه لم يصل إلا إلى مدينة جازان فقط . المصدر نفسه، ج١، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

٨ـ ك . س . تويتشل (ق١٤هـ/٢٠م) :

تويتشل أمريكي جاء إلى الجزيرة العربية في العقود الوسطى من القرن(١٤هـ/٢٠م)، وحصل على استضافة ورعاية ودعم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وكان من مهماته البحث عن المياه والمصادر الطبيعية في الجزيرة العربية، وقد قام بالعديد من الرحلات في نواحي عديدة من البلاد السعودية، ثم جمع مشاهداته وانطباعاته في كتابه الموسوم بـ: **المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية**، نشر باللغة الإنجليزية عام (١٩٤٧م[١]، وترجمه الأستاذ شكيب الأموي إلى اللغة العربية، ونشرته دار إحياء الكتب العربية في القاهرة عام(١٩٥٥م) . وهذه النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب[٢] . وقد تحدث هذا الرحالة عن مدينة جازان، فقال إنها: "عاصمة تهامة في إقليم عسير[٣] . وكانت ميناء الأدارسة في زمن ما. وجيزان تقع على قمة خليج يكتنفه المد والجزر العنيف الذي يتحول أحيانا إلى جزيرة شبه حقيقية. وهناك قلعة حجرية تجثم على أعلى رابية مشرفة ترتفع (١٠٠) قدم فوق الماء. ومقر الحاكم مبنى من الحجر، وحوالي نصف مساكن المدينة . والباقي بسقوف مصنوعة من القش والجدر الخشبية[٤] . وتوجد حركة تصدير واستيراد هامة بين اليمن وموانئ البحر بمحاذاة ساحل جيزان، وصانعو السفن ماهرون جدا في بناء السنابيك وإصلاحها، ويستعملون الأخشاب المقوسة ليصنعوا منها المراكب التي تمخر عباب البحر. وهناك في حفر مكشوفة بالقرب من الطرف الجنوبي من جيزان توجد صناعة أخرى ناجحة، هي استخراج حجر الملح، وقد اقترح إدخال تحسينات باستخدام أساليب حديثة لاستثمار الملح وتعدينه، وتنفيذ ذلك يتوقف على التقدم الجوهري المنشود . على أن اتصالات هذا البلد الواسع النطاق بقرى جزيرة فرسان في الغرب، وبأبي عريش في الجنوب الغربي. واتصالها بمراكز السكان في صبيا وتهامة، كل هذه الأسباب تدل على أن لجيزان كل المؤهلات والعوامل لنموها وتقدمها .."[٥] .

---

(١) تعاون إدوارد . ج . جورجي مع تويتشل في تصنيف هذا الكتاب وجمع مادته العلمية، وقد ورد اسمه مع تويتشل على غلاف الكتاب، مع أن شهرة هذا الكتاب تحت اسم تويتشل وليس إدوارد جورجي .

(٢) للمزيد عن هذا الكتاب وهذا الرحالة . انظر الكتاب المترجم نفسه، وانظر ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمس قرون، ص١٩٧ وما بعدها، للمؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير ونجران)، ج٣، ص ٣٦٠.

(٣) جاء تويتشل إلى منطقة جازان في العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م ومن ثم فالوضع الإداري في أبها وجازان وما حولهما لازال غير مستقر ومنتظم . ولهذا نجده يذكر وضع جازان الإداري في تلك الفترة فيقول: "منطقة عسير تهامة، ومركز إدارتها جازان وحاكمها خالد السديري .. "، ويذكر بعض مدنها الرئيسة مثل: الدرب، وبيش، وأبو عريش . ويذكر مرتفعات عسير ومركز إدارتها أبها وحاكمها تركي السديري ويشير إلى العديد من النواحي التابعة لها . انظر: تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٤) للمزيد عن العمارة التقليدية في منطقة جازان انظر، القول الأول، في القسم الثالث من هذا الكتاب، انظر أيضا ابن جريس، عسير (١١٠٠ـ١٤٠٠هـ)، ص٤٩ـ٥٣ .

(٥) تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص٧٧ـ٧٨ . والناظر إلى منطقة جازان اليوم يجدها قد حظيت باهتمام كبير من الدولة حتى أصبحت تضاهي غيرها من المناطق الكبرى في المملكة ،وهي سائرة إلى الأمام في تطورها وتقدمها الحضاري (بإذن الله تعالى) . مشاهدات الباحث خلال شهري ربيع الآخر وجمادى الأولى عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

وفي فصل آخر بعنوان: طرق المواصلات، يشير إلى العديد من الطرق المستخدمة في البلاد السعودية في النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ويذكر طريق جدة جازان المحاذي لساحل البحر الأحمر، وكان في عصره رديئاً جداً، ويقترح إجراء البحث عن فتح طرق من الحجاز إلى جازان بمحاذاة سفوح جبال السروات الغربية، أو من بلاد السروات نفسها [١].

٩ـ هاري سانت جون فلبي (ق١٤هـ/٢٠م) [٢].

فلبي إنجليزي الجنسية، جاء إلى الجزيرة العربية عام (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ومكث فيها حوالي (٤٠) عاماً، اتصل خلالها بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وزار معظم أجزاء جزيرة العرب، وألف عنها العديد من الكتب والدراسات[٣]. وكتابه: **مرتفعات الجزيرة العربية**، هو الذي يهمنا في هذه الدراسة، طبع باللغة الإنجليزية عام (١٩٧٦م) في(٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، كما ترجم إلى اللغة العربية وطبع عن طريق مكتبة العبيكان بالرياض عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). وهذه النسخة المترجمة تقع في مجلدين كبيرين من (١٤٤٩) صفحة، وهي النسخة التي سوف نعتمد عليها في كتابنا هذا [٤]. تقع في ستة أبواب، في (٣٣) فصلاً. وفي البابين الخامس والسادس خصص (٤٤٤) صفحة تحدث فيها عن نواحي عديدة من بلاد جازان. ففي الباب الخامس الموسوم بـ: **مرتفعات**

---

(١) كانت طرق المواصلات في عموم البلاد السعودية خلال العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م) رديئة جداً، ولم تفتح الطرق وتتحسن المواصلات في عموم المملكة العربية السعودية إلا منذ العقود المتأخرة في القرن الهجري الماضي. والمتجول اليوم في أنحاء منطقة جازان أو في عموم جنوبي البلاد السعودية يجدها مربوطة بشبكة طرق ممتازة، وجميعها مسفلتة وتقوم وزارتي المواصلات والبلديات على تفقدها وصيانتها باستمرار.

(٢) للمزيد عن حياة فلبي، انظر: اليزابيث مونرو: فيلبي العرب (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٣٠٧ وما بعدها، ج. د. نورتون "فيلبي رجل الجزيرة العربية" مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. (الكويت. عدد (٣) جمادى الآخرة (١٣٩٥هـ، ص١٥١ـ ١٥٩.

(٣) المرجعان نفسهما. ويقول عنه حمد الجاسر "الحقيقة التي يجب أن تقال، هي: إن فلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدها إليها من سواه" مجلة العرب، للمزيد انظر: غيثان بن جريس. دراسات في تاريخ إفريقيا والجزيرة العربية (جازان: نادي جازان الأدبي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص ١٤٨.

(٤) هذه النسخة العربية قمنا على مراجعتها وتدقيق معلوماتها، وكتبنا تقديماً لها في (٧) صفحات. أما فلبي نفسه فقد أخرجنا عنه العديد من الدراسات المنشورة في كتب وبحوث علمية محكمة. انظر: ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص٣٤٨ـ ٣٥٢، للمؤلف نفسه، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص ١٩٢ـ ١٩٦. انظر أيضاً: ابن جريس "جنوبي البلاد العربية السعودية في كتاب مرتفعات الجزيرة العربية لفلبي". ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (١١ـ١٢/١٠/١٤٢٥هـ الموافق ٢٤ـ ٢٥هـ/١١/٢٠٠٤م). نشر هذا البحث في كتاب الندوة الذي عنوانه: العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة. حصاد (١٢) (القاهرة/١٤٢٥هـ)، ص٢٤١ـ ٢٧٦.

تهامة، ذكر فيه خمسة فصول من (٢٤-٢٨). وفي الباب السادس خمسة فصول أخرى من(٢٩-٣٣)[١]. وفي هذه الفصول العشرة تحدث عن مناطق بيش وصبيا ومدينة جازان، كما أشار إلى تفصيلات جيدة عن الجبال الجازانية والحدود بين اليمن والسعودية في المرتفعات وعند سفوح الجبال، ثم أورد الكثير من المعلومات عن السهول التهامية الجازانية من حدود السهل، مع بلاد اليمن إلى نواحي الشقيق والقحمة وذهبان على الحدود الجنوبية لمنطقة القنفذة[٢].

وفي ضوء التفصيلات التي ذكرها هذا الرحالة عن منطقة جازان في الأجزاء الجبلية والتهامية نلخصها في النقاط التالية :

١. نزل إلى بلاد جازان من سروات قبائل قحطان ووادعة، ثم ساح في عموم منطقة جازان وذكر أحوالها الجغرافية مثل: طبيعة التضاريس المختلفة من جبال وأدوية وسهول وسواحل بحرية، وأشار إلى اختلاف مناخ الأجزاء الساحلية والسهلية عن المرتفعات الجبلية في الجهات الشرقية والشمالية من المنطقة . ولم ينس ذكر مصادر المياه والثروات الحيوانية والنباتية في نواحي عديدة من البلاد[٣].

٢. نوه سيطرة الملك عبد العزيز سياسياً وإدارياً ومالياً على منطقة جازان، وأشار إلى أسماء بعض رجالات الحكومة السعودية في مدن جازان الرئيسة من أحد المسارحة وجازان جنوباً إلى بلدة القحمة شمالاً . وكان من جل مهماته في تلك الرحلة الوقوف على الحدود السعودية اليمنية، وقد فعل ذلك في سواحل وسهول ومرتفعات جازان، وأشار إلى القبائل التي كانت تعيش على الجانبين (السعودي واليمني) مع توضيح مواقف الدولتين من تلك الحدود والسكان القاطنين حولها، وأشار أيضاً إلى تركيبة القبائل السياسية وبخاصة البدوية منها التي تقوم حياتها على التنقل والترحال، وكيفية الأعراف والعادات السائدة بينها، والتي كانت الضابط الإداري والسياسي الذي يضبط طريقة التعامل فيما بين أفرادها[٤].

---

(١) انظر فلبي، مرتفعات الجزيرة العربية (الرياض : مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ج٢، ص٨١٧-١٢٦١ .

(٢) المصدر نفسه . وهذه التفصيلات التي وصلتنا من هذا الرحالة القدير تعود إلى عام (١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) . وهي السنة التي أنجز فيها فلبي رحلته في جنوبي البلاد السعودية، وفي أجزاء من بلاد اليمن مثل: مأرب، وصدر عن تلك الرحلة كتابان هما : بنات سبأ، ومرتفعات الجزيرة العربية، انظر، ابن جريس، دراسات في تاريخ إفريقيا والجزيرة العربية، ص١٤٥-١٨٨ انظر أيضاً صفحات التقديم في النسخة العربية من كتاب : المرتفعات، مكتبة العبيكان، ج١، ص٩-١٥ .

(٣) فلبي، المرتفعات، ج٢، ص ٨١٧ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه .

٣. تعرض لبعض الصور الاجتماعية في البلاد الجازانية، وذكر أن الطابع القبلي هو السائد على عموم المنطقة، وأشار إلى العديد من البطون والعشائر مثل: آل تليد، والعبادلة، وبني حريص، والعليلين، وبني مروان وغيرهم[١]. وذكر بعض بيوت الأشراف في مدن جازان وصبيا وبيش وغيرها. ولم ينس أسماء بعض العشائر القاطنة في البلاد الممتدة من صبيا إلى القحمة والبرك[٢]. وأشار أحيانا لأنساب بعض القبائل وفروعها، كما فعل مع عشائر فيفا وبني مالك وغيرهم، ولكنه لم يكن موفقا في ذكر المعلومات الصحيحة حول أنساب بعض هذه العشائر، بل خلط بعضها ببعض، وأحيانا يذكر أنسابا غير صحيحة لفروع بعض القبائل، وهذا ما لمسناه أثناء مراجعة الكتاب وتدقيق معلوماته مع سكان تلك القبائل في مواطنها الرئيسة[٣]. ومن الجميل في كتاب فلبي أنه يذكر بعض الإحصائيات لعدد أفراد بعض العشائر أو المدينة أو القرية الواحدة، فذكر أن سكان أبو عريش يقدرون بـ (٢٢,٠٠٠) نسمة[٤]، وكذلك فيفا وصبيا يقدر عدد سكان كل ناحية من هذه المناطق بـ (٢٥,٠٠٠) نسمة[٥]. وهذه الإحصائيات ربما لا تكون دقيقة، لكن ذكرها يعود إلى دقة ملاحظة هذا الرحالة واهتمامه بتدوين معلومات دقيقة وهامة[٦].

وغالبية المجتمع الجازاني يعيشون عيشة الكفاف، وربما كان معظمهم تحت خط الفقر، لقلة الموارد الاقتصادية التي يعتمدون عليها، ومعظمها محلية من زراعة ورعي وصيد وتجارة، إلا أنه كان يوجد في المدن وبخاصة المراكز الحضارية مثل جازان وصبيا من الأعيان والتجار وموظفي الدولة كالأمراء والقضاة وغيرهم، وهم يعيشون في مستوى معيشي أفضل من غيرهم من عامة الناس. وقد أشار فلبي إلى بعضهم، مثل: أمير جازان محمد بن ماضي، والبهكلي وغيرهما[٧].

ونجد كتاب: **المرتفعات**، يحتوي على معلومات قيمة عن وصف القرى والمنازل، وأنواع الأطعمة والأشربة والألبسة والزينة التي كانت عند سكان منطقة

---

(١) المصدر نفسه. ج ٢، ص ٧٩٣ وما بعدها. ومعظم هذه القبائل تقطن الأجزاء الجبلية من بلاد جازان.

(٢) المصدر نفسه. ج٢، ص ٨٢٠ وما بعدها.

(٣) أثناء تجوالنا في منطقة جازان من أجل التأكد من معلومات فلبي في كتابه: المرتفعات، اتضح لنا تداخل بعض العشائر والقبائل في نواحي عديدة من بلاد جازان، بل إن أهل البلاد أنفسهم يقولون ذلك ويؤكدون عليه.

(٤) فلبي، المرتفعات، ج٢، ص ٨٦٧.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ونجد رحالة آخرين مثل كورنواليس وبدول وغيرهما يذكرون أحياناً إحصائيات السكان في بعض النواحي من منطقة جازان، لكن مثل هذه المعلومات ربما تكون غير دقيقة وتحتاج إلى دراسة وتحليل.

(٧) فلبي، مرتفعات، ج٢، ٨٢٥ وما بعدها. وهؤلاء الأعيان وأمثالهم كانوا يمثلون طبقة المجتمع الجازاني الأرستقراطي لما يمتلكونه من وجاهة ومال وصلات اجتماعية مع عامة الناس ومع الملك عبد العزيز ورجال حكومته.

جازان. ولم تقتصر شروحات هذا الرحالة على العموميات، فهو أحياناً يصف المنزل، سواءً كان من القش أو الحجارة، وكذلك أنواع بعض الأطعمة والأشربة فهو يفصل الحديث عن أشكالها ومذاقها وطريقة تقديمها، وكذلك الوضع نفسه مع اللباس والزينة [١]. والذي جعل فلبي يصل إلى هذا المستوى الجيد في وصف الأشياء، هو ما امتاز به من إمكانات شخصيةٍ وثقافيةٍ في دقة الرصد لما يشاهد، ثم كفاءته وقدرته العلمية كانت أيضاً مساعداً إيجابياً. كما كان يحظى بقدر كبير من الرعاية والاستقبال عند الجازانيين وغيرهم في جنوبي البلاد السعودية، لصلته بالملك عبد العزيز آل سعود، ومن ثم فهو يستطيع مشاهدة ما بداخل البيوت التي يدخلها ومعظمها لأعيان ووجهاء البلاد، كما أنه يستطيع أن يتجول بحرية تامة في المدن والقرى والأسواق دون أن يتعرض له أحد بأذى[٢].

لم يغفل فلبي ذكر بعض العادات عند الجازانيين، فقد أبدى استغرابه من سكان قرى الدرب وبيش التي لا يأكل أهلها البيض والدجاج [٣]. كما أشار إلى جلسات تعاطي القات في مدينة جازان، التي تستمر لعدة ساعات، وقد شارك فيها، لكنه لم يستسغ أكل القات وجلساته[٤].

٤. للأوضاع الاقتصادية، من رعي وصيد وزراعة وتجارة وصناعات تقليدية، ذكر في كتاب هذا الرحالة، فهو مليء بالمعلومات التي تصب في خدمة هذه الميادين. كما أن الأحوال الإدارية والمالية، وبعض اللمحات التعليمية والثقافية الفكرية قد نالت بعض النصيب عند فلبي، الذي لم يقتصر في معلومات كتابه على جانب معرفي دون الآخر، وإنما الناظر في مادة هذا السفر الكبير يجدها لا تخلُ من أي جانب من جوانب التاريخ والحضارة التي كانت تعيشها منطقة جازان وغيرها في بداية النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) [٥].

---

(١) فلبي، المرتفعات، ج٢، ص٨٣٠ وما بعدها.

(٢) حظي فلبي برعاية كبيرة من الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وهذا مما مكنه من التجوال في عموم البلاد السعودية، ومن ثم حفظ لنا الكثير من تاريخها وتراثها، والفضل يعود لله أولاً ثم للملك عبد العزيز الذي احتضنه ورعاه وقدم له جميع الخدمات اللازمة لإنجاز رحلاته المتعددة.

(٣) فلبي، المرتفعات، ج٢، ص ٨٩٠-٨٩١.

(٤) المصدر نفسه. شجرة القات من الأشجار المنتشرة في اليمن ومنطقة جازان، ويتناولها الكثير من سكان تلك النواحي، لكن أضرارها وسلبياتها كثيرة.

(٥) انظر فلبي، المرتفعات، ج٢، ص٨٢٠ وما بعدها. إن هذا الكتاب: مرتفعات الجزيرة العربية، يستحق أن يفرد له كتاب علمي، أو رسالة دكتوراة تقدم في أحد أقسام التاريخ الأكاديمية في جامعاتنا السعودية. ونأمل أن نرى هذا الاقتراح يتحقق على يد أحد طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا السعودية الجنوبية.

١٠ـ محمد عمر رفيع (ق١٤هـ/ ٢٠م):

الأستاذ ابن رفيع من أهل مكة، جال في العديد من بلدان العالم خلال العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م) [١]، ثم أرسل من قبل معتمدية المعارف ضمن بعثة تعليمية إلى مدينة أبها في عسير عام (١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م)، وقد سلك مع رفاقه الطريق الجبلية من الطائف إلى أبها عبر بلدة بيشة[٢]. وتولى وظيفة مدير مدرسة رجال ألمع [٣]، وقام بالعديد من الرحلات في منطقة عسير وأجزاء من منطقة جازان، ثم جمع تلك الرحلات في كتاب سماه: **في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ)** [٤]. وهذا كتاب يقع في حوالي (٣٠٠) صفحة من القطع المتوسط، وهو الذي اعتمدنا عليه في مبحثنا هذا. [٥].

هذا الكتاب يتكون من قسمين في مؤلف واحد، القسم الأول (١٧٠) صفحة يحتوي على رحلات محمد رفيع[٦].والقسم الثاني خلاصة التاريخ السياسي العسيري خلال القرن(١٣هـ/١٩م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ /٢٠م)[٧]. ومن ثم فالقسم الثاني لا حاجة لنا به، لأن جل مادته معروفة ومنشورة في عشرات الأبحاث والدارسات [٨]. والذي نرغب في معرفته هي المادة العلمية الخاصة بمنطقة جازان في القسم الأول، وقد أخذت حيزاً بلغ (٥٠) صفحة من إجمالي صفحات هذا

---

(١) انظر مقدمة محمد رفيع في كتابه: في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ) (الطائف: مكتبة المعارف، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، ص ١-٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٥-٨ . وبيشة من حواضر الجنوب الرئيسة، وكانت حلقة الوصل بين أبها وخميس مشيط وبين الطائف . بل كانت السيارات تجد صعوبة في الطريق من بيشة إلى خميس مشيط بعكس الطريق من بيشة إلى الطائف . المصدر: ما قرأته في العديد من الوثائق والمدونات، وما سمعناه من كبار السن الذين عاصروا العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م) .

(٣) للمزيد من التفصيلات عن محمد رفيع . انظر: ابن جريس . تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤-١٣٨٦هـ/ ١٩٣٤-١٩٦٦م)، ج١، ص٢٥٤-٢٥٦ .

(٤) انظر: محمد عمر رفيع، في ربوع عسير، ص١٢ وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه . ص ١٥- ١٧٠ .

(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٢ - ٢٦٢ .

(٨) هناك العديد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية ناقشت تاريخ عسير الحديث منذ بداية القرن (١٣هـ/١٩م) . وتاريخ منطقة عسير وما جاورها تحتاج إلى دراسات أكاديمية رصينة للقرون والفترات السابقة للقرن (١٣هـ/١٩م) . بل إن هذه المناطق منذ القرن (٤-١٢هـ/١٠-١٨م) تحتاج إلى تضافر جهود الباحثين من المؤرخين والأثريين لدراسة هذه البلاد في تلك القرون .

القسم . بدأ ابن رفيع رحلته في شهر ذي القعدة عام (١٣٦١هـ/١٩٤٢م) من قرية رجال ألمع متجهاً نحو بلدة الدرب ثم واصل طريقه مع بعض الرفاق عبر بلاد بيش وصبيا حتى وصل مدينة جازان ومكث فيها عدة أيام ثم عاد أدراجه حتى مقر عمله في بلدة رجال ألمع[١] . ونجد هذا الرحالة يطلعنا على بعض التفصيلات التاريخية والحضارية عن بعض المناطق الجازانية السهلية والساحلية في بداية العقد السابع من القرن(١٤هـ/ ٢٠م)، وخلاصة ما وصلنا منه نوجزه في النقاط التالية:

أ- ذكر أثناء رحلته بعض المعالم الجغرافية بين الدرب وجازان مثل: أسماء بعض الأودية، والقرى، وأحياناً الغابات . كما أشار إلى شدة الحرارة والرطوبة في عموم منطقة جازان السهلية والساحلية[٢] .

ب- ذكر العديد من الجوانب الاجتماعية في مدن وقرى منطقة جازان مثل: الأطعمة والأشربة التي جل موادها من مزارعهم وثرواتهم الحيوانية . وأهم الأطعمة الخضير، والعكيد، والمعصوب [٣]، وأقراص الذرة والدُّخن والتمر، ومن المشروبات القهوة واللبن والحليب الطازج من مواشيهم[٤] . كما أن صيد الأسماك وأكلها من الوجبات الرئيسة عند الجازانيين إلى جانب اللحوم الأخرى[٥] . وذكر شجرة القات التي يمضغ أوراقها الكثير من سكان مدن جازان بل أشار إلى الأوقات الطويلة التي يقضونها في جلساتهم العامة والخاصة مستمتعين بأوراق هذه الشجرة ومص عصارة تلك الأوراق[٦] .

كما أشار هذا الرحالة إلى تواضع القرى الجازانية في شكل مبانيها وأزقتها[٧] . وعرج للحديث عن الألبسة والزينة فذكر أنه رأى غالبية الرجال في الدرب وبيش

---

(١) انظر، محمد رفيع، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٦ - ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠ . ومحمد رفيع لم يزر مرتفعات جازان ذات التضاريس الوعرة، والمناخ المعتدل في فصل الصيف . وشدة الرطوبة والحرارة تتواجد في بيش وصبيا وجازان وغيرها من مدن وقرى السهل والساحل .

(٣) هذه من الأطعمة الرئيسة عند أهل جازان . وللمزيد عن أطعمة أهل تهامة من القنفذة إلى جازان، انظر ابن جريس . عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٥٨-٦٥ .

(٤) عرفت بلاد جازان الكثير من الحيوانات الأليفة مثل: الماعز، والضأن، والبقر، والجمال وغيرها.

(٥) انظر : محمد رفيع، ص ١٢١ - ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٦ .

(٦) أشار أكثر من رحالة أو كاتب ومؤرخ إلى حب كثير من أهل جازان ومن حولهم إلى مضغ ورق هذه الشجرة (القات) والاستمتاع والاسترخاء أثناء تناولها . وهي ذات نتائج سلبية مالياً وصحياً .

(٧) انظر أقوال محمد رفيع في القول الأول من القسم الثالث من هذا الكتاب .

يلبسون الصدرية على الجزء العلوي للجسد، أما الوزرة فهي خاصة بالجزء السفلي من الجسم[١]، ونفس الألبسة شاهدها في صبيا وجازان، إلا أن بعض الرجال يلبس الثياب والمعاطف والأكوات والمحارم[٢]. أما النساء في عموم مدن جازان فيلبسن الثياب ذات الأكمام وأحياناً دون أكمام، كما كن يلبسن القمصان، وهن محجبات، ويتحلين ببعض أدوات الزينة المصنوعة من الفضة في أيديهن وأرجلهن[٣]. بالإضافة إلى استخدام الكحل في العيون والحناء للرأس واللحية والأيدي والأرجل، عند النساء والرجال[٤].

وفي الوقت الذي زار محمد رفيع منطقة جازان كان هناك العديد من التجار والأعيان وموظفي الدولة ميسوري الحال مالياً، ومن ثم فهم يملكون العديد من الألبسة الداخلية والخارجية للنساء والرجال والأطفال. وكثير من تلك الألبسة أو الأقمشة الرئيسة تستورد من الحجاز أو اليمن أو بعض موانئ إفريقيا وغيرها[٥].

لم ينس الإشارة إلى نماذج من مفردات ولهجات أهل جازان. مثل إيراد حرف الشين في أول الفعل المضارع، وبخاصة ما كان منها على وزن أفعل أنام يقولون (شنام)، وأقول لك (شاقولك)، ونجي (شنجي)، ويبدلون العين الفا في النطق مثل: عبد اللّه ينطقونه (أبد اللّه)، وعبده، (أبده)[٦]. كما أنهم يلقبون من كان اسمه محمد بـ (عزي)، وعلي بـ (جمالي)، ويحيى بـ (العماد)، وأحمد بـ(الصفي)، وعبد اللّه بـ (الفخري)، وحسن بـ (الضياء)[٧].

---

(١) محمد رفيع، ص ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ١٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ١٢٧، ١٣٥، ١٥١.

(٤) المصدر نفسه. وللمزيد عن الألبسة في المناطق التهامية من القنفذة والبرك إلى جازان، انظر: ابن جريس. عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ). ص ٦٥ - ٧٤.

(٥) أشار هذا الرحالة إلى مشاهدته الكثير من العناصر البشرية الوافدة أو المقيمة في مدن جازان الرئيسة وبعضهم من الحجاز أو نجد أو المرتفعات السروية الممتدة من نجران إلى الطائف، أو بعض اليمنيين والأفارقة. وجميعهم كان لهم عادات وتقاليد في أطعمتهم وألبستهم وزينتهم. محمد رفيع، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٥ - ١٣٦. واللهجات المحلية في منطقة جازان جديرة بالبحث والدراسة. ونأمل من أهل اللغة والمتخصصين في أقسام اللغة والنقد والبلاغة في جامعة جازان أن يلتفتوا إلى مثل هذا الموضوع المهم فيدرس دراسة علمية أكاديمية.

(٧) رفيع، ص ١٥٩. ومثل هذه العادات لها دلالات ثقافية، واجتماعية، والواجب على المهتمين بتراث منطقة جازان أن يدرسوا مثل هذه الجوانب العلمية الفكرية الثقافية الجديرة بالبحث والدراسة.

ولكون هذا الرحالة من رواد التربية والتعليم في جنوبي البلاد السعودية[١]. بل إن من مهماته الرئيسة في الذهاب إلى جازان هو الاطلاع على مدارسها النظامية. وقد نوه في أكثر من مكان من كتابه بمستوى مدارس صبيا وجازان المتواضع، بل ذكر مقابلته لبعض العاملين في تلك المدارس. وأشار إلى أن مدرسة مدينة جازان عند زيارته لها كانت تحتضن حوالي (١٥٠) طالباً[٢].

ج ـ بعض المحاور الاقتصادية نالت بعض الاهتمام في رحلة ابن رفيع فذكر صيد الأسماك وماله من أهمية عند الجازانيين، وأشار إلى أنه سمع من أحد الرواة الفرسانيين إلى أن أهل فرسان يعتمدون في كثير من أطعمتهم على صيد الأسماك وطيور السمان التي تقع على شواطئ جزيرتهم[٣]. وذكر الزراعة والمزروعات التي كانت منتشرة في عموم سهول منطقة جازان، وأشار إلى العديد من المنتجات الزراعية مثل: الذرة والدخن والسمسم، والخضروات والفواكه المتعددة، كالقرع، والفجل، والبامية، والطماطم، والملوخية، والرمان، والعنب، والسفرجل. وهناك العديد من النباتات العطرية التي تزرع قريباً من المنازل والمزارع مثل: الريحان، والفل وغيرهما[٤]. وري المزروعات غالباً يعتمد على الأمطار ومياه الأودية وأحياناً الآبار[٥]. كما أن الأيدي العاملة في المزارع من أهل البلاد أنفسهم، وأحياناً كان يساعدهم العبيد والموالي الذين قدموا إلى المنطقة من اليمن وإفريقيا[٦].

وقد عرف الجازانيون عدد من الصناعات التقليدية والحرف اليدوية مثل: النجارة، والدباغة، والخرازة، والنسيج والخياطة، والصباغة، وصناعة الفخار، والخصف وغيرها[٧]. ونجد محمد رفيع يذكر بعض الصناعات التي شاهدها

---

(١) انظر ترجمته، ابن جريس، تاريخ التعليم في منطقة عسير، ج١، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٢) رفيع، في ربوع عسير، ص١٤٩، ١٥٥، ١٥٧. وتاريخ التعليم النظامي في منطقة جازان منذ عام (١٣٥٥ ـ ٥٤ هـ/١٩٣٦ـ٣٥) جدير بالبحث والدراسة. ونأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين فيدرسه دراسة علمية أكاديمية، وهو موضوع جديد جدير بالبحث والدراسة.

(٣) رفيع، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٢، ١٢٩.

(٦) تاريخ الزراعة في جازان خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) جدير بالبحث والدراسة. حبذا أن نرى أحد أقسام التاريخ في البلاد السعودية فيقره موضوعاً لأطروحة علمية لإحدى درجتي الماجستير أو الدكتوراة. وهو موضوع جديد وجيد ،وهناك مئات الوثائق غير المنشورة التي تصب في خدمة مثل هذا العنوان.

(٧) هذه الصناعات وغيرها كانت مهن قديمة معروفة عند جميع مجتمعات الجزيرة العربية. للمزيد انظر جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ط. جامعة بغداد /١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ج٧، ص٥٠٥ ـ ٥٣٠. ابن جريس، عسير (١١٠٠ـ١٤٠٠هـ)، ص ١٤٧ ـ ١٦٢.

عند الجازانيين مثل: استخراج معادن الملح، والجبس، والنورة[١]. كما ذكر صناعة استخلاص القطران النباتي، وبين كيفية ممارسة هذه المهنة[٢].

أما التجارة فهي الأخرى حظيت بكثير من الاهتمام عند هذا الرحالة، فأشار إلى أسواق صبيا وأبو عريش وجازان وذكر ما يوجد في تلك الأسواق من سلع، وما يصدر إليها من اليمن والحجاز وبعض الموانئ الإفريقية، مع ذكر بعض الأيدي العاملة التي كانت تعمل في تلك الأسواق وبعضهم من خارج المنطقة [٣]. ويذكر تفصيلات أكثر عن سوق مدينة جازان فيقول: " .. سوقها عظيم بالنسبة لغيرها من أسواق مدن هذه الجهة، كثير التعاريج، عامر بمختلف أنواع السلع، وإليه وفيه تنصب معظم غلال الإقليم، وناهيك بها من غلال وافرة، فقد قال لي بعض من عرفت إن زكاة الذرة وحدها بلغت في إحدى السنين السابقة (١,٢٢٧,٠٠٠) صاعا جيزانيا . والصاع الجيزاني أربعة أمداد، والمد على ما أتذكر حوالي كيلة ونصف مكية . ومن صادرات جيزان المهمة ثمرة شجرة الدوم الموجودة في المنطقة بكثرة، يصدرونها إلى مصوع وعدن وغيرهما"[٤].

١١ ـ ولفرد ثسيجر (ق١٤هـ/٢٠م) :

هذا الرحالة إنجليزي الجنسية، قام بالعديد من الرحلات في أقطار متعددة، ومنها الجزيرة العربية، وقد جاء عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٥م) إلى أجزاء من بلاد تهامة والسراة ،الواقعة بين اليمن والحجاز . وكتب من خلال تلك الرحلة مشاهداته في جوانب متعددة [٥]. ونشرت رحلته باللغة الإنجليزية في المجلة الجغرافية التي

---

(١) رفيع، ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه، ١٣٨ ـ ١٣٩ . دراسة الصناعات والحرف اليدوية في منطقة جازان خلال القرنين الماضيين (١٣ـ١٤هـ/١٩ـ٢٠م) جديرة بالبحث والدراسة والتحليل . وهناك العديد من الوثائق غير المنشورة التي تخدم هذا الموضوع الجديد في عنوانه ومادته العلمية .

(٣) رفيع، ص ١٣٤، ١٣٧، ١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٧ . كانت الحمير هي وسائل النقل الرئيسة لنقل السلع والبضائع في منطقة جازان . وتستخدم الجمال أيضاً لنفس الغرض. تاريخ التجارة في جازان خلال أي قرن منذ فجر الإسلام حتى القرن (١٤هـ/٢٠م)، موضوعات هامة وجديرة بالبحث والدراسة . حبذا أن نرى من طلابنا الجيدين من يعالج تواريخ التجارة في هذه المنطقة الغنية بمواردها الطبيعة، والمميزة بموقعها الجغرافي الاستراتيجي .

(٥) أطلق على تلك المشاهدات : " رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز " منشورات المجلة الجغرافية، بالجمعية الجغرافية الملكية (لندن، ١٩٤٧م). فاز هذا الرحالة بما حصل عليه تويتشل وفلبي من رعاية وحماية من الملك عبد العزيز آل سعود الذي أعطاه الإذن والدعم للتنقل في البلاد السعودية . وموضوع استضافة ودعم الملك عبد العزيز للكثير من المستشرقين الذين وفدوا إلى بلاده، وقدموا دراسات عديدة في مجالات مختلفة يستحق البحث والدراسة العلمية الأكاديمية . وهذه مسؤولية الباحثين المتخصصين في كليات الآثار والعلوم والآداب في جامعاتنا السعودية .

تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م)، ثم قام الأستاذ الدكتور أحمد عمر الزيلعي بترجمتها إلى اللغة العربية ونشرها في: **مجلة الدارة، العدد (١) السنة (١٤) (شوال / ١٤٠٨هـ ـ مايو/١٩٨٨م)**، وهذه النسخة المترجمة هي التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه [١].

ونجد هذا الرحالة يجول في نواح عديدة من جبال السروات وعسير وتهامة. وقد ذكر لنا تفصيلات عن أجزاء من منطقة جازان الجبلية والسهلية، وللقيمة العلمية الجيدة التي وصلتنا عنه منذ نزوله من سروات قحطان ووادعة إلى بعض مرتفعات ثم سهول جازان [٢]، نجده يقول: "... ويوجد إلى الشرق من وادي دفا بدو قحطان، وإلى الغرب منه توجد قبائل الريث، والعزيين، وعلى طول الحدود اليمنية قبائل خولان آل تليد وقبائل بني مالك وبلغازي[٣]. وقد وجدت هؤلاء القبائل مضيافة، ويختلفون في المظهر عن بدو العرضية[٤]. فألوانهم فاتحة، وأنوفهم معقوفة، ولحاهم بارزة، وهم يشبهون بدو وسط الجزيرة العربية. إنهم يلبسون مآزر قصيرة جداً من القماش لا تكاد تستر عوراتهم عندما يجلسون القرفصاء، وشعورهم طويلة، ولكن أولئك الذين لم يختتنوا منهم بعد يحتفظون في أعلى رؤوسهم ببقعة واسعة محلوقة. ويؤخر الختان عند هؤلاء حتى يبلغوا سن العشرين إلى الثلاثين سنة، وربما يكونوا قد تزوجوا، ولهم أطفال [٥]. وهم مسلحون بشكل جيد، ومعظم بنادقهم صناعة إيطالية مؤرخة سنة (١٨٨٩م)، إنهم يقطنون في دائرة بسيطة، ووضيعة، ويأوون إلى مساكن من الحجر الخشن المسقوف بالحشائش وأغصان النبات. ولديهم قطعان كبيرة من الضأن، والماعز، وبعض البقر، ويمتلكون من الجمال أكثر مما تملكه القبائل التي إلى الشمال

(١) انظر: مجلة الدارة، الرياض، ص٩٣ ـ ١٢٣.

(٢) شملت رحلته أجزاء من تهامة بلاد غامد وزهران وعسير وبعض نواحي القنفذة، ثم مرتفعات عسير، وبعض جبال وسهول منطقة جازان، ثم قمم السروات من أبها إلى الطائف. انظر نسخة الرحلة المترجمة إلى اللغة العربية، ص ٩٣ وما بعدها.

(٣) للمزيد عن وادي دفا، والريث، وآل تليد، وبني مالك، والعزيين، وبلغازي. انظر العقيلي، المعجم الجغرافي (ط٢ / ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(٤) يقصد بالعرضية، العرضيتان الجنوبية والشمالية في الأجزاء الشرقية من منطقة القنفذة. للمزيد انظر ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص٣٢ وما بعدها، للمؤلف نفسه. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة)، ج٢، ص٣٣١ وما بعدها.

(٥) للمزيد عن الختان في جنوبي البلاد السعودية، انظر، ابن جريس، عسير (١١٠٠ـ١٤٠٠هـ)، ص ٨٥ـ٨٧.

منهم، وينمو عندهم، في أعالي الجبال، بعض شجر البن، وقليل من البر، والذرة، والتنباك، ولكنهم بصفة عامة لا يشتغلون بالزراعة، وإنما يتاجرون بالسمن في سبيل الحصول على الحبوب والبن من أسواق تهامة، وحدود اليمن، حيث يعملون على جلب السمن على ظهور جمالهم عبر جبال شديدة الانحدار، وصعبة المسالك، وبدلاً من استعمال الشداد أو الخي، فإنهم يربطون الأكياس المصنوعة من جلد الماعز على ظهور الجمال فوق جلد آخر مطوي" .

" ويقع جبل فيفا على الحدود اليمنية، وعلى ارتفاع (٦٠٠٠) قدم، وهو مكتظ بالمدرجات التي يزرع فيها شجر البن، والموز، والعنب، والرمان، والخوخ، والبرشوم، والذرة، والبر، والشعير، ويجاوره جبل بني مالك على ارتفاع (٧٦٠٠) قدم، والزراعة فيه أيضاً على شكل مدرجات، حيث يزرع فيه شجر البن، والموز، والذرة، والبر، والشعير. أما إمدادات الماء فهي غير كافية في كلا الجبلين، وعليه فإن قربة الماء الكاملة تعطي في جبل فيفا يوم السوق، مردوداً قدره أربعة ريالات" .

ثم سلكنا من جلة الموت(١) . طريق دفا الذي سرعان ما تغير اسمه إلى بيش، حيث نزلت أمطار غزيرة ليلية على الجبال نتج عنها سيول متتابعة أدت إلى عرقلة رحلتنا بشكل سيء، لأن طريقنا الوحيد يمر في مجرى الوادي. وكنا نرى القردة يومياً، وأحياناً في مجموعات كبيرة، وكذلك الأرانب البرية التي شاهدناها في كل مكان أثناء الرحلة. وهنا تكثر الذئاب والضباع، والنمور الصغيرة ذات الألوان المختلفة، والوعول التي تختلف على الجبال، ولكن الغزلان توجد فقط في السهل الساحلي(٢) . ثم واصلنا سيرنا حول الجانبين الشرقي والشمالي لجبل الريث، حيث يحف شجر الدوم الكثيف بواد لا نهاية له، وهو يتلوى عبر تلال مجدبة وقائضة. وكانت الحرارة شديدة، والسيل المعكر بالطمي، وغير الصالح للشرب يلتف حول ركبنا، وبعد وصولنا إلى السهل، استدرنا جنوباً مجتازين حقو، وصعدنا جبل هروب، حيث كان الجو بارداً على منحدرات الجبل الذي تقع على قمة وتحت إكليل من السحاب، أراضي العزيين ومنجد، فهناك ينمو شجر البن، والبر، والشعير، وفي الوادي ينمو الموز" .

(١) جلة الموت: تقع بين بلاد تهامة عسير وجازان، وتراجع إدارياً منطقة عسير، وقد غير الأمير خالد الفيصل، أمير منطقة عسير سابقاً، اسمها إلى جلة الحياة .

(٢) دراسة تاريخ الثروة الحيوانية والنباتية في منطقة جازان (سهول ومرتفعات) جديرة بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية .

" وفي طريقنا إلى صبيا، مررنا بصبيا الجديدة، عاصمة الإدريسي المهجورة، التي تداعى قصرها المزخرف، وتحول إلى خرائب. وفي هذه الأيام يدور حديث عن الانتقال إلى هناك، لأن صبيا بالي [مدينة صبيا الحالية] تعاني كثيراً من السيول. وصبيا مدينة كبيرة، بيوتها من العشش، وبها قليل من المنازل المبنية من الحجر[١]. وجميع القرى التي تغطي المنطقة المحيطة بها، أكبر بكثير من تلك التي في الشمال والزراعة تنتشر بكثرة حيث ينمو هنا شجر النيلة، بالرغم أن نموه لا يبعد كثيرا إلى الشمال ويعمل منه الصباغ [النيل] في أوان كبيرة على آبار القرية. ومدينة جيزان ميناء محلي، ومنها تدار تهامة عسير بينماً القنفذة – وتعرف بصورة عامة باسم البندر – تخدم تهامة الشام، وكلا الميناءين متاحان فقط لرسو السنابيك التي تتوقف أيضاً في البرك والقحمة[٢]. وهنا حضرنا سوق السبت في أم الخشب بوادي بيش، أحد أكبر أسواق تهامة[٣]. حيث تصنع الخوذ من ورق الدوم، وهذه الحرفة من خصائص هذا الجزء من تهامة، وهي تلبس من قبل الرجال، ولو أن المسنين منهم يفضلون قبعات القش ذات الأهرام الواسعة والحافات العريضة[٤].

١٢ـ تركي بن محمد الماضي (ق١٤هـ/ ٢٠م):

ابن ماضي من مواليد روضة سدير عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، نال بعض التعليم في مسقط رأسه بالروضة، وعند بلوغه العقد الثالث من عمره سافر مع عبد الله ابن إبراهيم العسكر الذي عين أميراً على عسير عام (١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م[٥]).

---

(١) تاريخ بلاد صبيا السياسي والحضاري خلال العصر الحديث جدير بالبحث والدراسة حبذا أن يتخذ منها موضوعات تاريخية تدرس وتبحث عند طلاب برامج الماجستير والدكتورة في جامعاتنا السعودية الجنوبية

(٢) موانئ جازان، والبرك، والقحمة، والقنفذة موضوعات جديدة وجديرة بالبحث التاريخي في العصر الحديث. ونأمل أن تؤخذ موضوعات لأطروحات الماجستير والدكتوراة في جامعاتنا السعودية. وهي فعلا جديرة بذلك، ويوجد حولها مئات الوثائق غير المنشورة.

(٣) الباحث في المصادر والمراجع المطبوعة المنشورة، وفي الوثائق غير المنشورة يجد أن الأسواق الأسبوعية كانت منتشرة في عموم بلدان جازان. والأسبوع من أوله إلى آخره لا يخلو من سوق أو سوقين تقام في ناحية من نواحي الديار الجازانية. وهناك مئات الوثائق غير المنشورة التي تصب في خدمة هذا الموضوع. ونأمل أن يظهر أحد الباحثين الجادين فيبحث تاريخ الأسواق الأسبوعية في جازان خلال القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٤) تاريخ الصناعات التقليدية والحرف اليدوية في جازان جدير بالبحث والدراسة. وهناك رواة لازالوا على قيد الحياة، ووثائق غير منشورة في هذا الموضوع وتستحق البحث والدراسة.

(٥) عبد الله العسكر تولى إمارة منطقة عسير من(١٣٤٢ـ١٣٤٨هـ/١٩٢٣ـ١٩٢٩م) وهناك روايات تذكر أن إمارة هذا الأمير في عسير من (١٣٤٣ـ١٣٥٢هـ/١٩٢٤ـ١٩٣٣م). ولكن ما أورده ابن ماضي ربما هو الصحيح لأنه كان معاصراً لتلك الفترة. وإفراد دراسة مستقلة لابن عسكر مهمة جداً، ونأمل أن يقوم قسم التاريخ. بجامعة الملك خالد بتخصيص هذا العنوان لأطروحة ماجستير أو دكتوراة، يقوم بإنجازها أحد طلاب هذا القسم الأكاديمي. للمزيد عن ابن عسكر. انظر: من مذكرات تركي الماضي (ط ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص١٦، ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ص٦٠.

وكان تركي الماضــي كاتباً وأميناً لسر الأمير. وقد أثبت ابن ماضي جده واجتهاده، وأرســل من قبل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سـعود في العديد من السفارات الدبلوماسية بين ابن سعود، والإمام يحيى بن حميد الدين، إمام اليمن. وكذلك بين الإمام عبد العزيز آل سعود والسيد الإدريسي في جازان[١]. ومنذ عام (١٣٥٣-١٣٥٦هـ/١٩٣٤-١٩٣٧م) تولى إمــارة منطقة غامد وزهران، ومــن (١٣٥٧-١٣٧١هـ/١٩٣٨-١٩٥١م) صــار أميراً لمنطقة نجران، ومن (١٣٧١هـ إلى سـنة وفاته ١٣٨٥هـ/١٩٥١م-١٩٦٥م) كان أميراً لمقاطعة عسير التي عاصمتها مدينة أبها[٢].

ويتضــح لنا أن تركي الماضــي لم يكن رحالة بقدر ما هو رجل دولة تقلب في العديد مــن الأعمــال السياســية والإدارية. ومن يسـتقرئ سـيرته الذاتية يجده زار وشــاهد معظم المناطق في جنوبي البلاد السـعودية، والجميل في ذلك أنه سـجل لنا الكثير من مشاركاته وانطباعاته وجولاته في كل من مناطق عسير، وجازان، ونجران، وبلاد غامد وزهران. بل دون لنا أيضــاً بعض مشــاهداته في حواضــر اليمن الكبرى مثل: صـنعاء وغيرها[٣]. وقد نشـرت مشاهداته تحت عنوان: **من مذكرات تركي بن محمد بن تركي الماضي عن العلاقــات السعودية اليمنية (١٣٤٢-١٣٧١هـ/ ١٩٢٤-١٩٥٤م)**[٤]. وعند الاطلاع على هذا الكتاب نجده يدخل ضــمن كتب الرحلات، لأن جل مادته العلمية قامت على الرحلة والخبرة والمشاهدة، وكاتب هذه المذكرات نفسه هو صاحب تلك التجارب والمشاهدات[٥]. ولمنطقة جازان نصيب لا بأس به في هذه المذكرات، ومما ذكره هذا الرحالة عن الديار الجازانية نلخصه في النقاط التالية:

١. كانــت منطقة جــازان خلال العقــد الرابع مــن القرن(١٤هــ/٢٠م) تحت سـيطرة علي بن محمد الإدريسـي، ثم عمه الحســن بن علي الإدريســي[٦]. وسـيطرتهما لم تكن محكمة بشـكل جيد، وهذا مما جعــل إمام اليمن يطمع

(١) انظر: من مذكرات تركي الماضي. ص١٧ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩ وما بعدها.
(٤) تم طباعة هذا الكتاب الذي يقع في (٤٧٠) صـفحة من القطع المتوسـط، على نفقة صـاحب السـمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود، أمير منطقة الرياض سابقاً، وملك البلاد حالياً. وكانت طباعته (في دار الشبل للنشر والتوزيع بالرياض عام (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
(٥) المصدر نفسه، ص ١٥ وما بعدها.
(٦) لمزيــد مــن التفصـيلات عن إمــارة الأدارســة في جــازان، انظــر: العقيلي، تاريـخ المخلاف السـليماني، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) الجزء الثاني، ص ٦١٩ وما بعدها.

في السيطرة على بلادهما، ولو حصل ذلك فسوف يحل كثيراً من الإيذاء على بلاد عسير الواقعة تحت سيطرة ابن سعود، لهذا بدأ الإمام عبد العزيز آل سعود يتوجس من هذا الأمر، ومن ثم أرسل تركي بن محمد الماضي من أبها إلى علي الإدريسي عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) كي يوضح له بعض المخاطر التي تحيط ببلاده، وفي عام (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م) تولى السيد الحسن بن علي الإدريسي أمر الديار الجازانية بدلاً من ابن أخيه، ثم عقدت اتفاقية مكة المكرمة بين ابن سعود والسيد الإدريسي عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) . وخلاصة تلك الاتفاقية أن تدخل منطقة جازان تحت حماية الإمام عبد العزيز آل سعود، وتكون الشؤون الداخلية من اختصاص السيد الإدريسي[١] . وقد أورد ابن ماضي الكثير من التفصيلات التي تلت تلك الاتفاقية، وما قام به الحسن الإدريسي من خرق لما تم الاتفاق عليه، ثم ثورته في وجه ابن سعود ورجاله في جازان عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م)، وأخيراً تصدى الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لهذه الثورة والقضاء عليها[٢] . وتركي الماضي كان مشاركا وشاهد عيان للكثير من الأحداث في تلك الصراعات بين ابن سعود والإدريسي، فذكر أحداث ونتائج بعض المعارك التي حصلت بين الطرفين، كما أشار إلى بعض التوضيحات التاريخية الحضارية التي أثرت سلبا على بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في البلاد الجازانية[٣] . كما احتوت هذه المذكرات على العديد من الوثائق والخطابات المتبادلة بين الإمام ابن سعود والسيد الإدريسي[٤] .

٢. في حوالي (٢٠) صفحة يتحدث هذا الرحالة عن ثورة أهالي الريث عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)[٥]، وكيف تعامل معها أمير جازان في مواجهة تلك

---

(١) انظر، مذكرات تركي الماضي، ص٣٧وما بعدها . للمزيد عن إمارة الأدارسة وما جرى من صلات وحروب بينهما وبين ابن سعود انظر: العقيلي . تاريخ المخلاف السليماني (ط ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) الجزء الثاني ص ٩٠٩ وما بعدها .

(٢) المصادر والمراجع نفسها .

(٣) مثل تدمير القرى والمنازل، وإهلاك الحرث والنسل، وقتل العديد من الرجال من الطرفين، بالإضافة إلى الأعمال التجارية والزراعية فقد نالها التدهور والكساد . انظر: مذكرات تركي الماضي، ص ٨٣ وما بعدها .

(٤) ويوجد في هذه الوثائق الكثير من التوضيحات التاريخية والحضارية لأحوال منطقة جازان خلال العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م) . ولازال هناك الكثير من الوثائق غير المنشورة عن تلك الفترة الجديرة بالبحث والتحليل والدراسة .

(٥) بلاد الريث، ضمن الجبال التابعة لمنطقة جازان، وقد قام في هذه الجبال عدد من الثورات منذ العقد الخامس في القرن (١٤هـ/٢٠م)، وآخرها هذه الثورة التي شارك فيها تركي الماضي، عندما كان أميراً لمنطقة عسير . للمزيد انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، الجزء الثاني ص ١١٦٢، مذكرات تركي الماضي، ص ٣٩١ وما بعدها .

الثورة[١]؟ وقد فصل الحديث عن أسباب تلك الثورة، وأحداثها، ثم نتائجها التي أسفرت عن القضاء على تلك الثورة، وإعادة الأمن والاستقرار في البلدان الريثية[٢]. وأورد تركي الماضي الكثير من الأشعار العربية والنبطية التي قيلت في أحداث ثورة الريث، وقد جمعها بعض مرافقي الأمير الذين ذهبوا معه ورجاله من أبها إلى تهامة جازان من أجل إخماد تلك الفتنة[٣].

ولم يغفل هذا الكاتب ما لحظه من سكان وطبيعة جبل الريث، ويعرف أيضاً بجبل القهر[٤]، فيقول: " سكان هذا الجبل من الريث، وهم أهل زراعة وأكثر مواشيهم البقر والغنم، والقسم الكبير منهم بادية، وهم في بطون الأودية المحيطة بالجبل وعندهم عدد كبير من الإبل والغنم، ويلجؤون إلى الجبل عند الشدائد، ويبلغ عدد نفوسهم نحو (٥٠٠٠) منهم نحو ألف وخمسمائة مقاتل"[٥]. وذكر أسماء ثمان قبائل في هذه البلاد، كما أشار إلى بعض الثروات في جبل القهر (الريث)، فذكر أنها " .. حقول البن والموز وأعواد النحل التي يجني منها العسل في أوقاته، وهو مشمول بالغابات الكثيفة، ومن أهم ما فيه أخشاب العرعر التي لا يقل طول الواحد منها عن ثلاثين إلى خمسة وعشرين ذراعاً، ويوجد الطلح والسمر والسدر في بطون الأودية.."[٦].

٣. وفي حوالي (٢٧) صفحة يورد هذا الرحالة تقريراً عن منطقة جازان خلال العقود الوسطى من القرن(١٤هـ/٢٠م)[٧]. ويشير إلى جغرافيتها الطبيعية فيقول: " .. تبدأ من الجهة الشمالية من القحمة .. وتنتهي في الموسم (وهي) سهل مأهول بالقرى المتقاربة محفوفة بالمزارع من الدخن والذرة، وهي من وجهة تكوينها أرض رملية من الجهة الشمالية والغربية والجنوبية،

---

(١) هذه الثورة والثورات التي قبلها كانت القوى الإدارية في جازان وعسير تتعاون في القضاء عليها، وغالباً تنجح في السيطرة على ديار الريث.

(٢) انظر، مذكرات تركي الماضي، ص ٣٩١ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٤ـ ٤١٠.

(٤) كلمة (القهر) تطلق على جبل معروف من سلسلة جبال السروات المتاخمة لتهامة جازان، وإلى جانبه جبل آخر يسمى أيضا القهر، وثالث اسمه زهوان. ويطلق على هذه الجبال مجموعة جبال الريث، وبه سميت قبائل الريث. مشاهدات الباحث أثناء تجواله في منطقة جازان خلال شهري ربيع الثاني وجمادى الاولى (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(٥) انظر، مذكرات تركي الماضي، ص ٤٠٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٢٨ـ ٤٥٥.

ومن الشرق عند اقترابها من جبل السراة، توجد نجود وهضاب وجبال دون ارتفاع جبال السراة، صالحة للزراعة ومحتوية على كثير من الأشجار، وهو الذي يعدونه القسم الجبلي ... وإذا اقتربت من سفوح الجبال نجد كثيراً من المستنقعات والغيول المتبقية من السيول التي تنحدر من جبال السراة، وأودية تهامة وما حولها من المناطق الجبلية، وهذه المستنقعات تسبب أنواع الحميات ... أما القسم الجبلي فهو معتدل المناخ تنزل عليه الأمطار صيفاً وشتاءً فتسيل فيه الأودية .. وعرض المقاطعة يتراوح في محلات مابين (٥٠ـ ١٠٠) كيل.." [١].

ويورد تفصيلات متنوعة عن بعض الطرق والمسافات التي تربط مقاطعة جازان مع غيرها، وينوه إلى أسماء بعض أوديتها، وشيء من ثرواتها النباتية والحيوانية. وأسهب في ذكر أهم مدن وقرى منطقة جازان مع ذكر بعض الإحصائيات لسكان كل ناحية[٢]، والبطون والعشائر التي تستوطن تلك الحواضر والقرى، ولم يغفل عن ذكرٍ المذاهب التي كانت سائدة بين الناس، وأهمها المذهب الشافعي والزيدي، وأخيراً يذكر خلاصة ارتباط بلاد جازان بالحكم السعودي منذ عهد الدولة السعودية الأولى إلى العقد الثامن من القرن (١٤هـ/٢٠م) [٣].

١٢ـ عاتق بن غيث البلادي (ق١٤هـ/٢٠ـ٢١م) :

هذا الرحالة من رجالات الحجاز، له عدد من الكتب المنشورة في التاريخ، والأدب، والأنساب، والجغرافيا، والرحلات [٤]. ومؤلفه الذي يخصنا في هذه الدراسة هو: **بين مكة واليمن رحلات ومشاهدات** [٥]. قام برحلة ميدانية في شهر صفر عام

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

(٢) ذكره لتلك الإحصائيات يبدو أنها غير دقيقة، لأنه كان يجمع معلوماته من بعض الرواة في منطقة جازان، دون الرجوع إلى مصادر موثوقة لتسجيل تلك الإحصائيات. انظر: مذكرات تركي الماضي، ص ٤٣٤ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، ٤٣٥ وما بعدها . والعقد الثامن، هو التاريخ الذي مات فيه صاحب المذكرات، فكانت وفاته عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) .

(٤) قضى البلادي جل حياته في البحث والتأليف والترحال، ودار مكة للطباعة والنشر في مكة المكرمة قامت على طباعة ونشر معظم مؤلفاته، انتقل إلى الدار الآخرة عام (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) . للمزيد انظر ابن جريس : بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص٢١٤ ـ ٢١٧ . سبق أن أوردنا حاشية خطأ عن هذا الرحالة في كتابنا : القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير ونجران)، ج٣، ص ٣٧٧ . حاشية رقم (٢) . ونعني بالكتاب الوارد في تلك الحاشية . بلاد القنفذة .. وليس ما تم إيراده هناك .

(٥) (مكة المكرمة : دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ..

(١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) بدأها من مكة المكرمة على طريق الساحل حتى وصل إلى مدينة جازان وما حولها، ثم عاد أدراجه عن طريق الشقيق حتى محائل ثم المظيلف حتى مكة[١]. وبعد الاطلاع على ما شاهده ودونه منذ وصوله بلدة البرك حتى مدينة جازان وما حولها، ثم عودته في الطريق التي سلكها ما بين جازان والشقيق راجعاً إلى مكة[٢]. تم استخلاص عدد من النقاط التي نذكرها على النحو التالي:

١. أشار إلى العديد من مواطن الاستيطان الحضارية، وهي من الشمال إلى الجنوب: وادي ذهبان، القحمة، الشقيق، الدرب، أم الخشب (بيش)، عثر، صبيا، وادي ضمد، مدينة جازان، أبو عريش، العارضة، الموسم، أحد المسارحة[٣]. وذكر صفة الموقع الجغرافي لمعظم هذه البلدان، وأسماء القرى والعشائر التي تقطنها، وبعض المعالم الحضارية في كثير منها مثل: المنازل وطبيعة بنائها، والمؤسسات الإدارية مثل: المحكمة والشرطة وغيرها التي توجد في كثير من هذه النواحي[٤]. ومما قال عن مدينة جازان أنها: ".. مدينة متطورة العمران بها قصور من ثلاث طبقات، وشوارع منظمة، وحدائق ومدارس للبنين والبنات من الابتدائي إلى الثانوي . وهي قاعدة مقاطعة جازان حيث تتبعها الأرض الواقعة من وادي ذهبان شمالاً إلى وادي حرض جنوباً، ومن سراة جنب- بني مالك وفيفا وغيرها - شرقاً إلى البحر غرباً وبها كل ما بالمدن الرئيسة من إدارات حكومية مثل: الشرطة، والمرور، وإدارة تعليم للبنين وأخرى للبنات، وفروع الكثير من الوزارات، وبنوك وغير ذلك، وقد ازدهرت في العهد السعودي، وكان قوام عمرانها من العشش كما هي الحال في تهامة"[٥]. وذكر (١٥) إمارة صغيرة تتبع إمارة جازان[٦].، كما أشار إلى

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٦ - ٣٠٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٢ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه . لقد زرت جازان في تلك الفترة التي زارها البلادي، وشاهدت العديد من الأبنية الحجرية والمسلحة، لكن بيوت القش، أو ما يعرف بالعشش كانت أيضا منتشرة في مدينة جازان وضواحيها . مشاهدات الباحث في بداية القرن (١٥هـ/٢١م)

(٦) تلك الإمارات هي: صبيا، بيش، أبو عريش، سامطة، ضمد، المسارحة، بني مالك، الدرب (بني شعبة)، الشقيق، الريث، القحمة، الموسم، هروب، الجعافرة، العارضة .البلادي ، ص ٢٦٦ ؟

ميناء جازان ورسو عدد من السفن الكبيرة فيه[١]. وعند إشارته إلى بعض الحواضر، أو الأودية ذكر أيضاً نبذاً يسيرة عما ورد عنها في كتب التراث مثل: عتود، عثر في ناحية بيش، صبيا، ضمد وغيرها[٢].

٢. لا يخلو شرحه من ذكر بعض الشذرات البسيطة عن جوانب اجتماعية، واقتصادية، وتعليمية ثقافية شاهدها في بعض البلدان التي مر عليها. لكن حديثه في هذه الجوانب كان مختصراً جداً، وأحياناً يكتفى بإشارات محددة جداً.

٣. مما أطلعنا عليه للبلادي في مواطن أخرى غير جازان نجده أحياناً يتعرض للحديث عن التاريخ السياسي في البلدان التي مر عليها، بل يذكر بعض الأعيان والوجهاء وموظفي الدولة وغيرهم، أما في هذه الجزئية الخاصة بمنطقة جازان فلم يتحدث عن هذه المحاور بشكل جيد، وإن كان أحياناً يشير إلى بعض من هذه القضايا، لكن ليس بالشكل الموسع والواضح.

٤. منطقة جازان مليئة بالأنماط العمرانية المتنوعة، ونشطة في أوضاعها الزراعية والتجارية والحرف والصناعات التقليدية. ولم نجد هذا الرحالة يولي هذه الجوانب كبير اهتمام في مشاهداته ومدوناته.

١٤ـ بعض المؤرخين والرحالين الجازانيين (ق١٤ـ١٥هـ/ ٢٠ـ٢١م) :

هناك عدد من الرحالة والمؤخين الجازانيين كتبوا عن بلادهم خلال القرنين ١٤ـ١٥هـ/ ٢٠ـ٢١م). ولسنا في هذا المقام بصدد حصر كل من دون تاريخاً أو مشاهدات أو انطباعات من أهل جازان عن منطقة جازان نفسها[٣]، وإنما نذكر بعضاً منهم لعله يظهر من طلاب البحث العلمي الجادين من يدرس هذا المحور دارسة علمية أكاديمية دقيقة[٤]. ومن أولئك المؤرخين والرحالين :

---

(١) المصدر نفسه. ص ٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤١، ٢٥١، ٢٦٠، ٢٦٤.

(٣) هناك الكثير من الدراسات والمدونات باللغة العربية وغيرها من اللغات عن منطقة جازان. والفاحص لكتب التراث وكذلك البحوث والدراسات الحديثة يجدها تزخر بمعارف مختلفة عن هذه الديار الغنية بالموارد الطبيعية والبشرية.

(٤) إن منطقة جازان، إن صح التعبير، بكر في مجالات البحث والتأليف، ونأمل أن تستشعر جامعة جازان هذه المسؤولية فتؤسس مراكز البحوث العلمية الجادة التي تقوم على دراسة أرض وسكان وتاريخ وحضارة بلاد جازان، فهي مليئة بكنوز معرفية، وأبناؤها أفضل وأجدر بدراسة حضارة وثقافة ونمو أوطانهم.

أـ عبد الله بن علي العمودي :

هو الشيخ عبد الله بن علي بن عبد الله باسندي العمودي من مواليد مدينة أبو عريش عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، رحل إلى بعض مدن اليمن لطلب العلم، ثم عاد إلى أبو عريش عام (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) . وعمل في القضاء في عهد السيدين محمد والحسن الإدريسي. له العديد من المؤلفات[٥]. ومشهود له في منطقة جازان بالعديد من الجهود الدعوية والثقافية والفكرية[٦].

ونجد في مجلة المنهل مبحثاً يقع في أربع صفحات للشيخ العمودي سماه: **رسالة في الرحلة الملكية السعودية إلى المنطقة الجنوبية التهامية**[٧]. وهذه مدونة لرحلة الملك سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود عام (١٣٧٣-١٣٨٤هـ/١٩٥٣-١٩٦٤م)، عندما زار منطقة ساحل البحر الأحمر من جدة إلى جازان عام (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)[٨]. وفي هذه الرسالة معلومات مختصرة لنزول الملك في كل من: وادي ذهبان، والموسم، وصبيا، وأبو عريش، وجازان، وبعض النواحي القريبة من مدينة جازان[٩]. وأهم ما امتازت به هذه الأخبار، هو الفرحة التي عمت منطقة جازان عند زيارة الملك لها، ثم عطف وأعطيات الملك التي كان يوزعها على أهل البلاد، وما قدم أهل جازان من حفاوة وتقدير وإكرام لضيفهم[١٠].

ب ـ محمد زارع عقيل :

ولد الأستاذ محمد في مدينة جازان عام (١٣٣٠هـ/١٩٨١م)، ودرس بعض العلوم الشرعية عند بعض المشائخ في منطقة جازان ،وعمل في بعض المؤسسات الإدارية، وكان آخرها إمارة جازان . كتب عنه محمد العقيلي، وأشار إلى أنه رائد

---

(٥) من مؤلفاته: اللامع اليماني في تاريخ المخلاف السليماني، والمرشد والبيان المفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وديوان رسائل وقصائد شعرية في كثير من المناسبات خلال القرن (١٤هـ/٢٠م)، ورحلة الأسفار في من لقيت من الأنظار . للمزيد انظر: أحمد محمد الشعفي المعافا. فرجة النظر في تراجم رجال من بعد القرن (١٣هـ) بمنطقة جازان .(جدة : مطابع مؤسسة المدينة، للصحافة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ج١، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩، أنظر أيضاً، ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص ١٢٣ . حاشية (٣) .

(٦) المراجع نفسها .

(٧) انظر مجلة المنهل . مج (١٧)، ج(٩)، السنة (٢٠) (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص ٦٠٩-٦١٢.

(٨) المصدر نفسه .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) المصدر نفسه .

القصـة في الجنوب [١]. وله العديد من القصص المنشـورة في مجلة المنهل[٢]. وله مقالات أخرى في فنون مختلفة ومعظمها نشرت في مجلة المنهل [٣]. وقد اطلعنا على دراسـتين عن أجزاء من منطقة جازان، ونشـرهما في المنهل في سـبعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م)، وهي: (١) **ساعة في ربوع عسير**، في ثلاث صـفحات علق فيها على كتـاب محمد عمر رفيع، **في ربوع عسـير**، وركز في تعليقاته على العديد من الجوانب الاجتماعية والاقتصـادية التي أشار إليها ابن رفيع عن المنطقة الجازانية، فصحح ما وقع فيه من أخطاء، وأحياناً وضح بعض المصطلحات التي ذكرها محمد رفيع[٤]. (٢) **جبـل القهـر في التاريخ**[٥].، في خمس صـفحات، أوجز فيها الكاتب تاريخ جبل القهر وسـاكنه من قبيلة الريث منـذ بداية القرن (١٣هـ/١٩م) إلى عصـر كاتب هذه السـطور في منتصف العقد السابع من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وأورد تفصيلات قيمة عن الصراع الذي جرى بين رجال الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود وقبائل الريث عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) [٦].

ومن المقالتين السـابقتين اتضح لنا أن محمد بن زارع أحد مؤرخي بلاد جازان خلال النصـف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وكان يجمع في مدوناته بين النقل والتوثيـق مـن كتب التراث الإسـلامي المبكر والوسـيط وبين الخبرة والمشـاهدات والتجول في ربوع منطقته[٧].

ج ـ السيد إبراهيم سالم العمار العريشي[٨].

تم العثور على خمس صـفحات لهذا الكاتب، منشـورة في مجلة المنهل، بعنوان: **مدينـة ابـي عريش في الماضـي والحاضـر**[٩]. وجميع مـادة هذه المقالـة قامت على

(١) انظر العقيلي، التاريخ الأدبي، ج٢، ص ١٣٧٢.

(٢) المرجع نفسه، انظر أيضاً: الشعفي المعافا، فرجة النظر، ج٢، ص ٢٧٢.

(٣) مجلة المنهل، ج (٤) السنة (١٥) (ربيع الآخر /١٣٧٤هـ/١٩٥٤م)، ص ١٧١-١٧٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه. مج (١٦)، ج (٦) السنة (٢٠) (جمادى الآخرة / ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص ٣١٠-٣١٤.

(٦) المصـدر نفسـه، وللمزيد عن حروب جبل القهر أو قبائل الريث انظر، مذكرات تركي الماضي، ص٣٩١ وما بعدها، العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، الجزء الثاني ص ١١٦٢.

(٧) له العديد من القصـص الأدبية، والمقالات العلمية التاريخية والحضـارية حبذا أن يتم جمعها ودراستها، بالإضافة إلى دراسة تاريخ وحياة هذا الكاتب. انظر، الشعفي المعافا، فرجة النظر، ج٢، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٨) لم أعثر على ترجمة لهذا الكاتب، ولكن من المؤكد أنه من مدينة أبو عريش في منطقة جازان.

(٩) انظر:مجلة المنهل، مج (٢١) ج٦(جمادى الآخرة /١٣٨٠-ديسمبر/١٩٦٠م)، ص٤٠٨-٤١٢.

التجربة والمشاهدات الميدانية، وهي: عبارة عن خلاصات لتاريخ مدينة أبو عريش الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي والتعليمي خلال سبعينيات وبداية ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) [١]. وإذا كانت هذه المعلومات مختصرة، إلا أنها ذات فائدة من حيث التركيز، وصدورها من كاتب معاصر لما تم روايته وتسجيله[٢].

د. محمد بن أحمد العقيلي: [٣].

الأستاذ المؤرخ، والأديب، والشاعر، والرحالة محمد العقيلي، من مواليد مدينة صبيا عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) [٤]، تعلم في بداية حياته على ومشايخ صبيا وجازان، ثم اتجه إلى دراسة تاريخ وأدب وحضارة منطقة جازان، ونشر عنها عشرات الكتب والدراسات، ومن المؤلفات التي ألف وطبع ونشر عن بلاد جازان. (١) **تاريخ المخلاف السليماني**، جزءان. (٢) **الشاعر الجازاني (ابن هتيمل)**. (٣) **الشاعر الجازاني (ابن شاجر)**. (٤) **التصوف في تهامة**. (٥) **الأدب الشعبي في الجنوب**، جزءان. (٦) **المعجم الجغرافي عن منطقة جازان**. (٧) **الآثار التاريخية في منطقة جازان**. (٨) **من أدب جنوب الجزيرة العربية**، جزءان. (٩) **التاريخ الأدبي لمنطقة جازان**، ثلاثة أجزاء. (١٠) **معجم اللهجات المحلية**. (١١) **المعجم النباتي**. (١٢) **أضواء على أدب وأدباء جازان**، جزءان. (١٣) **العقيق اليماني**، لعبد الله النعمان (دراسة وتحقيق). وله بحوث وكتب ودراسات أخرى عن جنوبي البلاد السعودية، وعن أجزاء عديدة في الجزيرة العربية[٥]. ومن خلال هذه الترجمة الموجزة، وأيضاً اطلاعنا وقراءتنا لمعظم مؤلفاته خرجنا بالعديد من الانطباعات عن هذا العالم القدير، وهي على النحو التالي:

١. الشيخ العقيلي نذر جل حياته لخدمة أهله وذويه في منطقته (جازان)، فدرسها من شتى الجوانب (تاريخياً، وأدبياً وثقافياً وفكرياً، وجغرافياً وعلمياً) ومن ثم فقد أسدى للجازانيين ما لم يقدمه غيره من المؤلفات والدراسات القيمة. ومن خلال الاطلاع على بعض وثائقه والرسائل المرسلة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر، الشعفي المعافا، فرجة النظر، ج٢، ص ١٥٣-١٦١.

(٤) طال عمر الأستاذ العقيلي حتى العقد الثاني من القرن (١٥هـ/٢٠-٢١م).

(٥) للمزيد عن ترجمة وحياة هذا العالم الجازاني، انظر مؤلفاته، وانظر أيضاً كتاب: العقيلي في رسائل معاصريه (جازان: مطابع جازان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ٦٣٣ صفحة، وللمزيد انظر، تفصيلات أكثر عنه في الجرائد والمجلات وبعض الدوريات الجامعية السعودية.

إليه على مدار خمسة عقود، نجد كثيراً من أصحاب تلك الرسائل يتفقون معنا في الإبداع والريادة التي اتصف بها هذا العالم التهامي الجازاني[١].

٢. من خلال التأمل في مؤلفاته المتنوعة ،وجدناه اعتمد على العديد من المناهج العلمية مثل: الطرق الوصفية، والنقدية ،والتحليلية، والمقارنة . كما كان بارعاً في البحث في كتب التراث الإسلامي وجمع مادته من كل مصدرٍ يدعم ويبني بحثه، ولا يتردد أحياناً في ذكر وجهة نظره، سلباً أو إيجاباً، على ما قرأ ونقل. والملاحظ على كثير من مؤلفاته أنها اعتمدت على الرحلة والتنقل في أرجاء منطقة جازان . والفاحص لمؤلفاته المعجمية مثل: **المعجم الجغرافي، ومعجم اللهجات، والمعجم النباتي، والأدب الشعبي في الجنوب** يجد أن جل مادة هذه الكتب قامت على الرحلة والتجوال، والرواية الشفاهية، والمشاهدات. وبهذه العزيمة القوية، والجد والاجتهاد والصبر والرغبة استطاع هذا المؤرخ والأديب والرحالة أن يحفظ لنا الشيء الكثير من تاريخ وحضارة المنطقة الجازانية[٢].

٣. لست الوحيد الذي أطلق على العقيلي اسم : **أديب الجنوب**، أو **أديب جازان**، أو **مؤرخ جازان**، وإنما هناك عشرات الأشخاص الذين سبقوني في تلقيبه بهذه الألقاب. وأضيف إلى تلك النعوت بأنه (شيخ الرحالين) في منطقة جازان، لأن الرحلة في معرفة بلاده كانت من أهم الركائز الرئيسة في بحوثه ودراساته[٣].

٤. هناك العديد من الكتاب والأدباء والمؤرخين المشاهير أنصفوا الأستاذ العقيلي وما قدم لأهله وبلاده[٤]. ولكن الجازانيين الأكاديميين، وأحياناً غير

---

(١) انظر، كتاب : العقيلي في رسائل معاصريه، ص ٩ وما بعدها .

(٢) للمزيد انظر مؤلفاته المتنوعة في أبوابها وأطروحاتها .

(٣) المصدر نفسه . هناك العديد من الرحالة الذين زاروا جازان وتكلموا عنها، البعض منهم ذكرناهم في هذا القسم، ولازال بعضهم يحتاج إلى بحث ودراسة . ولكن الأستاذ العقيلي يعد الشيخ والرائد العصر الحديث والمعاصر في هذا الباب .

(٤) انظر، الشعفي المعافا، فرجة النظر، ج٢، ص ١٥٣ وما بعدها . ويقول عنه الشيخ الجاسر: "ما قرأت بحثاً أو كتاباً لأخي الأستاذ العقيلي إلا وذكرت علامة العرب الهمداني صاحب المؤلفات في كل جانب من جوانب المعرفة . وأعجب ما يتصف به الهمداني من صبر وجلد ودأب في مواصلة الدراسة والتأليف في موضوعات نـدر من تصدى لها من أهل زمنه، فأجد العقيلي سائراً على نهج ذلك العالم يؤلف مختلف التآليف عن النبات والتصوف واللهجات وغيرها، بالإضافة إلى مؤلفاته في التاريخ والجغرافيا والأدب والشعر" انظر الشعفي المعافا، ج٢، ص ١٥٥ .

أكاديميين تجدهم يسعون إلى التقليل من شأنه وإنجازاته، وأحياناً تصل بالبعض منهم إلى القول : إنه ليس أكاديمياً، أو أن دراساته هزيلة وغير موثقة، أو أنه خلط وتعمد الخطأ في كثير من رواياته ومدوناته، أو أن دراساته لا يعتد بها، أو من هذه الأقوال البعيدة عن الإنصاف . وعند القراءة في العديد من مؤلفاته الرائدة وجدت من يقول بمثل هذه الأطروحات قد ظلم نفسه، ولم يرد بأقواله وجه الله وقول الحق، ونقول لمثل هؤلاء اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً أو اصمتوا، والصمت خير[١] .

٥. إن أهل جازان ممثلين في الإمارة، والجامعة، والنادي الأدبي، والمؤسسات المدنية والتعليمية، وعموم الأكاديميين الجازانيين في العلوم النظرية والإنسانية عليهم جميعاً مسؤولية تجاه هذا العالم التهامي، فتقام ندوة علمية كبرى يقدم فيها ما خلف وما قدم لأهله وبلاده، ويجب على جامعة جازان أن تطلق اسمه على إحدى قاعاتها العلمية. كما أن أقسام التاريخ، والأدب، والتراث عليها هي الأخرى مسؤولية تجاه نتاجه العلمي فتعقد له اللقاءات العلمية، وتوجه بعض طلابها في برامج الدراسات العليا لدراسة مؤلفاته وفكره وثقافته، وهذا في اعتقادي واجب على كل جازاني قادر على الدراسة والبحث والتدوين[٢] .

ثالثاً : وقفة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم :

من خلال دراسة هؤلاء المؤرخين والرحالين السابقين وما ذكروه عن تاريخ وحضارة منطقة جازان، خرجنا بالعديد من الصور التي نناقشها في النقاط التالية :

(١) الشيخ العقيلي لا أعرفه ولم أقابله قط، ولكن صار بيني وبينه مراسلات، وتبادل بعض الكتب الهدايا . وما أشرت إليه في المتن لم يكن فقط قولاً عابراً، أو رأياً من أناس غير متعلمين، وإنما هذه آراء وأقوال أسمعها منذ ربع قرن، بل تجادلت مع العديد من الزملاء الأكاديميين في بعض الجامعات السعودية، ووجدت بعضهم متمسكين بآرائهم التي لا تستند على منهج علمي أكاديمي رصين وشفاف . وأرجو أن نرى في قادم الأيام من يدرس مؤلفات العقيلي وينصفه بدراسة ماله وما عليه . وهذا نداء لكل الباحثين الجادين النزيهين الحياديين .

(٢) كثير من أرباب العلم والثقافة والبحث العلمي لم يعرفوا منطقة جازان تاريخياً وحضارياً وبخاصة في العصر الحديث إلا من خلال بحوث وكتب ومؤلفات محمد أحمد العقيلي . وهذه منقبة كافية وواجب على أكاديمي ومثقفي جازان فيردوا له الجميل بالذكر الحسن ودراسة أعماله العلمية والأدبية .

١ ـ تنوع ثقافاتهم :

المتأمل في مشارب هؤلاء الرحالين الثقافية والعلمية يجدها مختلفة من واحد إلى آخر . فالرحالون الأوائل : الهمداني، وعمارة اليمني، وابن المجاور، وابن بطوطة عاشوا في قرون مختلفة وفي مناطق متنوعة، مثل الهمداني وعمارة في بلاد اليمن، فالأول في المرتفعات الجبلية، والثاني في السهول التهامية، ثم تنقلوا في مواطن عديدة داخل الجزيرة العربية وخارجها . أما ابن بطوطة وابن المجاور فقد وصلوا إلى بلاد جازان قادمين من خارج الجزيرة العربية، فالأول مغربي الأصل، والثاني مشرقي في أصح الأقوال .

كذلك الرحالون الذين ظهروا في العصر الحديث من بدول وكورنواليس إلى محمد أحمد العقيلي، جاءوا من بيئات متنوعة في ثقافتها وفكرها ولغتها فالبعض منهم ذو لسان أعجمي وثقافة غربية مثل: كورنواليس وبدول وفلبي، وتويتشل وشيجر، وبعضهم تعلم اللغة العربية وأجادها مثل: فلبي الذي كان بارعاً في القراءة والكتابة بالعربية . أيضاً محمد رفيع، وتركي الماضي وعاتق البلادي والعمودي والعقيلي وغيرهم جاءوا من بيئات مختلفة داخل الجزيرة العربية . والاختلاف في المواطن يظهر لنا التنوع في اللغات واللهجات، وفي جوانب اجتماعية عديدة مثل: اللباس، والطعام، والعادات والأعراف والتقاليد . كذلك العيش في ظروف اقتصادية وثقافية متنوعة تشكل أناساً مختلفين في الأوضاع المعيشية، وفي الفكر والثقافة . فالذي عاش في جازان مثل: العمودي، ومحمد زارع عقيل، والعقيلي يختلفون عن الذين جابوا أقطار الكرة الأرضية أو بعض بلدان العالم مثل: ابن بطوطة، وابن المجاور، وفلبي، وتويتشل ،والريحاني، وثسيجر وغيرهم .

والناظر في النتاج العلمي الذي خلفه لنا هؤلاء الرحالون يجده متنوعاً في الكم والكيف . فالهمداني وابنِ المجاور وابن بطوطة وعمارة لم يكونوا مقصورين على علم معين وإنما كانوا – غالبا – يجيدون العديد من المعارف الشرعية واللغوية إلى جانب علوم التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع . كذلك الرحالون المحدثون كانوا متفاوتين في ثقافاتهم ومعارفهم، فالبعض منهم موسوعي المعارف مثل: فلبي والريحاني والعقيلي، وآخرون يجيدون بعض العلوم أكثر من غيرها مثل: كورنواليس، وبدول، وتويتشل، وثسيجر، ومحمد عمر رفيع فقد كان كل واحد من هؤلاء يجيد علماً محدداً مثل: كورنواليس في باب الدبلوماسية والسياسة والاستخبارات، وتويتشل

في ميدان التنقيب عن المياه والنفط، وشيجر في دراسة الحياة الفطرية والطبيعية والحيوانية، وابن رفيع في التعليم والتدريس .

أيضاً اختلفت أهداف كل منهم في باب السفر والترحال، فالبعض مثل: ابن بطوطة كان هاوياً للرحلة والتجوال، وربما الهدف نفسه كان عند الهمداني وابن المجاور وعاتق البلادي . وهناك من قدم إلى جزيرة العرب، وإلى جازان تحديداً لإنجاز بعض الأهداف السياسية أو الثقافية والتعليمية مثل: كورنواليس، وفلبي، والريحاني وتويتشل، وشيجر، ومحمد رفيع، وتركي الماضي . كما أن هناك رحالين آخرين قدموا إلى جنوبي الجزيرة العربية وبخاصة منطقة جازان معتمدين على نفقاتهم الخاصة في إنجاز رحلاتهم مثل: الهمداني، وابن بطوطة، وعاتق البلادي، وبعض مؤرخي ورحالي جازان. في حين أن هناك فريق آخر كانوا مدعومين أمنياً ومالياً وسياسياً، أمثال: فلبي، وتويتشل، وكورنواليس، وشيجر، وتركي الماضي .

ومن خلال هذا التنوع في الوسائل والأهداف . اتفق جميع هؤلاء الرحالة على تدوين انطباعاتهم ومشاهداتهم عن منطقة جازان، مع تفاوت في كم المعلومات المجموعة أو الأجزاء والنواحي التي تم زيارتها . ومن ثم خرجت لنا الكثير من التفصيلات التي صورت تاريخ وحضارة بلاد جازان منذ القرن(٤ـ١٥هـ/ ٢٠ـ٢١م[١] . وما جمع في هذا الباب يعد في الحقيقة ذا قيمة علمية في تاريخ منطقة جازان، بل هو لبنة رئيسة في سبيل تقديم دراسات وبحوث أكاديمية عميقة في المحتوى والمضمون[٢] .

٢ـ المصادر والمنهج المستخدم من الرحالين في جمع وتدوين مدوناتهم :

جميع هؤلاء الرحالين المذكورين في هذا القسم اعتمدوا في جمع مادتهم على الترحال والمشاهدات والانطباعات[٣] ، ومن ثم استطاعوا أن يجمعوا لنا حصيلة علمية

---

(١) القرون من (٩ـ١٣هـ/ ١٥ـ١٩م) لم تحظ باهتمام في هذه الدراسة لعدم وجود رحالين ظهروا في تلك الفترة . ونأمل أن نرى في المستقبل من يدرس هذه القرون ويطلعنا على رحالين وصلوا منطقة جازان في تلك القرون الغابرة .

(٢) نأمل أن نرى بحوثاً ورسائل علمية أكثر دقة ورصانة عن منطقة جازان، وتكون مدونات الجغرافيين والرحالين من المصادر الرئيسة لخدمة مثل هذه الدراسات الأكاديمية .

(٣) ما عدا روبن بدول الذي جمع مادته العلمية من السجلات والتقارير البريطانية التي تحدثت عن جنوبي الجزيرة العربية وبخاصة عسير وجازان وما جاورها .

تاريخية قيمة، يصعب في كثير من الأوقات العثور عليها في أي مكان آخر. ونلحظ أن بعضهم لا يتوقفون عند تدوين مشاهداتهم فقط، وإنما يسعون إلى الالتقاء ببعض الرواة أو أعيان أو وجهاء المنطقة فيسألونهم عما يصعب عليهم معرفته أو تفسيره. والصفة السائدة على جميع الرحالين المذكورين أنهم دونوا ما رغبوا في تدوينه من خلال ما رأوه أو سمعوه أو أحياناً سألوا عنه. وهناك فعلاً الكثير من المعلومات في بعض المدونات مثل: إحصائيات السكان، أو أسماء القرى والأودية والجبال، أو بعض الأعراف والتقاليد، أو بعض الجوانب الاقتصادية المتنوعة لم يعرفوها إلا بالمشاهدة ثم السؤال عن بعض تفاصيلها. وحجم المادة المدونة عند كل رحالة تختلف من واحد لآخر، فمنهم من كان موجزاً ضنيناً في مدوناته، وآخرون لهم شروحات متوسطة أو مطولة في جوانب تاريخية حضارية متنوعة في محاورها وأبوابها[١].

٣- دراسة ومقارنة وتحليل لمدونات الرحالة:

١. من خلال استعراض مدونات هؤلاء السبعة عشر مؤرخاً ورحالاً اتضح لنا أن هناك بعض الموسوعين في معلوماتهم، وأهم من اتصف بهذه الصفة هما: فلبي والعقيلي فقد حفظا لنا عن منطقة جازان من التاريخ والحضارة ما لم يحفظه لنا غيرهما. فأما فلبي فهو ذلك العالم البحاثة الرحالة الذي يجيد فن الرصد والتدوين والتحليل، حفظ لنا في كتابه الموسوعي: **مرتفعات الجزيرة العربية** أكثر من (٤٠٠) صفحة تحدث فيها عن جغرافية جازان الجبلية والسهلية والساحلية، كما ناقش قضايا عديدة عن الأحوال السياسية والإدارية في المنطقة، ولم ينس إيراد بعض التفصيلات عن النقاط الحدودية بين بلاد اليمن والسعودية في منطقة جازان. وحفل كتابه بالكثير من المعلومات الجديدة والقيمة في جوانب اجتماعية عديدة مثل: الطعام والشراب، اللباس والزينة، والبناء والعمارة، والكثير من الأعراف والعادات

(١) من يستقرئ ما تم ذكره في هذا القسم يجد التفاوت واضحاً فهناك الذي دون عشرات وأحياناً مئات الصفحات في تاريخ وحضارة جازان خلال عصر صاحب المدونة. وهناك من اقتصر على الحديث عن مكان محدود أو في جزئية تاريخية أو حضارية محددة. وفي اعتقادنا أن جميع مدونات رحالي القرن (١٤هـ/٢٠م) جديرين بجمع كل ما كتبوا عن منطقة جازان ثم دراسته دراسة علمية أكاديمية. ومثل هذا الموضوع يستحق أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراة، ونأمل من أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أن يكون مثل هذا الموضوع عنواناً لأطروحته العلمية، وهو موضوع جدير بالبحث والدراسة.

والتقاليد الجازانية . كذلك الجانب الاقتصادي من زراعة وتجارة وحرف وصناعات تقليدية نالها الكثير من الاهتمام عند هذا الرحالة البارع، كما أورد صوراً من الحياة الثقافية والتعليمية والفكرية . والذي حفظه لنا فلبي من مدونات جديرة بالتقدير والاحترام والاستفادة، وهو في رأينا مبدع رائد في كل ما دون لنا ووصلنا عن بلاد جازان[١] .

أما العقيلي، ابن جازان وشيخها وعالمها فهو الآخر عالم موسوعي، فلم يترك مجالاً من مجالات التاريخ والتراث والفكر عن جازان إلا وكتب فيه. وإذا كان فلبي اعتمد في جمع مادته على الرحلة والتجوال والمشاهدة والسؤال، فكذلك الشيخ العقيلي فعل نفس المنهج لعقود من الزمن بخلاف فلبي الذي قضى في عموم منطقة جازان بضعة أسابيع . والعقيلي لم يكن مؤرخاً أو شاعراً أديباً فحسب، ولكنه كان جوالاً رحالة في منطقة (جازان) بامتياز . والفاحص لمدوناته وكتبه التي خلفها لنا يجد كثيراً منها اعتمد على التجوال والسؤال، ومن ثم وصلنا الكثير من موروث المنطقة عن طريق هذا الابن البار لأهله وذويه، جازان وأهلها[٢] .

ونستطيع القول أن مكان العقيلي على رأس قائمة المؤلفين والرحالين الذين كتبوا عن جازان، بل هو من وجهة نظرنا الأول، فليس له نظير، ولا يوجد مجال من مجالات التاريخ والحضارة والفكر والتراث عن منطقة جازان إلا وكتب عنه، فلله درك من عالم جازاني موسوعي[٣] .

٢. تتقاصر الهمم بعد العقيلي ثم فلبي، فالرحالة الآخرون أشاروا إلى الجانب الجغرافي لمنطقة جازان، مثل: الهمداني، وابن المجاور، وابن بطوطة، فذكر الأول بعض معالم محدودة في جازان، أما الثاني فنوه إلى جزيرة فرسان ،وابن بطوطة ذكر الشرجة (الموسم) بإيجاز شديد. أما كورنواليس فقد ذكر بعض المعلومات عن تضاريس ومناخ عسير وجازان، ثم جاء محمد رفيع والبلادي

---

(١) انظر فلبي، مرتفعات، ج٢، ص ٨١٩ـ ١٢١٥ .

(٢) للعقيلي عشرات الكتب والدراسات عن منطقة جازان انظر أسماء بعضها في صفحات سابقة من هذا القسم، وانظر قائمة بأسماء مؤلفاته مدونة في الصفحات الأخيرة من كتبه نفسها .

(٣) المصدر نفسه .

فتكلما بشـيء من التفصـيل عن قرى وجغرافية السهول الجازانية من الشقيق والـدرب إلى مدينة جازان وما جاورها، واكتفى الريحاني وتويتشـل بإشـارات جغرافيـة عن مدينة جـازان، وشـيجر وتركي الماضـي أوردا لنـا معلومات لا بأس بها عـن مناطق الجبال في فيفـا والريث وما حولهما . كذلـك ابن زارع، والعمودي، والعريشي . فذكر الأول معلومات قيمة عن جبل القهر، أما العمودي فأوجز الحديث عن بعض حواضـر المنطقة، وكذلك العريشـي أوجز هو الآخر عـن مدينة أبـو عريش . ولـذا فالجانب الجغـرافي عند جميع هـؤلاء الرحالة السابق ذكرهم لم ينل حقه من البحث والتدوين[١] .

٣. نجد بعض هؤلاء الرحالة دونوا تفصيلات عن القبائل والتركيبة السكانية في منطقة جازان . وبدول وكورنواليس على رأس القائمة في هذا الباب، وقد سلك مسلكهما إلى حد ما كل من تركي الماضـي وعاتق البلادي ومحمد رفيـع فذكروا العديد من القرى أو العشـائر في السـهول والسـاحل وأحيانا في المرتفعات، بل بعضهم ذكر إحصائيات تقريبية لسكان بعض القبائل والبلدان الجازانية، ولكن تلك الإحصائيات غير دقيقة لأن مادتها جمعت بطريقة عشـوائية، وفي أغلب الاحتمالات من أفراد غير دقيقين في أقوالهم ورواياتهم التي قدموها لأولئك الرحالين [٢] .

٤. لم تخل مدونات بعض هؤلاء الرحالين من معلومات حربية وسياسية وإدارية وأمنيـة . وأولهـم عمـارة اليمني الـذي أشـار إلى بعض الشـذرات الحربية والسياسـية في بـلاد بيش وصـبيا ومـا حولهما، ثـم تـلاه كورنواليس وأمين الريحاني وتركي الماضي فأوردوا معلومات لا بأس بها عن الأوضاع السياسية والحربيـة والإدارية في المنطقة أثناء إمارة الإدريسـي، وفي عهد الملكين عبد العزيـز وابنه سـعود آل سـعود . ومن يقارن ما عاصـروه ودونـوه وما ورد في كثير من وثائق القرن (١٤هـ/٢٠م) يجد نسبة المصداقية في رواياتهم كبيرة ودقيقة، بل نجدهم ذكروا تفاصـيل عسكرية وسياسية يصعب أن نجدها في

(١) الجانب الجغرافي مطروق في كثير من البحوث والدراسـات التاريخية والجغرافية، ولهذا فلم يكن محورياً عنـد هـؤلاء الرحالة، مع أن الأزمنة التي زاروا فيها جـازان متفاوتة، وربما كان هناك الكثير من التغيرات الجغرافية والبشرية والطبيعية .

(٢) هناك أرقام إحصائية كثيرة عند هؤلاء الرحالين، وفي أوقات متفاوتة . وعند دراستها ومقارنتها مع بعضها البعض ومع مصادر ووثائق أخرى ظهر لنا أنها غير دقيقة، ولا تحاكي الواقع لمنطقة جازان أثناء زيارتهم لها .

أي مصدر آخر[١]. كما أن هذه المصادر احتوت على لمحات من التاريخ الإداري لجازان مثل: ذكر أسماء بعض موظفي إمارة الإدريسي، أو الحكومة السعودية، ويوجد أيضاً بعض الإشارات لإنجازات وأسماء بعض الأعيان والوجهاء والتجار وشيوخ القبائل الذين لهم رأي وثقل تاريخي وحضاري في بلادهم[٢].

٥. إذا نظرنا إلى الجانب الاجتماعي والثقافي والتعليمي في مدونات هؤلاء الرحالين، وجدناه قد حظي بنصيب لا بأس به . ففي كتب المبكرين منهم، مثل : (الهمداني، وعمارة اليمني، وابن المجاور، وابن بطوطة) لا تخلو من بعض الإشارات المفيدة في التاريخ الاجتماعي . أما الكتب المتأخرة من القرن (١٣-١٥هـ / ١٩-٢١م) فيوجد بها نسب متفاوتة رصدت بعض الجوانب الاجتماعية مثل: أنماط العمران، وتركيبة المنطقة اجتماعياً، كوصف القرى، وبعض أحيائها، وطبقات السكان فيها . كما أن هذه المدونات لا تخل من شذرات عن الطعام والشراب، واللباس والزينة، وبعض الأعراف والعادات والتقاليد. وكورنواليس، وبدول، ومحمد عمر رفيع، وثسيجر، وتركي الماضي، والبلادي، والعريشي هم أفضل من حفظ لنا تفصيلات تاريخية في هذا الجانب[٣]. ونجد البلادي و العريشي يذكران أحياناً معلومات جيدة في ميدان التربية والتعليم في بعض نواحي المنطقة[٤].

---

(١) إن دراسة تاريخ وحضارة منطقة جازان في القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) جديرة بالبحث والدراسة والاهتمام، وبخاصة أن هناك الكثير من الوثائق غير المنشورة التي تستحق الجمع والدراسة والتحليل . ونأمل أن نرى من أبناء هذه المنطقة الغالية على قلوبنا من يقوم بدراستها دراسة علمية أكاديمية، وتكون وثائق تلك الفترة هي المصادر الرئيسة للبحث والتأليف .

(٢) موضوع التاريخ الإداري في منطقة جازان خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) جدير بالاهتمام والبحث والدراسة . ونأمل أن نراه مدروساً في كتاب علمي أو رسالة علمية في إحدى أقسام التاريخ بجامعاتنا السعودية . وهناك مئات الوثائق غير المنشورة في هذا الباب جدير بالبحث والتحليل والدراسة .

(٣) هؤلاء جميعاً يأتون بعد فلبي والعقيلي فقد كانا رائدين في ذكر الشيء الكثير عن التاريخ الاجتماعي الجازاني في القرن (١٤هـ/٢٠م) . وهذا الموضوع جدير بالاهتمام والدراسة، لما يوجد عنه من التفصيلات في الكتب والمدونات المنشورة، وفي الوثائق غير المنشورة . وأرجو أن نتمكن في قادم الأيام (بإذنه تعالى) فنخرج دراسة علمية موسعة في هذا الباب .

(٤) تاريخ التربية والتعليم في منطقة جازان خلال القرنين (١٣-١٤هـ /١٩-٢٠م) جدير بالبحث والدراسة. ونرجو من زملائنا وإخواننا في أقسام التاريخ والتربية بجامعة جازان أن يلتفتوا إلى مثل هذا الموضوع المهم بحثياً وعلمياً، فهو جدير أن يخصص له أكثر من كتاب ودراسة .

٦. وميدان الحياة الاقتصادية الجازانية خصب للبحث والدراسة لما تتمتع به هذه البلاد من مؤهلات طبيعية وبشرية تجعلها في الصدارة . وهؤلاء الرحالون وبخاصة المحدثين من كورنواليس حتى محمد زارع عقيل والعريشي نجدهم تعرضوا لجوانب اقتصادية مثل: الصيد، والرعي، والزراعة، والتجارة، والحرف والصناعات التقليدية. وجميعهم متفاوتون فيما جمعوا لنا في هذا الباب. لكن كورنواليس، ومحمد رفيع، وتركي الماضي، وعاتق البلادي أشاروا إلى جوانب عديدة في التاريخ الاقتصادي . والزراعة كانت من أفضل المحاور التي درست وبخاصة المنتجات الزراعية، وما امتازت به جازان من نباتات وأشجار وزروع . كما تعرض بعضهم مثل: البلادي إلى العديد من المهن والصناعات والحرف التي شاهدها في بلاد جازان من القحمة إلى مدينة جازان . ولم يكن محمد رفيع بعيداً عن البلادي في إشاراته إلى الزراعة والصناعات في النواحي الممتدة من الدرب إلى مدن جازان وأحد المسارحة وأبو عريش وما حولها .

أما تجارات جازان فهي جانب مهم، وقد أشار إليها كورنواليس بشكل لابأس به من حيث الصادرات والواردات، والرسوم التي تجبى على بعض التجارات، ووسائل النقل التجارية، والطرق التي تربط بين مدن جازان ومرتفعات عسير . ثم جاء بعده محمد رفيع وشسيجر وتركي الماضي والبلادي فذكروا معلومات متناثرة عن بعض النشاطات التجارية في نواح عديدة من جازان. أما الريحاني وتويتشل فلم يخرجا عن مدينة جازان، وذكر معلومات لا بأس بها عن التجارة والتجارات في هذه المدينة الرئيسة[١] .

٧. من المؤسف حقاً أن جميع هؤلاء الرحالة لم يتعرضوا لدراسة الآثار، والتراث الشعبي الجازاني، ومن ثم فلم يكن له نصيب يذكر عندهم . مع

---

(١) الحياة الاقتصادية في جازان بشكل عام، والتجارة بشكل خاص كانت تواجه العديد من المعوقات مثل: صعوبة التضاريس، وانفلات الأمن وخاصة في العقود الستة أو السبعة الأولى من القرن (١٤هـ/٢٠م) . ووقوع العديد من الأمراض والمجاعات وأحياناً الجفاف، والحروب والصراعات وغيرها. وجميع هذه المشاكل أثرت على ممارسة المهن الاقتصادية والتجارية . ودراسة التاريخ الاقتصادي والمالي في منطقة جازان خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع حيوي ويستحق أن يصدر عنه العديد من الكتب والبحوث العلمية . ونأمل من الله عز وجل أن يسهل أمورنا حتى نتمكن من إخراج دراسة موسعة في هذا الباب . فهناك مئات الوثائق الجديدة وغير المنشورة وجميعها تصب في دراسة تلك الحقبة اقتصادياً ومالياً .

كثرة الآثار المنتشرة في منطقة جازان، ووجود الموروث الشعبي بغزارة كما هو في جميع أنحاء العالم [١].

رابعاً : آراء ووجهات نظر:

والخلاصة : أن هؤلاء الرحالين جاءوا إلى منطقة جازان تحت دوافع اجتماعية أو سياسية واقتصادية أو علمية مختلفة . فالهمداني وعمارة اليمني وابن بطوطة وربما ابن المجاور جاءوا إلى هذه الديار أو كتبوا عنها من باب الرحلة والتجوال وخدمة الثقافة والعلم . أما رحالة العصر الحديث فقد تباينت أهدافهم، فهناك من درس هذه البلاد لهدف سياسي استخباراتي، وهناك من دون معلوماتها بدعم من قوى سياسية محلية مثل: تويتشل، وفلبي، وشيجر، وربما الريحاني فقد عاصروا إمارة الإدريسي، أو حكومة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ومن ثم نالوا الدعم والرعاية من تلك الحكومات ودونوا لنا ما أطلعنا عليه في كتبهم . ونجد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (يرحمه الله) قد احتضن كل من تويتشل، وفلبي، وشيجر، وسهل لهم جميع وسائل الرحلة والتجوال في بلاده، وبالتالي جاؤوا إلى جازان وجمعوا تفصيلات تاريخية وحضارية يصعب أن نجدها عند غيرهم .

وهناك من كان موظفاً حكومياً سعودياً، مثل: تركي الماضي، ولكن عمله الإداري والسياسي خلال فترة تواجده في جنوبي البلاد السعودية لم يمنعه من تدوين مشاهداته التي عرفها وشارك فيها أثناء إمارة الإدريسي، أو أثناء قمع ثورة الريث عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) . والبعض من هؤلاء الرحالة كان هاوياً لخدمة العلم أمثال: محمد رفيع، وعاتق البلادي، والعقيلي، والعمودي، ومحمد زارع، والعريشي فقد دونوا ما وصلنا منهم بدافع الرغبة والهواية لخدمة الثقافة. ومن ثم اجتمع لدينا لفيف من الأخبار والروايات القيمة عن الديار الجازانية، وقد تفتح آفاقاً أوسع لإصدار دراسات علمية أكاديمية مطولة. ولنا بعض الرؤى والتوصيات، وهي على النحو التالي :

---

(١) نأمل أن نرى دراسات علمية أكاديمية عن الآثار والفنون الشعبية الجازانية . وإذا كان العقيلي (رحمه الله) قد ذكر بعض الشيء عن هذين الجانبين فلا زالت هناك ميادين تستحق دراسات علمية أكاديمية رصينة. ونأمل من كلية السياحة والآثار في جامعة الملك سعود، ومن أقسام الآثار وعلم الاجتماع في جامعاتنا السعودية أن تولي هذه الموضوعات اهتماماً كبيراً فهي جديرة بالبحث والدراسة.

١. مدونات الرحالين من المصادر التاريخية المهمة، والواجب الرجوع إليها والاستفادة منها وبخاصة من قبل الدارسين والباحثين في العلوم الإنسانية والنظرية مثل: التاريخ، والأدب، واللغة، والعلوم الاجتماعية والثقافية والفكرية وغيرها .

٢. ما تم عرضه من نماذج رحالين زاروا جازان خلال قرون عديدة من التاريخ الإسلامي، يؤكد على الثراء الحضاري لبلاد جازان . كما يوحي أنه لازال هناك تراث وتاريخ وحضارة غير معروفة عن هذه الأوطان التهامية الغنية بخيراتها ومواردها الطبيعية والبشرية . وهناك العديد من العناوين في ميادين الرحالة والرحالين الجديرة بالبحث والدراسة ونذكر نماذج منها في البنود التالية .

أ- جازان في عيون الرحالين القدماء، أو جازان كما وردت في مصادر الرحلات القديمة.

ب- جازان في مدونات الرحالين والجغرافيين المسلمين الأوائل منذ القرن (ق١-١٠هـ/ق٧-١٦م) .

ج- جازان والجازانيون في عيون الرحالين العرب والمسلمين في العصر الحديث (ق١١- ١٤هـ/ ق١٧-٢١م) .

د- بلاد جازان كما رآها الرحالون الغربيون منذ القرن (١٠-١٤هـ/ ق ١٦-٢٠م).

هـ- دراسة التاريخ الحضاري لمنطقة جازان من خلال كتب الرحلات في العصر الحديث والمعاصر.

و- جازان كما جاءت في كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية، لفلبي (دارسة تحليلية ونقدية ومقارنة) .

ز- منطقة جازان في عيون وأقوال موظفي الحكومة السعودية الحديثة (١٣٥٠-١٣٧٥هـ/١٩٣١-١٩٥٥م) (دراسة تاريخية حضارية) .

ح- جازان في روايات وأقوال وأشعار المعلمين النظاميين، المتعاقدين والوطنيين (١٣٥٥-١٣٩٠هـ/١٩٣٦-١٩٧٠م) .

٤- الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين*

* نُشر في كتاب :
القول المكتوب في تاريخ الجنوب
ط١ : ١٤٣٤هـ ، الرياض ، مطابع الحميضي ، ج٥ ،
ص ص ٢١ - ٩١

الباحـة (بلاد غامد وزهـران) في عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين:

أولاً : مدخل :

منطقة الباحة هي تلك الأوطان المأهولة بالسكان في وسط بلاد تهامة والسراة،الواقعة بين منطقتي مكة المكرمة في الشمال وعسير في الجنوب . وأهلها هم الغامديون والزهرانيون الأزديون الوارد ذكرهم في كثير من كتب التراث الإسلامي[(١)] . وعند مقارنة التاريخ المدون عن هذه البلاد مع ما تم تدوينه عن المناطق المجاورة مثل: مدن الحجاز الرئيسة، أو عسير ونجران وغيرها نجد أن الديار الزهرانية والغامدية من أقل البلدان المكتوب عنها[(٢)]، أو المذكورة في الكتب والمدونات المطبوعة والمنشورة . وربما كان توسطها في أرض السراة، وبعدها عن الطرق التجارية الرئيسة القديمة التي تربط الحجاز باليمن من الأسباب التي ساهمت في ضعف أو قلة التدوين عنها . والذاهب الآيب في قرى وجبال وأودية وحواضر منطقة الباحة يتضح له أن هذه البلاد ذات تاريخ عريق فهي مأهولة بالسكان، مليئة بالخيرات الزراعية والثروات الحيوانية . بل أهلها أصحاب كرم ونجدة وشجاعة وبسالة وشيم، ناهيك عن إحاطة العديد من القبائل الكبيرة والمراكز الحضارية الهامة . وكل هذه العوامل كفيلة بأن يكون لها تاريخ وحضارة،

---

(١) قبائل غامد وزهران لها ذكر حسن وجيد في كتب التراث الإسلامي منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر . ودراسة تاريخ وحضارة الديار الغامدية والزهرانية خلال القرون الإسلامية العشرة الأولى جدير بالبحث والاهتمام والدراسة . ونأمل من المؤرخين المتخصصين وبخاصة أهل غامد وزهران أن يولوا هذا الجانب كبير اهتمام في بحوثهم ودراساتهم العلمية والأكاديمية .

(٢) بلاد نجران : هي الأخرى لازالت فقيرة في مجال البحث والتدوين . ونأمل أن تقوم جامعة نجران بإنشاء بعض المراكز البحثية التي تتولى البحث والتمويل للدراسات التي تصب في خدمة المجتمع النجراني ثقافياً وتاريخياً وحضارياً .

ولكن للأسف ـ وكما أشرنا سابقاً ـ هذا التاريخ لم يحفظ عن هذه البلاد العربية الماجدة[١] .

وفي هذا القسم الموسوم بـ : الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين، سوف نطلع القارئ الكريم على شريحة من العلماء والكتاب الذين تعرضوا في مدوناتهم إلى صور من تاريخ وحضارة منطقة الباحة . وهذه الشريحة هي التي أطلقنا عليها مصطلح (الرحالين، أو الرحالة)، والكثير منهم يأتون في مصاف الجغرافيين والرحالين الجيدين. وعدد هؤلاء الرحالة الوارد ذكرهم في هذا الكتاب عشرون رحالاً، ولا ندعي أننا شملنا كل الرحالين الذين زاروا منطقة الباحة أو أشاروا إليها في كتبهم ومدوناتهم، ولهذا فقد ذكرنا كلمة (بعض) في عنوان هذا القسم، حتى نترك الباب مفتوحاً لمن أراد أن يستكمل ما لم نستطع الوصول إليه أو الاطلاع عليه . كما أننا أيضاً لا ندعي الكمال فيما أوردناه، ومن ثم ندعو كل من لديه علم، واطلع على قصور أو نقص وقعنا فيه أن يستكمل ويصحح إذا كان ذا فائدة علمية تضيف جديداً أو تصحح خطأً[٢] .

الرحالون الوارد ذكرهم في هذا القسم بدأوا بالمؤرخ والنسابه (لسان اليمن) الحسن بن أحمد الهمداني، وانتهوا ببعض الغامديين والحجازيين الذين تعرضوا لبلاد الباحة في مدوناتهم مثل: علي حافظ، ومسفر مرزح الغامدي[٣]. والناظر في فهرس الكتاب العام لهؤلاء الرحالة يجد أن سبعة منهم أشاوروا إلى ذكر غامد وزهران أو الديار السروية الزهرانية والغامدية من القرن (٣-٨هـ/٩-١٤م) . أما الفترة الممتدة من القرن (٩-١١هـ/ ٥-٧م) فلم نجد أي رحال ذكر تاريخ هذه البلاد. وفي الزمن الممتد من القرن (١٢-١٥هـ/١٨-٢١م) نجد (١٣) كاتباً أو رحالاً

(١) لقد زرت منطقة الباحة أكثر من مرة، وتجولت في ربوعها، وجالست أهلها، وسمعت من بعض رواتها، ووقفت على بعض موروثاتها وآثارها التاريخية فتأكد لي أن هذه البلاد وسكانها أهل حضارة وتاريخ ومجد عريق . وكما أشرت في أكثر من مكان، بأن الباحثين والمؤرخين الغامديين والزهرانيين، وكذلك القائمين على جامعة الباحة عليهم جميعاً مسؤولية كبيرة تجاه المجتمع الغامدي والزهراني، والواجب عليهم خدمته في شتى المجالات العلمية والبحثية الثقافية والفكرية . للمزيد انظر: غيثان ابن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١-ق١٠ هـ / ق٧-١٦م) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣١-١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠-٢٠١١م) . الجزء الثاني، ص ١٣٣ -٢٥٠ .

(٢) هذه دعوة نذكرها دائماً في جميع كتبنا ودراساتنا، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، فالواجب علينا جميعاً أن نتناصح ونصحح بعضنا، فكل منا مرآة لأخيه المسلم . ونرجو كل من يجد خطأً أو قصوراً وقعنا فيه أن ينبهنا إلى هذا العيب حتى نصححه ونتلافاه في قادم الأيام.

(٣) انظر الفهرس العام لهذا الكتاب . .

تعرضوا لذكر تاريخ وحضارة منطقة الباحة (غامد وزهران) مع التفاوت في الحجم والتنوع في مدوناتهم. ونقول للقارئ الكريم أن هناك أسباب عديدة جعلتنا نفرد قسماً مستقلاً في هذا الكتاب عن بعض المؤرخين والرحالين أو الكتاب الذين زاروا أو عرفوا البلاد الزهرانية والغامدية، ومن هذه الأسباب ما يلي:

١. التاريخ ليس محصورا في كتب التاريخ البحتة، وإنما هو علم واسع فمصادره متنوعة ومتشعبة . والبحث في التاريخ يختلف حسب الزمان والمكان، وحسب العنوان أو الموضوع الذي يراد دراسته وبحثه . وكتب الجغرافيا والرحلات من المصادر الهامة في علم التاريخ، وهذا ما لمسناه في هذا القسم، فهناك العديد من الرحالين والجغرافيين الذين ذكروا بعض التفصيلات عن بلاد غامد وزهران، وقد يصعب أحياناً أن نجد بعض المعلومات التي ذكروها عند غيرهم من المؤلفين والكتاب .

٢. من المؤكد أن هناك أقوالاً وروايات عند بعض الرحالين الذين جابوا الجزيرة العربية ولم نطلع على مدوناتهم، وبعضهم كانوا علماء في اللغة والشريعة أو في علوم أخرى، وقد يكون منهم أمراء وقضاة ورجال حكم وسياسة، ومثل هؤلاء ربما ذكروا أو أشاروا إلى بلاد غامد وزهران . ومن ثم فلا ندعي الكمال والشمولية لكل الرحالين الذين تعرضوا لمنطقة الباحة. ونحن ننادي من على صفحات هذا الكتاب أن تُدرس منطقة غامد وهران بشكل أوسع وأشمل وبخاصة في أقوال وروايات المؤرخين والرحالين والأدباء والشعراء والجغرافيين. ومن يفعل ذلك فسوف يطلعنا على مادة طيبة تصور التاريخ الحضاري للمجتمعات الغامدية والزهرانية .

٣. الجميل في إيراد أقوال هؤلاء الرحالين المختلفين في الثقافات والاتجاهات وأحياناً في الدين والدماء، وكذلك في مواطنهم الرئيسة، وفي عصورهم الزمنية ،كل هذا يؤكد على أن العلم شيء مشاع لكل الناس، فهذا الأندلسي، وذاك الفارسي، وآخر المغربي، بل ذاك المسلم وآخر النصراني كلهم اجتمعوا على تدوين التاريخ والحضارة لمجتمعات عربية أزدية سروية منزوية في صقع من أصقاع بلاد السراة. وهذا فضل من الله عزوجل أن جعل في هذه الدنيا أقوام يخدمون آخرين وليس بينهم صلة أو قرابة، وإنما العلم وخدمة الثقافة والفكر هو الذي سخرهم ودفعهم لذلك .

٤. إذا اطلع بعض الباحثين المحدثين، أو بعض مثقفي بلاد غامد وزهران إلى هذا السرد التاريخي، وما دونه لنا أولئك الرحالون المتقدمون والمتأخرون، فربما أدى ذلك إلى بعث النشاط والحماس في قلوبهم وهممهم فيكتبوا بعض

مدوناتهم أو رحلاتهم في بلادهم أو غيرها، وإذا فعلوا ذلك، فإنه مما يثري الميادين الثقافية والعلمية والفكرية في بلادنا وبين مجتمعاتنا .

٥. موضوع الرحلة والرحالين في بلاد غامد وزهران خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة والمعاصرة جدير بالدراسة . بل يستحق أن يفرد له كتاب مستقل أو رسالة علمية أكاديمية . ولو قام أحد الباحثين الجادين بدراسة هذا الموضوع فإنه - بدون شك - سوف يضيف إلى المكتبة العربية كل جديد ونافع (بإذن اللّه تعالى) .

٦. هناك الكثير من الموظفين جاؤوا إلى منطقة الباحة منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م)، بل وبعضهم من الأدباء والمعلمين والشعراء، وقد يكون لهم آثار في المنطقة، وربما سجلوا بعض ملحوظاتهم أو انطباعاتهم ومشاهداتهم . ونأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين المعاصرين فيدرس مثل هذا الموضوع الذي قد يدون عنه مادة علمية جديدة تعكس صوراً من تاريخ وحضارة الإنسان في منطقة الباحة .

ثانياً : التعريف بالرحالة ومدوناتهم :

١- الحسن بن أحمد الهمداني (ق٣-٤هـ/٩-١٠م) .

أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، المعروف بابن الحائك، وهو من بيت متوسط من بيوت بكيل ببلاد همدان[1] . ولد في صنعاء في النصف الثاني من القرن (٣هـ/٩م) [2] . نشأ في عصر تقدمت فيه العلوم والآداب وتفنن أهلها في التصنيف والتأليف، وقد شارك هذا الرحالة اليمني في جميع معارف عصره من تاريخ وأنساب وجغرافية وفلك ودراسة لحركات الكواكب وبحث عن سنن الطبيعة وآراء الملل والنحل وغيرها من العلوم[3] . وهناك آثار كثيرة لهذا العالم اليمني قد فقدت، وأشار إلى بعضها عبد اللّه بن محمد عبد اللّه الحبشي[4] .

(١) لقد أورد الهمداني نسبه كاملاً في كتابه، الإكليل، ج١٠، ١٩٢- ٢٠٤ .

(٢) ليس هناك تاريخ دقيق يحدد ولادته، وتذكر بعض المصادر أن ولادته كانت من الخمسينيات إلى نهاية السبعينيات من القرن (٣هـ/٩م) . ونجد الأستاذ محمد علي الأكوع محقق كتاب : صفة جزيرة العرب للهمداني، يحدد تاريخ ميلاده في عام (٢٨٠هـ) . انظر : الهمداني . صفة جزيرة العرب . تحقيق الأكوع (الرياض) (١٣٩٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٥ وما بعدها .

(٣) للمزيد عن حياة الهمداني انظر بعض كتبه التي تم العثور عليها مثل: صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين، وكتاب الإكليل، وكتاب الدامغة . وهناك كتب أخرى لم تصلنا وفي الغالب أنها ضاعت مثل: كتاب الأيام الذي ورد ذكره في بغية الوعاة للسيوطي، وكتب أخرى مثل: الحيوان، ، وسرائر الحكمة، واليعسوب في آلات الحرب وأخبار الأبطال والشجعان الذين امتازوا باستعمالها وقد سماه الهمداني في كتاب : صفة جزيرة العرب (القوس من اليعسوب) .

(٤) للمزيد انظر: (عبد اللّه الحبشي . مراجع تاريخ اليمن (طبعة دمشق سنة ١٩٧٢م)، ص١٣ وما بعدها .

والكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة هو كتاب : **صفة جزيرة العرب**، فهو من أهم مؤلفات الهمداني، وهو من أهم الكتب لمعرفة جزيرة العرب وبخاصة الجنوبي منها، ولم يكتف هذا الرحالة بوصفها نقلاً عن غيره وإنما تنقل في معظم أجزائها[(١)] . وقد زودنا بتفصيلات قيمة عن البلاد الممتدة من الطائف ومكة المكرمة إلى حواضر اليمن الكبرى. وإذا قارنا ما حفظ لنا هذا الرحالة مع غيره فإنه يفوقهم في دقة الرصد وجودة المادة العلمية التي يندر أن نجدها عند سواه[(٢)] .

وعن منطقة الباحة (بلاد غامد وزهران) ، فالظاهر على الرحالة أنه جاب بلاد السراة الممتدة من نجران وقحطان إلى زهران والطائف مرات عديدة[(٣)] ، وكان لديار قحطان وشهران ورجال الحجر[(٤)] ثم الطائف نصيب لا بأس به في شروحاته . أما بلاد غامد وزهران فلم يولها كبير اهتمام، وإنما أشار إليها في إحدى رحلاته من اليمن إلى الحجاز عندما كان يعدد بعض السروات الواقعة بين صنعاء والطائف فقال : " ... ثم سراة زهران من الأزد دوس وغامد ... نجدهم بنو سواءة بن عامر وغورهم لهب، وعويل من الأزد وبنو عمرو، وبنو سواءة خليطى والدعوة عامرية، ثم سراة بجيلة .. "[(٥)]. وفي مكان آخر من الكتاب يعدد السروا فيقول: " .. ثم يتلو سراة عنز سراة الحجر بن الهنو .. ثم يتلوها سراة غامد، ثم سراة دوس، ثم سراة فهم وعدوان ... "[(٦)] . ويفصل الحديث عن بعض السروات الواقعة إلى الجنوب من بلاد غامد وزهران[(٧)] ، وعندما يصل إلى الديار الغامدية

---

(١) لقد اعتمدنا على النسخة التي حققها محمد علي الأكوع وأشرف على مراجعتها وطباعتها حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة) (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ، ص ٦ وما بعدها .

(٢) لقد كانت سعة الثقافة التي يتمتع بها الهمداني، بالإضافة إلى كثرة تنقلاته وتجواله في أرجاء الجزيرة من الأسباب الرئيسة في ثراء مادة كتاب : صفة جزيرة العرب . للمزيد انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٣، ص٣٢٦ وما بعهدها . ج٤، ص٢٦ وما بعدها .

(٣) الهمداني، صفة، ص٢٥٥ وما بعدها، غيثان بن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني " مجلة الدارة، ربيع الآخر والجماديان (١٤١٤هـ) . العدد (٣) . السنة(١٩) ، ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) بلاد قحطان وشهران ورجال الحجر أجزاء من منطقة عسير في عصرنا الحاضر وهي ديار واسعة ومأهولة بالسكان، وتستحق العديد من الدراسات التاريخية والحضارية . ونأمل من جامعة الملك خالد أن تولي هذه النواحي وغيرها اهتماماً كبيراً في مجال البحوث والدراسات .

(٥) الهمداني، صفة، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) وبخاصة سروات الحجر المعروفة اليوم ببلاد بني عمرو، وبني شهر، وبللسمر، وبللحمر فقد أورد عنها تفصيلات جيدة . انظر : الهمداني، صفة، ص ٢٦١ـ٢٦٢ .

يشير إليها بقوله : " ... ثم غامد، ثم بلد النمر، ثم بلد دوس من وراء ذلك.. "[١]. ويشير إلى لغة أهل السروات الممتدة من اليمن إلى الطائف ويشيد بحسن بيانهم وفصاحة لغتهم [٢]. وفي صفحات عديدة من كتابه يذكر بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في أرض السروات من صنعاء إلى الحجاز، إلا أن البلاد المعنية في هذا القسم لم ينلها نصيب يذكر،، وربما أن هذا الرحالة كان يجتاز بلاد غامد وزهران بشكل سريع دون أن يمكث بها بعض الوقت ويدون بعض ما سمع أو شاهد، كما كان يفعل في سروات منطقة عسير أو أجزاء من بلاد اليمن[٣].

٢- شمس الدين أبو عبد الله المقدسي المعروف بالبشاري (ق٤هـ/١٠م) :

لا نعرف إلا القليل عن ميلاد المقدسي ونشأته، وكان مولده في بيت المقدس، جاب عدداً من أقاليم العالم الإسلامي[٤] ، ثم دون كتابه الموسوم بـ: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وكان تدوينه لهذا السفر في مدينة شيراز الفارسية عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م)، وعمره آنذاك حوالي أربعين سنة [٥].

ويشير المقدسي إلى سبب تدوين هذا الكتاب، فيقول : ".. أما بعد مازالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم، وأقيم علماً أحيي به ذكري، ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه ... وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ . أشار إلى بلاد غامد وزهران ضمن بلاد السروات فقال : " الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزبيد فبني الحارث، فما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يام فأرض سنحان، فأرض نهد وبني أسامة فعنز فخثعم فهلال بن ربيعة فسرة الحجر فدوس فغامد .. " . الهمداني، صفة، ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ وما بعدها . وشخصية الهمداني وكذلك مؤلفاته التي وصلتنا تحتاج العديد من البحوث والدراسات الأكاديمية . ونأمل أن نرى من طلابنا أو طالباتنا في برامج الماجستير والدكتوراة . بجامعات الملك خالد، والطائف، والباحة، وجازان، ونجران يولون هذا العالم اليمني وكتبه كبير اهتمام في أعمالهم العلمية والأكاديمية . والدعوة موجهة أيضاً إلى أعضاء هيئة التدريس في أقسام التاريخ بهذه الجامعات الآنفة الذكر أو غيرها من الجامعات السعودية الأخرى .

(٤) زار هذا الرحالة حوالي أربعة عشر إقليماً هي : الجزيرة العربية، والعراق، وأقور، والشام، ومصر، والمغرب، والمشرق، والديلم، والرحاب، والجبال، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند . انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم . تحقيق أم . ج . دي . خويه (ليدن : مطبعة بريل، ١٨٧٦م)، ص ٩- ١٠ .

(٥) المصدر نفسه . ص ٢ وما بعدها، وللمزيد انظر: أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٢٩ وما بعدها .

وطرقها المستعلمة، وعناصر العقاقير والآلات، والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ..."[١].

والمقدسي جاء إلى جزيرة العرب وتجول في حواضرها ومدنها الكبرى، ودون عنها تفصيلات قيمة[٢]. وبلاد الحجاز واليمن فازتا بنصيب الأسد في مدوناته، أما بلاد غامد وزهران، والمعروفة، أيضاً ببلاد السراة، فلم يرتدها أو يزرها وإنما أشار إليها عن طريق السماع وأقوال الرواة. وذكر أنها تقع ضمن بلاد السروات الواقعة بين اليمن والحجاز، بل عدها من المخاليف التابعة لبلاد الحجاز وبخاصة الطائف ومكة المكرمة[٣]. ومن خلال مدوناته عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في مكة المكرمة نستشف في طيات الحديث أن أهل بلاد السروات مثل غامد وزهران كانوا على اطلاع وصلات بالحراك الحضاري الذي كان جارياً في مدن الحجاز الكبرى. فكانوا على صلات اجتماعية وتجارية مع أهل الحجاز، بل كانوا يرتادون أسواق مكة والطائف ويعملون في العديد من المضاربات التجارية، فضلاً عن ممارسة شعائرهم الدينية في مواسم الحج والعمرة وطوال أيام السنة[٤].

٣- ناصر خسرو (ق٥هـ/١١م):

ولد هذا الرحالة في بلدة قباديان من نواحي بلخ عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م)، وتوفي في العقد الثالث من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في بلاد الأفغان عند حدود كشمير من بلاد الهند[٥].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١-٢.

(٢) المصدر نفسه. ص ١٠ وما بعدها. هناك العديد من الرحالين الذين جابوا أجزاء من جزيرة العرب وتحدثوا عن جوانب عديدة من تاريخها الحضاري، ومن أولئك الرحالة. الهمداني، واليعقوبي، وابن الفقيه، وابن خرداذبة، وابن رسته، وابن حوقل، والإصطخري، وابن المجاور، والإدريسي، وابن بطوطة وغيرهم. والمقدسي يأتي في مقدمة هؤلاء الرحالين المسلمين الأوائل.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٧٠، ٨٨، ٩٦، ١٠٣-١٠٤.

(٤) المصدر نفسه. ص٦٧-١١٣. الدارس لتاريخ اليمن والسروات والحجاز يجد أن هذه البلاد متقاربة في الأوطان متشابهة في الكثير من العادات والتقاليد. ثم إن حواضر الحجاز واليمن مرتادة من أهل المدن والأرياف القريبة أو المحيطة بها. والسرويون لا غنى لهم على الإطلاق من ارتياد تلك الحواضر الكبرى وبخاصة مدن الحجاز الرئيسة مثل: الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة فهي مرتادة من قبل السرو أو السرويون عبر عصور التاريخ.

(٥) معين الدين ناصر خسرو. سفر نامة (رحلة ناصر خسرو). ترجمه من الفارسية إلى العربية أحمد خالد البدلي (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). انظر: مقدمة المترجم، ص٥.

هـذا الرحالـة فارسـي الأصـل والمنشـأ، عمـل في بـلاط الدولتـين الغزنويـة والسـلجوقية، وكان معظـم عملـه في دواوين هاتـين الدولتين[١] . خلـف العديد من الكتب، منها الكتاب الذي يهمنا في مبحثنا هذا والموسـوم بـ (رحلة ناصـر خسرو)، وهو رحلة قام بها لعدة سـنوات (٤٣٧ـ٤٤٤هـ/٩٤٨ـ١٠٥٢م) . ذكر فيها الكثير من البلدان في قارتي آسيا وإفريقيا، وقد زار الجزيرة العربية في عام (٤٤٢هـ/١٠٥٠) وتنقل ما بين مكة والمدينة والطائف واليمامة والأحساء والبحرين وغيرها[٢] .

وهـذا الرحالـة لم يـزر سـروات أو تهامة غامـد وزهران، ولم يذكرها بشـكل مباشر، لكنه ذكر البلاد الممتدة من الحجاز إلى اليمن فقال إنهم أهل إبل وماشية ومسـاكنهم الخيـام[٣] . وأشـار إلى الأجزاء السـروية وذكر أنها مناطق شـديدة البرودة، وبها العديد من المضـائق الجبلية والحصون المحكمة[٤] . وبلاد السروات وسـراة غامد وزهران جـزءاً هذه الديار فقد ذكر أنه يوجـد بها قرى كثيرة وبواد لا تدخل تحت الحصـر، ثم قال : " وفي كل بادية حاكم مسـتبد لا يخضع لأي سلطة مركزية، وتكثر في هذه النواحي السـرقة والقتل والنهب"[٥] . ومن هذه الإشـارات القليلة لهذا الرحالة خرجنا ببعض النتائج والآراء مثل:

١. منطقـة الباحـة (غامد وزهران) تقع ضـمن هـذه البلاد التي أشـار إليها هذا الرحالة، ثم إن بعض سـكان هذه الديار أهل ماشـية وإبل، بل بعضـهم بدو رحل مع مواشـيهم وثرواتهم الحيوانية. كما أن مرتفعات زهران وغامد شديدة البرودة في الشتاء وبها العديد من الحصون والجبال الشاهقة[٦] .

---

(١) المصـدر نفسـه، ص ٥ـ ٦ . وللمزيـد انظـر: غيثـان بـن جريـس . بـلاد القنفـذة خلال خمسـة قرون (ق١٠ـ١٥هـ/١٦ـ٢١م) (دراسـة تاريخية حضـارية) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢) انظـر كتابه : سـفر نامة (رحلة ناصـر خسـرو)، ص٩ ومابعدهـا . للمزيد انظر: أحمد رمضـان أحمد، الرحلة، ص ٢٣٩ ـ ٢٥٠ .

(٣) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١٤٢ .

(٤) المصدر نفسه،

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٦) مشـاهدات الباحـث لهـذه البـلاد التـي زارهـا مرات عديـدة وبخاصـة في عامـي (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م و ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) . ونسـتطيع القـول بأن هـذه الأوطان جديرة بالبحث والدراسـة العلميـة الأكاديمية الجادة . ونأمل أن تقوم جامعة الباحة بإنشـاء مراكز بحثية تتولى أمور الدراسـات الموثقة عن هذه البلاد البكر في ميدان البحوث العلمية التاريخية والأثرية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

٢. القرى في سروات غامد وزهران وما جاورها من السروات كثيرة ومأهولة بالسكان[١]. ثم إن سكان هذه البلاد كانوا في السابق محكومين من قبل شيوخ القبائل الذين يعود إليهم الأمر والنهي في أمور بلادهم . والدارس لتاريخ بلاد السراة منذ القرن (١٢ـ١٣هـ / ١٨ـ١٩م) يجد أن الفوضى كانت ضاربة أطنابها في عموم هذه البلاد ، فكل قبيلة مستقلة بذاتها ، بل نجدها في صراع دائم مع القبائل والعشائر المخالطة لها في الاستيطان[٢] .

وإذا كان ناصر خسرو لم يزر بلاد زهران وغامد وما حولها من السروات الممتدة من صنعاء حتى الطائف، إلا أن وصفه شيوخها بالاستبداد، وانتشار السرقة والقتل والنهب بينهم لا يخلو من الصواب، ويعود السبب إلى عدم وجود سلطة إدارية نظامية تضبط البلاد والعباد . وفي اعتقادي أنه لو زار أرض السروات فإنه بدون شك سيحفظ لنا صوراً من تاريخ هذه البلاد خلال العصور الإسلامية الوسيطة[٣] .

٤ـ محمد بن أحمد بن جبير (ق٦ ـ ٧هـ / ١٢ـ١٣م) :

هو ابن جبير البلنسي الأصل الغرناطي بالاستيطان ولد بمدينة بلنسية في الأندلس سنة (٥٣٩هـ أو ٥٤٠هـ / ١١٤٤م أو ١١٤٥م) ، وكانت وفاته بمدينة الإسكندرية عام (٦١٤هـ /١٢١٧م) . كان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، وله مشاركات في الأدب . ترجم له العديد من المؤرخين والأدباء في القديم والحديث[٤] .

---

(١) إن الذاهب في هذه البلاد اليوم يلحظ تناثر القرى القديمة في كل مكان، بل يجد النقوش والآثار الكثيرة التي تدل على وجود مستوطنات سكانية قديمة ، يعود تاريخ بعضها إلى عصور ما قبل الإسلام .

(٢) تاريخ بلاد السراة في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة غير معروف بشكل واضح، مع أن هناك شذرات كثيرة في كتب التراث الإسلامي تشير إلى صور ولمحات من التاريخ السياسي والحضاري لهذه البلاد . والذي تأكد لنا من تلك الشذرات ومن بعض الروايات المتواترة أن الفوضى كانت صاحبة القدح المعلى في هذه الديار، فلا يوجد حكومة مركزية قوية تسوس الناس، وإنما شيوخ القبائل هم أصحاب القرار الأول والأخير في أوطانهم .

(٣) تاريخ بلاد تهامة والسراة الممتدة من صنعاء وزبيد جنوباً إلى الطائف ومكة المكرمة شمالاً لازال يحتاج إلى دراسات علمية أكاديمية موثقة . ونأمل من الأكاديميين والمؤرخين الجادين في جنوبي البلاد السعودية أن يولوا هذه البلاد اهتمامات جادة في بحوثهم ودراساتهم . كما نأمل من طلاب وطالبات الدراسات العليا في جامعات : الملك خالد، ونجران، وجازان، والباحة، والطائف أن يركزوا في أطروحاتهم العلمية على بلادهم ومساقط رؤوسهم، أو أي جزء من بلاد تهامة والسراة الجديرة بالبحث والدراسة .

(٤) ترجم له كل من لسان الدين الخطيب في كتابه : الإحاطة في أخبار غرناطة، والقاسم بن يوسف التجيبي السبتي في كتابه : مستفاد الرحلة والاغتراب، والمقري في كتابه : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . وترجم له أيضاً المقريزي، وجرجي زيدان، والمستشرق الروسي كراتشكوفسكي، وكارل بروكلمان، وفؤاد سزكين، وزكي محمد حسن، وحسين نصار وغيرهم.

قام بثلاث رحلات إلى أجزاء عديدة من إفريقيا، وآسيا، وأوروبا، ثم دون تلك الرحلات في كتابه المشهور بـ : **رحلة ابن جبير**.

بدأ أول رحلاته من الأندلس عام (٥٧٨هـ/١١٨٢م) متجهاً إلى بلاد المغرب ومصر ثم الجزيرة العربية، كما زار - أيضاً - كل من العراق والشام وصقلية، وأخيراً استقر به القرار في مصر حتى وافته المنية هناك في العقد الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[١]

والواضح أن هذا الرحالة زار مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولم يذهب جنوبهما إلى أرض السروات أو بلاد اليمن . والذي جعلنا ندرجه مع الرحالين الذين ذكروا بلاد غامد وزهران، أنه دون في كتابه المعروف بـ (الرحلة) حوالي أربع صفحات تحت عنوان (السرو المائرون) . والمقصود بهؤلاء السرويون هم أهل البلاد الممتدة من الطائف وبني سعد وبلحارث إلى غامد وزهران وشمران ومن جاورهم من القبائل السروية الواقعة بين الطائف ونجران[٢] .

وفي المادة التي دونها هذا الرحال عن السرويين يتضح لنا عدة أمور نذكرها في النقاط التالية :

١. من العنوان الذي ذكره ابن جبير (السرو المائرون)[٣] . يتأكد لنا أن أهل السراة من غامد وزهران ومن جاورهم كانوا حريصين على ارتياد حواضر الحجاز وبخاصة مكة المكرمة من أجل أداء الحج والعمرة، وكذلك حمل العديد من السلع للمتاجرة بها في بلاد الحرمين . وقد ذكر ابن جبير ذلك بشكل واضح عندما قال : " إنهم يجمعون بين النية والعمرة وميرة البلد[٤] بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها . ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم بين

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت : دار صادر، د . ت) . ص٥ وما بعدها، أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص٣٢٣ - ٣٣٨ .

(٢) نجد الهمداني فصل الحديث عن هذه السروات، وللمزيد انظر، كتابه : صفة جزيرة العرب، ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) انظر ابن جبير، الرحلة، ص١١٠ . والدارس لتاريخ السراة وعلاقة أهلها بالحجاز يجد أن العلاقات متينة ومستمرة منذ العصر الجاهلي وعبر عصور التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط والحديث والمعاصر . ونأمل أن نرى دراسات علمية أكاديمية جيدة ترصد تلك العلاقات التاريخية والحضارية منذ القدم حتى عصرنا الحديث

(٤) يقصد بـ (البلد) هنا : أي مكة المكرمة .

الطعام والإدام والفاكهة . ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معايش أهل البلد، والمجاورين فيه"[١] . ويقول أيضاً : " ومن العجيب في أمر هؤلاء (السرو) المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا درهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل، وأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم... "[٢].

٢. من خلال مقابلة ابن جبير لبعض السرويين وسؤالهم عن أوطانهم اتضح له أنها بلاد " خصبة كثيرة التين والعنب واسعة المحرث وافرة الغلات"[٣]. وأثناء مشاهدته لأولئك السرو قال عنهم : " القوم عرب صرحاء حفاة أصحاء، لم تغذهم الرقة الحضرية، ولا هذبتهم السيرة المدنية، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية، فلا نجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية"[٤] . ويسهب الحديث في ممارساتهم عباداتهم عندما يكونون في جوار البيت الحرام[٥] . ثم يذكر بعض صفاتهم وشدة بأسهم فيقول: " ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها . وهم أهل بأس ونجدة، ولهم القسي العربية الكبار، لا تفارقهم في أسفارهم . فمتى رحلوا إلى الزيارة هاب أعراب الطريق المسكون للحجاج مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، وخلوا لهم عن الطريق، ويصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم[٦] ..."

٣. مما أورد لنا هذا الرحالة ومعرفتنا الطويلة ببلاد السراة الممتدة من غامد وزهران إلى الطائف تأكد لنا صحة ماجاء عند ابن جبير. فهذه البلاد مأهولة بالسكان، مليئة بالخيرات والثروات الزراعية والحيوانية. كما أن أهلها أصحاب قوة وبأس، وربما صعوبة تضاريس بلادهم أكسبتهم القوة

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص١١٠ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٠ ـ ١١١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١١١ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١١٢ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١١٢ .
(٦) المصدر نفسه .

في أجسادهم، والصرامة في أفعالهم وأقوالهم . كما أنهم أصحاب عقائد صافية فلم يشب معتقداتهم أفكار هدامة، وإنما دينهم على مر التاريخ الإسلامي الاتباع في القول والعمل[١] . ناهيك عن نقاء لغتهم فهم أهل فصاحة، وهذا ما أكده ابن جبير عندما قابل البعض منهم فقال : "..أما فصاحتهم فبديعة جداً، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس.. "[٢] .

٥- جمال الدين يوسف بن يعقوب المعروف بـ (ابن المجاور / ق٧هـ/١٣م):

ابن المجاور من رحالي القرن (٧هـ/١٣م)، ويذكر أنه من أهل الشام، ورأي آخر ينسبه إلى بلاد فارس[٣] . له كتاب بعنوان : **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز.** ويسمى أيضاً : تاريخ المستبصر . قام المستشرق أوسكار لوفغرين على دراسة وتحقيق هذا الكتاب ثم طبع ونشر بمطبعة بريل في مدينة ليدن بهولندا عام (١٩٥١م)، وهذه الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة . وهذا السفر يقع في جزءين بمجلد واحد في (٣٠٣) صفحة من القطع المتوسط[٤] .

ومن عنوان الكتاب يتضح لنا أنه خاص ببلاد اليمن والحجاز، لكنه لا يخلو من بعض التفصيلات عن نجد والبحرين وبلاد السراة . ويبدو أن ابن المجاور لم يزر أو يشاهد سروات غامد وزهران وما جاورهما من أرض السروات الممتدة من أبها إلى الطائف[٥]، لكنه أورد معلومات قيمة وذكر فيها بعض الصور الاجتماعية

---

(١) بلاد السراة لا زالت بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية جيدة في طبائع الناس وأخلاقهم ومعتقداتهم وأدبهم ولغاتهم . كما أن الصلات بين بلاد السراة وأرض الحجاز من الموضوعات الهامة والجديرة بالبحث العلمي الأكاديمي الرصين .

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص١١٣.

(٣) من يطلع على كتاب هذا الرحالة والموسوم بـ: تاريخ المستبصر، يجد أن صاحب الكتاب ذا ثقافة ومعارف فارسية جيدة، وهذا مما يؤكد على أنه من أصول فارسية . للمزيد انظر: بشير إبراهيم بشير (ابن المجاور : دراسة تقويمية لكتابه : تاريخ المستبصر). بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية . جامعة الرياض (الملك سعود) (١٠-٥ جمادى الأخرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٩م) . دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الكتاب الثاني)، ص ٤١-٦٠ .

(٤) المصدر والمرجع نفسه .

(٥) من يطالع مادة الكتاب يجد أن هذا الرحالة زار العديد من حواضر الحجاز واليمن الرئيسة مثل الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وعدن، وصنعاء، وصعدة، وزبيد، ونجران وما جاورها، كما أنه سار على ساحل البحر الأحمر من الحجاز إلى تهامة اليمن . أما أرض تهامة والسراة الممتدة من أبها ورجال ألمع ومحائل جنوباً إلى بلاد الباحة وما حولها شمالاً فلم يرتدها وإنما دون عنها بعض المعلومات التاريخية والحضارية الجيدة . انظر كتابه : تاريخ المستبصر (تحقيق لوفغرين)، ج١، ص٣ وما بعدها .

والاقتصادية لتلك السروات فقال: "... (إنها) قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر، وكل قرية مقيمة بأهلها، كل فخذ من فخوذ العرب وبطن من بطون البدو في قرية، ومن جاورهم لا يشاركهم في نزلها، ولا يسكنها أحد سواهم . وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص، وكل ساكن في القرية له مخزن في القصر يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزة وملكه، ولا يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتطين بالقصر من أربع ترابيع . ويحكم كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشيره عليهم ويحكم فيهم . وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون خراجاً، ولا يسلمون قطعة، إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه، لا يزال القتال دأبهم، ويتغلب بعضهم على مال بعض، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طوال الدهر على هذا الفن، وجميع زروعهم الحنطة والشعير وشجر الكروم والرمان، واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات، وأكلهم السمن والعسل . وهم في دعة الله وأمانه، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب "[1] . وفي مكان آخر يصف التركيبة الاجتماعية لسكان سراة غامد وزهران وما جاورهم فيقول: ".. أما السرو فإنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان بل مشائخ منهم وفيهم، وهم بطون متفرقون ... "[2] . وعن الصلات الاقتصادية بين سروا ت زهران وغامد ومن جاورهم مع أهل مكة المكرمة نجد ابن المجاور يؤكد على ما ذكر ابن جبير من حركة التبادل التجاري بين الجانبين، وعن تصدير أهل السراة بعض سلعهم إلى أسواق مكة، فيقول: " .. فإذا دخلوا - أي السرويين - مكة ملئوها خبزاً من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وما يشابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة : حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمنا نكسب منهم القوت.. "[3] .

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص٢٦ .

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧ . بلاد السروات غنية بثرواتها الزراعية والحيوانية، ومن ثم كانت أسواق الطائف ومكة المكرمة من أهم المراكز التجارية المستوردة لبضائع وسلع السرويين. هذا ما وجدناه في العديد من المصادر الإسلامية المبكرة، وكذلك في مئات الوثائق الحديثة والمعاصرة، بل شاهدناه وسمعناه من كثير من رواة وتجار القرن (١٤هـ / ٢٠م) .

ومما اطلعنا عليه في كتاب هذا الرحالة وله علاقة ببلاد السروات الممتدة من الطائف حتى بلاد عسير، استطعنا الوصول إلى بعض الرؤى والنتائج، ونذكر منها ما يلي :

١. الواضح أن هذا الرحالة ذكر الكثير من طباع وحياة السرويين، وبخاصة سروات غامد وزهران وعسير وما جاورها . والمتجول في هذه البلاد يجد نسبة الحقيقة عالية فيما أورد ابن المجاور، وربما في بعض أقواله ـ وهي قليلة ـ نظر ويجب الوقوف عندها والتثبت من صحتها، لكن ما ذكره من الصعوبة أن نجده في مصادر أخرى[١] .

٢. أهمية بلاد السراة لحواضر الحجاز الرئيسة وبخاصة في الجانب الاقتصادي، فكانت جل الحبوب والمزروعات والحيوانات تصدر من أرض السراة إلى أسواق الطائف ومكة، ومن ثم يحصل السرويون على ما يحتاجونه من الأقمشة وغيرها من الأسواق الحجازية[٢] .

٣. في بعض المواقع من الكتاب أشار هذا الرحالة إلى بعض العادات والأعراف التي يدعي أنها موجودة عند أهل تهامة والسراة . والمتأمل في بعض تلك الأقوال يجدها تتعارض مع منهج الشريعة الإسلامية، بل يجدها خارجة عن إطار الأدب والحشمة . ولهذا تجنبنا ذكرها أو إيراد أي شيء من هذه الروايات في هذه الدراسة، وذلك لأنها بعيدة عن الصواب، ومن يطالع بعض الكتب التراثية التي أشارت إلى تاريخ وحضارة هذه البلاد لا يجد أي شيء من مغالطات هذا الرحالة. وربما يعود سبب إيرادها إلى أخذ معلوماته من أناس غير مثقفين ومنصفين فيما ذكروه، أو أن هذا المؤلف تعمد إيراد تلك الروايات المكذوبة والبعيدة عن الحقيقة[٣] .

---

(١) وبخاصة ما ذكر عن التركيبة البشرية لسكان السراة، وصلاتهم الحضارية مع أهل مكة . انظر، ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج١، ص ٢٦ ـ ٢٧، ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) القارئ لكتاب ابن المجاور يجده أورد الكثير من المغالطات عن بعض أعراف وتقاليد وعادات الناس في بلاد السراة واليمن والحجاز . بل إن بعض تلك الروايات لا يقبلها العقل أو الذوق الإنساني، ناهيك أنه يكتب عن عرب مسلمين يحتكمون إلى كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) . وإنني أنادي من على صفحات هذا الكتاب إلى وجوب دراسة كتابه دراسة تحليلية نقدية، وهذه مسؤولية المؤرخين المنصفين وطلاب وطالبات الدراسات العليا الجادين . للمزيد انظر: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج١، ص٢٦ وما بعدها .

٦ـ شهاب الدين أحمد بن فضل الله العُمري (ق٨هـ/١٤م):

ولد العُمري في دمشق عام (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م)، وكانت أسرته تتولى ديوان الإنشاء بمصر والشام في عصر دولة المماليك، شب وعاش وتعلم في مصر. وتتلمذ على عشرات العلماء، والقضاة، والأدباء، وتقلد العديد من الوظائف الحكومية جميعها في الأعمال الكتابية والديوانية، ولم يمتد به العمر فمات وعمره (٤٩) سنة. وقد ألف العديد من الكتب[١]، وفي مقدمتها موسوعته الضخمة: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[٢]، وتقع في أكثر من عشرين مجلداً. وقد اعتمدنا في دراستنا على الجزء الذي سماه: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)[٣].

والواضح أن العُمري لم يقم برحلات إلى الجزيرة العربية كما فعل كلٌ من المقدسي، وناصر خسرو، وابن جبير، وابن المجاور، وإنما ألف موسوعته نقلاً عن سابقيه أو معاصريه. والمتأمل في هذا الجزء الذي تعرض للحديث فيه عن الحجاز واليمن يجد أنه فصل القول في التاريخ السياسي والحضاري للقوى السياسية والإدارية التي تتولى أمر الحجاز وبخاصة في عصر الدولة المملوكية (٦٤٨ـ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ـ١٥١٧م)[٤]. ولا نجد لسروات غامد وزهرانٍ وما جاورها من أرض السراة كثير ذكر في هذا الكتاب، وإنما أورد عنها سطوراً عديدة، نقلاً عن بعض الرواة، فقال: " حدثني أبو جعفر بن غانم[٥]، إن بلاد الشرفاء[٦] هؤلاء متصلة ببلاد السراة إلى الطائف، إلى مكة المعظمة، وأنها طريقه التي سلكها في عوده من اليمن،

---

(١) لقد ألف العُمري حوالي (١٢) كتاباً، مثل: نفحة الروضة، وسفرة السفرة، ومختصر قلائد العقيان لابن خاقان، والشتويات، والدعوة المستجابة، وذهبية العصر، ودمعة الباكي ويقظة الشاكي، والنزهة الكافية في معرفة الكتابة والقافية وغيرها.

(٢) هذا الكتاب موسوعة ضخمة تقع في مجلدات عديدة، ويعد هذا العمل من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك، رغم أنه لم يلق ما يناسبه من الشهرة. وقد وصفها الصفدي. معاصر العمري. بأنها " كتاب حافل ما يعلم أنه لأحد مثله ".

(٣) هذا الجزء بتحقيق أيمن فؤاد سيد، من مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٩ـ ١٧٠. وموسوعة العُمري بشكل عام تحدثت عن ممالك إسلامية عديدة في قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. ومن ثم فهي من المصادر الرئيسة التي لا يستغنى عنها أي باحث في تاريخ العصور الإسلامية الوسيطة.

(٥) لم نجد له ترجمة وربما كان من أهل الحجاز أو اليمن.

(٦) المقصود بـ (الشرفاء) هنا الأشراف الزيديون الذين اتخذوا من صعدة وصنعاء مقراً لإقامة دولتهم، الدولة الزيدية في اليمن. والتي كان لها صلات سياسية وعسكرية مع بلاد السراة الممتدة من نجران حتى غامد وزهران والطائف وما جوارها.

وهي جبال شامخة عليَّة، ذات عيون دافقة ومياه جارية، على قرى متصلة الواحدة إلى جانب الأخرى، وليست للواحدة تعلق بالأخرى، لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم، لا يضمهم ملك ولا يجمعهم حكم سلطان، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش ذوات فواكه أكثرها العنب واللوز، ولها مزارع أكثرها الشعير، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب وضاقت بها الحظائر... وأهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها، يعضون على دينهم بالنواجذ، ويقرون كل من يمر بهم، ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقهم، وإذا ذبحوا لضيفهم شاة قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكرشها وكبدها وقلبها، يأكل ما يأكل ويحمل ما يحمل. وأهل هذه البلاد لا يفارق أحد منهم قريته مسافراً إلى الأخرى إلا برفيق يسترفقه منها ليخفره، وإلا فلا يأمن أولئك لعداوة بينهم وتفرق ذات بين..." (١).

ومن هذا الوصف الذي أورد لنا هذا المؤرخ يتضح لنا عدة أمور نذكر منها :

١. التأكيد على أقوال ناصر خسرو وابن المجاور بأن هذه الديار السروية يعود أمرها إلى أعيانها ومشائخها . كما أن الفوضى وعدم وجود الأمن ضارب أطنابه بين أهلها، وذلك لعدم وجود سلطة سياسية رئيسة تسوس البلاد والعباد .

٢. وفرة الخيرات الموجودة في هذه البلاد وبخاصة المواشي والزروع والثمار وغيرها، كما أن صفات الكرم من طبائع أهل السروات فتجدهم يكرمون الضيف ويقدمون له كل ما في وسعهم. وهذه عادة لازالت سارية بينهم حتى اليوم . والقارئ في الوثائق التاريخية خلال القرون المتأخرة الماضية يجدها مليئة بالحقائق التي تؤكد على كرمهم وحبهم لاستقبال الضيوف (٢) .

٣. القارئ لهذه المادة التي أوردها العُمري، وكذلك ابن جبير، وناصر خسرو، وابن المجاور، ثم الذاهب الآيب في أرض السروات، والحريص على مقارنة ما ذكر هؤلاء المؤرخين وما تعيشه هذه البلاد في وقتنا الحاضر يلمس حقيقة وصدق بعض الأقوال التي أوردها هؤلاء المؤلفون (٣) .

---

(١) العُمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) تحقيق أيمن فؤاد، ص ١٦٧.

(٢) حبذا أن نرى بعض الباحثين الجادين الذين يدرسون عادات وتقاليد وأعراف بلاد غامد وزهران وما جاورها من أرض السروات . ومن يفعل ذلك فسوف يجد مادة علمية جيدة وبخاصة في وثائق القرون الثلاثة الماضية المتأخرة .

(٣) حبذا أن نرى دراسات تاريخية وحضارية مقارنة لبلاد السروات وبخاصة ما ذكر عنها في كتب التراث الإسلامي المبكر، وما يوجد في الوثائق التاريخية الحديثة والمعاصرة غير المنشورة، وما يمكن مشاهدته أو سماعه من سكان هذه السروات . ومن يفعل ذلك فإنه بدون شك سوف يخرج لنا دراسة علمية أكاديمية موثقة وجيدة .

٤. عقائد أهل السراة صافية لم تدنسها أفكار أو تيارات مذهبية منحرفة . ومن ثم نجدهم حريصين على أداء شعائرهم الدينية بطريقة شرعية صحيحة. والمتجول في عموم السروات من أبها وخميس مشيط إلى الباحة والطائف يجد آثار مساجدهم وأماكن عباداتهم، بل حبهم للحفاظ على شعائرهم ودينهم . وعندما ننظر في بعض الكتب التراثية والوثائق التاريخية ونسمع للأقوال والروايات الشفاهية يتأكد لنا صفاء عقائدهم منذ دخل الإسلام إلى بلادهم حتى وقتنا الحاضر[(١)] .

٧ـ ابن بطوطة (ق٨هـ/١٤م) :

محمد بن عبد الله، المعروف بابن بطوطة، ولد في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب عام (٧٠٣هـ/١٠٣٤م) . جاب العديد من البلدان في قارات: آسيا وأوروبا وإفريقيا، وزار الجزيرة العربية وحج عدة مرات، ومات عام(٧٧٩هـ/١٣٧٧م) [(٢)] . قضى هذا الرحالة في ميدان الرحلات (٣٠) عاماً اتصل خلالها بكثير من الملوك والسلاطين والأمراء والأعيان والوجهاء وعامة الناس . وفي منتصف القرن (٨هـ/١٤م) عاد إلى المغرب، وعكف على كتابة رحلاته وفرغ من تدوينها في (٣ ذي الحجة عام ١٣٥٦هـ/ديسمبر ١٣٥٥م)، وسمى تلك الرحلة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وهذا الكتاب هو الذي رجعنا له في هذا القسم .

---

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة هذه السروات منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر انظر العديد من مؤلفاتنا مثل: دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ـ ق٤هـ / ق٧ـ ق١٦م) جزءان، والقول المكتوب في تاريخ الجنوب، أربعة مجلدات، ونجران دراسة تاريخية حضارية (ق١ـ ق٤هـ/ ق٧ـ ١٠م)، الجزء الأول، وعسير دراسة تاريخية حضارية (١١٠٠ـ ١٤٠٠هـ) . مع العلم أن بلاد تهامة والسراة لازالت تحتاج إلى جهود جبارة وجادة في مجالات البحوث التاريخية والأثرية. وهذه مسؤوليات الجامعات في جنوبي البلاد السعودية مثل: جامعات الملك خالد، والطائف، والباحة، وجازان، ونجران . ونأمل من القائمين على هذه الجامعات استشعار مسؤولياتهم تجاه هذه البلاد وبخاصة في مجالات البحوث والدراسات.

(٢) انظر : محمد (ابن بطوطة) . رحلة ابن بطوطة، المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار . شرحه وكتب هوامشه طلال حرب (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ط٤، ص١١ـ٧ . // // للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٦٦، والقول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير وجازان، والقنفذة) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ج٤، ص ٣٥ـ ٣٦ .

وفي عام (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) زار ابن بطوطة المدينة المنورة ومكة المكرمة، وحج تلك السنة، ودون تفصيلات جيدة عن بلاد الحرمين[١] . وفي عنوان جانبي سماه: مكة المكرمة وعادات أهلها، في هذه الجزئية أشار إلى السرويين الذين ذكرهم ابن جبير في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وابن المجاور في القرن (٧هـ/١٣م) وكيف كان قدومهم من بلاد غامد وزهران وما جاورها إلى مكة المكرمة، فيقول: " ... وأهل البلاد الموالية مثل بجيلة[٢]، وزهران، وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز، فترخص الأسعار بمكة، ويرغد عيش أهلها، وتعم المرافق، ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش. ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة[٣] . أجدبت بلادهم، ووقع الموت في مواشيهم، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم، وظهرت فيها البركة، ونمت أموالهم. فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها، اجتمعت نساؤهم فأخرجنهم. وبلاد السراة التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة، كثيرة الأعناب، وافرة الغلات، وأهلها فصحاء بالألسن، لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة . فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر، لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود . وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم . ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم. وذكر أن النبي(ﷺ) ذكرهم وأثنى عليهم خيراً، وقال : (علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء) . وكفاهم شرفاً وفخراً دخولهم في عموم قوله (ﷺ) (الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية) . وذكر أن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) كان يتحرى وقت طوافهم، ويدخل في جملتهم، تبركاً بدعائهم. وشأنهم عجيب كله . وقد جاء في أثر (زاحموهم في الطواف، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً)[٤] .

---

(١) انظر ابن بطوطة، الرحلة، ص١٢٩ وما بعدها . .

(٢) بجيلة بطن عظيم ينسب إلى أمهم بجيلة، وهم بنو أنمار بن أراش بن كهلان من القحطانية، وكان ولا يزال بعض عشائر هذه القبيلة يعيشون في البلاد الواقعة إلى الشمال من قبائل زهران وإلى الجنوب من بلاد الطائف . جولات الباحث في هذه البلاد خلال عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

(٣) الميرة : طعام يدخر أو يجمع للسفر .

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

ونستنتج من هذا الاقتباس الذي ذكره هذا الرحالة القدير، عدة أمور نذكرها في النقاط التالية :

١. ذكر ابن بطوطة بشكل صريح أن السرو أو السرويون هم أهل غامد وزهران وبجيلة وما جاورهم من القبائل العربية الساكنة في مرتفعات السروات الممتدة من الطائف حتى بلاد عسير.

٢. أهمية بلاد السراة للمكيين اقتصادياً، فكان السرويون يصدرون حبوبهم وثمارهم ومواشيهم إلى أسواق مكة المكرمة . ومن ثم كانوا من التجار الرئيسيين الذين تقوم عليهم أسواق الحجاز وبخاصة في مدينتي الطائف ومكة المكرمة .

٣. صفاء عقائد أهل السراة وصدق نياتهم في أداء عباداتهم وفي كتب السنن بعض الأحاديث التي تؤكد هذا القول . وهذا ابن بطوطة ومن قبله ابن جبير ينقلون ما شاهدوه من شعائرهم الدينية في الحرم المكي . والذاهب الآيب في بلاد السراة، وكذلك الجامع لتراث هذه الديار يتأكد له صحة معتقدهم وخلوه من التيارات والعقائد الفاسدة[١] .

٤. حرص أهل السراة رجالاً ونساءً على الاتصال ببلاد الحرمين، بل إنهم يتفاءلون ويتبركون في حياتهم العامة والخاصة بارتياد أرض الحجاز وبخاصة مكة المكرمة.

٥. شدة بأسهم وشجاعتهم مع لطف معشرهم وحسن صحبتهم وهذا ما أكده هذا الرحالة عندما قال : " ... وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم.. "[٢] .

---

(١) حبذا أن نرى أحد مؤرخي تهامة والسراة، أو أحد طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالمملكة العربية السعودية يتخذ الحياة العلمية والدينية خلال العصور الإسلامية المبكرة أو الوسيطة، أو الحديثة والمعاصرة عنواناً لأطروحته في درجة الدكتوراه . ومن يفعل ذلك فسوف يطلعنا على دراسة علمية جديدة في بابها وفي محتوياتها .

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٨١ .

٨ـ العباس بن علي الموسوي (ق١٢هـ/ق١٨م) :

العباس بن علي بن نورٍ الدين بن أبي الحسن المكي الموسوي، ولد وعاش في مكة المكرمة، تنقل سائحاً في العراق والهند واليمن من سنة (١١٣١ـ١١٤٢هـ / ١٧١٨ـ١٧٢٩م)، واستقر في المخا سنة (١١٤٥هـ / ١٧٣٢م)، وعكف على جمع ما لديه من أوراق ثم دونها في رحلته المسماة : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، في مجلدين انتهى منه في (٤ شوال ١١٤٨هـ /١٧٣٥م)، وجعله هديه إلى والي بندر المخا[١] .

وفي شهر شوال (١١٤١هـ/١٧٨٢م) انفرد هذا الرحالة بوصف الطريق من الطائف وأجزاء من السروات حتى وصل بلاد القنفذة ثم بندر اللحية في اليمن[٢]. وأشار إلى بعض النواحي في سراة وتهامة غامد وزهران [٣] ، ومنذ بدأ سائراً في أرض السراة قال: "... ثم أتينا (السراة) وهي قرية[٤]. كبيرة وبها مزارع كثيرة ومياه غزيرة، وأشجار مثمرة، وحصون شواهق ... ثم أضاف : أقول (السراة) متصلة إلى ديار بجيلة وزهران وعنز وبني القرن وبني شبابة والمعافر، وفيها قرى عظيمة وجبال[٥] ....."[٦] . واصل هذا الرحالة طريقه في أرض السروات عبر بلاد بني عدوان وبني سعد وبجيلة وأجزاء من بلاد زهران وذكر مواقع عديدة بحثنا عن تعريف لها في بعض المعاجم القديمة والحديثة فلم نجد لها ذكراً[٧]. ويأتي إلى عقبة ذي قين[٨]، فيقول: "...عقبة ما رأت مثلها في الطول عين، صعبة السلوك

---

(١) للمزيد انظر، خير الدين الزركلي . الأعلام . (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، ص٦، ج٣، ص ٢٦٣، غيثان بن جريس . بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠ـ١٥هـ)، ص ١٦٩ .

(٢) المراجع نفسها .

(٣) المراجع نفسها .

(٤) قال هنا (قرية) والمفروض يقول: (قرى) لأن بلاد السراة من الطائف حتى بلاد غامد وزهران يوجد بها مئات القرى المتفاوتة في الصغر والكبر. مشاهدات الباحث أثناء عبوره هذه البلاد مرات عديدة خلال العقود الثلاثة الماضية .

(٥) تعريف الموسوي هنا أقرب إلى الحقيقة، فبلاد السراة أرض واسعة مأهولة بالسكان كثيرة القرى والأماكن الاستيطانية المتعددة

(٦) انظر حمد الجاسر "مع الموسوي المكي في رحلته (٨) : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس" . مجلة الفيصل . العدد (٢٣٠) السنة (٢٠) (شعبان /١٤١٦هـ)، ص ٣٥ ـ ٣٧ .

(٧) ومن تلك المواقع الحدب، وهناك أكثر من مكان في بلاد غامد وزهران يعرف بهذا الاسم . وعتمة، وناصرة، والمخرة، ودار الشعاب، ودار الحباب . انظر، حمد الجاسر "مع الموسوي المكي ورحلته (٨) ..." ، ص ٣٦ . انظر أيضاً : علي بن صالح السلوك الزهراني . المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد غامد وزهران) (الرياض : منشورات دار اليمامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٧١، ١٢٤، ١٥٣ .

(٨) لم أجد تعريفاً دقيقاً لهذه العقبة، وربما تقع في بلاد غامد وزهران .

جداً، ويسلكها عرب يقال لهم (الغيمات) [١] . وقد وصفهم وصفاً غير جيد، وربما كانت أقواله مبالغاً فيها، وقال عنهم : " .. بأنهم يسكنون الكهوف إلى غير ذلك مما وصمهم به ... "[٢] . ثم يذكر أجزاء من تهامة عند نزوله من عقبة ذي قين، فيقول : ".... نزلنا من العقبة فأتينا أرض تهامة...وفي هذه الأرض أنواع الحيات مختلفة الأشكال والألوان، ونوع منها يسمى الفاسق كالليل ينشط بأنيابه، وينكز بأنفه ووسطه وذيله... "[٣] . ويذكر بعض القرى والأسر والعشائر في تهامة غامد وزهران، ويسير حتى يصل سوق الإثنين في تهامة زهران[٤] . ويأتي إلى قرية الخليف[٥] . : وقد سماها قرية الشيخ الولي إبراهيم الخليفي، ووصف قبره، وذكر أولاده واصفاً إياهم بأنهم أهل سماحة ووقار وصلاح[٦] .

٩ـ موريس تاميزيه (ق١٣هـ/١٩م) :

هذا الرحالة من أوائل الرحالة الأوروبيين الفرنسيين الذين رافقوا حملة محمد علي باشا على عسير عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م) [٧] . ولا نملك معلومات دقيقة عن بداية حياته، وأول من أشار إلى رحلته جاكلين بيرين الفرنسية في كتابها عن الرحالين الأوروبيين الذين زاروا الجزيرة العربية [٨] . وكان عمله كاتباً للبعثة

---

(١) حمد الجاسر " مع الموسوي المكي في رحلته (٨) ... "، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه. وبلاد تهامة مشهورة بأنواع الأفاعي والحيات والعقارب والزواحف الخطيرة . وكذلك الوحوش والسباع المفترسة . وفي الماضي كانت هذه الكائنات تتواجد بكثرة في جميع نواحي تهامة . واليوم بعد أن انتشر العمران، وفتحت الطرق، وزاد التمدن بدأت هذه الكائنات تتلاشى بل بعضها انقرض فلا يوجد له ذكر أو أثر . مشاهدات الباحث وتجوله في بلاد تهامة منذ ثلاثين عاماً .

(٤) لا نجد تفصيلات دقيقة توضح لنا مكان هذا السوق ونشاطه التجاري خلال القرون الإسلامية الماضية. وربما أنه يقع على مقربة من قرى الخلف والخليف المذكورة في التاريخ . للمزيد عن هذه القرى انظر الحاشيتين التاليتين .

(٥) الخُلَيِّفَ : بضم الخاء وكسر اللام وسكون الياء بعدها فاء، قرية كبيرة من قرى قبيلة الجبر بتهامة زهران . تقعَ شمال قلوة على مسافةٍ أربعة أو خمسة أكيال، ويسمون سكانها (المشاييخ)، ويذكر أنهم ينتسبون إلى بني هاشم، ويسمون أيضاً بالفقهاء لأنهم يعرفون القراءة والكتابة في وقت كانت الأمية متفشية في سكان المنطقة . انظر: علي السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي، ص ٩٤ .

(٦) المرجع نفسه . وللمزيد عن بلدة الخليف الأثرية، انظر، أحمد عمر الزيلعي . الخلف والخليف آثارهما ونقوشهما الإسلامية (الرياض : مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٧هـ)، ص ١١ ومابعدها .

(٧) للمزيد انظر غيثان بن جريس " إقليم عسير في عيون الرحالة الأوروبيين " بحث مقدم ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٨-١٠شعبان /١٤٢٠هـ الموافق ٨/١٦ نوفمبر١٩٩٩م) . ونشر في كتاب الندوة : العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ (بحوث ودراسات) (القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ٤٠٩ وما بعدها، وللمؤلف نفسه . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة : العويفي للنشر والإعلان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ١٦٥ .

(٨) انظر جاكلين بيرين . اكتشاف جزيرة العرب (خمسة قرون من المغامرة والعلم) . ترجمة قدري قلعجي (بيروت : دار الكتاب العربي، د . ت)، ص ٢٥١ وما بعدها .

الطبية التي رافقت حملة الباشا، وقام بتدوين يومياته بشكل تفصيلي[١] . وكتاب رحلته الذي يهمنا في هذا القسم بعنوان: (رحلة في بلاد العرب) الحملة المصرية على عسير (١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م) . طبع لأول مرة باللغة الفرنسية في باريس عام (١٨٤٠م)، ويقع في جزأين تحت عنوان: رحلة في الجزيرة العربية . الجزء الأول يدور في مرحلة دخول الجزيرة حتى الحجاز. أما الجزء الثاني (٤٠٢) صفحة فهو الخاص ببلاد عسير وحملة محمد علي عليها، وقد أعيدت طباعته في فينا عام (١٩٧٦م)[٢] . والجزء الثاني من هذا الكتاب ترجم إلى اللغة العربية عام (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)[٣]، وهذه النسخة المترجمة هي التي اعتمدنا عليها في هذا القسم . والكتاب يقع في حوالي(٣٥٨) صفحة من القطع المتوسط مشتملاً على مقدمة المترجم وفهارس أخرى، وفي (١٥) فصلاً يدون هذا الرحالة الأحداث السياسية والحضارية التي خاضتها حملة محمد علي باشا فى عسير منذ خروجه من الطائف مروراً ببعض الأجزاء الشرقية من بلاد غامد وزهران حتى بيشة ثم أبها[٤] . وإذا كان جل الكتاب يدور حول التاريخ السياسي والحضاري لبلاد عسير في منتصف القرن (١٣هـ/١٩م)[٥] ، إلا أن بعض الأجزاء الشرقية من منطقة غامد وزهران قد ورد ذكرها في هذا الكتاب[٦]، ووادي أو بلاد العقيق في ديار غامد حظيت بنصيب جيد في شروحات هذا الرحالة[٧] .

ووادي العقيق كان إحدى المحطات الرئيسة التي اتخذتها جيوش محمد علي باشا قاعدة للانطلاق نحو بلاد عسير، بل إن بعض الأشراف كانوا يتولون إدارة

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) انظر : ابن جريس، (إقليم عسير ..)، ص ٤٢٠ وما بعدها، للمؤلف نفسه، بحوث في تاريخ عسير، ص ١٢٨ .

(٣) ترجمة الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة، أستاذ التاريخ المشارك سابقاً بجامعة الملك سعود . وعنوان الكتاب المترجم . رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير) (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م) (الرياض : مطابع وإعلانات الشريف، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م) .

(٤) المصدر نفسه . (النسخة العربية)، ص٢٨ وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه . ص ٩١ وما بعدها .

(٧) العقيق : واد وبلدة كبيرة تقع شرقي الباحة بمسافة (٤٥) كيلاً، وتبعد عن بيشة حوالي (٨٠) كيلو متراً . وهي حاضرة بادية غامد . والعقيق أيضاً منطقة زراعية خصبة يزرع بها النخيل والعنب والرمان والمشمش والحنطة والشعير، وجميع أنواع الخضار . وتسوق منتجاتها الفائضة إلى الطائف ومكة . وتقع البلدة شمال وادي العقيق، وقد سميت باسم الوادي . ولهذا الوادي ذكر في بعض كتب التراث . انظر: السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

بلاد غامد وزهران، وكانوا على صلة حسنة بالعثمانيين . ومنهم الشريف منصور بن زيد الشنبري، الذي كان شيخاً لوادي زهران أيام حملة محمد علي، وقد ورد ذكر هذا الشريف في كتاب تاميزيه، وما قدم من مساعدات معنوية ومادية لجيوش الباشا، بل إن الشريف منصور نفسه كان على رأس ألفين من رجاله للمشاركة في الحملة[١] . وفي الكتاب معلومات جيدة عن تجمع بعض جيوش الباشا في وادي العقيق، واستعداداتهم، واستعراضهم، بل استقبالهم بعض الوفود والفرقة العسكرية التي كانت تتوافد على الجيش والقيادة العسكرية في ذلك الوادي[٢] .

أما بلاد العقيق نفسها وأهلها فقد أشار إليها تاميزيه عند مجيئه إليها مع الجيش في (١٢ يوليو/ ١٣٨٤م) ، وتحت عنوان جانبي سماه : الإقامة في العقيق، فقال : " ... موقع العقيق يتكون من سهل زراعي فيه الكثير من مزراع النخيل، ومحاط بسلسلة من الجبال تمتد من الشمال إلى الشمال الغربي... وبأعلى أحد جبال العقيق الصغيرة بنيت قرية العقيق المتواضعة..."[٣] . ثم فصل الحديث عن إقامة جيوش الباشا في بلاد العقيق، مع ذكر بعض أسلحتهم وعتادهم وأجناسهم، وكيف تكيفوا مع طبيعة الأرض أثناء النزول والإقامة[٤] .ويتحدث أيضاً عن قرية العقيق وأهلها فيقول: " ... تتكون قرية العقيق الكئيبة من حوالي ثلاثين منزلاً نصفها مبني بالحجارة والنصف الآخر مبني بالآجر الطيني، ولها شكل مكون من ستة أقدام مربعة، وبعضها ليس له سقف، ومع هذا فإن الناس يسكنون بها... "[٥] . ويشير إلى أهل العقيق عندما وصلت جيوش الباشا إلى بلادهم فيذكر أنهم هربوا من منازلهم، ولم يبق إلا المرضى أو العبيد من النساء والرجال الذين يقومون بحراسة ممتلكات أسيادهم، ثم يصفهم عندما شاهدهم فيقول : " ... خرجوا لاستقبالنا في منظر مؤلم جداً، وملابسهم عبارة عن خرق رثة، بينما الأطفال عراة، والكبار يرتدون ملابس جلدية ... "[٦] . ويذكر أن أولئك العبيد الذين رأوهم في وادي العقيق كانوا من ذوي البشرة السوداء، وبعضهم كانوا

---

(١) تاميزيه، الرحلة، ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاميزيه، المصدر نفسه، ص ١٠٤ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٥ .

(٦) المصدر نفسه، ١٠٥ .

أحراراً، لكنهم لايمانعون في بيع بعض أطفالهم، وقد عرضوا على تاميزيه شراء بعض الأطفال الصغار بثلاثة وأربعة ريالات فرانسي للفرد الواحد[١].

ويشير تاميزيه إلى بعض الصور الاجتماعية التي شاهدها في وادي العقيق الغامدي، فيقول: " ... يتكون أثاث منازل العقيق من فراش واحد فقط يستخدم لغرضين، الأول للجلوس عليه في النهار، والآخر فراش لكل العائلة عند المنام، وتصنع النساء بطانيات من الصوف الخالص الملون"[٢]. ويقول أيضاً: "...رأينا بالقرب من القرية بناءً مربعاً يشبه القلعة قد هدمته السنون، وإلى الشمال الغربي من القرية توجد أبراج كثيرة مبنية على قمم الجبال، وذات لون رمادي، هذا النوع من الأبراج لا يستفاد منه إلا أثناء حروب البدو مع بعضهم، إذ أن رصاصات قليلة كافية لهدمها.. "[٣]. ويشير تاميزيه إلى مناخ بلاد العقيق فالجو ليلاً يميل إلى البرودة، ودرجة الحرارة مرتفعة نسبياً في النهار، وذكر بعض الأشجار والنباتات التي شاهدها في الأجزاء الشرقية من الديار الغامدية[٤].

١٠+١١ـ السير كيناهان كورنواليس + روبن بدول (ق١٤هـ/٢٠م) :

هذان الرحالان إنجليزيان عاشا خلال القرنين (١٣ـ١٤هـ/١٩، ٢٠م). الأول: كورنواليس (Cornwallis) أحد رجال الاستخبارات البريطانية، أرسلته حكومته إلى الشرق الأوسط من أجل تدوين تقرير عن أوضاعها التاريخية والحضارية، واستطاع أن يدون عنها معلومات قيمة في عام (١٣٣٥هـ/١٩١٦م)، رفعها إلى المكتب العربي التابع للمخابرات البريطانية في القاهرة[٥]. وقد أعيد طباعة هذا

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٠٩ . ونستطيع القول أن بلاد غامد وزهران جديرة بالبحث والدراسة وبخاصة في التاريخ الحضاري خلال القرون الماضية المتأخرة . ولازال هناك الكثير من الآثار والنقوش والوثائق والروايات الشفاهية التي تصب في خدمة البحث التاريخي لهذه البلاد . وجامعة الباحة عليها مسؤولية كبرى تجاه الأرض والناس فتدرس أحوالهم، وتنشئ مراكز بحثية علمية أكاديمية تقوم بالخدمات البحثية والاجتماعية تجاه المجتمع الغامدي والزهراني .

(٤) تاميزيه، ص ١١٦ ـ ١١٨ .

(٥) للمزيد عن هذا الرحالة، وعن وظيفة المكتب العربي الذي كان في القاهرة، وتابع للاستخبارات البريطانية، انظر: مديحة درويش . تاريخ الدولة السعودية خلال الربع الأول من القرن العشرين (الرياض: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص١١١ وما بعدها، غيثان بن جريس . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة: دار العويفي للنشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص١٢٤ ـ ١٢٥، للمؤلف نفسه . القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير، وجازان، والقنفذة) . (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) . ج٤، ص٣٧ـ ٣٨ .

التقرير في لغته الرئيسة (الإنجليزية) ونشر في بعض المطابع البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية عام (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، وخرج في هيئة كتيب من القطع الصغير بعنوان: **عسير قبل الحرب العالمية الأولى (Asir Before World War1.)**، ويقع في (١٥٥) صفحة، ويحتوي على (١٧) فصلاً قصيراً، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا القسم[١].

أما روبن بدول (R. Bidwall)، فليس رحالة بقدر ما هو أستاذ جامعي أكاديمي بجامعة كمبردج، وله العديد من الدراسات، وقد ترجم بعضها إلى اللغة العربية[٢]. وله كتاب لازال باللغة الإنجليزية بعنوان : **الشخصيات العربية في مطلع القرن العشرين**، قام أحد الباحثين المعاصرين بترجمة الفصلين الثاني والعاشر من هذا الكتاب[٣]، وهذه النسخة المترجمة لازالت مسودة أولية، ولم تنشر في هيئة كتاب حتى الآن، وجل مادة هذين الفصلين عن تاريخ بلدان وشخصيات في مناطق جازان وعسير والباحة، وهذه المسودة هي التي رجعنا إليها في هذا القسم[٤].

ونجد كورنواليس يورد تفصيلات جديدة عن المناخ والتضاريس وبعض التجارات في مناطق عسير، والباحة، والقنفذة، وجازان[٥]، ويذكر القوى السياسية التي كانت صاحبة النفوذ في هذه المناطق خلال الثلث الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ويشير إلى أن الإدريسي في جازان كان يمد نفوذه أحياناً إلى

(١) انظر النسخة الإنجليزية، PP . 7FF، وهذا الكتاب ترجم ترجمة شعبية إلى اللغة العربية، منذ بداية القرن (١٥هـ/٢٠م) . وهذه الترجمة متداولة بين أيدي الناس . ولم يحقق هذا الكتاب حتى الآن تحقيقاً علمياً، وهو جدير بالتحقيق والدراسة، بل يستحق إلى أن يكون موضوع رسالة ماجستير، ترجمة ودراسة وتحقيقاً . ومن المؤسف أن أحد أبناء منطقة عسير قد اعتدى على النسخة الشعبية المترجمة ونسبها إلى نفسه، وطبعها على هيئة كتاب في اليمن . وصارت هذه الطبعة متداولة بين أيدي الناس . ومن قام بهذا العمل فقد ظلم نفسه ، ونسب لشخصه عملاً لم يكن من تعبه أو جهده . (والله المستعان) .

(٢) للمزيد عن روبن بدول، انظر، كتابه : الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية . ترجمة عبد الله آدم نصيف (الرياض : د. ن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٧ وما بعدها، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٤، ص٣٨ .

(٣) أ . د . إسماعيل محمد البشري، مدير جامعة الجوف حالياً، هو الذي قام بترجمة هذين الجزءين، ونأمل أن يسعى إلى ترجمة الكتاب كاملاً ونشره .

(٤) توجد صورة من هذين الفصلين المترجمين ترجمة أولية في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (قسم البحوث والدراسات غير المنشورة) .

(5) Cornwallis, 7-23.

مرتفعات عسير وبلاد غامد وزهران .ناهيك عن الأجزاء التهامية فهو صاحب السلطة الرئيسة على منطقة جازان وما جاورها شمالا حتى بلاد القنفذة(١).

وعن بلاد غامد وزهران ذكر لنا بعض الشروحات المختصرة عن هاتين القبيلتين من حيث عدد سكانها، وأسماء شيوخها ومكانتها السياسية، وصلاتها مع الأتراك والأشراف والإدريسي(٢). ونوه أيضاً ببعض أعلام هذه البلاد فذكر لنا منهم ستة هم : عزيز بن مشيط شيخ الأجزاء الحضرية من بلاد غامد، ومحمد بن عبد الرحمن شيخ الأجزاء البدوية في القبائل الغامدية، ومحمد بن علي من عشيرة بني كبير الغامدية وكان عضواً في البرلمان العثماني، وراشد بن جمعان شيخ الأجزاء الحضرية من زهران، وكان ذا علاقة حسنة مع آل عائض في عسير ومع الأتراك، ثم تحالف في نهاية الأمر مع الإدريسي، وسعيد بن عصيدان شيخ العشائر البدوية الزهرانية، ويذكر أنه كان محارباً مشهوراً ومتحالفاً مع الإدريسي، وصالح بن عجلة، وهو تاجر غني يسيطر على معظم التجارة ما بين غامد ومكة، وكان يتاجر في التبغ الذي كان يزرع منه كميات كبيرة في بلاد غامد(٣).

وفي موقع آخر من كتابه يشير إلى الطرق التي كانت تخرج من أبها إلى الطائف عبر جبال السروات، وعند وصوله إلى بلاد غامد وزهران ذكر بعض المحطات على تلك الطريق مثل: الباحة، وربما أن هذه البلدة هي مدينة الباحة الحالية، وذكر أنه شاهد فيها حوالي (٢٥٠) بيتاً، ثم أشار إلى محطات أخرى تقع إلى الشمال من مدينة الباحة مثل: مقتل الباشا، ورهوة البر، والمندق، وعقبة عصيدان . وذكر بعض المعلومات المختصرة عن جغرافية هذه المحطات، وأشار أيضاً إلى بعض المزروعات والخضروات والفواكه التي شاهدها في تلك النواحي(٤).

أما روبن بدول فقد نقل كثيراً من معلوماته من كورنواليس، وبخاصة في حديثه عن بعض أعلام غامد وزهران، وشروحاته عن القبيلتين الغامدية

(١) المصدر نفسه . PP. 22 FF.

(٢) المصدر نفسه PP . 22FF . وكما ذكرنا سابقاً، فهذا الكتاب يستحق الترجمة العلمية، ثم الدراسة والتحقيق الدقيقين على شرط أن يكون عملاً علمياً أكاديمياً جيداً . وحبذا أن يقوم أحد طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالمملكة العربية السعودية بهذا العمل العلمي .

(٣) المصدر نفسه PP .89 ,95 ,96,100,101,102

(٤) المصدر نفسه، P . 124.

والزهرانيـة، إلا أنـه لم يكتف بمـا ذكر كورنواليس عن هاتين القبيلتين، وإنما رجع إلى بعض المصادر والكتب الأخرى التي أشارت إلى هذه القبائل[١]. وكون تفصيلات بدول أشمل فسوف نقتبس بعض التفصيلات من مدوناته، فذكر موقع قبيلة غامد وما يحيط بها من القبائل، وأشار إلى أعداد مقاتليهم نقلاً من الرحالة بوركهارت[٢]. وتقارير أخرى فذكر أنهم يتراوحون من (٥٠٠٠ ـ ١٠،٠٠٠) مقاتل، وهناك من قال أن عدد أفراد القبيلة حوالي (٦٠،٠٠٠) رجل، مع أن بدول رجح أن يكونوا أكثر من ذلك بكثير[٣]. ثم قال: "... الطريق الداخلي الواصل بين أبها والطائف يشق وطنهم الخصيب والكثير المياه، والقبيلة منقسمة إلى قسمين بدو مستقرين[٤]...فالبدو ...أثرياء بجيادهم وإبلهم وأغنامهم ولا يخضعون لأي سلطة ورئيسهم محمد بن عبد الرحمن[٥]... ورئيس العرب المستقرين عزيز بن مشيط يتبع شريف مكة ويزوره باستمرار، ويذهب عدد كبير من رجاله كل عام إلى مكة وجدة والطائف، ويعملون حمالين في موسم الحج، ويمكثون هناك حوالي أربعة أشهر ويعودون بمؤن لباقي العام، كثير منهم يستثمرون مدخراتهم في شراء البنادق التي يشترونها من أحد السوقين الرئيسين، الرويس بالقرب من جدة، أو نزلة بني مالك. كما يشترون البنادق أيضاً من رجال ألمع ..."[٦]. ويذكر أيضاً: ".... ولنسائهم شأن أكثر أهمية من غيرهم من معظم القبائل، ولهم قسمة متساوية في أشكال العمل اليدوي، ولهن رأيهن في المجالس القبلية[٧]... وتغزل النساء الملابس والبطاطين من شعر البعير، ونظراً للهجرة السنوية إلى الحج، فإن القبيلة أكثر

---

(١) انظر المسودة المترجمة من كتاب بدول، ص ٥، ٧، ٩، ١١، ١٦، ١٧، ٦١ـ ٦٥. (ونسخة من هذه المسودة في مكتبة د.غيثان بن علي بن جريس العلمية (البحوث والدراسات غير المنشورة).

(٢) بوركهارت: هو جوهن لويس (١١٩٩ـ١٢٣٢هـ/ ١٧٨٤ـ١٨١٧م) سويسري الأصل عاش في بريطانيا وتعلم بها، ثم سافر إلى الشرق الأوسط وتنقل في بلادها، ودخل الإسلام، وله العديد من المؤلفات منها: رحلة إلى الجزيرة العربية، طبع في لندن عام (١٨٢٩م). انظر نجيب العقيقي. المستشرقون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م)، ج٢، ص٥٢.

(٣) المسودة المترجمة من كتاب بدول، ص ٦١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٢.

تحضـراً من غالبيـة القبائل، ولها شـهرة طيبـة في الكرم والضـيافة.. [١]. وفي صـفحات أخرى يعدد عشـائر قبيلة غامد الحضـرية التي كان شيخها عزيز بن مشـيط، فيذكـر (٢٧) قسـماً مع ذكـر الشـيخ أو النائب لكل فخذ وعشـيرة [٢]. ويذكر أيضـاً اسـم البـدو الذين كان شـيخهم محمد بن عبـد الرحمن، لكنه لم يشـر إلى أقسـام وعشـائر البادية[٣].

كما تعرض بدول لقبيلة زهران، فذكر حدودها، والأقسام القروية والبدوية وشيوخها مثل: راشـد بن جمعان وسـعيد بن عصـيدان، ثم قال عنهم: " منطقتهم خصبة وكثيفة السكان، إذ يقال أن القبيلة بأسرها تبلغ (٣٠،٠٠٠) رجل[٤]. ثم قال: " وزهران جنس مقاتل خالص ولا يتركـون منطقتهم أبداً، عـدا وقت الغارات، وهم يزرعون الأرض ويصـبحون أغنياء من خلال ذلك، ولكنهم يحتقرون كل أشكال العمل اليدوي الأخرى.. "[٥].

وعن بطون قبيلة زهران يذكر ست عشائر في القسم القروي مع ذكر شيوخهم أو نوابهم، والمشـيخة الرئيسـة في هذه العشائر تعود إلى راشـد بن جمعان[٦]. أما الأجزاء البدوية التي تقع تحت مشـيخة الشيخ سعيد بن عصيدان فذكر أيضاً سبع عشائر تأتمر بأمره، دون أن يذكر نواباً لتلك العشائر السبع[٧].

ونستخلص من أقوال هذين الإنجليزيين عدة نقاط نوردها على النحو التالي:

١. كورنواليس يعد المصـدر الرئيس لبدول، مع أن الأخير وظف تجاربه البحثية في الرجوع إلى مصادر أخرى أشارت إلى قبيلتي غامد وزهران بشكل أوسع.

٢. ما دون هذان الباحثان مختصـر جـداً مقارنة بما ذكراه عن مناطق أخرى في جنوبي البلاد السـعودية مثل جازان وعسـير وغيرها . وربمـا كان وجود بلاد غامـد وزهـران إلى الداخل أو في الوسـط من بلاد السـراة سـبباً رئيسـاً في تجاهلهـا أو عدم ذكرها بشـكل مطـول عند الرحالين وبخاصـة الوافدين من

(١) المصدر نفسه، ص٦٢

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(٤) المصـدر نفسـه ، ص ٦٤ . وأعتقد أن هذا العدد غير صحيح لأن بلاد زهران أرض واسعة وعشائرها وبطونها كثيرة ومن ثم فهم أكثر من ذلك بكثير، حتى وإن كانت هذه الإحصائيات في النصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) .

(٥) انظر المسودة المترجمة من كتاب بدول، ص ٦٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص٦٦ .

خارج الجزيرة العربية، مثل : بدول وكورنواليس .أو من الرحالة الحجازيين أو اليمنيين الذين كانوا يرتادون الطرق التهامية أو السروية الشرقية التي تمر عبر رنية وبيشة وغيرهما . ومن ثم فالأجزاء السروية مثل الديار الغامدية والزهرانية وما جاورها كانت في معزل عن المؤلفين وأرباب القلم[١] .

١٢ـ الشريف البركاتي (ق١٤هـ/٢٠م) :

هو شرف بن عبد المحسن البركاتي، ولد في الحجاز عام (١٢٨٨هـ / ١٨٧١م)، عمل في حكومة الشريف حسين بن علي، وبعد زوال ملك الأشراف من الحجاز عمل في دولة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود[٢] . وقد دون رحلته الموسومة بـ : الرحلة اليمانية، وهي نتاج لرحلة الشريف حسين بن علي (أمير مكة) عندما خرج من الحجاز إلى أبها عبر منطقة الساحل عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م) من أجل فك حصار الإدريسي على أبها[٣] . ومادة الكتاب تدور حول المعارك العسكرية التي وقعت بين جيش الشريف حسين وجيوش الإدريسي، وانتهت بدحر الإدريسي ثم رجوع الشريف إلى الحجاز عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السراة[٤] .

وبلاد غامد وزهران لم يكن لها نصيب كبير في هذه الرحلة[٥] ، وإنما ورد فيها معلومات بعضها غير دقيق أو صحيح، فعن قبيلة غامد يقول البركاتي : " في الساعة العاشرة يوم الخميس الخامس عشر من شعبان سرنا ونزلنا في أعلى وادي رنية .. وهذه الديار لقبائل غامد من أهل الشرق .. وقبيلة غامد متفرقة، بعضهم قاطن بهذه الديار، والقسم الأعظم منهم قاطن بتهامة في الجهة الغربية من جبل الحجاز .. "[٦] .

---

(١) وهذا الانعزال وصعوبة تضاريس أرض السروات جعلها قليلة الذكر عند المؤلفين وكتب التراث الإسلامي المبكر. والمتجول في هذه البلاد يشاهد الكثير من النقوش والآثار المتنوعة والجديرة بالدراسة . وإن بحثنا عن تاريخ هذه البلاد في مثل هذه المصادر، فقد نجد مادة علمية جيدة توضح لنا بعض التاريخ والحضارات التي عاشتها هذه البلاد منذ العصر الجاهلي إلى بدايات العصر الحديث والمعاصر.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن هذا الشريف انظر كتابه : الرحلة اليمانية . تحقيق عاتق بن غيث البلادي (بيروت : دار النفائس، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٥ وما بعدها ، ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٩٠ وما بعدها، للمؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٤، ص ٣٤٦-٣٤٧. وهذا الكتاب قام على تحقيقه ونشره أكثر من واحد، وقام بطباعته أكثر من دار نشر، وأول طبعة خرجت منه كانت في عام (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) ، وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على طبعة دار النفائس (تحقيق البلادي)

(٣) للمزيد من التفصيلات عن الإدريسي وحصاره مدينة أبها، انظر، محمد العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج٢، ص ٦١٩ - ٦٢٢، ٦٦٥-٧٠٦ .

(٤) انظر كتاب : الرحلة اليمانية، ص ١٢ وما بعدها .

(٥) الكتاب يقع في (٢٠٥) صفحة من القطع المتوسط ... انظر الكتاب نفسه، طبعة دار النفائس (بيروت) .

(٦) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٩٩ .

والحقيقة أن قبائل غامد لا تسكن رنية أو حتى أوديتها الرئيسة وإنما هي قريبة من بعض فروع واديي رنية وتربة بل بعض بوادي غامد تسكن في أعالي وادي رنية وتمتد غرباً وجنوباً إلى الباحة ثم الأجزاء التهامية في المخواة وغامد الزناد وما وجاورها[١].

ويتحدث البركاتي في موقع آخر من كتابه عن قضاء غامد في عهد المتصرفية العثمانية في عسير (١٢٨٩-١٣٣٧هـ/١٨٧٢-١٩١٨م) [٢]، ويقول: " قائم مقامية غامد، ومركزها رغدان شمال النماص، وشرقي مرفأ دوقة التي هي على البحر الأحمر، ويتبعها من القبائل غامد، وهي قحطانية وعددها مائتان وعشرون ألفاً . وقبيلة زهران، وعددها مائة وخمسون ألفاً .. وهي واقعة في الحد بين متصرفية عسير ومدينة الطائف التابع لولاية مكة المشرفة، ويتبعها قبيلة المحلف وعددها أربعون ألفاً وهي قحطانية أيضاً .. " [٣].

والواضح من هذه النقولات التي وصلتنا من هذا الرحالة، ومن سير رحلته أنه لم يذهب إلى بلاد غامد وزهران على الإطلاق، وإنما سار في الذهاب إلى أبها من أجزاء تهامية تقع إلى الغرب من الديار الزهرانية والغامدية، وفي الرجوع إلى الطائف سلك سفوح السروات الشرقية عبر بيشة ورنية والخرمة، وهذه المواقع جميعها تقع إلى الشرق والشمال الشرقي من بلاد غامد وزهران . أما ذكره الإحصائيات السكانية عن الغامديين والزهرانيين فهي معلومات غير دقيقة وتحتاج إلى مصادر تثبيت، وربما حصل عليها من عامة الناس، أو من مصادر غير موثوقة. وقوله أن قبيلة المحلف تتبع لقبائل زهران وغامد فهذا قول غير صحيح، لأن قبيلة المحلف من شهران العريضة، وموطنهم بلاد بيشة[٤].

١٣- محمد عمر رفيع (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

الأستاذ رفيع من أهل مكة المكرمة، ذهب ضمن بعثة تعليمية إلى عسير عام (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) ، وتولى وظيفة مدير مدرسة رجال ألمع، ودون كتابه الموسوم بـ : في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ) [٥]. جمع فيه بين منهجي الرحلة والبحث في كتب

---

(١) مشاهدات الباحث وتجواله في بلاد غامد وزهران عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، وللمزيد انظر : فؤاد حمزة، في بلاد عسير (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ٤٨ .

(٢) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٩٩ .

(٣) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ١٢٣ .

(٤) مشاهدات الباحث وتجواله في مناطق الباحة وعسير خلال عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

(٥) طبع لأول مرة في مكتبة المعارف بالطائف (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، وهذه النسخة هي التي تم الرجوع إليها في هذه الدراسة .

ومصادر أخرى[١]. وهذا المعلم والرحالة سار من الحجاز إلى أبها عبر الطريق الشرقية لبلاد السراة، وقد اجتاز الخرمة ورنية وبيشة وخميس مشيط حتى أبها، كما تنقل في أجزاء عديدة من منطقة عسير، وسار إلى بعض القرى الجازانية[٢].

لم يثبت أن محمد رفيع زار بلاد غامد وزهران، ولكنه أورد عنها بعض المعلومات التاريخية الحضارية الجيدة التي سمعها أو قرأها في مصادر أخرى، فقال: " ... قبل أن يتيسر لي طبع هذه الرحلة كانت الحكومة قد سيرت في أواخر عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) بعثة زراعية من بعض المختصين لإرشاد المزارعين من سكان السراة وغيرهم، وكان يشارك البعثة في غايتها الأخ السيد حسن شطا الخبير الزراعي في مديرية الزراعة السعودية [٣]. وقد أخبرني أنهم في أثناء تجوالهم في بلاد غامد من السراة اطلعوا على أعداد وفيرة من أشجار العتم، وتحقق لديهم أنه الزيتون البري، كما اطلعوا على أشجار تسمى (الضرو) وتحقق أنه شجر الفستق البري. وذكر لي أنه من المتيسر المكن تطعيم شجر العتم والضرو بأقلام من شجر الزيتون والفستق الثمريين فتنقلب الأشجار المطعمة إلى أشجار تجود بالمحاصيل الوفيرة من النوعين لأن أشجار العتم والضرو الموجودة في السلسلة الجبلية من السراة تقدر بكميات وفيرة تتجاوز عشرات الألوف"[٤].

ومما سمع وقرأ قوله : " ... إن منطقة السراة على استعداد كامل لزراعة شتى أنواع الثمار وأجودها، فقد جاء في تقرير البعثة الأمريكية الزراعية التي جابت المملكة للدراسة والاختبار قولها : وزراعة الأنواع الطيبة من الخوخ والمشمش والبرقوق والتين

---

(١) للمزيد انظر المصدر نفسه، ص٤ وما بعدها.

(٢) محمد رفيع، في ربوع عسير، ص ١٠ وما بعدها. للمزيد عن هذا الرائد التعليمي في بلاد عسير، انظر بعض التفصيلات عنه في كتابنا : تاريخ التعليم في منطقة عسير، ج١، ص٥٨-٥٩، ٢٥٤-٢٥٦. وهناك رواد عديدون ظهروا في مناطق عسير والباحة وغيرها خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) وهم جديرون بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية.

(٣) أسرة آل شطا من الأسر الحجازية المعروفة، وفيها رموز عديدون كان لهم إسهامات عديدة في بناء المجتمع الحجازي، ومنهم : السيد صالح بن بكري شطا وغيره. انظر: محمد علي مغربي. أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري (جدة : مكتبة تهامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٦٣ ومابعدها.

(٤) انظر : محمد رفيع، في ربوع عسير، ص ٤٧-٤٨، حاشية رقم (١). والمتجول في بلاد السروات من الطائف حتى بلاد قحطان ونجران يجد توافر ملايين الأشجار والنباتات المتنوعة في أحجامها وأشكالها وفوائدها. وكتاب النبات، للدينوري من أهل القرن (٣هـ/٩م) في عدة مجلدات عن النبات، وجل مادة تلك الأسفار تدور حول أشجار ونباتات أرض السروات الممتدة من الحجاز إلى اليمن. ونقول أن الجامعات السعودية المحلية في جنوبي البلاد السعودية عليها مسؤليات كبرى فتشجع الباحثين ومراكز البحوث التي تدرس نباتات وأشجار وحيوانات مناطق الباحة وعسير والقنفذة وجازان ونجران، ويجب على هذه الجامعات ألا تتقاعس عن الانخراط في هذه المشاريع العلمية البحثية المهمة.

والسفرجل والعنب في هذه المناطق لا تكفي حاجة السكان بالفواكه الطازجة في أوقاتها وتجفيفها واستعمالها في الأوقات الأخرى فحسب، بل يمكن أن تمون الأسواق البعيدة بالفواكه الجافة ..." [١]. ونؤكد على أن ما ورد في هذه الأقوال عين الصواب، فبلاد السراة من الطائف حتى غامد وعسير وقحطان وما جاورها تتمتع بمناخ جيد وبخاصة في فصلي الصيف والخريف، كما أنه يوجد بها غطاء نبات جيد، ناهيك عن التربة والزروع والنباتات والأشجار والحيوانات التي توجد في هذه البلاد، فجميعها متوفرة، وفوائدها كثيرة . وتحتاج إلى من يرعاها والاستفادة منها[٢].

١٤- ولفرد ثسيجر (ق١٤هـ/٢٠م) :

هذا الرحالة الإنجليزي قام بالعديد من الرحلات في بلدان عديدة، ومنها جزيرة العرب، جاء إلى أجزاء من بلاد تهامة والسراة، فكتب من خلال المشاهدات في جوانب عديدة . كما حظي برعاية وحماية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الذي منحه إذناً بالتنقل في المملكة العربية السعودية . وقد أشار إلى ذلك في رحلته التي نشرت لأول مرة باللغة الإنجليزية عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م)، والمجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، هي التي تولى نشرها . وقام الدكتور أحمد عمر الزيلعي بترجمة هذه الرحلة ونشرها في مجلة الدارة، العدد (١) السنة (١٤) عام (١٤٠٨هـ /١٩٨٨م) [٣]. وهذه النسخة المترجمة التي اعتمدنا عليها في مبحثنا هذا[٤]. ونجد ثسيجر يرتاد مرتفعات عسير من أبها إلى وادعة قحطان وبعض أجزاء من جبال تهامة، ثم يعود أدراجه نحو الحجاز فيسلك سروات عسير وغامد وزهران حتى الطائف[٥]. والحقيقة أن ما وصلنا من مدونات هذا الرحالة يأتي في مرتبة جيدة من حيث ندرة المعلوماتٍ وجودتها، إلا أن بلاد زهران وغامد لم تجد عناية كبيرة عنده فقد مر بها سريعاً، ولم يدون عنها

---

(١) يذكر رفيع في توصياته أن الحكومة السعودية بجب أن تهتم بما ورد في هذا التقرير . ويشير إلى أن هذا التقرير الخاص بالبعثة الأمريكية الزراعية في المملكة قد نشر في مطبعة مصر عام (١٩٤٣هـ)، والمعلومات التي أشار إليها في صفحة (١٨٤) من هذا التقرير . انظر : محمد رفيع، في ربوع عسير، ص٤٧-٤٨ .

(٢) هذا ما لمسناه من خلال تجوالنا في هذه البلاد منذ أربعة عقود . كما أن بعض البحوث والدراسات العلمية والإنسانية قد أشارت أيضاً إلى الثراء الطبيعي والبشري لهذه الأوطان .

(٣) انظر : مجلة الدارة، ص٩٣-١٢٣ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه .كانت رحلة هذا الرحالة في جنوبي البلاد السعودية في عام (٦٥-١٣٦٦هـ/١٩٤٦-٤٥م) . للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص١٩٩-٢٠٠، المؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص ٣٦٣ وما بعدها.

تفصيلات كثيرة مثلما فعل مع مناطق أخرى في تهامة وسروات منطقة عسير، أو بلاد القفنذة وغيرها[١]. ومما شاهد في ديار غامد وزهران قوله: "... وبعد أن ارتحلنا على امتداد بلاد بلقرن وخثعم[٢]، دخلنا منطقة غامد التي تُدار مركزيا من الظفير[٣]. وهي قرية صغيرة بنيت حول قلعة، وسوقها الثلاثاء، ومنها يوجد منظر جميل لجبل شدا الشامي الذي يشكل إطارا عند تهامة الوادي، لقد وجدت قبيلتي غامد وزهران، بشكل ظاهر من أكثر قبائل الحجاز إكراما للضيوف[٤]. ولا توصد الأبواب بين القبائل المضيافة، والضيوف يدخلون البيت إذا كان صاحبه خارجا عنه، ويجعلون أنفسهم كأنهم في بيوتهم."[٥].

١٥ـ حمد بن محمد الجاسر (ق١٤ـ١٥هـ/٢٠ـ٢١م) :

ولد حمد الجاسر تقريبا عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، في أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة في قرية البُرُود من إقليم السِّر الواقع جنوب القصيم من نجد. حفظ القرآن وتعلم الكتابة ثم انتقل إلى الرياض سنة (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) وهو في الرابعة عشر من عمره. لكن إقامته فيها لم تطل[٦]. عاد إلى الرياض عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) وقرأ على بعض مشايخ نجد. وفي عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م) التحق بالمعهد السعودي في مكة المكرمة، وأكمل الدراسة فيه سنة (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م). حاول نظم الشعر في وقت مبكر[٧]. وفي سنة (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) عين مدرساً في ينبع وبعد سنتين عين مديراً للمدرسة، ثم تدرج في العمل حتى أصبح معاوناً لمعتمد المعارف في جدة[٨].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) بلقرن وخثعم من القبائل السروية التي تقع بين قبائل رجال الحجر من الجنوب وقبائل غامد وزهران من الشمال. وهي تستوطن السراة وأجزاء منها تعيش في الإصدار وعند سفوح السروات الغربية. والعشائر القاطنة في السراة تتبع إمارة منطقة عسير إدرايا. أما الأجزاء التهامية فتعود تبعيتها إلى محافظة القنفذة التي تراجع منطقة مكة المكرمة. مشاهدات الباحث وتجواله في هذه البلاد عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(٣) الظفير: إحدى مدن بلاد غامد الرئيسة، وقد تنقل مركز الإمارة ما بينها وبين بلجرشي ورغدان، ومركز الإمارة اليوم في مدينة الباحة.

(٤) السائر في جنوبي البلاد السعودية يجد جميع قبائل وعشائر وبطون هذه الأجزاء تشتهر بالكرم والنخوة والشهامة. وقد دون عنهم ذلك في أكثر من مصدر ورواية وتقرير. حبذا أن نرى أحد الباحثين الجادين فيدرس عادات وتقاليد هذه الأوطان المضيافة والمتنوعة في أعرافها ونظمها الاجتماعية والقبلية.

(٥) ولفرد شسيجر، النسخة المترجمة، ص١١١ـ١١٢. وهذه العادة كانت منتشرة بين الناس إلى عهد قريب، واليوم فاض الخير على الناس وسارت تقاليد الضيافة تأخذ أساليب وأنماطاً متعددة في المكان والزمان.

(٦) علي جواد طاهر "حمد الجاسر". مجلة العرب، السنة السادسة، (شوال ١٣٩١هـ/ ديسمبر ١٩٧١م)، مج٦، ص٤٤٦.

(٧) المرجع نفسه. لم يكن حمد الجاسر شاعراً، وقد اعترف بذلك عندما قال: "ولا أدري هل لي أن أتحدث عن الشعر، ولست شاعراً ... أن لا أجد في نفسي ميلاً لقراءة كثير مما ينشر من الشعر الحديث، وليس العيب عيب ذلك الشعر، ولكنه عيبي أنا ...". المرجع نفسه، ص٤٤٧.

(٨) المرجع نفسه، ص ٤٤٦.

سافر الجاسر عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) إلى مصر للدراسة، والتحق بكلية الآداب في الجامعة المصرية، ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت دون إكمال دراسته فعاد إلى وطنه(١). عمل بعد ذلك في التعليم في الإحساء، ثم مشرفاً على مدارس أرامكو في الظهران، ثم مديراً للتعليم في نجد، ثم وكيلاً لمدير المعاهد والكليات العلمية، ثم مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض(٢).

اشتغل بعد ذلك بالعمل الصحفي، فأصدر في الرياض عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) العدد الأول من مجلة اليمامة، وكان يطبعها في مصر، ثم مكة، ثم لبنان، وأخيراً فكر في إنشاء مطبعة في الرياض عام (١٣٧٤هـ/١٩٤٥م) . وفي عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) تحولت المجلة الشهرية إلى أسبوعية(٣). وفي عام (١٣٨١هـ /١٩٦١م) نُقل امتياز اليمامة عن حمد الجاسر . وفي عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) كون هو وآخرون (مؤسسة اليمامة) وصدر عن هذه المؤسسة جريدة أسبوعية باسم (اليمامة) ، وكان الجاسر رئيسها(٤).

لم تطل صلة الجاسر المباشرة بمؤسسة اليمامة الصحفية، وإنما ترك العمل في تلك المؤسسة عام (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ، وأنشأ لنفسه (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) واتخذ لها مركزاً في الرياض وفرعاً في بيروت لتسهيل عملية الطباعة . وكان أول عمل قامت به هذه الدار إصدار مجلة شهرية باسم (العرب) تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري(٥). صدر الجزء الأول منها في رجب سنة (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ، واستمرت تصدر حتى وفاة الشيخ حمد (رحمه الله) .

أما في مجال البحث والتأليف والدراسة والتحقيق فله عشرات، وربما مئات الكتب والدراسات العلمية الرصينة التي تصب في خدمة تاريخ وتراث فكر الجزيرة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٤٧ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٤٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٧ وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٤٨ . ويقول علي جواد طاهر عن حمد الجاسر ومجلته " ... إن رجلاً واحداً، لا يعرف تاريخ ميلاده إلا تقريباً ... خرج من أعماق قرية ضائعة في طوايا جزيرة شاسعة، ينهض بمجلة رصينة راقية نادرة، يغذيها ويشبعها ويسمنها ورصيده قلمه، ويسهر عليها وماله من نصير، ويتقدم بها وما يكون لها من نظير... " . علي جواد طاهر . " العرب في عامها العشرين " مجلة العرب، سنة (٢٠ / رجب وشعبان ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، مج٢٠ ،ص ١-١١ .

العربية . ولسنا هنا بصدد سرد كل بحوثه ومؤلفاته فهي مشروع جبار يستحق العمل الدءوب من الجامعات ومراكز البحوث والمؤرخين واللغويين والمحققين . بل إن عشرات الكتب والرسائل العلمية الأكاديمية غير كافية لدراسة ما خلف لنا الشيخ العلامة حمد بن محمد الجاسر[١] . .

والجاسر من الرحالين المحدثين الذين زاروا منطقة الباحة . ففي عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) رحل من الحجاز إلى بلاد غامد وزهران، وأصدر عن تلك الرحلة كتاباً قيماً سماه : في سراة غامد وزهران(نصوص، مشاهدات، انطباعات) ، ونشره من خلال داره، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، عام ١٣٩١هـ / ١٩٧١م)[٢]. والكتاب يقع في (٥٩٥) صفحة من القطع المتوسط . تنقل هذا الرحال في ربوع البلاد الزهرانية والغامدية، فذكر بعض أعلامها وقراها، وعشائرها وبطونها، وإمارتها والفروع التابعة لها في الأجزاء التهامية والسروية[٣]. كما نوه إلى المؤسسات الإدارية التي كانت في حواضر غامد وزهران، ولم يغفل عن ذكر بعض المرافق الخدماتية مثل: إدارات الزراعة، والأوقاف، والمواصلات وغيرها. وذكر أيضاً الأطوال والمسافات بين القرى والمراكز الرئيسة في المنطقة[٤] . وعرج في حديثه على التعليم في المنطقة وأشار إلى انتشار المدارس (بنين وبنات) في كل أنحاء البلاد[٥] . أما الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الباحة فقد حظيت هي الأخرى بنصيب جيد في دراسات الشيخ الجاسر، فذكر حوالي (٢٢) سوقاً أسبوعياً منتشرة في أنحاء المنطقة، كما أشار إلى بعض المعلومات عن بعض العادات والأعراف والتقاليد التي عرفها الغامديون

---

(١) نشكر القائمين على مركز الشيخ حمد الجاسر، ونرجو منهم أن يضاعفوا الجهود للاستفادة ودراسة كل ما حقق أو دون أو ألف الشيخ الجاسر.

(٢) انظر الكتاب نفسه، ص ١٢ وما بعدها :

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٣ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه، ص ٨٥ وما بعدها .

(٥) من يزور بلاد غامد وزهران يجد الوضع تطور في مجالات التمدن والحضارة، بل يجد كل مؤسسة إدارية تستحق دراسة مستقلة . ناهيك عن التعليم فقد قفز قفزات كبيرة ويستحق عشرات الدراسات . ونأمل من جامعة الباحة أن تضاعف الجهود في مجالات البحوث والدراسات التي تعود على مجتمع منطقة الباحة بالنفع والفائدة .

والزهرانيون[١] . وأورد بعض التفصيلات عن قرى غامد وزهران، وذكر بعض الإحصائيات التي حصل عليها من أهل المنطقة، لكنها غير دقيقة وقد أشار نفسه إلى ذلك[٢] .

وفي عشرات الصفحات من الكتاب تحدث عن بلاد غامد وزهران كما وردت في بعض كتب التراث، فأشار إلى أنسابها، وموقعها في بلاد السراة، وعلاقتها بالسروات المجاورة. وأورد نصوصاً عديدة أشارت إلى بعض الأحداث السياسية والحضارية التي عرفتها هذه البلاد في عهود سابقة[٣] . كما ذيل كتابه بصفحات عديدة ذكر فيها بعض الاستدراكات وتصويب بعض الأخطاء الواردة في هذا السفر، ثم سرد العديد من الفهارس العامة التي تخدم كل من يرجع إلى هذا الكتاب[٤] .

وبعد مرور حوالي ثمانية عشر عاماً من رحلته إلى بلاد غامد وزهران نجده يعود إليها في (١٤٠٨/١١/٢١هـ الموافق ١٩٨٨م) كي يلقي محاضرة في مدينة الباحة ضمن البرنامج الثقافي الذي نظمته إمارة الباحة. وكان عنوان محاضرته: لمحات وانطباعات عن مشاهداتي في السروات[٥] .

أشار في محاضرته إلى رحلته السابقة للبلاد الزهرانية والغامدية، ثم ركز حديثه في نقطتين، الأولى : صراحة انساب سكان السراة . والثانية : صفاء لغة أهل السراة [٦] . وأشار في المحور الأول إلى عموم القبائل السروية الممتدة من الطائف حتى بلاد شهران وقحطان، وكان حديثه على منوال منهج الهمداني أثناء عبوره أرض السروات ' ويشير إلى فصاحة اهل السراة، ويعلل سبب فصاحتهم بقوله: " .... وترجع فصاحة سكان السروات إلى كون بلادهم بعيدة عن الاختلاط

---

(١) حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٩٩ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٩ ـ ٣٥٠، أشار إلى من سكن السروات قبل الإسلام، ثم خروج قبائل الأزد من اليمن واستيطان بعضهم في أرض السروات، وهم سكانها اليوم . للمزيد انظر، المرجع نفسه، ص٣٥٥ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٩٥ وما بعدها .

(٥) نشرت هذه المحاضرة في مجلة العرب، سنة (٢٤) (رجب وشعبان / ١٤٠٩هـ / الموافق فبراير ومارس ١٩٨٩م)، مج ٢٤، ص ٥٨ ـ ٧١ .

(٦) للمزيد انظر : الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص١١٩ وما بعدها، حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٥٨ وما بعدها، ابن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني "، مجلة الدارة، عدد (٣)، سنة (١٩) (١٤١٤هـ)، ص٧٦ـ١١١ .

بمـن ليس عربياً، فطرق القوافل التجارية، وطرق الحجـاج الذين يأتون من خارج الجزيرة كلها لا تمر بهذه السروات، ومن هنا قل اختلاط أهلها بالأعاجم، فصفت لغتهم، وخلصت من العجمة .. "[١] .

ومن خلال هذه المشاهدات الجاسرية استطعنا الخروج ببعض الرؤى والنتائج مثل:

١. إن وصول الأستاذ حمد الجاسر إلى سروات غامد وزهران في نهاية القرن الهجري الماضي كان كسباً لسكان تلك البلاد، فقد حفظ بعض التفصيلات التاريخية والحضارية الجيدة والجديدة .
٢. مزج الجاسر بين النصوص المنقولة من كتب التراث الإسلامي المبكر وبين ما شاهده أو استنتجه أثناء تجواله في تلك الديار.
٣. مدونـات الجاسـر مـن خـلال انطباعاتـه ومشـاهداته جديـرة بالبحث والدراسـة والمقارنة مع ما جرى في سـروا ت زهران وغامد منذ تسعينيات القرن الهجري الماضـي إلى وقتنا الحاضر . وحبذا أن نرى أحد الدارسين أو المؤرخين المتخصصين فيخرج لنا مقالة أو بحثاً علمياً تحليلياً عن كتاب: في سراة غامد وزهران، ويذكر ما ورد فيه من سلبيات وإيجابيات تصب في خدمة تاريخ الزهرانيين والغامديين .

١٦- علي صالح السلوك الزهراني (ق١٤-١٥هـ/ ٢٠-٢١م) :

السـلوك مـن مواليد قريـة قرن ظبي ببـلاد زهران عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م)، درس في الكتّاب عـام (١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م)، ثم أكمل دراسـته في المدارس النظامية. بدأ حياته الوظيفية عام (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، و تدرج في العمل بوزارة الداخلية، قطاع الإمارات حتى وصـل إلى منصـب مدير عام بإمارة منطقة الباحة[٢] . كان عضواً في

---

(١) الجاسـر، " لمحات وانطباعات عن مشـاهداتي في السـروات " ص ٧٠ . ونقول إن دراسة لغة ولهجات أهل السـراة جديرة بالبحث والدراسـة . ونأمل من المتخصصين في أقسام اللغة العربية في جامعاتنا السعودية أن يلتفتـوا إلى مثـل هذا الموضـوع الجدير بالبحث والدراسـة . والهمداني أو الجاسـر وغيرهما يتحدثون عن صـفاء لغة أهل السـراة قديماً، أما اليوم فقد اختلط سكان هذه البلاد بغيرهم، بل وفد إلى بلادهم أجناس غير عربية . بل إن التقنية الحديثة غزت كل إنسان ودار، ومن ثم بدأت فصاحة هذه البلاد وغيرها تذوب، وأصـبحنا نرى ونسمع ونشـاهد انعدام الفصاحة والضعف اللغوي الذي يعيشه سكان هذه الأوطان ومن جاورهم من أرض السروات .

(٢) نبذة مكتوبة وصـلتنا من ابنه العقيد مهندس زهران بن علي السـلوك في (١٠/٩/١٤٣٣هـ) . وهذه النبذة توجد ضمن مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق الخاصة) .

كثير من اللجان والجمعيات والمؤسسات الإدارية والاجتماعية والخيرية[١] . كما حصل على بعض الجوائز والتكريم على مستوى بلاد غامد وزهران، وعلى مستوى المملكة العربية السعودية [٢] . عمل في نادي الباحة الأدبي حتى صار نائباً لرئيس النادي[٣] .

وفي مجال البحث والتأليف يعد من الرواد المعاصرين في هذا الباب . فله العديد من المؤلفات التي تدور في فلك تاريخ وحضارة بلاد غامد وزهران، ومنها :

١. المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران، عام (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، أصدرته دار اليمامة والبحث والترجمة والنشر لصاحبها والمشرف عليها حمد الجاسر . وقد أعيد طباعة هذا الكتاب عام (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ثم طبع للمرة الثالثة عام (١٤١٧هـ/١٩٩٦م) [٤] .
٢. الموروثات الشعبية لغامد وزهران، عام (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) في خمسة أجزاء وقام على طباعته ونشره مطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة .
٣. له كتابان آخران الأول بعنوان : غامد وزهران (السكان والمكان)، عام (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) . والثاني بعنوان : وثائق من التاريخ، عام (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) [٥].

وعند الاطلاع على كتب هذا المؤرخ الزهراني، وجدنا كتابه المعجم قام على الرحلة والتجوال في ربوع منطقة غامد وزهران، ومن ثم رصد لنا معظم قراها ومعالمها الجغرافية البارزة . والقارئ لهذا المعجم يدرك التعب والعناء الذي واجهه

---

(١) كان عضواً في لجنة مكافحة الأمية بالباحة، ساهم في تأسيس بعض الجمعيات التعاونية بمنطقة الباحة، وعضواً في الجمعية السعودية الخيرية للأطفال المعاقين بالرياض، وعضو لجنة أصدقاء المرضى، وعضو الجمعية التاريخية السعودية، وعضو مجلس منطقة الباحة من عام (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) .

(٢) فاز بالجائزة العلمية الأولى لعام (١٤٣١هـ/٢٠٠٩م) عن كتابه : وثائق من التاريخ، كما حصل على الجائزة التقديرية في مجال التأليف . والمانح لهاتين الجائزتين مشروع تواصل زهران خلال عام (١٤٢٦، ١٤٣١هـ/ ٢٠٠٥-٢٠٠٩م) . تم تكريمه ضمن الرواد المؤرخين السعوديين الأحياء الذين أصدروا كتباً في تاريخ الجزيرة العربية عام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) أو قبله من قبل وزارة الثقافة والإعلام، وكان ذلك في معرض الرياض الدولي للكتاب عام (١٤٣٠هـ)، عن كتابه : المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران .

(٣) انظر ترجمته أيضاً في نهاية بعض مؤلفاته . كما وصلنا سيرة ذاتية مختصرة له من أحد أبنائه في (١٤٣٣/٩/١٠هـ) . والأستاذ السلوك توفي أواخر عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) والله أسأل أن يحسن لنا وله الختام، وأن يجعل أعمالنا وأعماله خالصة نقية لوجه رب العالمين .

(٤) تم الاطلاع على هذا الكتاب في طبعته الثانية (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .

(٥) جميع كتبه متوفرة وموجودة في عموم المكتبات العامة، وبعضها تم طباعتها أكثر من مرة .

هذا الباحث من أجل جمع مادة كتابه والتثبت من صحتها [١] . أما كتابه الثاني: فهو موسوعة في بعض الجوانب التاريخية الاجتماعية، وكل جزء من الأجزاء الخمسة لفن من فنون الموروثات الشعبية الغامدية والزهرانية . فالجزء الأول خاص بقصائد الجبل واللبيني [٢] . والجزء الثاني لقصائد العرضة في مناسباتها المختلفة . والجزء الثالث في قصائد اللعب والمسحباني، والهرموج والعزاوي والسامر [٣] . والجزء الرابع الأناشيد الشعبية القاف . والجزء الخامس الأمثال والحكم . والقارئ لهذه الأجزاء الخمسة يدرك الجهد العظيم الذي بذله الأستاذ السلوك من خلال خبرته وتجواله في بلاده وجمع مادة هذا الكتاب القيم، فهو رصين ثري، بل إن صاحبه صاحب فضل كبير على أهله وبني جلدته في جمع وتدوين وحفظ جزء من تراثهم وثقافتهم وأدبهم وفكرهم [٤] . والكتاب الثالث غامد وزهران (السكان والمكان) يجمع بين علمي التاريخ والجغرافيا، وهو الآخر كتاب قيم في مضمونه وجوهره . أما الكتاب الرابع : وثائق من التاريخ فهو كتاب تاريخي وثائقي جمع فيه صاحبه مادة علمية جديدة وقيمة، وحفظ لنا صوراً تاريخية وحضارية للمجتمع الغامدي والزهراني في العصر الحديث والمعاصر . والكتاب يشتمل على أربعة مباحث : الأول : يشتمل على نماذج من وثائق المعاهدات والاتفاقيات والأحلاف بين القبائل والقرى [٥] . والثاني : نماذج من وثائق الأحكام والصلح التي كان يتم فيها حل النزاعات القبلية والقروية ونماذج من المبايعات والحجج أو الصكوك الشرعية [٦] . والثالث : نماذج من وثائق المراسلات من الحكام إلى المشايخ والقضاة والأعيان،

---

(١) للمزيد انظر الكتاب نفسه في طبعاته الثلاث وما يشتمل عليه من مادة علمية جديدة تستحق الدراسة والإشادة . وجل مادة الكتاب قامت على المشاهدات والتجربة والروايات الشفهية والمكتوبة. وهذه مصادر رئيس وهامة في تدوين التاريخ .

(٢) هذا الفن الغنائي عرفته بلاد غامد وزهران وما جاورها من البلدان، ويستحق البحث والدراسة من قبل المتخصصين في علوم اللغة وعلم الاجتماع وغيرها .

(٣) كل هذه الفنون عرفتها بلاد زهران وغامد ولا زالت تمارس في مناسباتها الاجتماعية حتى يومنا الحاضر. .

(٤) هذا الكتاب يستحق دراسات علمية أكاديمية أطول وأعمق ونأمل أن نرى بعض أبناء غامد وزهران المبدعين المثقفين المتخصصين فيفردوا له بعض البحوث الأكاديمية الموثقة . وهذا من أقل واجبات السلوك على أبناء منطقته وبلاده .

(٥) انظر الكتاب نفسه، ص٩ وما بعدها .

(٦) المرجع نفسه، ص ٧١ وما بعدها .

ومعظم هذه الوثائق تدور في القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) [1] . والمبحث الرابع والأخير[2] : نماذج من وثائق الزكوات والجهاد قبل عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) وبعده . كما يحتوي على صور من وثائق تأسيس أول إمارة لغامد وزهران في عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، وكذلك أول ميزانية مالية لهذه الإمارة[3] .

وبعد الاطلاع على هذه المؤلفات السلوكية، وما قام به مؤلفها من جمع وتدوين ثم طباعة ونشر خرجنا بالعديد من النتائج والتوصيات التي نذكرها في النقاط التالية:

١. الأستاذ على السلوك اعتمد في جمع مواد كتبه على خبرته وتجربته وحياته مع أهله وفي بلاده . كما نذر نفسه في التنقل والترحال في قرى وجبال وأودية ووهاد منطقة غامد وزهران حتى استطاع أن يخلف لنا هذا الكم الجيد من المادة العلمية القيمة والجيدة .

٢. اتصال الأستاذ السلوك بالأستاذ حمد الجاسر في العقود المتأخرة من القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م)، كان اتصالاً مباركاً، فالأخير شجع الأول على التجول في عموم البلاد الزهرانية والغامدية، وأخرج معجماً جغرافياً يشرح ويوضح معالم هذه البلاد السروية والتهامية التي طواها النسيان قرون عديدة. وقد كان الاثنان (الجاسر والسلوك) موفقين في إنجاز هذا المشروع منذ جمعت مادته ومراجعتها ثم طباعته ونشره. ومن ثم أصبح مصدراً هاماً لا يستغني عنه أي دارس أو باحث في تاريخ وتراث وحضارة منطقة الباحة .

٣. كوني أبحث في تاريخ وحضارة الجزيرة العربية وبخاصة جنوبيها منذ أربعة عقود، لم أعرف أشياء كثيرة من معالم بلاد زهران وغامد إلا عن طريق معجم الأستاذ السلوك . فهو فعلاً رجل رائد وله السبق في هذا المضمار.

٤. لم تشغله تكاليفه الاجتماعية والعملية من الإسهام في جانب آخر من جوانب العلم والمعرفة الخاصة ببلاده وأهله . وإنما التفت إلى عالم الفنون الشعبية التي عرفتها دياره، ومن ثم جمع لنا كماً هائلاً من التراث الثقافي والأدبي (الشعري والنثري) الذي عرفه ومارسه الغامديون والزهرانيون . ومن

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٣ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه .

يطالع موسوعته الموروثات الشعبية فإنه يدرك أنه أمام قامة علمية وهبت نفسها لخدمة بلادها وأهلها، بل يتأكد له أن ما احتوته موسوعته من تراث علمي وفكري يجب الإشادة به، بل يجب على أقسام اللغة والتاريخ والاجتماع والأدب في جامعة الباحة وغيرها من جامعات الجنوب أن توجه بعض أبحاث أعضائها وطلابها إلى دراسة هذه الموسوعة الجديرة بالاقتناء والدراسة والبحث والتحليل.

٥. الناظر إلى كتاب السلوك: وثائقٍ من التاريخ، يدرك أن هذا الرمز السرويٍ الزهراني يحمل بين جنبيه هماً وحباً لخدمة بلاده وذويه. فكان حريصاً على أن يظهر للقراء والباحثين مادة علمية خاماً من تاريخ أهله ووطنه، وهذا واضح وجلي من الوثائق الجديدة التي نشرها وأخرجها لأول مرة. ومن ثم فهذه الوثائق أصبحت مسؤولية الباحثين والمؤرخين المنصفين الذي يجب عليهم دراستها وتحليلها وذكر فضل من كان السبب في نشرها وخروجها عند المرة الأولى. كما أن كتابه: غامد وزهران.. السكان والمكان، لم يكن أيضاً بعيداً في الأهداف السامية التي حققها، وكان دائماً يسعى إلى تحقيقها من أجل خدمة بلاده.

٦. عندما استعرضت كل من خدم تاريخ وتراث وحضارة بلاد غامد وزهران، وجدت الأستاذ السلوك يتربع على عرش الريادة في العصر الحديث والمعاصر ربما يقول قائل أنت بالغت في مدح الرجل وإطرائه، فأقول، والله يشهد على ما أقول، إنني لا أعرفه، ولم أقابله البتة، وإنما علمت من محبيه وبعض أقاربه أنه كان مريضاً في أحد مستشفيات الرياض منذ عشر سنوات. وقد انتقل إلى الدار الآخرة في نهاية عام (١٤٣٣هـ /٢٠١٢م) (رحمه الله)، ولكن من وجهة نظري أراه من الرواد العظام، فلقد اطلعت على أعماله الأربعة السابقة الذكر، وأعمال غيره ممن كتبوا عن بلاد غامد وزهران. فوجدت عمله يمتاز بالدقة والجدة والشمولية، ولا نقول أن أعماله كاملة فالنقص والخطأ من أعمال البشر، لكنه عمل وألف عندما كان الناس في غفلة من أمرهم، فله منا الشكر، ونسأل الله عز وجل أن لا يحرمه أجر ما قدم في حياته إنه على كل شيء قدير.

٧. من خلال الاطلاع على سيرة السلوك، وكذلك السؤال عنه في بلاده اتضح لنا أنه ذكر وكُرم من بعض الجهات المحدودة في منطقته، أو في الرياض أثناء إقامة معرض الرياض الدولي للكتاب عام (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). ونقول من على صفحات هذا الكتاب أن الرجل لم ينل حقه اللائق به لا من أبناء جلدته في الباحة ولا من قبل الجهات المسؤولة عن الفكر والثقافة في بلادنا. ونادي إمارة منطقة الباحة، وجامعة الباحة، ونادي الباحة الأدبي، وأمانة منطقة الباحة ونقول لهم إن هذا الرجل يستحق التكريم من قبل هذه المؤسسات فيذكر اسم شارع باسمه في المنطقة، ويطلق اسمه على إحدى قاعات المحاضرات في النادي والجامعة. وهذا من أقل الواجبات تجاه هذا الرجل، الذي قضى جزءاً كبيراً من حياته في البحث والتأليف.

٨. كما أن المؤرخين والمتخصصين من أهالي غامد وزهران وكذلك الباحثين في جامعة الباحة عليهم أيضاً مسؤولية تجاه هذا العلم الزهراني فتعقد بعض الندوات عن كتبه، وتعمل بعض البحوث والدراسات عن شخصه وإنجازاته العلمية والعملية. بل إن قسم التاريخ في جامعة الباحة، أو في أي جامعة أخرى يجب على أعضائه ذكر هذا الرجل والالتفات إلى مجهوداته العلمية، فيخصص عنه رسالة علمية أكاديمية لدرجة الماجستير أو الدكتوراه، وهو وإنجازاته العلمية جدير بهذه المشاركة والإسهام العلمي الأكاديمي.

٩. نرجو من أبنائه وأحفاده وطلابه ومحبيه أن لا ينسوه هم الآخرون فيخرجوا عنه دراسة أو كتاب علمي يجمع فيه أعماله وآثاره الاجتماعية والتاريخية والعلمية. وحبذا إذا كان لديه مكتبة ثرية بمحتوياتها أن تحفظ أو تصان من قبل أسرته أو ممن يحبه أو يوده، أو تُسلم إلى إحدى المؤسسات العلمية الرئيسة في بلادنا. وفي اعتقادي أن جامعة أو نادي الباحة أولى بحفظ وصيانة هذه المكتبة.

١٠. من المحتمل أن له مسودات كتب جمع مادتها ودونها قبل أن يداهمه المرض، ونقول لأبنائه وأفراد أسرته حبذا أن يسلموها لأكاديمي أمين فيخرجها باسم أبيهم مع الحرص على حفظ حق صاحبها العلمي.

١٧- عاتق بن غيث البلادي (١٤-١٥هـ / ٢٠-٢١م) :

هـذا الرحالة حجازي الأصـل والمولـد زار العديد من مناطـق المملكة العربية السـعودية، ودون العديـد مـن كتـب الرحـلات [١] . ومؤلفـه الذي يهمنـا في هذا القسـم، هـو: بين مكة وحضـرموت (رحـلات ومشـاهدات) مـن مطبوعات دار مكـة للنشـر والتوزيع عـام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) [٢] . هذا الكتاب يقـع في أكثر من أربعمائة صـفحة من القطع المتوسـط، وهو رحلة قام بها المؤلف في شـهر شـعبان عـام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) إلى كل من سـروات الطائف والباحة وعسـير ونجران، واسـتغرق خلالهـا حوالي (٨) أيام سـجل فيها الكثير من التفصـيلات التاريخية والحضارية[٣] .

وفيمـا يخصـص بلاد الباحة (غامـد وزهران) ، وجدنا هـذا الرحالة يدون لنا فقط حوالي خمس صـفحات شـملت بـلاد زهران وغامد من دخولها من الشـمال إلى الجنـوب، وعند قراءة هذه المدونات العاتقية اسـتطعنا الخروج ببعض النقاط الرئيسة التي نذكرها في البنود التالية :

١. البلادي لم يبذل جهداً كبيراً للتنقل في أرجاء غامد وزهران وتدوين ما يمكن تسـجيله من خلال الانطباعات والمشاهدات . ولو فعل ذلك لكان زودنا بمادة علمية قيمة تشمل طبيعة المكان وحياة السكان .

٢. منـذ دخوله بلاد زهران من الشـمال حتى خرج من بلاد غامد نحو الجنوب ذكـر فقط خمس قرى رئيسـة تخترقها الطريق الرئيسـي الـذي يخرج من الطائـف حتـى أبها ونجـران. وهذه القرى هـي: قريش الحسـن، الأطاولة، رغـدان، الباحـة، وبلجرشـي . الاثنتان الأوليـان في بلاد زهـران، والثلاث الأخرى في بلاد غامد[٤] . كما ذكر توفر المدارس وبعض المؤسسات الإدارية في بعض هذه القرى مثل: الباحة وبلجرشـي[٥] . وأشار إلى وجود بعض المواشي

---

(١) للمزيـد عن هذا الرحالة انظر: ابن جريس، القـول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٢ ص ٢١٤-٢١٧ . ج٣، ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) عاتق البلادي، الكتاب نفسه، ص٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه، ص ١١- ١٥ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣- ١٤ .

والمحـلات التجاريـة والمنازل المكونـة من طابق واثنين وثلاثـة في عموم هذه القرى الخمس[١]. وذكر أيضـاً أهمية بعضـ هذه القرى تاريخياً مثل رغدان وبلجرشي التي كانت مراكز إدارية لبعض القوى السياسية في المنطقة خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)[٢].

٣. من النصوص التي أوردها عن بعض هذه القرى، قوله عن قرية (قريش الحسن) " .... هذه قرية أهلها قريش، سميت بهم، وكثير من قرى الجنوب تسمى بأسماء القبائل التي تسكنها .."[٣] وقال عنها أيضاً : " .... وهذه البلدة فيها حركة تعمير ظاهـرة، وبهـا قصـور حديثة البناء بالأسـمنت المسـلح.."[٤]. وقـال عن قرية(الأطاولـة): " .. هـي متقدمة عمرانياً وزراعياً، وشـوارعها معبـدة، وبها مدارس وشـرطة ومحكمـة، وكل مرافق الدولـة. والبيوت الحديثـة ذات الطوابق المتعددة تغلـب علـى بنائهـا ..."[٥]. وقال عن بلجرشـي: " .. هي مدينـة جميلة بين تلال خضر، وحركة العمران فيها نشطة، وهي ثاني مدينة في بلاد غامد.."[٦].

٤. جـاء البلادي إلى الديـار الزهرانية والغامدية في بدايـة القرن (١٥هـ/٢٠م)، وقـد دخلـت البلاد طريق التنميـة والعمران، وكان عليه أن يفصـل الحديث عن التطور الحضاري الذي تعيشه هذه البلاد في ذلك الزمن . ولو مكث بعض الوقت في القـرى الخمسـ المذكـورة، أو حرص على الالتقـاء ببعض الأعيـان والوجهاء وأصـحاب القرار في المنطقة فإنه بدون شـك سوف يكون حصل على مادة علمية جديرة بالتدوين . ومن يذهب إلى بلاد زهران وغامد ويتجول في قراها وبواديها وجبالها وأوديتها فسوف يشاهد تاريخاً متنوعاً يستحق الحفظ والتدوين[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١-١٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣-١٤ .

(٣) المصـدر نفسـه، ص ١٢ . ودراسة أسماء القرى والبلدات والعشائر والبطون في بلاد السراة جدير بالبحث والدراسة وبخاصة في مجال الأنساب، والأسماء والمدلولات وغيرها .

(٤) البلادي، المصدر نفسه، ص ١٢ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢-١٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤ .

(٧) نأمل من جامعة الباحة أن تسعى إلى حفظ تاريخ منطقة غامد وزهران سواءً كان موجوداً في كتب مطبوعة أو وثائق غير منشـورة، أو نقوش ورسـوم متناثرة في أنحاء المنطقة، أو أقوال وروايات مدونة وشفهية . وإن فعلت ذلك فإنها سوف تسدي للزهرانيين والغامديين فضل كبير .

١٨- عبد الرحمن صادق الشريف (ق١٤-١٥هـ/ ٢٠-٢١م) :

الأستاذ الشريف من الأكاديميين الجيدين الذين عملوا في قسم الجغرافيا في كلية الآداب بجامعة الملك سعود لسنوات عديدة[١]. أصدر دراسة بعنوان : جغرافية المملكة العربية السعودية، في جزءين [٢]. الجزء الأول خصصه لجغرافية المملكة بشكل عام فناقش فيه المعالم الطبيعية المؤثرة في حياة السكان، ثم الملامح البشرية الاقتصادية في المملكة، وأخيراً أوجز الحديث عن وسائل النقل الحديثة في البلاد السعودية[٣].

أما الجزء الثاني فأفرده لإقليم جنوب غرب المملكة، وناقش فيه الكثير من الأوضاع الجغرافية والحضارية في كل من جازان، وعسير، والقنفذة والباحة ونجران[٤]. والجميل في هذه الدراسة أن مصادرها قامت على الرحلة والتجوال، وكذلك الرجوع إلى المصادر والمراجع المكتوبة التي أشارت إلى هذه البلدان الجنوبية. كما أن الذي قام بهذا العمل هو أستاذ أكاديمي يعمل في أروقة الجامعات منذ زمن طويل، وبالتالي فهو على دراية بأدوات البحث العلمي الذي طبقه في كتابه أثناء دراسة طبيعة وسكان هذه البلاد[٥].

وفي حوالي أربعين صفحة تحدث الشريف عن منطقة الباحة، وبدأ بالأجزاء التهامية الواقعة في محيط محافظتي المخواة وقلوة[٦]. ثم واصل شروحاته على الأجزاء السروية الجبلية، وكذلك السفوح الشرقية من سروات غامد وزهران فذكر بلاد بلجرشي، ومقاطعة الباحة، وسراة زهران، مع إيراد تفصيلات كثيرة عما تشتمل عليه هذه البلاد من معالم طبيعة وتركيبات سكانية[٧]. وقد خرجنا ببعض الخلاصات والنتائج على هذا الكتاب، نسردها في النقاط التالية :

---

(١) الدكتور الشريف، أستاذ في علم الجغرافيا، عمل بجامعة الملك سعود منذ نهاية القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م) حتى العقود الأول من القرن(١٥هـ/٢٠-٢١م) .

(٢) الجزء الأول من مطبوعات دار المريخ في الرياض عام (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) . والجزء الثاني مطبوع في نفس الدار عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .

(٣) انظر الجزء الأول، ص٣ وما بعدها .

(٤) انظر الجزء الثاني ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٥) هذا ما يلمسه القارئ أثناء فحص هذا الكتاب ودراسته .

(٦) الشريف، جغرافية المملكة، ج٢، ص ٢٣١- ٢٤٤ .

(٧) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٥٠-٣٧٤ .

١. معظم المادة المدونة عن منطقة الباحة قيمة وجديدة في محتوياتها، و صاحبها مشكوراً قد زار البلاد الغامدية والزهرانية، ودون ما شاهده في ربوعها، بالإضافة إلى اطلاعه على كثير من الإحصائيات والسجلات والوثائق والمصادر التي ترفد أقواله ومشاهداته.

٢. شرح الكثير من التركيبات الطبيعية لمنطقة الباحة، فذكر أشهر أوديتها وجبالها وهضابها ومعالمها الجغرافية التي امتازت بها في معظم نواحيها.

٣. أشار في مواطن عديدة إلى القرى والبلدات وأماكن الاستيطان الرئيسة في المنطقة، وذكر بعض الإحصائيات السكانية لبعض القرى والحواضر. وأورد أحياناً تفصيلات جديدة عن الأعمال والمهن المتنوعة التي يمارسها سكان المنطقة.

٤. ذكر بعض المؤثرات التي طرأت على طبيعة البلاد البشرية نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وأشار إلى تقهقر النشاطات الرعوية وبخاصة عندما أصبح كثير من أهالي البلاد يهاجرون من أوطانهم إلى مدن وحواضر كبرى في المملكة من أجل الحصول على مكاسب تعليمية ووظيفية أفضل من حياتي الرعي والزراعة التي كانوا يمارسونهما في مواطنهم الرئيسة .

٥. مع أن الشريف متخصص في علوم الجغرافيا، إلا أننا نظرنا إليه على أنه رحال قام بالعديد من الرحلات في المملكة العربية السعودية . وكانت منطقة الباحة قد حظيت ببعض اهتماماته ومدوناته وجولاته .

٦. شاهد الكثير من صور التنمية التي عاشتها منطقة الباحة في بداية هذا القرن (١٥هـ/ ٢٠م) . ودون لمحات مما رأى، وكنا نتمنى أن يكون قد أسهب في مدوناته عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والفكرية[١].

---

(١) نأمل أن نرى بعض المتخصصين في التاريخ والجغرافيا والتربية وعلم الاجتماع بجامعة الباحة يقومون بدراسة المجتمعات الزهرانية والغامدية، ويقارنوا بين ما تعيشه البلاد في عصرنا الحاضر، وبين أوضاعها في العصور القريبة الماضية . ومن يفعل ذلك فسوف يرى التطور الهائل الذي تمر ومرت به خلال الخمسين سنة المتأخرة الماضية .

١٩ـ علي حافظ (ق١٤ـ١٥هـ/ ٢٠ـ٢١م) :

ولد في المدينة المنورة عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) ، ودرس في مدارسها ، ثم التحق بالدراسة في المسجد النبوي عدة سنوات . تدرج في العديد من الوظائف في المدينة فبدأ كاتباً في قسم المحاسبة بمديرية المالية في المدينة المنورة، كما عمل في مؤسسات إدارية أخرى وكان آخرها رئيساً لبلدية المدينة المنورة حتى عام (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) ، ثم تفرغ لأعماله الخاصة والكتابة[١] .

أسس مع أخيه السيد عثمان علي حافظ جريدة المدينة المنورة حتى عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) . شارك في العديد من الخدمات الاجتماعية التطوعية، وقدم بعض الأوراق في بعض المؤتمرات والندوات العلمية . اختير عضواً في مؤتمر الأدباء السعوديين المنعقد بجامعة الملك عبد العزيز عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ، ومنح العديد من الجوائز ، وكُرم في بعض المحافل المحلية والإقليمية[٢] .

له عدد من المؤلفات مثل: فصول من تاريخ المدينة، عام (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ، وأعيدت طباعته في عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، وله مجموعة المقالات التي نشرتها له جريدة المدينة من عام (١٣٥٦ـ١٤٠٥هـ / ١٩٣٧ـ١٩٨٤م) ، وبحث عن الإسلام في شعر شوقي، قدمه لمؤتمر الأدباء السعوديين الأول عام (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ، وكتيب عن نخيل المدينة المنورة، وديوان باسم أولادنا ، والكتاب الذي يخصنا في دراستنا هذه، بعنوان : **أربعة أيام في منطقة الباحة**، من مطبوعات شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر بجدة عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)[٣] .

نجد ابن حافظ يذهب مع بعض زملائه الحجازيين في زيارة إلى منطقة الباحة لمدة أربعة أيام [٤] . (١٦ـ١٩/ المحرم ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م) ، من أجل زيارة صديقهم أمير بلاد غامد وزهران آنذاك إبراهيم بن عبد العزيز بن إبراهيم [٥] . وفي تلك الزيارة ذكر علي حافظ كيف رأى وشاهد بلاد الباحة وحفظ لنا بعض المدونات التاريخية الحضارية لهذه المنطقة ونشرها في جريدة المدينة في حلقات متتالية، ثم

---

(١) حصلنا على ترجمته من الصفحات الأخيرة في بعض مؤلفاته .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع نفسه . وأولئك الزملاء هم : عبد الرحمن إبراهيم التركي، وهاشم يوسف الزواوي، ومصطفى محمد زاهد .

(٥) انظر نبذة مختصرة عن أسرة آل إبراهيم في كتاب علي حافظ .

جمعها أيضاً في كتابه : أربعة أيام في منطقة الباحة، فجاءت في (١٢٣) صفحة من القطع المتوسط[١].

بدأ هذه الرحلة بنبذة مختصرة عن أسرة آل إبراهيم التي ينتسب إليها أمير الباحة في زمن الزيارة وهو الأمير إبراهيم بن عبد العزيز الإبراهيم[٢]. ثم أشار إلى تضاريس ومناخ وأطوال وقرى وعشائر وحدود وموقع منطقة الباحة. ويبدو أن جل المادة الواردة في هذه الجزئية منقولة عن معجم الأستاذ علي السلوك الزهراني الذي قام بمرافقه علي حافظ في معظم أنحاء المنطقة[٣]. ويشير ابن حافظ إلى معنى الباحة لغة[٤]. وما يوجد أيضا في مدينة الباحة من مشاريع تنموية، ثم يوجز الحديث عن المؤسسات الإدارية الرسمية والأهلية التي كانت في حاضرة الباحة أثناء زيارته لها[٥]. ويسرد أيضا مشاهداته عن محاور أخرى رآها في المنطقة مثل: الزراعة التي تمارس على نطاق محدود، ومصادر المياه، وتعدد الغابات المتناثرة في أنحاء البلاد[٦]. ثم يذكر ما رآه من خدمات في الميدان الصحي مع الإشارة إلى بعض المستشفيات من مستوصفات ومرافق صحية أخرى، ويشير أيضا إلى المدارس المتواجدة والمتناثرة في كل مكان، والكهرباء التي تخدم بعض المراكز والنواحي الرئيسة في المنطقة[٧]. ولم ينس الإشارة إلى طرق المواصلات التي تربط أجزاء البلاد الغامدية والزهرانية، وكان أهمها الطريق الرئيس الذي يربط الطائف مع الباحة وأبها[٨]. ويذكر بعض الخدمات الأخرى الموجودة مثل: المساجد وأماكن العبادة، والهاتف، والتلفاز (الرائي) ، والمطار وغيرها[٩]. ويشير إلى وجود بعض الفنادق وأماكن الاستراحة التي يرتادها المسافرين والسواح وغيرهم[١٠].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١-١٥ .

(٣) المرجع نفسه، ص١٧ - ٢٢ . وللمزيد عن معجم السلوك انظر ما ذكرناه عن هذا الكتاب ومؤلفه في صفحات سابقة من هذا القسم .

(٤) للمزيد عن تاريخ منطقة الباحة، ومسمى الباحة . بهذا الاسم انظر: غيثان بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١-ق١٠هـ/ق٧-١٦م) (الرياض : مطابع الحميض، ٣١-١٤٣٢هـ/٢٠١٠-٢٠١١م) . الجزء الثاني، ص١٣٣ - ٢٥٠ .

(٥) علي حافظ، أربعة أيام في منطقة الباحة، ص٢٣ - ٣١ .

(٦) المرجع نفسه، ص٣٢ - ٣٨ .

(٧) المرجع نفسه، ص٣٩ - ٤٥ .

(٨) المرجع نفسه ٦٩ - ٧٥ .

(٩) المرجع نفسه، ص٧٨ - ٨٢ .

(١٠) المرجع نفسه، ص٥٧ - ٦٨ .

ويذكر هذا الرحالة في نهاية كتابه معلومات قيمة تشتمل على رحلة قام بها شقيقه السيد عثمان حافظ إلى منطقة الباحة قبل (٤٢) سنة من زيارته هو إلى الباحة عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) . ويقول علي حافظ : " ... زار أخي السيد عثمان حافظ منطقة الباحة سنة (١٣٦٣هـ) ، وعندما قرأ ما كتبته عن الباحة ... ثارت في نفسه ذكريات رحلته لتلك المنطقة فكتب مقالاً في جريدة المدينة المنورة في (١٣/ جمادى الأولى / ١٤٠٥هـ) بعنوان: ما لم ينشر عن الباحة ـ الباحة المتحضرة .. "[١] .

والهدف من نشر علي حافظ ما رآه أخوه عثمان في منطقة الباحة عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) ، يؤكد مقارنة النمو والتطور الحضاري في الديار الباحوية في الزمنين (١٣٦٣ و ١٤٠٥هـ/ ١٩٤٣ـ ١٩٨٤م) . فكان ضعيفاً متواضعاً في الزمن الأول، متطوراً إلى حد ما في التاريخ الثاني (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) . ونجد السيد علي حافظ يؤكد ذلك منوهاً بالمقالة التي نشرها شقيقه في جمادى الأولى سنة (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) فيقول: " .. قف على مشارف منطقة الباحة وانظر إليها من خلال سنة (١٣٦٣هـ) ترى بلداً بدائياً[٢] . ولكن يد الدولة امتدت إليه فانتفضت انتفاضة عارمة. وقد بدأت الانتفاضة من سنة (١٣٦٧هـ) عندما افتتح الطريق من الطائف للباحة المواطن الباحوي العملاق سعد بن شيبان الغامدي[٣] ، بدعم وتأييد الدولة، وانطلقت المنطقة بعد هذه الانتفاضة تركض في طريق التطور والنمو والتحضر حتى صارت تقف في صف مثيلاتها من مناطق بلادنا المتطورة المتحضرة. اقرأ عن تطور منطقة الباحة ونموها في هذا الكتاب[٤] .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) مدونة السيد عثمان حافظ التي دونها عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) أشارت إلى أن منطقة الباحة لا تمشي بها السيارات ، ولا يوجد بها كهرباء، ولا تصل إليها المياه في الأنابيب، وبيوتها من الحجارة المرصوصة ولا تزيد عن دورين وسقوفها مغطاة بالقش والأخشاب، ولا تطلى بيوتها بالطلاء الأبيض، وتوجد بها بعض الأسواق الأسبوعية التي يُباع بها كل ما يحتاجه الناس، ولا يوجد بها أسواق تجارية يومية . للمزيد انظر: علي حافظ، أربعة أيام في منطقة الباحة، ص ١٠٥ ـ ١١٣ .

(٣) سعد بن شيبان الغامدي يستحق الذكر الحسن، حبذا أن نرى عنه دراسة علمية تاريخية توضح جهوده في منطقته وما قدم لها من أعمال مثل افتتاحه الطريق الترابي بين الطائف ومكة عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) .

(٤) نلحظ في كتاب علي حافظ أن منطقة الباحة تطورت بشكل لا بأس به عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) . وهذا ما لمسناه في هذا الكتاب وفي مصادر ومراجع أخرى وبخاصة إذا قارنا تلك الحقبة بالعقود الوسطى من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) . أما إذا قارنا بلاد غامد وزهران اليوم بما رآه السيد علي حافظ، فالوضع يختلف كثيراً، بل ليس هناك نسبة للمقارنة . فمنطقة الباحة صارت اليوم من المناطق الهامة والحضارية في عمرانها، ونموها، وتعليمها وسياحتها . ونرى أن على جامعة الباحة مسؤولية كبيرة في إنشاء مراكز بحثية تقوم على دراسة المنطقة في الماضي والحاضر وتوضح ما مرت وتمر به من تدرج حضاري منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى وقتنا الحاضر . كما نأمل من أقسام علوم التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والإدارة والتخطيط في الجامعة أن تلتفت هي أيضا إلى دراسة المنطقة تنمويا وحضاريا .

وقارن بين باحة اليوم سنة (١٤٠٥هـ) وباحة الأمس في سنة (١٣٦٣هـ) [١].

٢٠ ـ مسفر مرزح الغامدي (ق١٤ـ١٥هـ/ ٢٠/ ٢١م) :

لا نعرف تفصيلات كثيرة عن هذا الرحالة، وإنما عرفنا من بعض مدوناته أنه من قرية العبادل، وهي فخذ من بطون بني كبير الغامدية. عاش فيها بداية حياته ثم انتقل إلى بلدة بيشة فمكث بها تسع سنوات، ثم انتقل إلى مدينتي أبها وخميس مشيط وما حولها لعدة سنوات . كما تجول في بلاد نجران وظهران الجنوب وسراة عبيدة وبلاد شهران وبلاد الحجر، وبلاد غامد وزهران، ودون كتابه الموسوم بـ : جولة في ربوع المملكة[٢]، وكان الأفضل أن يكون سماه (جولة في ربوع جنوب المملكة العربية السعودية)، لأن الحديث الوارد بهذا الكتاب اقتصر على البلاد الممتدة من غامد وزهران شمالاً إلى قحطان ونجران جنوباً[٣]

هذا الرحال الذي لم يذكر تاريخ تجواله في جنوبي البلاد السعودية، تنقل في سروات غامد وزهران[٤] وأشار إلى بعض الصور الحضارية التي شاهدها فذكر بعض الملامح لحياة الغامديين، فكان منهم البدو الرحل والمتحضرون المستقرون، ومدينتا الباحة والظفير من أكبر المراكز الحضارية في الديار الزهرانية والغامدية[٥] . كما نوه ببعض العادات والتقاليد والصناعات التقليدية المتواجدة في البلاد الغامدية السروية[٦]. وذكر دور المرأة في هذه الأوطان فقال : "... تقوم النساء بصناعة العباءات الغامدية من صوف الأغنام والإبل و المفارش الصوفية لاستعمالها للمنازل، ودباغة الجلود، ويعملن كالرجال في زراعة الأرض، كما تنوب عنه في غيابه، في كل ما يتعلق بشؤون المزرعة والمنزل .." [٧] . ويواصل حديثه في ذكر بعض الأودية والجبال في ديار زهران وغامد[٨]، ثم يوجز الحديث عن التاريخ

---

(١) علي حافظ، أربعة أيام في منطقة الباحة، ص ١٠٥ .

(٢) الكتاب لا يظهر عليه معلومات للنشر، ومكتوب على غلافه الأول عبارة (الجزء الأول) .

(٣) المرجع نفسه، ص ٧ وما بعدها .

(٤) من خلال مقارنة مادة هذا الكتاب مع المادة المدونة عند البلادي وعلي حافظ نجدها متقاربة في محتوياتها، وهذا مما يؤكد أن هذا الرحال (الغامدي) تجول في أنحاء المنطقة ودون بعض مشاهدات في بدايات القرن (١٥هـ/٢٠/ ٢١م) .

(٥) مسفر الغامدي، جولة في ربوع المملكة، ص١٨ .

(٦) المرجع نفسه، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٧) المرجع نفسه، ص ١٧ .

(٨) المرجع نفسه، ص ٢٠ .

السياسـي لهذه البلاد منذ فجر الإسـلام إلى عصرنا الحاضر، ومعلوماته في هذا الجانب مختصرة جداً ومنقولة من بعض المصادر والمراجع المختلفة[١] .

الكتـاب مـع صـغر حجمه[٢]، واختصـار المـادة الخاصـة بالبـلاد الزهرانية والغامدية لا يخلو من بعض الشـذرات التاريخية الحضـارية التي شاهدها ودونها صـاحب هذا المؤلف . وكنا نتمنى أن يسـهب في حديثه عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصـادية . أما الجانب التعليمي والثقافي والفكري فذكره بشـكل سريع وعابر. وكان جـل حديثه عن سـراة البـلاد، أما بواديهـا وأجزائها التهاميـة فلم يكن لها نصيبٍ يذكر عنده[٣] .

ثالثا : وقفة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم :

١. تنوع ثقافاتهم :

الناظر في تراجم هؤلاء الرحالين ونتاجهم العلمي والثقافي يتضح له عدة أمور نوجزها في النقاط التالية :

١. اختـلاف أزمانهم وبيئاتهم جعلهم مختلفـين متفاوتين في ثقافاتهم . فالكتاب والمؤلفون الأوائل مثل: الهمداني، والمقدسـي، وناصر خسرو، وابن جبير، وابنِ المجاور، والعُمري، وابن بطوطة موسوعيون في معارفهم وعلومهم. فهم جميعاً أو معظمهم لديهم علم واسـع باللغة العربية وعلومها، وكذلك العلومِ الشرعيةِ والعقائديـة فهم ملمون بالكثير منها . وقد يكون بعضـهم شـاعراً، وله أيضـاً خبرة ودراية بعلوم الحيوان والأفلاك والنجوم، والنباتات، والمياه، والجغرافيا، والأنسـاب وغيرهـا. والمتأمـلِ في كتبِهم التيِ وصـلتنا، ومنها كتـب الجغرافيا والرحلات يجد ذلك ملموساً وأحياناً واضحاً جلياً في أقوالهم وشروحاتهم .

٢. التاريـخِ الحضـاري والثقافي للمسـلمين من القـرن (٣-٨هـ/ ٩-١٤م) كان عصـراً ذهبيـاً للإبـداع العلمي والفكـري وهؤلاء السـبعة الرحالـون الآنف ذكرهـم عاشـوا خلال ذلك الزمـن، ومن ثم فهم جزء من عصـرهم الذي جعلهم من أصحاب الإبداع والثقافات والعلوم الواسعة والمتنوعة .

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١-٣٠ .

(٢) جميع صـفحات الكتاب تقع فقط في (١٠٥) صـفحة من القطع دون المتوسـط . والصـفحات التي تخص منطقة الباحة فقط (٢٣) صفحة .

(٣) انظر : مسفر الغامدي، جولة في ربوع المملكة، ص ٨ وما بعدها .

٣. النظر في البيئات التي جاءوا منها تجدهم من جميع أرجاء العالم الإسلامي، آنذاك، من الأندلس والمغرب، إلى الشام ومصر، إلى جزيرة العرب وغيرها . بل تجدهم أيضا تنقلوا في بلدان عديدة، ودونوا مدونات كثيرة عن مشاهداتهم ورحلاتهم . وهذا مما جعلهم ذوي ثقافات متنوعة، وذوي تجارب وخبرات عديدة .

٤. الرحالون الذين ظهروا بعد القرن (١٢- ١٥هـ/ ١٨-٢١م) أيضاً متفاوتون في ثقافاتهم، لكنهم لا يرقون في سعة معارفهم إلى الرحالين الأوائل. وبعضهم لغاتهم الرئيسة غير العربية، وعند مجيئهم إلى بلاد العرب تعلموا العربية . أما بيئاتهم فالسواد الأعظم منهم من أبناء الجزيرة العربية، أو عاشوا ردحاً من الزمن فيها . والأوربيون مثل: تاميزيه، وكورنواليس، وبدول، وثسيجر قدموا إلى بلاد العرب لأهداف سياسية واستخباراتية، وأحياناً عسكرية أو علمية، بالإضافة إلى تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم .

٥. ثقافات العصر الحديث والمعاصر (ق١٢-١٥هـ/١٨-٢١م) هشة في دراسة العلوم الشرعية واللغوية والآداب والجغرافيا والرحلات والتاريخ مقارنة بالعصور الإسلامية المبكرة والوسيطة . وخروج بعض الرحالين والمؤلفين الجيدين مثل: حمد الجاسر، والسلوك، والشريف، والبلادي، وعلي حافظ يعد مفخرة كبيرة وبخاصة عند انصراف الناس إلى ثقافات متنوعة سطحية. ومثل هؤلاء الرحالة المتأخرين يعدون من صفوة المجتمع تعليمياً وثقافياً وأدبياً وفكرياً . والدارس لتراثهم الأدبي يتأكد له صحة ما ذهبنا إليه .

٦. كما أشرنا سابقاً، إلى التفاوت في ثقافات الرحالين المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر مسلم به، لكنهم في غالب الأمر كانوا على ثقافة جيدة وواسعة مقارنة بأهل عصرهم، أو مقارنة بمثقفي وعلماء عصرنا الحاضر.

٧. معظم الرحالين العشرين الوارد ذكرهم في هذه الدراسة قاموا برحلاتهم رغبة في طلب العلم والتدوين . نعم بعضهم رحلوا بهدف الحج والعمرة، وآخرون لأهداف سياسية أو سياحية أو تعليمية أو غيرها، ولكنهم جميعاً دونوا مذكراتهم ومشاهداتهم من باب الرغبة وإفادة الآخرين . وما وصلنا عن طريقهم يعد إضافة معرفية وفكرية وثقافية. ولو لم يكونوا على مستوى جيد من الإدراك والثقافة والمعرفة لما فعلوا ذلك .

٨. هـؤلاء الرحالة يذكرون بعض اللمحات أو التفصـيلات عـن منطقة معزولة في بلاد السـراة مثل: أوطان غامد وزهران وما جاورها من السروات، بل إن بعضـهم زارها ودون مشـاهداته عنها . وهذا يؤكد على أنهم أصـحاب فكر وثقافة ودراية بالعلم وإفادة الآخرين .

٩. شـمولية ثقافـة بعضـهم وبخاصـة فيمـا دون عن منطقـة الباحـة . وحمد الجاسـر، والسلوك، والشـريف من ذوي الثقافات الواسعة فيما يخص بلاد غامـد وزهـران . فقد زودونا بمعلومات وتفصـيلات واسـعة ومتنوعة قل أن نجدها عند غيرهم .

٢ـ المصادر والمنهج المستخدم في جمع مادة المدونات :

هناك مصادر ومناهج عديدة استخدمت من قبل هؤلاء الرحالين، ومن أهمها ما يلي :

١. الرحلـة والمشـاهدة والانطباعـات من أهم المصـادر التي قـام بها معظم هؤلاء الرحالين، فمنهم من زار منطقة الباحة وكتب مشاهدات في جوانب تاريخية وحضارية متنوعة.

٢. الروايـات والمقابـلات كانت مصـاحبة أيضـاً للرحلة والتجـوال . فهناك مـن تجـول في بعض أجزاء من بلاد زهـران وغامد، وقابـل بعض أعيانها أو سـكانها ونقـل منهم بعض الأخبار والروايـات. وفريق آخر لم يروا بلاد الباحة لكنهم التقوا ببعض سـكانها السـرويين في مكة المكرمة أو الطائف وسـمعوا منهم ونقلوا عنهم وعن بلادهم أخبـاراً متنوعة، ثم ذكروا بعض الأوصاف الخِلقية والخُلقية لأولئك الذين شاهدوهم في أرض الحرمين .

٣. هنـاك بعضـ المؤلفين الذين لم يـزوروا منطقة الباحـة، ولم يلتقوا بأحد منها، لكنهم نقلوا بعض التفصـيلات من بعض المدونات وكتب الرحلات . والنويري وبدول نموذجان من هذا الصنف من الكتاب والمؤلفين .

٤. تنـوع المـادة المدونة في كتـب الرحالين، فالبعض منهم ركز على الأوضـاع الجغرافيـة والسياسـية مثـل تاميزيـه وكورنواليس، وهناك من اقتصـر فقط على ذكر شـذرات سـمعها أو شاهدها أو نقلها من مصدر أو مصـادر محددة. وفريق ثالث مثل: السـلوك، والجاسر توسـعا في كتابة مدوناتهما

عن البلاد الزهرانية والغامدية . مع أن معظم شروحاتهما مستقاة من المشاهدات والتجربة بالإضافة إلى السؤال والمقابلة والرواية الشفهية[١] .

٣. دراسة مقارنة وتحليل لمدونات الرحالين :

١. من دراسة الرحالة العشرين رحال، لمسنا أن بعضهم كان موسوعياً شمولياً في مدوناته عن بلاد غامد وزهران . ويأتي على رأس القائمة منهم الأستاذان حمد الجاسر، وعلي السلوك الزهراني . فالأول : هو بحق رجل موسوعي في دراسة تاريخ وتراث وفكر وحضارة الجزيرة العربية من العصور القديمة إلى وقتنا الحاضر[٢] . وقد أفرد لنا ذلك بدراستين متفاوتتين في الحجم عن بلاد غامد وزهران[٣] . دون لنا فيهما تفصيلات كثيرة عن جغرافية منطقة الباحة، ومشاهداته لكثير من المعالم الحضارية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية التي رآها في المنطقة الزهرانية والغامدية في التسعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وفي العقد الأول من القرن (١٥هـ/٢٠م). والثاني : هو علي السلوك، ابن منطقة الباحة، وصاحب الريادة في مدوناته عن بلاد غامد وزهران في العصر الحديث والمعاصر. وكما ذكرنا سابقا، فهذا الرجل الزهراني وهب نفسه لخدمة دينه وبلاده فأخرج دراسات عديدة عن المنطقة الباحوية . ومن تلك الدراسات ما هو في باب الجغرافيا وتقويم البلدان، ومنها ما يختص بالتاريخ الحضاري الإجتماعي والثقافي وأحيانا السياسي والأدبي . وجل ما جمعه ودونه ونشره مرتكزا على التجارب والخبرات، ثم الانطباعات والمشاهدات، وكذلك الروايات والمقابلات[٤] .

---

(١) إن جمع كل ما كتب في مصادر التراث الإسلامي المبكر والوسيط عن بلاد غامد وزهران جدير بالجمع والدراسة والاهتمام . وهناك مؤلفات تراثية، غير كتب الرحلات، مليئة بشذرات متفرقة وتحتاج إلى من يجمعها ويدرسها ويوثقها . والأمل في الباحثين والمؤرخين الغامديين والزهرانيين أن يقوموا بمثل هذا العمل العلمي الجيد . وإن فعل بعضهم ذلك فسوف يضيف إلى المكتبة العربية والإسلامية إضافة علمية ثقافية قيمة .

(٢) الناظر في مؤلفات الشيخ حمد الجاسر، وفي مجلته الرائدة، مجلة العرب، يدرك فعلاً أنه أمام عالم جهبذ استطاع أن يخلف لنا كماً هائلاً من التراث الحضاري والفكري عن بلاد العرب وبخاصة الجزيرة العربية، فرحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه فسيح جناته .

(٣) الدراسة الأولى خرجت في كتابه : في سراة غامد وزهران . والثانية : في محاضرة قدمها في الباحة عام (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) بعنوان : لمحات وانطباعات عن مشاهداتي في السروات . للمزيد انظر : تفصيلات عن حمد الجاسر في صفحات سابقة من هذا القسم .

(٤) نقول إن ما حفظ لنا الأستاذ السلوك يستحق الإشادة والبحث والتحليل والدراسة . وهذه مسؤوليات الباحثين والمؤرخين المنصفين من أبناء منطقة الباحة، فالواجب عليهم دراسة آثار هذا الباحث وذكر مآثره الحسنة التي أسداها لأبناء بلده ومنطقته .

٢. بعد السلوك والجاسر نجد الرحالين الآخرين يسردون تفصيلات متنوعة ومتفاوتة . ففي ميدان الجغرافيا نرى الهمداني يورد لمحات جغرافية مختصرة عن سروات غامد وزهران. وخسرو ينوه بوجود جبال ومضائق حصينة في أرض السروات، ويذكر أنها شديدة البرودة وبخاصة في فصل الشتاء . أما الموسوي فيشير إلى بعض المعالم الجغرافية في الأجزاء الغربية من الديار الزهرانية والغامدية، بالإضافة إلى كثرة الحيات والثعابين والزواحف في تلك النواحي . وتاميزيه يذكر الأجزاء الشرقية لبلاد غامد، وبخاصة وادي العقيق ويشير إلى تنوع تضاريسه وتبدل مناخه ما بين الليل والنهار . ومحمد عمر رفيع نقلاً عن بعض التقارير العلمية يذكر كثرة الأشجار والنباتات البرية في منطقة غامد وزهران[١] .

٣. وعن التركيبة البشرية والسكانية، نجد الهمداني، وناصر خسرو، وابن المجاور، وابن فضل العُمري يذكرون تعدد البطون والعشائر في بلاد السراة، ثم إن الشيوخ والأعيان هم أصحاب الحل والعقد في قبائلهم وعشائرهم . كما وجد العبيد والموالي الذين كانوا يعملون في الأعمال الشاقة والوضيعة عند عشائرهم وسادتهم . ويأتي كورنواليس وبدول فيذكران معلومات قيمة عن البطون والعشائر الحضرية والبدوية الغامدية والزهرانية، ويشيران إلى بعض الأعيان والشيوخ في تلك القبائل، وأحياناً ذكرا أعداداً دقيقة ومحددة لسكان بعض العشائر في المنطقة[٢] .

٤. وفي الحياة السياسية والإدارية والحربية : نرى العُمري وابن المجاور وخسرو يذكرون أن القرار السياسي في سروات غامد وزهران كان عند شيوخ وأعيان القبائل. وأورد بدول وكورنواليس أمثلة لبعض شيوخ زهران وغامد الذين يحكمون بلادهم، حاضرة وبادية، فكانوا على صلات سياسية وإدارية وحربية مع بعض القوى القائمة في الحجاز أو عسير أو جازان . بل نجد

(١) بلاد السراة بشكل عام مليئة بالأشجار والنباتات المتنوعة في أحجامها وأشكالها وفوائدها العامة والخاصة . وجامعات جنوبي البلاد السعودية عليها مسؤولية كبيرة في دراسة أزهار وأشجار ونباتات بلاد تهامة والسراة الممتدة من الطائف ومكة المكرمة شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً .

(٢) بلاد الباحة مأهولة بالسكان، والعشائر والبطون المتعددة والمتفرقة . وذكر بعض الإحصائيات عند بعض الرحالة الوارد ذكرهم في هذا القسم غير دقيقة، لأنهم لم يعتمدوا في جمع مادتهم على مصادر واضحة وموثوقة، وإنما كانوا يجمعون معلوماتهم من عامة الناس، وربما من بعض الأعيان والشيوخ الذين يغلب عليهم الهوى أو الرغبة في إيراد معلومات تعود عليهم بفائدة أو مصلحة محددة .

هنـاك الكثير من الوثائـق الحديثة التي تؤكد على التقـارب وأحياناً التباعد بين أولئك الشـيوخ وتلك الإمارات أو الحكومات السياسية مثل: آل عائض في عسير، والأشراف في الحجاز، والإدريسي في جازان[١] .

أمـا المركـز الإداري لبـلاد غامـد وزهـران في العصـر الإسـلامي المبكـر والوسـيط، فلا نجد هؤلاء الرحالين يذكرون لنا شيئاً في هذا الباب[٢] . وفي العصـر الحديث والمعاصـر يذكرون أن بلاد رغدان والظفير وبلجرشـي ثم الباحـة كانت هـي المراكز الإدارية لحكم منطقة الباحة[٣] . ونجد الجاسـر والبلادي وعلـي حافظ يذكرون بعض المؤسسـات الإدارية في منطقة الباحة أثناء زيارتهم لها في أواخر القرن الهجري الماضي وبداية هذا القرن[٤] .

٥. وفي الحياة الاجتماعية نلحظ خسـرو، والهمداني، وابن المجاور، وابن فضـل اللّه العُمـري، والموسـوي، وكورنواليسـ، وبـدول، والبلادي يؤكـدون على أن تركيبـة البـلاد الزهرانية والغامديـة قبلية عشـائرية، بالإضـافة إلى كثرة القرى المتناثرة في أنحاء البلاد التهامية والسـروية. ويذكر بدول وكورنواليس أسـماء بعض القرى والبطون مع إيراد أسـماء شيوخها أو نوابها . ويشير ابن المجاور وخسـرو إلى كثرة الحصون في المرتفعات السـروية، ويصف تاميزيه بعض القرى والحصـون والمنازل التي شـاهدها في وادي العقيق، وكيف كانت بسـيطة ومتواضـعة . والبلادي وعلي حافظ وأخوه السـيد عثمان حافظ من قبلـه يذكرون أن المنازل المبنية من البلك والأسـمنت دخلت بلاد زهران منذ العقود المتأخـرة في القرن (١٤هـ/٢٠م) . ومنذ أوائـل القرن (١٥هـ/٢١م) نجد أن العمران تطور في عموم منطقة الباحة[٥] .

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: المصادر والمراجع التي ناقشت التاريخ السياسي لتلك القوى والحكومات في القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) .

(٢) عندما نعود إلى مصادر التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط . نجد أن ناحيتي جرش حول مدينة أبها، وتبالة قريباً من بيشـة وبلاد غامد كانتا من الحواضـر الرئيسة في بلاد السراة . وربما أن تبالة كانت هي المركز الرئيس الذي يدير دفة البلاد من النماص وبيشـة إلى بلجرشـي والباحة . للمزيد انظر: غيثان بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، الجزءان الأول والثاني .

(٣) نأمل أن نرى أحد المؤرخين الجادين أو واحد من طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالمملكة العربية السعودية فيدرس التاريخ الإداري لمنطقة الباحة خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م).

(٤) المرجع نفسه .

(٥) تاريخ التنمية في منطقة الباحة جدير بالبحث والدراسة منذ ثمانينيات القرن الهجري الماضي حتى يومنا الحاضر . وهذه مسؤولية جامعة الباحة فتنشئ مراكز بحوث ودراسات تقوم على دراسة مثل هذه الجوانب التاريخية الحضارية .

أما الألبسة والزينة فليس لها ذكر كبير في مدونات هؤلاء الرحالين، اللهم إلا إشارات بسيطة ذكرها ابن جبير وابن بطوطة عندما وصفا أهل السراة الذين يرتادون بلاد الحرمين، فذكرا أنهم كانوا يشترون الخرق والعباءات والشمل والأقنعة والملاحف من مكة ويعودون بها إلى بلادهم[١] . وقد وصف ابن جبير ملبسهم فقال : " ... ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها ... "[٢] . أما الأطعمة فذكر بعضهم معلومات قيمة في هذا الباب، فابن جبير، وابن بطوطة، وابن المجاور، والعُمري، ومحمد رفيع، وشيجر أكدوا على وفرة الحبوب والفواكه في سروات غامد وزهران وما جاورها، وأشاروا إلى أن تلك السلع كانت فائضة عن حاجة الناس فيصدرون الكثير منها إلى أسواق الحجاز . والأمر الذي لاشك فيه أن الأراضي الزهرانية والغامدية زراعية، وتتوفر بها المياه والأيدي العاملة التي تقوم على زراعة الأرض وخدمتها. وكانت هذه البلاد إلى عهد قريب مصدراً رئيساً للحبوب والفواكه التي تصدر إلى الحجاز وغيرها من المناطق المجاورة . أما اليوم فالزهرانيون والغامديون تخلوا عن ممارسة الزراعة وأصبحوا يعملون في أعمال ووظائف حكومية أخرى تجلب لهم المكاسب المالية الكثيرة والسريعة مقارنة بأعمال الزراعة[٣] .

ومن صفات سروات غامد وزهران ما أشار إليه ابن جبير، وابن بطوطة، والعُمرى، وتاميزيه فهم أهل شجاعة وكرم، وأصحاب عقائد خالصة صافية، ومما ذكر عنهم ابن بطوطة عندما شاهد بعضهم في مكة المكرمة، قوله : " ... بلاد السرو التي يسكنها ... زهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة، كثيرة الأعشاب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء بالألسن، لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم،

(١) ابن جبير، ص١١٠ - ١١١، ابن بطوطة، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) ابن جبير، ص ١١٢ .

(٣) هذه العادات أصبحت تقريباً سائدة في أنحاء البلاد السعودية وبخاصة جنوبيها، فالناس تركوا أعمال الصيد والرعي والزراعة وأصبحوا يمارسون التجارة والأعمال الوظيفية الحكومية التي تجلب لهم الراحة والفائدة المادية . هذا ما لمسه الباحث وشاهده خلال الأربعين عاماً الماضية .

ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك. وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم ..." [١].

٦. وعن الحياة الاقتصادية يشير ناصر خسرو إلى أن أهل السراة كانوا أصحاب إبل وماشية. ويؤكد معظم الرحالة من ابن جبير، وابن المجاور، والعُمري، والجاسر، والسلوك، وابن حافظ، ومسفر الغامدي إلى أن بلاد زهران وغامد أراض زراعية يزرع بها صنوف الحبوب والفواكه والمزروعات. أما الصناعاتٍ والحرف اليدوية مثل: النجارة، والدباغة، والخرازة، والنسيج والخياطة، والحدادة والصياغة، والصناعات الفخارية وغيرها فكانت تتواجد بكثرة في أرض غامد وزهران، والقائمون عليها من أهل البلاد، وربما جلبوا بعض العبيد والموالي لممارسة بعض هذه المهن.

أما التجارة فكانت هي المهنة الرائجة عند كثير من الغامديين والزهرانيين. فالمقدسي، وابن جبير، وابن المجاور، وابن بطوطة، وابن رفيع، وشسيجر، والبلادي، وابن حافظ، ومسفر الغامدي يشيرون إلى النشاط التجاري الجيد الذي كان بين سروات زهران وغامد وبين أسواق الطائف ومكة المكرمة. وابن جبير يصف تلك الصلات التجارية فيقول: ".. إنهم - أي سروات زهران وغامد وما جاورهم - يجمعون بين النية والعمرة وميرة البلد بضروب الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء وإلى ما دونها. ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم من الطعام والإدام والفاكهة. ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد..." [٢]. ويقول أيضاً: "... ومن العجيب في أمر هؤلاء (السرو) المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرنا بدينار ولا درهم، إنما يبيعونها بالخرق والعباءات والشمل..." [٣].

ونجد كورنواليس وبدول يذكران بعض الطرق التجارية التي تربط الباحة مع غيرها. ومن تلك الطرقات طريق أبها الطائف، وذكر كورنواليس بعض

---

(١) ابن بطوطة، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) ابن جبير، ص ١١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠ - ١١١.

المحطات الموجودة على تلك الطريق وما يوجد بها من سلع وتجارات. كما يوجد في منطقة الباحة أسواق عديدة، ومن أهمها : أسواق الظفير، ورغدان، وبلجرشي، والباحة، والعقيق وغيرها.

لم يتعرض الرحالون إلى العملات التي كانت موجودة في بلاد زهران وغامد، مع أن المقدسي أشار إلى العملات والمكاييل والأوزان التي كانت موجودة في أسواق الحجاز، ومن المؤكد أن الغامديين والزهرانيين قد عرفوها وتعاملوا بها . أما الأسعار فلا نجد لها ذكراً عند المتقدمين والمتأخرين منهم، مع أن بعض الرحالين المحدثين مثل: البلادي، وعلي حافظ، والجاسر، ومسفر الغامدي أشاروا إلى تواجد الأسواق اليومية التي تخدم الناس على مدار النهار والساعات الأولى من الليل .

٧. أما الحياة الثقافية والتعليمية والفكرية فلا نجد الرحالين الأوائل يشيرون إلى أوضاع الغامديين والزهرانيين في هذا الميدان، اللهم إلا أن الهمداني، وابن جبير، والعُمري، وابن بطوطة أشاروا إلى فصاحة تلك البلاد. وذكروا صفاء عقائدهم الدينية، لكننا لا نعلم أي شيء عن علمائهم ومدارسهم وثقافاتهم وبخاصة في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة . ومن المؤكد أنه كان عندهم بعض المعلمين والمتعلمين والعارفين بعلوم الشريعة وصلاتهم بأهل الحجاز تجارياً وفي أوقات الحج والعمرة كفيلة بأن تجعلهم يؤثرون ويتأثرون بالحياة العلمية في أرض الحجاز[١] .

أما الرحالة المتأخرون من الجاسر والسلوك إلى مسفر الغامدي فقد ذكروا مشاهداتهم لبعض المدارس الموجودة في المناطق الزهرانية والغامدية. كما أشاروا إلى العديد من المؤسسات الإدارية الموجودة في المنطقة، والتي كان يعمل بها العديد من الموظفين المتعلمين، وبعضهم من أهالي زهران وغامد، وآخرون وفدوا إليها من مواطن أخرى[٢] .

---

(١) حبذا أن نرى أحد الباحثين الجادين يقوم بدراسة الصلات الثقافية والحضارية بين بلاد السراة والحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة . ومن يفعل ذلك فإنه سوف يضيف للمكتبة العربية عملاً علمياً مفيداً وقيماً .

(٢) دراسة الحياة الثقافية والفكرية والتعليمية في منطقة الباحة منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى وقتنا الحاضر موضوع جدير بالاهتمام ويستحق أن يكون عنواناً لكتاب علمي، أو رسالة علمية لدرجة ماجستير أو دكتوراه . نأمل أن نرى أحد الباحثين في منطقة الباحة فيتناول هذا الموضوع بالبحث والتحليل والدراسة.

رابعاً : آراء ووجهات نظر :

إن الرحالين المذكورين في هذا الباب اختلفت أزمانهم، وثقافاتهم، وأهدافهم. فمنهم الذين جابوا أجزاء من جزيرة العرب، وذكروا سروات غامد وزهران في طيات حديثهم مع أنهم لم يروا أو يزوروا هذه المنطقة، ومن أولئك المقدسي، وخسرو، وابن جبير، وابن المجاور، والعُمري، وابنٍ بطوطة، ومحمد رفيع، وقد جمعوا ما تم تدوينه من بعض الرواة السرويين، وأحياناً بالنقل من بعض الكتب والمدونات الأخرى . وفريق آخر من الرحالة زار منطقة الباحة، وكتب عن بعض معالمها الجغرافية والتاريخية والحضارية، وهذا النوع من الرحالين تفاوتوا فيما ذكروه عن هذه البلاد، وفي الأوقات التي قضوها فيها، والنواحي والبلدات التي تحدثوا عنها .

والمتأمل في أهداف كل رحالة ذكر منطقة الباحة (غامد وزهران) نجد معظمهم أشاروا إليها من باب الرغبة في التدوين وحفظ بعض الثقافات والمعارف عن منطقة نائية مثل أرض السراة الواقعة بين الطائف وجازان ونجران . لكن هناك أيضاً من كان له أهداف سياسية واستخباراتية مثل: كورنواليس الذي زار مناطق عسير وما جاورها في أوائل القرن الهجري الماضي من أجل جمع وتدوين بعض الحقائق العلمية عن هذه البلاد. وذلك بدافع تقديمها إلى رجال السياسة والاستخبارات البريطانيين . ومع أنه قد أرسل من سادته الإنجليز لتحقيق هدف سياسي معلوماتي محدد، إلا أننا نحن معاشر الباحثين استفدنا منه مادة علمية جيدة عن هذه البلدان الجنوبية، يصعب علينا أن نجدها في مصدر أو مرجع آخر. وما وصلنا منٍ معلومات عن طريقٍ جميع الرحالين المذكورين في هذا الكتاب يعد مكسباً علمياً جيداً، وقد يفتح آفاقاً أوسع فتصدر دراسات علمية أكاديمية جادة ومطولة، ومن ثم فلنا بعض التوصيات التي نسردها في النقاط التالية :

١. كتب الرحلات من المصادر الهامة والرئيسة التي تفيد المؤرخ في كتبه وأبحاثه ورسائله العلمية، وبالتالي فلا غنى للباحث من الرجوع إليها والاستفادة منها .

٢. ما أوردنا في هذا القسم يختص ببلاد لم تنل حقها من البحث والدراسات العلمية والتاريخية، وكثير من الرحالين الذين جاء ذكرهم معنا لم يقدموا لنا صورة واضحة عن تاريخ وحضارة هذه المنطقة . مع أن بلاد غامد

وزهـران عندها من المؤهلات الحضـارية ما يجعلها ذات تاريخ حضـاري مجيـد . وفي المحاور التالية نشـير إلى بعض العناوين الجديـرة بالبحث والدراسـة في ميـدان الرحلـة والرحالين وبخاصـة ما يتعلق منها بسـراة وتهامة غامد وزهران، ونذكر منها ما يلي :

أ ـ الباحة (بلاد غامد وزهران) كما وردت في كتب التراث الإسلامي المبكر والوسيط .

ب ـ بلاد غامد وزهران كما رآها الرحالة المسلمون وغير المسلمين في العصر الحديث والمعاصر.

ج ـ دراسـة التاريـخ السياسـي والحضـاري لمنطقـة الباحة مـن خلال كتب الرحلات قديماً وحديثاً .

د ـ بلاد غامد وزهران في مؤلفات حمد الجاسر (دراسة تاريخية تحليلية) .

هـ ـ منطقة الباحة (بلاد غامد وزهران) في مؤلفات علي صالح السلوك الزهراني (دراسة تاريخية تحليلية) .

و ـ سراة وتهامة غامد وزهران في روايات وأقوال المعلمين والموظفين بمنطقة الباحة (١٣٥٠ـ ١٤٠٠هـ / ١٩٣٠ـ ١٩٨٠م) (دراسة تاريخية تحليلية) .

ز ـ منطقة الباحة في عيون أعيان وأعلام وشيوخ غامد وزهران خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) .

٥- رنية ، وتربة ، والخرمة، في عيون بعض الجغرافيين والرحالين المسلمين وغير المسلمين المتقدمين والمتأخرين*

* نُشر في كتاب :
القول المكتوب في تاريخ الجنوب
ط١ : ١٤٣٧هـ ، الرياض ، مطابع الحميضي ، ج٩ ،
ص ص ١٣١ - ١٩٤

رنية ، وتربة ، والخرمة ، في عيون بعض الجغرافيين والرحالين المسلمين وغير المسلمين المتقدمين والمتأخرين:

أولاً: تمهيد :

رنية، وتربة، والخرمة: تلك البلاد الواقعة في الجهة الشمالية من محافظة بيشة، والشرقية والشمالية من منطقة الباحة، ثم الممتدة شرقاً وشمالاً إلى ما بعد الطائف، وأجزاء من أوطان نجد الغربية والجنوبية . ومن ثم فهذه البلاد تعد حلقة وصل كبيرة ما بين جنوب ووسط البلاد السعودية. والسائح في ناحيتي رنية وتربة يجد أجزاءها الغربية والجنوبية تتصل اتصالاً مباشراً بأجزاء من مناطق عسير والباحة وجنوبي الطائف السروية [١]، ولهذا السبب ارتأيت أن أفرد دراسة مستقلة عن هذه الأوطان، وأقوم بنشرها في سلسلة كتابنا: **القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الجزء التاسع** : وقررت أن تكون هذه الدراسة مقصورة على ما دونه بعض الجغرافيين والرحالين المسلمين وغير المسلمين المتقدمين والمتأخرين.

والناظر في فهرست هذا الباب، يجد أن عدد الجغرافيين والرحالين المذكورين في هذه الدراسة هم (٢٥) جغرافياً ورحالاً، منهم (١٧) رحالاً وجغرافياً في الفترة

(١) آمل في المستقبل أن أقوم برحلة ميدانية في بلاد الخرمة وتربة ورنية وأسجل مشاهداتي وانطباعاتي عن هذه الديار النجدية الجنوبية، وأسأل الله عز وجل أن يتحقق لنا ذلك قريباً .

الممتدة من القرن (٢-٨هـ/٨-١٤م)، ورحالة واحد في القرن (١٣هـ/١٩م)، وخمسة في القرن(١٤هـ/٢٠م)، واثنان في القرنين (١٤-١٥هـ/٢٠م)، ومنهم العربي وغير العربي والمسلم وغير المسلم.

ومن الأسباب الرئيسة التي جعلتني أختار هذا العنوان لهذا القسم، تتبلور في نقاط عديدة، من أهمها:

١. رنية وتربة من المحطات التاريخية والحضارية المهمة التي تقع على الطريق الواصل من صنعاء إلى الطائف ومكة، بل هي جزء مما عرف عند الأقدمين بـ (طريق البخور)، وهاتان المحطتان عرفتا منذ القدم، وعبر أطوار التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط والحديث والمعاصر. أما الخرمة فهي أيضاً معروفة على الطريق الذي يخرج من بيشة إلى رنية، ثم يتجه إلى وسط الجزيرة العربية. وهذه المحطة الأخيرة (الخرمة) اشتهرت في العصر الحديث، بسبب ما وقع فيها، وأيضاً تربة، من أحداث سياسية وحربية[١]، غيرت مجرى التاريخ في الجزيرة العربية[٢].

٢. هذه البلدان الثلاثة (الخرمة، وتربة، ورنية) منزوية بين مناطق الحجاز، وأجزاء من نجد، والباحة، وعسير، وهذا الانزواء جعلها في حالة عزلة، وقلة ذكر في كتب الباحثين والدارسين المتقدمين والمتأخرين، ومن يقارن حجم الدراسات والمدونات التي ذكرت هذه البلاد يجدها في مرتبة متأخرة في مجال البحث والدراسة والتأليف[٣].

---

(١) ربما موقعها، فهي تربط بين أجزاء من بلاد نجد وبين أعالي بلاد السروات وسفوحها الشرقية، وهذا السبب يجعلها ذات موقع جيد يربط بين تلك النواحي.

(٢) الباحث في تاريخ بلاد الخرمة وكذلك تربه يجدهما كانتا ميداناً لعدد من الحروب والمعارك بين الدولة السعودية الثالثة والأشراف في الحجاز، وقد لعب أهل الخرمة دوراً ريادياً في تغيير دفة السياسة في جنوب ووسط وغرب الجزيرة العربية. وهناك عشرات الدراسات وآلاف الوثائق المنشورة وغير المنشورة التي ناقشت تاريخ وحضارة بلاد الخرمة وتربة خلال العصر الحديث. وللمزيد انظر: المؤلفات والوثائق التي درست تاريخ الدولة السعودية وبخاصة أثناء السيطرة على بلادالحجاز.

(٣) الباحث في تاريخ وحضارة تربة والخرمة ورنية في كتب التراث الإسلامي المبكر، أو في العصر الحديث والمعاصر، يجد أنها لم تنل اهتمام المؤرخين، بل إنها في كثير من المصادر والمراجع شبه منسية. حتى في عصرنا الحالي نلحظ أنها لاتزال تتبع إدارياً وتعليمياً لمنطقة مكة المكرمة، مع أنها بلاد واسعة وبعيدة جداً عن مدينة مكة، فهي تستحق أن تكون منطقة رئيسة في المملكة العربية السعودية، كما تستحق أن يكون فيها جامعة مستقلة تخدم أبناءها وبناتها.

٣. الباحث يجد عن تاريخ وحضارة هذه الأوطان في كتب التراث، أن الرحالة والجغرافيين يعدون أفضل من أشار إليها، مع أن إشاراتهم لها لازالت محدودة ولا تفي بالغرض. وتربة ورنية أوفر حظاً من الخرمة في كتب التراث الإسلامي بشكل عام، وفي مصادر الرحلة والجغرافيا بشكل خاص[١].

٤. ذكرنا في عنوان هذا القسم كلمة (بعض) الجغرافيين والرحالين، وذلك يعني أننا لا ندعي شمول جميع الرحالة والجغرافيين الذين كتبوا عن هذه الأوطان، ومن المؤكد أن تربة ورنية خاصة كانت على الطريق الجبلي الرئيس الذي يربط اليمن بالحجاز، ومن ثم فهناك الكثير من العلماء، والقادة، والأعلام الذين ارتادوا هذا الطريق، وبعضهم ربما كان رحالة، أو عالماً في بعض العلوم والمعارف، وقد أشار إلى بعض الصور الحضارية في هذه البلاد، ولم نستطع معرفة ذلك، وقد يأتي بعدنا - بإذن الله تعالى - من يستكمل ما لم نستطع تدوينه، أو يصحح ما أخطأنا فيه بدون قصد.

٥. في قائمة الجغرافيين والرحالة الذين ذكرنا في الفهرست، منهم من زار مناطق الخرمة، وتربة، ورنية، ودون ملاحظاته من خلال المشاهدة والرواية، وآخرون لم يأتوا إليها أو يشاهدوها وإنما استقوا معلوماتهم من غيرهم عن طريق الرواية، أو عن طريق النقل من بعض المصادر والمدونات التي حفظت بعض التفصيلات عن هذه البلاد.

٦. نجد التباين والاختلاف في عصور وعقائد وثقافات هؤلاء الرحالين والجغرافيين المذكورين، فمنهم العربي وغير العربي، ومنهم المسلم وغير المسلم، ومنهم الذي عاش في قرون إسلامية مبكرة أو متأخرة، وهذه الاختلافات تؤكد فضل الله على هذه البلاد وأهلها، وذلك عندما نجد شريحة من العلماء والرحالة يدونون ويحفظون جزءاً من تراثنا وحضارتنا.

٧. إن دراسة مثل هذا الموضوع، قد يقيض الله بعض أبناء هذه البلاد (تربة، ورنية، والخرمة)، وبخاصة الباحثين والدارسين، فيعكفون على بحث ودراسة أي جزئية من تاريخ وموروث وحضارة هذه الديار، ونحن على يقين أن من يفعل ذلك فقد يخدم أهله وأبناء جلدته من أهل هذه الأوطان. كما نأمل أن

---

(١) الذي جعل رنية وتربة مذكورتين عند الأقدمين وجودهما ضمن محطات الطريق السروي الذي يخرج من صنعاء أو حضرموت إلى بيشة ثم يتجه إلى الطائف ومكة ماراً ببلاد تربة ورنية. أما الخرمة فهي موغلة في أرض نجد، وبالتالي فحياة أهلها أقرب إلى حياة البادية والصحراء.

يظهر أيضاً بعض الدارسين الآثاريين من هذه البلاد أو من غيرها فيدرسوا الآثار والنقوش والرسوم المتناثرة في نواحيها .

ثانياً : التعريف بالجغرافيين والرحالين ومدوناتهم :

١ـ عرام بن الأصبغ السُلمي (ق ٢ـ٣هـ/ق٨ـ٩م) :

لم نعثر له على ترجمة دقيقة وواضحة، إلا ما ذكره ابن النديم، حيث ذكر اسمه كاملاً (عرام بن الأصبغ السلمي)، ويبدو أنه كان أحد أعراب بني سليم ممن كانوا يطوفون بالبلدان ويتعرفون على مسالكها فيكسبون بذلك خبرة . وعرام: من العرامة أي الشدة والقوة والشراسة، والأصبغ: اسم أبيه، مأخوذ من الأصبغ، وهو من الخيل إذا كانت ناصيتها بيضاء، ومن الطير ذات الذنب الأبيض[١] . ويذكر أنه من أهل القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري، وهو ممن دخل خراسان مع أحد أمراء بني طاهر عام (٢١٧هـ/٨٣٢م) [٢] .

ولعرام كتاب: عن أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى والأشجار والنبات، قام بتحقيقه عبد السلام هارون ويقع في حوالي (١٢٠) صفحة تحدث فيها عن مواطن عديدة من تهامة الحجاز وما جاورها من السروات وأجزاء من نجد، ويشير إلى أرض تربة فيقول " وبنجد في حد مكة واد يقال له وادي تربة، يصب إلى بستان بن عامر، وأسفل تربة لبني هلال، وحوله من الجبال (الشراة) "[٣]. ويعدد بعض جبال السروات، ثم يقول : " وهذه الجبال كلها لغامد، ولخثعم، ولسلول، ولسوأة بن عامر، ولعنزة، وكل هذه الجبال تنبت القرض، وهي جبال متقاودة بينها فتوق " [٤]، وفي هذه المعلومات يذكر بعض العشائر في مواطنها الصحيحة من السروات، إلا أنه أخطأ عندما قالٍ إن وادي تربة يصب في بستان ابن عامر، أي جهة مكة، والمعروف أن وادي تربة يتجه شرقا ويصب في صحاري نجد[٥].

وفي مكان آخر يشير إلى الطائف وبعض جبالها وأوديتها، وأجزاء من أرض الحجاز أو السروات، ويذكر بعض القرى مثل رنية وغيرها فيقول: " وفي حد تبالة

---

(١) انظر: عرام السُلمي . كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، ومافيها من القرى وما بنيت عليها من الأشجار وما فيها من المياه ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، المقدمة، ص ٣٧٦، ٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عرام السُلمي، كتاب أسماء جبال تهامة، ص ٤١٦ـ٤١٧. ويقصد بـ (الشراة) هنا: أي السراة، أو السروات .

(٤) ما ذكر عرام في المتن فيه نسبة كبيرة من الصحة، لأن غامد وخثعم يقطنون السروات، أما سلول، وابن عامر فيستوطنون بيشة، ورنية وما حولها .

(٥) لا نجد هذا الجغرافي يذكر معلومات أكثر عن بلاد تربة، وكل ما دونه يعد منقولاً من بعض المصادر أو سمعه من بعض الرواة، ولم ير أو يزر السروات أو بلاد تربة .

قرية يقال لها رنية، وقرية يقال لها بيشة، وتثليث ... والعقيق، وكلها لعقيل، مياهها بثور..." [١] . وبهذا الوصف يحدد موقع رنية القريبة من بيشة وتبالة وغيرها، وهي فعلاً كذلك[٢]، لكنه لا يذكر تفصيلات أكثر عن بلاد رنية، وقوله إن هذه البلاد لعقيل فهذا غير صحيح لأن معظم سكان رنية من سبيع .

٢ ـ أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة (ق ٣هـ/ ق٩هـ) :

ابن خرداذبة ولد في خراسان عام (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م)، وعاش في بغداد، وهو من أسرة ثرية مثقفة تولى إدارة البريد في إقليم الجبل ببلاد إيران في عهد الخليفة العباسي المعتمد، ويعد ابن خرداذبة من أقدم الرحالة الجغرافيين في العصر العباسي، خلف لنا كتابه الموسوم بـ :**المسالك والممالك** [٣]، وهو يشتمل على معلومات هامة في نظم الحكم وفي النظام المالي بوجه خاص، ويعد هذا الكتاب من أقدم المؤلفات الجغرافية في اللغة العربية . وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة ويصل إلى الهند والصين، كما يحتوي على إحصاءات وبيانات وافية عن إخراج البلاد وطرقها والمسافات بينها [٤] .

وهذا الجغرافي جاب بلاداً عديدة وكتب عن طرقها، وثرواتها، وإذا كان زار الحجاز (مكة والمدينة)، فإنه لم يزر بلدان داخلية في الجزيرة العربية مثل تربة أو بيشة أو رنية وغيرها، وإنما نقل بعض المعلومات عنها ممن سبقه من المؤلفين والكتاب، أو من بعض الرواة الذين كان يلتقي بهم في بغداد أو الحجاز وغيرها[٥]، ونجده يعدد المخاليف أو الأقاليم التابعة لمكة المكرمة إدارياً، ويذكر تربة وبيشة وتبالة من المواطن الملحقة بمكة[٦] . ويشير أيضاً إلى محطات الطريق من مكة

---

(١) عرام السُلمي، ص ٤٢٠ـ ٤٢١، والبثور : مياهه تجري تحت الحصى على مقدار ذراع وذراعين وأحياناً دون الذراع، وربما أثارته الدواب بحوافرها . المصدر نفسه، ص ٤٢١ .

(٢) رنية تبعد عن بيشة شمالاً حوالي (١٥٠كم)، واليوم هناك طريق رئيسي معبد يذهب من بيشة إلى رنية ويسير شمالاً وشمال شرق ثم يتفرع إلى كل من تربة غرباً والخرمة شمالاً .

(٣) انظر : أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة . كتاب المسالك والممالك . تحقيق د. غوي (ليدن : مطبعة بريل، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م)، ص ٥ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه، ص ٨ وما بعدها .

(٥) هناك رحالة وجغرافيون كثيرون لم يزوروا بلاد رنية أو تربة أوبيشة أو أراضي السروات، إلا أنهم نقلوا عنها بعض المعلومات ودونوها في كتبهم وأسفارهم . انظر : ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٣٣ .

(٦) أي تابعة لمكة المكرمة إدارياً، وحتى هذا اليوم لازالت رنية وتربة تتبع إدارياً لإمارة مكة المكرمة .

والطائف إلى صعدة وصنعاء، ويؤكد على أن تربة ورنية على تلك الطريق، ثم يقول عنهما " تربة قرية كبيرة، ثم إلى كرى فيها نخل وعيون[١] ، ثم إلى رنية فيها نخل وعيون "[٢] . ولا نجد ابن خرداذبة يذكر تفصيلات أكثر عن سكان وأراضي رنية وتربة، وفي اعتقادنا لو زارها لكان أفادنا كثيراً عن تاريخها الحضاري .

٣ـ أبو إسحاق الحربي، ٤ـ بن رسته، ٥ـ ابن حوقل (ق٢ـ ٤هـ/ ق ٨ـ ١٠م):

هؤلاء العلماء الثلاثة (الحربي، وابن رسته، وابن حوقل) عاشوا في الفترة الممتدة من القرن الثاني إلى الرابع الهجري . فالإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي من مواليد إقليم خراسان عام (١٩٨هـ/٨١٣م) ، وفي مدينة مرو تحديداً ، برع في علوم عديدة شرعية ولغوية وأدبية وإخبارية، وله العديد من المؤلفات في هذه المجالات، ويعد من كبار المحدثين في عصره . أما في مجال الرحلة والجغرافيا فله كتاب قيم في هذا الميدان هو: **كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة**، قام على تحقيقه ونشره الأستاذ حمد الجاسر، وكتب له مقدمة في (٢٧٢) صفحة، ومادة كتاب الحربي في (٣٨٥) صفحة[٣] .

أما ابن رسته وابن حوقل فهما من الجغرافيين المسلمين الأوائل، فالأول أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، وهو من أعظم جغرافيي القرن الثالث الهجري، وله كتاب قيم بعنوان :**الأعلاق النفيسة**، ألفه عام (٢٩٩هـ/٩٠٣م) ، وطبع ضمن الموسوعة الجغرافية في ليدن بهولندا عام (١٩٨١م) [٤] . أما الجغرافي ابن حوقل فهو أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل، ولد في بلاد الجزيرة في مدينة نصيبين، ولا نعرف تاريخ ميلاده، إلا أنه بدأ سفره وترحاله من عام (٣٣١هـ/٩٤٢م) ، وبقي يجوب بلدان كثيرة حوالي ثلاثين عاماً ، وكتابه الجغرافي الشهير هو: **المسالك والممالك، أو(صورة الأرض)**، حققه المستشرق دي خوية وطبع في مطابع بريل عام (١٨٧٣م) [٥] .

---

(١) كري لازالت حتى اليوم تقع ضمن حدود بلاد تربة، وكانت إحدى المحطات التجارية القديمة .

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٣٤ .

(٣) أبو إسحاق الحربي . كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ص ٦٤٤ـ ٦٤٥، ٦٤٨ـ ٦٤٩ .

(٤) أحمد بن عمر. المجلد السابع من كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق دي. خوية (ليدن :مطبعة بريل، ١٨٩١م) ، ص ١٨٤.

(٥) أبو القاسم محمد بن حوقل . كتاب صورة الأرض (بيروت : دار صادر) نسخة مصورة من طبعة بريل في ليدن (١٩٣٩م)، ص ٤١ .

وهؤلاء العلماء (الحربي، وابن رسته، وابن حوقل) ذكروا بعض مدن الحجاز، والطرق التي تربط مكة مع غيرها، وأشاروا إلى طريق صنعاء الطائف ومكة، وذكروا محطتي رنية وتربة بشكل مختصر ، ولم يفصلوا الحديث عن وضع هاتين البلدتين، ولا إلى سكانها، أو تاريخها، وثلاثتهم لم يطأوا أرضها أو يروها، إنما نقلوا معلوماتها من بعض الرواة والإخباريين[1] .

٦ ـ أبو علي هارون الهجري (ق ٣ ـ ٤ هـ / ق٩ ـ ١٠م) :

أبو علي هارون بن زكريا الهجري، لا نجد تاريخاً دقيقاً لميلاد ووفاة هذا العالم، لكن من خلال النصوص التي وردت في بعض مؤلفاته، يبدو أنه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث، والنصف الأول من القرن الرابع الهجريين، ومن لقبه الهجري، فهو (في الغالب) من أرض هجر في إقليم البحرين، أو ما عرف فيما بعد باسم (الأحساء)، أو (المنطقة الشرقية) في وقتنا الحاضر[2] . وجل حياة أبو علي الهجري في الجزيرة العربية وبخاصة في المدينة المنورة[3]، وهو عالم في جوانب عديدة من المعرفة، فهو لغوي وأديب ذا عناية بالشعر، وهو راوية للشعر واللغة والأدب وغيرها من علوم العرب وبخاصة أهل البادية في أرض الجزيرة العربية[4]. وهو نسابة، عني بكتابة قسم من أنساب قبائل الجزيرة العربية، ورحالة وجغرافي حاول أن يحدد كثيراً من المواضع التي يتوقف على تحديدها فهم الشعر العربي[5] .

ولأبي علي الهجري العديد من المؤلفات، ومعظمها متناثرة في مصادر التراث الإسلامي المبكر وممن جمع علومه وحفظها . (١) ابن سيده في بعض مؤلفاته مثل : **كتاب المحكم والمحيط الأعظم، وكتاب المخصص**[6] . (٢) وأبو عبيد الله البكري في كتبه : **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال .**

---

(١) للمزيد : انظر : الحربي، ص ٦٤٤، ٦٤٨، ابن رسته، ص ١٨٤، ابن حوقل، ص ٤١، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ٨٩ ـ ٩٣، ١١٧ ـ ١٢٧ .

(٢) هجر من الحواضر المعروفة في الجزيرة العربية، وقد ورد ذكرها وتاريخها في كثير من مصادر اللغة والأدب والتراث الإسلامي، وعرفت هجر بجودة تمرها .

(٣) للمزيد عن براعة هذا العالم (الهجري) فيما ذكر أعلاه، انظر: كتابه التعليقات والنوادر . ترتيب ومراجعة حمد الجاسر (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) (أربعة مجلدات، ٢٠٨٤صفحة)

(٤) المصدر نفسه، انظر أيضاً مقدمة الجاسر لهذا السفر .

(٥) المصدر نفسه، القسم الأول، مج١، ص ٩ ـ ١٠ .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣) والحسن بن أحمد الهمداني في أسفاره : **الإكليل، وصفة جزيرة العرب، والدامغة وشرحها، وسرائر الحكمة، والجوهرتين**، وعلماء آخرون عديدون[١] .

ومن أهم مؤلفات الهجري، وله صلة ببحثنا، **كتاب التعليقات والنوادر**[٢]. وهذا المؤلف كان موزعاً في أكثر من مخطوطة، قام الأستاذ حمد الجاسر بجمع تلك المخطوطات، ثم مقارنتها، وجمعها، وتنسيقها وترتيبها، ثم نشرها مع دراسة مطولة، في أربعة مجلدات، وفي صفحات زادت عن ألفي صفحة[٣] . وفي هذا الكتاب سجل الهجري ما استطاع من أدب الجزيرة، وتحديد مواضعها، وذكر انساب قبائلها، ووصف حيواناتها، وكان اعتماده في جمع مادته على علماء ورواة وشعراء من سكان الجزيرة أنفسهم، ومما سمعه من أفواه أولئك السكان الذين عاصرهم وخالطهم .والتميز فيما وصلنا من هذا العالم والأديب والجغرافي، هو تدوينه في عصر انصرف فيه العلماء الباحثون والجغرافيون والمؤرخون عن الجزيرة بعدما انصرفت عنها الأنظار، وبخاصة في كل ما له صلة بالثقافة والأدب[٤] .

وإذا كان الهجري قد قضى حياته داخل الجزيرة العربية، إلا أنه لم يصل إلى بلاد تربة والخرمة، وإنما استقى معلوماته عن هذه البلاد من بعض الرواة والإخباريين الذين قابلهم في حواضر الحجاز الكبرى، ونجده يشير إلى هذه الديار (رنية وتربة) فيذكر بعض أعلامها والملقبين في نهاية أسمائهم بـ (التربي) و(الرنوي) نسبة إلى تلك الناحيتين[٥] ، ومن أهل رنية من تعلم الهجري على يديه أثناء إقامته في بلاد هجر[٦] ، أبو محمد الرنوي الذي قال عنه أنه : " أفصح من

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) انظر الكتاب نفسه، ترتيب ودراسة حمد الجاسر، طبعة مكتبة العبيكان، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الدارس لأحوال الجزيرة العربية، بعد انتقال الخلافة الإسلامية من المدينة إلى العراق، ثم إلى الشام يجد أن جل العلماء وأرباب القلم انصرفوا عن تدوين فكر وحضارة وتاريخ سكان الجزيرة العربية، وسخر البعض منهم جهودهم على بلاد الحرمين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، أما جميع العلماء والمؤلفين وغيرهم فقد اتجهوا صوب حواضر الإسلام الكبرى في بلاد الشام ومصر والعراق والأندلس وغيرها .

(٥) الهجري، التعليقات والنوادر، القسم الأول، ص ١٥، ٢٤، ١١١ .

(٦) يذكر الهجري أن أبا محمد الرنوي من ساكني رنية أنشده شعراً لأحد شعراء قبيلة نهد، وذكر الشعر في (١٣) بيتاً، الهجري، التعليقات، القسم الثاني، ص ٥٥٥ .

رأينا ولقينا بهجر "[١] . ويذكر اسم رجل يدعى الغاضري [٢] . نسبة إلى غاضرة، وهي فروع في عدد من القبائل، منها : غاضرة قيس عيلان، وهي من هوازن، ويذكر أنه شاعر، ومن أهل تربة، ويقول عنه " وسمعت شيخاً غاضرياً من غاضرة قيس من ساكن تربة، وهو يستعيذ : اللهم إنا نعوذ بك من جنود الجراد، وجبال البرد، ونحوس الرياح، وشهب الضر، وسحبان الشمس والقمر "[٣] .

ويذكر هذا العالم أن تربة وادٍ قرب مكةٍ، وهو للضباب، وهذا القول ورد عند بعض المتقدمين كالهجري وغيره، وليس قولاً صحيحاً، فوادي تربة من الأعراض الكبار التي تنحدر فروعها من سروات الحجاز صوب نجد، والمسافة بين تربة ومكة تزيد عن المئتين كيل ،واسم تربة يطلق على الوادي، وفيها بلدة بهذا الاسم، ذكرها بعض الجغرافيين والرحالة الأوائل، والوادي من بلاد بني عامرٍ بن صعصعة من هوازن. أما أرض الضباب فهي في حمى ضرية في بلاد نجد، ولكن فرعاً منهم نزل في وادي كرى، وهذا الوادي من فروع وادي تربة[٤] .

ويذكر الهجري قبائل هلال بن عامر، ويقصد بهم الهوازنيين، وهم من أشهر بطون عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وهناك قبائل أخرى تدعى بني هلال[٥]، ولكن الهلاليين الهوازنيين تقع بلادهم في عالية نجد، وتمتد بلادهم نحو الجنوب الغربي إلى قرب الطائف، ويخالطون أبناء عمومتهم من الهوازنيين، وتمتد جنوب شرق حتى تربة ووادي كرى وبيشة ويشتركون مع بني سلول في منطقة بيشة وما حولها [٦] .

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥ ، ٢٤، ويذكر الهجري أن رنية بالحجاز، والرنوي نسبة إلى بلاد رنية، ورنية تهمز أحياناً (رنية)، وهي من أشهر الأدوية التي تنحدر من السراة وتفيض في نجد، ووادي رنية مأهول بالقرى والسكان، وأكثر سكانه من بني عامر من هوازن .

(٢) ويقال إن اسمه جابر الغاضري، من غاضرة قيس عيلان، وكان شاعراً دون الهجري له (١١) بيتاً من الشعر، ومنها :

رَأَتْ غُصْنَهُ رَطبًا وغُصني تعللت ... به الحدُب حتى شال واغْبرّ جَانبهُ

انظر : الهجري، التعليقات، القسم الثاني، ص ٥٥٧.

(٣) الهجري، التعليقات، القسم الأول، ص ١١١. القسم الثاني، ص ٧٧٥ .

(٤) أبو علي الهجري، المصدر نفسه، القسم الأول، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ . وللمزيد عن فرع الضباب الذين نزلوا في نواحي تربة، انظر: عبيد الله بن عبد العزيز البكري .معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع .تحقيق مصطفى السقا (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، مج١، ج١، ص٣٠٨ـ ٣٠٩ .

(٥) وبعضهم يسكن في نواحي عديدة من تهامة والسراة وغيرها .

(٦) انظر تعليقات حمد الجاسر على كتاب الهجري، القسم الأول، ص ١٣٦. ومن خلال جولات الباحث في محافظة بيشة عامٍ (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، اتضح له أن بعض عشائر بيشة مثل بني سلول وغيرهم يجاورون ويختلطون أحياناً مع قبائل سبيع وغيرهم من سكان رنية .

٧ - الحسن بن أحمد الهمداني (ق٣- ٤هـ/ ق ٩- ١٠م) :

الهمداني : عالم يمني، يعرف بـ (لسان اليمن) ، بلاده هي أرض همدان، فصل الحديث عن وطنه الأول (همدان) في كتابه : **الإكليل، الجزء العاشر**[١] . يذكر أنه ولد عام (٢٨٠هـ/٨٩٣م) ، ولم نجد تفصيلات وافية عن بداية حياته، عمل في شبابه على نقل الحجاج والتجار ما بين اليمن والحجاز[٢] ، كما خرج إلى بعض حواضر العالم الإسلامي في الشام والعراق، والتقى بالكثير من العلماء والأدباء داخل الجزيرة العربية وخارجها [٣] . وله مؤلفات عديدة منها: **كتاب الإكليل في عشرة مجلدات، وكتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، وكتاب الدامغة، وكتاب صفة جزيرة العرب**. وجميع هذه الكتب تشتمل على علوم ومعارف قيمة وغزيرة، ويصعب أن نجد مثلها في مصادر ومعارف أخرى[٤] .

كتاب صفة جزيرة العرب، هو المؤلف الذي يهمنا في بحثنا، وجل مادة الكتاب قامت على المشاهدة والخبرة والتجوال في ربوع الجزيرة العربية . ويشير الهمداني إلى رنية وتربة ويذكر أنهما من ديار بني هلال [٥] . وأثناء حديثه عن أرض السروات يذكر وادي رنية، ويقول أيضاً أن من أرض نجد وأعراضها غرباً " بيشة، وترج، ورنية، وتبالة"[٦] ، وصدق في هذه الإشارات فهذه الأوطان تأتي شرق السروات وغرب أوطان نجد وصحاريها[٧] .

---

(١) كتاب الإكليل، عشرة أجزاء، لكنه لم يصلنا منها حتى الآن إلا أربعة أجزاء هي : الأول، والثاني، والثامن، والعاشر، ونأمل أن يتم العثور على الأجزاء الأخرى .

(٢) هذا ما ذكره عن نفسه في كتابه صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ، ص ٣٥٦ . وجل حياة الهمداني كانت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، والنصف الأول من القرن الرابع الهجري، ويذكر أن وفاته كانت عام (٣٤٥هـ/٩٦٥م) .

(٣) هناك علماء كثيرون امتدحوا علمه ونبوغه، انظر مقدمة حمد الجاسر في كتاب الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٨ .

(٤) مؤلفات الهمداني رائدة وقيمة في موضوعاتها وتفصيلاتها وبخاصة عن تاريخ وحضارة وأنساب سكان الجزيرة العربية .

(٥) انظر : لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني. صفة جزيرة العرب . تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ، ص ٦٣ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٨، ٢٦٥، ٣١٢ .

(٧) مشاهدات الباحث أثناء تجواله في بلاد السراة وأجزاء من أوطان نجد الغربية خلال السنوات الماضية المتأخرة .

ويسرد الهمداني أقوال وأشعار بعض الشعراء الذين قرضوا أشعارهم في مكة المكرمة، عند البيت الحرام، وهم يستغيثون الله، بعد أن أصاب أرض الجزيرة البلاء والجوع والقحط [١]، ومن أولئك الشعراء الشاعر النجدي الملقب بالحزازة العامري[٢]، الذي ذكر في شعره مواطن عديدة في أرض نجد وما جاورها، وأورد اسم (رنية) في شعره فقال:

رويت قيعتا تبالة غيثاً ... فذوات الآصاد فالعبلاء
فقريحاؤها فرنية قد سا ... ل فؤادي كلاخه فالكراء
فعكاظ فذو المجاز مع الحر ... ة فالأبرقات فالجرواء[٣]

ويعدد هذا الرحالة محطات الطرق التجارية من صنعاء إلى الطائف، ويقول عن رنية وتربة" من تبالة إلى القريحا (في وادي رنية) [٤] (٢٢) ميلاً، ثم إلى كرى، ومن كرى إلى تربة (١٥) ميلاً "[٥] . ويعدد الرداعي في أرجوزته محطات الطريق من اليمن إلى الحجاز، فيقول :

إلى القريحا سدد المناهج ... يشرعن في مشرعها الصهارج [٦]

ويذكر الهمداني أن القريحا منهل، وكان فيها قرية في عصرة، وهي على وادي رنية[٧].

ومن شعر الرداعي أيضاً :

ثنية الحرة عنها غُيّرا ... حيث البريد جازه عيرالفرا

---

(١) انظر: أسماء الشعراء الذين قالوا شعراً في مكة يطلبون الغيث والخير من الله، وانظر أشعارهم والمواطن التي ذكروها . صفة جزيرة العرب، ص ٣٧٨- ٣٨٥ .

(٢) لا نجد ترجمة لهذا الشاعر، ويبدو أنه هوازني من بني عامر بن صعصعة، وذلك نسبة إلى اسمه الأخير (العامري) .

(٣) انظر الهمداني ، صفة الجزيرة ، ص ٣٧٩ .

(٤) ما بين قوسين إضافة من الباحث .

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٩٦ ، ٣٤٠ . والهمداني امتاز على غيره من الجغرافيين والرحالة الذين ذكروا محطات الطريق السروي من اليمن إلى الحجاز، فذكر المسافات بين كل محطة بالأميال . المصدر نفسه، ص ٢٩٦ وما بعدها .

(٦) الهمداني، صفة، ٤٣٢ .

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٣٢ .

ثـم عـلـى الـرفـضـة تـأتم كـرا ثـم بـشـريـانـة لا حـيـث الـقـرى
ثـم بـراحـا إذا تـعـد كـركـرا بها ترى ذاك البريد الأغـبـرا(١)

ويشـير الهمداني إلى كرا، وهـو أحد روافد وادي تربة (٢)، كما ذكر مصـطلح (البريد) وذلك يؤيد قول أبي الفرج قدامة عندما أشـار إلى منزل ودار أصـحاب البريد في تربة وكرا وغيرهما. (٣)

ويواصل الرداعي في أرجوزته وصف محطات الطريق فيقول:

ثـم الـكـراع ولـهـن ريـدة ينسلن للمعلف من أبـيـدة (٤)

وهنا يرد اسم أبيدة، وهي واد من أعراض نجد، وهو أحد فروع وادي تربة، بل يعد أحياناً الجزء الرئيس من أعالي وادي تربة(٥).

٨- أبو الفرج قدامة بن جعفر (ق٣-٤هـ/ق٩-١٠م):

قدامة بن جعفر من أسرة نصرانية في العراق، اعتنق الإسلام ولازال صغيراً، ونبغ في التعليم، واتصـف بالنباهة والذكاء، ولا نعرف سـنة ميلاده، إلا أنه في عام (٢٩٧هـ/٩٠٩م)، وفي عهد الخليفة العباسـي المقتدر بالله، عـين على رأس ديوان الخراج في الدولة العباسـية، وبقي في هـذه الوظيفة حتى وفاة الخليفة المقتدر عام (٣٢٥هـ/٩٣٧م) (٦). وتوليه هذا العمـل الإداري مكنه من التنقل في أنحاء الدولة العباسية، فكتب عن موظفيها، وعن أموالها وضرائبها وخراجها، كما أنه أشار إلى الطرق الرئيسة التي تربط بغداد مع غيرها من أجزاء الدولة، وذكر محطاتها، وما تمتاز به من خدمات وصعوبات (٧). ويذكر أنه ألف عدداً من المؤلفات، لكنها ضاعت

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٣.

(٢) ويذكر الهمداني أن (كرا) واد عميق فيه نخل وماء وزروع، صفة جزيرة العرب، ٤٣٤.

(٣) انظر أبو الفرج قدامة. نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص ١٨٨.

(٤) الهمداني، صفة، ص ٤٣٤.

(٥) المصـدر نفسـه، ص ٤٣٤. وكتاب: صـفة جزيرة العرب، من أهم الكتب التي تحتوي على معلومات قيمة وجديدة عن مناهل ومواطن الجزيرة العربية وسـكانها، ويحتاج إلى من يتخذه عنواناً لرسـالة ماجسـتير أو دكتـوراه، ونأمـل أن نـرى أحد طلابنا في برامج الدراسـات العليا في جامعة الملـك خالد من يتولى هذا الموضوع بالدراسة والتحليل.

(٦) انظر: أحمد رمضان. الرحلة والرحالة المسلمون (جدة: دار البيان العربي، د. ت)، ص ٦٣

(٧) للمزيد انظر: المرجع نفسه، ص ٦٣-٧٠.

ولم يصلنا منها إلا نبذة من كتاب كبير له عرف بـ : **الخراج وصنعة الكتابة**[١]. وهذا الكتاب قيم في مادته العلمية مع محدودية صفحاته، لكنه من الكتب الجيدة في تاريخ المال والخراج في عصر الدولة العباسية [٢].

وقدامة يذكر محطات الطريق من الحجاز إلى اليمن عبر شرق السروات، ويشير إلى لمحة من تاريخ تربة ورنية فيقول " من الطائف إلى تربة، وهي قرية عظيمة، بها عيون جارية وزروع، وهي قرية خالصة مولاة المهدي[٣]، ومن تربة إلى صفر[٤]، وهي منزل فيها داران لصاحب البريد في الصحراء، وفيه ماء عذب من بئرين، ومن صفر إلى كرى منزل فيه نخل وعين عذبة، وليس إلا منزل صاحب البريد، ومنزل القوافل، وهي بطن واد كثير النخل، ومن كرى إلى رنية منزل في صحراء، ونخل كبير، وعين عظيمة عذبة، والعمران حولها على دعوة، ومن رنية إلى تبالة... " [٥]. وفي هذه النبذة نجد قدامة يذكر معلومات حضارية جيدة عن تربة ورنية خلال القرن الرابع الهجري، وقد يصعب أن نعثر عليها في مصدر آخر أثناء تلك الفترة الإسلامية المبكرة .

٩- شمس الدين المقدسي (ق٤هـ/ق١٠م) :

عرف هذا الجغرافي بأسماء عديدة، وذلك كما ذكر عن نفسه[٦]. فتسمى بالمقدسي، والفقيه، والفلسطيني، والزاهد، والوراق[٧]، مع أن لقبه الحقيقي

---

(١) أبو الفرج، قدامة بن جعفر . نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة . ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . تحقيق دي . خويه (ليدن : مطبعة بريل، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م)، ص ١٨٤ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) خالصة من موالي الخليفة العباسي المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م)، وكانت من المحظيات عنده، ولها بعض الأملاك والعقارات في العراق والحجاز وبلاد السروات

(٤) صفر، وهناك من قال (الصفن) وهي من أجزاء منطقة تربة . انظر غيثان بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق١-ق١٠هـ/ ق٧-ق١٦م) (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج١، ص ١٨١-١٨٢ .

(٥) أبو الفرج قدامة، نبذة من كتاب الخراج، ص ١٨٨ .

(٦) كان أحياناً يتنكر في زيه أثناء تجواله في الأرض من أجل الحصول على بغيته من المعلومات التي يريد جمعها لكتابه، ويقول : " لقد سميت بستة وثلاثين اسماً دعيت وخوطبت بها مثل: مقدسي، وفلسطيني... وغير ذلك، لاختلاف البلدان التي حللتها، وكثرة المواضع التي دخلتها " . انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم تحقيق دي .خويه (ليدن : مطبعة بريل، ١٨٧٦م)، ص ٤٣ .

(٧) المصدر نفسه .

المقدسي، لأنه من مواليد بيت المقدس، ولا نعرف كثيراً عن مولده ونشأته، لكنه ألف كتابه القيم : **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، في مدينة شيراز من أرض فارس سنة (٣٧٥هـ/٩٨٥م)، وكان عمره آنذاك أربعون عاماً [١].

جمع المقدسي في كتابه: **أحسن التقاسيم**، تفصيلات كثيرة عن الأحوال الجغرافية والبشرية والحضارية في بلدان عديدة من أجزاء الدولة الإسلامية، وبخاصة في قارتي آسيا وإفريقيا، وعن أرض الجزيرة العربية، وأسهب الحديث عن أحوال الحجاز واليمن، وذكر حياة التجارة والتجار فيها، وأشار إلى كثير من التعاملات التجارية في هذه الأوطان[٢]، ولم يذهب أو يشاهد بلاد تهامة والسراة، أو بعض القرى والبلدان شرقها، ويؤكد ذلك في قوله " والسروات معدن الحبوب والخيرات، والتمور، والعسل الكثير "[٣]، وفي مكان آخر يقول: " ولا أدري أهي مدن أم قرى، لأني ما دخلتها "[٤]، ويقول أيضاً : " وهذه السروات عامرة بها الأعناب والمزارع "[٥].

ومن هذه الأقوال نعرف أن هذا الجغرافي زار مواطن عديدة في الحجاز واليمن، لكنه لم يأت ولم ير السروات، أو رنية وتربة، إلا أنه دون ما ذكره غيره من الرحالين الذين أشاروا إلى محطات الطريق الجبلي الذي يخرج من اليمن إلى الحجاز، فقال : "... إلى بيشة، ثم إلى تبالة، ثم إلى رنية، ثم إلى كدى[٦]، ثم إلى صفر[٧]، ثم إلى تربة"[٨]. ولم يذكر معلومات أكثر عن هذه المحطات، وعن سكانها، وعن الحياة العامة والخاصة فيها، مع أنه أسهب في تفصيلات أخرى عن مدن الحجاز واليمن الكبرى، وبخاصة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولا يستبعد أن سكان رنية وتربة كانوا على اتصال بأهل الحجاز في الطائف ومكة والمدينة، وربما تأثروا بما شاهدوه أو عرفوه من الحجازيين[٩].

---

(١) أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ١٢٩-١٣٥ .

(٢) انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٨ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٦ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٤ .

(٦) والمقصود بـ (كدى) هنا: أي كرى (كرا) .

(٧) وصفر : وردت عند بعض الجغرافيين (الصفن) .

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١١٢ .

(٩) أنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٨ وما بعدها .

١٠- ناصر الدين خسرو (ق٤ـ٥هـ / ق١٠ـ١١م) :

ولد ناصر خسرو بالقرب من مدينة بلخ في شرق العالم الإسلامي، عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م)، وخدم في الدولة الغزنوية (٣٥١ـ٥٨٢هـ/٩٦٢ـ١١٨٦م) في عهدي السلطانين محمود الغزنوي وابنه مسعود، وزار الهند، ثم عاد إلى فارس وشغل منصباً كبيراً في دولة السلاجقة (٤٣٢ـ ٥٨٣هـ/ ١٠٤٠ـ ١١٨٧م)[١]. عاش في جو مضطرب عقائدياً، فكان في حيرة من أي المذاهب يتبع، (المذهب السني، أم الشيعي)، وكان على علم ودراية بالعديد من العلوم والمعارف، ساح في بلدان عديدة مثل: الشام، والعراق، ومصر، وبلاد فارس، والحجاز، وذهب إلى الحج عدة مرات، ودون مشاهداته في بعض مؤلفاته[٢] . وكتابه : **سفرنامه (رحلة ناصر خسرو القبادياني)**[٣]، هو المؤلف الذي دون فيه جزء من رحلاته في بلدان عديدة من قارتي إفريقيا وآسيا، وذكر بعض التفصيلات عن نواح عديدة في الجزيرة العربية مثل: المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، وأجزاء من بلاد نجد والبحرين[٤] . وعند وصوله إلى مكة ثم الطائف متجهاً نحو اليمامة والبحرين أشار إلى بعض البلاد جنوبي الطائف وشرق السروات فقال عنهم " العمران قليل في بلاد العرب "[٥]، ثم ذكر أن سكانها أهل إبل وماشية، ومساكنهم الخيام[٦]. وسمى الأرض من مكة والطائف إلى اليمن بأرض حمير، وقسم هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام، جزء ساحلي على البحر، وآخر داخلي. والأجزاء الداخلية أو الشرقية، مما سماه (أرض حمير)، وهذا مصطلح غير صحيح لأن اسمها الحقيقي (السراة) أو (بلاد السروات)[٧]،

---

(١) للمزيد انظر : أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ٢٣٩ـ ٢٤٩ . وهناك روايات تقول إنه مات في العقد الثالث من القرن الخامس الهجري، وإذا كان ذلك صحيحا فإنه لم يدرك عصري الدولتين الغزنوية والسلجوقية . انظر: مقدمة كتاب: سفر نامة لناصر خسرو، النسخة المترجمة في جامعة الملك سعود عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٥ .

(٢) أنظر تفصيلات أكثر، أحمد رمضان، ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٣) ترجم هذا الكتاب من اللغة الفارسية إلى لغات أخرى عدد من المترجمين العرب والغربيين، والترجمة العربية التي اعتمدنا عليها، هي نسخة جامعة الملك سعود بالرياض، ترجمة خالد البدلي عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٥ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٧ وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٧) بلاد حمير في قعر اليمن، أما البلاد المرتفعة والممتدة من الحجاز إلى اليمن فهي أرض السروات، ويطلق عليها أيضا جبال الحجاز أو السراة . هناك عشرات البحوث والمؤلفات التي أصدرناها خلال الثلاثين عاما الماضية وبها الكثير من التفصيلات عن جبال الحجاز أو السروات.

فقـال عنها " كثيرة المدن مثل نجران وبيشـة "[١] ، ولم يشـر إلى تربـة ورنية، إلا أنه قال عن هذه النواحي الشـرقية والسـروية، فيها " قرى كثيرة وبوادي لا تدخل تحت الحصـر، وفي كل بادية حاكم مسـتبد، لايخضع لأي سـلطة مركزية، وتكثر في هذه النواحي السرقة والقتل والنهب، ويكثر السكان في هذا الجزء الشرقي "[٢] .

١١- أبو عبيد الله عبد العزيز بن أبي زيد محمد بن أيوب البكري (ق٥ هـ / ق١١م) :

يعد البكري من أشـهر جغرافيي القرن الخامس الهجـري، ولد في الأندلس، ولم نسـتطع معرفة تاريخ ميلاده، إلا أنه نشـأ وترعرع في عصر ملوك الطوائف بالأندلس (٤٢٢- ٤٨٦ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٩٣م) ، وتوفي (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، وصفه أحد المؤرخين الأوائـل، فقـال: " وكان أبو عبيد البكـري من مفاخر الأندلس، وهو أحد الرؤسـاء والأعلام، وتواليفه قلائد في أجياد الأيام "[٣] .

والبكري سـليل أسـرة من الأمراء حكمت في بعض مدن الأندلس [٤] ، في عصر بني العباد ملوك أشـبيلية، أعظم ملوك الطوائف، اهتـم بالعلم والمعرفة منذ وقت مبكر، وبرع في علوم عديدة تاريخية ولغوية وأدبية وجغرافية [٥] ، ومن أهم مؤلفاته موسـوعته الجغرافية التي سماها (المسالك والممالك) ، ومن هذه الموسوعة كتابه : معجم ما اسـتعجم من أسماء البلاد والمواضع [٦] ، وهذا الكتاب مصدرنا في هذه الدراسـة، وهو قاموس لغوي جغرافي، يذكر المؤلف في مقدمته سـبب تأليفه، فقال: " فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف، حتى لا يترك فيه لبس ولا تحريف " [٧] .

---

(١) ناصر خسرو، ص ١٤٢ .

(٢) المصـدر نفسـه، ص ١٤٢ . وخسرو مثله مثل غيره ممن لم يصـلوا إلى السروات أو رنية وتربة، فهم جميعاً يسـمعون من الـرواة الذين ينقلون لهم أخبار تلـك البلاد، أو أنهم ينقلون معلوماتهم من بعض المصـادر والمؤلفات السابقة لعصورهم .

(٣) أنظر : أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ١٤٥ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه .

(٥) ألـف البكري العديد من المؤلفات في اللغة والجغرافيا والتاريخ، وفصـل الحديث في كثير من الأحداث التاريخية والحضارية في الأندلس وشمال إفريقيا خلال القرون الإسلامية الوسيطة .انظر أحمد رمضان، ص ١٤٥ ـ ١٥٩ .

(٦) تحقيق مصطفى السقا (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) (مجلدان في أربعة أجزاء) .

(٧) المصدر نفسه، مج١ ، ج١، ص١ ، وقال أيضاً " هذا كتاب ذكرت فيه، إن شاء الله، جملة ماورد في الحديث والأخبار، والتواريخ والمياه والآبار، والدارات، منسـوبة محددة، ومبوبة على حروف المعجم ... " . المصـدر نفسه، ج مج١ ، ج١، ص ١.

ويذكر هذا الجغرافي مواطن بعض القبائل في السروات وما جاورها، فيقول: " ونزلت خثعم ما بين بيشة وتربة، وما صاقب تلك البلاد، وما والاها، فانتشروا فيها إلى أن أظهر الله الإسلام وأهله"[١]. ويبدو أن هذا القول غير دقيق، لأن قبائل خثعم لا تستوطن وحدها ما بين أرض بيشة وتربة، وإنما هناك قبائل أخرى عديدة تسكن أعالي السروات وشرقها مثل عشائر عامر بن صعصعة الهوازنيين، والأزديين مثل غامد وزهران وغيرها[٢].

ويعدد البكري مخاليف مكة النجدية، ويذكر منها تربة، وبيشة، وجرش، وتبالة[٣]. ويشير إلى أن بيشة، ورنية، وتربة " أودية تنصب من جبال تهامة مشرقة في نجد "[٤]. والصحيح جبال السروات وليست جبال تهامة، وأورد اسم رنية بالنون، وذكر أيضاً بـ (القاف) (رقية)[٥]. ومن الأمثلة العربية قولهم " عرف بطني بطن تربة"[٦]، وهو يضرب للرجل، الذي حقق ما يريد، وأول من قاله عامر بن مالك أبو البراء، ويقال أن موطنه تربة، فعندما رجع إلى أرضه في تربة ألصق بطنه بالأرض وقال هذا المثل، حباً وشوقاً إلى بلاده وموطنه الرئيس.

١٢- محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي (ق٥-٦هـ/ق١١-١٢م):

ولد الرحالة الإدريسي في مدينة سبتة بالمغرب سنة (٤٩٣هـ/١١٠٠م)، بدأ رحلته ولم يتجاوز العشرين من عمره، ساح في بلدان عديدة في قارات أوربا وإفريقيا وآسيا، عاش فترة من الزمن عند ملك صقلية المسيحي، روجر الثاني، وطلب الملك روجر منه أن يدون له كتاباً شاملاً يصف فيه مملكته وسائر الآفاق المعروفة في ذلك العهد، فرحب الإدريسي بهذا الطلب، ومكث (١٥) عاماً في تأليف هذا المؤلف[٧]، وأنجزه في عام(٥٤٨هـ/١١٥٤م)، وسماه: **نزهة المشتاق في اختراق**

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، مج١، ج١، ص ٦٣.

(٢) مشاهدات الباحث وجولاته في هذه الأوطان خلال السنوات الماضية المتأخرة. وقلنا أن هذا الكلام غير دقيق، ولم نقل أنه غير صحيح، ويبدو أن البكري نقل معلوماته من مصادر أخرى سابقة لعصره، لأنه لم يشاهد أرض السروات أوتربة ورنية وما حولهما.

(٣) البكري، مج١، ج١، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) المصدر نفسه، مج١، ج١، ص ٢٩٤.

(٥) المصدر نفسه، مج١، ج١، ص ٢٩٤. وأشار إلى وادي رنية أنه يصب من تهامة في نجد، والصحيح أنه يأتي من أرض السروات متجهاً نحو نجد. المصدر نفسه، مج١، ج٢، ص ٦٧٧.

(٦) البكري، معجم، مج١، ج١، ص ٣٠٩.

(٧) للمزيد عن الإدريسي، انظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ١٦١-١٧٥.

الآفاق [١]، وهو سفر كبير جمع فيه معلومات جديدة وقيمة عن تواريخ وحضارات بلدان عديدة في عدد من قارات العالم[٢].

زار الإدريسي الحجاز، وكتب عن مدنه وسكانه، وبخاصة المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)، وأشار إلى مخاليف مكة، التي أطلق عليها (الحصون)، وذكر تربة وجرش وعكاظ وغيرها في أرض السروات[٣]. وتعرض في حديثه إلى محطات الطريق الممتدة من مكة والطائف إلى صنعاء، ولم يذكر محطتي رنية وتربة، وأشار إلى محطات أخرى حول تربة مثل (كرى) [٤]، وأشار إلى أنها قرية عامرة كثيرة النخل والعيون والمزروعات [٥] . وأثناء حديثه عن الطائف ومكة يذكر ما حولها من الأودية الغنية بمياهها ومزروعاتها، فقال: "... وإذا خرج أحد عن مكة (والطائف) في كل جهة تلقاه أودية هناك جارية، وعيون مطردة، وآبار غدقة، وحوائط كثيرة، ومزارع متصلة "[٦].

والإدريسي كغيره ممن لم ير السروات وبلاد تربة ورنية، فهو يدون ما سمع من الرواة، وينقل عمن سبقه من العلماء السابقين لعصره[٧].

١٣- ابن جبير (ق٦-٧هـ/ ق١٢-١٣م). ١٤- ابن بطوطة (ق ٨ هـ/ق١٤م):

هذان الجغرافيان من مواطني غرب العالم الإسلامي، فالأول : محمد بن جبير البلنسي الأصل الغرناطي الاستيطان بمدينة بلنسية في الأندلس، ولد عام (٥٣٩هـ/١١٤٤م) أو (٥٤٠هـ/١١٤٥م)، وتوفي في الإسكندرية بمصر عام (٦١٤هـ/١٢١٧م). يعد ابن جبير من رواد الرحالة، وممن سار في رحلات ثلاث من بلاده الأندلس والمغرب إلى أرض الحرمين، وفي كل رحلة كان يؤدي فريضة الحج، ومما دون عبد القدوس الأنصاري في ترجمته لابن جبير قوله " ابن جبير

---

(١) طبع كتاب : نزهة المشتاق، لأول مرة في روما عام (١٥٩٢م)، ثم طبع بعد ذلك عدة مرات، واعتمدنا في هذا البحث على طبعة (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) (مجلدان) .

(٢) أنظر: المصدر نفسه، (مجلدان) .

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٤٥ .

(٤) كرى : ضمن منطقة تربة، وحاضرة تربة نفسها كانت هي الأخرى مليئة بأشجار النخيل والمزروعات والمياه العذبة .

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٤٦ .

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤١ .

(٧) بلاد تربة ورنية وما جاورها سادها النسيان عند معظم مؤلفي كتب التراث خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، ولو لم تكن على الطريق التجاري الذي يخرج من اليمن إلى الحجاز، لكانت مجهولة تماماً، مثلها مثل غيرها من البلدان والقرى المعزولة في نواح عديدة من أرض الجزيرة العربية .

من أوسع الرحالين العرب فكراً، وأشملهم ملاحظةً، وأجملهم أسلوباً، وأنقاهم تعبيراً، وأسلسهم بياناً، وأعمقهم استنتاجاً وإدراكاً، وأكثرهم اهتماماً بالأوضاع السياسية الإسلامية العامة في زمنه"[١]. دون ابن جبير كتابه : الرحلة[٢]، ودرسه وحققه لفيف من العلماء المستشرقين والعرب[٣]، وعند وصوله إلى أرض الحجاز كتب تفصيلات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإدارية والسياسية في كل من مكة والمدينة[٤].

أما الرحالة الثاني شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المشهور بـ (ابن بطوطة)، ولد في طنجة سنة (٧٠٣هـ/١٠٣٤م) وتعلم في بداية حياته علوم الشريعة والعربية، ثم بدأ رحلاته وهو في سن الثانية والعشرين، ومكث حوالي (٢٨) عاما يسيح في كثير من البلدان في قارات أوربا وإفريقيا وآسيا[٥]، ويعد ابن بطوطة أعظم وأشهر الرحالة المسلمين قاطبة، وهو بحق شيخ الرحالين. جاء إلى حواضر الحجاز وكتب عن أرضها وسكانها، وكتابه الشهير: **رحلة ابن بطوطة . المسماة (تحفة النظار في غرائب وعجائب الأسفار)**[٦]، طبعت في أوربا منذ القرن (١٣هـ/١٩م) وترجمت إلى لغات عديدة[٧].

وتعد رحلتا ابن جبير وابن بطوطة أفضل وأشهر رحلتين عبر أطوار التاريخ الإسلامي، وهذان الرحالان لم يريا أو يزورا بلاد السراة، أو أرض تربة أو رنية، وإنما التقيا ببعض سكان هذه المناطق في مكة، فيذكران أنهم كانوا أصحاب قوة وشجاعة وعقيدة صادقة، وأن بلادهم أرض زروع وخيرات[٨]، وقالا : " وبلادهم - أي أهل السراة ومن يقطن شرقهم - خصبة متسعة كثيرة التين والعنب، واسعة المحراث، وافرة الغلات"[٩]. ويشيرا إلى أن أهلها كانوا يميرون أهل الحجاز

---

(١) أنظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة ، ص، ٣٢٤ .

(٢) انظر : أبو الحسين محمد بن جبير . رحلة ابن جبير (بيروت : دار صادر، د. ت)، ص ٨ وما بعدها .

(٣) أنظر: أحمد رمضان، ص ٣٢٨- ٣٢٩ .

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٥٧ وما بعدها .

(٥) أنظر: أحمد رمضان، ص٣٦٩-٣٨٦ . وهناك دراسات كثيرة بعدد من اللغات عن ابن بطوطة ورحلته.

(٦) النسخة التي اعتمدنا عليها من تحقيق على المنتصر الكتاني (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م (جزءان) .

(٧) أحمد رمضان، ص ٣٨٤ .

(٨) أنظر : ابن جبير، ص ١١٠، ابن بطوطة، ج١، ص ١٨٣ .

(٩) ابن جبير، ص ١١١، ابن بطوطة، ج١، ص ١٨٣ .

بالحبوب وخيرات كثيرة [١]. وفيما يتعلق بفصاحة أهل السراة وتربة ورنية وغيرها قالا " والقوم عرب صرحاء فصحاء حفاة أصحاء، لم تغذهم الرقة الحضرية، ولا هذبتهم السيرة المدنية، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية، فلا نجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية "[٢]. ودونا صوراً من حياتهم الاجتماعية، وبخاصة نوع لباسهم، فقالا : " ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة، أو جلود يستترون بها، وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة، لهم القسي العربية الكبار" [٣].

١٥- ياقوت الحموي (ق٦-٧هـ/ ق١٢-١٣م) :

شهاب الدين عبد الله ياقوت الحموي الرومي، ولد عام (٥٦٥هـ/ ١١٧٩م)، كان في بداية حياته أسيراً، نقل من بلاد الروم، وبيع في أسواق بغداد، وعمل مع سيده في التجارة ردحاً من الزمن، ثم أعتقه سيده فاشتغل بتجارة الكتب، ثم امتهن السفر والترحال، فتنقل في مواطن عديدة في قارتي آسيا وإفريقيا، واستقر به القرار في مدينة مرو، وبدأ في تدوين معجمه الشهير، **معجم البلدان**، عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، وانتهى منه في سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) . وله كتب أخرى عديدة مثل :**مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع**، طبع في أربعة أجزاء في لندن عام (١٨٥٣م)، كما ألف كتاباً آخر اسمه : **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، وطبع في عدة أجزاء سنة (١٩٠٧- ١٩١١م)، ويعرف باسم : معجم الأدباء [٤].

وكتاب : **معجم البلدان**، هو الذي يهمنا، جمع ياقوت مادته من عشرات الكتب والمصادر، وذكر كثيراً منها في كتابه، طبع ونشر أكثر من مرة، وأشاد به كثير من العلماء في الشرق والغرب، والنسخة التي اعتمدنا عليها هي طبعة دار صادر في بيروت، ويقع في خمسة مجلدات[٥] .

---

(١) المصدران نفسهما .

(٢) المصدران نفسهما . للمزيد من التفصيلات انظر: ابن جبير، ص ١١١-١١٢ .

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ١١٢، ابن بطوطة، ج١، ص ١٨٣ . والواقع أن أهل تربة ورنية وأرض السروات عموماً كانوا في عصور ابن جبير وابن بطوطة يعيشون حياة الكفاف، فجميع مأكولاتهم ومشروباتهم من أوطانهم، وكذلك ألبستهم من مصنوعات أيديهم، وأغلبها من الجلود أو الأقمشة الرخصية التي يجلبونها من أسواق الحجاز، وإذا كان فيهم أغنياء مقتدرون مادياً فهم قلة قليلة مقارنة بعامة السكان في هذه الأوطان وغيرها من البلدان البعيدة عن مراكز الحضارة الرئيسة في اليمن والحجاز والبحرين وغيرها .

(٤) للمزيد من التفصيلات عن ياقوت انظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ١٧٧-١٨٨ .

(٥) انظر ياقوت الحموي . معجم البلدان (بيروت : داري صادر وبيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) (خمسة مجلدات في حوالي ثلاثة آلاف صفحة) .

أشـار هذا الجغرافي الرائد لتربة ورنية، ولم يزرهما، وإنما نقل بعض الأخبار عنهما من بعض المصـادر التـي اطلع عليها في القرن السـادس الهجري، فذكر أن اسـم (تربة) بالضـم، ونقل عن عرام السـلمي أنها واد بالقرب من مكة، يسكنها بنو هلال[٦]، وهذا كلام غير صـحيح فهي إلى جنوب وشـرق الطائف[٧]، وقال عن الأصـمعي، تربة : وادي للضـباب فيه النخل والزرع والفواكه، ويشاركهم فيه هلال وعامـر[٨]. وذكر عن أحمد بـن محمد الهمذاني قوله " تُربة وزبية[٩]،وبيشـة هذه الثلاثة أودية ضـخام.. أسافلها في نجد وأعاليها في السراة "[١٠]. وفي رواية أخرى أن وادي تربة يسـيل من السـراة ويفرغ في نجران[١١]، وهذا وصـف غير دقيق، لأن تربة تبعد عن نجران تجاه الشمال مئات الكيلومترات، ولا تتصل نجران بتربة على الإطلاق، وأشار ياقوت إلى المثل العربي (عرف بطني بطن تربة) ، وشرح أن أبي براء (ملاعب الأسنة) عامر بن مالك هو الذي قال هذا المثل عندما عاد إلى بلاده تربة بعد أن غاب عنها فترة من الزمن[١٢].

وأشـار ياقوت إلى رَنيّة [١٣]، بفتح الأول وسـكون الثاني، ويقال " رنا إليه، يرنو رنواً، إذا أدام النظر، وهي قرية من حد تبالة يسكنها بنو عقيل، وهي قرب بيشة[١٤]، وكلها لبني عقيل، ومياهها بثور"[١٥] .

---

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢١ .

(٧) وهذا موقعها الصحيح حتى اليوم .

(٨) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢١ .

(٩) زبية : المقصود بها رنية .

(١٠) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢١ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) المصدر نفسه . وهذا المثل قد ذكره أيضاً البكري في كتابه : معجم ما استعجم، مج١، ج١، ص ٣٠٩.

(١٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٧٤ .

(١٤) عن تبالة وبيشـة انظر : دراسـتين منفصـلتين، الأولى منشـورة في مداولات اللقاء العلمي السنوي الثامن لجمعيـة التاريـخ والآثـار بـدول مجلس التعـاون لدول الخليـج العربي والمنعقـد في البحريـن بالمنامة من (٧-١٠/٤/١٤٢٨هـ الموافـق ٢٤، ٢٧ /أبريـل/٢٠٠٧م) . صـ ١٧٩- ٢١٥ . والدراسـة الأخـرى عن بيشـة في مـداولات اللقـاء العلمـي التاسـع لـدول الخليج الذي عقـد في جدة مـن (١٦-١٩/٤/١٤٢٩هـ الموافق ٢٢-٢٥/٤/٢٠٠٨م)، ص ٢٩١- ٣٣٤ .

والدراسـتان نشـرتا أيضـاً في كتاب : غيثان بن جريس . دراسـات في تاريخ تهامة والسراة (ق١-ق١٠هـ/ق٧-ق١٦م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢-٣١هـ/٢٠١١-١٠م) الجزء الثاني، ص ٣٥٧- ٤٧٠ .

(١٥) ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٧٤ . والبثور: هو الماء الذي يجري تحت الحص على مقدار ذراع أو ذراعين .

١٦- جمال الدين يوسف بن يعقوب ابن المجاور (ق٧هـ/ ق١٣م):

ابن المجاور، رحالة من أهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، قيل أنه فارسي، ورأي أخر يذكر أنه دمشقي من بلاد الشام(١) ، ساح في بلدان عديدة، وله كتاب هو: **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز**، والمعروف بـ (**تاريخ المستبصر**) (٢) ، اهتم به بعض المستشرقين فدرسوه وحققوه أكثر من مرة(٣) .

وكتاب ابن المجاور (**تاريخ المستبصر**) يشتمل على تفصيلات جيدة عن تاريخ وحضارة أجزاء من بلاد الحجاز واليمن، وأشار إلى الديار الواقعة بين اليمن والحجاز مثل سكان السروات، وبيشة، ورنية، وتربة ومن جاورهم فيقول عنهم " إنهم قبائل وفخوذ من العرب، ليس يحكم عليهم سلطان، بل مشائخ منهم وفيهم، وهم بطون متفرقة ... " (٤) ، ويضيف قائلاً " جميع هذه الأعمال متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر، وكل قرية منها مقيمة بأهلها، كل فخذ من فخوذ العرب، وبطن من بطون البدو في قرية"(٥) . ويبدو من حديث ابن المجاور الدقة في وصف بلاد وسكان هذه الأوطان، فالذاهب اليوم من أبها أو خميس مشيط نحو بيشة ورنية والباحة وتربة يجد فعلاً أن سكان هذه البلاد لازالوا كما وصفهم هذا الرحالة، فكل بطن أو عشيرة تقطن في مكان محدد لها، ويتولى إدارة شؤونهم أعيانهم وشيوخهم(٦) .

ويضيف ابن المجاور معلومات قيمة عن قوة وبأس أهل هذه البلاد، وعن مكانة شيوخهم وأعيانهم بينهم فيقول : " ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها، كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير

---

(١) للمزيد عن ابن المجاور وكتابه (تاريخ المستبصر) ، انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب ، (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢-١٤٣٤هـ/٢٠١١-٢٠١٣م) الأجزاء، الثالث، ص ٣٣٩، والرابع، ص٣٣، والخامس، ص٣٩.

(٢) انظر : الكتاب، تحقيق أوسكار لوففرين (ليدن : مطابع بريل، ١٩٥١م) (جزءان) .

(٣) انظر، ابن جريس، القول المكتوب، ج٣، ص ٣٣٩ .

(٤) ابن المجاور، ج١، ص ٢٦ .

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٧ .

(٦) شيوخ القبائل لازال لهم مكانة عند الدولة وعند أقوامهم، لكن ليس بنفس الدرجة التي كان عليها شيوخ القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، وسبب ذلك أن مؤسسات الدولة الحديثة تولت إدارة البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، في حين أن هذه المؤسسات كانت مفقودة في القرون الإسلامية الماضية، ومن ثم فشيخ القبيلة لازال على رأس الهرم في عشيرته أو قبيلته، لكنه لا يملك من النفوذ والهيمنة، كما كان عند الأوائل من أعيان وشيوخ القبائل قديماً .

عليهم، ويحكم فيهم، وجميع من في هذه الأعمال لا يحكم عليهم سلطان.."[١].
ويتحدث عن مزروعاتهم وخيرات بلادهم فيقول: "وجميع زرعهم الحنطة والشعير، وشجرهم الكروم، والرمان واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات"[٢].

والسائح في أرض بيشة ورنية وتربة وبلاد السروات يرى صدق ما ذكر ابن المجاور، فهذه بلاد مأهولة بالسكان، مليئة بالخيرات الزراعية والحيوانية[٣].

١٧- ابن فضل الله العُمري (ق٨هـ/ق١٤م):

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى فضل الله العُمري، ولد في دمشق عام (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، وتعلم فيها بداية حياته، وتتلمذ على عدد من العلماء والمشائخ في عصره. عمل في عصر الدولة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) في عدد من الوظائف الحكومية، وكان بارعاً في أداء عمله، اهتم بالعمل والترحال، وألف عدداً من المؤلفات الحسان مثل: **فواصل السمر في فضائل آل عمر**، أربعة مجلدات. **والدعوة المستجابة وصبابة المشتاق والمدائح النبوية**، مجلد واحد. **وسفرة السفرة ودمعة الباكي ويقظة الساهر ونفحة الروض**. وكتابه الموسوعي، **مسالك الأبصار في الممالك والأمصار**، في عشرين مجلداً[٤].

والكتاب الأخير "**مسالك الأبصار ...**" مقصدنا، فهو كتاب جامع، تحدث فيه عن ممالك الإسلام في أجزاء من قارتي إفريقيا وآسيا، واعتمدنا على الجزء الذي سماه: **مسالك الأبصار وممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)**. وهذا الجزء حققه أيمن فؤاد سيد، وطبعه المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة[٥].

---

(١) ابن المجاور، ج١، ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٨.

(٣) كان هذا الرخاء موجوداً بنسبة كبيرة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، وقد أدركناه أنفسنا في الثمانينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م) فكانت جميع هذه البلاد غنية بمياهها ومزروعاتها وثرواتها الحيوانية، ومع وجود التمدن الذي تعيشه هذه البلاد اليوم، فقد أصاب الحياة الزراعية والحيوانية الكثير من التدهور، وذلك لأن معظم السكان تخلّوا عن هذه المهن وعملوا في وظائف وأعمال أخرى توفر لهم معيشة أفضل وأسرع.

(٤) للمزيد انظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة، ص ٢٠٩ - ٢٢٠، غيثان بن جريس، القول المكتوب، ج٥، ص ٣٩.

(٥) لم يذكر تاريخ الطباعة والنشر، ويقع الكتاب في حوالي (٢٠٣) صفحة.

والعُمري دون عن بلاد السروات وما جاء شرقها مثل رنية وبيشة وتربة، دون أن يراها أويزورها، وإنما نقل مروياته عنها من الرواة وبعض المصادر المبكرة، فقال: "هي ذات عيون دافقة، ومياه جارية، على قرى متصلة، الواحدة إلى جانب الأخرى، وليست الواحدة تعلق بالأخرى، لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم [١]، لا يضمهم ملك ملك ولا يجمعهم حكم سلطان، ولا تخلو قرية منها من أشجار، وعروش ذوات فواكه أكثرها العنب واللوز، ولها زروع أكثرهم الشعير، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب وضاقت بها الحظائر"[٢]، ويتحث عن بعض عادات هذه البلاد وأعرافها، فيقول: " وأهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها، يعضون على دينهم بالنواجذ، ويقرون كل من يمر بها، ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقه[٣] ... وأهل هذه البلاد لا يفارق أحد منهم قريته مسافراً إلى الأخرى إلا برفيق يسترفقه منها ليخفره، وإلا فلا يأمن أولئك لعداوة بينهم وتفرق ذات بين"[٤] .

١٨- موريس تاميزيه (ق١٣هـ/ق١٩م) :

هذا المؤلف الفرنسي الجنسية، رافق حملة محمد علي باشا على عسير عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م)، ودون رحلته في مجلدين، طبعا في أوربا عام (١٨٤٠م) [٥] .، والمجلد الثاني هو الذي يعنينا في هذا البحث، وعنوانه: **رحلة في بلاد العرب . الحملة المصرية على عسير (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م)** [٦]، قام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور/ محمد بن عبد الله آل زلفة القحطاني، وتقع النسخة العربية مع فهارسها ومقدماتها في (٣٥٨) صفحة، وهذه النسخة التي اعتمدنا عليها، ومادة الكتاب تذكر تفصيلات تاريخية، وحضارية عن البلاد الممتدة من الطائف إلى أبها عبر أوطان تربة ورنية وبيشة[٧] .

---

(١) وهذا ما أشار إليه كل من ناصر خسرو، ص ١٤٢. وابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج١، ص ٢٦، ٣٧.

(٢) العُمري، مسالك الأبصار، ص ١٦٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه، والدارس لأحوال سكان رنية وتربة وعموم السروات خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة حتى بدايات القرن (١٤هـ/٢٠م) يجد أن حياة الحروب والكر والفر كانت سائدة بينهم والناظر في وثائق العصر الحديث من القرن (١٠-١٣هـ/١٦-١٩م) يجدها مليئة بالأحداث السياسية، والصراعات الحربية التي كانت منتشرة بين سكان القبائل في هذه الأوطان وغيرها من أجزاء الجزيرة العربية .

(٥) للمزيد : انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الجزء الثالث، ص ٣٤٢ .

(٦) طبع هذا الكتاب في الرياض : مطابع وإعلانات الشريف، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٥ وما بعدها.

(٧) المصدر نفسه .

وفي حوالي (٩٠) صفحة يفصل الحديث عن أحوال الديار وأهلها من الطائف إلى بيشة، مروراً بأرض تربة ورنية، فيذكر وادي تربة، ويقول إن العرب يسمونه سيل تربة، ويوجد على أطراف ذلك الوادي النباتات والشجيرات المختلفة، ولم يسهب الحديث عن جغرافية الوادي وأحوال سكانه [١]. ويذكر أن جيش محمد علي الذي كان يرافقه اتخذ من وادي تربة مقراً للاستراحة لبعض الوقت، ويشير إلى تواجد بعض الرعاة والطيور في أرض تربة، ولم يخبرنا بالأحوال المناخية في وادي تربة، ولا الأعمال وطبيعة الجيش الذي نزل تربة أثناء مروره نحو بلاد عسير [٢].

وعند وصول تاميزيه إلى رنية، ذكر أنها من الأودية المشهورة، ويضيف شروحات عن جغرافية وسكان وادي رنية، فيقول عن الوادي أنه يبلغ طوله " ثلاثة أميال، ويتراوح عرضه ما بين الميل والثلاثة أميال، وكل هذه المساحة مغطاة بغابة حقيقية من أشجار التمر "[٣]، وعن السكان يقول " يقوم سكان هذا الوادي من البدو بتربية الماشية والجمال والخيول التي لا تقدر بثمن، ويتمتع أهالي هذا الوادي بمكانة محترمة بين القبائل الأخرى، ويقدر عدد سكانه بـ(٢٥٠٠) نسمة [٤].

ويدون بعض اللمحات الاقتصادية لأهل رنية فيقول : " يقوم عرب رنية ببيع منتوجاتهم على قوافل الحجاج التي تأتي من بغداد [٥]، والتي تتوقف في قريتهم كل سنة. في تلك الفترة يقوم العرب بتحميل جمالهم بكل شيء يزيد على حاجتهم، وينقلونه إلى رنية انتظاراً لقافلة الحج[٦]، بينما يقوم الملاك الكبار من أهل رنية بمرافقة القافلة حتى تصل مكة، وهناك يبيعون كل ما لديهم . أما تمور رنية فتصدر إلى جدة، وعندما يكون الموسم على غير ما يجب، يكتفي البدو بنقله مباشرة إلى

---

(١) تاميزيه، ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، يعد تاميزيه من الرحالين الغربيين الجيدين الذين تحدثوا عن البلاد الممتدة من الطائف إلى بيشة، والرحالة فيلبي أفضلهم .

(٣) تاميزيه، ص ١٣٨- ١٣٩ .

(٤) تفصيلات تاميزيه واضحة ومفيدة إذا قارناه بمن سبقه من الرحالين والجغرافيين الأوائل، أما قوله أن عدد سكان رنية (٢٥٠٠) نسخة، فقد لا تكون إحصائية دقيقة، لأن كثيراً منهم بدو رحل، فهم يذهبون إلى خارج حدود رنية بحثاً عن الماء والكلأ . انظر تاميزيه، ص ١٣٩ .

(٥) هذا الرحالة أخطأ في قوله (بغداد) لأن حجاج بغداد لا يأتون عن طريق رنية، وإنما حجاج وتجار اليمن هم الذين يرتادون هذا الطريق، ورنية تقع على طريق البخور الذي يخرج من اليمن إلى الحجاز .

(٦) كانت رنية وتربة وبيشة محطات رئيسة على طريق اليمن الحجاز، وبالتالي فالقبائل القريبة من هذه المحطات تتعامل مع التجار الذاهبين الآيبين في هذه الطريق التجارية الرئيسة .

القنفذة، بينما يبيعون بعضــه على القبائل الضاربة في الطريق بين رنية والقنفذة، أما بعضــهم فيكتفي بانتظار قافلة الحج كل سنة، حيث يبيع منتوجاته مقايضة بما يحتاجه من تجار القافلة"[١] .

ويذكر تاميزيه الزراعة في رنية فيقول " يقوم بدو رنية بزراعة الخضـروات في بسـاتين مجاورة للقرية، والمحصـول الزراعي بشـكل عام يتكون من القمح والذرة والبطيخ، وفي الغالب تسقط أمطار كافية لري المزروعات، ولكنهم في أوقات الجفاف يقومون بسقي مزارعهم معتمدين على السواقي مثلما يفعل أهل الطائف"[٢] .

ويتحـدث هذا الرحالة الأوربـي عن بعض الجوانب الاجتماعيـة في وادي رنية فيـقول " يتكـون وادي رنية من عدة قرى صـغيرة ذات منازل متناثـرة هنا وهناك، ولكن أكبر مجمع سكني في الوادي هو قرية رنية نفسها حيث إنها محاطة بسور مبني مـن اللـبن، وله أربعة أبراج تسـتخدم لحماية القرية ضـد أي معتـد، ولا يوجد لتلك الأبراج أي أبواب، ولها من الداخل شكلٍ أسطواني به سلالم للصعود والنزول، أما كيـف يتم الدخول إلى الـبرج فإن له حبلاً مدلى من الخارج، ويسـتخدمه المدافعون وسيلة للصعود إلى البرج . وفي وقت السلم يترك الحبل مدلى من الخارج على ارتفاع قامـة الرجـل، أما في وقت الحرب فإن الحبل يدلى إلى الداخل ويسـتخدم في تزويد المدافعين بالمؤن"[٣] . ويواصـل حديثه عن بعض عادات السـكان وأعرافهم فيقول: " عندما دخلت القرية لم أر فيها إلا النسـاء والأطفال ... ويبدو أن كبار السن يسكنون قسـماً خاصـاً في القرية، وقد تمكنت من رؤية عدة نساء طاعنات في السن جالسات في الشـمس أمام أبواب منازلهن مسترخيات على فرش مصنوعة من جلود الأغنام، والبيـوت مبنية من اللبن ومسـقوفة بأخشـاب مـن جذوع النخل، وتسـتخدم مفاتيح مصنوعة من الحديد لفتح الأبواب الخارجية للمنازل..[٤] . وتضع النساء في أنوفهن حلية تشـبه النجمـة، وأخرى مثبتة في الشـعر ومدلاة على الجبهة، ومثلها الملصـقة

(١) تاميزيه، رحلة في بلاد العرب، ص ١٣٩ . ومعظم تجارات سكان رنية وتربة التمور والحبوب والخضروات والفواكه والمواشي والجمال وغيرها .
(٢) تاميزيه، ص ١٤٢ .
(٣) انظر تاميزيه، ص ١٤٠ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٠-١٤١ .

بـالأذن [١]، وتبـدو ملامـح عرب رنيـة أكثر نقاءً مـن ملامح عرب القبائـل البدوية الأخرى التي شـاهدتها منذ مغادرتي المدينة وجدة .فالنسـاء جميلات ذوات بياض كبياضـ الأوربيـات، ويبدو أن الرجال هنا يحكمون السـيطرة عليهن تماماً، لأننا كل مرة نرغب أن نتبادل البضـائع معهن، بعد الحصـول على أسعار أفضل، فلا يقدرن على اتخاذ القرار بأنفسهن، إذا لابد من موافقة أزواجهن على السعر المناسب [٢] .

ويشير تاميزيه إلى أن بعض البدويات من رنية كن يقتربن من مخيمات الجيش الذي يرافقه، ثم يذكر بعض أوصـافهن، فيقول " تحدثن إلينا بطلاقة، وملابسهن متناسـقة ومميزة، وتدل على حسـن أذواقهن، والاعتقاد السـائد في الحجاز أنهن نسـاء مجدات في أعمالهن، ويسـرحن شـعورهن بطريقة أنيقة مع ترك ضـفيرة متدلية على الجبين "[٣]. ويشـير إلى شـجاعة سـكان رنية وجلدهم، فهم يدافعون عن أموالهم وعقاراتهـم، ولا يرحبون بالغريب أو الأجنبي الذي يدخل بلادهم"[٤] . كما أشـار أيضـاً إلى شجاعة نسـاء أهل رنية، وذكر أنهن يشتركن في الدفاع عن بلادهن ضد أي عدو أو غازي يغزو أرضهن[٥] .

١٩- الشريف البركاتي (ق ١٤هـ/ق٢٠م) :

هو شـرف بن عبد المحسـن البركاتي، عاش في الحجاز، وعاصـر الشـريف حسين بـن علـي (أمـير مكـة)، وخـدم في حكومة الملـك عبـد العزيز آل سـعود، ومـات عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) . دون رحلته الموسومة بـ: **الرحلة اليمانية**، وتلك الرحلة عندما سار مع الشريف حسين بن على(أمير مكة) من الحجاز إلى عسير عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، وذلك من أجل، فك حصار الإدريسي عن مدينة أبها[٦] . ذهب الشريف حسين مع جيشه عبر الساحل، ورجع عن طريق بلاد شهران وبيشة ورنية وتربة والطائف[٧] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤١ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤١ .

(٤) هذه العادات، عدم الترحيب بالأجنبي أو الغريب سـائدة في بلاد الجزيرة العربية، وقد شـاهدنا ذلك في أرض السروات خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م) .

(٥) نساء أهل تربة ورنية وبيشة وغيرها يملن إلى حياة البادية التي تعلمن منها الجد والاجتهاد والشجاعة .

(٦) للمزيـد عن تاريخ الإدريسـي في جازان ومحاصـرته مدينـة أبها، انظر: محمد العقيلـي . تاريخ المخلاف السليماني (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج٢، ص ٦١٩-٦٢١، ٦٦٥-٧٠٦ .

(٧) انظر ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب ، ج٣، ٣٤٦-٣٤٧ .

رحلة الشـريف البركاتي (الرحلة اليمانية) طبعت عدة مرات، والنسخة التي اعتمدنـا عليها هي بتحقيق عبد الله بن عبد الرحمن إلياس[١] . طبعت في بيروت، دار نشر تراث العرب عام (١٣٨٤هـ)، وتقع في (٢٢٨) صفحة[٢] . تحدث فيها عن بلاد رنية وتربة، وهو في طريقه عائداً إلى الطائف، وذكر أنه في (١٣٢٩/٨/١٥هـ) وصل إلى أعالي وادي رنية، وقال إن أول الوادي لقبائل غامد، وأسفله لقبائل سبيع، ثم أشار إلى أن في " الوادي ما ينوف على مائة ألف نخلة[٣] ، وقراه مبنية باللبن من طبقة إلى طبقتين، وفيها أسواق دائمة "[٤] .

ويواصـل هـذا الرحالة وصـفه للطريق، وهو خارج من رنيـة إلى وادى كرى في أرض تربة، فيقول " ووادي كرى يصـب ماؤه في أسـفل تربة . وهذه الحرة في غاية الصـعوبة، وقد سـرنا في ظهرها يومـين، ونحن مجدون في السـير حتى قطعناها، فلما وصـلنا إلى قرى ووادي تربة تركها دولة الأمير، وأمر الجيش بالنزول في أعلى الوادي على نهر كبير جار يصب في أسفل الوادي[٥] . ومنه تشرب نخيل قرى قبيلة البقوم والأشراف العبادلة، وعدد النخيل بهذه القرى أكثر من مائتي ألف نخلة[٦]، وفيها البساتين محتوية على الموز، والليمون والنارنج، والعنب وبعض الفواكه، ويزرع فيها البر، والذرة، والشـعير، وكافة أنواع الخضـار، ومنظر هذا الوادي من أحسن المناظر، وبه كثير من شجر الأثل، والطرفاء، والحمض، والحلفا"[٧] .

٢٠ - فؤاد حمزة (ق١٤هـ/ق٢٠م) :

فؤاد حمزة من رجال الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل[٨] ، قام بالعديد من المهمات الداخلية والخارجية، ومنها رئاسته للوفد السعودي الذي التقى بالوفد

---

(١) للمزيـد عـن عبـد الله بن إليـاس، انظر غيثان بـن جريس . دراسـات في تاريخ وحضـارة جنوبي البلاد السعودية (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ، الجزءان الأول والثاني، ص ٢١ ـ ٥٤ .

(٢) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ١٢ وما بعدها .

(٣) هذا العدد ربما مبالغ فيه، نعم وادي رنية به مزارع نخل عديدة، لكن قد لا يكون فيه هذا العدد الكبير .

(٤) البركاتي، الرحلة، ١٤٣ .

(٥) البركاتي، الرحلة، ص ١٤٤ .

(٦) أيضاً عدد مبالغ فيه، مع أن تربة أرض نخل وزراعة .

(٧) انظر: البركاتي، الرحلة، ص ١٤٤، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص ٣٤٦. ج٥، ص ٥٥.

(٨) فؤاد حمزة لبناني الجنسية، عمل مع الملك عبد العزيز آل سعود جزء كبير من حياته، ومات في لبنان عام (١٣٧١هـ /١٩٥١م) . للمزيد انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، ج٥، ص١٥٩.

اليمني من أجل رسم الحدود السعودية اليمنية عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)[١]. وعند ذهابه إلى أبها خرج من الطائف إلى تربة ورنية ثم بيشة حتى أبها، وسجل في ذلك كتابه الموسوم بـ: في بلاد عسير، وهو الكتاب الذي استفدنا منه[٢].

تحدث ابن حمزة في ثلاثة فصول (الثالث، والرابع، والخامس) عن بلاد رنية والخرمة وتربة. فالفصل الثالث عنوانه: دار البقوم وسبيع. والفصل الرابع: تربة والخرمة. والفصل الخامس: وادي رنية، ويشرح الطريق إلى الخرمة، ويذكر وادي القطان، وهو الحد الفاصل بين ديار البقوم، وأوطان سبيع[٣]. ويتحدث عن قبيلة البقوم ومركزهم تربة، ويذكر أنهم كانوا في حروب دائمة مع سبيع، وبعد دخولهم تحت حكم ابن سعود أصبحوا شعباً واحداً، وقبائل السبعان لهم إمارة معلومة في بلدة الخرمة[٤]، ويذكر واديي تربة ورنية، وسكانهما من قبائل البقوم وسبيع، ولقبيلة سبيع حاضرتان هما: الخرمة ورنية، وأمراؤها من أسر الأشراف، فالخرمة يتولى إمارتها من أسرة آل لؤي الأشراف، ورنية من أسرة الأشراف العبادل ويعرفون بآل الصامل[٥].

وفي حوالي (١٢) صفحة يذكر بعض التفصيلات عن معارك تربة التي وقعت بين الأشراف والملك عبد العزيز، وكيف كانت الغلبة لابن سعود الذي استطاع ضم الحجاز إلى مملكته، وكانت تربة وما جاورها من البلدان قد دخلت تحت حوزته في بدايات العقد الخامس من القرن (١٤هـ/٢٠م)[٦].

ويكتب عن رنية فيقول "تقع رنية، أو بالأحرى البلدة الكبيرة في رنية على أطراف الوادي المعروف باسمها، والذي ينحدر من جهة الغرب والجنوب متجهاً إلى الشمال الشرقي، وتحيط الجبال بالبلدة من جميع جهاتها"[٧]. ويضيف موقع قصر أمير

---

(١) انظر: ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص ٣٥٢.

(٢) هذا الكتاب طبع في الرياض، مكتبة النصر الحديثة (١٣٧٠هـ/١٩٥١م)، وتمت إعادة طبعه عام (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

(٣) فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ٢٦-٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧-٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩.

(٦) فؤاد حمزة، ص ٤٣-٤٦. وهناك عشرات الكتب والرسائل العلمية فصلت الحديث عن معركة تربة بين الأشراف وابن سعود، كما أن هناك مئات الوثائق المنشورة وغير المنشورة التي تحدثت عن تلك الصراعات السياسية والحربية بين الطرفين.

(٧) فؤاد حمزة، ص ٤٦-٤٧.

رنية الشريف بن صامل فيقول: "وقصر ابن صامل بني على ربوة مشرفة على الوادي، والسهل المحيط به في منطقة متوسطة بين أسفل الوادي وعلوه، وتسمى البلدة التي فيها القصر (الحزم)، وبقربها بلدة (الروقة) التي هي السوق"[١] .

وفي عنوان رئيس يذكر (وادي رنية)، ويقترح أن يكون وادي رنية اسمه وادي سبيع، لأن معظم القاطنين على جنباته من السبعان، بعكس وادي سبيع الذي يخرج من أرض البقوم، ونصفه الأخير يسير في بلاد سبيع، ولذلك فقد سمي (وادي سبيع) [٢] . أما وادي رنية فيأتي من أعالي بلاد غامد ويتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي[٣]. ويذكر بعض الملامح الحضارية التي رآها في وادي رنية، فيقول: "وتقوم على أطراف الوادي المزارع والحدائق والنخيل والقصور والقرى إلى مسافات بعيدة، ولكن أكثر العمران فيه يبدأ من حين دخوله في بلاد سبيع، والقرى الواقعة على الوادي متقاربة متصلة، يري الإنسان إحداها من الأخرى[٤]، إلا أن أعظمها وأهمها ما كان واقعاً عند منتصفه حيث يأخذ الشعيب أقصى اتساعه، وتكون الأراضي الواقعة على أطرافه أخصب وأصلح للزراعة والفلاحة"[٥] .

ويذكر بعض الصور الاجتماعية الأخرى في رنية فيقول : " مما يؤسف له أن حالة هذه البلاد الاجتماعية كحالة سائر البلدان المنعزلة عن العمران، لا تفكر في غير معيشتها المادية اليومية، وليست لها آمال أو أماني بعيدة، يستغلون الأرض بعد حرثها، ويزرعون النخيل، وينتظرون لقاء الله في الآخرة، ومن هنا نشأ عدم اهتمامهم بالتغيير والتجديد"[٦]. ورأى هذا الرحالة أن العزلة سببت لهم انقطاع عن عالمهم، وتلك حالة عموم أهل السراة وتهامة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة حتى النصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) . والذي جعلهم في هذا الوضع الاجتماعي المنعزل هو انزواء بلادهم، وصعوبة مسالكها، وربما رنية وتربة كانت أحسن حالا من بلدان أخرى في أرض السروات الممتدة من الطائف

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨ .

(٤) السائح في أرض السروات وفي البلاد الممتدة من خميس مشيط إلى بيشة إلى رنية يشاهد القرى متقاربة، بل أحيانا متصلة بعضها ببعض .

(٥) فؤاد حمزة ، ص ٤٨ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٠.

حتى بلاد قحطان، ونجران، وقول فؤاد حمزة " وينتظرون لقاء الله في الآخرة "، فذلك ديدنهم لصلاح نياتهم، وصفاء قلوبهم، وسلامة معتقداتهم [١] . ويتعرض للحديث عن حالة بعض نساء رنية فيقول : " ونساء هذه البلاد في معايشهن مثل نساء بلاد الطائف، وإن كن إلى البداوة أقرب، ويشعر المسافر الفرق بين أحوال النساء في هذه الجهة، وبينها في عسير بمجرد وصوله إلى أرض خيبر "[٢] .

٢١ - هاري سانت جون فلبي(ق١٤هـ/ق٢٠م):

هاري فلبي أو (الحاج عبد الله فلبي) [٣]، قدم إلى الجزيرة العربية في منتصف العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري (٢٠م)، وعاش فيها حوالي (٤٠) عاماً[٤]، كتب عشرات الكتب، وتُرجم بعضها إلى اللغة العربية [٥]، والكتاب الذي يخصنا هو : **مرتفعات الجزيرة العربية** الذي طبع باللغة الإنجليزية عام (١٩٧٦م) في (٧٧١) صفحة، وقامت مكتبة العبيكان بترجمته في مجلدين، وفي حوالي (١٤٥٠) صفحة، وكاتب هذه السطور راجعه وقدم له[٦] .

ناقش كتاب : **مرتفعات الجزيرة العربية** البلاد الممتدة من الطائف إلى عسير ونجران وجازان، وأجزاء من بلاد اليمن، دون أن يتعرض لأرض السروات الممتدة من شمال مدينة أبها إلى الطائف[٧] . عاد فلبي من الربع الخالي إلى السليل ثم

---

(١) سكان البلاد الممتدة من جازان وقحطان ونجران جنوباً إلى مكة والطائف شمالاً كانوا ولا زالوا عبر أطوار التاريخ الإسلامي أصحاب عقائد سليمة، فلم تصل إليهم أهواء وآراء الفرق المنحرفة التي قرأنا عنها في أجزاء عديدة من العالم الإسلامي وبخاصة منذ فجر الإسلام حتى القرن (١٤هـ/٢٠م) .

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠ . وخيبر من أرض عسير ومن بلاد شهران تحديداً، وهي تقع بين بيشة وخميس مشيط . وإذا ما قارنا بين نساء رنية أو تربة ونساء عسير، فالعسيريات أكثر تحضراً، ربما لقربهن من بعض المراكز الحضارية الرئيسة مثل أبها وغيرها. أما نساء رنية وتربة والخرمة وبعض البوادي والأرياف في عسير أو عموم بلاد السروات وتهامة، فحياتهن حتى نهاية القرن (١٤هـ/٢٠م) تميل إلى حياة البادية، وذلك أمر طبيعي لضعف الأوضاع الحضارية والتمدن في بلادهم .

(٣) عرف فلبي عند آبائنا وأجدادنا باسم (عبدالله فلبي) ويبدو أنه أسلم، وحج، فسمي (الحاج عبد الله فلبي)، ثم أنه لبس ملابس سكان الجزيرة العربية، فأصبحوا لا يدعونه إلا (عبدالله فلبي) أو (الحاج فلبي) . هذا ما سمعه الباحث من رواة عديدون في بلدان تهامة والسراة خلال الثلاثين عاماً الماضية .

(٤) للمزيد عن حياة فلبي انظر: غيثان بن جريس . القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٣، ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٥) هناك عدد من كتبه ترجمت من الإنجليزية إلى العربية، ومكتبة العبيكان في الرياض مشكورة ترجمت أكثر من (١٢) كتاباً من مؤلفاته التي زادت عن الأربعين كتاباً .

(٦) انظر : ترجمة ونشر مكتبة العبيكان بالرياض (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) (مجلدان) .

(٧) القارئ للكتاب يرى أن هذا الرحالة خرج من الربع الخالي إلى السليل ثم اتجه نحو الحجاز لمقابلة الملك عبد العزيز، وذلك في منتصف العقد السادس من القرن (١٤هـ/٢٠م)، أي عام (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م).

بيشة حتى قابل الملك عبد العزيز في الحجاز[١]، وفي أثناء سيره من بيشة إلى الطائف مر على بلاد رنية وتربة وأوجز الحديث عن جغرافيتها، وحيواناتها وطيورها ونباتاتها، كما ذكر وفرة مزارعها، ومحدودية منازلها التي تتراوح بين طابق وطابقين، وفي أرض تربة أشار إلى معركة تربة التي وقعت بين جيوش الملك عبدالعزيز آل سعود والأشراف في الحجاز، وذكر بعض المعالم الجغرافية التي رآها في أرض المعارك التي دارت بين الطرفين[٢] .

بعد مقابلة فلبي للملك عبد العزيز، وتبادل الحديث معه حول رحلته التي يزمع القيام بها إلى جنوب البلاد، عندئذ خرج في هذه الرحلة، وفي حوالي (٣٨) صفحة، أشار إلى كل من الخرمة ورنية، (١٦) صفحة عن بلاد الخرمة و (٢٢) صفحة عن رنية، وكان جل حديثه يدور حول الوصف الجغرافي لهذه البلاد، وما يوجد بها من جبالٍ، وهضاب وبعض الأودية أو الكائنات الحية الأخرى، كالطيور والحشرات وأحياناً الزواحف[٣] . وذكر أسماء أميري الخرمة ورنية، فالأول كان الشريف سعد بن خالد بن لؤي، وأمير رنية هو من نجد ويدعى حسن الدغيثر[٤]. وذكر بعض الأطعمة التي شاهدها في هاتين الناحيتين مثل: التمور، واللحوم، والألبان، والأرز، وبعض من هذه الأطعمة تناولها في منزل أمير رنية حسن الدعيثر[٥] .

والقارئ لدراسات فلبي وكتبه، يجدها تتميز بالدقة والإسهاب في ذكر التفاصيل، لكن عندما نقف على ما كتبه عن الخرمة ورنية وتربة، نجده لا يفي بالغرض، فليس هناك تفصيلات عن حياة الناس الاجتماعية والإدارية والاقتصادية والثقافية، وذلك مستغرب من فلبي[٦]، ولا ندري هل حياة الناس البدوية في هذه النواحي جعلته لا يلتفت للحديث عن هذه الجوانب المهمة ؟، أم هو الاستعجال والسير في مناكب هذه الأراضي دون أن يصور لنا حياتهم الحضارية المتعددة الجوانب . ومن

---

(١) قابل الملك عبد العزيز من أجل أخذ بعض التعليمات منه والذهاب في رحلة أخرى إلى جنوبي البلاد السعودية، من أجل الوقوف على رسم الحدود بين البلدين (اليمن والسعودية) .

(٢) فلبي، مرتفعات الجزيرة العربية (طبعة مكتبة العبيكان،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ج١، ص٩٦ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ١٨٥ .

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٨٧، ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص ١٩١ .

(٦) كتب فلبي من أغنى المصادر في معلوماتها، وهذا ما عرفنا عنه في معظم مؤلفاته التي وصلتنا وكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية يعد من أجودها .

ينظر إلى مدوناته في بيشة أو خميس مشيط أو أبها أو بعض النواحي في نجران وجازان، فإنه يجد كثيراً من المعلومات الجيدة والمتنوعة، أما في أراضي الوديان (تربة، ورنية، والخرمة)[(١)]، فإشاراته محدودة، ومعظم ما ذكره عن التضاريس وبعض الأوضاع الجغرافية[(٢)].

٢٢- محمد عمر رفيع (ق١٤هـ/ ٢٠م) :

محمد رفيع من بلاد الحجاز، ومن مكة المكرمة تحديداً، قدم إلى عسير في بعثة تربوية تعليمية عام (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)، وعين مديراً لمدرسة رجال ألمع في الشعبين وألف كتاب عنوانه : في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ)[(٣)]، ويشتمل هذا الكتاب كما جاء في العنوان، على تاريخ مجموع من بعض المصادر والمراجع، وذكريات ومشاهدات ابن رفيع[(٤)].

خرج محمد رفيع من الحجاز عبر بلاد تربة ورنية وبيشة، وذكر بعضاً مما شاهده في هذه الأوطان، فذكر أنه التقى بأمير تربة[(٥)]، وشاهد كثرة النخيل في هذه الناحية[(٦)]، التي كانت تسقى من الآبار، أو ما يسيل من وادي تربة أثناء سقوط الأمطار[(٧)]. وفي مكانين يشير محمد رفيع إلى سوق تربة، وإلى صورة من البناء والعمارة[(٨)]، فقال عن السوق" ولتربة سوق دائمة وافية برغائب أهلها، وما يحتاجه سكان البادية التي حولها، والسوق عبارة عن بضع عشر دكاكين تحيط برحبة فسيحة، يعرض فيها ما يباع بالمزايدة من مواش وغيرها من العروض الأخرى . وفي جانب من السوق مدخل خاص يجلس فيه باعة اللحوم، وطريقتهم في بيعها،

---

(١) يطلق على بلاد (الخرمة، وتربة، ورنية) اسم بلاد الوديان، أو الوديان، وذلك نسبة إلى أوديتها الكبيرة والعامرة بسكانها.

(٢) انظر: فلبي، مرتفعات الجزيرة العربية، ج١، ص ١٨٤وما بعدها .

(٣) طبع هذا الكتاب في مكتبة المعارف بالطائف (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) .

(٤) هذا الكتاب الذي تم استخدامه في هذا البحث .

(٥) ويدعى هذا الأمير (رشيد الحمود العبيلان)، الذي قال لمحمد رفيع أن عدد النخل في تربة حوالي (٥٠،٠٠٠) نخلة . انظر: كتاب رفيع، ص ٨ .

(٦) يقول محمد رفيع، نقلاً عن رحلة البركاتي، أنه يوجد في وادي وقرى تربة أكثر من (١٠٠،٠٠٠) نخلة، وهذا العدد يبدو أنه مبالغ فيه .

(٧) محمد رفيع ، في ربوع عسير، ص ٨ .

(٨) المصدر نفسه، ص ٩ .

هو أن يقطع الخروف أو التيس أجزاء أقلها نصف الثمن"[١] . ويقول عن البناء والعمارة : " وبيوتها من اللبن، لا يعدو معظمها الطابقين، ولا مراحيض بها بتاتاً، وهي متقاربة البناء، وأزقتها ضيقة كثيرة الالتواء والتعاريج، وسكان القرية - يقصد تربة - لا يتجاوزون الألفين على أكثر تقدير معظمهم من قبيلة البقوم" [٢] .

وفي أربع صفحات أخرى يتحدث عن الصراع بين جيش ابن سعود والأشراف في تربة، ويذكر أن فؤاد حمزة فصل الحديث في هذا الجانب، وفي عنوان جانبي سماه (إلى وادي رنية) أشار إلى بعض الأشجار في هذا الوادي، ويذكر في الحاشية ما قاله البركاتي وفؤاد حمزة عن منبع الوادي من سروات غامد، وأن فروع من قبيلة سبيع يستوطنون هذا الوادي في رنية وما حولها[٣] .

٢٣- فيليب ليبنز (ق١٤هـ/٢٠م) :

فيليب ليبنز رحالة أوربي بلجيكي، قدم إلى الجزيرة العربية في بداية العقد الثامن من القرن (١٤هـ / ٢٠م) ، وسار في رحلة مع فلبي إلى وسط وجنوب غرب الجزيرة العربية عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م) ، ألف كتاب في هذه الرحلة سماه : **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**، نشره باللغة الفرنسية، ثم تولت دارة الملك عبد العزيز ترجمته وطباعته ونشره عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ، وهذه النسخة التي اعتمدنا عليها[٤] .

خرج فيليب ليبنز وفلبي وبعض رفاقهما من الطائف نحو بيشة وعسير، وعند وصولهم إلى بلاد البقوم، أو تربة، ذكر ليبنز أنه سمع ورأى بعض الكلاب تنبح، وأن تربة واحة على مساحة (١٥٠) هكتار، كلها مشجرة بالنخيل، وفيها قصر الأمير المحلي المبني بالطوب، وبيوت أخرى من الطوب الأصفر[٥] . وأشار - كغيره - إلى

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه . بلاد رنية وتربة والخرمة لازالت من البلدان التي لم تخدم بحثياً، وتستحق أن يفرد لها دراسات عديدة عبر أطوار التاريخ القديم والإسلامي المبكر والوسيط والحديث، ونأمل أن نرى من المؤرخين والباحثين في جامعات بيشة والطائف وأم القرى من يصدر عنها دراسة تاريخية وحضارية وآثارية علمية موثقة .

(٤) الكتاب مطبوع ومنشور في دارة الملك عبد العزيز بالرياض عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ، كما نشرنا دراسة عن فيليب ليبنز وفلبي في مداولات اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجي عام (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ، ص ٥٢٣ وما بعدها . ونشر هذا البحث في كتابنا : صفحات من تاريخ عسير، ج٢، ص ٢٧٥ وما بعدها .

(٥) انظر: فيليب ليبنز، رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، ص ٣٧ .

بعض الأخبار المنقولة عن معركة تربة بين الأشراف وابن سعود، ويذكر أن أمير تربة ضيفهم على طعام يتكون من اللحم والأرز وغيره، وهذا الأمير ـ الذي لم يذكر اسمه ـ نوه عن التعليم في هذه الواحة فقال: "إن المدرسة المحلية ليست باهظة التكاليف، كل طفل يكلف حوالي (٢٥) فرنكاً بلجيكياً"[١]، ثم قال: "وفي بعض الجهات تدفع للآباء نقوداً لتشجيعهم على الذهاب بأبنائهم إلى المدرسة"[٢].

وفي الطريق من تربة إلى رنية لا يفصل ليبنز الحديث عما شاهده، وإنما يشير إلى بعض الرسومات والنقوش الصخرية التي رآها على بعض الجبال والصخور على جانبي الطريق، كما ذكر وجود بعض الحيوانات الأليفة كالجمال والأحصنة والمواشي، ويؤكد على صعوبة الطريق، ومعاناة سير السيارات في هذه المسالك، ثم يقول عن رنية "ها نحن نمر قرب أرض بدو غامد، وقريباً ستصل سيارتنا إلى أهم وأوسع واد يعرف باسم (رنية)"[٣]، ولم يفصل الحديث عما شاهده في واحة رنية، وإنما أوجز الشرح في وصف طبيعة الطريق من رنية إلى بيشة[٤].

٢٤ - عاتق بن غيث البلادي (ق١٤ـ ١٥هـ/ق٢٠م):

هذا الجغرافي الرحالة تجول في أرجاء عديدة من الجزيرة العربية، وكتب مؤلفات في الجغرافيا والرحلات والأنساب والتاريخ[٥]، له كتاب سماه: **بين مكة وحضرموت (رحلات ومشاهدات)**[٦]، وهو عبارة عن رحلة ذهب فيها من الحجاز إلى نجران عبر بلاد السروات عام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، تطرق فيه إلى بلاد تربة ورنية[٧].

أشار البلادي في حديثه إلى قبيلة البقوم، التي تسكن وادي تربة، وتمتد أرضها شرقاً وشمالاً وتحيط بها قبائل عتيبة من الشمال، وبلحارث وعتيبة من الغرب،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨ . واجه الأوائل صعوبات كثيرة في تعليم أنفسهم وأبنائهم، وذلك لقلة ذات اليد، وصعوبة الحياة، واليوم، والحمد لله، انتشر التعليم في كل صقع من أصقاع البلاد السعودية، وهذا بفضل من الله عز وجل، ثم جهود هذه الدولة المباركة في نشر المعرفة بين الناس .

(٣) لينبز، ص ٤١ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٤١ـ ٤٧ . فلبي وليبنز من الرحالة الأوربيين الجيدين في رصد مشاهداتهم، ولكن فيما يتعلق بحديثهما عن رنية وتربة، فقد أوجزا كثيرا، ولم يدونا لنا معلومات تفصيلية عن هذه المحطات الحضارية

(٥) طبع ونشر عدد من المؤلفات الخاصة ببلاد الحجاز، جغرافيتها، أنسابها، وتاريخها، ويعد من الرواد في بعض مؤلفاته التي أصدرها مثل :معجمه الجغرافي عن الحجاز، ودراسته عن قبيلة حرب وغيرها. للمزيد انظر مؤلفاته المطبوعة والمنشورة.

(٦) هذا الكتاب من مطبوعات دار مكة للنشر والتوزيع في مكة المكرمة عام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

(٧) المصدر نفسه .

وسبيع من الشرق والشمال الشرقي، وغامد من الجنوب[١] . ويذكر أن البقوم ينقسمون إلى فرعين رئيسين هما : المحاميد، ووازع، وهذان الفرعان ينقسمان إلى فروع أخرى عديدة[٢]، ومياه وادي تربة تأتي من سروات بجيلة بني مالك وما جاورهما من البلاد[٣] . ويضيف تفصيلات جيدة عن طبيعة وادي تربة فيقول إنه: " من الأودية الفحول التي تأخذ مياه قسم كبير من وجه السراة الشرقي، ويسمى أعلاه تربة، ويميز باسم (تربة البقوم)، وفي هذا القسم قاعدة البقوم، وهي بلدة عامرة تسمى بنفس اسم الوادي، ثم يتجه شمالاً شرقاً فيسمى الغريف[٤]، وهو من بلاد سبيع، ثم ينحدر إلى بلدة الخرمة : قاعدة قسم كبير من قبيلة سبيع، وهي بلدة متقدمة تقع شرق الطائف مع ميل إلى الشمال على قرابة مائتي كيل .. ثم يعطف الوادي إلى الشرق فيقع في سهل كثير الرمال ... ثم يصطدم بعرق سبيع[٥]، وهو رمل كالجبال المتفاوتة، وهو ما كان يعرف برمل بني عبد الله، بطن من عامر بن صعصعة، وهنا تضيع مياه وادي تربة، بعد أن يسمى وادي الخرمة، في قاع واسع يسمى (الفرشة)، تختلط فيه مياه : الخرمة، ورنية، وبيشة، وهي تعرف باسم (الوديان الثلاثة)، وهي كثيرة النخل الجيد تمرة"[٦] .

ويتحدث البلادي عن وادي رنية، ويذكر أن بعض المتقدمين ذكروه بالراء (رنية)، وآخرون بالزاي ثم الباء (زبية)، والصحيح (رَنْيَة) بفتح الراء وسكون النون[٧]، ثم قال: " وكثيراً ما يطلق عليه اسم وادي سبيع، ذلك لأن كثيراً من بطون سبيع تقيم في هذا الوادي وعلى جنباته، ويسيل هذا الوادي من سراة غامد على قرابة (٢٣٠) كيلاً جنوب الطائف، ثم ينحدر شمالاً شرقياً، وأعلاه لغامد، ثم يسمى الأملح، لآل عمير من سبيع، ثم يسمى رنية مرة ثانية، وفيه الروضة، بلدة هي قاعدة إمارة سبيع في هذه الناحية، وتقع الروضة شرق بلدة تربة البقوم على خط مستقيم، وتقع تربة

---

(١) البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ١١، ٣٥ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦ .

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٨ .

(٤) ورد اسم هذا المكان في بعض الخرائط باسم (الغريث)، والصحيح ما ذكره البلادي في مدوناته .

(٥) لوادي تربة روافد عديدة من أرض السروات مثل: وادي العقيق، ووادي بواء، ووادي عردة .

(٦) انظر: البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ١٧٠- ١٧١ . وأقول إن بلاد رنية والخرمة وتربة من البلاد التي طواها النسيان عند الباحثين والمؤرخين، وتستحق من يدرسها (دراسات علمية أكاديمية، ونأمل من أهلها وبخاصة الباحثين والأكاديميين أن يلتفتوا إلى بحثها في شتى الجوانب .

(٧) البلادي، ص ١٧١ .

البقوم شرق الطائف، وعلى قرابة (١٥٠) كيلاً رأسياً[١] . وإذا تجاوز وادي رنية بلدة الروضة عدل إلى الشرق فاختلط مع مياه الخرمة وبيشة في الفرشة... "[٢] .

ويشير هذا إلى الطريق الذي يخرج من حضرموت إلى بيشة ، ثم يفترق إلى فرعين: الأول، يخرج من بيشة إلى رنية ثم يأتي إلى الخرمة من الشرق . والثاني يسير من بيشة غرباً إلى حرة البقوم، ثم يهبط إلى وادي كرا، ثم إلى تربة، ثم إلى الطائف[٣] . ويذكر أيضاً طريق صنعاء الطائف الذي يصل إلى بيشة ثم يسير في الطريق الثاني الآنف ذكره[٤] .

٢٥- عبد الرحمن صادق الشريف (ق١٤ـ ١٥هـ/ق ٢٠م) :

عبد الرحمن الشريف، فلسطيني الجنسية، عمل أستاذاً أكاديمياً في قسم الجغرافيا، كلية الآداب بجامعة الملك سعود، وله العديد من الكتب والبحوث العلمية، منها مؤلفه : **جغرافية المملكة العربية السعودية، في جزأين**[٥] . **الجزء الأول عن جغرافية المملكة العربية السعودية بشكل عام**[٦] ، **والجزء الثاني خاص بإقليم جنوب غرب المملكة العربية السعودية**، تحدث فيه عن جغرافية وحضارة مناطق الجنوب، وفي هذا الجزء، وفي حوالي عشر صفحات كتب عن بلاد رنية وتربة والخرمة[٧] .

في عنوان جانبي سماه (قضاء رنية) تكلم عن طبيعة وادي رنية، وعن اتجاهاته حتى يصل بلاد الخرمة، وذكر أن معظم سكان هذا الوادي من قبائل سبيع، كما ذكر بعض روافده ومنسوب المياه فيه أثناء سقوط الأمطار وبعدها[٨] .

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٧ـ ١٨٨ . ونجد أن المصادر الإسلامية المبكرة ذكرت طريق البخور الذي يخرج من صنعاء إلى الحجاز، وهذه أشهر الطرق قديماً، لأنه يسلكها التجار والحجاج ورجال الدولة وغيرهم، ومن المؤكد أن هناك طرقاً أخرى عديدة تربط بين أعالي السروات ومنحدراتها وسهولها الشرقية، إلا أن المصادر الأول لم تشر إلى ذلك، وربما صعوبة الأرض وعزلة أهلها هي من الأسباب الرئيسة التي جعلت أرباب القلم يتجنبون الدخول إلى تلك البلدان الوعرة والمعزولة .

(٥) الجزءان من مطبوعات دار المريخ في الرياض، الأول عام (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ،والجزء الثاني عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(٦) المرجع نفسه، ج١، ص ١٧ وما بعدها .

(٧) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦٠ ـ ٤٧٠ .

(٨) عبد الرحمن الشريف، ج٢، ص ٤٦٠ـ ٤٦١ . لقد ذكر مساقط الوادي من أرض السروات، ثم سيره في بعض الحرار حتى يصل بلاد الخرمة وما حولها من الصحاري .

ويشير إلى بلدة رنية في وادي رنية، فيقول : " ومن أهم وأقدم واحات الوادي، واحة رنية المزدهرة ببساتين النخيل، وقد اكتسبت هذه الواحة أهمية خاصة، بالإضافة إلى طاقتها الزراعية نظراً لوقوعها في منبسط يلي الجبال والحرات، فاتخذت محطة لطرق القوافل القديمة، لاسيما تلك التي تربط الهضبة الداخلية بمواقع الجبال العالية، ومن الطرق المشهورة التي تمر منها طريق الطائف ـ الخرمة ـ رنية ـ بيشة، ومنها إلى المناطق الجبلية في الباحة أو عسير، ولذلك قيل في الأدب القديم إن " رنية من الأعراض الهامة "[١] .

ويشير إلى بلاد رنية وكيف كانت أرض بادية، وغالبية أهلها يعتمدون على الرعي والزراعة وأحياناً التجارة، لكن منذ نهاية القرن الهجري الماضي وبدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) بدأت التنمية تصل إلى أرضها، فأنشئت فيها المؤسسات الحكومية، والمدارس، وشقت الطرق المعبدة، ومن ثم صارت تسير نحو النمو والتمدن[٢] . ويصف بعض أوضاعها الاقتصادية قديماً وحديثاً، فيقول : " يعتمد سكان القرى في وادي رنية على زراعة النخيل والحبوب بالدرجة الأولى، ويعتمدون أيضاً على تربية الحيوانات، كانت حياتهم بسيطة وهادئة، ويمارسون الزراعة بالطريقة التقليدية ذات المردود الضعيف، ثم أخذوا يغيرون من أساليبهم الزراعية بإدخال استعمال الآلات والأسمدة والضخ، ويستفيدون من إرشاد ومساعدات الوحدة الزراعية، وكانت رنية تشتهر ببعض المهن اليدوية كنسيج الصوف الخاص بالأخرجة والمناثر والبيوت، وكان يتمثل فيها اقتصاد الاكتفاء الذاتي المغلق شأن بقية المناطق القليلة الموارد قبل أن تنفتح على مناطق المملكة الأخرى، وقبل انتشار استعمال السيارات بكثافة، وإنشاء الطرق، وتطوير بعض مشاريع المياه لخدمة الزراعة، أو الاستعمال المنزلي، فأخذ اقتصادها يتطور كجزء من تطور اقتصاد المملكة "[٣] .

وفي عنوان آخر أطلق عليه اسم (أحواض وادي تربة) ، وهذا العنوان ينقسم إلى قسمين هما: (١) قضاء تربة . (٢) قضاء الخرمة . ويفهم من ذلك أن وادي

---

(١) الشريف، ج٢، ص ٤٦١ .

(٢) عبد الرحمن الشريف يتحدث عن رنية في نهاية القرن الهجري الماضي وبدايات هذا القرن، واليوم من يزور رنية يجدها أصبحت من المدن المتطورة في عمارتها وشوارعها وأسواقها وثقافة أهلها . وآمل أن أقوم برحلة ميدانية إلى كل من رنية وتربة والخرمة فأدون عنها معلومات تعكس تطورها وازدهارها خلال الأربعين سنة الماضية، وأرجو من الله أن يتحقق هذا العمل قريباً .

(٣) انظر الشريف، ج٢، ص ٤٦٣ـ ٤٦٤ .

تربة تبدأ منابعه من أعالي جبال السروات في ديار غامد وزهران وبني مالك ويسير من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فيخترق أراضي تربة والخرمة، ويتسمى الوادي في كل منهما باسمهما، فيطلق عليه في الجزء الأول وادي تربة، وفي الجزء الثاني وادي الخرمة[١] .

ويسكن في الجزء العلوي من وادي تربة قبيلة بلحارث، وهذه القبيلة تسكن المناطق الجبلية في شمال بلاد بجيلة بني مالك، وتمتد بلادها إلى حوض وادي تربة الأوسط، وتضم أرض الجبوب، المعروفة أيضاً بـ (غزايل) الواقعة في جنوب شرق الطائف، والتي تكثر فيها أماكن تعدين أثرية ومهجورة . والجبوب هضبة واسعة تخددها الروافد العديدة التي التي تنحدر إليها من المناطق الجبلية في الغرب، وتتجه إجمالاً نحو الشرق، وينتهي بعضها إلى تربة [٢] . وإلى الشمال الشرقي من بلاد بلحارث تسكن البقوم، وتمتلك جزء كبير من وادي تربة الواقع في وسط المسافة بين تربة والخرمة، وتمتد أرض البقوم باتجاه الشرق من الوادي فتضم معظم حرة البقوم، وتجاور أيضاً بعض عشائر سبيع [٣] .

أما بلاد الخرمة فهي تحتل القسم الشمالي الشرقي من حوض تربة، وكذلك الشمالي الشرقي من إقليم هضبة جنوب غرب المملكة، وذلك إلى الشمال من قضائي رنية وتربة، فتجاور من الجهة الشرقية عاليه نجد التابعة لإمارة الرياض. وتشغل معظم بلاد الخرمة الحوض الأدنى لوادي تربة، والمعروف باسم (وادي الخرمة)، أو (وادي سبيع)، كما جاء في بعض المراجع والمصادر[٤] .

ويتحدث هذا الجغرافي عن الخرمة على أنها تميل إلى حياة البادية، ثم بدأت التنمية تصل إليها ففتحت فيها المدارس، وأنشئت الدوائر الحكومية، وبدأ أهلها تدريجياً يتحولون من حياة البادية إلى حياة التمدن والحضارة [٥].

---

(١) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦ .

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .

(٣) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦٨ .

(٤) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦٨ . هناك عدد من المراجع والمصادر خلال القرون الماضية المتأخرة ذكرت أسفل وادي تربة باسم (وادي سبيع)، وذلك لأن معظم سكان هذا الوادي في الخرمة من قبيلة سبيع .

(٥) الشريف، جغرافية المملكة، ج٢، ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩ .

ويشير إلى موقعها فيقول : " تقع بلدة الخرمة في طرف السهل الذي يلي الحرات البركانية والمرتفعات أو البروزات الجبلية، وذلك قرب نهاية الوادي، فاتخذت مركزاً هاماً على طرق القوافل الداخلية منذ زمن بعيد، لاسيما الطريق من الحجاز (الطائف) إلى المناطق الجبلية في الجنوب ؛ سواءً بني مالك أم الباحة أم عسير، تلك الطريق التي تتجنبٍ وعورة المرتفعات فتتجه أولاً إلى الشرق حتى الخرمة ومنها يبدأ التفرع" (١) .

ثالثا : وقفة قراءة ومقارنة للرحالة ومدوناتهم :

١ـ تنوع ثقافة الجغرافيين والرحالين :

الفاحص لسير هؤلاء الرحالين والجغرافيين، يجد تنوع مساقط رؤوسهم وتعددها، فمنهم الذي ولد وعاش بداية حياته في شرق العالم الإسلامي مثل: بلاد العراق وفارس وما حولها، ومنهم من ظهر في بلدان الأندلس أو مغرب العالم الإسلامي، وهناك من قضى حياته في الجزيرة العربية كأبي علي الهجري، وعرام السُلمي، والحسن الهمداني، والشريف البركاتي، وفؤاد حمزة، ومحمد عمر رفيع، وعاتق البلادي، وعبد الرحمن صادق الشريف(٢) .

وبعضاً من هؤلاء الرحالين ولدوا وعاشوا في بعض البلدان الأوربية مثل: موريس تاميزيه، وفلبي، وفيليب ليبنز، ثم ساقتهم الأقدار إلى بلاد العرب، وجاءوا إلى أرض الجزيرة العربية فتجولوا في بعض أرجائها وكتبوا عن كثير من تاريخ وثقافة سكانها(٣) .

من يقف مع كل جغرافي ورحالة جاء ذكره في هذا القسم، ويقوم على دراسة حياته وثقافته فسوف يتضح له عدة أمور نذكرها في النقاط الآتية :

١. غزارة واتساع معارف معظمهم، وبخاصة الجغرافيين الذين عاشوا خلال القرون

---

(١) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٦٩ . من يقارن بين الخرمة وتربة ورنية، يجد الخرمة تميل بشدة إلى حياة البادية، كما أن أرضها صحراوية، فأمطارها قليلة، وغطاؤها النباتي ضعيف، في حينٍ أعالي تربة ورنية أكثر رخاء بوفرة مياهها وتنوع ثرواتها الزراعية، وربما أن سكان تربة ورنية أكثر تحضراً ومدنية من الخرمة، وذلك لأهمية الناحيتين الأوليتين للتجارة والتجار على مر التاريخ القديم والإسلامي المبكر والوسيط والحديث . وإذا قارنا بلاد السروات بأرض رنية وتربة فقد تكون الأولى أغني بثرواتها الحيوانية والزراعية، إلا أن أرضها أشد وعورة من تربة ورنية، ومن ثم فالتجار والتجارات كانت دائما ترتاد طريق بيشة ورنية وتربة أكثر من أعالي السروات .

(٢) للمزيد عن هؤلاء الجغرافيين انظر: كتبهم التي ذكرناها في هذا البحث، وهناك أيضاً دراسات عن بعضهم، وقد طبعت ونشرت مثل: الهمداني، والبركاتي، وفؤاد حمزة، والبلادي وغيرهم .

(٣) يعد هاري سانت جون فلبي (الحاج عبد الله فلبي) أكثر من ساح في أنحاء الجزيرة العربية، وأفضل من كتب عنها من الأوربيين والمستشرقين بشكل عام خلال القرن (١٤هـ/ ٢٠م) ، ومن ثم فكتبه من المصادر الرئيسة لتاريخ وحضارة هذه الجزيرة أثناء القرن الآنف ذكره .

الإسلامية المبكرة الوسيطة من القرن (٢-٨هـ/ق ٨-١٤م)، فهؤلاء: الحربي، والهجري، والهمداني، والمقدسي، والبكري، والحموي، وابن فضل الله العُمري، كانوا موسوعات في علومهم وثقافتهم، وإذا أوردنا أسماءهم في هذه الدراسة على أنهم رحالون وجغرافيون، إلا أنهم كانوا علماء في علوم أخرى عديدة مثل: مجالات الشريعة، واللغة، والشعر، والأدب، وبعضهم كان ملماً ببعض العلوم العلمية البحتة مثل: الهمداني في كتابه: الجوهرتين العتيقتين وغيره[١]. ومن الجغرافيين الأوائل من يتقن اللغة العربية ولغات أخرى، فهذا ناصر خسرو كان بارعاً في اللغة الفارسية، والإدريسي كان على مقربة من ملك صقلية، بل إن هذا الملك نفسه هو الذي طلب من الإدريسي أن يكتب له كتاباً عن مملكة صقلية وما عاصرها من الممالك، ولهذا امتثل لهذا الطلب، ودون كتبه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وهذا ابن بطوطة الذي جاب بلداناً عديدة في القرنين (٥-٦هـ/ ق١١-١٢م)، وقابل كثيراً من الأباطرة والملوك والأمراء والأعيان والوجهاء في بلاد الهند والصين وبلدان أخرى عديدة في قارات أوربا وآسيا وإفريقيا، ودرس الكثير من عاداتهم ومعارفهم ولغاتهم[٢]. من هؤلاء الرحالين العلماء الغربيين، كفلبي، وليبنز، وتاميزيه فجميعهم من دول أوربا، ولدوا وعاشوا بداية حياتهم في بلدان متعددة مثل : بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا، ومن ثم فهم يتكلمون لغات عديدة، وتعلموا أيضاً لغات أخرى مثل اللغة العربية وغيرها، وكانوا على علم ودراية واسعة بحياة بعض الشعوب والبلدان في أوربا وآسيا وأجزاء من إفريقيا[٣].

٢. هؤلاء الجغرافيون عاشوا في عصور مختلفة بدءاً من القرن الثاني الهجري (ق٨م) حتى القرن التاسع الهجري (ق ١٥م)، ثم من القرن (١٣-١٥هـ/ ق١٩-٢١م)، وبالتالي شاهدوا وعاصروا ودونوا ثقافات وحضارات مختلفة عبر تلك القرون العديدة، بل إن بعضهم كان سائحاً في أرض الله، يدون ويشاهد كثيراً مما رآه وعاصره، وبعضاً آخر كانوا قريباً من صناع القرار

---

(١) من يقرأ كتاب الجوهرتين للهمداني يجده فصل الحديث في معدني الذهب والفضة وكيفية استخراجهما وصياغتهما وذكر أوزانهما .

(٢) للمزيد انظر تراجم هؤلاء العلماء في مؤلفات ومصنفات عديدة، وهناك عشرات البحوث التي صدرت عن ابن بطوطة، والإدريسي وغيرهما .

(٣) من يقرأ سيرهم يلحظ أنهم عاشوا بدايات حياتهم في بلدانهم مثل أوربا، ثم انتقلوا إلى الشرق وساحوا في كثير من بلدانه وكتبوا عن تاريخ وثقافة بعض من البلدان التي زاروها وأقاموا فيها ردحا من الزمن .

في كثير من البلدان، أو أنهم تقلدوا بعض الأعمال في عدد من إدارات الدول الإسلامية التي عاصروها، وهذا التنوع في السير والاختلاف في كثير من أحوال هؤلاء الرحالين جعلتنا نطلع على قامات علمية وثقافية وفكرية متعددة المواهب والمعارف[١] .

٣. اختلاف الأهواء والعقائد عند هؤلاء الرحالة، فأكثرهم يؤمنون بالإسلام وهم على مذهب أهل السنة والجماعة، وآخرون يعتقدون المذهب الشيعي، ويختلفون في اعتقادهم من فرقة إلى أخرى[٢] ، وفريق ثالث يؤمنون بالنصرانية ويمارسون حياتهم الدينية من خلالها[٣] . وهذا الاختلاف العقائدي يجعلنا ندرك اختلاف الأفكار والثقافات عند هؤلاء العلماء الجغرافيين، وما من شك أن ذلك يعد إيجابياً ، حتى لو اختلفوا معنا في عقائدنا وما نؤمن به، إلا أنهم أصحاب ثقافات ومعارف غنية ومتنوعة[٤] .

٤. الملاحظ على هؤلاء الجغرافيين أنهم تقريباً جميعهم جاءوا إلى أرض الحرمين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ، وقضى معظمهم فريضة الحج، والتقوا بأهل الجزيرة العربية في أرض المقدسات، وتعلم بعضهم على يد علماء الحرمين، وآخرون التقوا وسمعوا من بعض الرواة في الحجاز الذين نقلوا منهم بعض الروايات والأخبار عن بلادهم . وهذا القول ينطبق على من نقل بعض الأخبار عن رنية وتربة وأجزاء من بلاد السراة وهم لم يزوروها ، وهذا ما نجده مدوناً في كثير من مؤلفات هؤلاء الرحالين والجغرافيين المتقدمين[٥] .

---

(١) لو رجعنا إلى سيرة كل واحد من هؤلاء الرحالة وجدنا بعضهم مثل: ابن خرداذبة، وقدامه، وناصر خسرو، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة، وابن فضل الله العُمري، وفؤاد حمزة، والبركاتي، وفلبي، ومحمد رفيع قد عاصروا دولاً إسلامية وعربية عديدة، بل إن معظمهم تقلدوا الوظائف الحكومية في الدول التي عاصروها .

(٢) فرق الشيعة عديدة ومختلفة في آرائها وممارساتها الدينية، وهناك اختلافات أيضاً عند أهل السنة، ويوجد مئات الدراسات التي تفصل الحديث عن هذه الاختلافات الدينية والعقائدية .

(٣) فلبي وتاميزيه وليبنز وهم في الأساس نصارى، لكن فلبي اعتنق مؤخراً الإسلام، وعاش زمناً طويلاً في الجزيرة العربية .

(٤) الاختلافات العقائدية جانب مهم من الثقافة والمعرفة، ونحن أمام شرائح عديدة من هؤلاء الجغرافيين متنوعي الفكر والثقافة الدينية .

(٥) كثير من العلماء والجغرافيين الأوائل دونوا معلومات عن أرض السروات أو بعض الأجزاء الأخرى في الجزيرة دون أن يروها أو يزوروها ، وغالبا كانوا ينقلون من مصادر من سبقهم، أو يسمعون لبعض الرواة الذين يلتقون بهم في الحجاز أو بعض الأمصار الإسلامية الأخرى ثم يكتبون ماسمعوا منهم . ومن أولئك الجغرافيين ابن خرداذبة، وابن رسته، وابن حوقل، وقدامة، والحربي، والبكري، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة، وياقوت الحموي، وابن فضل الله العُمري .

٥. الاختلاف في مساقط الرؤوس، وتعدد المذاهب والعقائد، والاختلاف أيضاً في العصور، والجنسيات، واللغات، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء الرحالين، جعلتنا أمام غزارة وتنوع ثقافي ومعرفي في كل ما خلف لنا هؤلاء العلماء على مر التواريخ الإسلامية المختلفة. ومدونات هؤلاء الجغرافيين في علم الرحلة والجغرافيا تعد من أهم المعارف التي حفظوها لنا، والتي من خلالها عرفنا تفصيلات ومعلومات تاريخية وحضارية عن أوطان وبلدان نائية مثل: رنية وتربة والخرمة، ولو لم تصلنا مثل هذه المصادر، فقد لا نعرف شيئاً كثيراً عن حضارة مثل هذه البلدان العربية الإسلامية[١] .

٢ـ المصادر والمنهج المستخدم في جمع المادة :

إذا تأملنا في المادة المدونة عن رنية وتربة والخرمة، وفحصنا مصادر ومناهج هؤلاء الجغرافيين في تأليف رحلاتهم وكتبهم، وجدنا أنها في الغالب تقدم على أربعة أنواع رئيسة من المصادر، وهي على النحو الآتي :

١. رحالون جمعوا معلوماتهم عن هذه البلدان الثلاثة " رنية، وتربة، ونادراً الخرمة "[٢]، من مؤلفات ومصادر من سبقهم من الكتاب والمؤلفين الأقدمين والذين نهجوا هذا السبيل : ابن رستة، وابن حوقل، وأبو الفرج قدامة، والبكري، والإدريسي، وياقوت الحموي، وابن فضل الله العُمري [٣].

٢. جغرافيون آخرون جمعوا معارفهم من مؤلفات من سبقهم، ولم يقتصروا على ذلك وإنما نقلوا كثيراً من معارفهم من الروائيين والإخباريين الذين التقوا بهم في مدن الحجاز الكبرى، أو في حواضر إسلامية أخرى في مشارق

---

(١) تعدد مصادر ومراجع علوم الجغرافيا والرحلة قديماً وحديثاً من أهم المؤلفات التي تحتوي على تفصيلات علمية تاريخية وحضارية عن كثير من البلدان والشعوب في العالم العربي الإسلامي، ولهذا فلا غنى لأي باحث ومؤرخ من الرجوع إلى مثل هذا النوع من المصادر .

(٢) قلنا (نادراً الخرمة) لأن اسم هذه البلاد لم يظهر إلا حديثاً ولم نجد لها ذكر عند المتقدمين من العلماء والجغرافيين قبل القرن العاشر الهجري (١٦م) ، وربما انزوائها في بعض الصحاري شمال شرق الطائف كان من الأسباب الرئيسة في عدم ذكرها خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة .

(٣) الدارس للمدونات التي دونت في هذه المؤلفات المبكرة عن بعض البلدان البعيدة والنائية في الجزيرة العربية مثل: رنية وتربة يجد معظمها منقولاً من مصادر سابقة لعصورهم، وأغلب هذه المؤلفات القديمة ضاعت فلم نستطع العثور عليها، ولا ندري أمازالت مخطوطات في أماكن لا نعلمها، أم أنها فقدت ؟ ونجد بعضاً من نصوصها حفظت في مؤلفات متأخرة لعصور من كتبها، وهؤلاء الجغرافيون الأوائل من العلماء الذين جمعوا لنا مقتطفات من تلك الكتب الضائعة .

العالم الإسلامي ومغاربه، وعرام بن الأصبغ السلمي، وأبوعلي الهجري، وأبو عبيد الله ابن عبد العزيز البكري، وياقوت الحموي، وابن فضل الله العُمري أفضل من جمع بين النقل من المصادر، واللقاء والسماع من بعض الإخباريين، وبالتالي فأغلب موادهم العلمية مستقاة من هذين المصدرين. وعرام السلمي، وأبو علي الهجري هما أحسن من حفظ لنا تفصيلات نادرة عن بلدان نائية أو منسية في الجزيرة العربية، ومعظم مدوناتهم جاءت عن طريق السماع والرواية، وكثيراً مما حفظوا لنا، لا نجده إلا عندهما، وذلك لأنهما جمعا معارفهما عن تاريخ وحضارة سكان الجزيرة العربية في القرون (٢-٤هـ/ق٨-١٠م)، وهي الفترة التي أهمل التدوين فيها عن موروث هذه البلاد، ولذا فهما (السلمي والهجري) يعدان رائدان فيما حفظا وجمعا[١]. وموريس تاميزيه، والشريف البركاتي، وفؤاد حمزة، وهاري سانت جون فلبي، ومحمد عمر رفيع، وفيليب ليبنز، وعاتق البلادي، وعبد الرحمن صادق الشريف[٢]. فجيمعهم زاروا (رنية وتربة) أو عبروا جزءاً من أراضيها، وبعضهم مثل: البلادي وعبد الرحمن صادق الشريف ذكروا الخرمة، وأشارا إلى صور من جغرافيتها وتاريخها. ونستطيع القول أن جل ما كتب هؤلاء الرحالون من الرحلات والمشاهدات، ثم إن كثيراً من مدوناتهم جديدة في مضمونها ومحتواها، وهم في نظري رواد فيما ذكروا عن هذه البلاد النائية[٣].

٣. هناك فريق من الجغرافيين، لم ينقلوا معلوماتهم، ولم يدونوا أخبارهم عن بلاد السراة وما جاء شرقها من الرواة والإخباريين، ولم يزوروا تلك البلاد، وإنما شاهدوا بعضاً من سكانها في الحرم المكي. وابن جبير وابن بطوطة وربما ابن فضل الله العُمري أفضل من نقل لنا معلومات تاريخية عن أشكال وطبيعة سكان تلك البلاد النائية في أرض السراة وبيشة وتربة ورنية

(١) هذان العالمان يستحقان أن يفرد لهما دراسات علمية مستقلة، ونأمل من المؤرخين في أقسام التاريخ والأدب في جامعاتنا السعودية أن يلتفتوا لهذين العلمين فيدرسون علومهما ومناهجهما فيما جمعا ودرسا من صفحات في تاريخ وثقافة الجزيرة العربية، كما نأمل أن توجه هذه الأقسام طلابها في برامج الدراسات العليا إلى دراسة هؤلاء الرحالين المسلمين وغير المسلمين المذكورين في هذا البحث..

(٢) انظر بعضاً من مدوناتهم عن الخرمة ورنية وتربة في صفحات سابقة من هذا البحث، ولا ندعي تدوين كل ما كتبوا وحفظوا عن هذه الأوطان، إلا أننا ذكرنا كثيراً من مشاهداتهم ورواياتهم.

(٣) نعم تربة ورنية والخرمة تعد من البلدان المنسية والقصية عند كثير ممن دون موروث الجزيرة العربية خلال القرون الإسلامية المختلفة.

وغيرها، وذلك أثناء زيارتهم لمكة المكرمة، بل إنهم من أطلعنا على بعض الصلات الاجتماعية والتجارية لأهل تلك البلاد الجبلية، عندما كانوا يأتون إلى مكة، والإقامة فيها لبعض الوقت، والعيش مع سكانها والتعامل معهم في جوانب حضارية عديدة.

أما المنهج المتبع عند هؤلاء الرحالين، فهو قائم على الرصد والوصف، بصرف النظر عن المصدر الذي جمعت منه المعلومات، ولا نجد عند أي من هؤلاء الجغرافيين أسلوب النقد، أو التحليل، أو المقارنة، مع العلم أننا وجدنا في بعض الروايات التي نقلوها أو دونوها معلومات مغلوطة وغير صحيحة، وجاء بعدهم مؤلفون متأخرون فنقلوا نفس التفاصيل التي ذكرها من قبلهم، وبنفس الأخطاء الواردة عند السابقين. وكنا نأمل من الرحالة المتأخرين أن يصححوا ما وقع فيه من سبقهم من أخطاء، أو يوضحوا ما كان غامضاً، أو يستكملوا ما كان ناقصاً . لكن مع وجود مثل هذه السلبيات، إلا أن الجغرافيين المذكورين في هذه الدراسة يعدون أصحاب سبق وريادة فيما كتبوا عن بعض المواطن في الجزيرة العربية، وبخاصة المنسية أو قليلة الذكر في كتب التراث مثل: بلدان السروات، وأوطان عديدة شرق السروات، أو في أجزاء من نجد مثل: الخرمة، ورنية، وتربة .

٣ـ دراسة المادة العلمية ومقارنتها :

الفاحص لما خلف لنا هؤلاء الجغرافيون والرحالون عن تاريخ وحضارة بلاد الخرمة، وتربة، ورنية يلحظ التفاوت في أحجام مدوناتهم، والتنوع أحياناً فيما شاهدوه، أو دونوه، أو نقلوه[١] .وفي الصفحات التالية نذكر بعض النقاط التحليلية والمقارنة عن المادة المدونة في هذه الدراسة، وهي على النحو الآتي :

١. الجغرافيون المذكورون من القرن (٢ـ٨هـ/ق٨ـ١٤م) ، أشاروا إلى بلدتي رنية وتربة، ومعظمهم ذكروها ضمن محطات الطريق التجارية التي تخرج من اليمن حتى الطائف ومكة المكرمة، ولا يوجد تفصيلات تاريخية وحضارية كثيرة عن هاتين الناحيتين، وإنما جل ما ذكروه وجودهما في وسط الطريق

---

(١) البعض من الجغرافيين شاهدوا هذه البلاد المعنية في هذا البحث، ثم دونوا مشاهداتهم في مؤلفاتهم، وعدد آخر لم يروا الخرمة، وتربة، ورينة، وما حولها، واكتفوا بنقل بعض أخبارها من رواةٍ عرفوها أو سمعوا عنها، أو نقلوا ما دونوه من مؤلفين سابقين لعصورهم مع أن كتبهم لم تصلنا، لكن بعضاً من رحالة وجغرافي القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث نقلوا من تلك المؤلفات المفقودة والضائعة .

بـين بيشـة وتبالة في الجنوب، والطائف في الشـمال، ومن أولئـك الرحالة منٍ ذكر المسافة بالأميال بين رنية وتربة وما حولهما مثل الهمداني، وآخرون دونوا نتفا قليلة عن وفرة النخيل والمزروعات فيهما، أو أسماء بعض العشائر أو البطون التي تسكن في تربة ورنية، مثل عرام السلمي، وأبو الفرج قدامة، والبكري، وياقوت الحموي[١] .

٢. لا نجد ذكراً لبلدة الخرمة عند أولئك المتقدمين، ولم نجدها مذكورة إلا عند المتأخريـن مثل فؤاد حمزة، وفلبي، ومحمد عمر رفيع، وعاتق البلادي، وعبد الرحمن صـادق الشـريف. فالأوائـل لم يذكروها البتة، ربمـا لعدم وجودها بهذا الاسم، مع أنها تقع في أسفل وادي تربة، وقبائل سبيع تقطنها منذ زمن طويل، وأفضـل من فصل الحديث عنها من رحالتنا هم : فؤاد حمزة، وعاتق البلادي، وعبد الرحمن صادق الشريف فذكروا موقعها إلى الشمال الشرقي من مدينة الطائف، وأنها تتصل بطريق رئيس مع رنية وتربة، وأن بلادها في الجزء الأخير من وادي تربة[٢] .

٣. هناك رحالون لم يزوروا رنية أو تربة أو حتى بلاد السـروات المحاذية لهاتين البلدتـين مـن الغـرب، لكنهـم دونوا لنـا معلومات قيمـة عن بعض الصـور الاجتماعية والاقتصـادية لسـكان تلك البلاد، ومعلوماتهم المدونة من خلال ما شـاهدوه عنهم في مكة المكرمة، أو من خلال ما سـمعوه من بعض الرواة . وناصـر خسـرو، والمقدسـي، وابن جبير، وابن المجاور، وابن بطوطة، وابن فضل الله العُمري يأتون على رأس قائمة أولئك الجغرافيين[٣] .

(١) انظر مدوناتهم في النصـوص المنقولة في صـفحات سـابقة من هذه الدراسة . وبعضاً من أولئك الرحالين ذكـروا أن رنية وتربة من البلدان التابعـة إدارياً لمكة المكرمة . وهاتان الناحيتان مازالتا تتبعان لإمارة مكة المكرمة حتى اليوم .

(٢) ونقول إن الخرمة (أرضاً وسكاناً) تحتاج إلى دراسات علمية أكاديمية تفصل الحديث عن قبائلها وعن تاريخها الحضـاري والسياسـي وبخاصة في العصـر الحديث، حبذا أن يأتي من يدرس أرضـها خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، وما هي الأسماء التي كانت تطلق عليها ؟، وكيف أصبح اسمها الخرمة ؟، ولماذا ؟

(٣) أقـوال هؤلاء الرحالة يتحدثون عن السـكان الذين كانـوا يفدون إلى مكة المكرمة، وبلادهم الأصلية هي جنوبي الطائف مثل: بلاد السرو، ورنية، وتربة، وبيشةوغيرها. فنجدهم ذكروا بعض المعلومات عن السلع التي كانوا يجلبونها معهم من بلادهم ويقايضـونها مع سـلع أخرى في مكة، كما أشاروا إلى بعض عاداتهم وهيئـة ألبسـتهم عندمـا يدخلون مكـة . والدارس للعلاقـات بين أهل مكـة والبلدان الواقعـة إلى الجنوب والجنوب الشرقي من مدينة الطائف يجدها صلات متينة من قبل الإسلام وعدا أطوار التاريخ الإسلامي. وهذه العلاقات لم تدرس دراسات أكاديمية، حبذا أن تلتفت الجامعات المحلية في الطائف وبيشة والباحة إلى دراسة مثل هذا الميدان الكبير والمهم .

٤. عرام السلمي، والهجري، والهمداني من سكان الجزيرة العربية، وممن سار في مناكب هـذه البلاد، لكنهم لم يزوروا تربة ورنية مـا عدا الهمداني الذي ربمـا اجتاز بلادها، مع أنهم فصـلوا الحديث عـن مناطق عديدة غيرها في الجزيـرة العربية، وأشـاروا إلى كل من هاتين الناحيتـين، إلا أن معلوماتهم عنها مازالت قليلة جداً ولا تشفي الغلة، وكنت أتمنى أن يدونوا لنا تفصيلات مطولة عنهما[١] .

٥. من يتأمل في المادة المحفوظة عن رنية وتربة عند الأقدمين قبل القرن العاشر الهجـري (السـادس عشـر الميـلادي) ، يجدها ناقصـة، فلا نسـتطيع أن نخرج بصورة واضـحة من مادتهم العلمية التي وصلتنا، نعم هناك إشارات جغرافيـة واجتماعيـة واقتصـادية وأحيانـاً معلومات عامـة، لكنها جميعها مازالت غامضـة وغير واضـحة أو وافية، وكنت آمل أن نخرج بصورة أشمل عن تاريخ وحضارة تلك المجتمعات التربية والرنوية[٢] .

٦. مـن المعـروف عن فلبي (الحاج عبد الله فلبي) أنـه اجتاز بلاد رنية وتربة أكثر من مرة، وفي بعض الأوقات كان برفقته رحالين آخرين مثل فيليب ليبنز، والدارسـ لمؤلفات فلبي يجدها كثـيرة وثرية بمعلوماتهـا الجديدة والقيمة، ولكنه لم يفدنا كثيراً عن تاريخ وحضـارة التربيين والرنويين وأهل الخرمة، وإنما اكتفى بوصـف تضاريس بلادهم، وذكر إشارات يسيرة عن واديي تربة ورنية وبعض مزارعها وطيورها وحيواناتها وسـكانها . مع أنه فصل الحديث عن بلدان أخرى مثل : بيشة، وخميس مشيط، وأبها، ونجران، وجازان[٣] .

---

(١) هؤلاء الجغرافيون الثلاثة (عرام، والهمداني، والهجري) يسـتطيعون أن يفصـلوا لنا الحديث عن هذه البلاد (رنيـة وتربـة) خلال القرون الإسـلامية المبكـرة (ق٢-٤هـ/ ق٨-١٠م) ، لأنهم أبناء الجزيـرة العربية، وممن تجولوا في أرجائها ويعرفون حواضرها وقراها وبواديها وأوديتها وجبالها وقبائلها ومواطنهم، وهم فعلا جديرون بتزويدنا بمعلومات كثيرة عن هذه البلاد المعنية في هذه الدراسة، لكنهم لم يفعلوا، واكتفوا بالإشارة إليها فقط .

(٢) نقول إن الفرصة كبيرة للباحثين من المؤرخين والآثاريين لدراسة تاريخ وحضارة بلاد تربة ورنية، والبحث في جميـع مصـادر كتب التراث الإسـلامي من الموارد الرئيسـة لمعرفـة تواريخ هذه البلاد، لكن الدراسـة الأثرية والتنقيب عن الآثار في هذه الأوطان قد تفيد كثيراً في معرفة حضارتها قبل الإسلام، وأثناء عصور الإسلام المبكرة والوسيطة .

(٣) يعتبر فلبي أفضـل مـن كتب عن الجزيرة العربية خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) ، فقد أسـهب في شـروحاته عن سـكان وتاريخ وحضـارة هذه البـلاد، وبعض المناطق لم تنل رعاية هذه الرحالـة الغربي الجيد، وبلاد السروات الممتدة من أبها إلى الطائف، وبلدان رنية والخرمة وتربة من المواطن التي اختصر الحديث عنها أثناء مروره من بعض أراضيها .

٧. موريس تاميزيه أفضل من قدم لنا معلومات تاريخية عن بلاد وسكان رنية خلال القرن (١٣هـ/١٩م)، وإذا قارنا مادة هذا الرحالة مع غيره فلازال أفضلهم، لأنه ذكر تفصيلات جيدة عن بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة في زمن تجد الجهل والفقر مطبقين على عموم البلاد في جزيرة العرب[١] .

٨. الشريف البركاتي، وفؤاد حمزة، ومحمد رفيع، وعاتق البلادي، وعبد الرحمن الشريف، ممن أشاروا إلى صور من تاريخ رنية وتربة وأحياناً الخرمة خلال القرنين (١٤-١٥هـ/٢٠م). وجل حديث البركاتي ومحمد رفيع عن تربة فقد دونا لمحات من حياة أهلها الاجتماعية والاقتصادية، أما فؤاد وحمزة، وعاتق البلادي، وعبد الرحمن الشريف فكتبوا عن تربة ورنية وأشاروا إلى واديهما وسكانهما ومعلومات تاريخية وحضارية أخرى، كما ذكروا وادي الخرمة وصلته بوادي تربة وسكانه[٢] .

٩. جميع الرحالين الذين ذكروا في هذه الدراسة، يشيرون إلى معلومات جغرافية مثل الموقع والتضاريس والمناخ، وبعض الأخبار الاجتماعية والاقتصادية، إلا أننا لا نجد أحداً يتحدث عن الحياة التعليمية والثقافية والفكرية، ما عدا فيليب ليبنز الذي أشار إلى المدرسة والتدريس في تربة فقال " إن المدرسة المحلية ليست باهظة التكاليف "[٣] . ثم يقول " وفي بعض الجهات تدفع للآباء نقوداً لتشجيعهم على الذهاب بأبنائهم إلى المدرسة "[٤] . هذه الإشارة الوحيدة التي وجدناها عند رحالة واحد من (٢٥) رحالة وجغرافي، والسبب في عدم الإشارة إلى التاريخ المعرفي في هذه البلاد، ربما يعود إلى موقعها المنزوي بين صحاري نجد وسفوح السروات الشرقية، ثم إن أهلها بدو رحل يعيشون على التنقل ورعي مواشيهم وبهائمهم، بالإضافة إلى

---

(١) معلومات تاميزيه عن سكان وأرض رنية جيدة، ويصعب أن نجدها في أي مصدر آخر. ونقول إن تاريخ رنية أو تربة خلال القرنين (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م) من الموضوعات التي تستحق أن يفرد لها كتب ودراسات علمية مستقلة، ونأمل من جامعات أم القرى، والباحة، والطائف، وبيشة أن تدعم وتشجع مثل هذه الموضوعات الجديدة والجديرة بالبحث والدراسة.

(٢) كما أشرنا سابقاً، لم تذكر الخرمة بنفس المستوى الذي ذكر عن رنية وتربة، فالبلدتان الأخيرتان مذكورتان من قبل الإسلام وخلال العصور الإسلامية المختلفة، أما الخرمة فذكرها ورد في المراجع المتأخرة وبخاصة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٣) فيليب ليبنز، ص ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه .

ممارسة الزراعة عند بعضهم، ومن ثم فجل أعمالهم مرتكزة على الكدح الشاق من أجل كسب معايشهم، دون الالتفاف إلى طلب العلم والمعرفة [١].

رابعاً: آراء وتوصيات:

رنية وتربة والخرمة من الواحات الغنية في الجزيرة العربية بثرواتها الزراعية والحيوانية، فهي تجمع بين حياة البادية والحاضرة، وقبائل البقوم وسبيع وبعض أسر الأشراف يستوطنونها منذ أزمنة بعيدة. وربما موقعها في أجزاء نجد الغربية والجنوبية الغربية، وعند سفوح السروات الشرقية جعلها في عزلة تاريخية وحضارية وتنموية [٢]. وهذا ما لمسته في هذا المبحث الذي استعرض مدونات (٢٥) رحالة وجغرافي أشاروا إلى بلدات الخرمة، ورنية وتربة منذ القرن (٢ـ ١٤هـ/ ق٨ـ ٢٠م)، ولا ندعي الكمال في هذا العمل العلمي، لكننا جمعنا ودرسنا جزئية قليلة من تاريخ وحضارة هذه البلاد عند بعض الجغرافيين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين [٣].

وفي نهاية هذا البحث نذكر بعضاً من التوصيات التي ارتأيناها، وهي على النحو الآتي:

١. هذه الأوطان الثلاثة (رنية، وتربة، والخرمة) تستحق في وقتنا الحاضر أن تكون منطقة رئيسة في حكومة المملكة العربية السعودية، وذلك لكثافة سكانها العالية، ولاتساع أرضها، وتنوع تضاريسها، ثم لبعدها الكبير عن المناطق التابعة لها سواءً كانت إمارة الرياض، أو إمارة مكة المكرمة [٤].

---

(١) تاريخ الأدب والثقافة والفكر والتعليم في عموم الجزيرة العربية، ما عدا حواضر اليمن والحجاز، مازال مهملاً وغير مدون وبخاصة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، وحتى بدايات القرن (١٤هـ/٢٠م). وربما الفقر والجهل وفقدان الأمن في البلاد كانت من العوامل السلبية لعدم وجود حياة علمية وثقافية ملموسة. لا ننكر أنه كان هناك متعلمون قلائل يذهبون إلى الحجاز أو اليمن للتعلم ثم العودة إلى بلادهم للتعليم، وكان ذلك موجوداً في السروات وبيشة وما حولها، لكن لازلنا نفتقد إلى بحوث ودراسات علمية تؤكد لنا ذلك وتوضحه، ونأمل أن نرى من طلابنا في برامج الماجستير والدكتوراة من يتولى هذا الجانب العلمي المهم.

(٢) حديثنا عن هذه البلدان منذ عصر ما قبل الإسلام إلى نهاية القرن (١٤هـ/٢٠م)، فتلك البلدان كانت فعلاً في معزل عن الحضارة والتمدن، وجل أهلها كانوا يعيشون حياة البادية، ومنذ بداية القرن (١٥هـ/٢٠م) امتدت إليها يد التنمية، حتى أصبحت اليوم من البلدان والحواضر المتمدنة. ولدينا العزم للسفر إلى هذه البلدان الثلاثة (رنية، وتربة، والخرمة) من أجل تدوين مشاهداتنا عن أرضها وسكانها، ونرجو من الله عز وجل أن ييسر ذلك حتى يكون في وقت قريب (بإذن الله تعالى).

(٣) للمزيد عن هؤلاء الجغرافيين المذكورين في هذه الدراسة، انظر نبذ تراجمهم وسيرهم الذاتية في صفحات سابقة من هذا البحث، وكذلك في مقدمات كتبهم ودراساتهم التي وصلتنا مطبوعة ومنشورة.

(٤) معظم أراضي هذه المناطق تتبع الإمارة مكة المكرمة، وأجزاء أخرى وبخاصة ما هو قريباً من الخرمة وما يقع شرقها تتبع لإمارة الرياض. والمسافة بين حواضر هذه البلدان ومراجعها الرئيسة في مكة أو الرياض بعيدة جداً، وعامل البعد يشكل عقبة كبيرة على حياة الناس، وعلى سير الخدمات والتنمية في هذه البلدان الثلاث.

ونقترح أن تستقل هذه البلدان بإمارة مستقلة، مثلها مثل إمارة الرياض، أو إمارة مكة المكرمة، أو غيرهما، فهي جديرة بذلك، ولديها المؤهلات الرئيسة التي تمكنها من الاستقلال بإمارة عامة ورئيسة .

٢. من المؤكد أن سكان هذه البلدات الثلاث يعانون في إنجاز مصالحهم الإدارية والوظيفية، وذلك لتبعية جميع المؤسسات الإدارية في هذه النواحي إلى الإدارات الأم في كل من مكة والرياض، وإن أصبحت هذه المنطقة إمارة رئيسة، فسوف تخفف الأعباء والصعوبات على المواطنين في كل الإدارات الحكومية الأخرى، لأن كل إدارة فرعية في هذه النواحي سوف تتحول إلى إدارة رئيسة تقوم على خدمة الأرض والسكان، ونأمل أن يتحقق المطلب السابق ذكره، في البند رقم (١) وذلك مما سوف يدفع عجلة التطور والتنمية إلى الأمام [١].

٣. إن التعليم العالي من الركائز المهمة التي تطور المجتمعات وتبنيها، وبلاد رنية، وتربة والخرمة بحاجة إلى مؤسسات تعليم عالية، نعم إن هناك كليات محدودة، تستمد قراراتها من جامعات رئيسة في الحجاز مثل: جامعتي أم القرى، والطائف، ولكن رنية وتربة وما حولهما في حاجة ماسة إلى جامعة تخدم أبناء وبنات هذه النواحي، بل إن إنشاء جامعة يعد ضرورة ملحة، تخدم طلاب هذه الأوطان التي تقطع مئات الكيلومترات من أجل الدراسة في جامعات أخرى [٢].

٤. في هذه الحواضر الثلاث (رِنية، وتربة، والخرمة) بعض الأعيان، والوجهاء، والأغنياء، وعليهم جميعًا مسؤوليات كبيرة تجاه بلادهم، فيقومون على خدمتها ثقافيا ومعرفيا وتنمويا، ولو قام كل واحد منهم بما يجب عليه تجاه مجتمعه، فسوف تكون النتيجة إيجابية (بإذن الله تعالى) .

---

(١) هذا المطلب، في اعتقادي مبتغى كل فرد من أهل الخرمة، ورنية، وتربة، وذلك لن يكون صعباً على الدولة التي تعمل جاهدة في تحقيق الاستقرار والرفاهية لأبناء المملكة العربية السعودية، وهذه سياسة متبعة عند حكام هذه الدولة المسلمة الراشدة.

(٢) من خلال عملي في الجامعة وزياراتي المتكررة لجامعات الرياض والحجاز، فإنني رأيت وسمعت وقابلت عشرات الطلاب من تربة ورنية وهم يدرسون في هذه الجامعات الكبيرة، ونقول إن بلادهم بحاجة إلى جامعة تخدم سكان تلك البلاد تعليميا وتنمويا .

٥. هـذه البلـدان المعروفة عند بعض الباحثين باسـم (أرض الوديان) بحاجة إلى مراكز بحوث متخصصـة، ومكتبات مركزية، بل تستحق أن يصدر عنها عشرات الدراسات الأكاديمية التي تخدم سكانها وأرضها، وفي النقاط الآتية أذكر عدداً من العناوين المهمة والجديرة بالبحث والتدوين، وهي:

أ ـ تاريخ وحضـارة الخرمة ورنية وتربة قبيل الإسـلام، وهذه الدراسة يجب أن تشـمل الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والفكرية . ودراسة الآثار والنقوش، وتلك الحقبة جديرة بالبحث والدراسة .

ب ـ التاريخ الحضـاري والسياسـي لهـذه البلدان الثلاثة خلال العشـرة قرون الإسـلامية الأولى (ق١ق١٠هـ/ق٧ـ ١٦م) ، وهذه الفترة الزمنية الطويلة تسـتحق مئات الدراسات السياسية، والاقتصـادية، والثقافية التعليمية، والاجتماعية . كما أن الأعلام الذين عاشوا في تلك البلاد يستحقون الدراسة وتدوين سيرهم.

ج ـ التاريـخ الحديث والمعاصـر أي مـن القرن (ق١١ـ١٥هــ/ق١٧ـ٢١م) فترة زمنية طويلة، وبحاجة إلى مئات الكتب والبحوث والرسائل العلمية الأكاديمية، وفي شتى المجالات السياسـية والإدارية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية . وهذه الفترة ربما تكون أفضل من القرون السابقة، وذلك لقربها من بعض الأحداث التي وقعت في هذه الأوطان أو القريبة منها، ثم لتوفر بعض المصـادر والوثائق الخاصـة بهذه الفترة الحديثة والمعاصرة[١] .

د ـ التطـور الحضـاري المعاصـر في رنيـة، والخرمـة، وتربـة جديـرة بالبحث والدراسـة، والملحوظ أن عموم أجزاء المملكة العربية السـعودية تعيش عصر تنمية منذ أربعين عاماً، وهذا النمو الحضـاري يسـتحق التوثيق والتدوين، ومن ثم فهذه البلاد كغيرها، تحتاج إلى من يدرس تاريخها المعاصر ويوثقه[٢] .

---

(١) نعم الكتابة في العصـر الحديث والمعاصـر أسـهل من الأزمنة السـابقة، لوجود المصـادر والمراجع إلى حد ما ، وذلك مقارنة بفترات التاريخ القديم أو الإسلامي المبكر والوسيط والحديث، وليس ذلك في رنية وتربة والخرمة فقط، وإنما في عموم أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة البلدان البعيدة عن مراكز الحضارة الرئيسة .

(٢) نأمـل أن نرى من أبناء الخرمة ورنية وتربة، وبخاصـة المثقفـين وأرباب التعليم منهم من يجتهد في خدمة بلاده كل في مجاله وتخصصه العلمي، وإن فعلوا ذلك فسوف يخرجون لنا أعمالاً علمية وثقافية تصب في خدمة هذه البلاد .

٦- الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين*

* نُشر في كتاب:
القول المكتوب في تاريخ الجنوب
ط١: ١٤٣٩هـ، الرياض، مطابع الحميضي، ج١٣،
ص ص ١٣ - ٨٧

الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين المسلمين وغير المسلمين

أولاً: تمهيد:

الطائف مدينة حجازية قديمة، لها ذكر في كتب التراث الإسلامي، ولها تاريخ سياسي وحضاري عبر أطوار التاريخ[١]. وتأتي الطائف في المرتبة الثالثة أو الرابعة بعد مدن الحجاز الرئيسية (مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة)[٢]. وحاضرة

---

(١) عشرات المصادر التاريخية، واللغوية، والأدبية، والجغرافية، والتراجم وبعض كتب الأنساب، وعدد من كتب الفقه والسنة والتفاسير وغيرها أشارت إلى صور من تاريخ وحضارة بلاد الطائف. وفي وقتنا الحاضر كثرت الجامعات والأقسام والمراكز العلمية والبحثية، وعليها مسئوليات دراسة حواضر الجزيرة العربية، وحاضرة الطائف من البلدان الجديرة بالدراسة العلمية الموثقة. للمزيد انظر: محمد سعيد حسن آل كمال. الطائف (جغرافيتها، تاريخها، أنساب قبائلها). جمع وتعليق سليمان بن صالح آل كمال (الطائف: مكتبة المعارف، ١٤١٧هـ) (٢٠٩ صفحة)، مناحي ضاوي القثامي. تاريخ الطائف قديما وحديثا (الطائف: مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٤٠٧هـ) (الطبعة الثانية) (١٩٢ صفحة)، عبدالجبار منسي العبيدي. الطائف ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية (الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) (٢٦٤ صفحة)، ناصر بن علي الحارثي. النقوش العربية المبكرة في محافظة الطائف (الطائف: دار الحارثي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) (الطبعة الثانية) (موسوعة الآثار الإسلامية في محافظة الطائف/٢) (٢٨٢ صفحة)، محمد أحمد العقيلي. سوق عكاظ (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م (٢١٦ صفحة).

(٢) كانت الطائف في المرتبة الثالثة قبل جدة، وبخاصة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، وأيضاً في عصر ما قبل الإسلام.

الطائف تقع في أقصى الجهة الشمالية من بلاد السرو، وهي حلقة الوصل بين مكة المكرمة وبلاد السراة الممتدة من قعر الطائف إلى صعدة وصنعاء في بلاد اليمن[١]. ولسنا في هذا القسم معنيين برصد تاريخها السياسي والحضاري خلال العصور القديمة والإسلامية، فهذا ميدان يدرس في عشرات الكتب والبحوث، لكننا قصرنا الحديث على ذكرها عند بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالين، الذين كتبوا عنها، أو زاروها، أو عاشوا فيها منذ القرن الثاني إلى الخامس عشر الهجريين (ق٨-٢١م)، ولا ندعي في هذا المبحث أننا أتينا على جميع المؤرخين والرحالة الذين ذكروا مدينة الطائف، ولذا أوردنا في العنوان كلمة (بعض) حتى نتجنب النقد، أو المغالطات التاريخية[٢]. وهناك بعض الأسباب التي جعلتنا ننشر دراسة بهذا العنوان: **الطائف في عيون بعض المؤرخين والرحالين المتقدمين والمتأخرين، المسلمين وغير المسلمين**. ومنها:

١. سبق أن درسنا ونشرنا دراسات مماثلة في سلسلة كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب، وغيره عن بلدان ومناطق عديدة في تهامة والسراة[٣]. وكون بلاد الطائف جزءاً من أرض السروات فقد عزمنا على ذكر أهمية هذه الناحية عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين وغير المسلمين عبر أطوار التاريخ الإسلامي.

٢. محاولة إطلاع القارئ والباحث الكريمين على أهمية الطائف عند شريحة من العلماء، وهم المؤرخون والجغرافيون، ولذا فقد أوردنا (٦٧) مؤرخاً، وجغرافياً، ورحالة، ذكروا الطائف، منهم الذي كتب عنها نقلاً من بعض

(١) الدارس لكتب التراث الاسلامي يجد صلات تاريخية وحضارية بين الطائف ومكة المكرمة وبينها وبين بلاد السرو في مناطق السياحة وعسير ونجران وحواضر اليمن الكبرى. وهذا الموضوع لم يدرس في هيئة كتب ورسائل علمية، ويجب على جامعات الطائف، وأم القرى، والباحة، والملك خالد أن تدرس هذا الباب المهم الجدير بالدراسة والتوثيق.

(٢) كون مدينة الطائف مصيف أهل مكة وجدة، ثم وقوعها في مكان يربط مكة مع السروات ومع وسط شبه الجزيرة العربية وشرقها، فلا بد أنها كانت وما زالت مرتادة بالكثير من شرائح المجتمع الداخلي والعالم الخارجي، ومما لا شك فيه أنه زارها وشاهد معالمها الكثير من العلماء والمؤرخين والجغرافيين والصحفيين وأرباب القلم، وفيهم من دون شيئاً من تاريخها وتراثها، لكننا لم نستطع الاطلاع عليه، ربما لضياعه، أو وجوده في بعض الأمكنة التي لا نعرفها، ولهذا أوردنا مفردة (بعض) في عنوان القسم الرئيسي.

(٣) للمزيد انظر، سلسلة: كتاب القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص٣٢١-٣٩٤. جـ٤، ص ٢٣-٨٦، جـ٥، ص ٢١-٩١. جـ٩، ص ١٣١-١٩٤. المؤلف نفسه. بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠-ق١٥هـ/ق١٦-ق٢١م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ١٦١-٢٢٩.

الرواة أو المصادر التراثية، ومنهم من زارها وشاهد معالمها ودون شيئاً من تاريخها السياسي والحضاري، ومنهم أيضاً من جاء إليها واستوطنها سنوات عديدة، وبعضهم مات فيها، وألف كتباً وبحوثاً عنها وعن فضائلها وما قيل عنها في بعض كتب التراث الإسلامي[١].

٣. يجب أن نعلم أهمية مكة المكرمة لحاضرة الطائف، فالمكيون من قديم الزمان كانوا وما زالوا على صلة قوية بالطائف وأهلها، وهذا الأمر أثر على كثير من المؤرخين والرحالين الذين كتبوا عن الطائف، حيث كانوا يزورون أولاً المدن المقدسة (مكة والمدنية)، وبالتالي يسمعون عن بلاد الطائف في أرض السراة، ومنهم من يسأل عنها ويبحث عن ذكرها في المصادر، ومنهم من يذهب إلى الطائف ويتجول في أرجائها ثم يكتب صفحات من تاريخها[٢].

٤. لا ندعي الكمال في كل ما جمعناه ووثقناه في هذا السفر، لكننا واثقون من جمع ودراسة معلومات متنوعة عند كثير من المؤرخين والرحالين والجغرافيين، وهذا مما قد يبث في نفوس بعض الباحثين الجادين العزم والإصرار فيستكملون ما قصرنا في دراسته، أو نقد ما وقعنا فيه من تجاوزات وأخطاء غير مقصودة، أو دراسة وتحليل ومقارنة موضوعات وجوانب تصب في خدمة البحث في تاريخ وحضارة حاضرة الطائف.

٥. نأمل أن نرى من الباحثين والمؤرخين في محافظة الطائف أو جامعتها، أو مدن الحجاز الأخرى من يدرس تاريخ وتراث وحضارة هذا المدينة التاريخية عبر أطوار التاريخ. وأقول إن حاضرة الطائف ما زالت بحاجة كبيرة إلى دراسة أرضها وسكانها وتراثها وحضارتها، وهذا ما نتطلع إليه من بناتنا وأبنائنا الباحثين المدققين الجادين.

---

(١) وأقول إن بعض هؤلاء المؤرخين والرحالين المذكورين في هذا القسم، الذين كتبوا صوراً من تاريخ الطائف وحضارتها يستحقون أن يفرد لهم دراسات مستقلة مع التركيز على ما دونوه وحفظوه لنا عن مدن الحجاز الرئيسية مثل الطائف ومكة والمدنية المنورة. ونأمل أن نرى بعض طالباتنا وطلابنا في أقسام التاريخ في الجامعات السعودية، في برامج الدراسات العليا، يدرسون مثل هذه الموضوعات التي تستحق أن تكون عناوين لرسائل ماجستير أو دكتوراه.

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر صفحات قادمة في هذا القسم وسوف تجد المنهج الذي اتبعه كل مؤرخ أو جغرافي أو رحالة في الكتابة عن الطائف.

ثانياً: التعريف بالمؤرخين والرحالين ومدوناتهم:

١- عرام بن الأصبغ السلمي (ق٢-٣هـ/ق٨-٩م):

لا نجد معلومات دقيقة عن مولده وحياته، وإنما عرف في بعض كتب التراث الإسلامي باسم (عرام بن الأصبغ السلمي)، والسلمي نسبة إلى قبيلة بني سليم، ويذكر أنه دخل خراسان مع أحد أمراء بني طاهر عام (٢١٧هـ/٨٣٢م)[(١)].

وكتاب عرام الوحيد الذي وصلنا هو: أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه[(٢)]. وهذا الكتاب صغير في حجمه وعدد صفحاته، لكنه يحتوي على معلومات قيمة عن بلاد الحجاز وتهامة والسراة. وكون مدينة الطائف تقع في أرض السروات وقريبة من حاضرة الحجاز (مكة المكرمة)، فقد أشار عرام إلى تعدد النباتات وأشجار الفواكه في سروات الطائف وما جاورها من بلاد السراة[(٣)]. ويقول: "بين مكة والطائف قرية يقال لها راسب لخثعم، والجونه: قرية للأنصار والمعدن (معدن البرم)، وهي كثيرة النخل والزروع، والمياه مياه آبار يسقون زروعهم بالزرانيق"[(٤)]. ويتحدث عن الطائف، فيقول: "... الطائف ذات مزارع ونخيل وموز وأعناب وسائر الفواكه، وبها مياه جارية، وأودية تنصب من تبالة. وجل أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش، وغوث من اليمن، وهي من أمهات القرى. ومطار: قرية من قراها كثيرة الزرع والموز... وبالطائف منبر..."[(٥)].

---

(١) انظر مقدمة كتاب: أسماء جبال تهامة وسكانها... تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، ص ٣٧٦، ٣٧٨. انظر أيضاً غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير، نجران، جازان، رنية، تربة، الخرمة) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م)، (الجزء التاسع)، ص١٣٧.

(٢) هذا الكتاب برواية السيرافي الذي أسنده إلى عرام بن الأصبغ السلمي، وقد قام الأستاذ عبدالسلام هارون بتحقيقه ونشره عام (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، في سلسلة (نوادر المخطوطات، مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة).

(٣) المصدر نفسه، ص ٤١٧-٤١٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤١٩-٤٢٠. عندما نبحث عن هذه المواضع التي ذكرها عرام لا نجد لها ذكراً عند أهل الطائف وبخاصة بلاد راسب والجونة، وربما تكون الجونه هي الحوية المعروفة اليوم. أما معدن البرم فما زال معروفاً باسم المعدن حتى اليوم، ويقع في بلاد عدوان من محافظة الطائف، وهو واد فيه قرى وسكان. المصدر: مشاهدات الباحث عام (١٤٣٧هـ/٢٠١٦م).

(٥) عرام السلمي، أسماء جبال تهامة، ص ٤٢٠-٤٢١. ويبدو أن عرام يذكر هذه التفصيلات عن الطائف نقلاً من بعض الرواة أو بعض المصادر، فهو إن كان جغرافياً ورحالة أنه لا يدون معلوماته من مشاهداته للطائف، ومعظم حياته قضاها في بلاد العراق وفارس. أما قوله إن في الطائف أودية تنصب من تبالة، فهذا قول غير صحيح، لأن تبالة في أرض السروات وتبعد عن الطائف عشرات الكيلومترات، ومياه تبالة تصب في وادي بيشة. مشاهدات الباحث وزياراته لتبالة وبيشة وأجزاء من السروات. انظر أيضاً: القول المكتوب في تاريخ الجنوب. (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)، جـ١١، ص ٣٤٠ وما بعدها.

٢- أبو القاسم عبدالله أو (عبيدالله) بن خرداذبة (ق٣هـ/ق٩م):

ابن خرداذبة من مواليد خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م)، وقيل سنة (٢١١هـ/٨٢٦م)، وتوفي عام (٢٧٢هـ / ٨٨٥م)، وقيل سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م)، تولى إدارة البريد في بعض مدن فارس والعراق في عصر الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٠-٢٥٥هـ/ ٨٦٤-٨٦٨م). وهو من أوائل الجغرافيين المسلمين، وله مؤلفات عديدة بعضها لم يصلنا، أما البعض الآخر فيمكن التعرف عليه من خلال اقتباسات المسعودي، وأشهر كتبه: المسالك والممالك[١]، الذي اعتنى بتحقيقه المستشرق الهولندي دي خوية، ونشره سنة (١٨٨٩م).

تحدث ابن خرداذبة في كتابه (المسالك) عن بلدان عديدة في العالم الإسلامي آنذاك، والهدف من هذا الكتاب هو التعريف بالطرقات الواصلة بين بغداد والمدن الإسلامية الأخرى، وكذلك المسالك بين جميع هذه المدن. وقد فصل الحديث في محطات الطرق التي تصل إلى أرض الحرمين من داخل الجزيرة العربية[٢]. وعدد مخاليف مكة وذكر منها الطائف، وقرن المنازل، وعكاظ[٣]. وأشار إلى الطريق من مكة إلى الطائف فقال: "من مكة إلى بئر ابن المرتفع، ثم إلى قرن المنازل، وهي ميقات أهل اليمن والطائف، ثم إلى الطائف. ومن أراد من مكة إلى الطائف على طريق العقبة يأتي عرفات، ثم بطن نعمان، ثم يصعد إلى عقبة حراء[٤]، ثم يشرف على الطائف، ويهبط ويصعد عقبة خفيفة، ثم يدخل الطائف"[٥]. وفي الطريق من مكة إلى اليمن يدون بعض المحطات التي تقع ضمن حاضرة الطائف، ويذكر شيئاً من أوصافها الطبيعية أو الحضارية مثل: بئر ابن المرتفع، وقرن المنازل قرية عظيمة، ثم الفتق قرية كبيرة[٦]. ونجد معلومات ابن خرداذبة صحيحة ودقيقة، لكنه لا يسهب في التفصيلات، ويبدو أنه قد زار الحجاز وبخاصة مكة المكرمة

---

(١) هذا الكتاب من مطبوعات بريل في مدينة ليدن في هولندا عام (١٣٠٦هـ/١٨٨٩م)، وللمزيد عن ابن خرداذبة وكتابه: المسالك والممالك، انظر غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٣٨-١٣٩، أحمد رمضان أحمد. الرحلة والرحالة المسلمون (جدة: دار البيان العربي، د.ت)، ص ٥٥-٦٢.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٣٢ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٤) ذكر كلمة (حراء) والصحيح هو (الهدا) وما زالت معروفة بهذا الاسم حتى اليوم.

(٥) ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٣٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

والمدينة المنورة[١]، لكن لا نجد أي إشارة تؤكد زيارته للطائف، وربما حصل على معلوماته التي ذكرها من سجلات البريد التي كان يتولى بعض إداراته في العراق وفارس.

٣-أبو إسحاق الحربي، وأبو الفرج قدامة بن جعفر، واليعقوبي (ق٢-ق٤هـ/ق٨-ق١٠م)

هؤلاء العلماء الثلاثة عاشوا في الزمن الممتد من القرن الثاني إلى الرابع الهجري. فالإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي ولد في مدينة مرو بخراسان عام (١٩٨هـ/٨١٣م). وبرع في علوم شرعية ولغوية وأدبية وجغرافية وتاريخية. ومن أفضل كتبه في علم الجغرافيا والرحلات، كتاب المناسك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة[٢]. أما أبو الفرج قدامة بن جعفر فنشأ في العراق، وكان أبوه نصرانياً، والتحق بمعاهد العلم في بغداد، وأثبت نبوغه وتفوقه على أقرانه[٣]، فرُشح لتولي بعض الوظائف الإدارية والمالية، وهو ما يزال صغير السن، وبعد اعتناقه للإسلام عين سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) على رأس ديوان الخراج، واحتفظ بهذه الوظيفة حتى نهاية عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله عام (٣٢٥هـ/٩٣٧م). واقتضت وظيفته في ديوان الخراج أن يرتحل إلى معظم أقاليم الدولة العباسية، وحصل على خبرة عملية كبيرة جعلته عالما بالطرقات، والبلدان، وأحوال الناس وتاريخهم، وهذا ما جعله يدون عدداً من المؤلفات التي ضاع معظمها، ولم يصلنا إلاّ بعض نبذ من كتاب (صنعة الكتابة)، وهي الأقسام الأربعة الأخيرة التي أطلق عليها اسم كتاب (الخراج)[٤].

أما اليعقوبي، فهو أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، كان جده من موالي الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ولا نعرف سنة ميلاده[٥]، وهو مؤرخ، ورحالة وجغرافي، قام برحلات في إيران والهند ومصر وبلاد المغرب، وألف كتب في

---

(١) لم أجد أي مصدر يذكر ذلك، لكنه كان موظفاً في الدولة العباسية، ويشغل إدارات مهمة، هي البريد في بعض مدن العراق وما حولها، ومن المؤكد أن مثله يستطيع الذهاب إلى الحرمين لأداء مناسك الحج والعمرة.

(٢) قام حمد الجاسر بدراسة وتحقيق هذا الكتاب، وكتب له مقدمة طويلة تقع في (٢٧٢) صفحة ونشره عام (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

(٣) للمزيد عن أبي الفرج قدامة انظر أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٦٣-٧٠. لا نعرف تاريخ ميلاد أبي الفرج قدامة بن جعفر، أما وفاته فكانت عام (٣١٠هـ/٩٢٢م)، وقيل سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م).

(٤) كتاب الخراج لقدامة لا يختلف كثيراً في أسلوبه ومنهجه عن كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة، وقد اعتنى بدراسته وتحقيقه دي خوية سنة (١٨٨٩م)، ونشر في نهاية كتاب ابن خرداذبة السابق ذكره.

(٥) أما وفاته فكانت في عام (٢٨٤هـ/٨٩٧م).

التاريخ والجغرافيا، ومنها (كتاب البلدان)[١]، وهو من أفضل الكتب التي صنفت في موضوعه، ذكر فيه الأسفار التي قام بها والوظائف التي تقلدها في عصر الدولة الطاهرية بخراسان، والدولة الطولونية بمصر والشام[٢].

وكتاب أبي إسحاق الحربي يقع مع مقدماته وفهارسه في أكثر من ثمان مئة صفحة. ومادة الكتاب الأساسية تقع في حوالي (٣٨٠) صفحة تحدث عن بعض الصور التاريخية والحضارية في المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)، ثم فصل الحديث عن محطات الطرق التي تربط الحجاز مع غيرها من بلدان العالم الإسلامي مثل: "العراق، والشام، ومصر، واليمن. وأثناء حديثه عن طريق اليمن الجبلي إلى مكة ذكر المحطات التي تقع ضمن حاضرة الطائف، مثل: قرن المنازل، وهو محل الإحرام، وشرب وهو أيضا من أودية الطائف[٣]. وفي مكان آخر ذكر الطرق التي تربط بين مكة والطائف، ويشير إلى الطريق التي ذكرها ابن خرداذبة من عرفة إلى الهدا[٤] ثم الطائف[٥]. ويذكر طريق أخرى تخرج من مكة إلى الزيمة ثم إلى الطائف، ويستغرق المسافر في هذه الطريق ثلاثة أيام، والطريق الأخرى يومين[٦]. ويشير إلى معدن البرام الذي ذكره عرام السلمي فيقول: "... تخرج من الطائف إلى موضع يقال له معدن البرام، وهي مدينة كبيرة، بها منبر، وهو الموضع الذي تعمل فيه البرام، تنحت من جبل عظيم"[٧].

ويذكر أبو الفرج قدامة السكك التي تصل إلى الطائف من اليمن ثم تسير حتى مكة، ويوجز حديثه عن المحطات التي تقع ضمن محافظة الطائف فلا يذكر إلا محطة الفتق من شرق الطائف، ولا نجد لها ذكراً اليوم، ويذكر أنها اندثرت[٨].

---

(١) هذا الكتاب من مطبوعات بريل في ليدن (١٨٩١م)، ودراسة وتحقيق دي خوية، وهو ملحق بكتاب أحمد بن عمر بن رسته (الأعلاق النفيسة).

(٢) كما وصلنا كتاب تاريخي لهذا الرحالة عرف باسم (تاريخ اليعقوبي) ويقع في جزئين، الأول في التاريخ القديم، والثاني في التاريخ الإسلامي حتى عام (٢٥٩هـ/٨٧٢م). واشتهر اليعقوبي بميوله للعلويين وانتقاد معارضيهم مثل الأمويين وغيرهم. ويوجد في مؤلفاته مادة علمية قد لا نجدها عند غيره.

(٣) الحربي، كتاب المناسك، ص ٦٤٥. ويقع وادي شرب شمال الطائف ويصب في وداي الأخيضر، وفيه قرى بعضها لقبيلة عدوان. مشاهدات الباحث وجولاته في الطائف في عام (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م).

(٤) الحربي دون كلمة الهدا بهذه الصورة (الهدة)، ويقصد بها عقبة الهدا. انظر كتاب المناسك. ص ٦٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٥٣. انظر ابن خرداذبه، المسالك، ص ١٣٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٥٤.

(٧) الحربي، كتاب المناسك، ص ٦٥٤، انظر أيضاً عرام السلمي، أسماء جبال تهامة، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٨) انظر أبو الفرج قدامة، كتاب الخراج، تحقيق دي غول، الملحق بكتاب المسالك لابن خرداذبة، ص ١٩٢.

ويشـير أيضـاً إلى طرق الطائف مكة التي اشـار إليهـا ابن خرداذبة وأبو سـحاق الحربـي، ويذكر عدد المراحل بين مكة وقرن المنــازل، ومحطة وادي نعمان الواقعة على طريق الهدا، ويسـميه نعمان السـحاب لأن السحاب يطل على وادي نعمان من أعالي عقبة الهدا، وبعد أن يصـل المسـافر إلى رأس العقبة ينحدر ويصـعد "عقبة خفيفة تسمى تنعيم الطائف"(١). ولا يذكر شيئاً عن مدينة الطائف، لكنه يشير إلى بعض المحطات القريبة من حاضـرة الطائف في الجهات الشـرقية والجنوبية، مثل الفتق ثم تربة، ويقول عن الأخيرة، إنها قرية عظيمة بها عيون جارية وزروع(٢).

ويورد اليعقوبي معلومات مختصرة وقيمة عن بعض البلدات والقرى والمحطات الواقعة بين حواضـر اليمن والحجاز الكبرى، ويذكر الطائف في عبارات محدودة، فيقول: "والطائف مـن مكة على مرحلتين، والطائف منازل ثقيف، وهي من أعمال مكة، مضـمومة إلى أعمال مكـة"(٣). ومع محدودية هذه الأقوال، فإنها توضـح أن الطائـف تتبـع إدارياً لـوالي مكة، وكنت آمـل أن يكون هذا الرحالة فصّـل في هذه النقطة، وذكر شيئاً من التاريخ الحضاري والإداري لهذه الحاضرة الحجازية(٤).

٤- ابن الفقيه الهمذاني، وابن رسته، والاصطخري، وابن حوقل (ق٣-٤هـ/ق٩-١٠م):

ابـن الفقيه الهمذاني مـن رحالة وجغرافي القرن (٣هـ/٩م)، الذين ارتحلوا وكتبوا عن بلدان العالم الإسـلامي وبخاصـة أجزاء من بلاد العرب والحجاز، وقد وصـلنا من مؤلفاته (مختصـر كتاب البلدان) الذي ألفه سـنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، ونشـره المستشـرق دي غـوى بمطبعـة بريل في ليـدن. وهـذا الكتاب يشـتمل على تفصـيلات تاريخية وحضـارية عـن بلدان عديدة في الصـين والهنـد وبعض بلاد العـرب والمسـلمين(٥). أما ابن رسـته فهو أبو علـي أحمد بن عمر، وهـو من أعظم الجغرافيين والرحالة في القرن (٣هـ/٩م) الذين اسـتفادوا مـن الثقافة اليونانية والرومانية بعد ترجمتها ألف هذا الرحالة كتابه (الأعلاق النفيسـة) حوالي سـنة

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٣) اليعقوبي، البلدان، تحقيق دي غوى، وملحق مع كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته، ص ٣١٦.

(٤) الباحث في كتب التراث الإسلامي المبكرة يجد أن مكة حظيت بالنصيب الأوفر من التفصيلات عن تاريخها وحارتها، وإذا ذكرت المدن والبلدان القريبة منها مثل الطائف وجدة وغيرهما فلا نجد إلاّ شذرات قليلة لا تعطي صورة واضحة عن هذه المدن.

(٥) أبـو بكـر أحمـد بن محمـد الهمـذاني المعـروف بابـن الفقيه. مختصـر كتـاب البلـدان (ليـدن: بريل، ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م).

(٢٩٩هـ/٩٠٣م)، وطبع في المكتبة الجغرافية في ليدن مع كتاب (البلدان) لليعقوبي عام (٩١-١٨٩٢م)[1].

درس ابن رسته في القسم الأول من كتابه عجائب السموات والأرض، ووصف أقاليمها، كما تحدث عن النواحي الفلكية، وخص بلاد أصفهان، مسقط رأسه، بجزء كبير من كتابه، فذكر صفحات من تاريخها، كما أشار إلى نواحي عديدة في الجزيرة العربية وبخاصة أرض اليمن والحجاز[2]. أما الاصطخري، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخي، فلا نعرف عن ترجمته إلاّ القليل، ويبدو أنه ولد بإصطخر، في بلاد الشرق الإسلامي، وتحول إلى دار السلام، بغداد، وتوفي سنة (٣٤٠هـ/٩٥١م)، وكتابه الذي وصلنا سماه (مسالك الممالك)، وقد نشر في مطبعة بريل في ليدن عام (١٨٧٠م)، وطبع مرة ثانية في ليدن سنة (١٩٢٧م)، كما أعيد نشر الكتاب سنة (١٩٦١م) بتحقيق محمد جابر عبدالعال، بوزارة الثقافة والإرشاد بالقاهرة[3]. وذكر الاصطخري في مقدمة كتابه أسلوبه ومنهجه، وأشار إلى أنه ركز على مدن وبلدان الإسلام، وقسم البلاد الإسلامية إلى عشرين اقليما، وجعل مكة واسطة العقد في هذه الأقاليم. والجميل في هذا الكتاب أنه قارن المدن بعضها ببعض، وترك تحديد المسافات، كما فعل بعض الرحالة والجغرافيين الأوائل، وذلك رغبة منه في الاختصار وإعطاء فكرة واضحة ومبسطة، فمثلاً يقول: "وليس بالحجاز بعد مكة والمدينة أكبر من اليمامة، ويليها في الكبر وادي القرى، والجار ميناء المدينة، بيد أن جدة ميناء مكة، وليس بعد مكة أكثر مالاً وتجارة من جدة، وقوام تجارتها بالفرس"[4].

أما ابن حوقل، فهو أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي، ولد في نصيبين بالجزيرة الفراتية، ولا نعرف تاريخ مولده، إلا أنه عزم على السفر والترحال سنة (٣٣١هـ/٩٤٣م)، وبقي حوالي ثلاثين عاماً يجوب بلداناً عديدة في العالم الإسلامي. وقد لقي ابن حوقل الاصطخري سنة (٣٤٠هـ/٩٥٢م)، وكان الاصطخري قد عمل خارطة رديئة لبلاد السند، وخارطة أخرى جيدة لفارس، فأطلعه ابن حوقل على خارطتين من عمله، إحداهما لأذربيجان، والأخرى للجزيرة

---

(١) انظر: أبو علي أحمد بن عمر بن رسته. المجلد السابع من كتاب الاعلاق النفيسة (ليدن: بريل، ١٨٩١م).
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣ وما بعدها.
(٣) والطبعة التي اطلعنا عليها، هي طبعة بريل في ليدن عام (١٨٧٠م) وهي بتحقيق دي غوي.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨ وما بعدها.

فأعجب بهما الاصطخري، وطلب من ابن حوقل أن يعيد النظر في كتابه وينقحه ففعل ابن حوقل ذلك. وعندما الف ابن حوقل كتابه (المسالك والممالك) أو (صورة الأرض) [١]، فقد احتذى حذو الاصطخري، لكن خرائط ابن حوقل أدق وأشمل[٢]. تأثر ابن حوقل بالاصطخري واقتبس منه أشياء كثيرة وأضاف تفصيلات جديدة، وكان أسلوبه سهلاً واضحاً فلا سجع ولا محسنات بديعية فيه، وله اهتمام بالغ بالتجارة والجبايات، وإعجاب بالدولة الفاطمية وحكامها.

والرحالون الأربعة (ابن الفقيه، وابن رسته، والاصطخري، وابن حوقل) ذكروا بلاد الحجاز وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفصلوا الحديث عن الحرمين في هاتين المدينتين، وذكروا صوراً من تاريخ أهل هاتين المدينتين المقدستين، ثم أشاروا إلى نبذ من تاريخ الطائف. فابن الفقيه يذكر أن طول الحجاز من العرج إلى السراة إلى الطائف[٣]. ويضيف هذا الرحالة معلومات عن سراة الطائف فيذكر أن السروات ثلاث، أدناها بالطائف وأقصاها قرب صنعاء، ويقول: "والسروات أرض عالية، وجبال مشرقة على البحر من المغرب، وعلى نجد من المشرق. والطائف من سراة بني ثقيف وهو أدنى السروات إلى مكة، ومعدن البرام، هي السراة الثانية، بلاد عدوان في برية العرب، وبها معدن البلور، وهو أجود ما يكون..."[٤]. وفي عنوان جانبي يذكر ابن الفقيه (مدينة الطائف)، ويذكر أنها تسمى وج، وسميت الطائف بسبب السور الذي يحيط بها، ثم يقول: "وكانت الطائف مهرباً وملجأ لكل هارب، وبالطائف وهط عمرو بن العاص، وهو كرم كان يعرش على ألف ألف خشبة، شرى كل خشبة ألف درهم.."[٥].

أما ابن رسته فيذكر الطريقين اللتين تفصلان بين مكة المكرمة والطائف، ولم يذهب بعيداً عن وصف ابن خرداذبة، وأبي إسحاق الحربي، وأبي الفرج قدامة[٦]،

---

(١) هذا الكتاب طبع مع كتاب الاصطخري في جزئين في مطابع بريل في ليدن من عام (١٨٧٠-١٨٧٣م) وعني بتحقيقهما دي غوى، ثم أعيدت طباعة كتاب ابن حوقل عام (١٩٣٨م)، وهي النسخة التي اعتمدنا عليها.

(٢) هناك عدد كبير من الخرائط الخاصة بديار الإسلام، وكان للرحالة والجغرافيين في القرن (٤هـ/١٠م) فضل كبير في إعداد كثير من هذه الخرائط. انظر نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ٣٢.

(٣) ابن الفقيه، البلدان، ص ٢٧. وهناك تفصيلات مطولة عند المتقدمين عن حدود الحجاز والسروات وما يوجد في هذه البلاد من معالم جغرافية.

(٤) ابن الفقيه، البلدان. ص ٣١-٣٢.

(٥) ابن الفقيه، البلدان، ص ٢٢.

(٦) انظر ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٣٤، أبو إسحاق الحربي، كتاب المناسك، ص ٦٥٤، أبو الفرج قدامة، كتاب الخراج، ص١٩٢.

فأشار إلى بعض محطات الطريق التي تخرج من مكة إلى عرفة ثم إلى عقبة الهدا فالطائف[١]، والطريق الأخرى التي تخرج من مكة إلى قرن المنازل، وهو ميقات أهل اليمن للاحرام، وتسير منه إلى الطائف[٢]. ويذكر أن الطائف مخلاف من مخاليف مكة، ومن مخاليف مكة في أرض الحجاز والسروات "نجد نجران، وقرن، والفتق، وعكاظ، والطائف، وتربة، وبيشة، وتبالة، والهجيرة، وكتنه، وجرش، والسراة"[٣].

أما الاصطخري وابن حوقل فهما متشابهان فيما دونا عن بلاد ومدن وحواضر جزيرة العرب، وقد فصلا الحديث عن طبيعة الحرمين الشريفين، وذكرا بعض الصور التاريخية الأخرى الخاصة بأهل الحجاز في المدينة المنورة ومكة المكرمة، وبعض البلدان الأخرى في شبه الجزيرة العربية[٤]. ويذكر اشتهار الطائف بالدباغة وصناعة الأديم، ويشير إلى بلاد تهامة والسراة ويذكر بعض حدودها ومدنها وحواضرها الكبيرة مثل: صنعاء، وصعدة، ونجران، وجرش والطائف[٥]. ويدون ابن حوقل معلومات قيمة عن الطائف، وقد ذكرها الاصطخري أيضاً، فيقول: "الطائف مدينة صغيرة نحو وادي القرى كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها الزبيب، وهي طيبة الهواء، وفواكه مكة وبقولها منها، وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان ديار بني سعد، وسائر قبائل هذيل، وليس بالحجاز مكان أبرد من رأس هذا الجبل، ولذاك اعتدل هواء الطائف، وبلغني أنه ربما جمد الماء في ذروة هذا الجبل، وليس بالحجاز مكان يجمد فيه الماء سوى هذا الموضوع"[٦].

ومعظم هذه المعلومات حقيقية عن بلاد الطائف، لكنها ليست قريباً من وادي القرى كما ذكر ابن حوقل ومن قبله الاصطخري، وجبل غزوان في الطائف عالي الارتفاع، وفيه برودة شديدة أثناء فصل الشتاء، ويعتدل جوه في الصيف، لكنه

---

(١) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، تحقيق دي غوي (١٨٩١م) ص١٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٤) انظر ابن حوقل، صورة الأرض. (طبعة بريل في ليدن، ١٩٣٨م)، ص ١٨-٤١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٦، الاصطخري وابن حوقل وغيرهما من الجغرافيين والرحالين المسلمين الأوائل حفظوا لنا بعض الروايات والأخبار عن بلدان ومدن عديدة في اليمن والسروات وتهامة والحجاز. ونأمل أن نرى باحثين جادين يدرسون ما دون لنا هؤلاء العلماء المسلمون الأوائل.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٣.

ليس أعلى جبل في بلاد السروات الممتدة من الطائف إلى بلاد عسير وقحطان في الجنوب، وإنما هناك جبال أخرى في هذه النواحي أكثر ارتفاعاً وأشد برودة[١].

٥- أبو علي الهجري، ولسان اليمن الهمداني، وأبو الحسن المسعودي (ق٣-ق٤هـ/ق٩-ق١٠م):

أبو علي هارون بن زكريا الهجري، لا نعلم سنة ميلاده، لكنه من أهل القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهو من أهل الجزيرة العربية، ومن بلاد هجر في إقليم البحرين، كان عالماً باللغة والأدب والشعر وعلم الأنساب، وله مؤلفات عديدة، ضاع معظمها، وبعضها ما زال متناثراً في بعض كتب التراث الإسلامية المبكرة[٢]. ومن أهم كتبه، التي لها علاقة ببحثنا، كتاب: التعليقات والنوادر، كان موزعاً في عدد من المصادر والمخطوطات، وقام الأستاذ حمد الجاسر بجمعها وتنسيقها وترتيبها ونشرها في أربعة مجلدات[٣]. وفي هذا السفر تفصيلات قيمة عن تاريخ وحضارة سكان الجزيرة العربية. والمفيد في معلومات هذا الكتاب أنها جديدة، فقد جمعها صاحبها من رواة وشعراء وعلماء عصره داخل الجزيرة العربية[٤].

أما الهمداني، فهو أبو محمد الهمداني من بيت متوسط من بيوت بكيل، تنقل أجداده وابوه في نواحي عديدة من اليمن، وولد أبو محمد الهمداني في صنعاء، ولا نعرف بالدقة سنة ميلاده، لكنها كانت في العقود الأخيرة من القرن (٣هـ/٩م). نشأ هذا العالم اليمني في عصر تقدمت فيه العلوم والثقافة والأدب، وتفنن أهلها في التصنيف والتأليف، فشارك الهمداني في جميع معارف عصره من تاريخ وأنساب وجغرافية، ومساحة وفلك ودراسة الكواكب وغيرها، كما ارتحل وسافر إلى بلدان عديدة داخل الجزيرة العربية وخارجها، وجاب بلاد السروات والطائف وأقام في

(١) هؤلاء الجغرافيون القدماء حفظوا لنا معلومات قيمة عن بلاد الطائف والسروات لكنها قليلة، ومعظمهم لم يأتوا إلى هذه البلاد وإنما نقلوا رواياتهم من بعض الرواة وبعض المصادر التي وجدوها في عصرهم. وأقول إن بلاد السروات الممتدة من الطائف إلى نجران بحاجة إلى دراسات علمية جغرافية وتاريخية وحضارية وأثرية، ونأمل من الجامعات السعودية الموجودة في هذه النواحي أن تسخر مراكز بحوثها وطلابها وأساتذتها لدراسة أرض وسكان هذه البلاد.

(٢) للمزيد عن ترجمة هذا العالم انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٦، ص ١٤١-١٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

(٤) نعم هذا المصدر يشتمل على تفصيلاتٍ جديدة وقيمه يصعب أن نجد معظمها في مصادر أخرى، ولذا فإن هذا العالم والرحالة أسدى لنا معروفاً كبيراً، وحفظ لنا معلومات تاريخية وأدبية ولغوية وحضارية كادتٍ أن تضيع. للمزيد انظر، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٤١-١٤٢، وانظر أيضاً مقدمات حمد الجاسر عن هذا الكتاب وصاحبه في طيات الكتاب نفسه.

مكة المكرمة مدة طويلة، وتعلم على بعض شيوخها. وله مؤلفات عديدة مثل: الإكليل في عشرة أجزاء، وكتاب الجوهرتين العتيقتين، وكتاب الدامغة، وكتاب صفة جزيرة العرب، وهو المصدر الذي يهمنا في هذه الدراسة[١].

أما أبو الحسن المسعودي فقد ولِد في بغداد، ويذكر أن أصله من بلاد المغرب، وفي عام (٣٠٣هـ/٩١٥م) انتقل وهو شاباً إلى بلاد فارس، وتنقل في بلدان عربية وإسلامية وغير إسلامية، ولم يحصر اهتماماته في الجغرافيا وإنما ألف مؤلفات كثيرة وفي علوم عديدة يذكر أنها بلغت الثلاثين مجلداً، ولم يصلنا منها إلاّ كتاب (التنبيه والإشراف) وهو من آخر مصنفاته، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذي حقق وترجم إلى الفرنسية لأول مرة بين عامي (١٨٦١، ١٨٧٧م) وصدر في تسعة مجلدات، ثم طبع في البلاد العربية طبعات عديدة، وقد اعتمدنا في بحثنا طبعة دار الأندلس في بيروت، التي دققها ووضع فهارسها يوسف أسعد داغر، ويقع في أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين[٢].

ونجد أبا علي الهجري والمسعودي يدونان نتفاً يسيرة عن الطائف، فالأول أشار إلى عشائر عدوان وهلال من عامر ويذكر بعض الأعلام والرواة الذين أخذ عنهم أو دون شيئاً من أشعارهم مثل: محمد بن يعقوب الخارجي، ومرداس بن عبدالرحمن السعدي، والأحزم الهلالي، والأعيمش، والحسن بن عامر الرويبي، وابو الرماح الهلالي[٣]. كما يذكر هذا الرحالة بعض الحروب التي وقعت في ديار بني هلال وما جرى فيها من أحداث، وبعض الأشعار التي ذكرت عنها[٤].

أشار أبو الحسن المسعودي إلى بعض أعلام الطائف في الجاهلية والإسلام مثل: أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي كان حياً عندما ظهر الإسلام في الحجاز،

(١) انظر أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٩٥-١٠٠، عبدالمجيد الذويب "الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية" بحث منشور في كتاب دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، الجزء الثاني، الذي صدر ضمن أبحاث الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٢٨٨.
وللمزيد انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٤٤، ومقدمات المحققين الذين حققوا بعض كتب الهمداني، مثل محمد بن علي الأكوع، ومحب الدين الخطيب.

(٢) انظر هذا الكتاب في طبعته السادسة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). وللمزيد عن تاريخ وحياة المسعودي المتوفى عام (٣٤٦هـ/٩٥٦م)، انظر عبدالمجيد الذويب "الجغرافيون العرب، ص ٢٨٨، أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٠١-١١٦.

(٣) انظر التعليقات والنوادر لأبي علي هارون الهجري، دراسة وترتيب حمد الجاسر (الرياض، ١٤١٣هـ/١٩١٢م)، القسم الأول، ص ٦٤، ٩٦-٩٧، ١٣٦-١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، القسم الثاني، ص ٥٧٤-٥٧٥، والقسم الثالث، ص ١٤١٤-١٤١٥، ١٤٣٠-١٤٣١.

ولم يدخل فيه، مع أنه كان يعرف صدق هذا الدين في توحيد العبادة لله، وله بعض الأشعار التي تدل على صلاح هذا الدين، وصدق نبوة الرسول محمد (ﷺ)[١]. كما أشار إلى مرور حملة أبرهة الحبشي من بلاد الطائف عندما خرج من اليمن إلى الحجاز بهدف هدم الكعبة، وأشار إلى بعض سكان الطائف في عصور ما قبل الإسلام[٢]. ويدون هذا المؤرخ وصفاً غير دقيق عن طبيعة الحجاز وأثرها على الصحة فيقول: "أما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم، هواؤه حرورة، وليله بهور[٣]، ينحف الأجسام ويجفف الأدمغة، ويشجع القلوب، ويبسط الهمم، ويبعث على الإحن، وهو بلد محل قحط جدب ضنك.."[٤].

أما لسان اليمن الهمداني فيكتب معلومات أشمل وأدق عن الطائف وما جاورها من البلدان، ويشير إلى عظم جبل غزوان، ويسرد بعض السروات في الطائف أو القريبة منها، فيقول: "سراة بني شبابة وعدوان وغورهم الليث ومركوب فيلملم، ونجدهم في عدوان مما يصلى مطار، ثم سراة الطائف غورها مكة، ونجدها ديار هوزان من عكاظ.."[٥]. ويفصل الحديث عن حاضرة الطائف، فيقول: "الطائف مدينة قديمة جاهلية، وهي بلد الدباغ، يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة، وتسمى المدينة أيضاً الطائف، والمعنى مدينة الطائف، وساكن الطائف ثقيف، ويسكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص، وواد قريب من الطائف، يقال له برد فيه حائطان لزبيدة عظيمان يقال لموضعهما وج، وبشرق الطائف واد يقال له لية يسكنه بنو نصر من هوازن، ومن يماني الطائف واد يقال له جفن لثقيف، وهو بين الطائف وبين معدن البرام، ويسكن معدن البرام قريش وثقيف، ومن قبيلة الطائف أيضاً واد يقال له مشريق لبني أمية من قريش، ووادي جلذان..."[٦]. ومن هذا

---

(١) انظر، مروج الذهب، ومعادن الجوهر للمسعودي، (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، مج١، جـ١، ص٨٤-٨٥.

(٢) المصدر نفسه، مج١، جـ٢، ص ٥٣، ١٢١.

(٣) ذكر محقق الكتاب أن كلمة (بهور) وردت في بعض النسخ المخطوطة (سهور)، وربما كانت الكلمة الأخيرة أقرب إلى الصحة.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، مج١، جـ٢، ص ٣٥.

(٥) انظر لسان اليمن الحسن الهمداني. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص١٢٠، ٢٥٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

الوصف الذي يذكر لنا هذه الرحالة عن الطائف في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما نشاهده في محافظة الطائف اليوم نجد أن معظم الأمكنة والسكان المذكورين عند الهمداني ما زالوا في مواطنهم القديمة حتى وقتنا الحاضر[١].

ويصف هذا الجغرافي محطات الطريق الذي يخرج من صنعاء إلى الطائف ومكة، ومن المحطات الواقعة في محيط محافظة الطائف قرن، أو قرن المنازل والمقصود به السيل الكبير، ومن قرن المنازل إلى الزيمة[٢]. ويذكر قصيدة طويلة لجماعة البارقي الذي ذكر خروج الأزد من اليمن وتوزعهم في جزيرة العرب، ومنها بلاد السراة الممتدة من اليمن إلى الطائف فقال:

حلت الأزد بعد مأربها الغو ... رفأرض الحجاز فالسروات[٣]

وقال أيضاً:

ملكوا الطود من سروم إلى الطا ... ئف بالبأس منهم والثبات[٤]

ويذكر أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الرداعي، ويشير إلى بعض محطات الطريق الواقعة في محيط الطائف، مثل عكاظ وغيرها، فيقول:

سل الهدى عن قلبك المغتاظ ... والعيس تطوي الأرض بالمظاظ[٥]
مشفقة من زاجر كظاظ ... مسهلة للخبت من عكاظ[٦]
طوت فجاج الأرض باندعاظ[٧] ... بمجمرات[٨] صلب غلاظ[٩]

(١) هذا ما عرفه الباحث أثناء تجواله في محافظة الطائف في عام (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م). للمزيد انظر رحلتنا الميدانية في هذه البلاد في القسم الثاني من هذا المجلد.

(٢) فصل الحديث عن المحطات الواقعة بين تربة والزرعة، مع ذكر المسافات ودرجات الطول والعرض. للمزيد انظر، صفة جزيرة العرب، ص٣٤٠-٣٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٣.

(٥) المظاظ: المغاشة والمشاقة.

(٦) عكاظ: سوق العرب القديمة وهي في ديار بني هلال وبعض عشائر عتيبة اليوم.

(٧) الاندعاظ: الاندفاع.

(٨) المجمرات: الخف المستدير الصليب الجوانب.

(٩) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٤٣٧.

٦- المقدسي، وناصر خسرو، وأبو عبدالله البكري (من ٤- ٥هـ/ق١٠- ق١١م):

أبو عبدالله بن أبي بكر المقدسي، المعروف بالبشاري، ولد في بيت المقدس، ولا نعرف سنة ميلاده، لكنه جاب بلدان عديدة في جزيرة العرب، والشام، ومصر، والعراق، والمغرب، وبلاد فارس وكرمان والسند، ولم يزر الأندلس، والبلاد الأوروبية، وبلاد الشرق الأقصى، وبعد هذه الرحلات المتعددة وضع كتابه الموسوم بـ: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، في مدينة شيراز عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م)، وكان عمره آنذاك حوالي أربعين سنة. ويقول عن هذا الكتاب أنه أسسه على قواعد محكمة، فأعلى قواعده، ورص بنيانه. وقد اعتنى بدراسته وتحقيقه دي خوية، وطبع في مطبعة بريل في ليدن عام (١٨٧٦م) [١]. وفي حوالي (٤٦) صفحة دون معلومات قيمة عن جزيرة العرب[٢].

أما ناصر خسرو فهو من مواليد مدينة بلخ في شرق العالم الإسلامي عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م)، خدم في بعض الأعمال الإدارية في عهدي الدولتين الغزنوية والسلجوقية، وتبحر في بعض العلوم والثقافات، ثم زار بلداناً عديدة مثل: بلاد فارس، والعراق، والشام، وذهب إلى الحجاز للحج مرات عديدة، ودون مشاهداته في كتابه المعروف بـ: سفر نامه رحلة ناصر خسرو القبادياني. وهذا الكتاب من القطع الصغير، ويقع في (٢٠٦) صفحة[٣].

أما البكري، فهو أبو عبيد الله عبدالعزيز بن ابي زيد البكري من أهل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ولا نعرف سنة ميلاده، إلاّ أنه ولد وعاش بدايات حياته في الأندلس، وهو من نسل أسرة من الأمراء حكمت في بعض مدن الأندلس في عصر بني عباد، ملوك أشبيلية. اهتم بالعلم والثقافة منذ وقت مبكر، وتفوق في علوم لغوية وأدبية وتاريخية وجغرافية عديدة، وله مؤلفات عديدة، من أهمها كتابه الجغرافي الموسوعي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع[٤]، وهذا المصدر الذي يعنينا في هذه الدراسة[٥].

---

(١) انظر الصفحات الأولى من الكتاب، ص ٢-٦٦.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٦٧-١١٣. للمزيد انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص١٤٩-١٥٠.

(٣) هذا المصدر كُتب باللغة الفارسية وترجمه إلى اللغة العربية الدكتور/ أحمد خالد البدلي، وطبع في مطابع جامعة الملك سعود عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٤) هذا الكتاب يقع في أربعة أجزاء وقام بدراسته وتحقيقه مصطفى السقا، وطبع في عالم الكتب في بيروت، وقد اعتمدنا على الطبعة الثالثة التي صدرت عام (١٤٠٣هـ /١٩٨٣م).

(٥) أول طبعة صدرت من هذا الكتاب كانت في باريس عام (١٨٧٢م)، وقام بدراسته وتحقيقه المستشرق وستنفلد، ثم طبعه مصطفى السقاء الطبعة الأولى في القاهرة، وكان ذلك بين عامي (١٩٤٥، ١٩٥١م)، وصدر وقتها في أربعة أجزاء.

ونجد المقدسي يورد تفصيلات جيدة عن مدن وحواضر في الجزيرة العربية، ويعدد أهم مدن الحجاز ويذكر الطائف واحدة من تلك الحواضر[١]. ويذكر السروات الممتدة من صنعاء إلى الطائف فيثني على طبيعتها الجغرافية، وجودة هوائها، وغنى أرضها بالزروع والثروات الاقتصادية، وهو لم يزرها، لكنه يدون ما سمع عنها، فيقول: "والسروات معدن الحبوب والخيرات، والتمور الرديئة والعسل الكثير، ولا أدري هي مدن أم قرى لأني ما دخلتها"[٢]. وكثير من المؤرخين والجغرافيين والعلماء الأوائل لم يزوروا بلاد السراة وهذا مما جعل ذكرها في كتب التراث الإسلامي محدوداً، وأحياناً نادراً، وهذه المشكلة استمرت حتى القرن (١٣هـ/١٩م)، فلا نجد لها تاريخ واضحاً يذكر حياة أهلها السياسية والحضارية[٣].

ويحفظ لنا المقدسي بعض المعلومات المختصرة عن الطائف، فيقول إنها: "مدينة صغيرة شامية الهواء، باردة الماء، أكثر فواكه مكة منها، موضع الرمان الكثير والزبيب والعنب الجيد، والفواكه الحسنة، وهي على ظهر جبل غزوان، ربما يجلد بها الماء، عامتها مدابغ، إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها"[٤]. وينقل قولاً لابن عباس في قوله: رحلة الشتاء والصيف، قال كان المكيون يشتون في مكة ويصيفون بالطائف[٥]. كما تحدث هذا الرحالة بنوع من الإسهاب عن بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية والتجارات في الحجاز وبخاصة مكة المكرمة، ولم يحدد الطائف بشكل دقيق، إلا أنه قال أن السروات، والطائف جزء منها "عامرة بها الأعناب والزروع"[٦].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٣) هذا ما لمسته خلال الأربعين عاماً الماضية، وأنا أدرس مصادر التراث الإسلامي، وهذه البلاد (سراة وتهامة) تحتوي على كنوز كثيرة من الرسومات الصخرية والنقوش والآثار البائدة، وهي تستحق أن تجمع وتدرس لعلها تطلعنا على صور حضارية وتاريخية عن هذه البلاد منذ العهد القديم وعبر أطوار التاريخ الإسلامي.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٥. وهذه العادة كانت وما زالت عند كثير من المكيين منذ عصور ما قبل الإسلام حتى وقتنا الحاضر، بل لم يكن مصيف الطائف مقصوراً على أهل مكة، وإنما كان يأتي إليه من جدة ومن مدن وبلدان إسلامية عديدة. وكتب التراث تذكر أمثلة كثيرة لبعض خلفاء وأمراء وأميرات الدولتين الأموية والعباسية ومن جاء بعدهم الذين كانوا يقضون أوقات الصيف في مدينة الطائف، وقد شاهدت بعض ملوك وأمراء آل سعود الذين اعتادوا قضاء إجازاتهم في الصيفية في الطائف خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م) وفي العقدين الأول والثاني من هذا القرن (١٥هـ/٢٠م).

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٤. وللمزيد عن كلام هذا الرحالة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتنوع التجارات في مكة المكرمة وغيرها من حواضر ا لحجاز، انظر: المصدر نفسه، ص ٧ وما بعدها.

وذكر ناصر خسرو بعض الروايات المحدودة عن البلاد والسكان القاطنين جنوب مكة، تحت عنوان اسمه "صفة بلاد العرب واليمن"(١). وفي مكان آخر من كتابه يضع عنواناً سماه (الطريق إلى الأحساء)، وذلك بعد الانتهاء من حجة عام (٤٢٢هـ/١٠٣٠م)، ثم يضع أيضاً عنواناً جانبياً، هو الطائف، وقال: "الطائف ناحية في شرق مكة، وتقع المدينة على تلال جبلية مرتفعة، وكان الطقس فيها بارداً جداً، حتى إن الإنسان لا يستطيع الجلوس إلا في الشمس، والطائف موضع أكبر من القرية ودون المدينة، وللطائف سور محكم وسويقة صغيرة، وجامع متوسط الحجم. ومياه الطائف غزيرة، وتكثر في المدينة أشجار الرمان والتين. وفي الطائف قبر عبدالله بن عباس (رضي الله عنه)، ويقع القبر في حافة المدينة، وقد بنى الخلفاء العباسيون حول القبر مسجداً عظيماً، وأدخلوا قبر عبدالله بن عباس في زاوية المسجد تقع على يمين المحراب والمنبر، وبنى الناس حول المسجد منازل كثيرة.."(٢)، ثم يواصل الحديث أثناء خروجه من الطائف تجاه اليمامة، وذكر بعض محطات طريقه الواقعة في محيط بلاد الطائف، ووصف حالة البوادي في تلك الأصقاع، وأشار إلى ظاهرة السلب والنهب في تلك النواحي، ولم يكن هناك أي قوة سياسية أو إدارية تضبط سكان البلاد الواقعة بين الطائف واليمامة(٣).

أما الجغرافي البكري فيعدد مخاليف مكة النجدية ويذكر فيها الطائف، وقرن المنازل، وعكاظ(٤). ويذكر أيضاً بعض قبائل السروات ومنها عشائر عامر بن صعصعة من هوازن ويتواجدون في محيط محافظة الطائف(٥). ويقول عن الطائف "إنما سميت بالحائط الذي بنوا حولها، وأطافوه به، تحصينا لها، وكان اسمها وج، قال أمية بن ابي الصلت:

نحن بنينا طائفاً حصينا يقارع الأبطال عن بنينا(٦)

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤١، وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦١-١٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٢ وما بعدها.

(٤) البكري، معجم ما استعجم، مج١، جـ١، ص٣٠٨-٣٠٩.

(٥) المصدر نفسه. انظر أيضاً ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص١٥٣.

(٦) البكري، معجم ما استعجم، مج٢، جـ٣، ص ٨٨٦.

٧- الإدريسي، وابن جبير، وابن أبي الصيف، وياقوت الحموي (ق٥-ق٧هـ/ق١١-ق١٣م):

محمد الإدريسي من مواليد مدينة سبتة في المغرب الإسلامي عام (٤٩٣هـ/١١٠٠م)، قام بالعديد من الرحلات في قارات آسيا وافريقيا وأوروبا، وقضى سنوات من عمره عند ملك صقلية، روجر الثاني، وقد دعمه هذا الملك وشجعه على تأليف كتاب شامل يصف فيها مملكته وغيرها من بلدان ذلك الزمان، وقضى هذا الجغرافي والرحالة حوالي (١٥) سنة في إنجاز هذا الكتاب، الذي انتهى من تأليفه في عام (٥٤٨هـ / ١١٥٤م)، وسماه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وقد ظل الكتاب ينسب لفترة طويلة إلى حاكم صقلية، فيقال (كتاب رجار) أو (الكتاب الرجاري) نسبة إلى الملك روجر الثاني، ويقع الكتاب في جزئين كبيرين وصدر منه طبعات عديدة[١]. اما ابن جبير فهو محمد بن جبير البلنسي الأصل، الغرناطي الاستيطان، ولد بمدينة بلنسية أو بشاطبة (سنة ٥٣٩، أو ٥٤٠هـ/ ١١٤٤، أو ١١٤٥م)، ومات في الاسكندرية عام (٦١٤هـ / ١٢١٧م). وابن جبير رحالة رائد في ميدان الرحلة، وبخاصة عند الرحالين المغاربة، فقد نهج على منواله واقتبس منه كثير من المؤرخين والرحالة الذين أتوا بعده، وليس أدل على ذلك من تهافت المؤرخين القدامى والمحدثين بل والمستشرقين على الترجمة له وتحقيق ونشر رحلته[٢].

وعنوان رحلة ابن جبير، بعدة عناوين مثل: رحلة الكناني، أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار وغيرها، واشتهرت باسم (رحلة ابن جبير). اهتم بها عدد من المستشرقين فدرسوها وحققوها وترجموها إلى عدد من اللغات، وقد طبعت لأول مرة في ليدن سنة (١٨٥٢م) مع مقدمة للمستشرق رايت، وأعيد طباعتها هناك عام (١٩٠٧م). واعتمدنا في بحثنا النسخة التي صدرت عن دار صادر في

---

(١) اعتمدنا على النسخة التي صدر من عالم الكتب في بيروت عام (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

(٢) هناك دراسات قديمة وحديثة فصلت الحديث عن هذا الرحالة ورحلته، انظر لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ص٢٣ القاسم يوسف التجيبي السبتي في كتابه: مستفاد الرحلة، ص ٢٤٣، والمقري، نفح الطيب، (طبعة مصر)، جـ٢، ص١٤٢، وجورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، جـ٣، ص٩٤، ٩٥، وعبدالقدوس الأنصاري، مع ابن جبير في رحلته، ص١٦، والمستشرق الروسي كراتشكوفسكي، الجغرافيا والرحلات (طبعة بيروت، ١٩٨٠م)، ص٦٠-٦٢، وزكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٧١-٨٨.

بيروت، ولم يذكر تاريخ الطبع. ورحلة ابن جبير تحتوي على تفصيلات تاريخية وحضارية عن بلاد مصر والحجاز والعراق والشام، وصقلية، وغيرها[1].

أما ابن أبي الصيف، فهو الحافظ محمد بن إسماعيل بن علي أبو عبدالله بن أبي الصيف، فقيه شافعي يمني، ولد بزبيد، وجاور بمكة المكرمة وتوفي بها تقريباً سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، ألف كتاباً اسماه: زيارة الطائف، وهو مفقود[2]. أما ياقوت الحموي، فقد ولد في بلاد الروم سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م)، وأتي به أسيراً من أرض الروم وهو صغير، وبيع في أسواق الرقيق في بغداد، فاشتراه تاجر بغدادي أصله من حماة اسمه عسكر بن إبراهيم، فنسب ياقوت إليه وغلب عليه لقب الحموي، وفي عام (٥٩٦هـ/١١٩٩م) أعتق ياقوت من الرق، وعمل في التجارة مع سيده حتى مات الأخير، وبعد موته خرج ياقوت يسيح في الأرض فذهب إلى بلاد آسيا الصغرى، والشام، ومصر، وجزيرة العرب، وإيران، وبلاد ما وراء النهر، واستقر أخيراً في خوارزم حيث بدأ في تأليف معجمه (معجم البلدان) سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) وانتهى منه سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م)، وقد قضى نهاية حياته في حلب ومات فيها سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م). ألف ياقوت كتباً عديدة منها: مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، وكتاب: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ويعرف أيضاً باسم (معجم الأدباء). أما كتابه (معجم البلدان)، فهو المصدر الذي يهمنا في هذه الدراسة، وهو من المصار المهمة التي لا يستغني عنها الباحث فيما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربي آسيا، درسه وطبعه عدد من المستشرقين، ومن أوائل طبعاته نشرة وستنفلد في ستة أجزاء (سنة ١٨٦٦-١٨٧١م)، وطبع في القاهرة في عشرة أجزاء (سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٦م). أما النسخة التي اعتمدنا عليها فهي طبعة داري بيروت وصادر المطبوعة عام (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)[3].

---

(١) انظر تفصيلات رحلة ابن جبير (بيروت، دار صادر، د.ت)، ص ١١ وما بعدها.

(٢) انظر خير الدين الزركلي. الأعلام: قاموس الأشهر الرجال والنساء (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، جـ٦، ص٣٦، انظر أيضاً: محمد سعيد كمال " قطر الطائف ومؤرخوه" مجلة العرب، الجزء الثاني، السنة الثانية (شعبان ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص١٠٠-١٠١.

(٣) انظر هذه الطبعة نفسها، انظر أيضاً عبدالمجيد الذويب " الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية"، ص ٢٩٣، أحمد رمضان، أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٧٧-١٨٨، غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٥٧-١٥٨.

ونجد الإدريسي يذكر تفصيلات تاريخية وحضارية قيمة عن الطائف والطريق المؤدية إليها، فيقول: "وفي شرق مكة الطائف، وبينهما ستون ميلاً، والطائف من أرادها من مكة سار منها إلى بئر بن المرتفع، وهي قرية عامرة فيها عرب بادية، ثم إلى قرن المنازل، وهو حصن عامر بأهله على قارعة الطريق، ومنه إلى الطائف، ومن أراد من مكة إلى الطائف يأتي عرفات، ثم إلى بطن نعمان وهو موضع فيه نخيلات، ثم يصعد عقبة كرى ثم يشرف على الطائف، والطائف منازل ثقيف، وهي مدينة صغيرة متحضرة، مياهها عذبة، وهواؤها معتدل، وفواكهها كثيرة، وضياعها متصلة، وبها العنب كثير جداً، وزبيبها معروف يتجهز به إلى جميع الجهات، وأكثر فواكه مكة تصدر عنها، وبالطائف تجار مياسير، وجل بضائعهم صنع الأديم، وأديمها عالي الجودة، رفيع القيمة، وبالنعل الطائفي يضرب المثل، وهذا مشهور، والطائف على ظهر جبل غزوان، وعلى ظهر جبل غزوان داير بني سعد المضروب بهم المثل في كثرة العدد، وبه جملة من قبائل هذيل، وليس في بلاد الحجاز بأسرها جبل أبرد من رأس هذا الجبل، وربما جمد به الماء في الصيف لشدة برده..."[1]. ويشير إلى مخاليف مكة ويذكر منها الطائف وقرن المنازل، وعكاظ، ولية[2]. ويذكر أيضاً الطريق التي تخرج من مكة إلى اليمن عن طريق السيل الكبير، ويشير إلى بعض المحطات الواقعة بين مكة والطائف على تلك الطريق فيقول: "من مكة إلى بئر بن المرتفع وفيه بئر، ثم إلى قرن المنازل، وهي قرية كبيرة.."[3]. ويذكر بعض التجارات وسوق عكاظ، والعنب وسلع أخرى تجلب من الطائف إلى أسواق مكة[4]. ويقول عن عكاظ: "وسوق عكاظ قرية كالمدينة، جامعة لها مزارع ونخل ومياه كثيرة، ولها سوق في الجمعة وذلك يوم الأحد يقصد إليها بأنواع من التجارات المحوج إليها أهل تلك الناحية، فإذا أمسى المساء انصرف كل واحد إلى موضعه ومكانه.."[5].

ويدون الرحالة ابن جبير معلومات جيدة عن أهل مكة وعاداتهم وصور من تاريخهم الحضاري، ويذكر أن أهل السراة الذين يستوطنون البلاد الممتدة من

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص١٤٤-١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص١٤٥. ورد في المتن اسم (ليمة)، ويقصد بها (لية) كما دوناها أعلاه.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٤١.

(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٥٢.

الطائف إلى سروات غامد وزهران وما جاورهم يأتون إلى مكة في أعداد كبيرة ومعهم من السلع وبعض التجارات الكثيرة وبخاصة الحبوب والفواكه وغيرها[(١)]. ويشير في مكان آخر إلى كثرة الثمار والفواكه في أسواق مكة[(٢)]، ثم يقول: "وهذه الفواكه تجلب من الطائف، وهو على مسيرة ثلاثة أيام منها، ومن قرى حولها، وأقرب هذه المواضع يُعرف بأدم[(٣)]، وهو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلاً، وهو بطن الطائف، ويحتوي على قرى كثيرة"[(٤)]. ويبدو أن ابن جبير لم يزر الطائف وإنما دون معلوماته مما شاهده في مكة، وفي المسجد الحرام، وربما مما سمعه من بعض أهل السراة والطائف.

وابن أبي الصيف، له كتاب خاص بالطائف، لكننا لم نعثر عليه، فهو مفقود، ونجد له ذكراً عند المؤرخ الميورقي من أهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[(٥)]. فيذكر له بعض المعلومات عن قرية وج وشرب الرسول (ﷺ) من بئرها، وأيضاً كتابه عليه الصلاة والسلام لأهل ثقيف، سكان الطائف الرئيسيتين في عهد الرسول (ﷺ)[(٦)].

ويتحدث ياقوت عن بلاد الطائف في بضع صفحات، ويقول عن شكل مفردة الطائف "بعد الألف همزة في صورة الياء، ثم فاء، وهي في الاقليم الثاني"[(٧)]. ويقول: "وبالطائف عقبة، وهي مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكة"[(٨)]. ويفصل القول في سبب تسميتها الطائف، ويذكر بعض الأقوام الذين سكنوها، وما دار بينهم من حروب وصراعات، وكيف استطاعت ثقيف أن تسكنها وتسيطر عليها، ويشير إلى بعض الروايات التي تذكر دخول أهل الطائف

---

(١) ابن جبير، الرحلة، طبعة دار صادر، ص ١١٠-١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٦-٩٨.

(٣) لا ندري ما المقصود بهذا الموضع.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٥) ذكر أن الميورقي يدعى أبو العباس واسمه الأول أحمد، وهو من مؤرخي الطائف، مات عام (٦٧٨هـ/١٢٨٠م) انظر، محمد سعيد كمال، "قطر الطائف ومؤرخوه" مجلة العرب (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، جـ٢، ص١٠٢. وكتاب ابن أبي الصيف عن الطائف عنوانه: (زيارة الطائف).

(٦) انظر محمد سعيد كمال. "قطر الطائف ومؤرخوه" ص ١٠٠-١٠١.

(٧) ياقوت، معجم البلدان، مطبوعات داري بيروت وصادر، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، جـ٤، ص ٨.

(٨) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٨.

في الإسلام، وكيف حاصرهم الرسول (ﷺ)، ثم صالحهم وكتب لهم كتاباً[١].
والطائف مشهورة منذ القديم بمصيفها الجميل، ويشير إليها معاوية بن أبي سفيان فيقول: "أغبط الناس عيشاً عبدي أو قال مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز، ويتربع جدة، ويتقيظ الطائف، ويشتو بمكة"[٢]. ولذلك وصف محمد بن عبدالله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية، فقال:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف[٣]

٨- القزويني، والميورقي، وابن المجاور (ق٧هـ/ق١٣م):

ولد أبو عبدالله زكريا بن محمد القزويني المعروف أيضاً بالأنصاري في مدينة قزوين في إيران سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م)، تنقل في بلاد فارس والشام والعراق، وتولى القضاء في مدينة واسط والحلة بالعراق أيام الخليفة المستعصم العباسي، آخر خلفاء بني العباس (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م). هذا الرحالة ساح في بلدان عديدة، واطلع على كتب رحالين سبقوه واستفاد منها، واقتبس منها في مدوناته وفي كتبه. وله مؤلفان جيدان هما: (١) آثار البلاد وأخبار العباد، وهو الذي يهمنا في هذا البحث. (٢) عجائب المخلوقات، وهو عمل علمي رائع اشتمل على بيان التقويم الشمسي والنجوم والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن، وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات المختلفة. وقد قام المستشرق وستنفلد على تحقيق ودراسة ونشر هذين الكتابين في عامي (١٨٤٨-١٨٤٩م). والطبعة التي اعتمدنا عليها في كتاب: آثار البلاد وأخبار العباد، هي طبعة دار بيروت التي صدرت عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)[٤].

أما الميورقي وابن المجاور فالأول هو، أبو العباس أحمد بن علي بن أبي بكر بن عيسى بن محمد بن زياد العبدري الميورقي، مالكي، أصله من جزيرة ميورقة، إحدى جزر البليار من أعمال الأندلس، جاور بمكة وأخذ من علمائها، ثم سكن الطائف، وتوفي بها سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م). الف كتاباً سماه: بهجة المهج في فضائل

---

(١) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٨-١١.

(٢) المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٢.

(٤) انظر الصفحات الأولى من كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد)، ص٣-٥. للمزيد انظر أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٩٧، وما بعدها.

الطائف ووج[١]. والثاني ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور، وقيل الشيباني الدمشقي. هذا الرحالة من أهل القرن السابع الهجري، وهناك خلاف في نسبه، فبعض الباحثين ينسبه إلى بلاد الشام، وآخرون إلى بلاد فارس أو نيسابور أو غيرها[٢]. وكتابه الذي عُرف به، ويخصنا في هذه الدراسة هو: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، وعرف أيضاً باسم (تأريخ المستبصر). وأول من نبه إلى كتاب ابن المجاور في العصر الحديث هو المستشرق سبرنجر (Sprenger) في عام (١٨٦٤م) فأشاد به وما يشتمل عليه من معلومات تاريخية وجغرافية عن بلدان عديدة في الجزيرة العربية، وأطلق عليه (تاريخ المستبصر)، وفي عام (١٩٣٥م) وبإشراف من الأستاذ سنوك (Snouk) قرر مجلس مؤسسة دي خويه في ليدن تحقيق ونشر كتاب ابن المجاور تحت إشراف المستشرق أوسكر لوفغرين، وصدر في جزئين في مجلد واحد عامي (١٩٥١، ١٩٥٤م) [٣].

والقزويني يفرد عنواناً صغيراً جانبياً في كتابه سماه (الطائف) [٤] وقال عنها: "بليدة على طرف واد، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، طيبة الهواء شمالية"[٥]. ويذكر عن الأصمعي قوله: "دخلت الطائف، وكأني ابشّر وقلبي ينضح بالسرور، ولم أجد لذلك سبباً إلاّ انفساح جوها وطيب نسيمها. بها جبل غزوان[٦] يسكنه قبائل هذيل، وليس بالحجاز موضع أبرد من هذا الجبل... ويشق مدينة الطائف واد يجري بينها يشقها، وفيها مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم، والطير تصرع إذا مرّت بها من نتن رائحتها، وأديمها يحمل إلى سائر البلدان ليس في شيء من البلدان مثله. وفي أكنافها من الكروم والنخيل والموز وسائر الفواكه، ومن العنب ما لا يوجد في شيء

(١) انظر الزركلي، الأعلام، جـ١، ص ١٧٥، محمد سعيد كمال. "قطر الطائف ومؤرخوه"، ص ١٠٢.

(٢) انظر بشير إبراهيم بشير. "ابن المجاور: دراسة تقويمية لكتابه (تاريخ المستبصر). بحث منشور في دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، قدم في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، جـ٢، ص٤١-٦٠. انظر أيضاً غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٩، ص ١٥٨-١٦٠.

(٣) انظر الكتاب نفسه، ص٢ وما بعدها، بشير إبراهيم بشير " ابن المجاور: دراسة تقويمية..."، ص ٤٢ وما بعدها.

(٤) هكذا فعل القزويني يذكر عناوين جانبية لكل موضع أو مدينة يتحدث عنها، وهو ما فعل مع بلدة الطائف، انظر، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٩٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٦) أورد القزويني عبارة (جبل عروان)، والصحيح هو (جبل غزوان).

من البلاد، وأما زبيبها فيضـرب بحسـنه المثل"[١]. ويذكر هذا الرحالة تفصـيلات أخرى منقولة من مصادر مبكرة عن صنم اللات الذي كان يقدسه أهل الطائف قبل الإسلام، والكروم والأعناب التي كانت في الوهط، وما قال عنها الخليفة سليمان بن عبدالملك عندما شاهد بساتين العنب في الوهط، وذكر بعض أعلام الطائف ودورهم في التاريخ وخص الحجاج بن يوسف الثقفي بالكثير من هذه المعلومات[٢].

ولابـن المجاور مدونات عن الطائف، فالناظـر في فهارس الجزء الأول من كتاب (تاريخ المستبصـر) يجده يذكر عناصر عديدة مثل: من مكة إلى الطائف، والوهط، وخروج سليمان من عبدالملك إلى الطائف، وبناء الطائف، ومن الطائف على صعدة، ومـن الطائف إلى جبل بدر[٣]. وكل هذه المحـاور تحتوي على أقوال وروايات تاريخية مذكورة في مصـادر حجازية كتبت قبل عصـر ابـن المجاور وبعـده. وهناك عناوين أخـرى هي (١) صـفة أهل الطائف، قال فيه "الطائف سـامية بـاردة الماء والهواء، كثيرة الفواكه، زراعتهم الحنطة اللقيمة، التي تشابه اللؤلؤ، وأهلها من ثقيف وقريش على زي أهل مكة في الأكل واللبس. وأهلها يرثوا البنت عند الموت... وللقوم عصـبية عظيمة إذا مات بها أحد لم يحمل جنازته إلاّ الشبان، ومع ذلك يقولون: سلم سلمك الله، هذا ما وعد الله، نعم القاضي، وهم يتداولون بالنعش إلى الجبانة، وهم الذين يحفرون القبر"[٤]. (٢) السـرو، أو صـفة هذه الأعمال، ويقصد بذلك بلاد السراة الممتـدة مـن الطائف إلى اليمن. وذكر في هذين المحورين شـيئاً من عادات وأعراف هـذه البلاد، وطبيعـة قراهم وبلداتهـم، وهيمنة شـيوخهم وأعيانهم، وأيضـاً كثرة الزروع والخيرات في بلادهم، التي يصـدر منها الشـيء الكثير إلى أسـواق الحجاز، وكيف كان أهل مكة يعتمدون على حبوب وفواكه وخيرات الطائف وما بعدها من بلاد السـراة، ويذكر ابن المجـاور بعض الأشـربة والأطعمة عند تلك البـلاد الطائفية أو السروية، ويشير أيضاً إلى الصراعات التي تدور بين عشائر وقبائل تلك الأوطان[٥]. ومـا ذكـر ابن المجاور فيه نسـبة عالية مـن الحقيقة، فمن يقـرأ التاريخ الاجتماعي

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٨-١٠٠.

(٣) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، جـ١، ص ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٥.

(٥) ابن المجاور، جـ١، ص ٢٥، ٣٧-٣٨.

والاقتصادي لبلدان السراة من اليمن إلى الطائف، ومن يطالع كثير من الوثائق والمصادر القديمة يتأكد من الثراء الاقتصادي الذي تنعم به هذه البلاد، فهناك شتى الفواكه والخضروات والحبوب والمواشي، كما يعرف صعوبة وشراسة عشائرها، فكانوا عبر أطوار التاريخ القديم والإسلامي المبكر والوسيط والحديث في حروب ونزاعات دائمة، وكان شيوخ القبائل هم أصحاب الحل والعقد في أوطانهم[1].

أما كتاب الميورقي: بهجة المهج في فضائل الطائف ووج، فقد حققه الدكتور إبراهيم بن محمد الزيد، ونشر في (١٠٢) صفحة عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، وعلى الرغم من شهرة هذا الكتاب عند من جاء بعده من الدارسين والمؤرخين الذين اطلعوا عليه ونقلوا منه، وأكثر ما اهتم به هذا الكتاب الفضائل التي تخص مدينة الطائف، ولهذا احتوى هذا المؤلف على روايات ضعيفة تردد العلماء في قبولها، وقد جمع محقق الكتاب، الدكتور الزيد، معظم هذه الروايات ونقدها في الصفحات (١٩-٢٣) من كتاب الميورقي[2].

٩-أبو الفداء، وابن فضل الله العُمري، وابن بطوطة، والفيروزآبادي (ق٧-٨هـ/ق١٣-١٤م).

ولد أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بنٍ محمد بن أيوب في دمشق سنة (٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، وذلك بعد استقرار أهله فيها فراراً من وجه المغول، وكان جده أميراً على حلب، وقد استعادت أسرته مجدها في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عين أبا الفداء حاكماً سنة (٧١٠هـ/ ١٣١٢م)، وانتهى الأمر بتنصيبه سلطاناً لمملكة حماه، ولقب بالملك المؤيد سنة (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)[3]. ألف أبو الفداء كتاب: مختصر تاريخ البشر، وكتاب: تقويم البلدان، والذي يهمنا الكتاب الثاني، فقد اعتمد في تدوين مادته على بطليموس والبيروني، وحاز هذا الكتاب شهرة عظيمة، وقسمه إلى جزئين، مقدمة جغرافية ورياضية، ومحتوى يشتمل على عموميات عن البلاد التي زارها أو درسها،

---

(١) هذه البلاد تستحق دراسات تاريخية وحضارية موثقة عبر أطوار التاريخ، ونأمل من كليات الآداب وأقسام الاثار والتاريخ في الجامعات السعودية أن تولي هذه الأوطان اهتماماً في بحوثها ودراساتها.

(٢) حبذا أن نرى باحثاً جاداً أو طالب من طلاب برامج الدراسات العليا في التاريخ والآثار بجامعاتنا السعودية يدرس تاريخ الطائف خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، أو في عصور ما قبل الإسلام، أو في العصر الحديث، فهذه البلاد لم تنل حضها من البحث والدراسة العلمية الموثقة.

(٣) انظر، أحمد رمضان أحمد. الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٩٧ وما بعدها، عبدالمجيد الذويب، "الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية"، ص ٢٩٤.

وجدول يحوي أسماء الأمكنة والمصادر والطول والعرض، وخلاصة وصفية لكل بلدة أو مكان[(١)].

أما ابن فضل الله العُمري فقد ولد في دمشق سنة (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، وبدأ في طلب العلم، وتعلم على أيدي مشائخ وعلماء عديدين، وكتب عدداً من المؤلفات، ومن أهمها موسوعته: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، التي قال عنها في مقدمة كتابه: "لا أعني ذوي الممالك الصغار، إذا كان في مملكة سلطان قاهر عليهم، آمر فيهم؛ إذ هم جزء من كل، بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنة، لاتساع ممالك وأعمال، وكثرة جنود وأموال، ويتغطى بذيله من لعله في مملكته من ذوي الممالك الصغار"[(٢)]. تقلد أبو الفداء بعض الوظائف الإدارية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحصر حديثه في موسوعته على ممالك الإسلام، ولم يكتب عن غيرها. والجزء الذي استفدنا منه في بحثنا، هو الخاص بممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، وطباعة ونشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

كما ولد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي ابن بطوطة في مدينة طنجة سنة (٧٠٣هـ / ١٣٠٤م)، وتوفي سنة (٧٧٠هـ) وقيل سنة (٧٧٩هـ/١٣٦٨، ١٣٧٧م)، قضى حوالي ثلاثين عاماً من عمره في السفر والتجوال شرقاً وغرباً، فزار عدداً كثيراً من المدن والبلدان، وحج ثلاث مرات (٧٢٦، ٧٢٧، ٧٣٠هـ/ ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٩م). كتب رحلته ابن جزي الكلبي، وحققت ونشرت لأول مرة في باريس بين سنتي (١٨٥٣، ١٨٥٩م). ثم طبعتها دار صادر في بيروت سنة (١٩٦٠م) مع مقدمة مختصرة لكرم البستاني، ثم طبعت فيما بعد طبعات عديدة، والطبعة التي اعتمدنا عليها طبعة دار الكتب العلمية في بيروت، الطبعة الرابعة (٢٠٠٧هـ/١٤٢٨م)، شرح وتعليقات طلال حرب[(٣)]. كما ترجمت هذه الرحلة إلى لغات عديدة مثل: التركية، والفرنسية، والإيطالية، والفارسية، والانجليزية[(٤)].

---

(١) المرجعان نفسهما. انظر أيضاً، تقويم البلدان لأبي الفداء، تحقيق رينود، والبارون ماك كوكين ديسلان، طبعة باريس عام (١٨٤٨م).

(٢) انظر مقدمة هذا الجزء، ص ٢ وما بعدها، انظر أيضاً أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٠٩-٢٢٠.

(٣) انظر مقدمات هذه الطبعة، ص٥ وما بعدها.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠-٢٣.

وهؤلاء الجغرافيون الثلاثة زاروا الحجاز، وذكروا شيئاً من تاريخ وحضارة حواضرها، وذكر بعضهم الطائف، فأبو الفداء كتبها بفتح الطاء المهملة وألف، وكسر المثناة من تحت، وفي آخرها فاء، ثم قال: "والطائف بليدة كثيرة الفواكه، وهي على ظهر جبل غزوان، وهو أبرد مكان بالحجاز، وربما جمد الماء في ذروة غزوان المذكور، وأكثر ثمرها الزبيب، وهي طيبة الهواء، وقال في المشترك نعمان بفتح النون والعين المهملة، واد بين مكة والطائف، ويقال له نعمان الأراك"[١]. وابن فضل الله العُمري لا يخص الطائف بحديث محدد وإنما يتكلم عن بلاد السراة الممتدة من الطائف شمالا إلى سروات بجيلة وغامد وزهران وما جاورها من أرض السراة فيقول: "هي جبال شامخة عليَّة، ذات عيون دافقة ومياه جارية، على قرى متصلة، الواحدة إلى جانب الأخرى، وليست الواحدة تعلق بالأخرى، لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم، لا يضمهم مُلك مَلك، ولا يجمعهم حكم سلطان، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش ذوات فواكه أكثرها العنب واللوز، ولها زروع أكثرها الشعير، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب وضاقت بها الحظائر. وأهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها، يعضون عليها بالنواجذ، ويقْرون كل من يمر بها، ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقهم، وإذا ذبحوا لضيفهم شاة، قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكرشها وكبدها وقلبها، يأكل ما يأكل ويحمل ما يحمل. وأهل هذه البلاد لا يفارق أحد منهم قريته مسافراً لأخرى إلاّ برفيق يسترفقه منها ليخفره، وإلاّ فلا يأمن أولئك العداوة بينهم وتفرق ذات البين"[٢]. ونجد هذا الجغرافي يدون لنا وصفاً دقيقاً عن بلاد وسكان السروات، بما في ذلك حاضرة الطائف، فتضاريسها جبال ووهاد متنوعة في أشكالها، وهي مأهولة بالسكان ومليئة بالثروات الزراعية والحيوانية، كما أن أهلها كرماء وأهل عقيدة صافية، إلاّ أن الأمن يكاد يكون مفقوداً في أوطانهم، والقبائل وشيوخهم هم أهل السطوة والهيمنة في البلاد، بل إن كل عشيرة أو ربما قرية أو بلدة مستقلة بذاتها، ولا توجد إدارة مركزية لهذه البلاد تسوس أحوالهم السياسية والإدارية والحضارية[٣]، وربما مدينة الطائف الرئيسية كانت أحسن حالاً في وضعها الأمني والإداري من غيرها في ارض السراة، وذلك لصلتها

---

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، طبعة باريس (١٨٤٨م)، ٩٤-٩٥.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص ١٦٧.

(٣) هكذا كان وضع بلاد تهامة والسراة، بل عموم الجزيرة العربية خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة وحتى بدايات النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، فالحروب والصراعات كانت ديدن أهل البلاد، والأمن مفقود في معظم القرى والأرياف والبلدات، وهذا ما تذكره وتشير إليه كثير من المصادر والوثائق التي تحدثت عن بلدان الجزيرة العربية منذ ظهور الإسلام حتى العصر الحديث.

القوية بمكة المكرمة، ثم أنها كانت مهوى لكثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين يرتادونها من وقت لآخر، ولهذه الأسباب لا بد أن تكون في وضع أمني جيد[١].

ولا يختلف ابن بطوطة كثيراً عن ابن فضل الله العُمري وبعض الرحالة والجغرافيين الذين سبقوه فيذكرون أهل السروات من الطائف وما جاورها من الناحية الجنوبية فكانوا أصحاب عقائد صادقة، وقد شاهدهم ابن بطوطة ومن قبله ابن جبير وهم يأتون إلى مكة المكرمة لأداء الحج والعمرة، وما يتصفون به من سلوكيات تغلب عليها النية الصادقة والإقبال على الله أثناء ممارسة عباداتهم في المسجد الحرام[٢]. كما أن أهل الطائف والسروات يرتادون مكة المكرمة باستمرار ويجلبون معهم الحبوب، والسمن، والعسل، والزبيب، والزيت، واللوز، فترخص الأسعار بمكة، ويرغد عيش أهلها، وكان أهل مكة ينتظرون ميرة أهل السروات والطائف بفارغ الصبر[٣]. ويذكر ابن بطوطة أن أهل الطائف خاصة كانوا يزودون بعض الأربطة في مكة المكرمة بالكثير من الثمار والفواكه، ويقول: ((ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك، وهو الخوخ، والتين، وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لأربطة مكة، ويوصلون ذلك إليهم على جمالهم))[٤].

أما الفيروزآبادي، فهو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي، ولد بكازرن من أعمال شيراز عام (٧٢٩هـ/١٣٢٩هـ)، وانتقل إلى العراق، ورحل إلى مصر والشام وبلاد الروم والهند، واستقر به المقام في زبيد باليمن، فسكنها، وولي قضاءها، وتوفي سنة (٨١٧هـ / ١٤١٥م). وإلى جانب معجمه في اللغة (القاموس المحيط)، فإن له مصنفات كثيرة عن تاريخ مكة والمدينة والطائف، وعن الأخيرة ألف كتابين: هما: أحاسن اللطائف في محاسن الطائف، وفصل الدرة في الخرزة في فضل قرية السلامة على الخبزة. والكتابان مفقودان، وقد ذكرهما الذين ترجموا له[٥].

---

(١) مدينة الطائف تتبع إدارياً مكة عبر أطوار التاريخ الإسلامي، بل إنها كانت من المدن الرئيسية والمهمة لولاة مكة والخلفاء وأمراء بني أمية وبني العباس ومن جاء بعدهم فكان البعض منهم يصعد إليها ويقضي بها بعض الوقت، ومعظمهم يمتلكون بها العقارات المختلفة.

(٢) للمزيد انظر ابن بطوطة، الرحلة، ص١٨٠، وانظر أيضاً ابن جبير، الرحلة، ص٩٩، ١١٠-١١٢.

(٣) المصدر السابق، نفسه.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٧٢.

(٥) للمزيد انظر، خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ٨، ص٣٦، ٣٧، محمد سعيد كمال. "قطر الطائف ومؤرخوه" جـ٢، ص١٠٣، ١٠٤. وقد بذلنا جهودا كبيرة للعثور على هذين الكتابين لكننا لم نجدهما، وقد يتم العثور عليهما في قادم الأيام.

١٠- ابن فهد، وابن عراق الكناني، وعبدالقادر الفاكهي، ومحمد البكري (ق٩-١١هـ / ق١٥- ق١٧م):

ابن فهد، هو محمد بن عبدالعزيز بن عمرو بن محمد بن فهد الهاشمي، جار الله، أبو الفضل محب الدين ولد بمكة (٨٩١هـ/١٤٨٦م)، ومات عام (٩٥٤هـ/١٥٤٧م)، وهو من أسرة اشتهرت بالتأليف عن تاريخ الحجاز وبخاصة مكة المكرمة وغيرها من مدن الحجاز الأخرى. ولهذا المؤرخ كتاب عن الطائف سماه: تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف.

وهو من أكبر الكتب التي ألفت عن الطائف، راجعه وعلق عليه الأستاذان محمد سعيد كمال، ومحمد منصور الشقحاء، وطبعه ونشره نادي الطائف الأدبي عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ويقع في (١٦٧) صفحة من القطع المتوسط[١]. أما ابن عراق الكناني، فهو علي بن محمد بن علي بن عبدالرحمن بن عراق الكناني الدمشقي الحجازي، سعد الدين، وقيل: نور الدين، وقيل: علاء الدين، أبو الحسن المعروف بابن عراق، ولد في ذي الحجة سنة (٩٠٧ه/١٥٠٢م) ببيروت، ومات في المدينة المنورة عام (٩٦٣هـ/١٥٥٦م)، حفظ القرآن في صغره، ورحل إلى المدينة، وولي خطابة المسجد النبوي. وله بعض المؤلفات، منها: نشر اللطائف في قطر الطائف، قام بدراسته وتحقيقه الدكتور عثمان الصيني، ونشر ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ويقع في (١٢٢) صفحة من القطع المتوسط[٢]. أما عبدالقادر الفاكهي، فقد ولد بمكة سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، ومات بها سنة (٩٨٢هـ/١٥٧٤م)، وله عدة مؤلفات منها: عقود اللطائف في محاسن الطائف، ولا يزال مخطوطاً، ويتكون من مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة، وهو غير مرتب في أبوابه وصفحاته[٣]. أما محمد البكري، فهو محمد بن علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، مفسر، وعالم بالحديث، ولد بمكة المكرمة سنة (٩٦٦هـ/١٥٨٨م)، وتوفي بها سنة (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م). له مصنفات ورسائل عديدة، ومنها عن الطائف:

---

(١) انظر الكتاب نفسه، ص٥ وما بعدها، وانظر أيضاً، الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص ٢٠٩، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه، ص١٠٤-١٠٥.

(٢) انظر الكتاب نفسه، ص٩ وما بعدها، وللمزيد انظر محمد سعيد كمال. "قطر الطائف..." ص ١٠٧، ١٠٨، الزركلي، الأعلام، جـ٥، ص١٢. كما أن عثمان الصيني ذكر عدداً من مؤرخي الطائف في القرون الإسلامية الوسيطة والحديثة في مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب، انظر ص ١٨.

(٣) انظر، الزركلي، الاعلام، جـ٤، ص٣٦، محمد سعيد كمال، "قطر الطائف..." ص ١٠٦-١٠٧.

الطيـف الطائف بتاريخ وج والطائف، ومنه نسـخة مخطوطـة بمكتبة الحرم المكي الشريف برقم (١٢٠/ دهلوي) في (٤٨) صفحة[١].

وكل هــذه الكتب الأربعة السـابق ذكرهــا تدور في فلـك وج والطائف والحبر ابن عباس، فكتاب ابن فهد، -وهـو كما ذكرنا أكبرها- يقـع في مقدمة وخاتمة، وبابين، الباب الثاني يقع في ثلاثة فصـول، بالإضـافة إلى مقدمة للمراجعين وتمهيد. والباب الأول عنوانه: في ذكر نكت من أخبار وج والطائف، ودخول النبي (ﷺ) لها واسـلام أهلها وفضـلهم، وما قيل في ذلك من الآثار[٢]. والباب الثاني في ثلاثة فصـول: الأول: فضـائل سـيدنا العباس، وابنه عبدالله بن العباس... ونبذ من فضـائل أبي القاسـم محمـد بـن الحنفية[٣]. والثـاني: في فضـائل الإمام البحـر ترجمان القـرآن... أبي العباسـ عبدالله بـن العباس[٤]. والثالث: في بعض فضـائل إمـام الأئمة أبي عبدالله المعروف بابن الحنفية[٥]. كما أشار المؤلف في نهاية الكتاب إلى بعض الآثار الإسلامية الموجودة في بعض مساجد الطائف، وبخاصة مسجد عبدالله بن عباس وبعض القبور، وقد نقل بعض معلوماته من المؤرخ المكي الفاسي ولها علاقة بمساجد الطائف[٦].

والمؤرخـون الآخرون، الكناني، والفاكهي، والبكـري لم يذهبوا بعيداً عما ذهب إليه ابن فهد، فأقوالهم، وأغلبها منقول من مصـادر تاريخية سـابقة لعصـورهم، تـدور في محيط تاريـخ الطائف ووج في صـدر الإسـلام، وعن عبـدلله ابن عباس ومسجده، وبعض معالم الطائف وآثارها الأخرى[٧].

١١- العياشي، والعجمي، والقنوي، والموسوي (ق١١- ق١٢هـ/ ق١٧- ١٨م).

العياشـى، هـو أبو سـالم بن عبدالله بـن ابي العياشـي، نسـبة إلى قبيلة آيت عياشـي. ولد بفاس عام (١٠٣٧هـ/١٦٢٧م) وتوفي بها سـنة (١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)، أديـب وفقيه صـوفي صـنف كتباً عديـدة، لكنـه اشـتهر برحلته التي وصـف فيها

(١) محمد سعيد كمال "قطر الطائف..."، ص ١٠٨-١١٠. الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص ٢٩٣.

(٢) انظر الكتاب نفسه: تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج الطائف، ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٦) للمزيد انظر، ابن فهد، تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف، الخاتمة، ص ١٣٩ وما بعدها.

(٧) للمزيد انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٤، ص٣٦. جـ٥، ص١٢، جـ٦، ص ٢٩٣، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه" ص١٠٦-١١٠.

طريق الحاج من المغرب إلى مكة. وقد اهتم اهتماماً كبيراً بقبور الصالحين، وزار الطائف عام (١٠٧٣هـ/١٦٦٢م)، وسجل ملحوظاته عنها، وعن بقية مدن الحجاز، والأقاليم التي مر بها في طريقه على الأماكن المقدسة في رحلته المسماة (ماء الموائد) أو (الرحلة العياشية)، وقد طبعت في الرباط عام (١٩٧٧م) [١]. أما العجمي، فهو حسن بن علي بن يحيى بن عمر بن أحمد بن محمد بن أحمد من جمال الدين بن عبدالواحد شرف الدين، أبو البقاء الحنفي المكي، من أسرة مكية ذات أصل مصري، ولد بمكة سنة (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م)، وتوفي بمدينة الطائف عام (١١١٣هـ/١٧٠٢م)، وله مؤلفات كثيرة منها: اهداء اللطائف من أخبار الطائف، حققه الدكتور يحيى محمود بن جنيد ساعاتي، ونشرته دار ثقيف سنة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ويقع في (١١١) صفحة من القطع المتوسط[٢]. أما القنوي، فهو محمد بن عبدالكريم القنوي، كان حياً عام (١١٤٩هـ/١٧٣٦م)، وله رسالة في فضائل عبدالله بن عباس وفضائل الطائف، وما زالت مخطوطة في مكتبة الحرم المكي[٣].
أما الرحالة الموسوي، فهو العباس بن علي بن نور الدين بن ابي الحسن المكي الحسيني الموسوي، أديب، ورحالة، ولد وعاش في مكة المكرمة، وسافر إلى العراق، والهند واليمن فيما بين سنتي (١١٣١-١١٤٢هـ/١٧١٨-١٧٢٩م)، وكان يعود ويحج في أكثر السنين، انتهى به المطاف في بندر المخا ومكة، ثم استقر في مدينة المخا سنة (١١٤٥هـ/١٧٣٢م)، وعكف على ما جمع من أوراق ودون رحلته في جزئين، وسماها: نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس[٤].

وإذا توقفنا مع هؤلاء المؤرخين والرحالة الأربعة، فأقلهم إشارة إلى الطائف القنوي، أما العجمي فجل كتابه عن الطائف، ويتكون من بابين، الأول في فضل الطائف ووج، والثاني: ذكر للآثار والمشاهد الواقعة في الطائف، وما حولها، مثل:

---

(١) انظر الزركلي، الأعلام، جـ٤، ص١٢٩. والجزء الخاص بالطائف نشره حمد الجاسر في مجلته (العرب) تحت عنوان: "لطائف في القرن الحادي عشر". مجلة العرب، جـ٤، سنة (٧) (شوال ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص ٢٩٤-٣٠٠. انظر أيضاً ناصر بن علي الحارثي "الطائف في رحلتي العياشي والموسوي في القرنين (١١-١٢هـ)" منشور في كتاب: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). جـ١، ص ١٣٧-١٥١.

(٢) انظر الكتاب نفسه، ص ٥ وما بعدها. انظر أيضاً الزركلي، الأعلام، جـ٢، ص٢٠٥، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه"، ص ١١٠-١١.

(٣) الزركلي، جـ٦، ص ٢١٦، ومحمد سعيد كمال "قطر ..." ص١١١.

(٤) الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ٢٦٣، ناصر الحارثي "الطائف في رحلتي العياشي والموسوي"، ص ١٣٧ وما بعدها.

المساجد، والمقابر، والآبار، والعيون، والقرى، والحصون، وبعض الجبال[١]. أما العياشي فيدون وصفاً لمحطات الطريق من مكة إلى الطائف عبر وادي نعمان وعقبة الهدا، ويذكر نشاط تلك الطريق وكثرة المسافرين فيها، ويشير إلى وجود قهاوي ومحطات للاستراحة والأكل والشرب على هذه الطريق. وعندما وصل الطائف ذكر بعض فضائلها، وفضائل مسجد عبدالله بن عباس، التي ربما قرأها أو نقلها من بعض المؤلفين الذين سبقوه[٢]. ويقول عن الطائف، "وصلنا بلد الطائف، وهي قصور في مستو من الأرض تحيط بها جنات من نخيل قليل وأعناب كثيرة، وفواكه مما يشتهون..."[٣] وعن الحياة الاقتصادية في الطائف، يقول: "وفي هذا البلد أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد، ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته، بحيث يخيل إلينا أنا لم نر مثل ذلك في الكثرة في الأسواق العظيمة"[٤] وأشار إلى تفشي الأمراض في الطائف، وسبب تلك الأمراض هطول الأمطار الكثيرة في الوقت الذي زار فيه الطائف. كما قابل بعض الشخصيات في الطائف وذكر أسماء بعضهم مثل: الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي، الذي كان رئيس المقرئين وأستاذ المجودين، والفقيه عمر المدني، وعبدالرحمن وهؤلاء كلهم مغاربة جاوروا وأقاموا في الطائف[٥].

أما الرحالة الموسوي فقد سلك الطريق التي سلكها العياشي عبر عرفات ثم وادي نعمان، فالهدا حتى الطائف[٦]، وذكر شيئاً مما رأى في حاضرة الطائف، فقال إنها "أكبر مدن الحجاز، وأهله كانوا - سابقاً - في ثروة من الغنى والمال، ويجلب منها إلى مكة الفواكه النفيسة وغير ذلك من الحبوب والشعير والسمن والعسل واللوز وغيره. وبالطائف أخلاط كثيرة من العرب والهنود، وهي منازل ثقيف، وبها مياه عذبة، وفواكه مختلفة وثمار شتى، وبها ديار بني سعد الذين يضرب بهم المثل في الكثرة، وبها أقوام من قريش، وهذيل، وثمالة، وبني محمد، وناصرة، وبجيلة، وليس في الحجار أطرى من الطائف، ولا أصح من هوائها ومائها.. ويجلب

---

(١) انظر كتاب العجمي، إهداء اللطائف من أخبار الطائف، ص٥ وما بعدها.

(٢) انظر، رحلة العياشي (ماء الموائد)، ص ١١٦ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٧-١٢٠، ١٢٣.

(٦) انظر الموسوي، نزهة الجليس، جـ٢، ص ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٢.

منها الجلود الطائفية وغير ذلك من الأصناف[١]". وقد رجع الموسوي إلى مكة عن طريق وادي نعمان لأداء موسم الحج، ثم زار الطائف مرة أخرى عن طريق وادي السيل، وذكر وصفاً لبعض محطات تلك الطريق مثل: البرود، والزيما (الزيمة)، والسيل، وذكر بعض ساكنيها من الأشراف[٢].

وفي مكان آخر أشار إلى بعض الشخصيات العلمية والدينية والسياسية التي قابلها في الطائف، ودون بعض الصفات التي شاهدها في سلوكيات وتعاملات بعض الأعلام الذين خالطهم وتعامل معهم[٣]. كما وصف بعض الدروب القديمة التي سلكها بين مكة والطائف واليمن، وانفرد بوصف الطريق من الطائف إلى ميسان ببلاد بني الحارث مروراً بلية وبلاد بني سعد[٤].

وقال الرحالة الموسوي بعض القصائد التي يتغزل فيها بالطائف وما جاورها، وأحياناً يصف طبيعة وهواء الطائف[٥]، ودون قصيدة من عشرة أبيات عندما مر بالهدى، قال في مطلعها:

لقد زاد شوقي يا أخلّاي للهدا   بلاد بها الإحسان والجود والهدى[٦]

وقال بعض الشعر يجيب فيه سكنى الطائف والمجاورة بها، فقال:

عليكم سلام الله يا يحبب الطائفْ   فأنتم وحق المصطفى ملجأ الخائفْ
وحياكمُ رَبُّ الأنام بلطفهِ   وطاف عليكم بالرضا والهنا طائفْ[٧]

١٢- بوركهارت، وليون روش، وتاميزيه (ق١٢- ق١٣هـ/ق١٨- ١٩م).

بوركهارت (Burchart)، هو جون لودفيج، ولد عام (١١١٩هـ/١٧٨٤م) من أب سويسري، كان يعمل ضابطاً برتبة عقيد، هرب من بلدته عندما اجتاحتها الجيوش

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٠٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥.
(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٠٠ وما بعدها، انظر ايضاً الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ٢٦٣، ناصر الحارثي "الطائف في رحلتي العياشي والموسوي" جـ١، ص ١٤٢-١٤٤.
(٥) الموسوي، نزهة الجليس، جـ٢، ص ٣٩٣، ٣٩٤، ٤١٢.
(٦) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٨٤، ٣٨٥.
(٧) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٨٥ وما بعدها.

الفرنسية، درس في ألمانيا ثم بريطانيا، وانخرط في خدمة الحكومة البريطانية، درس اللغة العربية وعلوماً أخرى في جامعة كمبردج، قام بالعديد من الرحلات في أفريقيا وآسيا، وأطلق لحيته وادعى الإسلام، وتسمى بالشيخ (إبراهيم بن عبدالله الشامي) وانضم إلى قافلة حج سودانية ونوبية، وسار معهم من سواكن بحراً حتى وصل ميناء جدة، ثم سار منها إلى الطائف ومكة والمدينة خلال عامي (١٢٣٠-١٢٣١هـ/١٨١٤-١٨١٥م)، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها في سنة (١٢٣٣هـ/١٨١٧م). ورغم أنه لم يتجول في أنحاء الجزيرة العربية، فقد قدم مادة جيدة وجديدة عن الأمكنة التي زارها في الحجاز، وذلك في كتابه: رحلات إلى شبه الجزيرة العربية (Travels In Arabia)[١]. ويعد بوركهارت أول رحالة غربي يزور الطائف[٢].

وليون روش (Leon Roches) فرنسي الجنسية، ولد في غرونوبل، إحدى محافظات فرنسا، عام (١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)، شارك مع والده في الحملة الفرنسية على الجزائر سنة (١٨٣٠م)، تعلم ليون اللغة العربية، وخالط الناس في اجتماعاتهم العامة والخاصة، وخدم في الإدارة الفرنسية بالجزائر، وادعى الإسلام، ثم عمل مع الأمير عبدالقادر، وقد اعترف بذلك في بعض مؤلفاته، وأعلن عدائيته لهذا الأمير الجزائري[٣]. قام ليون روش برحلة إلى الحجاز عام (١٢٥٧-١٢٥٨هـ/١٨٤١-١٨٤٢م) متنكراً في زي حاج مسلم يدعى (عمر بن عبدالله)، وكان هدفه الظاهري مقابلة شريف مكة عندئذ محمد بن عون، والحصول من علماء الحرم على الموافقة على نص فتوى شرعية جاء بها من الجزائر تذكر أن الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، ومن ثمة يستحسن الرضا بحكم الفرنسيين في الجزائر، وعدم شرعية حركة المقاومة التي كان يقودها الأمير عبدالقادر الجزائري. وأثناء

---

(١) انظر هذا الكتاب باللغة العربية (بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٥م).

(٢) انظر روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص ٤٤-٥٣، محمد سعيد الشعفي. كتاب بوركهارت كمصدر تاريخي واقتصادي للدولة السعودية الأولى. جامعة (الرياض) الملك سعود (دراسات تاريخ الجزيرة العربية) الجزء الثاني، ط(الرياض: مطابع جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ص ٤٥٣-٤٦٣، عبدالعزيز صالح. الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة. (الكويت، ١٩٨١م)، ص ٢٩-٣٠.

(٣) انظر، روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض، ١٤٩٠هـ/١٩٨٩م)، ص ١١٠-١١٢، بلقاسم سعد الله. "رحلة ليون روش إلى الحجاز (١٨٤١-١٨٤٢م)" الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ)، جـ١، ص٢٤٩ وما بعدها. انظر عن حياة ليون روش، الرحلة التي هي مذكراته، وكتاب يوسف مناصريه. مهمة ليون روش في المغرب (الجزائر، ١٩٩٠م)، ص٢٧ وما بعدها.

وجود روش في الحجاز وأدائه المناسك وصف المسالك والمدن والناس وحياة المسلمين هناك في مختلف وجوهها، ثم جمع ذلك وغيره من المواد في مذكرات ونشرها في جزئين بباريس سنة (١٨٨٤م)، وسماها: اثنان وثلاثون عاماً في الإسلام. والجزء الأول عن أوضاع الجزائري السياسية وحياة وجهاد الأمير عبدالقادر الجزائري. أما الجزء الثاني، فقد خصصه لمهمته في الحجاز وحياة المرشال بيجو (قنصل فرنسا في جدة)، وتبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر إلى تونس ثم إلى مصر، وقد خصص للحجاز حوالي (٩٠) صفحة من كتابه تحدث فيها عن مكة المكرمة، والمناسك، والطائف، وجدة، وادعى هذا الرحالة أنه ثالث مسيحي يدخل مكة بعد دمونغو باديا، المعروف باسم علي باي سنة (١٨٠٧م)، وبوركهارت سنة (١٨١٤م) [١].

أما تاميزيه، فاسمه الأول موريس، وهو من الرحالة الفرنسيين المجهولين، ولم يحظ بسمعة واسعة، جاء إلى الجزيرة العربية ضمن الحملة المصرية التي سارت إلى عسير سنة (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م)، وكان أميناً لسر رئيس الأطباء في تلك الحملة، وكان عمره آنذاك اثنان وعشرون عاماً، ومن هذه الرواية يتضح لنا أنه من مواليد عام (١٢٢٧هـ / ١٨١٢م). تعلم اللغة العربية قبل قدومه إلى جزيرة العرب، وكان عنده بعض المعارف في الجيولوجيا وفي علم الحيوان والنبات، كما زار الحبشة سنة (١٢٥١هـ/١٨٣٦م) وبعد عودته إلى بلاده سجل مشاهداته في عملين جيدين. الأول: رحلة في بلاد العرب، ونشر عام (١٨٤٠م) في جزئين، تُرجم الجزء الخاص ببلاد عسير إلى اللغة العربية، وهو الكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة[٢]. ورحلته إلى بلاد الحبشة نشرت عام (١٨٣٨م).

يقع كتاب بوركهارت (رحلات إلى شبه الجزيرة العربية) في النسخة العربية، في حوالي (٤٠٠) صفحة من القطع المتوسط جميعها تعكس صوراً تاريخية وحضارية شاهدها هذا الرحالة الأوروبي في مدن وقرى وطرقات الحجاز، وقد أفرد لحاضرة

---

(١) صدر كتاب ليون روش في جزئين بباريس عن مكتبة فيرمان، ديدو (مطبعة المعهد، ١٨٨٥م)، انظر أيضاً بلقاسم سعد الله "رحلة ليون روش..." ص ٢٤٨-٢٨٢.

(٢) هذا الجزء عنوانه: رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير/ ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م). قام بترجمته الدكتور محمد بن عبدالله آل زلفه (الرياض: مطابع واعلانات الشريف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) (ويقع في ٣٥٨ صفحة من القطع المتوسط)، انظر أيضاً جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم. نقله إلى العربية قدري قلعجي، وقدم له الشيخ حمد الجاسر (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت)، ص ٢٥٣.

الطائف وما جاورها أكثر من ثلاثين صفحة، حيث نزل في جدة، ومنها إلى مكة المكرمة ثم صعد إلى الطائف واستقر فيها عدة أيام، وذكر بعض معالم الطائف الجغرافية، ومقابلته محمد علي باشا (حاكم مصر) الذي كان يقيم وقت زيارة هذا الرحالة للحجاز في الطائف، كما ذكر بعض أعلام الحجاز الذين كانوا قريباً من الباشا، مثل: بعض مستشاريه، وقاضي مكة المكرمة[1]، ودون شيئاً من الحوارات واللقاءات التي حدثت بينه وبين الباشا محمد علي، ثم دون بعض مشاهداته عن الطريق التي تخرج من الطائف إلى مكة عبر جبال وادي المحرم والهدا[2].

ويعترف بوركهارت بعدم حصوله على تفصيلات وافية عن مدينة الطائف، لأنه لم يتنقل في أرجائها، ولم يخالط عموم سكانها، إلا أنه يذكر بعضاً مما شاهده، فيقول: "تقع مدينة الطائف وسط سهل رملي يبلغ محيطه نحو أربع ساعات من المشي، ويكسوه نوع من النبات، وتطوقه جبال منخفضة تدعى جبال غزوان، وهذه الجبال عبارة عن سلسلة تابعة لسلسلة الجبال الكبيرة، وهي تمتد لأربع أو خمس ساعات بعيداً إلى الشرق. ولمدينة الطائف شكل مربع غير منتظم، ويبلغ محيطها خمس وثلاثون دقيقة من المشي السريع، وهي محاطة بجدار وخندق، وللجدار ثلاث بوابات، وتحميه عدة ابراج. وفي الجهة الغربية داخل المدينة، يقف القصر على مرتفع صخري... وعلى الرغم من كونه الآن مهدماً، فقد جعل محمد على منه مركزه الرئيسي. ومنازل المدينة في معظمها صغيرة، لكنها متقنة البناء، وهي من الحجر..."[3]. ويضيف هذا الرحالة وصفاً لمدينة الطائف عند زيارتها، فيقول: "يمكن القول: بأن مدينة الطائف في حالة شبه مهدمة، إلاّ أن عدداً قليلاً فقط من المنازل في حالة جيدة، فقد دمر الوهابيون العديد من الأبنية حين استولوا على المدينة سنة (١٨٠٢م)، ... وقد رأيت مسجدين صغيرين، أفضلها هو للهنود... وتتزود مدينة الطائف بالمياه من بئرين تقع إحداهما ضمن الجدران، والأخرى مقابل البوابات، وتشتهر المدينة بحدائقها الجميلة... ولم أقم بزيارة أي من

---

(١) كان محمد علي باشا في حرب طاحنة مع حكام الدولة السعودية الأولى، وكان أثناء زيارة هذا الرحالة للحجاز يسكن الطائف، وأحياناً يتنقل ما بين مكة وجدة والطائف.

(٢) للمزيد انظر بوركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية (النسخة العربية) ص ٥٣ وما بعدها. قضى الرحالة بوركهارت عدة شهور في الجزيرة العربية من عامي (١٨١٤-١٨١٥م)، والمدن التي زارها هي: جدة، والطائف، ومكة، والمدينة، وينبع. للمزيد انظر، كتابه (الرحلات)، ص ١٤ وما بعدها.

(٣) بوركهارت، رحلات، ص ٧٥.

الحدائق، وفي بعضها مقصورات أو خيم كبيرة حيث يقضي سكان الطائف ساعات المرح والبهجة، وأبرزها وادي المثناة، ووادي السلامة، وتروي الآبار والجداول التي تنزل من الجبال تلك الحدائق. ونجد هنا العديد من أشجار الفاكهة مع حقول من القمح والشعير، والفاكهة التي تذوقتها في الطائف العنب، والتين، والرمان، والسفرجل. كما تشتهر حدائق الطائف بوفرة وكثرة ورودها التي يتم نقلها، كالعنب، إلى أنحاء الحجاز كلها[١]... وسكان الطائف الأصليون هم عرب من قبيلة ثقيف[٢].. وقد استقر فيها بعض المكيين، إلاّ أن الأغلبية الساحقة من الأجانب هم من أصل هندي، وهؤلاء ما زالوا يحافظون على زي المسلم الهندي وعاداته على الرغم أنهم ولدوا في شبه الجزيرة العربية، وبعضهم تجار، والأغلبية الساحقة منهم تجار أدوية[٣]... وأعتقد أنه لا يوجد تجار جملة في الطائف، وقد أحصيت نحو (٥٠) متجراً في مجموعها. وكانت هذه المدينة، قبل دخول الوهابيين إليها، مدينة تجارية يأتي إليها أهل الجبال بقافلات القمح والشعير، وكانت المدينة مركزاً تجارياً لبيع القهوة التي تصدر إليها من جبال اليمن[٤]... والمستوردات الوحيدة من الداخل، في الوقت الحاضر، هي التمر الذي يأتي به عرب عتيبة من مزارع الفاكهة العديدة في منطقتهم[٥]، وتكتظ الشوارع الرئيسية بالمتسولين وبينهم عدد كبير من الهنود... وكانت قوافل المؤن تصل كل أسبوع إلى الطائف، غير أن النقص في الجمال لم يكن يسمح باستيراد كاف من الساحل لخفض أسعار الطعام، بالرغم من أن عامة الشعب كانت تقتات بشكل رئيسي من التمر[٦]...كما استقر في الطائف العديد من العائلات الشريفة، ويبدو أن نمط حياتهم، وزيهم، وعاداتهم هي تلك نفسها التي في مكة، إلاّ أني لم أحصل سوى على القليل من فرص الملاحظة في هذا الموضوع"[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٦-٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٧. والتمور كانت وما زالت تصدر من بيشة إلى أسواق الطائف وغيرها.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٧٧. للمزيد عن وصف هذا الرحالة لأهل مكة وأعرافهم وعاداتهم، انظر، المصدر نفسه، ص٨٩ وما بعدها.

في (٢٩/شوال/١٢٥٧هـ الموافق ١٤/ديسمبر/١٨٤١م) سافر الرحالة ليون روش من المدينة إلى مكة، وعند وصوله مكة جاءته موافقة الشريف محمد بن عون على استقباله في الطائف، فخرج ورفاقه عن طريق عرفة وعقبة الهدا حتى قابل الشريف في الطائف، ولم يذكر معلومات ذات قيمة علمية كبيرة، عن الطريق التي سلكها، إلا أنه أشار أن وادياً قريباً من الطائف تزرع فيه القهوة[١]، وربما أن ملاحظاته غير دقيقة فالقهوة لا تزرع في الطائف. ويصف بعض مدن الحجاز التي زارها وشاهد معالمها مثل: ينبع البحر، وبدر، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة[٢]، وعن مدينة الطائف التي أقام فيها عند شريف الحجاز، محمد بن عون، تسعة أيام، فهو يذكر نفس المعلومات التي أوردها بوركهارت عن جغرافية وموقع الطائف، وأطوالها، وأبوابها[٣]. وذكر أن شوارع الطائف واسعة، ومنازلها في حالة سيئة، ويقول: "لا تثير المباني الدينية في الطائف أي اهتمام خاص سوى مسجد ابن عباس الذي تغطي ضريحه قبة رشيقة"[٤].

ويشير إلى الحدائق الجميلة والمزارع الجيدة في الطائف، وبعض البساتين التي توجد عند أسفل التلال، ويذكر أن الشريف أعطاه رخصة لزيارة بعض البساتين في الطائف فوجدها مليئة بالأشجار المثمرة من كل الأنواع، وبها الورود على اختلاف أنواعها[٥].

أما الرحالة موريس تاميزيه فلا يذكر شيئاً عن الطائف، لأنه خرج مع الجيش العثماني الذي يتجه إلى غزو بلاد عسير، مع أن هذا الجيش مر بمدينة الطائف حتى وادي لية الذي أقام فيه ليلة للراحة والاستعداد، وعند مرور تاميزيه من الطائف قال: "شاهدنا منازل شريف مكة الريفية، تظهر أمام هضبات متكونة من صخور متكاثرة وبعض الأشجار التي ما زالت تعد من الحدود الفعلية لمدينة الطائف"[٦]. أما وادي لية الذي يقع جنوب مدينة الطائف فيحيط به جبال جرداء، لا يرى فيها إلاّ شجر الطلح، وأشار إلى توفر المياه والمزارع في هذا الوادي[٧]، ويذكر أن بعض الشيوخ والأعيان في هذا الوادي وما جاوره قدموا على أحمد باشا قائد

---

(١) انظر بلقاسم سعد الله "رحلة ليون روش" (١٨٤١-١٨٤٢م)"، ص ٢٥٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٠-٢٦٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٦، انظر أيضاً بوركهارت، رحلات، ص ٧٥٢ وما بعدها.

(٤) بلقاسم سعد الله. "رحلة ليون روش..."، ص ٢٦٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٦) انظر موريس تاميزية، رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير)، ترجمة محمد بن زلفة، ص ٥٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٨-٥٩.

الحملة للسلام عليه وتقديم الولاء والطاعة له ولدولته (الدولة العثمانية)، كما أن القائد نفسه أحسن استقبالهم، ووزع عليهم بعض الهدايا من ألبسة وغيرها[١]. وذكر تاميزيه أن سكان هذه البلاد ومن جاورهم جنوباً من البدو، وأشار إلى نماذج من ألبسة رجالهم وأطفالهم ونسائهم[٢].

١٣- شارل ديدييه، وأيوب صبري باشا، ومحمد صادق باشا، والقاري (ق١٣-ق١٤هـ/ق١٩-ق٢٠م):

شارل ديدييه (CharlesDidier) أديب وشاعر وصحفي سويسري من أصل فرنسي، ولد في جنيف عام (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م)، درس ديدييه في جنيف القانون، وعلم النبات، والرياضيات، وعاد إلى باريس، واكتشف ميله إلى الرحلات، ونشر أول قصائده الشعرية في جنيف عام (١٨٢٥م)، ثم ذهب في مهمات رسمية لحكومته إلى كل من بولندا، وألمانيا، ثم إيطاليا، ثم قام برحلات عديدة إلى كل من اسبانيا، والمغرب، والجزيرة العربية، ومصر، وقد أصيب في آخر حياته بالإجهاد والتعب ثم العمى. وله مؤلفات عديدة، منها، من قصص الرحلات، وأشهرها: سنة في أسبانيا. (طبعه في بروكسل عام ١٨٣٧م)، وحملة على روما. (١٨٤٢م)، وجولة في المغرب (١٨٤٤م)، ورحلته إلى الحجاز، وهو الكتاب الذي يهمنا في هذا البحث، صدر بالفرنسية عام (١٨٥٧م)، وترجمه إلى العربية محمد خير البقاعي، تحت عنوان: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن (١٩م)، والكتاب مع مقدمة المترجم والفهارس يقع في (٤٠٠) صفحة[٣]. وصف ديدييه مسار رحلته من القاهرة إلى السويس، وجبل سيناء، ومدينة الطور، ثم تحدث عن البحر الأحمر، وينبع، وجدة، والطائف، التي قابل فيها شريف مكة المكرمة عبدالمطلب بن غالب، ثم وصف طريق جدة الطائف، والطائف جدة لأنه عاد من طريق أخرى تختلف عن طريق الذهاب، وأشار إلى مغادرة جدة إلى سواكن عبر البحر الأحمر، وأفرد فصلاً عن الأشراف والوهابيين وعلاقاتهم السياسية والعسكرية[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨-٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٦١-٦٣.

(٣) شارل ديدييه، رحلة إلى الحجاز (ترجمة محمد خير البقاعي (الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ١٢ وما بعدها. وهناك مؤلفات أخرى عديدة لهذا المستشرق معظمها ما زالت باللغة الفرنسية.

(٤) انظر شارل ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص٦١، وما بعدها.

أما أيوب صبري باشا، فقد ولد بتساليا في تركيا، ونشأ وترعرع في القواعد البحرية حتى أصبح أميرالايا، ومكث في مكة والمدينة مدة طويلة، ثم رقي بعد عودته من بلاد الحجاز إلى أمير اللواء، وترأس قسم المحاسبات البحرية، ثم تولى التدريس في مدرسة البحرية في استانبول[1]، وله مصنفات عديدة في الشعر، والتاريخ، ومنها كتبه: مرآة مكة، ومرآة المدينة، ومرآة جزيرة العرب، التي تعد كتاباً متكاملاً عن الجزيرة العربية. وهذا الكتاب اشتهر في الأوساط التركية في عهد السلطان عبدالحميد، وهو كتاب علمي تحرى صاحبه فيه الدقة والمصداقية، واستند فيه على مصادر عربية وتركية وفارسية أصلية، مدعماً ذلك بمشاهداته وملاحظاته، وتوفي هذا العالم بمدينة استانبول سنة (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)[2].

ومحمد صادق باشا، ولد بالقاهرة سنة (١٢٣٨هـ/١٨٢٢م)، وتوفي بها سنة (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، وهو من أعضاء الجمعية الجغرافية، تلقى تعليمه في القاهرة وباريس، ورحل إلى الحجاز، وهو أول من أخذ قياسات دقيقة لقبر النبي (ﷺ)، ألف كتاباً أسماه: دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج، وهو مكون من عدة كتب سبق تأليفها عن رحلاته إلى الأماكن المقدسة مسؤولاً وحاجاً[3]. ولم أستطع الاطلاع على هذا الكتاب، أما المكتوب عن مدينة الطائف فقد اطلعت عليه مقتبساً في كتاب اللواء إبراهيم رفعت باشا، الموسوم: بـ مرآة الحرمين (أو) الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية[4].

أما القاري، فقد كتب في التاريخ، وهو الشيخ عبدالحفيظ بن الشيخ عثمان بن محمد القاري الإدريسي من علماء الطائف المتأخرين، ولد بالطائف، ودرس على

---

(١) هناك أمثال أيوب صبري باشا رحالة وأصحاب مدونات من العثمانيين والمصريين وغيرهم الذين جاءوا إلى جزيرة العرب خلال عصر الإمبراطورية العثمانية ودونوا بعض مشاهداتهم وتجاربهم وملاحظاتهم، وكثير منها لم يصلنا، وربما ضاع بعضها، وأخرى ما زالت مكتوبة باللغة التركية العثمانية، وموجودة في بعض مكتبات أو أراشيف متعددة في مصر وتركيا وغيرها.

(٢) انظر أيوب صبري باشا. مرآة جزيرة العرب. ترجمة وتقديم وتعليق أحمد فؤاد متولي، والصفصافي أحمد المرسي (الرياض: دار الرياض للنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، جـ١، ص ٣٠ وما بعدها.

(٣) انظر الزركلي، جـ٦، ص ١٦١.

(٤) الكتاب يقع في جزئين، وما دون عن الطائف يوجد في الجزء الثاني، ص ٣٤٤-٣٥٣. واللواء إبراهيم رفعت ولد في القاهرة عام (١٨٥٥م)، وعمل في الجيش المصري في عهد الخديوي اسماعيل، وعين أميراً لركب الحج المصري، وحج مرات عديدة، وكتابه المذكور أعلاه يعد وصفاً دقيقاً لرحلة الحج التي سار فيها عام (١٣١٨هـ/١٩٠١م).

بعض علمائها، ثم رحل إلى الأستانة، ودرس على يد بعض العلماء هناك، واجتاز العالمية أمام لجنة من العلماء المتخصصين، ثم عاد إلى الطائف. وله رسالة مختصرة مدونة من أربعة تواريخ، لم يزد فيها على ما كتب سابقوه، إلا بقوله "وقد اندرس أكثر المآثر والمزارات"، ومنها نسخة مخطوطة في سبع ورقات بمكتبة الحرم المكي الشريف، وتوفي سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) [(١)].

ويتحدث شارل ديدييه في ثلاثة فصول من كتابه عن إقامته في الطائف، والطريق التي سلكها من جدة إلى الطائف، ثم من الطائف إلى جدة[(٢)]. ودون بعض المعالم الجغرافية التي شاهدها قريباً من هذين الطريقين، واشار إلى أماكن الاستيطان، والقرى والسكان الذين رآهم يسكنون قريباً من هذه المسالك، وذكر أسماء أعلام من أهل الحجاز كانوا يرافقونه في تلك الرحلة[(٣)]. وعند وصوله الطائف يسهب في الحديث عن حسن الاستقبال الذي لقيه من الشريف الأكبر عبدالمطلب بن غالب فقد أمر بإعداد السكن والخدم الذين يقومون على خدمته ورفاقه، وعند زيارة الشريف في منزله وسط الطائف ذكر شيئاً من هيئة قصره، والخدم والجواري والعبيد الذين شاهدهم يعملون في ذلك القصر[(٤)]، كما تحدث شارل ديدييه مع الشريف في قضايا سياسية يعيشها العالم آنذاك، وقد سنحت لهذا الرحالة القيام بجولة في بعض أجزاء الطائف، وذكر شيئاً من بعض الآثار التي شاهدها في مسجد عبدالله بن عباس وأمكنة أخرى من الطائف[(٥)]، ولم يغفل عن ذكر بعض الألبسة التي كان يرتديها الشريف، وبعض الرجال من حوله، أو بعض البدو، أو العبيد في محيط قصر الشريف أو أمكنة أخرى من الطائف[(٦)]، وذكر بعض الأبنية في الطائف، مثل المنازل وطوابقها ومرافقها ومواد بنائها[(٧)]، ويصف هذا الرحالة وجبة العشاء التي قدمها لهم الشريف أثناء وصولهم الطائف، فيقول: "كان العشاء يزخر بأنواع الأطعمة المحلية، جاء أولاً الخروف الذي يعد من

---

(١) للمزيد انظر، الزركلي، جـ٣، ص ٢٧٩، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه"، جـ٢، ص ٢٧٩.

(٢) شارل ديدييه، الرحلة إلى الحجاز، ص ٢٦٥-٣٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٥-٢٩٤، ٣٣١-٣٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٥-٢٩٩، ٣٠٦، ٣٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٣١٤، ٣١٨، ٣١٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٩ وما بعدها.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٨ وما بعدها.

عادات الضيافة، كان محشواً بالرز، واللوز والفستق، ثم تلته أوراق العنب المحشوة، والكباب، وهو قطع من اللحم مربعة ومشوية، وعصائر الورد المخثرة المطبوخة مع صدور الفراريج أو الخراف، ثم أتت بعد ذلك تشكيلة منوعة من الحلويات تسمى (الفطير). ناهيك عن الأشياء الأخرى العجيبة، كان كل ذلك متبلاً بالأعشاب العطرية المقطعة في الخل، وله صلصة بالكريمة المطيبة بالتوابل..."[1].

ويذكر صوراً من تجارات الطائف وأسواقها، ودور أهل الطائف في تلك النشاطات الاقتصادية، فقال: "يسكن الطائف بدو قبيلة ثقيف، باستثناء بعضٍ الأسر القليلة، الغريبة، هندية أو غيرها، وأصبح بدو ثقيف حضريين، بل صناعاً وتجاراً، إنهم يصنعون بأنفسهم غالبية الأشياء الضرورية للحياة العامة[2]، كما يصنعون أسلحتهم وأحزمتهم وحمالات سيوفهم الجلدية، وسجاد غير متقن الصنع، مصنوع من وبر الجمال، والمجوهرات التي تتزين بها نساؤهم[3]... أما المحال التجارية فهي بائسة، ويديرها الرجال كما هو الحال في الشرق كله، ولا أذكر أنني لمحت امرأة واحدة خلال إقامتي في الطائف، مع أن الفرصة سنحت لي لرؤية عدد كبير مِن الناس عندما صادف وجودي فيها أحد أيام السوق[4]، وقد كان كل شيء هناك تقريباً يباع بالمزاد[5].

أما الرحالة أيوب صبري فقد قدم وصفاً لا بأس به لمدينة الطائف، وما بها من آثار مهمة، ولكنه سرد تاريخي عام أكثر منه وصفاً علمياً يعكس ما آل إليه العمرانِ والتمدن في تلك الفترة. كما تحدث عن مسجد عداس، وذكر مسجداً آخراً جديداً سماه: (مسجد النملة[6]. أما عبدالحفيظ القاري، فلم يذكر هو الآخر معلومات

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٢) الدارس لأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية في عموم الجزيرة العربية خلال القرون الماضية سيجد أن عامة الرجال والنساء في القرى والبوادي والحواضر يقومون بخدمة أنفسهم في خياطة ملابسهم، وصناعة ما يحتاجونه في مزارعهم، ورعيهم، وصيدهم، وتجاراتهم. نعم كان هناك صناع مهرة من حدادين، ونجارين، وخياطين، وغيرهم، فهم يعلمون أعمالهم بأجور تدفع لهم، لكن هناك أفراد وأسر يعملون لأنفسهم ما يحتاجون ويخدمهم في حياتهم اليومية.

(٣) شارل ديدييه رحلة إلى الحجاز، ص ٣١٢-٣١٣.

(٤) تغير الحال اليوم فالأسواق اليوم أصبحت المجال الأهم والرئيسي للنساء، فترى معظم المتسوقين من النساء، وكثيراً من الباعة في محلات الأسواق أصبحن من جنس النساء أيضاً.

(٥) شارل ديدييه، الرحلة، ص ٣١٣.

(٦) انظر: أيوب صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، جـ١، ص٣٠ وما بعدها. وتشتهر الطائف بالمساجد القديمة، ونأمل أن نرى باحثاً يدرس تاريخ المساجد في هذه المدينة الحجازية خلال القرون الماضية المتأخرة، ومن يفعل ذلك فإنه سوف يطلعنا على معلومات وتفصيلات قيمة تصب في خدمة هذا الموضوع.

كثيرة عن الطائف، وإنما أشار في رسالته عن هذه المدينة سبب تسمية الطائف، وأورد الأحاديث النبوية المتصلة بها، وحصار الرسول (ﷺ) للطائف، وأسماء المدفونين في المسجد من رجالات السياسة الذين توفوا في أواخر القرن (١٣هـ) وأوائل القرن (١٤هـ)، ثم تحدث عن الآثار التي تتصل بأحداث الفترة الإسلامية المبكرة، كما انفرد القاري بإيراد أسماء خمسة مساجد جديدة بنيت في الطائف على الأرجح قبل عصره، أو في زمنه[١].

وينقل اللواء إبراهيم رفعت باشا بعض مدونات الرحالة محمد صادق باشا، فيذكر أنه خرج من مكة مع بعض الرفاق من الأشراف وغيرهم متجهين إلى الطائف في يوم الثلاثاء غرة رمضان (١٣٠٤هـ/١٨٨٣م)، واستغرقت رحلتهم حوالي (٣٦) ساعة عبر طريق الزيمة ووادي السيل الكبير (قرن المنازل)، وأقام في الطائف عدة أيام، ثم عاد إلى مكة عن طريق عقبة الهدا وقد استغرق السير ما بين الطائف ومكة حوالي (١٨) ساعة[٢]. ويذكر معلومات متكررة في عدد من المصادر والمراجع مثل طبيعة مناخ الطائف، والأصنام التي توجد بها، مثل، صنم اللات، الذي هدم في عهد الرسول (ﷺ) ويشير إلى بعض المعالم الجغرافية على قارعة الطريقين اللتين سلكهما في ذهابه وإيابه من وإلى الطائف[٣].

ويذكر أيضاً بعض مشاهداته عن مدينة الطائف، وما حولها، فيقول: "الطائف صحراء متسعة تحيط بها جبال صغيرة غير منتظمة، أرضها صالحها للزراعة، لأنها تتكون من طين ورمل شديد النعومة، ويقال للطائف أيضاً وادي العباس... وبلدة الطائف يحيط بها سور من اللبن بناه الشريف غالب سنة (١٢١٤هـ)، وداخل هذا السور (٤٠٠) منزلٍ و(٢٠٠) حانوت، وستة جوامع[٤]، أشهرها جامع عبدالله بن عباس...وبها أيضاً سبعة مساجد، ودائرة للحكومة، ومنزل للمدير، ومستشفى للجند، وحمام، وقلعة لحبس المجرمين، وعدد سكانها (٢٠٠٠) نفس[٥]، وبيوتها في أكثر الأشهر خالية من السكان إلاّ القليل، ولا تعمر إلاّ في الصيف حيث يؤمها

---

(١) للمزيد انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ٢٧٩، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه"، جـ٢، ص ٢٧٩.

(٢) انظر اللواء إبراهيم رفعت باشا. مرآة الحرمين، جـ١، ص ٣٤٤-٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤٤ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٤٦.

(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.

المكيون فراراً من حر مكة وقيظها[١]، وبجوار الطائف جنات مثمرة، وعيون جارية، وقرى آهلة، ويوجد خارجها بعيداً عن سورها نحو (٢٥) منزلاً، بعيداً بعضها عن بعض، ومحاطة بالأشجار داخل الأسوار، والمنزل منها يتركب من طبقتين في كل طبقة حجرات ثلاث نفذ بعضها إلى بعض، وهذه المنازل لأغنياء مكة خصوصاً أميرها والشيخ الشيبي"[٢].

ويذكر من فواكه الطائف عنبها لا سيما النوع المعروف بعنب (الجاووش)، والخوخ، والرمان، والتين، والبرشومي، والتوت الشامي، والبرقوق، والبلح، والليمون، وأنواع الخضروات[٣]. ويتحدث عن عادة الختان عند أهل الطائف حيث كانت جائزة فلا يكتفى بختان السنة وإنما يسلخ جلد القضيب ومعظم جلد العانة، ووصفها بالوحشية[٤].

١٤- الحضراوي، وداوتي، وسنوك، والدهلوي، (ق١٣- ق١٤هـ/ق١٩- ق٢٠م):

الحضراوي: هو أحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي المكي الهاشمي، ولد بالإسكندرية (١٢٥٢هـ/١٨٣٦م)، وانتقل مع والده إلى مكة المكرمة صغيرا، فنشأ بها وأخذ عن علمائها، وتوفي سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، وله كتب عديدة، والف عن الطائف كتاباً سماه: اللطائف في تاريخ الطائف، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الحرم المكي الشريف، برقم (٢٣) تاريخ، ومعظم معلومات هذا الكتاب منقولة من كتاب حسن العجمي، وأشار في بعض أبواب الكتاب إلى بعض الآثار العمرانية الإسلامية في الطائف[٥].

أما داوتي (Doughty)، فهو رحالة انجليزي يدعى تشارلز مونتيجيو داوتي، ولد في بريطانيا عام (١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م)، من عائلة إقطاعية اشتغل معظم أبنائها في البحرية البريطانية والكنيسة الأنجليكانية، التحق داوتي بجامعة كمبردج ودرس الجيولوجيا،

---

(١) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه، جت١، ص ٢٤٧.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٤٧-٢٤٨. وهذه العادة مشهورة عند سكان الجنوب مثل بلاد عسير وما جاورها، ويبدو أن أهل الطائف كانوا يمارسونها أيضاً، وقد ذكرها أكثر من مصدر ورحاله جاءوا إلى بلاد عسير وجازان خلال القرون الماضية المتأخرة. للمزيد انظر، محمد عمر رفيع. في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ). (الطائف: مكتبة المعارف، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، ص ٨٤-٨٧، غيثان بن علي بن جريس. عسير (دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ/١٦٨٨-١٩٨٠م) (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ٨٥-٨٧.

(٥) للمزيد انظر: الزركلي، الأعلام، جـ١، ص ٢٤٩، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه"، جـ٢، ص ١١٢-١١٣.

ثـم درس لغات أخرى عديدة مثل: الهولنديـة، والدنماركية، كما درس بعض الوقت في جامعة أكسفورد، ثم رحل إلى اليونان، ثم مصر التي وصلها عام (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، ثم سـار عبر صـحراء سـيناء حتى وصـل مدينة البتراء في الأردن، وسمع عن مدائن صالح، وعندئذ تنكر في زي رجل سوري وأطلق على نفسه اسم (خليل)، ثم انضم إلى قافلـة حج ايرانية، وتظاهر أنه طبيب، وفي عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) وصـل إلى مدائن صالح، ومر بمدينة تيماء، وسار إلى مدينة حائل، ثم خيبر، ثم مدينة عنيزة، ثم ذهب إلى الطائف، ومنها إلى جدة التي وصلها عام (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، وبعد عشر سنوات ظهر كتابه الموسـوم بـ: رحلات في الصحـراء العربية (Travels In Arabia Deserta)، في جزئـين. والملاحـظ على هذا الكتـاب، أن داوتي اهتم بالأسـلوب أكثر من اهتمامه بجمع المادة العلمية، وقد توفي في بريطانيا عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) [١].

والملاحـظ علـى هـذا الرحالة أنـه لم يقدم معلومـات ذات قيمة فيما يتصـل بالطائف، اللهم إلاّ اشارات موجزة في وصف الطريق المؤدية من جدة إلى الطائف، كمـا ذكر أنه شـاهد بعض العمال على مقربـة من الطائف وهم يقومون بتكسـير الصخور من الجبال لاستخدامها في بناء بعض الأبنية والمرافق المعمارية، وذكر أنه رأى العديد من المنازل والأكـواخ البدائية، والمنازل الجيدة كانت معمولة بالجص، أما الشوارع والأزقة في الطائف فكانت في حالة سيئة[٢].

أما المؤرخ والرحالة سـنوك، فهو: الدكتور كرسـتيان سـنوك هورخرونيه، ولد في هولنـدا عـام (١٢٧٤هــ/١٨٥٧م)، ومات عـام (١٣٥٥هــ/١٩٣٦م) عن عمر يناهـز الحاديـة والثمانين عامـا[٣]. التحق بجامعة ليـدن لدراسـة اللاهوت عام (١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، وبعد سـنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، كرس نفسـه لدراسة اللغات والآداب السامية، وكان موضوع رسالته للدكتوراه في عام (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م): الحج عنـد المسلمين وأهميته في الدين الإسـلامي. وفي عـام (١٢٩٨-١٢٩٩هـ/١٨٨٠-١٨٨١م) عمل تحت إشـراف المستشـرق الألماني نولدكه، وفي السنة التي تليها عين

---

(١) للمزيد انظر، روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٧٧-٨٩، عبد العزيز صالح، الرحلات والكشوف الأثرية، ص٤٣ وما بعدها.

(٢) للمزيـد انظـر: Charles m.Doughty. Travles in Arabia Deserta (New Yourk, 1979), vol.2, pp522-551.

(٣) انظر ك. سنوك هورخرنيه. صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن (١٣هـ). ترجمة محمد محمود السرياني، ومعراج مرزا (مكة المكرمة، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، جـ٢، ص ٨ وما بعدها.

محاضـراً في الدراسـات الاسـلامية في كلية تدريب الموظفين لجزء الهند الشرقية التابعة لجامعة ليدن. سـافر سـنوك إلى بلدان عديدة من الشـرق، وأخيراً قرر أن يدعي الإسـلام، ويغير اسمه إلى (عبدالغفار)، ثم ذهب إلى جدة، ومنها دخل مكة عـام (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)، وأقام فيها بين الجاليات الجاوية أكثر من سـتة أشـهر، وعلـى إثـر هذه الإقامة ألف كتابه الذي أسـماه (مكة) في جزئـين، وقد كتبه باللغة الألمانيـة، وطبع في مدينة لاهاي بين عامي (١٣٠٦-١٣٠٧هـ/١٨٨٨-١٨٨٩م)، ومن أعماله الأخرى المرتبطة بهذه الرحلة أنه جمع في أثناء وجوده في مكة عدداً كبيراً من الأمثال العربية والكلمات الدارجة ونشـرها مع ترجمتها وتفسيرها. ويمكن الرجوع إلى محتويات الجزئين التي أصـدرها، والتي قامت دارة الملك عبدالعزيز بترجمتها وطباعتهـا ونشـرها عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). وفي الجـزء الأول: دراسـة تاريخية حضارية لمكة منذ عهد الرسول (ﷺ) إلى القرن (١٣هـ/١٩م). أما الجزء الثاني: فهو خلاصـة مشـاهداته في مكة أثناء إقامته فيها، وقد ذكر محاور عديدة في هذا الجزء منها: حياة العائلة وبناء الأسـرة، وصـور من الحياة العلمية في الحرم المكي، وصور أخرى من حياة الناس العامة، وطبقات السكان وأجناسهم في مكة[1].

لم يذهب سـنوك إلى الطائف، ولم يذكر تاريخها وحضارتها في مصنفه، لكنه فصل الحديث عن سكان مكة، وذكر منهم البدو أو ما سماهم (اليمنيون)، ويقصد بذلك أهل الطائف ومن جاورهم جنوباً من أهل السـراة، فقال: "يأتي من مناطق الحجـاز إلى مكة وخاصـة من المنطقة الواقعة بين الطائـف ووادي يبة بعض البدو الفقـراء الذين يعملون كبوابين في بيوت مكة، حيث يسـكن هؤلاء عند مدخل الدور للقيام بالحراسـة، وهذا النوع من العمل مهم جداً في أوقات الحج حيث تكون هذه البيـوت مليئة بأمتعة الحجاج، وهؤلاء عندهـم أمانة للقيامة بهذا النوع من العمل، ولهذا يفضلهم سكان مكة أكثر من غيرهم"[2]. ويصف هذا الرحالة مواطن هؤلاء

(١) انظر، سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكة. نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) (جزءان)، انظر أيضاً: معراج نواب مرزا، ومحمد محمود السرياني "دوافع رحلة سنوك هورخرونيه وقيمتها العلمية بوصفها مصدراً من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية. الرحلات في شبه الجزيرة العربية. (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، جـ٢، ص٦٠٧-٦٣٥.

(٢) انظر كتاب سـنوك، صـفحات من تاريخ مكة، ترجمة محمد السـرياني، ومعراج مرزا، جـ٢، ص ٥٦-٥٧. ويذكر لنا بعض الآباء والأجداد في مناطق عسير والباحة أنهم كانوا فعلاً يذهبون إلى مكة للخدمة في بيوت المكيين، وأكثر الأعمال التي كانوا يمارسونها نقل الأغراض من مكان لآخر، وحراسة المنازل. المصدر: هذا ما سمعه الباحث من أكثر من رواية في أبها والنماص خلال العقود الأولى من القرن (١٤هـ/٢٠م).

البدو في مكة وما جاورها، وكيف كانوا يجلبون بعض السلع من بلادهم في السروات، ولديهم بعض الجمال التي يؤجرونها في السفر ونقل البضائع، فقال: "... يعيش الفقراء منهم في أكواخ، بينما يعيش الموسرون في بيوت بسيطة، ويقوم هؤلاء بإيجار جمالهم بين جدة والطائف والمدينة، كما يقومون بجلب الأغنام والحليب والزبد والتمور من مناطقهم إلى المدينة المقدسة، ويطلق على هؤلاء اسم (المكاريين)"[(١)].

أما الدهلوي، فهو: عبدالستار بن عبدالوهاب بن خدايا بن عظيم حسين يار المباركشاهوي البكري الصديقي الحنفي أبو الفيض وابو الإسعاد، ولد في مكة عام (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)، وتوفي بها سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، درس بالحرم المكي الشريف، وهو عالم بالتراجم، وله عن الطائف: ملحقات وإضافات مفيدة على كتاب حسن العجمي، السابق ذكره، وله تعليقات مفيدة جداً وبخاصة على بعض الاثار الإسلامية في الطائف، كما شاهد نصوصاً كتابية لتجديدات تمت في مسجد عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)، وشواهد لبعض القبور، وذكر بعض المواقع الأثرية وحدود أماكنها ووصف مسجد الهادي في زمنه وصفاً جيداً[(٢)].

١٥- ابن كمال، والشريف البركاتي، وشكيب ارسلان، ومن دبوى (ق١٣-ق١٤هـ/ق١٩-ق٢٠م):

ابن كمال: هو عبدالله بن بكر بن عبدالله بن الشيخ بكر بن علي بن عبدالحفيظ بن كمال بن محمد بن فاضل بن كمال النمري الثقفي، ولد بالطائف عام (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م)، وقيل (١٢٨٣هـ/١٨٦٦م)، أرسله والده إلى البادية فنشأ بها، ثم عاد إلى الطائف ودرس على بعض علمائها، وأجيز للتدريس في مجلس ابن عباس، تولى قضاء الطائف سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ثم استقال من القضاء عام

---

(١) المكاري: هو الذي يؤجر نفسه وجمله أو وسيلة نقله لنقل المسافرين والبضائع وغيرها. انظر، سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة محمد السرياني، ومعراج مرزا جـ٢، ص٥٧. ونجد بعض الرحالة السابقين مثل ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما، وأيضاً بعض الوثائق تذكر أن أهل الطائف وعموم بلاد السروات كانوا ينقلون البضائع على جمالهم إلى مكة، وكانوا يصدرون الكثير من محاصيلهم الزراعية ومواشيهم إلى أسواق الحجاز. كما أن بعض الرواة في القرن (١٤هـ/٢٠م) ذكروا أنهم كانوا يذهبون إلى مكة ومدن الحجاز الأخرى لنقل السلع والمسافرين من مكان لآخر.

(٢) للمزيد انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص٣٥٤، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه"، جـ٢، ص ١١٤، عمر بن عبدالجبار. سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري (جدة: دار عكاظ للطباعة والنشر، الناشر: تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم (٦٧)، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، ص ١٩٦-١٩٩.

(١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، وسافر إلى مكة فعين عضواً بلجنة المعارف، واستمر بها إلى أن توفي سنة (١٣٤١هـ/١٩٢٢م)، كان أسمر اللون، طويل القامة، كث اللحية، ألف كتاباً في تاريخ الطائف، فقد من أسرته عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، ولا نعلم شيئاً عن محتويات هذا الكتاب[١].

والشريف البركاتي، هو شرف بن عبدالمحسن، عاش في الحجاز، وعاصر الشريف حسين بن علي (أمير مكة) وخدم في حكومة الملك عبدالعزيز، ومات سنة (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)[٢]. كتب رحلته التي أسماها: الرحلة اليمانية، وهذه الرحلة عندما ذهب مع الشريف حسين بن علي (أمير مكة) من الحجاز إلى عسير عام (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، وذلك من أجل فك حصار الإدريسي عن مدينة أبها، ذهب الشريف حسين وجيشه عن طريق الساحل ثم صعد مع عقبة ساقين في تهامة بني شهر وواصل سيره إلى أبها، وعاد عن طريق بيشة والطائف حتى مكة[٣]. وجل حديث هذا الرحالة عن الأحداث السياسية والعسكرية التي واجهت الشريف حسين بن علي في تلك الرحلة الحربية، كما دون معلومات قيمة عن الأمكنة والسكان الذين مر عليهم الشريف حسين وجيشه أثناء ذهابهم إلى أبها ورجوعهم إلى مكة المكرمة[٤]. وذكر أيضاً بعض التفصيلات عن القبائل التي تسكن جنوب وشرق الطائف، أو في محيط الحاضرة نفسها[٥]. ويشير البركاتي إلى دخولهم الطائف يوم الخميس (٢٢/شعبان/١٣٢٩هـ) وإقامتهم فيها حوالي شهرين، أي إلى (٢٤/ شوال / ١٣٢٩هـ)، ثم ساروا إلى مكة عبر وادي المحرم، وعقبة الهدا، وذكر وفرة الفواكه والخضروات في هذه الأمكنة التي اجتازوها من وسط الطائف إلى رأس جبل الهدا الذي يذكر أن ارتفاعه عن سطح البحر (٢٢٥٠متراً)[٦].

---

(١) انظر، الزركلي الأعلام. جـ٤، ص٧٥، محمد سعيد كمال "قطر الطائف ومؤرخوه" جـ٢، ص١١٣-١١٤، عمر عبدالجبار، سير وتراجم بعض علمائنا، ص ١٦٣.

(٢) للمزيد انظر، غيثان بن علي بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص٣٤٦-٣٤٧. جـ٥، ص٥٥-٥٧. جـ٩، ص ١٦٥-١٦٦.

(٣) هذه الرحلة طبعت وحققت أكثر من مرة، واعتمدنا على الطبعة التي حققها عبدالله بن عبدالرحمن بن الياس، وطبعتها دار نشر تراث العرب في بيروت، الطبعة الثانية عام (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

(٤) انظر الرحلة نفسها، ص٣٥، وما بعدها.

(٥) ومن تلك القبائل فروع من قبيلة عتيبة، وسبيع، والبقوم، وبني مالك، وثقيف، وقريش، المصدر نفسه، ص١٨٧ وما بعدها.

(٦) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ١٥٥-١٥٧.

وتحت عنوان جانبي سماه (إمارة الطائف)، قال: "ويوجد أيضاً بالحجاز إمارة للعرب، وهي الطائف، التي يبلغ عددها عشرين ألفاً، وأميرها سيادة الأمير الشريف زيد بن فواز من طرف دولة أمير مكة، وتحت إمارته جميع القبائل الموجودة بجبل السراة[١]. والطائف هو نهاية جبل الحجاز من جهة الشمال، وبه عيون تجري، وآبار. وأراضي الطائف خصبة، وبساتينه كثيرة، وهواؤها جيد بارد جاف، وأهل مكة تذهب إليه في الصيف، كما أن دولة أمير مكة، وهيئة الحكومة، والأغنياء بمكة تذهب إليه كل عام صيفاً. والفواكه بالطائف كثيرة، من ضمنها: الرمان، والسفرجل، ولا يوجد لها مثيل في أنحاء المعمور، ويزرع بالطائف من الحبوب: البر، والشعير، والذرة، ويمتاز الطائف بجودة الورد.."[٢]، ويفصل الحديث عن جودة هواء الطائف في الصيف، ويذكر معلومات تاريخية حضارية عن بلاد الطائف وما حولها قل أن نجدها في مصادر ومراجع أخرى[٣].

أما دبوي (Laurent Marcel Depui)، وشكيب أرسلان فقد جاء إلى الجزيرة العربية في بدايات الدولة السعودية الثالثة. فالأول، لورون مارسال دبوي ولد في وسط شرق فرنسا قريباً من الحدود السويسرية عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م)، والتحق بالجيش الفرنسي سنة (١٣١٤هـ/١٨٩٦م)، وقضى سنوات من عمره في عمله العسكري في الشرق الأوسط (سوريا، والحجاز، والصومال، ونجد)، وأعلن اسلامه، وتسمى باسم (الشريف إبراهيم)، أو (الشريف الياس إبراهيم)[٤]. قدم دبوي إلى الحجار برتبة نقيب في عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٧م) ضمن البعثة العسكرية والسياسية الفرنسية إلى الجزيرة العربية، وشارك مع الشريف حسين في العديد

---

(١) إن التاريخ الإداري في بلاد السراة من الطائف شمالاً إلى أبها وبلاد وادعة وقحطان جنوباً غير واضح وبخاصة في القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة. والعصر الحديث حتى بداية القرن (١٤هـ/٢٠م). والقبائل في هذه البلاد صاحبة السيطرة على أوطانها، وإذا كان هناك امتداد لإمارات مكة المكرمة والطائف فهي شكلية، ولم تخضع هذه البلاد لمؤسسات إدارية تابعة لدولة حقيقية إلا منذ عصر الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، ونأمل أن يدرس موضوع الإدارة ونظمها في بلاد السروات منذ عصور ما قبل الإسلام حتى الأربعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م). وكذلك موضوع الحياة الإدارية في هذه البلاد خلال العصر الحديث والمعاصر منذ عام (١٣٥٠-١٤٣٨هـ/١٩٣١-٢٠١٧م). يحتاج هو الآخر إلى دراسة علمية موثقة.

(٢) البركاتي، الرحلة، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦-١٥٧، ٢٠١ وما بعدها.

(٤) علي محمد الزيدي "أهمية مدونات الفرنسي دبوي بوصفها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية خلال المدة (١٩١٩-١٩٢٩م) بحث منشور في كتاب: الرحلات في شبه الجزيرة العربية، الذي طبعته ونشرته دارة الملك عبدالعزيز عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، جـ٢، ص٨٠٧ وما بعدها.

من الأحداث التي وقعت في الحجاز، ثم غادر الحجاز عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، ورجع إليها في العام التالي (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م). وبقي يقوم بأعمال القنصلية الفرنسية في جدة حتى عام (١٣٤٨هـ/١٩٢٩م) [١]، واستمر بعد ذلك في صلات مستمرة مع المملكة العربية السعودية، وشغل أيضاً منصب قنصل لبلجيكا في جدة بين سنتي (١٣٥٤، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٥، و١٩٣٨م). لم يذكر دبوى معلومات محددة عن مدينة الطائف، لكنه دون الكثير من التفصيلات عن أحداث الحجاز في عهد الشريف حسين بن علي، ثم دخول مدن الحجاز وحواضرها تحت السلطة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وكان هذا الرحالة والسياسي فاعلاً في صنع علاقات الدولة الفرنسية بكل من دولتي الشريف حسين والملك عبدالعزيز بن سعود [٢].

والثاني شكيب أرسلان، وهو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، ولد عام (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م) بالشويفات في لبنان، وتعلم في مدرسة الحكمة في بيروت، ثم عين مديراً للشويفات ثم قائم مقام، أقام مدة في مصر، وانتخب نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان العثماني، سكن دمشق إبان الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، ثم جنيف التي مكث بها (٢٥) سنة. عاد بعدها إلى بيروت، وتوفي بها سنة (١٣٦٦هـ / ١٩٤٦م). يعرف بأمير البيان، عالم بالأدب والسياسة، ومؤرخ، من كبار الكتاب [٣]. له العديد من المؤلفات، وكتابه الذي يعنينا، هو: الارتسامات اللطاف في خاطر الحج إلى أقدس مطاف، والكتاب يقع في حوالي (٣٥٦) صفحة من القطع المتوسطة، قام عبدالرزاق محمد سعيد كمال بمراجعته والتعليق عليه، ثم طبعته مكتبة المعارف بالطائف عام (١٣٩٧هـ) [٤]. وهذا الكتاب يشتمل على روايات وأخبار تاريخية كثيرة عن الطائف، وجميعها منقول من مصادر ومراجع عديدة، كما تحدث أرسلان بشكل موجز عن الآثار التي شاهدها في الطائف وبخاصة

---

(١) للمزيد انظر، عبدالجليل التميمي. "حكومة الشريف حسين بالحجاز والبعثة السياسية والعسكرية الفرنسية بالجزيرة العربية، (١٩١٦-١٩١٨م). المجلة التاريخية المغاربية، عدد (٨٣-٨٤) (زغوان، ١٩٩٦)، ص ٢٠٣-٢٢٣، انظر أيضاً علي محمد الزيدي. "أهمية مدونات الفرنسي دبوي بوصفها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية". ص ٨٠٧-٨٠٩.

(٢) المراجع نفسها.

(٣) انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٣، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤) صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة المكتبة الكمالية رقم (٢١) عام (١٣٩٧هـ).

الموجودة في مسجد عبدالله بن عباس، أو في بعض الأمكنة الأخرى من المدينة، وذكر المؤلف ايضاً بعض مشاهداته في وادي القيم، والمثناة، والسلامة، والوهط، والوهيط، والشفا، ووادي المحرم، والهدا، وذكر أيضاً بعض الأخبار والمشاهدات التي رآها في الطريق ما بين مكة والطائف عبر الزيمة والسيل الكبير[١].

١٦- محمد بن بليهد، ومحمد حسين هيكل، والزركلي، وحافظ وهبة (ق١٤هـ/ ق٢٠م):

ابن بليهد، هو: محمد بن عبدالله بن بليهد من قبيلة بني خالد من قحطان، ولد في الوشم بنجد سنة (١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، وتعلم بها القراءة، والكتابة، وتذوق الشعر النبطي، كان عارفاً بالدروب والمسالك في قلب الجزيرة العربية، وتنقل في بلدان عديدة داخل الجزيرة العربية، فأصبح خبيراً بجبالها، ووهادها، وأوديتها، وقراها، ومنازلها، وتوفي عام (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م). صنف كتابه، الموسوم بـ: صحيح أخبار عما في بلاد العرب من الاثار، ويقع هذا المؤلف في خمسة أجزاء[٢]. وهذا الكتاب في الأساس جغرافي، لكنه لا يخلو من إشارات إلى معالم وآثار بعض المواضع من حاضرة الطائف، مثل: سوق عكاظ، ووادي وج، والوهط والوهيط وغيرها، ولا يوجد في هذا السفر تفصيلات تاريخية وحضارية مهمة[٣].

أما هيكل، فهو: محمد حسين سالم هيكل، ولد عام (١٣٠٥هـ/١٨٨٨م) بقرية كفر غنام بالدقهلية في مصر، وتخرج في مدرسة الحقوق عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ثم ابتعث إلى فرنسا وحصل على درجة الدكتوراة من السوربون عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م). وهو كاتب، وصحفي، ومؤرخ، ومن رجال السياسة، ومن أعضاء المجمع اللغوي، ولي وزارة المعارف مرتين، ثم رئاسة مجلس الشعب، كتب في العديد من الصحف والمجلات، وتولى تحرير بعضها، وأصدر عدداً من المجلات، وصنف العديد من الكتب، وتوفي سنة (١٣٧٦هـ /١٩٥٦م)[٤]: ويعد محمد حسين هيكل من الرحالة الذين جاءوا إلى جزيرة العرب، فكتابه: في منزل الوحي[٥]، أورد

---

(١) شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف، ص١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٧١-١٧٥، ١٧٧-١٩٨، ٢٠٠ وما بعدها.

(٢) الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص٢٤٥، ٢٤٦.

(٣) الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص ٢٤٦.

(٤) انظر، الزركلي، الأعلام، جت٦، ص ١٠٧.

(٥) انظر، محمد حسين هيكل. في منزل الوحي (القاهرة: مكتبة النهضة، د.ت)، ص ٤٣ وما بعدها.

فيه تفصيلات كثيرة عن مدن الحجاز، وخص الطائف بصفحات عديدة تدور في فلك تاريخه الحضاري، وقد ذكر هيكل الكثير من المشاهدات التي رآها في قرى ومعالم الطائف المختلفة كما أنه اعتنى كثيراً بآثار الطائف من الكتابات والمباني، فزار العديد منها داخل مدينة الطائف وخارجها، كما درس بعض الآثار والنقوش التي وقف عليها في بعض المواضع من المدينة[١].

أما الزركلي، فهو خير الدين بن حمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ولد في (٩/ذي الحجة ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م)، في بيروت، ونشأ بدمشق وتعلم بمدارسها، وأخذ من علمائها، وذهب إلى بيروت في الكلية العلمانية تلميذاً، ثم استاذاً، عاد إلى دمشق، ثم رحل عنها بعد دخول الفرنسيين إلى فلسطين ومصر، والحجاز، اتصل ببعض الحكام العرب في عصره مثل: الملك حسين بن علي، والملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، وساح في بلدان عربية وغربية، وتقلد بعض الأعمال السياسية والدبلوماسية[٢]، وأنشأ المطبعة العربية في القاهرة في أواخر عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)، شارك في إصدار بعض الجرائد في دمشق، وله العديد من المؤلفات وأبرزها: كتاب (الأعلام)، وشبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز، طبع في أربعة أجزاء، ثم اختصره بكتاب (الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز) في مجلد واحد، ومؤلفات أخرى عديدة، وما يهمنا في هذه الدراسة كتاب: ما رأيت وما سمعت[٣]، وجل مادة هذا الكتاب قامت على الرحلة والمشاهدات، جاء هذا العالم الرحالة من الشام وتجول في ربوع الحجاز وكتب عن أرضها وسكانها، وخص الطائف بصفحات عديدة، حيث سار من مكة عبر وادي نعمان والهدا إلى الطائف، وذكر أسماء بعض القرى التي شاهدها في قمة جبال الهدا، وصوراً من الحياة الزراعية والاقتصادية في تلك الناحية[٤]. ويدخل الزركلي الطائف يوم الثلاثاء (١٤/محرم/١٣٣٩هـ/١٩٢٠م) ويذكر شذرات عن أهمية الطائف العسكرية والاقتصادية والتاريخية، ويورد معلومات على لسان الشريف عبدالله بن الحسين بن علي الذي قاد معركة عرب الطائف ضد القوات العثمانية في الطائف، وكيف

(١) المصدر نفسه.

(٢) الزركلي، الأعلام، جـ٨، ص ٢٦٧-٢٧٠.

(٣) طبع هذا الكتاب في الطائف، مكتبة المعارف، المكتبة الكمالية رقم (٢٣)، قدم له وعلق عليه عبدالرزاق كمال (د.ت)، ص١٩ وما بعدها. وللمزيد عن سيرة الزركلي الذاتية، انظر تقديم الكتاب نفسه، ص٣-١٨.

(٤) الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ٦١-٧٦.

هزموهم وأخرجوهم من حاضـرة الطائف[1]. كما أفاض هذا الرحالة في الحديث عن آثار الطائف، وشـاهد النقوش في جبل السـكارى، وأم العـراد، والردف، وقرأ نمـاذج منهـا، وأورد تقرير البعثـة الزراعية الذي يتحدث عـن جوانب عديدة مثل المناجـم وأماكـن التعدين القديمة، كما وصـف بعض مسـاجد الطائف، وأعلامها وأدبائهـا عبر أطوار التاريخ الإسـلامي[2]، وذكر بعض أوديتهـا، وقراها وآبارها، وبسـاتينها، وحصونها، وعيونها[3]، وأشـار إلى بعض العشائر والقبائل التي تسكن مدينة الطائف وما حولها[4].

ويفصـل هذا المؤرخ والرحّالة بعض المشـاهدات عن مدينة الطائف الرئيسية، فيقول: " أحيط الطائف بسـور يضـم داخل البلدة من جميـع أطرافها، وليس هذا بالحائط الذي يقال إن الطائف سمي لإطافته به منذ عرفت هذه الديار في العصور الغابرة، بل ذلك قد اندرس، وأقيم هذا بعد عام الألف الهجرية حول أكبر قرية في ديار الطائف[5]، وما برح الأمراء والأشراف وغيرهم يتعهدونه بالإصلاح والترميم والبنـاء حتـى بقـي إلى الآن حافظاً مكانه. ولسـور الطائف ثلاثة أبـواب، تغلق كل يـوم بعد الغروب، وهي: (١) باب الحزم، وهو الشـرقي الموصـل إلى شـبرة. (٢) بـاب الريع، وهو الغربي الموصـل إلى السـلامة والمثناة. (٣) بـاب ابن عباس، وهو بجانب مسـجد ابن عباس يقع على الجهـة الجنوبية إلى الغرب مـن الطائف[6]. وهـذه الأبواب يرجع عهدها إلى زمن بناء السـور على الغالب، وقد جددت عمارته قبل قدوم محمد علي باشـا المصري إلى الحجاز (سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م)، وبقيت الأبواب تعرف بأسـمائها إلى اليـوم[7]. والطائف ثلاث حارات. الأولى: حارة فوق، وهي وراء باب الريع للداخل إلى البلدة. والثانية: حارة أسـفل وهي مسـكن الأمراء

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠-٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٢ وما بعدها.

(٣) المصـدر نفسـه، ص ١٢٩-١٤٦. يستحسـن الاطلاع على هذه الصـفحات لمعرفة أسـماء عـدد من القرى والعيون والآبار والحصـون التي عرفتها بلاد الطائف، ومعظمها اليوم اندثر، أو تغيرت أسـماؤها مع عجلة التطور والتمدن الحضاري الذي تعيشه الطائف.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٧-١٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٣-١١٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٤.

والأشـراف وتقع خلف باب الحزم. والثالثة: حارة السليمانية: وهي على مقربة من بـاب ابن عباس، يراها الداخل من هذا الباب على يمينه[١]. وأوسـع هذه الحارات وأكثرها سكاناً حارة أسفل، ثم حارة فوق، ثم السليمانية[٢]. وكانت منازل الطائف قبـل الحرب[٣] تناهـز (١٥٠٠) منزل، وفي أوائل الحرب اشـتدت أزمة العيش فيه فبارحه بعض السكان، ثم كانت الثورة[٤] فتهدم جانب عظيم من القصور والأبنية، وتداعى جانب غير يسـير ما زال إلى اليوم، يراه الناظر شاخصـاً في الفضاء، وقد جرد من الأثاث والبلورات وتباعد عنه الناس مخافة سقوطه... وقد أخبرني رئيس بلديـة الطائـف أن الدور العامرة الآن المسـكونة قـد لا تزيد عن ألـف دار[٥]. وأما سـكان بلدة الطائف عدا القرى المحيطة بها والقبائل الضاربة قريباً منها أو بعيداً عنها، فهي الآن لا تقل عن خمســة آلاف، وربما كان عدد الراحلين عنها قبل الثورة يقـارب عدد الباقين اليوم"[٦]. ويشـير هـذا العالم إلى عـدد المدارس في الطائف أثناء زيارته لها، وبعضها أسستها الدولة العثمانية، وأخرى أنشأها الشريف حسين بن علي[٧]. ويذكر الزركلي شـيئاً عن الزراعة من مشـاهداته ومما نقله من تقرير البعثة الزراعية، ويشـير إلى بعض الزراعات المحلية في حاضـرة الطائف، فيقول: "انحصـرت الزراعــة المحلية فيها بزراعة الحبوب وأخصـها الحنطة، والشـعير، والدخـن، وبزراعــة الفواكه وأخصـها الرمان، والسـفرجل، والتفـاح، والكمثرى، والعنب، والليمون، والخوخ، وتكثر فيها الخضـر مثل: الملفوف، والكرنب، والسبانخ، والبنـدورة، والباذنجان، والملوخية، والكوسـة، والبامية، والفاصـوليا، والبصـل، والشـمام (الخربز)، والثوم، والبطيخ الأحمر (الحبحـب)، والفول، والفجل"[٨]. ويذكـر أنــه يوجـد بالطائف ثلاثــة مواسـم للزراعة، هـي: المزروعـات الربيعية، والمزروعـات الشـتوية، والمزروعـات المتوسـطة ما بـين الأولى والثانيـة[٩]. ويذكر

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٣) يقصد بالحرب: أي الحرب العالمية الأولى.

(٤) يقصد بالثورة: أي ثورة الشريف حسين بن علي ضد الأتراك.

(٥) الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ١١٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

أنه مكث نيفاً وعشرين يوماً في الطائف في صحبة أعيانها مثل: أمير الطائف، وقاضيها، ومدير شرطتها، وفريق من ضباط الجيش، وكانوا يتجولون في أرجاء الأوطان الطائفية، وقد أشرنا إلى بعض مشاهداته في هذه البلاد[١].

أما حافظ وهبة، فهو من مواليد بولاق في مصر عام (١٣٠٧هـ/١١٨٩م)، عاش في أسرة متوسطة الحال، وبدأ تعليمه في الكتاتيب، ثم أرسله والده إلى الأزهر، ودرس في مدرسة القضاء الشرعي، وتعلم على أيدي علماء كثر. هرب من المستعمر البريطاني إلى الكويت وعمل في مهنة التدريس، وإمامة الناس في بعض مساجد الكويت، اتصل بالملك عبدالعزيز في الكويت، ثم طلبه الأخير للعمل في بناء الدولة السعودية الحديثة، فغادر الكويت إلى الملك ابن سعود في الرياض، وصار من مستشاريه الرئيسيين، فصمم علم المملكة العربية السعودية، وأرسل في مهمات سياسية، ودبلوماسية عديدة داخل البلاد العربية وخارجها، كما عين سفيراً للمملكة العربية السعودية في بريطانيا، وعمل جاهداً على توطيد العلاقات السياسية بين بريطانيا والسعودية، وبين المملكة العربية السعودية ومصر، وله جهود كثيرة في تأسيس المملكة العربية السعودية. له مؤلفان هما: (١) خمسون عاماً في الجزيرة العربية. (٢) جزيرة العرب في القرن العشرين[٢]، وفي هذين الكتابين دون تفصيلات جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب، ورصد تفاصيل كثيرة عن حكامها في القرن (١٤هـ/٢٠م)، وخص الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل بالنصيب الأكبر من هذه المعلومات. وأثناء حديثه عن مدن وحواضر المملكة العربية السعودية تحدث عن مدينة الطائف فأكّد أقوال من سبقه في اعتدال هوائها، وكثرة فواكهها وخضرواتها، وغزارة مياهها، وهي مدينة محاطة بسور، وأشار إلى أن عدد سكانها في عصره نحو عشرة آلاف نسمة، وأغلبهم من القبائل العربية مثل: ثقيف وعتيبة وغيرها[٣].

١٧- فلبي، ويوسف ياسين، وفؤاد حمزة (ق١٤هـ/ق٢٠م):

هؤلاء الأساتذة الثلاثة جاءوا إلى الجزيرة العربية في القرن (١٤هـ/٢٠م) واتصلوا بالملك عبدالعزيز وتفانوا في خدمته، وكتبوا شيئاً مما عرفوه أو شاهدوه

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٩. يستحسن قراءة كتاب الزركلي. ما رأيت وما سمعت، ففيه كثير من التفصيلات عن الطائف وغيرها من بلاد الحجاز.

(٢) انظر هذا الكتاب في طبعته الثالثة (القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص١ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٥.

أو قرأوه عن بلاد وسكان هذه الجزيرة. وأشهرهم، بل أشهر من زار الجزيرة العربية وكتب عنها في العصر الحديث، هو فلبي. واسمه هاري سانت جون فلبي، والمعروف بـ (جاك)، أو (الشيخ فلبي)، أو الحاج فلبي، ولد في سيلان عام (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)، أنهى تعليمه الجامعي في بلده الأصل (بريطانيا)، وفي جامعة كمبردج، التحق بالخدمة المدنية في الهند عام (١٣٢٦هـ /١٩٠٨م)، ثم انتقل إلى العراق سنة (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، وفي عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) سافر إلى الرياض والتقى بالإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، وسار إلى الحجاز وقابل أمراء الأشراف في الطائف وجدة، وقام بعدد من الرحلات إلى القاهرة والقدس، ثم عاد إلى ابن سعود عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٨م)[١]. واستمر يقوم ببعض الرحلات في بلاد العرب وذلك بتكليف من حكومته بريطانيا، لكن الظروف جعلته يقرب من الملك عبدالعزيز بن سعود وتترسخ العلاقة بين الاثنين، وهذا مما جعل فلبي يمكث في البلاد العربية السعودية حوالي أربعين عاماً، فجاب معظم أجزائها وكتب عنها عشرات الكتب والدراسات، واعتنق الإسلام عام (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م)، وصار من حاشية ابن سعود المقربين حتى وفاة الملك عبدالعزيز عام (١٣٧٣هـ/١٩٥٣م)، بعدها أحس فلبي أنه غير مرغوب فيه فقرر الذهاب إلى لبنان، ومات في بيروت عام (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)[٢].

وعند فحص مؤلفات فلبي التي أشارت إلى الطائف، وجدت البعض منها تفاوتت في مدوناته عن هذه المدينة، واتضح لنا أنه زار بلاد الطائف مرات عديدة، وكل مرة يزورها يذكر شيئاً من تاريخها وحضارتها في عصره، أو عبر أطوار التاريخ العربي والإسلامي. ومن الكتب التي أشارت إلى صور من أرض وسكان الطائف، هي: (١) مغامرات النفط العربي[٣]. (٢) حاج في الجزيرة العربية[٤] (٣) العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء.[٥] (٤) قلب الجزيرة

---

(١) روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص٩٠-١٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٥-١٢٠. للمزيد انظر غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص٣٤٨. جـ٤، ص٤٧. جـ٩، ص١٦٩-١٧٠.

(٣) انظر هارى سانت جون فلبي نقله إلى العربية الدكتور/ عوض البادي (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، (٢٥١ صفحة).

(٤) انظر، هادي سانت جون فلبي. ترجمة الأستاذ الدكتور/ عبدالقادر محمود عبدالله (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. (٣٥٥ صفحة).

(٥) هاري سانت جون فلبي. ترجمة الدكتور/ عاطف فالح يوسف. (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). (٦٨٠ صفحة).

العربية (جـزءان) [١]. (٥) الذاكـرة العربية للمملكة العربية السعودية[٢]. (٦) أربعون عاماً في البرية. [٣] (٧) مرتفعات الجزيرة العربية (جزءان) [٤].

كانـت أول زيـارة لفلبي إلى الطائف عـام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، حيث أرسلته الحكومـة البريطانية لمقابلة الشريف حسـين بن علـي في الحجاز، وعند وصوله الطائف اسـتقبله أميرها، وهو من قرابة الشـريف الأكبر (حسين بن علي) وأنزله في منزل أعد له مع رفاقه، وزار الأمير في منزله في قصـر شـبرا[٥]، ثم دون بعض التوضيحات عن هيئة منازل الطائف التي تتكون من طابق وطابقين، وذكر أنواع بعض المنازل التي دخلها، كما أشـار إلى رجال الشـرطة الذين يقومون على حفظ الأمن وحراسـة المدينة، كما أورد بعض التفصـيلات عن الطرق والأزقة وسـط الطائف، وأشـار إلى عدد من الأشـربة والأطعمة التي قدمها أمير الطائف أو بعض الأعيان والوجهـاء الذين استضـافوه ورفاقه[٦]. وقد رأى السـكان يتضـاعفون في الطائف أثناء فصـل الصـيف، وأغلبهم يأتون إليه من مكة للراحة والاسـتجمام[٧]. كما أن

(١) انظر فلبي، ترجمة الدكتور/ صـلاح علي محجوب (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). الجزء الأول (٤٨٦ صفحة). والجزء الثاني (٦٣٠ صفحة).

(٢) فلبي، ترجمة الدكتور/ عباس سيد أحمد (الرياض: مكتبة العبيكان (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، (٤٥٤ صفحة).

(٣) فلبي، ترجمة الدكتور/ عاطف فالح يوسف (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٥ه/٢٠٠٤م)، (٤٤٧ صفحة).

(٤) هاري سانت جون فلبي، ترجمة الدكتور حسن مصطفى حسن، وتقديم ومراجعة وتعليق أ.د. غيثان بن علي بن جريس (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). الجزءان (١٤٤٩ صفحة). هذه الكتب المذكورة أعلاه وغيرها من مؤلفات فلبي بحاجة إلى دراسات في عدد من البحوث، وهي مليئة بالمواد العلمية القيمة والجديرة بالقراءة والبحث.

(٥) قصـر شبرا: هو القصـر الذي كانت فيه الإمارة وبعض المؤسسات الإدارية الأخرى، وهو اليوم وسط مدينة الطائـف. وقد أشـار فلبي إلى شـيء مـن هيئة هذا القصـر الخارجية، وبعض غرفه وصـالاته، وطوابقه وتقسـيماته الداخلية، وما يحيط به من مرافق وأبنية أخرى. ويذكر أن الذي بناه الأشـراف، وقد بنوه تيمناً بقصر آخر سكنه البعض منهم في حي شبرا بالقاهرة. وهذا الرحالة اشار إليه في مرات عديدة من زياراته للطائف، لكن أول مرة شاهده عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) عندما كان الأشراف مسيطرين على الطائف، وأورد بعض المعلومات عنه أيضاً في سنوات أخرى لاحقة عندما صار مقراً للإمارة في عهد الملك عبدالعزيز. انظر فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص١٨٩. للمؤلف نفسـه، الذكرى العربية للمملكة العربية السـعودية، ص ١٦٩-١٧٠، المؤلف نفسه، حاج في الجزيرة العربية، ص١٧٢.

(٦) دون فلبي صـوراً عديدة مـن تاريخ الطائف في عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، وتحت عنوان مسـتقل أطلق عليه (الأرض المقدسـة) وأفـرد لمدينة الطائف حوالي (٢٢) صـفحة ذكـر فيها معلومات تاريخيـة وجغرافية واقتصادية واجتماعية متنوعة. انظر كتابه، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ٢٨٩-٣١١.

(٧) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٩٧-٢٩٨.

الجرائد مثل جريدة القبلة وغيرها كانت ترسل من مكة المكرمة إلى الطائف[١]، ودون بعض الشذرات الاقتصادية والاجتماعية التي شاهدها في الطائف في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، فيقول: "يكون الضأن ونحل الجبال وأشجار الفاكهة الموجودة بالوادي، وسفوح الجبال مصادر للتجارة بين السكان المحليين، ويتمتع عسل نحل الطائف بشهرة عالية مستحقة في الجزيرة كلها... ويكون عسل النحل ولبن الضأن الغذاء الرئيسي لسكان الجبال، كما أن التمر ولبن النوق يكونانه في الصحراء العربية. وتزود بساتين الطائف مكة بالسفرجل، والرمان، والخوخ، والمشمش، والعنب، والبطيخ، والشمام والقرع وخضروات مختلفة، وهناك بساتين نخيل في القرى الدنيا مثل الأخيضر، والقيم، والمريسية، ولكن ليس في الطائف نفسها، كما توجد أشجار البرتقال والليمون هنا وهناك ولكن ليس بوفرة"[٢].

ويذكر وصفاً لبعض جبال الطائف مثل: الهدا، وقرانيت[٣]، وبعض العشائر التي تستوطن الطائف، وفي عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) يزور مسجد عبدالله بن عباس، ويذكر بعض أوصافه المعمارية، فيقول: "يقع المسجد خارج البوابة الجنوبية مباشرة، وهو بناء أنيق تصطف فيه أعمدة حجرية مزخرفة في اتجاه الداخل حتى البهو المكشوف، وفي وسطه ترتفع قبتان متناسقتا الأبعاد، أولاهما: تقف على ضريح عبدالله بن عباس[٤]. والقبة الثانية: فوق ضريحين لأبناء الرسول (ﷺ) (عبدالله، والطيب، والطاهر)، ومحمد بن الحنفية، وفي أحد أركان المربع ترتفع مئذنة، ويقع المدخل الرئيسي للمسجد في الجانب الجنوبي، وهو فقط قوس مزخرف وفي وسطه باب"[٥].

---

(١) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٩٢. كانت العديد من الكتب والمجلات والجرائد ترسل من مكة إلى الطائف وغيرها من حواضر الحجاز، بل كانت تصل إلى بعض قرى ومدن تهامة والسراة. المصدر: هذا ما سمعه الباحث من بعض الرواة الذين عاصروا العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٢) فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص٢٩٩. يذكر فلبي كثر الفواكه والخضروات في الطائف عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، وفي مرات تالية من الخمسينيات إلى السبعينيات الهجرية تردد على الطائف مرات عديدة، وفي كل مرة يذكر غنى الطائف بهذه السلع التي كانت تصدر إلى مكة وإلى أسواق عديدة في الجزيرة العربية.

(٣) قرانيت: جبل جنوب الطائف في شفا بني عمر من بني سفيان ثقيف، ذو شعبتين إحداهما أطول من الأخرى. انظر، البلادي، معجم معالم الحجاز، جـ٧، ص ١٢٢.

(٤) عبدالله بن عباس. ولد ومات ودفن في مكة. انظر، فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص٣٠٠. حاشية (١).

(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٠٠. ونقول إن مساجد الطائف التاريخية مثل مسجد ابن عباس ومسجد الهادي وغيرهما تستحق أن يفرد لها كتاباً أو رسالة علمية موثقة.

وفي الرحلة الآنف ذكرها بين فلبي طبيعة وادي وج وما يوجد عليه من القرى، ونوعية وأحجام المنازل الموجودة في تلك الناحية، وذكر بعض الأبنية العسكرية في حاضرة الطائف[١]. ومنذ بداية خمسينيات القرن الهجري الماضي تردد فلبي على الطائف مرات عديدة، والتقط عدداً من الصور الفوتوغرافية لبعض المعالم الجغرافية في منطقة الطائف[٢]، وشرح بعض الآثار المعمارية التي تهدمت على أثر الحروب التي عاشتها الطائف خلال القرن (١٣هـ/١٩م)، وبدايات القرن (١٤هـ/٢٠م)[٣]، وذكر بعض الشخصيات التي قابلها في الطائف ومعظمهم من مستشاري الملك عبدالعزيز مثل فؤاد حمزة، وعبدالله السليمان، وحافظ وهبة وغيرهم[٤]، كما تجول في نواحي الطائف مثل: وادي المحرم، والهدا، وبعض قرى الطائف، كالسلامة، والمثناة، وفصل الحديث عن رحلة خرج فيها إلى جبال قرانيت[٥] في شفا بني عمر من بني سفيان ثقيف، وأفراد لتلك الرحلة حوالي أربعين صفحة تحت عنوان (قرانيت التاج)[٦]، وهذه الناحية تبعد عن وسط الطائف أكثر من عشرين كيلاً، وفي هذه الرحلة أشار إلى بعض العشائر والقرى التي توجد على تلك الطريق، والغطاء النباتي الكثيف الذي في تلك الناحية، والمعالم الجغرافية التي تشتهر بها، كما ذكر بعض الأطعمة والأشربة التي شاهدها في بعض المنازل والقرى التي مروا عليها، كما لفت نظره كثرة الحصون الموجودة على رؤوس الجبال وفي الأودية التي كانت تستخدم لأهداف حربية[٧]، وعند مروره في تلك البلاد عام (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م) أصبحت تلك القلاع والحصون تستخدم مخازن للأعلاف والحبوب وأحياناً سكناً للمواشي[٨]. وفي مواضع عديدة من كتبه أشار إلى جغرافية الحوية، وبدايات التنمية الحديثة في الطائف في عهد ابن سعود، مثل الخدمات الصحية، والعسكرية، والاتصالات وغيرها، كما ذكر مواقع في أطراف الطائف من جهاتها الأربع، وجميعها شاهدها أو مر قريباً منها، ودون بعض المعلومات عن

---

(١) فلبي، قلب الجزيرة العربية، جـ١، ص ٣٠٣-٣٠٦، ٣٠٨-٣٠٩، ٣١٠-٣١١.

(٢) فلبي، حاج في جزيرة العرب، ص ١٤٢، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٤٣.

(٤) فلبي، أربعون عاماً في البرية، ص ٣٢٥-٣٢٩.

(٥) للمزيد عن جبل قرنيت، انظر البلادي، معجم معالم الحجاز. جـ٧، ص١٢٢.

(٦) انظر، فلبي، حاج في جزيرة العرب، ص ٢٠٧-٢٤٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٤٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ وما بعدها.

النشاطات العسكرية التي جرت على أرض الطائف في نهاية حكم الأشراف، أو أثناء مجيء العثمانيين الأتراك إلى تلك النواحي، أو عندما دخلت هذه الناحية تحت حكم ابن سعود[١].

أما يوسف ياسين، فهو من بلاد الشام، من بلدة اللاذقية، ولد عام (١٣١٠هـ/١٨٩٢م)، بدأ حياته الأولى في الشام، ثم سافر إلى مصر، وعاد إلى الشام، وبعد الاحتلال الفرنسي لسوريا هرب إلى الحجاز أثناء حكم الأشراف، ثم رجع إلى الأردن والقدس، ثم عاد إلى دمشق ودخل كلية الحقوق، ولم يلبث أن اتفق مع بعض أصدقائه وسافروا إلى الرياض عن طريق الاحساء. وقد حظي بثقة ورعاية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل وسافر معه في رحلته إلى الحجاز عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، واشرف على إصدار جريدة أم القرى، ثم عينه الملك عبدالعزيز رئيساً للشعبة السياسية في الديوان الملكي، ثم أضيف على منصبه وزير دولة، فتولى إدارة وزارة الخارجية بالنيابة، واستمر في عمله بعد وفاة الملك عبدالعزيز فكان مستشاراً للملك سعود بن عبدالعزيز، وتوفي في مدينة الدمام ودفن بالرياض عام (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م). له كتاب بعنوان: الرحلات الملكية (رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض، المنشورة في جريدة أم القرى (١٣٤٣-١٣٤٦هـ). ومادة هذا الكتاب دونها عدد من الكتاب ورجال الملك عبدالعزيز ونشرت في جريدة أم القرى، وقام يوسف ياسين بجمعها وترتيبها ونشرها[٢]. ولا نجد مادة علمية كثيرة تذكر في هذه الرحلات عن حاضرة الطائف، اللهم إلا المقالة المنشورة في الجريدة في (١٠/شعبان/١٣٤٣هـ) التي تشير إلى وصول الملك عبدالعزيز ورفاقه إلى بلدة عشيرة القريبة من منطقة الطائف

---

(١) فلبي، العربية السعودية، ص ٥٥٣ وما بعدها. المؤلف نفسه، حاج في الجزيرة العربية، ص ١٤٢ وما بعدها، المؤلف نفسه، أربعون عاما في البرية، ص ٢٢٩ وما بعدها، المؤلف نفسه، مغامرات النفط العربي، ص ١٦، ١٧، ٣٢، ٣٥، ٧٠، المؤلف نفسه، الذكرى العربية، ص١٢٣، وفي هذا الكتاب الأخير دون (١٧) صفحة وضح فيها جدول الملك عبدالعزيز اليوم، وذلك أثناء ملازمته له في الطائف عدة أيام عام (١٣٧٠هـ/١٩٥٠م)، فلبي، الذكرى العربية، ١٦٣-١٨٠. انظر أيضا فلبي، مرتفعات الجزيرة العربية، جـ١، ٧٣، ٩٥، ١٥١، ١٦٢، ١٦٩، ١٨٥، المؤلف نفسه، قلب الجزيرة العربية، ج١، ص٢٨٩ وما بعدها.

(٢) هذه الرحلات المنشورة في جريدة أم القرى طبعت في وزارة المعارف عام (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) وقائع الرحلة الملكية التي كتبها وأعدها يوسف ياسين في عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م). وفي عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) قامت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بإعادة طباعة الرحلة الملكية نفسها، وفي عام (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) أضافت جامعة الجامعة ثلاث رحلات أخرى سبق نشرها في جريدة أم القرى إلى الرحلة الملكية، ونشرتها في كتاب واحد، ثم قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعادة طباعة هذا الكتاب بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وتم نشره عام (١٤١٩هـ)، ويقع في (١٦٠ صفحة) من القطع المتوسط.

وكان ذلك في الخامس من جمادى الأولى عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) حيث قام بها الملك تلك الليلة واستقبل عدداً من الوفود وكثير منهم من قبائل منطقة الطائف[(١)].
وفي السادس من شهر جمادى الأولى من العام نفسه، خرج موكب الملك إلى قرية السيل استعداداً للإحرام ودخول مكة، ويذكر كاتب المقالة بعض المعلومات عن بلدة السيل، التي هي جزء من منطقة الطائف، فيقول: "وهي قرية فيها بعض بيوت قليلة، والماء متوفر في ذلك المكان، وإذا حفر الإنسان في الأرض مقدار متر أو مترين وجد الماء العذب"[(٢)]. وبعد الإحرام سار الملك في رحلته حتى نزل في الزيمة[(٣)].

والأستاذ فؤاد حمزة، يعرف باسم فؤاد بك حمزة، ويكنى (أبو سامر) ولد في لبنان في محافظة الجبل عام (١٣٨٧هـ/١٨٩٩م) لأسرة درزية يقال إنها تعود إلى جذور قحطانية من عرب الجنوب، عمل معلماً في القدس ودمشق، ويجيد اللغة الانجليزية، زكاه شكري القوتلي عند الملك عبدالعزيز فعمل مترجماً خاصاً للملك، ثم تولى أعمال مديرية الشئون الخارجية ثم وكيلاً للشئون الخارجية، ومنح لقب سفير، ثم وزير دولة، وعين وزيراً مفوضاً في باريس وأنقرة ثم أصبح مستشاراً للملك عبدالعزيز، وقام برحلات ومهمات دبلوماسية داخل الجزيرة العربية وخارجها، وسافر إلى قارتي أوربا وأمريكا للتعريف بسياسة المملكة العربية السعودية ومنهجها، كما شارك في مفاوضات المملكة العربية السعودية واليمن الخاصة بالحدود والعلاقات السياسية في ما بين البلدين وكانت وفاته عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م). له عدد من المؤلفات، منها: (١): قلب الجزيرة العربية (٢) البلاد العربية السعودية (٣) في بلاد عسير، وقد صدر في طبعتين (١٩٥١م، ١٩٦٨م)[(٤)].

وفي كتابه (في بلاد عسير) نجده يكتب مشاهداته في البلاد الممتدة من شمال وشرق حاضرة الطائف إلى مناطق عسير ونجران في أرض السروات[(٥)].

ولم يدخل مدينة الطائف في هذه الرحلة، لكنه اجتاز بعض أجزاء منطقة الطائف الشمالية والشرقية، وتوقف في أرض عكاظ، ووقف على بعض معالمها، وقرأ

---

(١) انظر، يوسف ياسين، الرحلات الملكية، ٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠-٦١.
(٣) المصدر نفسه، ص٦١.
(٤) انظر هذا الكتاب الأخير، (في بلاد عسير) (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ٣-٤.
(٥) فؤاد حمزة. في بلاد عسير (الطبعة الثامنة /١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ١٢ وما بعدها.

عنها في بعض المصادر، وقال إنه كان غير متأكد عن موقع سوق عكاظ، ولكن في تلك الرحلة تحقق من مكان هذا السوق، ووعد بإصدار بحث يحدد فيه موقع هذا السوق الجاهلي[١]. ويذكر مواقع أخرى في أطراف منطقة الطائف من الشرق والشمال الشرقي مثل: آبار القرشية وسهل ركبة، وأغلب حديثه عن المعالم الجغرافية في هذه النواحي كالأودية، والجبال، والهضاب، ولم يذكر تفصيلات أخرى تخدم الباحث في الجوانب السياسية، أو الإدارية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو حتى التركيبة السكانية. وكان مروره في هذه البلاد خلال الخمسينيات من القرن الهجري الماضي، بعد أن أصبحت عموم الحجاز جزءاً من المملكة العربية السعودية التي يتولى حكمها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل (يرحمه الله)[٢].

١٨- تويتشل، وايجرونا كانوا، الياباني ومحمد عمر رفيع (ق١٤هـ/ق٢٠م):

السيد كارل تويتشل، مهندس معادن أمريكي، وصل إلى جدة بواسطة تشارلز كرين(Charles R. Crane)[٣] عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، وأسس نقابة التعدين العربية السعودية التي قامت بالتنقيب عن معادن الذهب والفضة في الحجاز وغيرها من بلدان الحكومة السعودية[٤]. وقد جاب هذا الخبير معظم مناطق المملكة، وكتب صوراً من تاريخها، كما حظي بالرعاية من الملك عبدالعزيز وحكومته أثناء إقامته في هذه البلاد، وله بحوث ودراسات عديدة، وكتابه الذي اعتمدنا عليه في دراستنا، هو: المملكة العربية السعودية وتطور مصادرها الطبيعية، نشر باللغة الانجليزية عام (١٩٤٦م)، ثم أعاد طباعته عام (١٩٥١م)، وترجمه إلى العربية الأستاذ شكيب الأموي، وقدم له الشيخ حافظ وهبة، ونشر عن طريق دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام (١٩٥٥م)، وهذه النسخة التي رجعنا لها في هذا

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩-٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨-٢٤.

(٣) تشارلز كرين: من رجال الأعمال الأمريكيين العاملين في المجالات الإنسانية والمساعدات، اختاره الرئيس الأمريكي ويلسون عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، للمشاركة في لجنة البحث والتقصي التي أدت إلى نظام الانتداب في سوريا وفلسطين والعراق، خصص مساعداته للدول المحتاجة في الشرق الأوسط، وكانت له جهود انسانية في اليمن، التقى بالملك عبدالعزيز لأول مرة في فبراير عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، ونتج عن ذلك أن أرسل كرين تويتشل إلى المملكة للبحث عن المياه والمعادن. للمزيد انظر: فلبي، مغامرات النفط العربي، ص ٥٤.

(٤) تحدث تويتشل عن رحلاته وتجاربه حول مسح مناطق التعدين في الحجاز ونجد في كتاب: مناجم الذهب القديمة في الحجاز ونجد، والمطبوع عام (١٩٣٢م). وقد زار مناجم عديدة في جنوب مدين، والمدينة المنورة، والطائف ومهد الذهب، والدوادمي وغيرها. انظر فلبي، مغامرة النفط العربي، ص ٥٤.

البحث[١]. ويشتمل الكتاب على محاور عديدة توضح صوراً من التطور الحضاري الذي مرت به المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل[٢]. وأفرد تويتشل محوراً مستقلاً في كتابه أسماه (المراكز الحيوية للحياة القومية)، بدأه بالحديث عن مكة، ثم المدينة المنورة، ثم الطائف[٣] التي قال عنها: "إن موقعها ينشرح له الفؤاد، ويبتهج له الخاطر، وهي على علو (٥١٠٠) قدم فوق سطح البحر، ويقدر عدد سكانها بـ (٧٠٠٠) نسمة[٤]، وهي عاصمة الحجاز في الصيف، ومقر النائب العام الأمير فيصل عادة من إبريل إلى أكتوبر، وهو يملك مزرعة ناجحة في الحوية، وتبعد (١١) ميلاً للشمال من المدينة، وينمو فيها البرتقال و (الجريب فروت)، والليمون، والكمثرى، والدراق، وتزرع في المزارع الصغيرة والحقول المحيطة بالطائف كميات كبيرة من البرسيم والحبوب الأخرى، وتنقل الجمال إلى مكة والمدينة، الكثير من العنب اللذيذ الطعم الحلو المذاق الطيب النكهة، والمساحة الواسعة التي تتبع هذه المدينة تتصف بالمزية الاقتصادية وتؤهلها لتكون سوقاً واسعة وعظيمة[٥]. ومنتوجاتها تشمل (البيادي) الصوفية، وكذلك المفارش (البسط)، والسجاجيد الصوفية المغزولة، والماعزية الشعر، وتجري المياه من الآبار في نبع عذب رقراق (عين جارية)[٦]. وتباهي المدينة بنزل (أوتيل) مريح مرتب للحكومة، ويربط الهاتف (التليفون) كل دوائر الحكومة، وكذلك الكثير من البيوت الخاصة، وبعض عماراتها من حجر الجرانيت، ويؤخذ من محاجر تقع في نقطة الجنوب الغربي من المدينة[٧]. ومن أهم هذه العمارات قصر (شبرا) الذي

---

(١) الكتاب في نسخته العربية يقع في (٣١٦) صفحة من القطع المتوسط بالإضافة إلى ملاحق عديدة من الخرائط والصور الفوتوغرافية.

(٢) تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ١٣ وما بعدها.

(٣) تحدث هذا الرحالة عن معظم مدن المملكة العربية السعودية التي شاهدها وتجول في ربوعها، مثل: جدة، وينبع، والوجه، وأبها، وجازان، والقنفذة، ونجران، والرياض، وبريدة، وعنيزه، وحايل، والهفوف (الإحساء) والظهران، والقطيف، والدمام، والخبر. انظر: تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ٦٩-٩١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧١. هذا العدد ربما يكون غير دقيق، ويفضل دراسة تاريخ التطور السكاني في الطائف منذ بداية الدولة السعودية الحالية إلى وقتنا الحاضر.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٧) معظم بلاد الطائف وبخاصة جبالها وأوديتها يوجد فيها صخور وأحجار كثيرة ومتنوعة ومعظمها يصلح للبناء والتشييد.

يبعد نصف ميل خارج سور المدينة، بناه الأتراك حين كانوا مسئولين على الحجاز، ويتكون من ثلاثة طوابق، وارتفاع سقوف حجراته الرحبة، ويبلغ حوالي (١٦) قدماً تكتنفها الحدائق[١]. ويلاحظ بدء تشييد بيوت حجرية صغيرة في أحياء المدينة، مما يدل على زيادة عدد المصطافين الذين يهرعون من مكة وجدة ومن كل جهة للاستمتاع بهذا المصيف الجميل الرائع"[٢]. ويشير تويتشل إلى مساجد الطائف وبخاصة مسجد ابن عباس، ويعبر عن إعجابه بهذه المدينة الحضارية[٣].

أما ايجيرونا كانوا الياباني فهو ياباني الجنسية، درس وتخرج في جامعة أوساكا للغات الأجنبية، قسم اللغة الألمانية، والتحق بالعمل في وزارة الخارجية سنة (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)، ثم سافر إلى القاهرة، وأقام فيها سبع سنوات، درس في الأزهر وفي جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، ويقال إنه عمل أستاذاً بجامعة أوساكا. ويتحدث هذا الرحالة عن ظروف رحلته إلى المملكة العربية السعودية عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، فيذكر أن حافظ وهبة سفير المملكة العربية السعودية في بريطانيا زار اليابان في مايو (١٩٣٨م) لحضور حفل افتتاح مسجد طوكيو الذي تم تشييده في إحدى نواحي العاصمة اليابانية، وحث الشيخ وهبة وزارة الخارجية اليابانية على إرسال وفد ياباني إلى المملكة العربية السعودية، لدعم الروابط بين البلدين، عندئذ استجابت الوزارة اليابانية لهذه الدعوة وأرسلت وفداً يتكون من ثلاث شخصيات يابانية، وكان ايجيرونا واحداً من أولئك الثلاثة، وكان يعمل وقتها في السفارة اليابانية في القاهرة. ويذكر سفره مع رفاقه من القاهرة إلى جدة في الرابع من صفر عام (١٣٥٨هـ/ السادس والعشرين من مارس سنة ١٩٣٩م)، ثم سفرهم من جدة براً إلى الرياض وبقوا فيها عشرة أيام، ومن خلال هذه الجولة في أجزاء من المملكة العربية السعودية دون ايجيروناكانو رحلته مع رفاقه، وأسماها: يوميات رحلة في الجزيرة العربية، وذلك بعد عودته من الرياض سنة

---

(١) قصر شبرا من العمارات التاريخية في الحجاز ويستحق أن يفرد له كتاب أو رسالة علمية تؤرخ لهذا المعلم الحضاري منذ تأسيسه إلى اليوم.

(٢) انظر تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ٧١-٧٢. وأقول إن أهمية الطائف السياحية، وصلات أهل مكة وجدة بهذه المدينة، وإقامتهم فيها خلال الصيف من الموضوعات القيمة التي يجب دراستها منذ صدر الإسلام إلى وقتنا الحاضر، ونأمل من طلاب قسم التاريخ في برنامج الدراسات العليا، في جامعتي الملك عبدالعزيز أو أم القرى أن يلتفتوا إلى مثل هذا العنوان الجدير بالبحث والدراسة والتوثيق.

(٣) تويتشل، المملكة العربية السعودية، ص ٧٢.

(١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م)، ونشـرت هذه اليوميـات باللغة اليابانية على هيئة حلقات في مجلة كايكوسيكاي، أي (مجلة العالم الإسلامي)، وفي الفترة الممتدة من غرة رمضان عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، وحتى شـهر المحرم (١٣٦٠هـ/١٩٤١م)، ثم جمعت هذه المقالات في كتاب ونشرت عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م) في مدينة طوكيو باليابان[١]. وقد قامت سـارة تاكاهاشي بترجمة الكتاب تحت عنوان: الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربيـة (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، وقامت دارة الملك عبدالعزيـز بطباعة هذه الرحلة ونشرها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية[٢]. والكتاب يحتوي على مشـاهدات هذا الرحالة في الأيام العشـرة التي قضـوها في الرياض، وأيضـاً ما شاهده في الطريق البرية التي سلكوها من جدة إلى الرياض. كما يوجد في الكتاب عدد من الصـور الفوتوغرافية التـي التقطها ايجيروناكانو أثناء رحلته، ونجد أن رحلته مثل رحلتي يوسـف ياسـين وفؤاد حمزة فلـم يدخل الطائف، وإنما جاء من أطراف المنطقة الطائفية من جهة الشمال عندما سار من جدة إلى عشيرة ووادي السيل وقريباً من عكاظ، فأشار إلى هذ الأمكنة، ولم يذكر شيئاً من طبيعتها الجغرافية، أو حياة سـكانها، وإنما جل حديثه عن تحركاته مع رفاقه اليابانيين أو مـن كان في معيتهم من السـعوديين لحمايتهم والقيام علـى خدمتهم، فذكر بعض الأطعمة التي قدمت لهم في وادي السيل، وكانت موادها في السيارات التي رافقتهم من جدة إلى الرياض، كما ذكر جودة الخدمات التي قدمها رفاقهم الذين سافروا معهم من الحجاز إلى الرياض، كما أثنى على كرمهم ولطف معشرهم وتفانيهم في توفير الهدوء والراحة له ولرفاقه اليابانيين[٣].

والرحالـة محمـد رفيـع من أهـل الحجـاز، وهو محمد بـن عمر بـن بكر بن عبدالكـريم رفيع، ولد في مكـة المكرمة عام (١٣١٧هــ/١٨٩٩م)، وكان والده أحد أعيان مكة، تلقى محمد تعليمه في الكتاتيب، وفي حلقات المسجد الحرام، ولا نجد معلومات واضحة عن بداية حياته، إلاّ أنه كان مولعاً بفن الزخرفة، ويظهر ذلك في

---

(١) انظر مقدمات الرحلة في نسختها العربية، التي اشرفت دارة الملك عبدالعزيز على ترجمتها وطباعتها عام (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)، ص٧-١٥.

(٢) هذه النسخة العربية تقع في (١٨٩) صفحة من القطع المتوسط وهي الطبعة الثانية عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

(٣) انظـر ايجيروناكانـو، الرحلـة اليابانيـة إلى الجزيـرة العربيـة (النسـخة العربيـة) (الطبعـة الثانية/١٤١٩هـ/١٩٩٩م). ص ٢٧-٤٠، وأعتقد أن هذا الرحالة الياباني وهذه الرحلة التي دونها هي أول رحلة يابانية مكتوبة تصل إلينا، ولا يستبعد أن يكون هناك رحلات أخرى قد ترى النور في المستقبل.

بعض اللوحات والرسومات الفنية التي رسمها أثناء إقامته في مكة المكرمة ومنطقة عسير[(١)]. وكان محمد رفيع يحب الرحلات فزار بلداناً عديدة في العالم مثل: الهند، وجزر الملايو، ومصر، وفلسطين، وسوريا، ولبنان، والعراق، وتركيا، والكويت، واليونان، وغيرها. ولم يتوقف عن السفر والترحال إلاّ سنة (١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م)، وهذا ما ذكره في بعض كتبه ومذكراته، وذلك بسبب الحروب التي كانت جارية في ذلك الوقت[(٢)]. ونتيجة لهذا التوقف رشحه السيد محمد شطا المفتش الأول بمديرية المعارف العامة مديراً لمدرسة رجال ألمع في منطقة عسير، التي تقرر فتحها عام (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) [(٣)]، وقد سافر ابن رفيع إلى عسير في العاشر من ذي القعدة (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) وظل في بلاد رجال ألمع إلى عام (١٣٦١هـ/١٩٤٢م)، ثم عاد إلى مكة، وانتقل إلى القاهرة للعمل في بعض الأعمال الحكومية السعودية هناك، ثم عاد إلى مكة وعمل آخر حياته في رابطة العالم الإسلامي، وافته المنية في مكة المكرمة عام (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م). وله بعض المؤلفات، ومنها: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، وفي ربوع عسير ذكريات وتاريخ، وفي الكتاب الأخير نجد هذا الرحالة والمعلم يسافر من مكة عبر بلدة الزيمة ووادي السيل حتى الطائف، ثم يواصل سيره مع بعض الرفاق إلى أبها ثم رجال ألمع[(٤)]. ونجد ابن رفيع يسلك الطريق التي سلكها فؤاد حمزة حتى وصل بلاد عسير، وقد زار أجزاء عديدة في منطقتي عسير وجازان مثل: أبها، ورجال ألمع، وتنومة، والنماص، ومحائل، والدرب، وبيشة، وصبيا، وجازان[(٥)]. أما بلاد الطائف فقد خرج من مكة يوم الاثنين (١٠/١١/١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) وواصل السير مع بعض الرفاق حتى وصل الطائف في

---

(١) كان محمد عمر رفيع صاحب خط جميل، وله دراية بالرسم وفنون الزخرفة. انظر ترجمته، غيثان بن علي بن جريس. تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤هـ-١٣٨٦هـ/١٩٣٤-١٩٦٦م). (الرياض: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، جـ١، ص٥٨-٨٩-٢٥٤-٢٥٦.

(٢) من يقرأ التاريخ في بدايات النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) يجد أن هناك حروباً عديدة بين بعض الدول الأوروبية، أما بلدان الشرق الأوسط فكانت في نضال وصراعات دائمة ضد المستعمرين الأوروبيين، وأحوال الجزيرة العربية كانت هي الأخرى تعيش في اشكالات وصراعات، والمملكة العربية السعودية تعمل جاهدة على توطيد الأمن والاستقرار في ربوعها أثناء حكم الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل وبخاصة في الخمسينيات والستينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٣) للمزيد عن تاريخ التعليم في منطقة عسير، انظر ابن جريس، تاريخ التعليم في منطقة عسير، جـ١، ص ٥١ وما بعدها.

(٤) انظر كتاب: محمد عمر رفيع: في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ) (الطائف: مكتبة المعارف، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، ص ٢ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه.

مساء ذلك اليوم. وقضوا وقت الليل في الطائف، وذكر الأستاذ ابن رفيع شيئاً من صفات الطائف مثل: جودة الهواء، وكثرة الفواكه، والخضروات في أسواقها، ونقلٍ من معجم ياقوت الحموي (البلدان) بعض المعلومات عن جغرافية الطائف وصوراً من تاريخها الحضاري[١]. وأشار إلى بعض الاستراحات (والقهاوي) البسيطة في الطائف، التي يتخذها بعض المسافرين أماكن للإقامة والنوم، وهذا ما فعله محمد رفيع حيث سكنوا في قهوة ابن صادق[٢]، التي عانوا فيها من حشرة (البق) التي أكلت جلودهم أثناء النوم، ويذكر أن الطائف كانت خالية من الفنادق والنزل الجيدة والنظيفة، وفي الصباح واصلوا السير عبر وادي لية إلى تربة ورنية حتى وصلوا إلى أبها[٣].

١٩- فؤاد شاكر، ومحمد رفعت المحامي، ولفرد ثسيجر، وليبنز (ق١٤هـ/ق٢٠م):

ولد فؤاد إسماعيل شاكر في مكة المكرمة عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، وتلقى تعليمه الابتدائي بها، سافر إلى القاهرة لإكمال دراسته، وكان مع أول بعثة سعودية عام (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م)، تلقى تعليمه الجامعي في القاهرة، وتخصص في دراسة الأدب العربي، أصدر جريدة (الحرم) بالقاهرة عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م)، وظل يصدرها أربع سنوات. تسلم مهام رئاسة تحرير جريدة (صوت الحجاز) عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م) لمدة سنة واحدة عاد بعدها للقاهرة، حيث استأنف دراسته وأعماله الصحفية، تسلم رئاسة تحرير (أم القرى) في عام (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، وظل بها مدة (١٥) عاماً، وتولى أثناء ذلك رئاسة تحرير جريدة (صوت الحجاز) جريدة (البلاد) السعودية فيما بعد من عامٍ (١٣٥٧هـ-١٣٦١هـ/١٩٣٨-١٩٤٢م)، وفي عام (١٣٦٤هـ / ١٩٤٤م) عين رئيساً للتشريفات الملكية وبقي في منصبه حتى عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، وفي عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة (البلاد) السعودية، وفي عام (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) عمل رئيساً للتشريفات برابطة العالم الإسلامي، وفي عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة (أخبار العالم الإسلامي)، حصل على العديد من الأوسمة والنياشين من دول

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥-٦.

(٢) لا نعرف شيئاً عن ابن صادق، ولكن ربما يكون أحد رجالات منطقة الطائف، وصاحب هذا المقهى.

(٣) المصدر نفسه ص ٧، ٨ وما بعدها. وأذكر أنني ذهبت إلى الطائف في بدايات التسعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، فكانت قهاوي وأماكن النوم والاستراحة فيها بسيطة ومتواضعة، ولا تخلو ذلك الوقت من فنادق جيدة وجميلة، لكن لا يسكنها إلا المقتدر مادياً، وكان المال عند عامة الناس قليلاً.

عربية شقيقة وأخرى صديقة، وكانت وفاته عام (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، وله مؤلفات عديدة، ومنها كتاب: رحلة الربيع[١]، وهو البحث الذي يهمنا في هذه الدراسة. وكتاب (رحلة الربيع) طبع لأول مرة عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٥م)، وموضوعات هذا الكتاب تدور حول رحلة المؤلف عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م) من مكة المكرمة إلى روضة الخفس ثم الخرج فالرياض. ويعد هذا المؤلف من الأعمال العلمية الأدبية المبكرة التي امتزج فيها علوم الأدب والفكر والجغرافيا والتاريخ[٢]، ومن أهم مراحل هذه الرحلة أيضاً مقابلة المؤلف وأعضاء الرحلة بالملك عبدالعزيز في روضة الخفس، ووصف تلك المقابلة وما جرى فيها من أحاديث ومشاعر ومواقف[٣].

وكتاب: **رحلة الربيع**، يقع في (٢٤٥) صفحة من القطع المتوسط، وقد سلك المؤلف ورفاقه أعضاء الرحلة الطريق التي تخرج من مكة إلى الشرائع، ثم وادي السيل الكبير، ثم عشيرة، وواصلوا المسير إلى أرض نجد. ولم يمروا بالطائف وإنما نزلوا في وادي السيل الكبير، ويذكر هذا الرحالة صوراً من جغرافيته، فيقول: "هو الوادي الجميل الذي يقع في سطح مرتفع كبير يبتدئ من عشرين كيلو متراً في الصعود، وهو محاط بسلسلة تكوّن شبه استدارة من الجبال المحيطة به، وصار الوادي مصباً للأمطار المنهمرة على تلك الجبال ومسيلاً لها، ولذلك عرف باسم السيل، ذلك بأن مجرى ماء السيل لا يكاد ينقطع منه أكثر أيام السنة، وفيه قليل من المزارع والحدائق المثمرة، وعلى بعد عشرات قليلة متفاوتة من الأميال توجد مزارع وحدائق أخرى مثمرة أكثر منه اتساعاً وثمراً، ومن أبرز ثمره نوع من الثمر يسمى (رطب العقرب) واحدته تشبه الخيارة المكورة... والسيل واد جميل المناخ، وقد قيل عنه إنه منزل سوق عكاظ..."[٤].

---

(١) انظر للمزيد عن ترجمة فؤاد شاكر في هذا الكتاب، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٨

(٢) دراسة علم الرحلات في الجزيرة العربية من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة، وهو يستحق أن يدرس في عشرات البحوث العلمية الموثقة.

(٣) كان أعضاء الرحلة: فؤاد شاكر، مؤلف كتاب الرحلة، والسيد صالح شطا، النائب الثاني لرئيس مجلس الشورى، والشريف شرف رضا، عضو مجلس الوكلاء، وعبدالرؤوف الصبان، عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف، والشيخ عبدالله الشيبي، عضو مجلس الشورى والسادن الثاني لبيت الله الحرام، والسيد عبدالوهاب، نائب الحرم ومدير الأوقاف، والشيخ عباس قطان، أمين العاصمة، والسيد عبيد مدني عضو مجلس الشورى. انظر، فؤاد شاكر، رحلة الربيع، (طبعة /١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ص ٧، ٢٣-٢٤.

(٤) انظر فؤاد اسماعيل شاكر. رحلة الربيع، ص ٢٣-٢٤. وهناك دراسات عديدة حول موقع سوق عكاظ، وليس في وادي السيل كما ذكر هذا الرحالة وغيره، وإنما يقع في مفيض بعض أودية الطائف عند اتصالها بصحراء ركبة، ويبعد عن الطائف شمالاً حوالي (٤٠-٥٠) كيلاً.

أما محمد رفعت المحامي، فهو صحفي مصري، من مواليد القاهرة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، تخرج في كلية الحقوق، واشتغل بعد تخرجه في المحاماة، ثم عمل في الشرطة، وكان يمارس التمثيل والكتابة والصحافة، وأخيراً تفرغ للعمل الصحفي، وعمل في مواقع صحفية عديدة حوالي خمسة عقود، واشتغل بالقراءة والتأليف فله حوالي (٥٠) كتاباً، بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة طبيبك، وهي مجلة رائدة في التوعية الصحية. وعمل أيضاً في مجلة المصور، وزار المملكة العربية السعودية عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) [١]، وقابل الملك عبدالعزيز أكثر من مرة، وحضر مجالسه، واستمع إلى أحاديثه، وقابل عدداً من الأمراء والوجهاء في السعودية، وزار عدداً من مدن المملكة، واطلع على كثير من مشروعات التنمية في الحواضر التي زارها، وقد ترجم ما سمعه ورآه في سلسلة من المقالات ونشرها آنذاك في مجلة المصور، وأشار خير الدين الزركلي إلى هذه المقالات في كتابه: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ص (١٣٢٩-١٣٣٠)، ثم نشرها صاحبها في كتابه الذي أسماه: أسد الجزيرة قال لي[٢]، وقدم لهذا الكتاب صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز، والكتاب يحتوي على تفصيلات جيدة فلا نجدها في مصادر ومراجع أخرى، ويقع في (٢٤٢) صفحة من القطع المتوسط، وفيه عدد من الصور الفوتوغرافية القيمة[٣]. وكتب هذا الرحالة عنواناً جانبياً في كتابه، أسماه: الطائف مصيف الجزيرة العربية، وقال: "الطائف واحة في وسط الصحراء، وواد بين سلاسلٍ الجبال، جنة صغيرة من جنات الأرض، يهرع إليها أفراد الأسرة المالكة والشعب معاً في أشهر الصيف (القيظ)، فينعمون بها بعليل النسيم، وخيرات أرضها المباركة، ويجدون هناك ما ينشدونه من راحة واستجمام[٤]. وليست شهرة الطائف

---

(١) كان سبب زيارة محمد رفعت المحامي إلى المملكة عندما دعته شركة مصر للطيران مع بعض المصورين المصريين للاشتراك في افتتاح خطها الجوي الجديد بين القاهرة وجدة، وكان مندوباً عن مجلة المصور المصرية، وكان عليه أن ينجز مهمته ويعود إلى مصر سريعاً لكن وزير المالية السعودي آنذاك عبدالله السليمان، دعاه باسم الحكومة لزيارة جميع مدن المملكة، ويكون في ضيافة الملك عبدالعزيز، فوافق على هذا العرض، ونتج عن ذلك صدور كتابه (أسد الجزيرة قال لي).

(٢) من تأليف محمد رفعت المحامي، ومراجعة وتعليق الدكتور حمد بن ناصر الدخيل، إصدارات مكتبة الملك عبدلعزيز العامة، بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية. (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) (الطبعة الثانية)ص٥ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨ وما بعدها.

(٤) تظهر بصمة الكاتب الصحفية على هذه العبارات، فهو ينمق مفرداته وجمله، وهذه وظيفة أهل الصحافة.

بقاصرة على أنها مصيف الجزيرة العربية، بل إنها قبل هذا معقل الجيشٍ العربي السعودي الباسل، مدينة الجيش، فيها يتدرب أشباله حتى يخرجوا أسوداً ضواري يحملون راية الإسلام، ويشهرون سيوفهم في وجوه أعدائه وخصومه[١]. وللطائف فوق هذا كله شهرة أخرى في ميدان العلم، ففيها معهدان من أشهر المعاهد العلمية في الجزيرة العربية، وأعظمها، المدرسة النموذجية، ودار التوحيد[٢]. والمدرسة النموذجية أمر بإنشائها سمو الأمير فيصل، ليتعلم فيها أبناؤه مع أبناء الشعب جنباً إلى جنب دون فوارق أو فواصل، وهي تشغل داراً فخمة كبيرة، مكونة من حوالي الأربعين غرفة، منها صالون كبير للاستقبال، وعنابر لنوم طلبة القسم الداخلي والأساتذة والمدير، ثم غرف للدراسة ومخازن[٣]. ونظام المدرسة داخلي وخارجيٍ، وفيها (٢٤) في القسم الداخلي، و(٢٦) في القسم الخارجي، ويتبع الجميع نظاماً واحداً ومنهجاً واحداً في الدراسة هو منهج الدراسة الابتدائية في مصر نفسه مع زيادات في علوم الدين[٤]. ويقبل في هذه المدرسة الطلبة من سن السادسة حتى السنة الثانية عشرة من أبناء الشعب كافة، دون تمييز بين طبقة وأخرى، لتغرس في الجميع روح المحبة والاخاء والمساواة والديمقراطية الحقة، وجميع تلاميذ هذه المدرسة متساوون في تطبيق نظام المدرسة[٥]. أما دار التوحيد فمؤسسة منذ عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٥م) للتخصص في تدريس العلوم الدينية والقضائية، ويديرها آنذاك مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع، وهي مدرسة ممتازة في أساتذتها وتعليمها. وللطائف منزلتها ومحبتها في قلب كل سعودي، ويقضي فيها أسد الجزيرة (الملك عبدالعزيز) أحياناً بعض أشهر الصيف للراحة والاستجمام[٦].

ولفرد تسيجر، رحالة انجليزي، من أهل القرن (١٤هـ/٢٠م) ولد في أديس أبابا عام (١٣٢٨هـ / ١٩١٩م)، ودرس في جامعة أكسفورد، قام بعدد من الرحلات في بلدان عديدة، ومنها الجزيرة العربية، وفي عام ١٣٦٥هـ/ م) قام برحلة في بلاد تهامة والسراة، ودون تفصيلات عن المجتمعات التي زارها، حصل على إذن من

(١) انظر محمد رفعت المحامي. أسد الجزيرة قال لي، ص ٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٧-٩٨.
(٥) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٨.

الملك عبدالعزيز لدراسة أوضاع الجراد الذي اجتاح نواحي عديدة من الجزيرة العربية، وكان لذلك الإذن الأثر الكبير في تسهيل مهمته وحصوله على مساعدات وتسهيلات كثيرة من أمراء وأعيان المناطق التي مر عليها. دون هذا الرحالة رحلته في جنوب البلاد السعودية، ونشرها عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) في مجلة علمية قيمة، هي: المجلة الجغرافية التي تصدرها الجمعية الجغرافية في لندن، وقام الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي بترجمة هذه الدراسة، ونشرها في (مجلة الدارة) العدد (١) السنة (١٤) (شوال /١٤٠٨هـ الموافق مايو/١٩٨٨م) [١]. ويوجد في هذه الرحلة تفصيلات تاريخية وحضارية جيدة لا نجد مثيلها في أي مصدر آخر، وقد تجول هذا الرحالة في بلدان تهامة الممتدة من القنفذة إلى تهامة الباحة وعسير ثم إلى جازان، وعاد إلى أرض السراة فتجول في أنحائها من ظهران الجنوب جنوباً إلى الطائف[٢]. ويتحدث بشكل عام عن كثافة الغطاء النباتي والأشجار المتفاوتة في الكبر والصغر في جبال السروات الممتدة من بلاد قحطان في الجنوب إلى سروات الطائف[٣]. ويذكر بعض جبال بني سعد وبني مالك، الواقعة إلى الجنوب من الطائف، ويقول إن صخورها بركانية، وبعض قممها من الحجر الجرانيت[٤]، وعند خروج تشيجر من أبها نحو الشمال يوجز الحديث عن البلاد السروية الواقعة بين الطائف وأبها[٥]، ولا يذكر أي عن حاضرة الطائف، غير قوله: "وصلنا الطائف في الرابع والعشرين من شهر يونيه، بعد أن غطينا من أبها (٣٠٠) ميل، قطعناها في (١٦) يوماً من السير، فقد وصلنا النماص في أربعة أيام، والظفير في ستة أيام أخرى، مضاف إلى ذلك ستة أيام إلى الطائف[٦]، ويوجد قليلاً إلى الشرق من الظفيرة، طريق إضافي للجمال، يصل إلى الطائف في أربعة أيام ونصف، ولكنه يستلزم حمل الماء لمدة يومين، لأن الماء ضروري في كل مكان من هذه الجبال"[٧].

(١) انظر الدراسة نفسها في (مجلة الدارة) وعنوانها (رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز) ص٩٣-١٢٣. وللمزيد عن الرحالة ولفرد تسيجر، انظر، غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جـ٣، ص٣٦٣، جـ٤، ص٥٨، جـ٥، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٠-١١٢.

(٦) كانت السيارة هي وسيلة النقل، لكن الطريق من أبها إلى الطائف وعرة جداً، ولم تصبح هذه الطريقة سهلة ويسيرة إلا منذ بداية القرن (١٥هـ/٢٠م).

(٧) انظر تسيجر، رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز، ص ١١٢.

ويواصل قوله عن سفرهم في جبل السروات، فيقول: "لقد سافرنا بجد، وبمعدل نحو عشر ساعات يومياً على الطريق، وبالرغم من أن طعامنا غير المتنوع كان يتكون من خبز البر المغموس في الزبد، وأحياناً صحن من التمر"(١).

أما فيليب ليبنز فهو أحد الضباط البلجيكيين الذين كانت لهم مغامرات في بعض البلدان العربية(٢)، وهو واحد من الفريق العلمي الذي قاده فلبي للقيام برحلة في وسط وجنوب غرب الجزيرة، عام (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م)(٣). وأثناء رحلة ليبنز ورفاقه عبر بلاد السروات إلى نجران ثم إلى بلاد نجد، فقد ألف في ذلك كتاباً أسماه: رحلة استشكافية في وسط الجزيرة العربية، ونشره باللغة الفرنسية في خمسينيات القرن الميلادي الماضي، ثم قام الأستاذ الدكتور محمد محمد الحناش بترجمة النسخة الفرنسية الأصل إلى العربية، وذلك بطلب من دارة الملك عبدالعزيز، ونشرت النسخة العربية (التي تقع في ٢٧٥ صفحة من القطع المتوسط)، بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وصدرت هذه الطبعة عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م) (٤). وفي أوائل شهر سبتمبر عام (١٩٥١م) خرج ليبنز ورفاقه من جدة صوب الطائف، ولم يذكر لنا شيئاً عن وادي السيل الذي اجتازوه، وقد اختلفوا عن فؤاد حمزة الذي لم يدخل الطائف، وإنما سار من أجزائه الشرقية صوب تربة ورنية(٥)، أما ليبنز وفريقه فساروا حتى دخلوا الحوية التي تقع شمال مدينة الطائف، ولم يذكر شيئاً عن طبيعتها الجغرافية، أو تركيبتها السكانية، وإنما واصلوا سيرهم حتى دخلوا الطائف، وذكر ليبنز بعض مشاهداته المحدودة(٦)، فقال: "في الطائف كان يعيش عشرات من الجنود البريطانيين الذين

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٢) لم نجد تفصيلات واضحة عن بدايات تاريخ هذا الرجل، اللهم إلاّ أنه كان أحد الضباط البلجيكيين الذين قدموا إلى الشرق الأوسط، وله اهتمامات بالرسومات والآثار القديمة. انظر غيثان بن جريس. "بلاد عسير في كتابات فيلبي وفيليب لينز". هذه الدراسة منشورة في مداولات اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجي (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٥٢٣ وما بعدها. والبحث نفسه منشور أيضاً في كتابنا: صفحات من تاريخ عسير، جـ٢، ص ٢٧٥، وما بعدها.

(٣) كان الفريق العلمي مكوناً من هارى سان جون فلبي، والأستاذ كونزاك رايكمانز، أستاذ اللغات السامية في جامعة لوفان، والسيد فيليب ليبنز، الخبير في تخطيط الرسوم وتصوير الآثار القديمة والنقوش، وجاك ريكمان، ابن أخي الأستاذ السابق، ومساعده في الفيلولوجيا والتاريخ الحميري والسبئي.

(٤) انظر الكتاب (النسخة العربية) (٢٧٥) صفحة.

(٥) فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص ١٢-٢١.

(٦) انظر ليبنز، رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، ص٢٥-٣٠.

يقومون بتدريب السعوديين في مخيم عسكري كبير، وقد استقبلونا بكل ترحاب مع مظهر لا يخفي فضولهم، كلهم يعرفون فلبي من خلال شهرته[١]، وقد غبطونا على دخولنا إلى أعماق بلد كان مغلقاً في وجههم[٢]. وعلى الرغم من انعدام الأشجار في الطائف[٣]، فإنها مع ذلك مدينة مهمة يصل سكانها إلى خمسين ألف نسمة، وقد كان عددهم قليلاً في الماضي[٤]، وتوجد بالطائف بعض المنازل الجميلة متعددة الألوان، وأسطحها مستوية، وهي مكونة من ثلاثة إلى أربعة أدوار، لكنها مع ذلك منازل متواضعة مقارنة بما شاهدناه في جدة"[٥]. ويذكر هذا الرحالة صوراً اقتصادية واجتماعية أخرى في الطائف، فيقول: " وفي أماكن متفرقة كان يوجد الشعير أو القمح الذي وصل حد السنبلة، وقد قمنا بزيارة أحد المواطنين الذي كان يصنع العسل الطبيعي. وفي المساء ذهبنا عند الأمير لتناول وجبة العشاء، وبمجرد دخولنا الديوان قمنا بخلع الأحذية، كما تتطلب ذلك المجاملات العربية[٦]. قدموا لنا القهوة العربية بالهيل والشاي المحلي بالعسل، كنا نتذوق هذه المشروبات ونحن جلوس فوق السجاد الذي كان يغطي الأرض اليابسة، وقد حمل أحد الخدم قارورة مستطيلة من الخشب (المبخرة)، أدخل فيها الأمير بعض الأعواد، وبالتناوب كنا نفتح الغترة من أجل تعطير جيد للحيتنا. ووضع الخدم على الأرض (٦٧) صحناً تتراوح بين قدور وآنية الشوربة، ولم يكن منها فارغاً، وذلك لعدم وجود صحون صغيرة خاصة بكل فرد، لقد امتلأت بخرفان مشوية بكاملها بما في ذلك رؤوسها بالإضافة إلى عجينة الحمص (الجريش)، كما قدم لنا عسل جيد وخبز ممتاز وتمر وموز، كل هذا من أجل أن تفتح شهيتنا، وقد كنا نغمس اللحم في العسل"[٧].

---

(١) نعم فلبي أصبح مشهوراً في عموم الجزيرة العربية، فقد دخلها وقابل الملك عبدالعزيز عام (١٩١٧م)، ثم استمر يتجول في أرجاء المملكة العربية السعودية حتى تاريخ رحلة ليبنز ورفاقه عام (١٩٥١م). وكتب مؤلفات كثيرة عن جزيرة العرب، وقابل أناس كثيرين، فكيف لا يكون معروفاً ومشهوراً؟

(٢) ليبنز، رحلة استكشافية في وسط الجزيرة، ص ٣١.

(٣) منطقة الطائف غنية بأشجارها وغطائها النباتي، لكن ليبنز ورفاقه ربما جاءوا من طريق لا يوجد حولها نباتات أو أشجار.

(٤) نعم عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م) ازداد عدد السكان في الطائف، لكن الرقم الذي ذكره ليبنز ربما يكون غير دقيق. انظر، ليبنز، ص٣٢.

(٥) رحلة استكشافية، ص ٣٢. جدة مدينة متحضرة وسكانها أكثر تمدناً وحضارة من الطائف التي معظم سكانها قبائل يغلب عليها الطابع الريفي أو البدوي.

(٦) انظر ليبنز، رحلة استكشافية، ص ٣٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٣-٣٤.

٢٠- حمد الجاسر، ومحمود شاكر، وعاتق البلادي، وعبدالرحمن الشريف، (ق١٤-١٥هـ/٢٠-٢١م):

الجاسر: هو حمد بن محمد بن جاسر من أسرة آل جاسر المنتمية إلى بني علي من حرب. ولد عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) في قرية البرود من إقليم السر في نجد من أب فلاح فقير. أدخله والده المدرسة، ثم انتقل به إلى الرياض عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، واستمر يتعلم مبادئ العلوم الدينية، ثم عاد إلى بلدة البرود عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)، وكان والده قد توفي، فتولى رعايته جده لأمه، وكان إمام مسجد قرية البرود، فاستمر هذا الشاب يساعد جده في إمامة المسجد إلى عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، ثم أرسل مرشداً وإماماً لفخذ من قبيلة (عتيبة) تدعى الحواما من النفعة، وهم بدو رحل، فكان ينتقل معهم من مكان لآخر، وفي آخر عام (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) ذهب إلى الرياض وبدأ يتعلم على بعض المشايخ هناك، ثم ترك الرياض وذهب إلى مكة والتحق بالمعهد الإسلامي السعودي في مجال القضاء الشرعي، وعند إنهاء دراسته بالمعهد تحول إلى مهنة التعليم في ينبع، ثم صار قاضياً في ضبا عام (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م). وفي عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، لكنه لم ينه دراسته في هذه الكلية بسبب الحرب العالمية الثانية التي جعلته يعود إلى وطنه، ثم عمل في أعمال تعليمية وإدارية عديدة، كان حريصاً دائماً على القراءة وكتابة بعض المقالات في عدد من المجلات والجرائد العربية، ومع اجتهاده ومثابرته على البحث والقراءة أصبح من أبرز العلماء الباحثين في العالم العربي، وصار عضواً في عدد من المجامع العلمية العربية، كما ساهم في تطوير الصحافة في المملكة العربية السعودية، وأنشأ اليمامة وهي أول صحيفة في الرياض عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، ثم جريدة الرياض عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، وأخيراً مجلة العرب التي هو صاحبها ورئيس تحريرها. كما أنشأ أول دار للطباعة في نجد عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، وفي عام (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. وله إسهامات عديدة وبخاصة في البحث والتأليف والتحقيق فأصدر عشرات الكتب والبحوث المتنوعة في موضوعاتها وأبوابها، ومعظمها تدور في فلك تاريخ وجغرافيا وأدب ولغة وتراث الجزيرة العربية[١].

---

(١) هناك عشرات ا لكتب والمقالات التي ذكرت جهود الشيخ حمد الجاسر. وأقول ان هذه القامة العلمية تستحق أن يكتب عنها دراسة مطولة في عدة مجلدات توضح جهوده الثقافية والعلمية التي قدمها للعالم العربي والإسلامي وبخاصة ما يتعلق بتراث الجزيرة العربية.

ومن يطالع (مجلة العرب) التي أسسها وتولى رعايتها الشيخ الجاسر فإنه سوف يجد فيها مادة علمية جيدة عن تاريخ وتراث وأعلام وثقافة منطقة الطائف، وهذا الموضوع لن ندرجه في بحثنا هذا[١]، وإنما نلقي نظرة على ما تم تدوينه عن أجزاء من الطائف عندما خرج في رحلة من الطائف عبر بلاد السروات حتى وصل بلاد الباحة (غامد وزهران) عام (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ودون تفاصيل تلك الرحلة في كتابه الذي أسماه: في سراة غامد وزهران (نصوص) مشاهدات، انطباعات[٢]. وفي القسم الأول من هذا الكتاب ذكر عنصراً تحت عنوان (بين الطائف والباحة) وتحدث في بدايته الرغبة التي كانت تعتريه وهو في الطائف، حيث يرغب السفر والتجوال في السروات الممتدة من الطائف إلى الباحة، واشار إلى أهمية بلاد السراة وذكرها عند المتقدمين من كتاب التراث، وعند التقائه بأحد أعلام الطائف وهو: الأستاذ محمد سعيد كمال[٣]، وذكر له تلك الرغبة، وكان الشعور الذي يعيشه ابن كمال ويريد تحقيقه، وهنا اجتمعت الرغبتان عند ابن جاسر وابن كمال وقررا السير براً من الطائف إلى الباحة[٤]، ويقول الجاسر: "عقدنا العزم، وسرنا إلى موقف السيارات المتجه إلى تلك الناحية (يقصد الباحة)، واستأجرنا سيارة صغيرة (بيجو).. وسرنا من الطائف في الساعة الواحدة صباح السبت (١٩/٢/١٣٩٠هـ) مع طريق معبد، وبعد أن قطعنا منه (١٣) كيلاً انحدرنا في وادي لية، من أودية الطائف المعروفة المشهورة بجودة الرمان، وله ذكر كثير في المؤلفات القديمة، وقد مر به رسول الله (ﷺ) في غزوته للطائف، وأمر بهدم حصن مالك بن عوف، قائد هوازن المقام في ذلك الوادي.."[٥]. ثم يواصل حديثه عن ذكر أمكنة عديدة مروا عليها بعد وادي لية مثل: مظللة، وشقصان، ووادٍ الحميطه، ووادي الجبوب الذي يبعد عن الطائف نحو الجنوب (٨٠-٨٥) كيلاً، ويعرف هذا الوادي ايضاً باسم

---

(١) (مجلة العرب) عمل موسوعي للشيخ حمد الجاسر عن عموم الجزيرة العربية، ومن يبحث في هذه المجلة فإنه سوف يجد فيها الكثير من الموضوعات والبحوث والدراسات القيمة عن الطائف وغيرها من قرى، وبلدان، وقبائل، وتاريخ، وجغرافية وحضارة الجزيرة العربية. وأقول إن هذه المجلة جديرة بالدراسة والاهتمام من جميع المؤرخين والجغرافيين والباحثين في جامعاتنا ومراكز بحوثنا وأقسامنا العلمية.

(٢) انظر الكتاب الذي يقع في (٥٩٥) صفحة من القطع المتوسط (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م).

(٣) محمد سعيد كمال من أعلام الطائف وممن كتبوا عدد من البحوث والدراسات عن تاريخ وحضارة الطائف وهو ينتسب إلى الأسرة الكمالية في مدينة الطائف.

(٤) انظر حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٩-١٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠.

(غزايل) ويقع في بلاد بلحارث[١]. وعند وصول الجاسر إلى بلاد غامد وزهران أقام عند أميرها سعود بن عبدالرحمن السديري ثلاثة أيام وتنقل في ربوع منطقة الباحة وجمع مادة كتابه عنها، ثم عاد مع صاحبه ابن كمال إلى الطائف[٢]، وذكر بعض التفصيلات عن فروع أودية شقصان، ومظللة، وكلاخ[٣].

اما محمود شاكر، فهو: أبو أسامة محمود بن شاكر ولد في حرستا بالشام شمال شرقي دمشق في شهر رمضان (١٣٥١هـ/١٩٣٢م)، تعلم في بلاد الشام، وحصل الشهادة الجامعية في قسم الجغرافيا بالجامعة السورية في دمشق عام (٣٦-١٣٧٧هـ/٥٦-١٩٥٧م)، التحق بالخدمة العسكرية الالزامية، وبعد أن قضاها، عاد إلى التدريس، وعمل في مناطق عديدة في سوريا، وكرس حياته للقراءة والاطلاع في تاريخ الأمة الاسلامية، ثم انتقل إلى المملكة العربية السعودية عام (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) وعمل في معاهد وكليات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض والقصيم وأبها، وكتب عشرات الكتب والبحوث في التاريخ العربي والإسلامي ومنها: موسوعة كتاب (التاريخ الإسلامي) ويقع في (٢٢) مجلدا، وسلسلة العالم الإسلامي، وسلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا، وسلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا، وسير بعض الصحابة، وسلسلة الخلفاء، وكتب عديدة في علم الجغرافيا، وفي التاريخ والفكر الإسلامي[٤]. وما يهمنا في هذا البحث هو كتاب: شبه جزيرة العرب (الحجاز)[٥]، وهذا المؤلف ضمن (سلسلة مواطن الشعوب الاسلامية في آسيا)، وحجمه صغير، ويقع في (٢٠١) صفحة، ومادة هذا الكتاب جغرافية وتاريخية من رحلات ومشاهدات وانطباعات، ولا يفرد لحاضرة الطائف مادة مستقلة، وإنما تحدث عنها ضمن حديث عام عن التركيبة الجغرافية والسكانية لمنطقة الحجاز (الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة) وما حولها، كما سرد بعض الاحداث التاريخية التي عاشها أهل الحجاز منذ عصور ما قبل الإسلام إلى القرن (١٤هـ/٢٠م)، واشار أيضا إلى بعض الصور التاريخية الحضارية في حواضر الحجاز الكبرى[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦، ١٩-٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨-٨٢.

(٤) للمزيد يتم الاطلاع على كتبه المطبوعة والمنشورة، وبعضها تم طباعته مرات عديدة، وبعضها أيضاً تم وضعها على شبكة (النت)، وأصبحت كتباً رقمية الكترونية.

(٥) تم طباعة هذا الكتاب في (دمشق، المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)؛ ص ٩-١٩٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥ وما بعدها.

أما عاتق البلادي: فهو عاتق بن غيث بن زوير بن زائر بن حمود البلادي. والبلادية فرع من قبيلة حرب.ولد عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٤م) في البادية شمال مكة في مكان يدعى (مسر) بسفح جبل يطلق عليه اسم (أبيض). ونشأ في البادية مع والده، بدأ دراسته في مدرسة وادي خليص، وعند وفاة والده عام (١٣٦٤هـ /١٩٤٤م) تولى رعايته أحد أخواله، وعمل جمالا، ثم انتقل إلى مكة، وعمل في بعض الأعمال البسيطة، ودرس في المدرسة السعودية وفي الحرم المكي، وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية، التحق بالجيش السعودي وتدرج في الأعمال العسكرية حتى حصل على رتبة ملازم (ضابط)، وسار مع الجيش السعودي الذي ذهب إلى الأردن أيام العدوان الثلاثي على قناة السويس عام (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، كما عمل في قطاعات عسكرية عديدة، وعمل في مدن عديدة مثل: تبوك، والطائف، والرياض، ومكة المكرمة، وصامطة في جازان. وحصل على العديد من الدورات العسكرية، وتقاعد من وظيفته عام (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). اجتهد في حياته العلمية بالقراءة والاطلاع على العديد من الكتب والبحوث، وبدأ في كتابه مقالات في بعض الجرائد المحلية، ومجلتي المنهل والعرب منذ ثمانينيات القرن الهجري الماضين وحضر عددا من الندوات والمؤتمرات المحلية والإقليمية، وكان عضوا في نوادي الطائف، ومكة المكرمة، وجدة الأدبية، وتم تكريمه في مناسبات علمية واجتماعية عديدة . وله عشرات الكتب المطبوعة والمنشورة، ومنها: (١) معجم معالم الحجاز (عشرة أجزاء) (٢) معالم مكة التاريخية والأثرية. (٣) المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (٤) قلب الحجاز (٥) أشهر أودية الحجاز وروافدها وقراها وسكانها (٦) أودية مكة المكرمة. وله باع جيد في دراسة الأنساب وتتبع تاريخ القبائل وبخاصة في (الحجاز) كما ألف في الرحلات عدداً من الكتب، ومنها الكتاب الذي يهمنا في هذه الدراسة والموسوم بـ: بين مكة وحضر موت (رحلات ومشاهدات)[1]، وهذا السفر رحلات ومشاهدات في البلاد الممتدة من مكة والطائف إلى سروات منطقتي الباحة وعسير، ثم بلاد نجران وما حولها. ويقع هذا الكتاب في (٤٠٧) صفحة من القطع المتوسط[2].

ونجد هذا الرحالة يخرج من مكة في (٣/شعبان/١٤٠٠هـ الموافق ١٨/ يونية ١٩٨٠م) صوب الطائف، ويجتاز عرفة ووادي نعمان، ثم صعد في جبل الهدا، وذكر صعوبة طريق الهدا في الماضي، وعند مروره معها في نهاية القرن الهجري الماضي

---

(١) طبع هذا الكتاب في مدينة مكة المكرمة، وفي دار مكة عام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ويوجد في نهايته عدد من الفهارس الجيدة.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١ وما بعدها. وللمزيد انظر غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب. جـ٣، ص٣٧٧، جـ٤، ص٦٧، جـ٥، ص ٧١، جـ٩ ص١٧٤.

وجد أن المدنية غزت هذه البلاد، فالعمران في وادي نعمان وفي الهدا بدأ يتحول إلى الأحسن، والطرق وبخاصة طريق الهدا أصبحت أفضل مما كانت عليه[١]. وفي أثناء سيره ما بين مكة حتى الطائف يذكر خلاصة ما شاهده من حضارة وتمدن ليس على حواضر الحجاز فقط وإنما عموم البلاد السعودية، فيقول: "والحقيقة أن النهضة التي حدثت في المملكة العربية السعودية بين عامي (١٣٩٥هـ / ١٤٠٠هـ) لا يستطيع أن يتصورها إلاّ من يعرف هذه المملكة في السبعينيات، ثم يراها اليوم، فقد حدث فيها ما يشبه الأساطير، فعمت السيارات بيوت البادية والحاضرة، وأنيرت القرى، وشربت المياه المعقمة بالصنابير، ووصلت إلى كثير منها طرق معبدة، ولم تبق قرية ليست فيها مدرسة ومسجد يصلى فيه، وهذا أمر لم يدخل حتى في عداد الأحلام سنة (١٣٧٥هـ) مثلاً"[٢].

وأقول ليس الأستاذ البلادي هو الوحيد الذي يدون هذا الانطباع وهذه الحقائق الواضحة للعيان، وإنما هناك رواة ورحالون مسلمون وغيرهم، وآلاف الوثائق تؤكد على التطور والتمدن الذي تعيشه المملكة منذ توحيدها على يد الملك عبدالعزيز (يرحمه الله)، ومن بعد تسميتها باسم (المملكة العربية السعودية) في بداية الخمسينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، أما في السبعينيات والثمانينيات من القرن نفسه فعجلة التمدن أخذت طريقها، وحققت انجازاتها ومشاريعها في التسعينيات ومنذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، حتى وقتنا الحاضر، ولو قدر للبلادي وأمثاله من الرحالة الأوائل أن يسيروا اليوم في الطرق الواصلة بين جدة ومكة والطائف، ثم تجولوا في حاضرة الطائف فإنهم سوف يرون تحولات حضارية عملاقة في شتى ميادين الحياة، وهذا يدل على جهود الدولة الكبيرة المبذولة في خدمة الأرض والسكان في هذه الديار العربية الأصيلة[٣].

ويقول البلادي عن أعالي جبل الهدا، التي تبعد عن وسط مدينة الطائف حوالي (١٨) كيلاً: "كانت الهدا مزارع وقرى، حتى جاءت النهضة الحديثة، ومر فيها

---

(١) عاتق البلادي، بين مكة وحضر موت، ص٧. دراسة البلاد الواقعة بين الطائف ومكة عن طريق الهدا وعن طريق وادي السيل تحتاج إلى أن يفرد لها دراسات عديدة في رسائل علمية أو مقالات في مجلات محكمة.

(٢) المرجع نفسه، ص٧. وأقول إن عاتق البلادي من أعلام المملكة العربية السعودية ويستحق أن يفرد له وانجازاته العلمية رسالة علمية أو كتاب علمي شامل يفصل ما عمل وقدم وحقق، وهذه مسئولية جامعاتنا المحلية وبخاصة جامعات مدن الحجاز الكبرى في مكة المكرمة وجدة، والمدينة المنورة، والطائف.

(٣) حبذا أن جامعات مكة المكرمة، وجدة، والطائف تقوم بمسئولياتها المنوطة بها، فتؤسس مراكز بحثية تقوم على دراسة أحوال هذه البلاد، وما جرى عليها من تطورات حضارية في شتى ميادين الحياة، وهذا العمل يجب أن يدرس ويوثق وينشر.

طريق كرا المزفت سنة (١٣٨٥هـ)، فتحولت إلى مدينة، فيها كل ما في المدن من خصائص، وتعتبر الهدا من المصايف الجميلة، ومياهها عذبة، غير أنها شحيحة، وأغرى أهلها الارتفاع الهائل الذي حدث في أسعار الأراضي، فأخذ كثير منهم يبيع أرضه، فتحولت بعض المزارع إلى مباني..." [١].

وسار هذا الرحالة من مدينة الطائف دون أن يذكر شيء عن تاريخها أو نموها وحضارتها، ووصل وادي لية، جنوب الطائف، وقال أنه: "واد ذي شهرة وتأريخ أهله ثقيف، ثم عتيبة، ثم عدوان في أسفله، ولرمانه شهرة لا تضاهى، ويبعد عن الطائف خمسة عشر كيلاً" [٢]. ويواصل حديثه في الإشارة إلى بعض المواضع الواقعة جنوب وادي لية حتى وصل بلاد الجبوب التي تبعد عن الطائف حوالي (٨٥) كيلاً [٣].

والدكتور / عبدالرحمن صادق الشريف، فلسطيني الجنسية، وهو أستاذ جامعي عمل في بعض الجامعات السعودية وغيرها منذ بدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، وأصدر عدداً من المؤلفات والبحوث الجغرافية عن المملكة العربية السعودية، وقام بالعديد من الجولات والرحلات في الحجاز وبلدان تهامة والسراة [٤]. ومن أفضل مؤلفاته كتابه الموسوم بـ" جغرافية المملكة العربية السعودية، في جزئين [٥]. والجزء الأول يناقش جغرافية المملكة العربية السعودية بشكل عام [٦]. والجزء الثاني

---

(١) البلادي، بين مكة وحضر موت، ص ٨. ليس في الهدا فقط وإنما في عموم البلاد السعودية. وقد عاصرت حياة أهل تهامة والسراة منذ ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) حتى اليوم، ورأيت كيف كانت معظم بلادهم أراض زراعية، ومع مرور الزمن وتحول الناس من القرى إلى المدن ودخولهم الوظائف الحكومية تدهورت الزراعة في هذه البلاد، وتحولت الكثير من الأراضي الزراعية إلى أراض عمرانية وسكنية. وهذة الظاهره والتحول يستحق أن يدرس دراسة تاريخية حضارية.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩-١١. هذه البلاد الممتدة من الطائف شمالاً إلى بلاد الجبوب (غزايل) ثم الباحة جنوباً تستحق أن يفرد لها دراسة مستقلة، وهذه الأوطان من أقل أجزاء بلاد السروات تدويناً لتاريخها وحضارتها. وأرجو أن يكون في العمر بقية حتى أقوم برحلة في هذه البلاد وأدون شيئاً من تاريخها وحضارتها عبر أطوار التاريخ الإسلامي.

(٤) حبذا أن تفرد رسالة ماجستير أو دكتوراه عن الدكتور عبدالرحمن الشريف وما بذله في ميدان البحث الجغرافي والرحلات، وهو يستحق أن يصدر عنه وعن جهوده دراسة علمية أكاديمية.

(٥) الجزء الأول من مطبوعات دار المريخ في الرياض عام (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ويقع في (٣٠١) صفحة من القطع المتوسط. والجزء الثاني، مطبوع في الدار نفسها عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ويقع في (٤٨٣) صفحة من القطع المتوسط.

(٦) عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية، جـ١، ص ٩ وما بعدها.

خصصه المؤلف لجنوب غرب المملكة العربية السعودية، أو البلاد المعروفة بـ (بلاد تهامة والسراة) التي تشمل المنطقة الممتدة من الطائف إلى نجران، ومن مكة إلى جازان[١].

وفي فصل مستقل أسماه (منطقة سروات الحجاز)، ويقصد بذلك البلاد السروية الممتدة من جنوب الطائف إلى حاضرة الباحة في بلاد غامد وزهران، وفي حوالي (٤٧) صفحة ناقش عدداً من المحاور الجغرافية والحضارية الرئيسية في هذه البلاد. وبدأ في نقاشه من ديار بني سعد الواقعة إلى الجنوب من حاضرة الطائف، ثم قضاء ميسان (بالحارث) إلى جنوبها، ثم بلاد ثقيف، وحداد بني مالك، والقريع في البلاد الواقعة بين سروات زهران وميسان بالحارث[٢]، وذكر صوراً من الحياة الاجتماعية، والزراعية، والتركيبتين الجغرافية والبشرية، في هذه الأوطان، وأشار إلى أن حياة التمدن فيها أقل بكثير من بلاد الطائف أو حتى مناطق الباحة وعسير[٣]. ولم يذكر هذا الرحالة معلومات كثيرة أو ذات قيمة علمية كبيرة عن حاضرة الطائف، اللهم إلاّ إشارات بسيطة تذكر تبعيتها الإدارية إلى محافظة الطائف، وتصديرها بعض المواشي والحبوب إلى أسواق مدن الحجاز الكبيرة. ونقول إن هذه البلاد لا تختلف كثيراً في طبيعتها السكانية والجغرافية عن مناطق الطائف والباحة وعسير، ومع قربها من مدن الحجاز كالطائف ومكة، إلا أنها كانت وما زالت في عزلة، وتحتاج إلى جهود كبيرة في ميادين التنمية والتطوير، كما أنها تمتاز بكثرة قراها الصغيرة، وفيها بعض المراكز الإدارية المحلية التابعة لمحافظة الطائف[٤].

---

(١) المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٣ وما بعدها.

(٢) هذه البلاد الواقعة بين حاضرة الطائف وشمال منطقة الباحة، أطلق عليها هذا الباحث اسم (الاقليم الجبلي في جنوب الطائف)، ويمكن استبدال مفردة (الجبلي) بكلمة (السروي)، لأن هذه البلاد جزء من بلاد السراة الممتدة من الطائف شمالاً إلى بلاد ظهران ونجران جنوبا.

(٣) هذا الكلام حقيقة وما زالت حتى اليوم متواضعة في تمدنها وتنميتها، حتى وإن كانت أحسن حالاً مما كانت عليه في بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م). وسوف أفرد لها دراسة مستقلة (بإذن الله تعالى) بعد أن أتجول في مناكبها، وأرجو أن يكون ذلك قريباً.

(٤) تاريخ الطائف ومكة المكرمة وصلاتها السياسية والحضارية ببلاد السروات الممتدة من الطائف شمالاً إلى بلاد غامد وزهران جنوباً تستحق أن يفرد لها عدد من الكتب والدراسات التي تناقش أوضاعها وصلاتها مع الحجاز منذ عصور ما قبل الإسلام وعبر أطوار التاريخ الإسلامي، ونأمل أن نرى بعض طلاب الدراسات العليا في جامعات الطائف ومكة المكرمة يتولون هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الموثقة.

ثالثاً: وقفة قراءة ومقارنة للمؤرخين والرحالين ومدوناتهم:

١-تنوع ثقافات المؤرخين والجغرافيين والرحالين:

من خلال الاطلاع على فهارس هذا القسم نجد أن علوم التاريخ والجغرافيا والرحلة هي العمود الفقري الذي قامت عليه مادة هذا المبحث، كما أن المكان المقصود في هذه الدراسة هو حاضرة الطائف، ذات العراقة التاريخية والجغرافية، وذات الموقع المميز في بلاد الحجاز التي هي مهبط رسالة الإسلام ولهذا فقد أوردنا أسماء (سبعة وستين) مؤرخاً ورحالة ذكروا الطائف ومكانتها الحضارية والتاريخية منذ بدايات عصر الإسلام إلى وقتنا الحاضر[١]. والذي نستنتجه من حياة هؤلاء العلماء، ومسيرتهم الثقافية والفكرية والعقدية والحضارية، ندرجه في نقاط عديدة، هي:

أ - هؤلاء المؤرخون والرحالة ولدوا وترعرعوا وتعلموا في بيئات مختلفة ومتفاوتة، ومعظمهم مسلمون جابوا بلداناً عربية وإسلامية كثيرة، كما أنهم عاشوا في أمكنة وحقب تتراوح في الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري إلى الخامس عشر الهجري (ق٨-٢١م)، ومنهم علماء وموسوعيون، مثل: أبي إسحاق الحربي وأبي الفرج قدامة بن جعفر، وأبي علي الهجري، والهمداني، والمسعودي، والمقدسي، والبكري، وياقوت الحموي، وابن جبير، والقزويني، وأبي الفداء، وابن فضل الله العُمري، وابن بطوطة، وشكيب أرسلان، والزركلي، وفلبي، وحمد الجاسر، ومحمود شاكر وغيرهم[٢].

ب- يتضح أن معظم الجغرافيين والمؤرخين قد تعلموا على أيدي علماء ومدارس علمية جيدة، كما أن بعضهم من المتقدمين والمتأخرين كانوا يجيدون لغات أخرى إلى جانب اللغة العربية التي كتبوا بها بعض بحوثهم وجمعوا بها مادتهم العلمية أثناء مجيئهم إلى الحجاز وزيارتهم بلاد الطائف والكتابة عنها.

جـ- غالبية المؤرخين والجغرافيين المذكورين هم مسلمون، على مذهب أهل السنة والجماعة، وربما كان بعضهم يعتقد المذهب الشيعي، كما أن فيهم غير

---

(١) للمزيد انظر أسماء هؤلاء الأعلام وتراجمهم في الصفحات السابقة من هذه الدراسة.

(٢) انهم نماذج من هؤلاء العلماء والرحالين، وما زال غيرهم، في هذه الدراسة، من الباحثين واسعي الاطلاع. وأقول أن كل عالم يستحق أن يفرد له دراسات علمية عديدة، ونأمل أن نرى أقسام التاريخ في بلادنا العربية السعودية فتوجه طلابها وأساتذتها لدراسة حياة وانجازات هؤلاء المؤرخين والجغرافيين القديرين.

مسلمين جاءوا من بيئات نصرانية أو يهودية، أو بوذية، ورغب بعضهم الدخول إلى الأماكن المقدسة، فأعلنوا إسلامهم وبعضهم لم يكن صادقاً في اعتناقه الإسلام، لكن كان لهم أهداف سياسية واستخباراتية وربما اقتصادية أو علمية مثل: بوركهارت، وليون روش، وتاميزيه، وشارل ديدييه، وداوتي، وسنوك، وفلبي، وتويتشل، وولفرد ثسيجر، وليبنز وغيرهم[١].

د- من يدرس حياة وثقافة وتجارب وانجازات كل واحد من هؤلاء المؤرخين والرحالة بشكل منفرد، فإنه سوف يجد كماً هائلاً من الفكر والثقافة والمعارف التي يتميز بها كل علم من هؤلاء العلماء، كما أنه سوف يجد التفاوت في مستوى علومهم وثقافتهم. فعلماء العصر الإسلامي المبكر والوسيط أعمق وأوسع وأكثر تنوعاً في العلوم والثقافة، كما أنه سوف يجد بعضهم كانوا على علاقات جيدة بصناع القرار في بعض الحكومات والدول التي عاصروها، أو أن بعضهم كانوا من كبار موظفي دولهم، في حين أن هناك من كان يعيش عيشة متوسطة أو دون المتوسطة. والأمر نفسه مع المؤرخين والرحالين المتأخرين وبخاصة من القرن (١٢-١٥هـ/ق١٨-٢١م)، فقد كان بعض الأوروبيين مثل: بوركهارت، وليون روش، وتاميزيه، وشارل ديدييه، وفلبي وغيرهم مدعومين مادياً وسياسياً من حكوماتهم، وذلك لتحقيق بعض الأهداف السياسية والاستخباراتية المرسومة لهم، وأيضاً من بعض الحكومات الإسلامية والعربية داخل الجزيرة العربية وخارجها، مثل: العثمانيين ومحمد علي باشا، والأشراف في الحجاز، وعبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل وغيرهم.

هـ- لا تخلو رحلات هؤلاء المؤرخين والرحالين من بعض السلبيات سواءً في ما جمعوه ودونوه أثناء حديثهم عن الحجاز أو الطائف بشكل خاص، أو فيما يعتقده بعضهم من أهداف أو توجهات سلبية عامة أو خاصة. لكن الجانب الايجابي في مادتهم المدونة يحمل نسبة عالية من الجودة وندرة المعلومات وحفظها من الضياع، واطلاعنا على بعض الصور التاريخية والحضارية التي لا نجدها في مصادر أخرى غير كتب التاريخ والرحلات[٢].

---

(١) هؤلاء الرحالة الأجانب جديرون بالدراسة وبخاصة أهدافهم، ورحلاتهم، وانجازاتهم، وما قدموا من سلبيات وإيجابيات أثناء تنقلاتهم في شبه الجزيرة العربية. وما من شك فإنهم قدموا لنا مادة علمية جيدة عن أرض وسكان شبه الجزيرة العربية، قد لا نجدها في أي مصدر أو مرجع آخر.

(٢) أقول إن دراسة ثقافات هؤلاء المؤرخين والرحالين الوارد ذكرهم في هذا البحث يحتاج إلى عمق وتوسع، ومن يفعل ذلك فقد يطلعنا على دراسة علمية قيمة، وآمل أن نرى أحد طلابنا في برنامج الدراسات العليا بقسم التاريخ في جامعة الملك خالد يدرس التاريخ الثقافي لهؤلاء الرحالة أو بعضهم أو أحدهم.

٢-المصادر والمنهج المستخدم في جمع المادة:

تنوعت مناهج هؤلاء المؤرخين والجغرافيين أثناء حديثهم عن الطائف، وهذا التنوع تبلور في النقاط التالية:

١. هناك عدد من المؤرخين الذين زاروا الطائف وأقاموا فيه، ومنهم من ولد وعاش ومات في الطائف، ودونوا مؤلفات خاصة عن الطائف وأهلها، ومن أولئك: ابن أبي الصيف، والميورقي، والفيروزآبادي، وابن فهد، وابن عراق الكناني، وعبدالقادر الفاكهي، ومحمد البكري، والعجمي، والقنوى، والقاري، وجميعهم كتبوا عن الطائف، ومعظم مدوناتهم في إطار فضائل الطائف، ووادي وج، وعبدالله بن عباس ومسجده، كما أن جل كتاباتهم ينقلها اللاحق عن السابق، ولا تخلو بحوثهم من معلومات تاريخية وحضارية جيدة عن جغرافية الطائف وأهلها.

٢. بعض الرحالين والجغرافيين لم يزوروا الطائف، وإنما نقلوا ما كتبوه عن هذه المدينة الحجازية من بعض المصادر التي اطلعوا عليها، ومنهم من جاءوا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وقابلوا بعض الطائفيين أو السرويين فسمعوا منهم عن الطائف، ونقلوا بعض رواياتهم وأخبارهم عن تلك البلاد، وربما سجلوا بعض أوصافهم الخِلقية والخُلقية، وذكروا شيئاً من اقوالهم ومعارفهم ولهجاتهم[1].

٣. أما المادة العلمية الجيدة والغزيرة في معلوماتها وفي تنوعها، فكان الحصول عليها من خلال زيارة الطائف، والتجوال في ربوعها. ومن العلماء والرحالين الذين أفادونا في هذا الباب: عرام بن الأصبغ السلمي، وأبو علي الهجري، ولسان اليمن الهمداني، وناصر خسرو. فهؤلاء جميعاً تنقلوا في ربوع شبه الجزيرة العربية وجاءوا إلى الطائف وكتبوا عن معالمها الجغرافية وتركيبتها السكانية، وذكروا شيئاً من حياة أهلها الاجتماعية والاقتصادية، وجميعهم

(١) هؤلاء الجغرافيون والرحالون الذين لم يزوروا الطائف كتبوا عنها نقلاً من بعض المصادر، أو سماعاً من بعض الرواة، ومنهم: أبو عبيدالله بن خرداذبة، وابن الفقيه، وابن رسته، والاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة، وغيرهم. وهؤلاء العلماء يستحقون الدراسة مع التركيز على مدوناتهم عن بلاد الحجاز وتهامة والسراة.

في الفترة الممتدة من القرن (٢-٥هـ/ق٨-١١م[١]. والأفضل منهم في غزارة المعلومات وتنوعها الرحالة الذين جاءوا إلى الطائف منذ القرن (١١هـ/١٧م) إلى بدايات القرن (١٥هـ / ٢٠م)، ومنهم: العياشي، والموسوي، وبوركهارت، وليون روش، وشارل ديدييه، وأيوب صبري، ومحمد صادق باشا، وشكيب أرسلان، ومحمد حسين هيكل، والزركلي، وفلبي، وفؤاد حمزة، وتويتشل، ومحمد رفيع، ومحمد رفعت المحامي، وحمد الجاسر وغيرهم. فجميعهم زاروا الطائف وما حولها، وكتبوا تفصيلات مطولة عن أرضها وسكانها، وأشاروا إلى صور من تاريخها الحضاري والتنموي[٢].

وكل ما وجدناه مكتوباً عند هؤلاء المؤرخين والرحالين عن بلاد الطائف هو سرد علمي جيد عن تاريخ وحضارة الطائف، لكننا لا نجد في أساليبهم مناهج المقارنة أو التحليل لما تم رصده وتدوينه. والرحالة الغربيين يتفوقون أحياناً في جودة معلوماتهم ورصانتها، كما أن بعض الرحالة العرب والمسلمين لا يقلون في تميزهم عن الغربيين، ومن أولئك شكيب ارسلان، والبركاتي، ومحمد حسين هيكل، والزركلي فلقد سجلوا معلومات قيمة من خلال مشاهداتهم وجولاتهم في مدينة الطائف وما جاورها من الجبال والأودية والوهاد[٣].

٣) كلمة عن المادة العلمية وأهميتها:

لا نستغرب من سرد أسماء مؤرخين ورحالين عديدون أشاروا إلى تاريخ وحضارة الطائف. ولم نشمل كل الرحالة والجغرافيين الذين زاروا الطائف أو تحدثوا عنها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وما زال هناك كثيرون من علماء وقضاة وطلبة علم وساسة وغيرهم دونوا شيئاً عن بلاد الطائف (أرضاً وسكاناً)[٤]. وفي هذه المؤلفات

(١) هؤلاء الرحالون جديرون بالبحث والدراسة مع التركيز على جهودهم المبذولة في جغرافية وتاريخ الطائف وبلاد تهامة والسراة. حبذا أن نرى باحثاً جاداً يدرس ما دونوا عن هذه الأوطان.

(٢) وأقول إن كل واحد من هؤلاء الرحالين يستحق أن يفرد له دراسة مستقلة وما دون عن مدن الحجاز الرئيسية بما في ذلك الطائف. ومن يفعل ذلك فسوف يسدي لنا معاشر الباحثين هدية قيمة يوضح لنا فيها صفحات من تاريخ وحضارة هذه البلاد العربية.

(٣) حبذا أن نرى باحثاً جاداً يدرس مدونات وأقوال رحالة القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)، عن حاضرة الطائف. وهذا الموضوع يستحق أن يصدر في كتاب أو رسالة علمية أكاديمية. بل إن الطائف في عيون الرحالة عبر أطوار التاريخ الاسلام، موضوع جدير بالدراسة في عدد من الكتب والبحوث العلمية.

(٤) هذا الموضوع مهم جداً ويستحق حصر معظم العلماء والقضاة وغيرهم الذين زاروا الطائف أو عاشوا فيها ودونوا شيئاً مما عاصروه أو عرفوه أو كتبوه.

التي اطلعنا عليها عند هؤلاء المؤرخين والرحالين نلحظ شموليتها، حيث ذكرت صوراً تاريخية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، وفكرية، وجغرافية، وشيء من الآثار وغيرها[١]. وهي تتفاوت من عالم إلى آخر، فالبعض منها اشارت فقط إلى الطائف، وكان جل تركيزها على المدن المقدسة في الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وآخرون أفردوا صفحات وأحياناً فصولاً عن مدينة الطائف وما شاهدوه فيها وبخاصة في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية. وهناك رحالة آخرون أشاروا فقط إلى بعض المعالم الجغرافية والتاريخية وسط المدينة (الطائف القديمة)، وعدد من هذه المؤلفات أشارت أحياناً إلى بعض أعلام الحجاز مثل الأمراء والقضاة وغيرهم[٢].

وجمال أرض الطائف، وجودة مناخها، جعلت بعض هؤلاء المؤلفين يذكرون شيئاً من حسن طبيعتها، وأهميتها سياسياً، لأن صناع القرار في مكة المكرمة عبر أطوار التاريخ الإسلامي حتى القرن (١٣هـ/١٩م) يقضون جزءاً من أوقاتهم في الطائف، وأحياناً بعض الوزراء أو السلاطين أو رجال الدولة الإسلامية في العراق أو مصر منذ عهد الدولة العباسية إلى نهاية عصر الدولة العثمانية[٣].

واستمرت هذه الأهمية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود وأولاده الملوك (سعود، وفيصل، وخالد) فكانوا ينقلون أمور الدولة في الصيف إلى الطائف، ومن هناك تدار البلاد داخلياً وخارجياً. وهذا العامل السياسي والإداري اثر إيجابياً في مسيرة الطائف التاريخية والحضارية حيث ذكرت عند كثير من الباحثين والمؤرخين والجغرافيين والسياسيين وغيرهم[٤].

---

(١) نعم ذكرت معظم هذه المؤلفات شيئاً من هذا التاريخ، لكنها لم تفصل وترسم لنا صورة واضحة وجلية عن تاريخ وحضارة هذه البلاد خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة.

(٢) أرض الطائف مهمة بالنسبة لمكة المكرمة، وهذه الأهمية جعلت عدداً من المؤرخين، والأدباء، والعلماء يزورون الطائف ويكتبون شيئاً من حضارتها. وللأسف أن هناك أعلاماً وأرباب قلم سجلوا بعض المعلومات عن هذه البلاد، لكن ما سجلوه لم يصلنا وربما ضاع، أو ما زال محفوظاً في أمكنة لا نعلمها.

(٣) اتصال الخلفاء والسلاطين والأمراء بالحجاز، ووصول بعضهم إلى الحجاز والإقامة فيها لبعض الوقت عبر أطوار التاريخ الإسلامي من الموضوعات التي لم تدرس. ويستحق هذا الباب أن يدرس في عدد من الكتب والرسائل العلمية، مع توضيح الجوانب الايجابية والسلبية التي عاشها الطائف والطائفيون خلال عصور وزيارات أولئك الرموز السياسية والإدارية.

(٤) اتخاذ الطائف عاصمة سياسية في الصيف خلال عصور ملوك آل سعود في العصر الحديث من الموضوعات التي يجب دراستها في عدد من الكتب والبحوث، مع توضيح ما جرى لبلاد الطائف من تطور وتنمية وبخاصة منذ أربعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى بدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م).

إن معظم الذين كتبوا عن الطائف، عبر أطوار التاريخ الإسلامي كان جل حديثهم عن المدينة، وأحياناً الأمكنة القريبة منها، ولا نجد أحداً منهم يفصل لنا الحديث عن محافظة الطائف بمفهومها الواسع اليوم، بل إن أرياف الطائف وبواديها وكثيراً من قراها والأجزاء التهامية فيها غير معروفة عندنا، ولا نجد معلومات صحيحة تصور لنا تاريخ هذه البلاد البعيدة عن حاضرة الطائف الرئيسية[١].

رابعاً: آراء وتوصيات:

لا ندعي الكمال، أو استيفاء كل ما يجب أو يستحق تدوينه عن الطائف وبخاصة عند شريحة المؤرخين والرحالين. وإنما أوردنا صوراً من تاريخ وحضارة هذه البلاد عند هؤلاء العلماء الذين جاءوا من ثقافات وبيئات مختلفة، والمسئولية كبيرة على جامعة ومحافظة الطائف، وعلى مركز الطائف التاريخي ليضاعفوا الجهود لدراسة وحفظ موروث هذه البلاد العربية الحجازية العريقة[٢]. ولن يترجم ذلك إلى واقع إلا بتضافر الجهود بين هذه المؤسسات، ثم توفير الدعمين المادي والمعنوي لمن يقوم بالبحث والدراسة. ومن خلال جولاتي في محافظة الطائف[٣]، وجدت أنها تحتوي على كنوز تاريخية عبر أطوار التاريخ، وإذا جلب باحثين متخصصين جادين ليقوموا بجمع هذا الموروث ودراسته فإننا وأبناءنا وحفدتنا سوف نطلع على أمجاد وحضارات عريقة عاشتها بلاد الطائف منذ عصور ما قبل الإسلام، وعلى مر العصور الإسلامية المختلفة[٤].

---

(١) هناك أمكنة منزوية أو معزولة في شبه الجزيرة العربية، وبعض قرى وبوادي وأرياف محافظة الطائف من البلدان التي أصابها إهمال التدوين منذ عصور ما قبل الإسلام حتى وقتنا الحاضر. وقد تجولت في بعض أجزاء المحافظة الجنوبية، والشرقية فوجدتها ارضاً مأهولة بالسكان منذ القدم، ويوجد فيها جميع مقومات الحياة من عمران، وزراعة، ورعي، وصيد، وأسواق وتجارات وغيرها. بل يوجد في جبالها وعلى صخورها آثار ورسومات صخرية تؤكد قدم النشاط الحضاري في هذه البلاد. وعندما نحاول معرفة شيء من تاريخها القديم أو الحديث لا نجد مصادر مدونة أو مكتوبة تذكر شيئاً من ذلك.

(٢) إذا قامت هذه المؤسسات بمسئولياتها تجاه العلم والثقافة، مع توفر الدعم والنزاهة، فإن النتائج (بإذن الله تعالى) سوف تكون جيدة وإيجابية.

(٣) للمزيد انظر رحلتنا في محافظة الطائف في القسم الثاني من هذا المجلد.

(٤) لم تكن الطائف هي البلاد الوحيدة التي لها تاريخ عريق، وإنما معظم بلدان شبه الجزيرة العربية ذات تواريخ وحضارات متفاوتة في القوة والضعف. وهذا ما عرفته أثناء زيارتي لبلدان عديدة في هذه الجزيرة. وبلاد الحجاز، وأرض تهامة والسراة، وبلاد اليمن تعد من أكثر الأوطان التي شهدت أحداثاً تاريخية مختلفة، وفيها أنماط حضارية متعددة. وللأسف أنها ما زالت بحاجة إلى بحث ودراسات وجهود كبيرة تنقب عن تراثها وحضاراتها. وعصرنا الحالي ربما يكون أفضل العصور حيث توفرت مؤسسات التعليم المختلفة، وتعدد الباحثون وأرباب القلم، وتوفرت الأموال، والواجب أن تسخر كل هذه العوامل في جمع وحفظ موروث وتواريخ وحضارة هذه البلدان العربية الأصيلة.

٧- إقليم عسير
في
عيون الرحالة الأوربيين*

* نُشر في كتاب :
بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر
ط١ : ١٤٢٣هـ ، جدة ، العويفي للدعاية والإعلان ،
ص ص ١٠٩ - ١٨٣

إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين

أ - المقدمة :

إن شبه الجزيرة العربية، جنوبيها بعامة، ومنطقة عسير بخاصة من المناطق التى عانت،عبر العصور الإسلامية، قصورا في تدوين تاريخها وتراثها· وذلك لعدة أسباب منها :

١. بعدها عن مواطن الحضارات الإسلامية في كل من الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب وغيرها، فبعد خروج مقر الخلافة الإسلامية من شبه الجزيرة في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) شابها فقر في تدوين تراثها وحضارتها·
٢. إن صعوبة التضاريس في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية، مثل : منطقة عسير وما حولها، جعلها في معزل عن بقية بلدان العالم، مما جعلها منسية في أغلب كتب التراث الإسلامي خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة·

أما وضع إقليم عسير في العصر الحديث والمعاصر فإنه أحسن حالاً من العهود الإسلامية السابقة، حيث بدأ الاهتمام بها من الناحية العلمية والفكرية، فظهر خلال القرنين الماضيين عدد من المؤرخين بدأوا الكتابة عنها وإبراز أهميتها السياسية والحضارية[١]، ولم يقتصر هذا الاهتمام على المراجع والمصادر العربية فحسب، بل ظهر بعض الأوربيين الذين أدرجوها ضمن بعض مؤلفاتهم[٢]، ثم وفد بعض الرحالة الأوربيين إليها، فدونوا عنها كتباً لخصوا فيها رحلاتهم وتجاربهم

(١) حافظ وهبة· جزيرة العرب، ص٣٣، فؤاد حمزة· في بلاد عسير، ص١٤٥، ٢٦٣-٢٦٩، محمود شاكر· شبه جزيرة العرب، ص١٤٢ومابعدها، يحيى الألمعي· رحلات في عسير، ص٣٤ – ٣٥، هاشم النعمي· تاريخ عسير، ص٤ ومابعدها·

(٢) جاكلين بيرين· اكتشاف جزيرة العرب، ص٢٥١ - ٢٧١ ·

ومشاهداتهم في تلك الربوع، وأحياناً سجلوا وجهات نظرهم عن تاريخ واداب وحضارة إقليم عسير٠ ورغم أن بعض هؤلاء الرحالة الأوربيين جاءوا إلى منطقتنا المعنية بالدراسة لأهداف معينة، فإنهم بدون شك جمعوا لنا مادة علمية قيمة صورت لنا مظاهر الحياة في بلاد عسير خلال الفترات التي جاءوا فيها ٠ وسبب اختيارنا هذا البحث هو الشعور بأن ما دونه أولئك الرحالة يحتاج إلى التوقف معه لكي نرى كيف رأوا إقليم عسير في فترات متباعدة، ثم إن كتبهم التي وصلتنا تعتبر حقيقة من المراجع الجيدة التى دونت تاريخ وحضارة إقليم عسير في فترة لم يكن قد دُوِّن عنه الشيء الكثير٠ ولهذا فقد قصرت دراستي على الرحالة الأوربيين الذين وفدوا إلى منطقة عسير خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) ثم دونوا عنها دراسات تم نشرها وتداولها فيما بعد٠ وعند الاطلاع على سيرة أولئك الرحالة الذين توفرت فيهم صفتا التجوال في منطقة عسير، ثم تدوين ما شاهدوا في كتب مستقلة، وجدناهم ثلاثة هم[1] :

١. موريس تاميزيه الفرنسي، الذي ألف كتاباً بعنوان: " رحلة في بلاد العرب [الحملة المصرية على عسير عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م)]، ترجمة الدكتور/ محمد آل زلفة٠
٢. السيركيناهان كورنواليس، الذي ألف كتاب " عسير قبل الحرب العالمية الأولى"٠
٣. سانت جون فيليبي، أو (عبد الله فيلبي) الذى سطر كتاباً بعنوان " النجود العربية"٠

هؤلاء الرحالة الثلاثة هم محور حديثنا في هذه الورقة، وقد قسمنا خطة الدراسة إلى محاور أربعة هى على الترتيب :-

١. إعطاء فكرة عن المفهوم الجغرافي والسياسي لإقليم عسير خلال الفترة موضوع البحث " القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين " ، وبذلك يتضح لنا المسار الذي نستطيع أن نتحرك من خلاله أثناء فترة أولئك الرحالة٠
٢. الإشارة إلى نبذة تاريخية وسياسية لإقليم عسير خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين)٠
٣. ترجمة موجزة لهؤلاء الرحالة الأوربيين مع الإشارة إلى أعمالهم وظروف بعثهم إلى بلاد عسير٠

---

(١) موريس تاميزيه٠ رحلة في بلاد العرب ، ص٣١ ومابعدها ،
Sir Cornwallis. Asir, pp. 7 ff; Philby, Arabian Highlands, pp. 28 ff.

٤. دراسة نقدية تحليلية لكتب هؤلاء الرحالة التي تعرضت لمنطقة عسير، مع العناية بإجراء دراسة مقارنة بين ما دونه كل منهم، وتبيان أوجه الشبه والاختلاف فيما بينهم. والخروج ببعض النتائج الهامة من وراء تلك الدراسة.

ب - مفهوم إقليم عسير :

حتى تتضح لنا الصورة حول تسمية " عسير "، فإننا سوف نقدم نبذة يسيرة عن مفهوم التسمية لهذه البلاد وعن المترادفات لها المستخدمة في أيامنا هذه، كإقليم عسير، وبلاد عسير، ومنطقة عسير، وعسير قصد الاختصار، والذى يتبادر للأذهان، هل كانت عسير معروفة للجغرافيين والمؤرخين الأوائل بهذا الاسم ؟ فإذا كان الجواب بالنفي، فكيف ظهرت هذه التسمية، وما الدافع في إطلاق التعميم عليها ؟ وهل حلت محل تسميات سابقة لها ؟

والثابت في المصادر الجغرافية والتاريخية، وكتب التراث الإسلامي، عدم ذكر هذه التسمية وبيان معالمها الجغرافية، باعتبارها وحدة مستقلة عن الحجاز أو اليمامة أو البحرين أو اليمن، والتي تعد إدارياً تابعة لدار الخلافة بالمدينة المنورة، ثم دمشق وبغداد أيام الأمويين والعباسيين.

وفي هذا الصدد يشير الهمداني (٢٨٠-٣٣٤هـ) في كتابه (صفة جزيرة العرب) إلى اسم عسير، ويذكر ما نصه : " ويصالى قصبة جرش أوطان حزيمة من عنز، ثم يواطن حزيمة عن شاميها عسير، قبائل من عنز وعسير يمانية تنزرت، ودخلت في عنز، فأوطان عسير إلى رأس تية، وهى عقبة من أشراف تهامة، وهى أبها وبها قبر ذى القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة، والدارة، والفتيحا، واللصبة، والملحة، وطبب، وأتانة، وعبل، والمغوث، وجرشة، والحدبة، هذه أودية عسير كلها..."[(١)] وفى موضع آخر يذكر الهمداني مايلي : " والدارة، وأبها، والحللة، والفتيحا، فحمرة وطبب، فأتانة والمغوث، فجرشة، فالأيداع أوطان من عسير من عنز وتسمى هذه أرض الطود ..."[(٢)] .

والشيء المميز في هذه المعلومات التى أوردها الهمدانى، هو قدمها الذي يعود إلى بداية القرن الرابع الهجرى، وما عدا ذلك فإنها غير كافية في توضيح تسمية

(١) انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٥٦ .
(٢) المصدر نفسه .

بلاد عسير، وإنما أوردها ضمن عنوان عام سماه "جرش وأحوازها" وبمعرفة موقعها من سياق الحديث في ذكر المواطن التى أشار إليها الهمدانى، تجدها تشغل مساحة صغيرة من مخلاف أو (إقليم جرش) الذى كان يشمل أغلب أجزاء عسير في أيامنا، ولم تكن عسير في عهد الهمدانى تشمل إلا جزءاً بسيطاً، هو الموقع القائمة عليه الآن مدينة أبها وما حولها، أو ما يسمى بمواطن قبائل عسير المعروفة باسم : بني مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك.

وبعد الهمدانى جاء العديد من الجغرافيين والرحالة المسلمين فتعرضوا لأجزاء من منطقة عسير دون تسميتها بهذا الاسم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : ابن خرداذبة، والأصطخرى، وابن حوقل، والإدريسى، والبكري، وياقوت الحموى، وابن جبير، وابن المجاور وغيرهم، فبعض منهم ذكر أقسام شبه الجزيرة العربية بما فيها أجزاء من منطقة عسير وضمها إلى بلاد الحجاز، وأحياناً يسميها بعضهم بسلسلة جبال الحجاز، خاصة القسم الجبلي من السلسلة، وسميت كجزء من بلاد السراة، وأحياناً أخرى ينعتها بعضهم باسم السروات التي سميت بتسميات متعددة حسب أقسامها، ومنها : سراة جنب، وسراة عنز، وسراة الحجر، وسراة خثعم، وسراة دوس، وسراة بجيلة، ثم استمر في ذكر سروات أخرى حتى الطائف، وهذا التركيز من جانب بعض الجغرافيين، الذين أوردوا مسمى السروات، أوضح لنا مجموعة أسماء السروات التى تقع في إقليم عسير في عصرنا هذا، وهى سراة جنب (قحطان) ،وسراة عنز (عسير) ، وسراة الحجر (والمقصود بها بلاد بللحمر، وبللسمر، وبني شهر، وبني عمرو) وسراة خثعم (وهى أجزاء من بلاد بلقرن وشمران وخثعم) ، دون أن يرد ذكر اسم عسير على وجه الإطلاق في التسمية، وفي روايات أخرى ذكر مصطلح (مخاليف) أو (نواحي) ، كأن يقال مخلاف جرش، أو تبالة، أو نجران أو حلي وغيرها من المسميات دون ذكر مسمى عسير على تلك النواحي أو المخاليف[1] .

والواقع أن ما يشتمل عليه مصطلح إقليم عسير لم يكن معروفاً لدى المؤرخين والجغرافيين الأوائل، وإنما جميع الولايات الكبرى في شبه الجزيرة العربية

(١) للمزيد من التوضيحات عما ذكره الجغرافيون والرحالة المسلمون الأوائل عن بلاد عسير. انظر: ابن خرداذبة . صاحب المسالك والممالك ، والاصطخري. صاحب مسالك الممالك ، وابن حوقل . صورة الأرض، وابن جبير، رحلة ابن جبير، وياقوت الحموي. معجم البلدان، وابن المجاور. تاريخ المستبصر؛ علي عسيري . عسير، ص٢٣ ومابعدها ؛ غيثان بن جريس " بلاد تهامة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل ..." ، ص٧٣ ومابعدها.

(كاليمـن والحجاز، واليمامة والبحرين) كانت تابعة لدار الخلافة الإسـلامية في دمشـق ثم بغداد، وكثيراً ما كانت تشـمل الأجزاء الداخلية في بلاد تهامة والسراة، أو البلاد الواقعة بين مكة المكرمة والطائف شـمالاً، وحواضـر اليمن الكبرى جنوباً كانت كلها تخضع في بعض الأحيان لسلطة شيوخ القبائل المحليين في تلك الأجزاء، وقد نسـتنتج أن بلاد عسـير وما حولها من المناطق لم تكن لها حدود سياسية ثابتة وإنما كانت تعتمد على المفهوم الجغرافي، فعسـير لم تكن معروفة كوحدة جغرافية وإدارية خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسطى، لكنها تمتعت باستقلال إداري دون غيرها من مناطق الجزيرة، وإن كان الأمر يتفق مع وحدتها الجغرافية في مأمن من الطامعين فيها من قبل حكام الإمارات المجاورة لها والتى أعلنت استقلالها إبان العصور الوسطى، وقد حاول بعض منها بسط سيطرتها عليها، لكن هذه السيطرة سـرعان مازالت بسـبب شـدة مراس أهلها وأنفتهم، وعدم خضوعهم لغيرهم إلى جانب كثرتهم، ووعورة المنطقة وصعوبة مسالكها[١] .

لقد ظهر اسـم عسـير كمصـطلح سياسـى وجغرافى في أواخر القـرن الثانى عشـر وبدايـة القرن الثالث عشـر للهجرة، خاصـة عند الكتـاب الغربيين، ومنهم البريطانيون، حيث كلفت الإدارة البريطانية القسم الجغرافي والمخابرات البحرية البريطانية، بإعداد بحث عن عسـير يتضـمن موقعها وحدودها، ومظاهر الطبيعة المختلفة، وأحوال السكان من حيث العادات وطرق العيش، إلاَّ أن ذلك البحث لم يوضح حدود قبيلة عسـير بالنسـبة لبقية القبائل السـاكنة في هذا الإقليم، لكنه أشار إلى أن اسـم عسـير اقتصـر على التلال الرئيسـة والمنطقة التي تعيش فيها قبائل بني مغيد، وعلكم، وبني مالك، وربيعة ورفيدة، وجميعهم يسـكنون حول العاصـمة أبها بمسافات متفاوتة، وحتى ذلك الحين لا تعرف تلك القبائل حدودا معروفة وثابتة لعسير[٢] .

وتلي هذه الدراسـة، دراسات عديدة، رسـمت صورة أوضح للحدود الجغرافية للإقليم العسيري، فبعضها يشير إلى حدود عسير في نطاق محيط القبائل العسيرية الأصـلية، وهـى بنو مغيـد، وعلكم، وبنو مالـك، وربيعة ورفيدة، في حـين أن هناك

(١) لمزيـد من التفصـيلات عن الإمارات التـي ظهرت في اليمن والحجاز خلال العصـور الإسـلامية المبكرة والوسـطى ، ثـم محاولـة حكامها مـد نفوذهم على بلاد عسـير. انظر، تاريـخ مكة المكرمة ، للسـباعي ؛ والمقتطف من تاريخ اليمن. جمع القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني.

(٢) انظر : علي عسيري . عسير ، ص ٣٥ ؛ غيثان بن جريس . صفحات من تاريخ عسير ، جـ١، ص ٧-١١ .

كتابات أخرى أضافت بلاداً أخرى إلى محيط القبائل السالفة الذكر، وأضاف آخرون بعض القبائل المجاورة والقريبة من بلاد عسير من الشمال فامتد إلى الليث وغامد وزهران وبيشة ومن الجنوب إلى ظهران الجنوب ونجران وجيزان. وهذا التباين نتج من الأحداث السياسية والعسكرية التى عاشتها منطقة عسير، فالإمارة في أبها امتد نفوذها إلى مناطق أبعد من المدينة نفسها، مما أسبغ عليها وعلى المنطقة المحيطة بها اسم عسير، وبهذا تم تحديدها وتسميتها بهذا الاسم ليشمل المنطقة الممتدة من زهران شمالاً إلى ظهران الجنوب جنوباً، بناء على المفهوم السياسى والتاريخي للمنطقة دون المفهوم الجغرافي[١].

وخلاصة القول أن (عسير) لم تكن معروفة بهذا الاسم في العصور الإسلامية الوسطى، وإنما هو مصطلح حديث لم يتجاوز تاريخ ظهوره أكثر من قرنين ونصف القرن.

جـ - نبذة تاريخية وسياسية عن إقليم عسير خلال القرنين ١٩/٢٠م

منذ السنوات الأولى في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وعسير بجميع قبائلها كانت تحكم عن طريق رؤساء القبائل المحليين، فكانوا أصحاب النفوذ في إدارة شؤون بلادهم التي عمت فيها الفوضى والخلافات المتعددة، وفي الوقت نفسه كانت قد ظهرت دعوة الإصلاح التى قام بها الشيخ /محمد بن عبد الوهاب في نجد، ثم انتشرت مبادىء تلك الدعوة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، فلم يحل منتصف العقد الثانى من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) إلاّ وقد ظهر بعض المصلحين في بلاد عسير، كمحمد وعبد الوهاب أولاد عامر أبي نقطة اللذين انضما إلى دعوة الشيخ/ محمد بن عبد الوهاب، فقاما بنشر مبادئها بين أهالي عسير، وعملا جاهدين على حكم البلاد العسيرية، تحت مظلة الدولة السعودية الأولى (١١٥٧-١٢٣٣هـ/١٧٤٤-١٨١٨م)[٢].

وبعد عهد أولاد أبي نقطة (١٢١٥-١٢٢٤هـ/١٨٠٠-١٨٠٩م)، تولى الإمارة في عسير أحد أبناء عمومتهم ويدعى طامي بن شعيب فواصل سياسة أبناء عامر أبي نقطة في حكم البلاد، إلاّ أن الظروف في عهده اختلفت عما سبقه، وذلك بظهور

(١) المرجع نفسه.

(٢) انظر: علي عسيري. عسير، ص١٢١ ومابعدها، النعمي. تاريخ عسير، ص١٣١ ومابعدها؛ غيثان بن جريس. بلاد بني شهر وبني عمرو، ص٤٣ ومابعدها.

عدو جديد للدولة السعودية، وهذا العدو كان متمثلاً في والي مصر التابع للدولة العثمانية، محمد علي باشا، الذي كُلف من قبل الحكومة العثمانية في الآستانة، بأن يرسل جيوشه إلى شبه الجزيرة العربية لمحاربة ابن سعود هناك، وعلى أثر ما جاء محمد علي من أوامر أرسل الجيوش إلى كل من نجد والحجاز وكذلك الأجزاء العسيرية التى كان يحكمها طامي بن شعيب، فدارت معارك متعددة بين أهالي نجد والحجاز والبلاد العسيرية وبين جيوش محمد علي في الفترة مابين (١٢٢٦هـ/١٨١١م-١٢٢٨هـ/١٨١٣م)، ولكن في عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م قرر محمد علي باشا أن يذهب من مصر إلى شبه الجزيرة العربية لكى يقود جيوشه بنفسه ضد ابن سعود ومن والاه، وعند وصوله إلى بلاد الحجاز اشتبك في حروب عدة مع القبائل والجيوش الموالية لابن سعود، وكان من ضمن تلك الجيوش قبائل عسير التى كان يتزعمها ويقودها الأمير طامي بن شعيب، ومن أشد المعارك التي حدثت بين الطرفين معركة وادي بسل بأرض تربة، جنوب الطائف، في عام ١٢٣٠هـ/١٨١٤م، حيث هزمت فيها الجيوش الموالية لابن سعود، ثم تعقب محمد علي باشا بعدها القبائل العسيرية متجهاً نحو الجنوب حتى وصل إلى مدينة أبها، فحاصر طامي بن شعيب بها حتى سيطر عليها وقبض على الأمير طامي وأرسله إلى تركيا ليُقتل هناك، ثم بقي بمدينة أبها شهرين وعدة أيام استقبل خلالها شيوخ قبائلٍ عسير وأعيانها لتقدم له الولاء والطاعة[1]، ثم غادر بعد ذلك بلاد عسير راجعاً إلى مصر بعد أن ترك بها حامية عسكرية عثمانية، لكن هذه الحامية التركية لم تستمر أكثر من ستة أشهر في حكم بلاد عسير، لأن أحد أبناء عم الأمير طامى بن شعيب، ويدعى محمد بن أحمد المتحمى، قام بثورة محلية استطاع فيها أن يطرد تلك الحامية التركية ويسيطر على البلاد، غير أنه لم يتمتع بنجاح ثورته إلا فترة لاتزيد عن العام، لأن جيوش محمد علي باشا ذهبت من الحجاز إلى بلاد عسير مرة ثانية فسيطرت عليها وأعادت الحامية التركية التى طردها محمد أحمد المتحمى إلى مقرها في حكم البلاد[2].

عندما لم يستطع محمد بن أحمد المتحمي التصدي لجيوش الأتراك، فر هارباً إلى منطقة جازان واتصل بأمير تلك البلاد حمود أبي مسمار (١٢١٦هـ/١٨٠١م-

(١) النعمي، تاريخ عسير، ص١٣٢ ومابعدها، ابن جريس، بلاد بني شهر، ص٥٠-٥١.

(٢) النعمي، ص١٥٧-١٥٩، ابن جريس، بلاد بني شهر، ص ٥١؛ عسيري. عسير، ص١٢٤ ومابعدها.

١٢٣٣هـ/١٨١٧م) طالباً منه العون في طرد الأتراك من عسير، بل رحب به ليستولى عليها، فكانت فرصة الأمير حمود حيث استطاع طرد الأتراك وسيطر على بلاد عسير في عام ١٢٣٢هـ/١٨١٦م، ثم خلفه في حكمها ولده أحمد بن حمود أبي مسمار، ثم وزيره الحسن بن خالد الحازمي[١] ٠ ولكن جيوش الأتراك في الحجاز مع شريف مكة، محمد بن عبد المعين بن عون، لم تكن تتوانى في محاربة " أبي مسمار " في عسير ومحاولة إعادتها إلى حظيرة الدولة العثمانية، وفعلاً تم لها ما كانت تسعى إليه حيث استطاعت أن تسيطر عليها عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م٠

كان الشريف محمد بن عبد المعين بن عون يتزعم الجيوش التركية التى استردت بلاد عسير من أيدي الحسن بن خالد الحازمى، الذي خلف أحمد بن حمود أبي مسمار في حكم البلاد، وهو الذي قبض على سلالة أسرة آل المتحمى وأرسلهم إلى مصر ليتم القضاء عليهم هناك، واستمر حكمه لبلاد عسير مدة أربع سنوات (١٢٣٤هـ/١٨١٨م-١٢٣٨هـ/١٨٢٢م) بعدها قام أحد رجال مغيد[٢] ويدعى سعيد بن مسلط المغيدى، فطرد جيوش الأتراك وقوات الشريف محمد بن عون وتمت سيطرته على بلاد عسير٠

وامتد نفوذ الأمير / سعيد بن مسلط المغيدي تجاه الشمال فوصل إلى بلاد غامد وزهران، لكنه لم يدم طويلاً في الإمارة، فخلفه أحد أبناء أسرته ويدعى علي بن مجثل المغيدي، الذي عرف بنصرته للإسلام وخدمته له، وقد استطاع أن يتصدى للشريف ابن عون والأتراك لفترة من الزمن[٣] ٠

وفي عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م توفي الأمير/ على بن مجثل بعد أن أوصى بعائض بن مرعى المغيدي ليكون أميراً لبلاد عسير من بعده[٤] ٠ لكن لم يكد عائض بن مرعي يتولى الإمارة، حتى قام الشريف محمد بن عون والقائد التركي في الحجاز أحمد باشا بشن هجوم على الأجزاء الواقعة جنوبي بلاد غامد وزهران فسيطرا

---

(١) انظر تفصيلاً أكثر عن إمارة حمود أبي مسمار ومن خلفه على بلاد عسير٠ النعمي، ص١٥٩ مابعدها ، العقيلي ، المخلاف السليماني ، جـ١، ص٤٤٧ ومابعدها٠

(٢) مغيد إحدى القبائل الكبرى في إقليم عسير٠

(٣) ابن جريس٠ بلاد بني شهر، ص٥٢ ٠

(٤) انظر تفصيلات أكثر عن الأمير عائض بن مرعي وابنه محمد في كتاب ، عاكش٠الدر الثمين ، ص٦ومابعدها، عسيري، عسير، ص١٦٠ ومابعدها٠

عليهـا بعـد أن كانت تحت نفوذ ابن مرعي المغيدي، وفي ظل هذه الظروف لم يسـتطع عائض بن مرعي رد هجومهما، لكنه عقد معهمـا اتفاقية في عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م، تنص على أن تكون تنومة وبلاد بارق من أرض بني شهر هى الحدود الشمالية لإمارته وبهذه الاتفاقية تكون الأجزاء الشـمالية من بلاد بني شـهر وجميع منطقة بني عمرو قـد دخلت تحت حكم الشـريف محمد بن عبد المعين بن عون وأحمد باشـا التركى[١] ومن الواضـح أن عائض بن مرعي لم يوافق على هذه الاتفاقية إلاَّ لأسـباب قد تكون داخليـة، ومن المحتمـل أنه أراد توطيـد أوضـاعه الداخلية وتقوية جيوشـه، ثم يعود لمحاربة الشـريف ابـن عون، وهذا ما حدث بالفعل فلم ينصـرم عـام واحد بعد تلك الاتفاقية التى عقدها مع محمد بن عون وأحمد باشا، إلاّ ونراه قد عاود الكّرة لمحاربة جيوش الشريف وأحمد باشا، حتى استطاع طردهم من جميع المناطق الواقعة جنوبي بلاد غامد وزهران، وفي عام ١٢٥٣هـ /١٨٣٧م أرسل القائد التركى أحمد باشا جيشا ليقابل جيوش ابن مرعى في بلاد غامد، فدارت المعارك بين الطرفين حتى انتصـرت الجيوش العثمانية على جيش عائض بن مرعي الذي قُتل وأسر منهم عدد كبير[٢] .

اسـتمرت أوضـاع بلاد عسـير وامتداداتها حتى حدود بلاد غامد وزهران تحت حكـم الأمير عائض بن مرعى، وعند وفاتـه عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م تولى إمارة البلاد من بعده ولده محمد بن عائض بن مرعى الذي عقد مصالحة مع شريف الحجاز عبد اللّه بن محمد ابن عبد المعين بن عون، وافق فيها على التراجع عن السيطرة على بلاد غامد وزهران وأن يكتفى بحدوده الشمالية عند بلاد شمران[٣] ، ولكنه عاد مرة فعزز من قواته في حاضرة أبها، ثم ذهب لمحاربة الجيوش التركية نحو الجنوب، واستطاع الوصول إلى الحديدة في اليمن والتي كادت تقع في قبضته، ولكن الحكومة العثمانية في الآسـتانة أمرت جيوشـها في الحجاز بالتوجه إلى أبها والسـيطرة عليها، وعندما سـمع محمد بن عائض بالتجهيزات التي أعدتها الحكومة العثمانية عاد مسرعاً إلى عاصـمته أبها للدفاع عنها ووصلت في أثره الجيوش العثمانية عـام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م التي اسـتطاعت الاستيلاء على أبها وتعقبت الأمير/ محمد بن عائض ومن كان معه حتى ألقت القبض عليه وتم قتله ووضع إقليم عسير تحت سيطرتها[٤] .

---

(١) عسيري٠ عسير، ص ١٨٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ص١٩٣-١٩٧، ١٩٥-١٩٨؛ النعمي ، تاريخ عسير، ص١٩٢-١٩٥ .
(٣) النعمي ، ص٢٠٤، ابن جريس٠ بلاد بني شهر ، ص٥٤ .
(٤) عسيري، عسير ، ص٢٧٩، ٣٥٦ ؛ الحفظي ، تاريخ عسير، ص٩٩ ومابعدها٠

وهكذا دخلت بلاد عسير بعد القضاء على الأمير محمد بن عائض تحت الحكم العثماني، وصار يتولى أمرها منذ ذلك الحين وال تركي يقيم في حاضرة أبها وتتبعه ثمانية مراكز في أجزاء مختلفة من إقليم عسير[١]، واستمرت البلاد العسيرية ترزح تحت الحكم العثماني، الذي سعى إلى نشر الفوضى والسلب والنهب بين أفراد القبائل، بل ساعد على نشر الجهل ومحاربة كل من يسعى إلى التصدي للسيطرة التركية، سواء من أفراد القبائل ومشائخهم، أو من الأمراء المحليين، الذين كانوا يحاولون الحصول على الاستقلال والتخلص من السيطرة العثمانية وبقيت الأحوال في هذه البلاد على هذا الوضع حتى مجيء العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، حيث انسحبت الجيوش التركية من إقليم عسير، ومن أجزاء شبه الجزيرة العربية الأخرى، وتركت الحكم للأمراء المحليين في البلاد[٢] .

وفي عصر سيطرة القوات العثمانية على إقليم عسير (١٢٨٩-١٣٣٧هـ/١٨٧٢-١٩١٨م) نجد الإمام الإدريسي الذي ظهر في صبيا بمنطقة جازان[٣]، وكان يسعى إلى مد نفوذه إلى البلاد العسيرية السروية والتهامية الممتدة من رجال ألمع جنوباً حتى بلاد غامد وزهران شمالاً، وكل ذلك كان في الأعوام التى كان يتولى فيها الولاية في إقليم عسير الوالي التركى سليمان شفيق باشا (١٣٢٦-١٣٣١هـ/١٩٠٨-١٩١٢م)، وقد نجح الإدريسي في اقتطاع أجزاء من منطقة عسير، بل وصل به الطموح إلى أن يقضي على الأتراك في عسير ويسيطر على عاصمة ولايتهم في مدينة أبها فذهب إلى حاضرة أبها وحاصرها عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) لكنه لم يستطع إسقاطها لشدة مقاومتها، وكذلك لإرسال المؤن إليها من قبل الشريف حسين بن علي في الحجاز[٤]، وعندئذ رجع الإمام الإدريسي إلى مسقط رأسه في صبيا بمنطقة جازان، وبقى هناك حتى دخلت منطقة عسير تحت سيطرة الدولة

---

(١) انظر عدد تلك المراكز الإدارية في كتاب . النعمي ، ص ٢١٦-٢١٧، محمود شاكر، ص٢٢ ، ابن جريس . أبها حاضرة عسير ، ص٥١-٥٥ .

(٢) للمزيد من المعلومات عن إقليم عسير خلال سيطرة الحكم العثماني عليها . العقيلي، المخلاف ، جـ١ ، ص٥٢٦ ؛ النعمي ، ص٢٠٨ ومابعدها، ابن جريس، صفحات، جـ١ ، ص٦٧-٩٠؛ ابن جريس " وثائق من عسير خلال الحكم العثماني (١٢٨٩-١٣٣٧هـ) . مجلة العرب ، ص١٥٤ -١٧٠ .

(٣) الإمام الإدريسي ، هو :- محمد بن علي بن محمد بن أحمد الإدريسي ولد في بلدة صبيا بمنطقة جازان عام ١٢٩٣هـ ،وتعلم على بعض علماء الصوفية في كل من مصر وليبيا والسودان ، ثم رجع إلى مسقط رأسه في صبيا فلعب دورا أساسيا كبيرا في تلك المنطقة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) . لمزيد من التفصيلات انظر :- محمود شاكر . عسير، ص٢٣٣-٢٤٦؛ النعمي ، تاريخ ، ص١٨٢ ومابعدها.

(٤) للمزيد انظر. النعمي ، ص٢٢٤ ومابعدها ؛ الملكاوي ، العلاقة بين أمراء الأدارسة في عسير وأشراف مكة ، ص١٧ ومابعدها .

السعودية الحالية عام(١٣٣٨هـ/١٩١٩م)،ومنذ ذلك الحين وإقليم عسير جزء من أجزاء المملكة العربية السعودية،ولازالت مدينة أبها هى حاضرة منطقة عسير[١] ٠

د - التعريف بهؤلاء الرحالة، وأعمالهم، وظروف مجيئهم إلى عسير :

إن هؤلاء الرحالة الثلاثة : تاميزيه، وكورنواليس، وفيليبي، هم الذين سيدور حديثنا عنهم، وعن أعمالهم، وخاصة مادونوه لنا عن إقليم عسير، وقبل أن نستعرض كتبهم التى وصلت إلينا عن منطقة عسير، فإنه من الأجدر التعرف على شخصياتهم، وخلفياتهم التاريخية، إلى جانب أعمالهم والظروف التى أدت إلى مجيئهم إلى إقليم عسير٠

ويجب أن نعرف أن شبه الجزيرة العربية، وخاصة إقليم عسير، ظل مجهولاً، وغير معروف، من لدن الأوربيين، إلى أن قام حاكم مصر محمد علي باشا بمد نفوذه إلى الجزيرة العربية في الفترة الممتدة(١٢٢٦هـ-١٢٥٦هـ/١٨١١-١٨٤٠هـ)، حيث كرس جهوده في إرسال العديد من الحملات إلى شبه الجزيرة العربية، وكانت منطقة عسير، من المناطق المستهدفة في تلك الحملات[٢] ٠ وقد كانت فرصة ذهبية لبعض الأوربيين أن يسيروا مع تلك الحملات، ومن ثم اكتشفوا ودونوا - أو دون بعضهم - ملاحظاتهم خلال رحلاتهم مع تلك الحملات الغازية للجزيرة العربية[٣]، ومن هؤلاء الرحالة :-

أولاً : موريس تاميزيه : (M.Tamizia)

إن موريس تاميزيه أول أولئك الأوربيين الذين رافقوا حملة محمد علي باشا على عسير عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م[٤]، ثم دون يومياته بشكل تفصيلي عن تلك الحملة بصفته كاتباً للبعثة الطبية التي كانت ترافق الحملة[٥] ٠

---

(١) انظر ابن جريس ، أبها حاضرة عسير ، ص١٤ ومابعدها ٠

(٢) النعمي ، ص ١٥٧-١٥٩، ابن جريس ، بلاد بني شهر ، ص٥٠-٥١ ٠

(٣) ويظهر ذلك واضحاً في مؤلف الباحثة الفرنسية (جاكلين بيرين) والذي أطلقت عليه اسم : اكتشاف جزيرة العرب : خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ص٥ ومابعدها٠

(٤) لقد سبق تاميزيه أوربي آخر إيطالي يدعى جيوفاني فانتاني(Jiovanni Finati) ، حيث كان يعمل في جيش نابليون بونابرت ، ثم ساقه القدر إلى مصر فعمل في جيش محمد علي وذهب مع ابنه طوسون إلى الحجاز، وقد كان مع جيش طوسون عام(١٢٢٦هـ/١٨١١م) عندما التقى ببعض الجيوش العسيرية في القنفذة تحت قيادة الأمير/ طامي بن شعيب العسيري ، وقد هزمت جيوش محمد علي ونجا منهم عدد كثير كان من ضمنهم جيوفاني الإيطالي الذي أملى مذكراته فيما بعد على تاجر بريطاني،وقد أورد في تلك المذكرات ماشاهده، وما حدث له في خدمة الباشا في الجزيرة العربية،وخاصة ما حدث له ولجيش طوسون مع الجيوش العسيرية في القنفذة، وقد نشرت هذه المذكرات باللغة الانجليزية في لندن عام (١٨٢٨م)٠ كتاب تاميزيه المترجم (محمد ابن زلفة) ، ص١٣ ٠

(٥) كان معه عدد من الفرنسيين الذين يقومون بمهنة الطب ومعالجة المرضى والجرحى في تلك الحملة ٠ وربما كان في أولئك الأوروبيين أو من جاء قبلهم أو بعدهم من قام بتدوين ملاحظاته ومشاهداته عن إقليم عسير أو غيره ، ولكن تلك المدونات لم تصل إلينا ، أو لم تكتشف بعد٠

وإذا كان تاميزيه قد جاء في خدمة الطب مع حملة محمد علي باشا العسكرية على عسير، فإننا لانملك تفصيلات عن حياته الأولى في موطنه الأصلي وأول من ذكره لنا كقراء عرب البروفيسورة جاكلين بيرين، ابنة بلده، وصاحبة المؤلف المهم عن الرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية[١] ٠

ومن خلال المادة العلمية المدونة في كتاب موريس تاميزيه نجده يجيب على سؤال وجهه له أحد أعيان منطقة عسير حول عمره، فذكر له أنه يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، وذلك في عام ١٨٣٤هـ، وبذلك نستنتج أن تاريخ ولادته كان في عام ١٨١٢هـ٠ ومن الواضح أن موريس كان عنده إلمام إلى درجة ما باللغة العربية،وذلك يظهر واضحا في حوارته مع بعض رجال منطقة عسير وأعيانها٠

أما الأعمال الفكرية لهذا الشاب الفرنسي، فيتضح لنا أنه زار الجزيرة العربية عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م) وزار الحبشة في عام (١٢٥١هـ/١٨٣٦م)، وكتب عن رحلاته في هذين البلدين، ونشرت أعماله في باريس عن هذه الرحلات، ومع أهمية أعماله العلمية، إلاَّ أنه ظل من الرحالة المجهولين، ولم يحظ بالشهرة التى حظى بها أقرانه من رجالات عصره[٢]، ربما بسبب حداثة سنه، أو ربما لأسباب أخرى لانعرفها[٣] ٠

ثانياً : السيركيناهان كورنواليس :(Sir Kinahan Cornwallis)

أما السيركيناهان كورنواليس الذي دون كتاب: "عسير قبل الحرب العالمية الأولى"، فلقد حاولت جاهداً معرفة شيء ما عن حياته والأسباب التى جاءت به إلى الجزيرة العربية، فلم أستطع العثورعلى مايفيد، وبمطالعتنا لدوائر المعارف، وقوائم المؤلفين والكتب المتنوعة لم نجد أي شيء يقترن بهذا الرحالة سوى هذا الكتاب الذي كان في الأساس تقريراً، سمح بطبعه في فترة لاحقة٠ وهو نفس ما حدث لتقرير هوجارث (Hogorth) عن بلاد الحجاز، الذي طبع أيضاً في هيئة كتاب أصبح متداولاً بين القراء والباحثين[٤] ٠

---

(١) انظر كتاب جاكلين بيرين٠ اكتشاف جزيرة العرب ، ص٢٥١ - ٢٧١ ٠

(٢) هناك العديد من الرحالة الغربيين المشاهير الذين زاروا بلاد العرب خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ٠ لمزيد من المعلومات انظر٠عبد الشافي عبد القادر٠ "الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين" ، ص٤٢١- ٤٣٦؛ محمد الصياد٠ "الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر" ، ص ٤٣٧-٤٤٤ ٠

(٣) انظر تاميزيه ٠ رحلة ، مقدمة المترجم / محمد آل زلفه ، ص١٦ ٠

(٤) انظر :

David George Hogarth. Hejaz before world WarI (Handbook) pp.8ff.

وعلى أن كتاب كورنواليس (Cornwallis) من الكتب الأساسية المعتمد عليها في هذه الدراسة، فإن سبب خروجه في هيئة تقرير يعود إلى اهتمامات انجلترا بالشرق، حيث إن كورنواليس كان واحداً من رجالات المخابرات البريطانية، وقد أرسلته حكومته إلى منطقة عسير لدراستها من جميع الجوانب، وبالفعل جاء إلى المنطقة وتجول في أرجائها ثم دون هذا التقرير، ورفعه إلى المكتب العربي بالقاهرة (Arab Bureau)[١] ٠

ثالثا : سانت جون فيليبي (H.St. J. Philby)

أما رحالتنا الثالث في هذه الدراسة فهو : هادي سانت جون بريجر فيليبي (H.St.J.B.Philby) ، انجليزي الجنسية ويدعى اختصاراً جاك أو (عبد الله فيليبي) والمولود في انجلترا عام ١٨٨٥م، والمتوفى عام ١٩٦٠م، فهو من معاصري أحداث القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، والتاسع عشر والعشرين الميلاديين٠ انخرط بداية حياته في وظائف عدة بالحكومة البريطانية، ثم قدم إلى شبه الجزيرة العربية في اليوم السابع عشر من تشرين الأول سنة ١٩١٧م، حيث ذهب من البصرة إلى الأحساء ومنها اتجه إلى الرياض، حيث اجتمع لأول مرة بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وقد فصل ذلك في كتابه (أيام بلاد العرب Arabian Days) ، الذي قام بتلخيصه الأستاذ/ خيري حماد في كتابه (عبدالله فيليبي قطعة من تاريخ العرب الحديث) ثم نشر في بيروت عام (١٣٨١هـ/١٩٦١م)٠

---

(١) كان من المتعارف عليه أن المسؤولين البريطانيين عن الشرق كانوا ينتمون إلى فريقين ، فريق السياسيين والعسكريين المتمركزين بالقاهرة ويتبعون دار المعتمد البريطاني ، والذين أطلق عليهم اسم المدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة، وفيما بعد اسم المكتب العربي ، وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشؤون العربية مثل لورنس (Lawrence) وكلايتون (Clyton) و هوجارث (Hogarth)٠ وغيرهم ، أما الفريق الآخر فقد كان مركزه الهند وملحقاتها في الخليج، وتزعم هذه المدرسة سير كوكس (Sir Cox) ،والكابتن شكسبير (Shakespeare)٠ورغم اتفاق المدرستين على أهمية الشرق ، وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى، فإنه كان ثمة خلاف فيما بينهما٠ فبينما مدرسة الهند كانت تهتم في المقام الأول بالعراق وفارس ، كانت مدرسة القاهرة، التي رفع السيركيناهان كورنواليس تقريره إليها، تهتم بقناة السويس وكل ما من شأنه حمايتها٠ إلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهند تعتقد أنه باستطاعة الحلفاء، وبريطانيا خاصة ، تحقيق النصر في الحرب دون الاستعانة بالعرب ودون الالتجاء إلى إثارة العرب ضد الترك وهذا الأمر الذي دعت إليه مدرسة القاهرة التي ينتمي إليها كورنواليس٠ وقد وجد أعضاء المدرسة المصرية ضرورة دراسة المنطقة دراسة مستفيضة من أجل التعرف على طبيعة المنطقة وسكانها وتركيباتها القبلية ومواردها الاقتصادية، وهذا ما نجح في تقديمه السيركورنواليس، من خلال عمله عن عسير قبل الحرب العالمية الأولى، والذي وضع أساساً كتقرير مقدم إلى المكتب العربي بالقاهرة لاستخدامه من خلال أعضاء المكتب للتعرف على إقليم عسير ، ولإعطائهم الفرصة لإصدار أحكام صحيحة تتماشى مع المصالح العليا للإمبراطورية البريطانية٠ وسرعان ما أصبح هذا التقرير بعد السماح بطباعته وتداوله أحد المصادر الهامة للتعرف على التركيبة السكانية لسكان منطقة عسير وأوضاعها الحضارية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ومابعدها بقليل٠للمزيد من التفصيلات انظر:مديحة أحمد درويش ، تاريخ الدولة السعودية خلال الربع الأول من القرن العشرين ، ص١١١ ومابعدها٠

ويختلف فيلبي عن موريس تاميزيه، والسير كيناهان كورنواليس، بل يختلف أيضاً عن جميع الرحالة الذين قدموا إلى الجزيرة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر، وذلك لغزارة مؤلفاته عن شبه الجزيرة العربية، بل نستطيع القول بأنه امتاز بالريادة في الكتابة التاريخية عن المملكة العربية السعودية خاصة والجزيرة العربية عامة، وقد ذكر عنه الشيخ حمد الجاسر قوله :

" الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن فيلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدها إليها من سواه "[١] ٠أيضاً ذكر جورج رنتز (George Rentz) في حديثه عن فيلبي "أنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد[٢] " ويقصد بالبلاد، المملكة العربية السعودية، منوهاً في ذلك إلى أن السبب في تلك الغزارة يرجع إلى حصول فيلبي على مؤهلات الكتابة التاريخية عن هذه البلاد ومن أهمها معرفته التامة بجميع نواحيها، فقد عاش في شبه الجزيرة العربية متنقلاً بين ربوعها أكثر من أربعين عاماً، أي منذ أن وطئت قدماه أراضيها لأول مرة عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م إلى وفاته عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م[٣]٠

وإذا كان (عبد الله فيلبي) قد بدأ حياته العملية في خدمة الامبراطورية البريطانية كالكثير من أبناء جلدته، إلاّ أنه بعد أن جاء إلى شبه الجزيرة العربية، والتقى بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ثم اعتناقه الإسلام صار عندئذ حميم العلاقة مع الملك عبد العزيز وبالتالي أصبح من المقربين لدى الملك حتى إنه أرسله في العديد من المهام الخاصة بالدولة داخل البلاد وخارجها، وذكر فيلبي الكثير من تلك المهام في مذكراته وكتبه ومقالته العديدة[٤] ٠

---

(١) انظر، حمد الجاسر٠ " فيلبي : رحلاته في البلاد العربية " مجلة العرب (عام ١٤٠٩-١٤١٠هـ) مج٢٤، ص١٠٥-١٠٨٠

(٢) جورج رنتز " فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية " ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي٠مجلة الدرعية (السنة الأولى ، عدد (٢) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ، ص٦١ ٠

(٣) المرجع نفسه ، ص٦١ - ٦٣ ٠

(٤) المرجع نفسه٠ انظر أيضاً تفصيلات أكثر عن سانت فيلبي في كتاب اليزبيث مونرو (Elezabeth Mon-roe) في كتابها الشهير٠ Philby Arabia (فيلبي العرب) والذي طبع في عام (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ، ص٣٠٧-٣١٣ ٠ ومونرو نشرت في كتابها هذا أوسع دراسة علمية شاملة عن فيلبي ، وقد قابلته لأول مرة عام ١٩٣٨م، وفي سبيل الكتابة عنه سافرت إلى كل قطر عمل فيه مثل الباكستان والعراق والأردن ومصر وفلسطين ولبنان وجزيرة العرب مستخدمة ما تضمنته أرشيفاتها من معلومات عنه٠

وقد ترك لنا المؤرخ والرحالة فيلبي العديد من المؤلفات والمقالات المتنوعة في عناوينها وأطروحاتها، وجميعها دونت باللغة الرئيسة التي يتكلمها فيلبي، وهي اللغة الانجليزية، وبعضها قد ترجم إلى اللغة العربية، ومن تلك المؤلفات :

١. كتاب "الجزيرة العربية" وقد نشرته دار (ارنست لتد) في سنة (١٩٣٠م).
٢. كتاب "العربية السعودية" طبع في لندن سنة (١٩٥٥م).
٣. كتاب "العربية الوهابية" طبع في لندن سنة (١٩٢٨م).
٤. كتاب "قلب الجزيرة العربية" طبع في نيويورك سنة (١٩٢٣م).
٥. كتاب "الربع الخالي" طبع في لندن سنة (١٩٣٣م).
٦. كتاب "ملكة سبأ" طبع في لندن سنة (١٩٨١م).
٧. كتاب "تاريخ الحجاز المعاصر" طبع في لندن سنة (١٩٢٥م).
٨. كتاب "أرض مدين" طبع في واشنطن سنة (١٩٥٥م).
٩. كتاب "ثلاثة نقوش في حضرموت" طبع في لندن سنة (١٩٤٥م).
١٠. كتاب "النقوش في نجران" طبع في لندن سنة (١٩٤٤م).
١١. كتاب "صفقات الزيت العربي" طبع في واشنطن سنة (١٩٦٤م).
١٢. كتاب "أيام عربية" طبع في لندن سنة (١٩٤٨م).
١٣. كتاب "أربعون عاماً في القفر" طبع في واشنطن سنة (١٩٥٧م).
١٤. كتاب "الذكرى العربية" طبع في واشنطن سنة (١٩٥٢م).
١٥. كتاب "النجود العربية" طبع في نيويورك سنة (١٩٧٦م).

وهناك كتب ومقالات أخرى عديدة لم نشر إليها، والغالب على معظم الدراسات التي دونها فيلبي تميزها بوفرة المعلومات الجديدة في محتوياتها وطريقة تدوينها، كما أن المشاهدة وتنوع الخبرة عند هذا الرحالة جعلته يصبغ كتبه وأبحاثه بصبغة يسودها العمق في التحليل والتدوين حتى إننا نجده أحياناً يخوض في جزئيات وتفاصيل دقيقة لا تتأتى إلا لمن كان كثير الرحلة والتجوال، وكان شاهد عيان لتلك التفاصيل، ورغم أن جميع أبحاثه وموضوعاته تدور حول الجزيرة العربية، فإنها تميزت - كما سبق القول - بالتنوع[1]، ولذا سوف نقتصر في هذه الدراسة

---

(١) ويذكر عن صفات فيلبي (Philby) أنه كان يطمع منذ ريعان الشباب في العظمة والشهرة، وكان ذا مواهب متعددة، وقدرة عجيبة في مجالات عدة كالإدارة والسياسة، والتاريخ، والرحلات، والآثار، وعلوم الطبيعة، والاقتصاد والمال، وكان يتقن كثيرا من اللغات القديمة والحديثة. وللمزيد من التفصيلات عن حياته وأعماله انظر :كتاب فيلبي العرب، للأستاذه مونرو (الطبعة الانجليزية)، ص٣٠٥ ومابعدها، كما انظر أيضا : ج .د. نورتون "فيلبي رجل الجزيرة العربية" مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (الكويت، العدد الثالث، جمادى الثانية، ١٣٩٥هـ)، ص١٥١-١٥٩.

على عرض المؤلف الخامس عشر من مؤلفاته، الآنفة الذكر، الموسوم بـ " النجود العربية " [Arabian Highlands] لأنه ركز في جزء جيد من هذا الكتاب على إقليم عسير، الذي هو موضوع دراستنا، وهذا الكتاب هو أحد الكتب التي سوف نناقشها فيما بعد مع كتابي تاميزيه وكورنواليس، ونقدم عنها في الصفحات التالية دراسة تحليلية نقدية.

هـ - دراسة نقدية تحليلية مقارنة لكتب الرحالة الثلاثة :-

أولا : الدراسة التحليلية

أ - الكتاب الأول :

رحلة في بلاد العرب (الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م) للرحالة موريس تاميزيه الفرنسي. هذا الكتاب طبع لأول مرة باللغة الفرنسية في باريس عام (١٨٤٠هـ)، وكان يقع في مجلدين في سبعمائة وثلاث وتسعين صفحة تحت عنوان : (Voyage en Arabie (رحلة في الجزيرة العربية)، يتكون الجزء الأول الذي يحمل عنوان التوقف في الحجاز (Sejour Dans Le Hedjaz) من (٣٩١) صفحة[١]، أما الجزء الثاني وهو بعنوان : الحملة على عسير (Campagne D'Assir) فيتكون من (٤٠٢) صفحة، وهو الكتاب المعني في هذه الدراسة، وقد أعيد طباعته في فينا في عام (١٩٧٦م)، وجاء في طبعته الجديدة - وهي مصورة من الطبعة الأولى - في مجلد واحد، أي طبع المجلدان في مجلد واحد من القطع الصغير[٢].

والجزء الثاني من كتاب تاميزيه، هو الكتاب الذي نحن بصدد دراسته في هذا البحث، وقد تولى ترجمته إلى اللغة العربية الدكتور/ محمد بن عبد الله آل زلفة الأستاذ المشارك في التاريخ الحديث بجامعة الملك سعود، وهذه النسخة المترجمة هي التي اعتمدنا عليها في دراستنا، فالكتاب في متنه الرئيسي، والمقدمات وقائمة المصادر والمراجع التي أوردها المترجم يقع في (٣٥٨) صفحة من القطع المتوسط، واشتملت العشرون صفحة الأولى من الكتاب على توطئة ومقدمة للمترجم أريد بها إعطاء فكرة عن الخلفية التاريخية للأحداث التي وقعت في عصر معلومات الكتاب، كما احتوت أيضاً على نبذة مختصرة عن مؤلف الكتاب وعن المترجم

---

(١) انظر كتاب تاميزيه،رحلة في بلاد العرب ، مقدمة المترجم ، ص٢٠-٢١.

(٢) المرجع نفسه.

والظـروف التـي قابلته منذ بدأ في ترجمته إلى أن نشـره باللغـة العربية في مدينة الرياض عام (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)٠ ثم أخرج متن الكتاب في سـتة عشـر فصـلاً، وذيله بقائمة تضمنت المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في إخراج هذه الترجمة٠ ويبدو أن الجزء الثاني في لغته الأصـلية يقع في خمسـة عشـر فصلاً، لكن المترجم أضاف له فصلاً آخر من نهاية الجزء الأول، الذي يخص إقليم الحجاز، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته مع إيضـاح الأسـباب التي دفعته إلى ذلك، فقال: ((والكتاب في طبعته الأولـى ينقسم إلى عددٍ من الفصول، يشتمل الجزء الثاني الذي بين يدي القارىء على خمسة عشر فصلاً، أضفت إلى فصول هذا الجزء الفصل الأخير من فصول المجلد الأول حيث إنه يشكل بداية طبيعية لهذا الكتاب إذ تحدث فيه المؤلف عن أسباب المواجهات بين إمارة عسير ومحمد علي باشا، كما تحدث عن الخلفيات التاريخية والجغرافية لمنطقة عسـير وإمارة أبو عريش، ولهذا أصـبح ذلك الفصل يشـكل الفصـل الأول من كتابنا هذا وأعيد ترتيب بقية الفصول على هذا الأساس، حيث أصبحت فصول هذا الكتاب في ترجمته العربية ستة عشر فصلاً))[١] ٠

وفي بقيـة الفصـول المدونـة في الكتـاب، أي مـن الفصـل الثاني إلى الفصـل السـادس عشـر، نجد موريس تاميزيه يدون الأحداث السياسـية والحضارية التي زامنـت حملة محمد علي باشـا على عسـير، والتـي انطلقت من مدينـة جدة حتى الطائف، ثم سلكت الطريق التجارية المعروفة في كتب التراث والتي تخترق السفوح الشـرقية لجبال السراة، مارة بالمحطات الرئيسـة مثل تربة، ورنية، وبيشة[٢] حتى وصـلت وادي شهران، واسـتولت على مدينة خميس مشـيط[٣]، ثم تحركت إلى أن وصـلت مدينة أبها، حاضـرة إقليم عسـير[٤] والحقيقـة أن الرحالـة تاميزيه يعد أفضـل مـن دون معلومـات دقيقة عن إقليم عسـير خـلال تلك الحقبـة التي رافق فيها جيوش محمد علي باشـا إلى عسـير، حيث أورد تفصـيلات كثيرة عن طبيعة البلاد العسـيرية وسكانها والقرى والقبائل التي مرت بها الحملة[٥]، إضافة إلى ما أورده من الظروف السياسـية والاجتماعية والأثرية والاقتصـادية والعسكرية التي

(١) المرجع، ص ٢١ ٠

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٥ ومابعدها ٠

(٣) المرجع نفسه، ص٢٩٣ – ٣١٠ ٠

(٤) المرجع نفسه، ص ٣١٣ – ٣٤٥ ٠

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٥، ٨٩، ١٠٧، ١٢٥، ١٤٥، ١٦٧، ١٩٣، ٢١٥، ٢٣٣، ٢٥١، ٢٧١، ٢٩١، ٣١١ ٠

صاحبت الحملة منذ بداية انطلاقها من الطائف حتى وصولها إلى أبها، ثم نهايتها التي تمت بتوقيع إعلان هزيمة قائدي الحملة أحمد باشا والشريف محمد بن عون مع أمير منطقة عسير عائض بن مرعي[١]، وقد تم أيضاً توقيع وثيقة اعتراف من قادة الحملة أكدت على استقلال إقليم عسير، وذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر عام (١٨٣٤م).

ومما يزيد من أهمية كتاب تاميزيه ما يسده من نقص في معرفتنا التاريخية عن بعض الشخصيات البارزة في المنطقة وأدوارها ما كنا نعرف عنهم إلاّ النزر القليل قبل هذا الكتاب مثل التعريف بالأمير دوسري أبي نقطة، وسلطان بن عبده شيخ بني مالك عسير وعلى الصعيري شيخ بني سلول من بيشة ،ورفيدي أحد شيوخ بللسمر الذي لم نكن نعرف له ذكرا من قبل، وإلقاء مزيد من التفاصيل على مكانة الشيخ مشيط شيخ شهران ودوره البارز في تاريخ عسير. ناهيك عما أورده عن الأمير عايض بن مرعي أمير عسير الذي تولى الإمارة عشية الإعداد لهذه الحملة ودوره البطولي والقيادي في الدفاع عن بلاده ومحاولة تجنيبها الصراع والحرب مع قوات محمد علي، وذلك من خلال مشروعاته المختلفة والمتكررة لطلب الصلح مع قادة الحملة وإصراره على رفض أي صلح لايضمن لعسير استقلالها ووحدة ترابها[٢] .

هذا إلى جانب ما تعرض له هذا الكتاب أيضاً من صراع خفي بين قائدي الحملة أحمد باشا ومحمد بن عون وما يهدف كل منهما إليه من تحقيق أهداف سياسية على حساب الآخر، وأثر ذلك على مسار الحملة.

إن هذا الكتاب يكشف لنا جسامة معاناة أهلنا في عسير وضخامة ما تحمّلوه من أرزاء ومحن وتشريد وتقتيل، وتدمير للقرى وإحراق للمزارع، وقتل للأسرى، ومع ذلك ظلوا صامدين ما دام في صمودهم ضمانة لاستقلال بلادهم.

ولم يغفل المؤلف ما عاناه شباب مصر الذين غرر بهم محمد علي بل أخذهم قسراً من أحضان أمهاتهم ليسوقهم إلى قدرهم المجهول في متاهات الجزيرة العربية، وقد زودنا المؤلف بوصف مؤلم لما قاسوه من لوعة الغربة ومشقة السفر وهلع من مواجهة الأعداء حيث لم يكن أحد منهم يؤمن بالقضية التي زُج به في مواجهتها[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٤٨ - ٣٥٠.

(٢) المرجع نفسه، مقدمة المترجم، ص ٢٣ - ٢٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤.

كما زودنا بمعلومات عن فرق جنود المغاربة التي كانت تُجند كجنود مرتزقة في جيش الباشا، ذهبوا إلى تلك الحرب تحت وطأة الديون ورغبة في تسديدها لمرابي تجار القاهرة، فنراهم يندفعون في سبيل الحصول على المغانم - لمواجهة الموت بشكل تدميري عنيف وبنفوس لا تعرف الرحمة ولا تقيم للمعايير الإنسانية أي حساب ؛ لأنها هي واقعة تحت نير الظلم والاضطهاد وطائلة الديون التي يتوجب عليهم سدادها بأي ثمن، يدفع ثمنها روحه، ويُزهق من أجلها روح من يقابله دونما شفقة أو رحمة[١] ٠

وقد أشار المؤلف بأنه اعتمد في استقاء معلوماته على الحوار المباشر بينه وبين الأشخاص الذين التقى بهم وحاورهم فيما كان ينوي عمله أو محاولة معرفته لأمر من الأمور سواء كان ذلك الأمر يتعلق بتاريخ حادثة أو علاقة فئة بأخرى أو علاقة الإنسان بالمكان أو معرفة ظاهرة معينة جغرافية أو نباتية أو اجتماعية ٠ وذكر أن هذه هي الطريقة المثلى لمن هو في مثل حالته غريب في ديار غريبة بالنسبة له[٢] ٠

هذا بالإضافة إلى أنه كان لصيق الصلة ببعض كبار القوم والمشاركين في الحملة والعارفين بالظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية لهذه البلاد، مثل الأمير دوسري أبي نقطة، والشيخ علي الصعيري شيخ بني سلول من بيشة وغيرهم من قادة وضباط وأطباء الحملة٠ فكان يستقي المعلومات السياسية المتعلقة بالحملة من المصادر الأولية - أي المشاركين في صنعها - هذا بالإضافة إلى شدة ودقة ملاحظته، ومتابعة تطورات الأحداث وتدوينها أولاً بأول[٣] ٠

ب - الكتاب الثاني :

عسير قبل الحرب العالمية الأولى (Asir before World War I) للسير كيناهان كورنواليس ٠ وهذا الكتاب تقرير دونه كورنواليس الذي كان ضابطاً في الاستخبارات البريطانية، وقد طبع باللغة الانجليزية في هيئة كتيب صغير الحجم يقع في (١٥٥) صفحة، وتم نشره في مدينة كمبردج ببريطانيا عام (١٩٧٦م)٠ وهذا الكتاب على صغر حجمه يحتوي على سبعة عشر فصلاً قصيراً شملت

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٤ ٠
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥ ٠
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٥ ٠

معلومات سياسية وحضارية جيدة عن منطقة عسير قبل الحرب العالمية الأولى. وهذه الفصول متنوعة في مادتها العلمية، فقد تصدر الكتاب خريطة توضح مواطن العشائر والقبائل في منطقة عسير أثناء مجيء كورنواليس إليها، وأما الفصل الأول فتحت عنوان: المنطقة (Area) ويقع في صفحة واحدة تحدث فيها كورنواليس عن حدود إقليم عسير الذي ذكر أنه يمتد من غامد وزهران شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً موضحاً أجزاء عديدة في السهول الساحلية والسروية من تلك المنطقة[١]، والفصل الثاني جاء تحت عنوان التضاريس (Relief) وأشار فيه كورنواليس إلى طبيعة تضاريس منطقة عسير موضحاً بعض التفاصيل لجبال السروات الممتدة من الجنوب إلى الشمال مع التنويه إلى المنحدرات منها تجاه الشرق والغرب. وفي الفصل الثالث وعنوانه: الخصائص الطبيعية والمناخ (Physical Character and Climate). أشار إلى مواسم سقوط الأمطار وإلى أنواع الرياح التي تهب على منطقة عسير، كما اهتم بذكر مواطن الخصوبة والجدب في المنطقة، ويلاحظ من حديثه عن الخصائص الطبيعية والمناخ أنه قد أطلع على كتاب تاميزيه لأنه استشهد به أكثر من مرة فيقول عن خصوبة وادي شهران نقلاً عن تاميزيه " إنه الجوهرة التي يطمع فيها كل الغزاة "[٢]، كما يذكر عن تاميزيه أيضاً " أنه من واقع تجربته عن قصف الرعد الشديد والأمطار التي تهطل في المنطقة المجاورة لخميس مشيط بشهر يوليو، فمناخ تهامة الذي يتعرض لرياح جنوبية غربية شديدة هو حار تماماً مثل منطقة الحجاز، ولكن من ناحية الماء فهو أكثر وفرة وغزارة ومن نوع أحسن، كما أن داخل المنطقة هو أبرد عموماً من الحجاز، وأما بالنسبة للعقبة والهضاب بصفتها أفضل وأحسن من مثيلاتها في الحجاز فإن مناخها معتدل ولكن المنحدرات الداخلية لسلسلة الجبال التي لها امتداد شمال شرقي فإن فصل الشتاء فيها شديد نسبياً مع ظهور صقيع ليلاً بشكل عادي"[٣]. أما الفصل الرابع فيناقش فيه عنصر السكان (Population)، حيث يذكر مركز القوة والثقل السكاني في إقليم عسير فيشير إلى أن المنطقة الجبلية الممتدة من زهران وغامد شمالاً حتى شهران وقحطان جنوباً تعد أكثر البلاد سكاناً وأقواهم عدداً وعدة، كما أنه نوه إلى مصادر الرزق لهؤلاء السكان فكانت الزراعة بالدرجة الأولى إلى جانب الرعي

(1) Cornwallis, Asir, pp. 5,7

(٢) تاميزيه، ص٢٥٦، Cornwallis, p. 9

(3) Cornwallis , p. 10.

والتجارة، كما ذكر أن غالبية السكان كانوا يتبعون المذهب الشافعي، في حين أن هناك من كان على المذهب الحنبلي اقتداءاً بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١]. أما الفصل الخامس فخصصه للحديث عن بعض الأدوات والصناعات المنزلية التي كان يحترفها أهل المنطقة ويستنتجون موادها الأولية من الطبيعة، وتلك الصناعات متنوعة مثل : الصناعات الحجرية والفخارية، والصناعات الخشبية، والصناعات الحديدية، والصناعات الجلدية وغيرها[٢]. وفي الفصلين السادس والسابع يتحدث كورنواليس عن الزراعة والثروة الحيوانية ويذكر توفر هذين المصدرين في منطقة عسير وخاصة في المناطق الجبلية الممتدة من زهران إلى قحطان، ولا تخلو الأجزاء الشرقية والغربية لجبال السروات من مواطن زراعية وأماكن رعوية[٣]. وفي الفصل الثامن يدون لنا كورنواليس معلومات قيمة عن النشاط التجاري في إقليم عسير، فيذكر نشاط الواردات إلى عسير عن طريق البر والبحر، كما يشير إلى حركة التصدير من منطقة عسير إلى خارجها، ولم يغفل عن ذكر أهم المراكز التجارية الداخلية في المنطقة، وشهرة أسواقهم الأسبوعية[٤]. وفي الفصول التاسع والعاشر والحادي عشر يستكمل كورنواليس تقريره بالحديث عن العملات المستخدمة في منطقة عسير أثناء مجيئه إليها، فذكر أنهم كانوا يتعاملون بالقروش التركية، والريال الفرانسي، وجنيه الذهب الإنجليزي، إلى جانب التعامل أيضا بالمقايضة[٥]. كما ناقش الأوزان والمقاييس المستخدمة آنذاك فذكر من الأوزان والمكاييل الأقة والمد والصاع، والكيلة، أما المقاييس فذكر الركيب والفلج[٦]، كما قدم لنا معلومات هامة عن الضرائب التي كانت تجبى على التجار سواء من البر أو البحر، فأما من جهة البحر فكانت بعض السلع تدخل إلى عسير عن طريق منطقة جازان التي كان أغلبها تحت سيطرة الإدريسي الذي كان له ضباط جمارك في جميع الموانىء لجباية الضرائب، وقد وضح كورنواليس النسب التي كان

(1) Cornwallis , p. 10.
(2) Ibid,p. 11
(3) Ibid, p. 15
(4) Ibid, pp. 17 - 18
(5) Ibid, pp. 19-20
(6) Ibid, p. 21

وللمزيد من التفصيلات انظر عسيري، عسير ، ص٤٠٧-٤١٠، غيثان بن جريس. عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ص١٨١-١٨٧.

يجبيها الإدريسي[١]، وكذلك منطقة القنفذة وما حولها كانت تحت النفوذ التركي، والأتراك بدورهم يجبون ضرائبهم على التجار الذين يأتون من تلك النواحي[٢].
أما إقليم عسير الممتد من زهران إلى قحطان فكانت عبارة عن منطقة مستقلة في عصر كورنواليس، وكان سكان هذه البلاد يدفعون الضرائب لشيوخهم ورؤسائهم، فهم يسوسونهم ويحمونهم[٣]، وفي الفصل الثاني عشر الذي وضع له كورنواليس عنواناً أسماه: التاريخ المعاصر والسياسة الحاضرة (Recent History and Present Politics) أشار فيه إلى أن إقليم عسير في عصره لم يكن وحدة واحدة وإنما كان ينقسم من الناحية السياسية إلى أربعة أقسام هي:

١. النواحي المستقلة متمثلة في بعض العشائر والقبائل البدوية التي تعتمد على الترحال من مكان لآخر بحثاً عن الماء والكلأ لرعي مواشيها، وهذه العشائر توجد في أجزاء عديدة من جبال السروات الممتدة من غامد وزهران شمالاً إلى قحطان جنوباً[٤].
٢. الأجزاء الشمالية من منطقة عسير، مثل بلاد زهران وغامد ورجال الحجر (بنو عمرو، وبنو شهر، وبللسمر وبللحمر) وشهران، وخاصة المراكز الحضارية فيها، كانت تتبع شريف مكة، أثناء الفترة التي دون عنها كورنواليس تقريره[٥].
٣. أما الأتراك فلم ينجحوا في إخضاع منطقة عسير، وإنما كان لهم فقط سلطة مزعومة في ميناء القنفذة والمدن الداخلية مثل: بارق ومحائل وأبها مع منطقة صغيرة تحيط بكل منها، ونفوذ متقطع على الطرق الواصلة بينها[٦].
٤. أما بقية إقليم عسير، وخاصة الأجزاء الغربية من السروات، والسهول التهامية الممتدة من صبيا وبيش جنوباً إلى محائل وبارق فكانت تحت سيطرة السيد الإدريسي الذي كان مقره في مدينة صبيا من منطقة جازان[٧].

(1) Cornwallis, p. 21
(2) Ibid, p. 23.
(3) Ibid, p. 24.
(4) Ibid, pp. 24-5.
(5) Ibid, p. 25.
(6) Ibid, p. 25.
(7) Ibid, p. 25-6.

وفي الفصل الثالث عشر المدون تحت عنوان : التنظيم العسكري وموارده (Recent of Organization and Recources) يتحدث كورنواليس عن الإمكانات العسكرية عند كل من الأتراك والإدريسي، فقد عَدَّد الفرق والقوات العسكرية التركية التي كانت تتمركز في مناطق مختلفة بين القنفذة وأبها، كما أوضح سعى الأتراك للحصول على دعم بعض القبائل المجاورة أو القريبة منهم[1] .
أما الإدريسي فيذكر المؤلف أن جيشه كان يتألف من خمسمائة مقاتل سوداني تمّ تجنيدهم من القرى الواقعة حول عاصمته صبيا ويستخدمون شرطةً أو حرساً خاصاً للإدريسي في الأوقات العادية، أما في الحرب فكان يعتمد على رجال القبائل الموالية له، وغالبيتها في الأجزاء التهامية والسفوح الغربية لجبال السراة الواقعة بين صبيا جنوباً ومحائل شمالاً[2] .

أما الفصل الرابع عشر، فقد خصصه كورنواليس لحصر القبائل والعشائر التي تعيش في منطقة عسير أثناء ذهابه إليها قبل الحرب العالمية الأولى، وقد قسم هذا الفصل إلى جزئين، الجزء الأول سماه (قبائل السهل الساحلي) من الليث شمالاً إلى صبيا وجازان جنوباً[3] . والجزء الثاني، ذكره تحت اسم " قبائل عسير الداخلية الممتدة من زهران شمالاً إلى بلاد قحطان وظهران جنوباً[4]، والميزة التي انفرد بها كورنواليس في هذا الفصل أنه أورد معلومات قيمة عن موقع كل قبيلة في تلك الأجزاء التي أشار إليها، كما أشار إلى المهن والحرف المختلفة التي كان يمتهنها سكان كل قبيلة وتوزع ولاء القبائل بين القوى السياسية الموجودة آنذاك، وهي الأتراك، وشريف مكة، والإدريسي، أيضاً أورد أسماء شيوخ بعض القبائل، وكذلك عدد سكان أغلب القبائل التي دونها في تقريره، مع العلم أن معلوماته عن أعداد السكان غير دقيقة لأنه اعتمد في جمع معلوماته على رواة محليين، وهذا مما يجعل الأخطاء واردة في ذكر أرقام تخص تعداد السكان وذلك لجهل بعض الرواة أو تعصب بعضهم لعشيرته، فقد يذكر أحياناً أرقاماً خيالية حتى يظهر عشيرته بمظهر القوة والبأس، وأحياناً يذكر أرقاماً قليلة حتى لاتظهر قبيلة الراوي كبيرة في عيون الآخرين وخاصة الأعداء، فبالتالي يحسدونها أو يعدون لها العدة

(1) Ibid, p. 26 .
(2) Ibid, p. 26 .
(3) Ibid, p. 30 .
(4) Ibid, pp. 32-

في أيـام الحروب والغزو[١] ٠ كما دون كورنواليس معلومات أخرى قيمة تتعلق أحياناً بالأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية لكل قبيلة فنجده أحياناً يشير إلى أنواع مصادر الـرزق عند القبيلة، أو إلى بعض العـادات والأعراف والتقاليد المتنوعة مثل عادات الأعياد والمآتم والزواج، وكذلك عادات الطعام والشـراب واللباس والزينة ٠ أيضـاً أشـار أحياناً إلى بعض المراكز الحضـارية في تلك القبائل مثل : القنفذة، ومحائل، وصبيا، وخميس مشيط، وبيشة، وأبها، والنماص وغيرها، فذكر بعض الميزات التي كانـت تتميز بها تلـك المراكز، وأهميتها السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية في منطقة عسير[٢] ٠

أمـا الفصـل الخامس عشـر ودونـه كورنواليـس تحت عنـوان : الشخصـيـات (Personalties)، ويُعد هذا الفصـل من أنفس الفصـول في كتاب كورنواليس، فقد حصـر فيه أكثر من مائة وثلاثين شخصـية في إقليم عسير ومعظمهم شيوخ وأعيان قبائل إقليم عسـير في عصـره، وقد امتـازت معلومات هذا الرحالة أنه ذكر الاسـم لكل شخصـية ترجم لها، وذكـر المكانة الاجتماعية لتلك الشخصـيات المترجم لها، مع إيراد الصـفات الشخصـية والخلقية أحياناً لبعض الشخصـيات الواردة في هذا الفصـل، وأحياناً يذكر شخصيات لها ثقل ووزن في صنع السياسة بمنطقة عسير مع الإشـارة إلى علاقاتهم مع القوى السياسـية داخل منطقة عسير وخارجها ومن أهم تلك الشخصيات بعض شيوخ القبائل والأمراء في إقليم عسير مثل : أسرة آل عائض في أبها، وآل مشيط في بلاد شهران، وابن دليم في بلاد قحطان وغيرهم كثير[٣] ٠

وأما الفصـلان السـادس عشـر والسابع عشـر فقد خصصـهما للحديث عن الطرق والمواصـلات، وذكر كورنواليس في مقدمة الفصـل السادس عشر وعنوانه: الطرق والمواصلات (Roads and Communication) أنه :- "لايوجد طرق معبدة في عسـير، وهذه الطرق تسـلك دائمـاً الخط الأقـل مقاومة والأسـهل عبر البلاد الجبلية وكثيراً ما تكون قريبة من مصـادر المياه٠ وما عدا طريق أبها - بيشة التي اجتازهـا الرحالة تاميزيـه في عام (١٨٣٤م)، فلم يتعرض أي أوربي لوصـف تلك

(1) Ibid, pp. 44-83.
(2) Ibid, pp. 32 ff.
(3) Ibid, pp. 32 ff.

البلاد وإعطاء أهمية للطرق المشروحة بالتفصيل في هذا الكتاب "[1] . وقد أشار الرحالة إلى انعدام الأمن في طرق عسير والتي أعطانا قائمة بأسمائها، فذكر عدد خمسة عشر طريقاً هي :

١. أبها - الدرب
٢. أبها - صبيا
٣. أبها - ظهران (طريق السلطان)
٤. أبها - بيشة
٥. أبها - الطائف (طريق السلطان)
٦. أبها - محائل (عبر وادي تيه) .
٧. أبها - محائل (عبر الشعبين)
٨. أبها - الوهلة .
٩. محائل - تنومة
١٠.محائل-القنفذة(عبربارق) .
١١.محائل - القنفذة .
١٢.محائل-نقطة حلي
١٣.محائل - البرك.
١٤. الليث - وادي العين
١٥.تنومة - سوق العجمة.

وقد أجاد كورنواليس في حفظ هذه المعلومات لنا عن الطرق البرية الداخلية في منطقة عسير، مع العلم أنه لم يكتف بتعدادها كما دوناها أعلاه، وإنما ذكر معظم المحطات الواقعة بين مكان وآخر على طول تلك الطرق، مع الإشارة إلى بعض التفصيلات الاجتماعية والاقتصادية الجيدة، كذكره لطبقات السكان في بعض المواقع أو أحوال الزراعة أو التجارة، أو السلبيات أو الإيجابيات لكثير من المحطات التي تقع على طول تلك الطرق التي أورد ذكرها[2] .

جـ - الكتاب الثالث :

وعنوانه " النجود العربية " (Arabian Highlands) لمؤلفه سانت جون بريجر فيليبي أو " عبد الله فيلبي "كما عُرف بالمنطقة العربية، وقد طبع الكتاب

(1) Ibid, pp. 84 ff.
(2) Ibid, p. 104.

باللغة الإنجليزية بمطبعة جامعة كورنل أثاكا في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦م . ويقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، وقامت على نشره جمعية الشرق الأوسط في واشنطن،دي.سي(Washington, D.C.) .

وقد اعتمدنا على هذه الطبعة في الدراسة التي بين أيدينا، علماً بأن هناك طبعة سابقة على هذه الطبعة، وهى الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٥٢م . ونجد في بداية الطبعة المعتمدة في دراستنا مقدمتين إحداهما مؤرخة بعام ١٩٤٤م، والثانية ترجع إلى عام ١٩٥١م، أما المقدمة الأولى فيبدو أن فيلبي قد دونها أثناء انتهائه من جمع ثم تدوين معلومات هذا الكتاب، وقد أشار فيها إلى فضل جمعية الشرق الأوسط السالفة الذكر لقيامها بالدعم العلمي له، وتكلفها بنفقات نشر كتابه هذا. كما نلاحظ أنه نوه في ذات المقدمة إلى أهمية كتابه وكونه من أفضل الكتب الأجنبية التي صنفت عن النصف الجنوبي الغربي من البلاد السعودية، ونحن نوافقه القول لما احتوى عليه هذا المصنف من معلومات متنوعة وقيمة يندر وجودها في مرجع آخر تناول هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال الفترة الزمنية نفسها وهي العقد الرابع من القرن الميلادي الحالي[١] .

أما المقدمة الثانية المؤرخة بعام ١٩٥١م، فليست سوى تكملة للمقدمة السابقة، وقد أشار فيها إلى مرور سبع سنوات على كتابة مقدمة الكتاب الأولى وتوضح أنه خلال تلك السنوات بدأت أوضاع البلاد السعودية في التحسن والنمو، وأنه يتنبأ بمستقبل مشرق لهذه البلاد، كما ينوه إلى تطور العلاقات السياسية والحضارية بين الحكومتين السعودية والأمريكية، ويوضح تركيز الأمريكيين في دراساتهم وبحوثهم الأكاديمية على شبه الجزيرة العربية[٢] .

وهذا الكتاب الضخم، موضوع الدراسة، رحلة قام بها عبد الله فيلبي من بلدة السليل في أسفل وادي الدواسر، وذلك بعد الانتهاء من رحلته في الربع الخالي، والتي فصلها في كتابه:- الربع الخالي (The Empty Quater) الذي صدر في لندن عام (١٩٣٣م).

وانطلاقة فيلبي في هذه الرحلة من بلدة السليل كان في ١٩٣١/٣/١٤م، وقد أشار إلى ذلك في بداية الفصل الأول من كتابه الذي قسمه إلى ستة أبواب

(1) Ibid, p. 107.
(2) Ibid, pp.107 ff.

تحتـوي على ثلاثة وثلاثين فصـلاً[١] ٠ ففي الباب الأول الذي وضـعه تحت عنوان :- استهلال (Prelude) ، ناقش فيه ثلاثة فصول هي : ما بعد الربع الخالي، وادي بيشة، وطريق الفيل[٢] ٠ أما الباب الثاني، فسمـاه : الوادي الثلاثـي (The Triple Valley)، وتحدث فيه على امتداد سـبعة فصـول عن، مخيم الملك، الخرمة، رنية، بيشـة، خميس مشيط، مرتفعات عسـيرٍ، وادي تثليث[٣]، وهذا الباب خاصة سوف يكون موضوع دراستنا لأنه شمل جزءاً كبيراً من إقليم عسير في عصر فيلبي٠ أما الأبـواب الأربعـة الأخرى فهي خارج نطاق إقليم عسـير، حيـث كان البابان الثالث والرابـع عن بلاد يـام ونجران[٤]، أما البابـان الأخيران الخامس والسـادس فقد ركزهما فيلبي على المرتفعات والمنخفضـات التهامية، وخاصـة منطقة جازان وما حولها، وكذلك السهول الساحلية المطلة على البحر الأحمر، ثم منطقة القنفذة[٥]٠

ومـن يطالع الجزئية التي ناقشـها فيلبي عن إقليم عسـير، وخاصـة المنطقة الممتدة من بيشـة إلى وادي شـهران ومدينة أبها (حاضـرة عسـير) نجده تعرض لمواضيع عديدة منها:-

١. جغرافيـة منطقة عسـير واختـلاف تضاريسـها وثرواتهـا الطبيعية، فيذكر فيلبـي أسـماء جبـال وأوديـة وهضـاب عديـدة في كل من بيشـة،وخميس مشـيط، وأبها، ويشـير إلى الارتفاعات الشـاهقة لبعض الجبال المطلة على مدينة أبها من جهة الغرب والشـمال[٦] ٠ كما تطرق إلى الحديث عن مناخ إقليـم عسـير واعتداله في الصـيف، وكثرة الغابات فيه وخاصـة في المناطق المحيطة بأبها وخميس مشـيط[٧] أيضاً نجده يحرص دائماً على ذكر أسماء الطيـور والحشـرات الموجـودة في منطقة عسـير، فذكر أعـداداً كثيرة منها مثل : الخفافيش، والنسـور، والحجل، والحمـام، والهدهد، والبلابل، وطير

(1) Philby, Arabian Highlands, pp. Vii ff
(2) Ibid, p. VIII.
(3) Ibid, p. 3.
(4) Ibid, pp. 3-41.
(5) Ibid, pp.75-174
(6) Ibid, pp. 213
(7) Philby. pp. 437 - 676.

الباز وغيرها[1] . ولم يكن فيلبي يكتفي بذكر أسماء هذه الطيور وبعض الحشرات وإنما كان مولعاً بصيدها وتربيتها في مقر سكنه يوم أن كان يقوم بهذه الرحلة حتى إنه ذكر أن الناس في أبها وما حولها قد لفت نظرهم هذا التصرف من قبله فيقول " وعن اهتمامي بعلم الطيور والحشرات ومراقبتي للنجوم وغيرها فكانت محور حديث الناس في المنطقة ... "[2] .

٢. الاهتمام بالمواقع الأثرية فنلاحظ اهتماماته بها من إشاراته إلى كثرة النقوش والرسوم على الصخور والجبال الممتدة من بيشة حتى أبها، بل أحياناً يذكر بعض المواقع الأثرية في تلك المناطق ويجزم أنها تدل على وجود حضارات قديمة في هذه البلاد[3] .

٣. الحديث عن أعلام المنطقة فيذكر فيلبي أثناء رحلته العديد من الشخصيات والمشائخ والأعيان، وخاصة في بيشة وخميس مشيط وأبها، فنجده يذكر في بيشة بعض موظفي الدولة الذين كانوا هناك مثل الأمير/ عبد الله بن معمر، والقاضي/ عبد الله ابن الشيخ، وسليمان بن إبراهيم الروافي الذي كان يتولى الشؤون المالية وجباية الزكوات[4]،كما ذكر بعض مشائخ قبائل شهران مثل سعيد بن مشيط، وعبد الوهاب أبي ملحة الذي كان يتولى الشؤون المالية في جميع منطقة عسير، وكان يتنقل في مواطن استقراره ما بين أبها وخميس مشيط[5]، أيضاً أشار إلى اسم تركي السديري الذي كان أميراً لمنطقة عسير ومقيماً في أبها،بل ذكر أخاه خالد السديري، وبعض مشائخ عسير وقحطان الذين كانوا يأتون إلى أبها لمقابلة أمير المنطقة[6] .

---

(1) Ibid, pp. 123, 161 ff.

(2) Ibid, pp. 161-3, 195ff.

(3) Ibid, pp. 111, 112f, 140.

(4) Ibid, pp. 151ff.

(5) Ibid, pp. 135, 137ff.

والمتجول في المنطقة الواقعة بين بيشة وأبها لايزال يشاهد الكثير من القرى المنتشرة التي يعود تاريخها إلى مئات السنين ، بل سوف يلاحظ المقابر السطحية التي يصل ارتفاع بعض القبور فيها إلى ثلاثة وأربعة أمتار فوق سطح الأرض،ناهيك عن النقوش والرسوم فهي أيضاً كثيرة في هذه المنطقة ، انظر: ابن جريس، عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ص٥٦، ابن جريس، بلاد بني شهر وبني عمرو ، ص١٤٧-١٥٢ .

(6) Philby, Arabian, pp. 112-3, 117,118

٤. الاهتمام ببعض جوانب الحياة الاجتماعية فنجده يتحدث عن المساكن وطريقة بناء البيوت وطرق العيش فيها، فيذكر أنه رأى في بلاد شهران ومدينة أبها وما حولها منازل تتكون من طابق وطابقين [١]، بل شاهد بعض الأعيان والمشائخ والوجهاء يقتنون قصوراً تتكون من عدة أدوار [٢]، كما لاحظ فيلبي طريقة بناء بعض هذه القصور فذكر أن الأحجار تستخدم في بناء أجزائها السفلية، بينما يستخدم الطين في الأجزاء العلوية [٣] وهناك بعض تلك القصور والبيوت محاطة بسياج من الأسوار لحمايتها من اللصوص والحيوانات المفترسة وكذلك الأعداء في أوقات الحروب [٤]. وفي أثناء حديثه عن البيوت كان يشير أحياناً إلى تقسيمات المنزل الواحد، فعندما يكون قصراً أو بيتاً مكوناً من طابقين فيكون هناك أقسام لسكنى أفراد الأسرة، وأجزاء لاستقبال الضيوف وغالبا ما تكون في الطابق العلوي وأجزاء أخرى لخزن الحبوب ومبيت الحيوانات الأليفة التي كان يقتنيها أهل المنطقة مثل : الأبقار، والحمير والأغنام [٥]. ومحلها الطابق السفلي كما أشار إلى وجود بعض البيوت في بيشة مبنية بالقش وسعف النخل، كما ذكر بيوت الشعر التي كانت معروفة لدى البدو الرحل في الأجزاء الشرقية من منطقة عسير، وخاصة البلاد الواقعة بين بيشة وخميس مشيط [٦].

ويشير المؤلف إلى مدن أبها وخميس مشيط وبيشة فيذكر كثرة القرى الصغيرة الواقعة حول هذه المراكز الحضارية [٧]، وتقارب البيوت في القرية الواحدة، وضيق الأزقة الفاصلة بينها، كما أن جميع مواد البناء المستخدمة في إقامة المنازل بمنطقة عسير كانت محلية، مثل الحجارة والطين وكذلك الأخشاب المستخدمة في السقوف والنوافذ والأبواب [٨]. ويلفت نظر فيلبي ازدحام المنازل العسيرية من الداخل

---

(1) Ibid, pp. 129, 131 ff.
(2) Ibid, pp. 136, 148 ff.
(3) Ibid, pp. 29, 115, 131.
(4) Ibid, pp. 37, 129.
(5) Ibid, pp. 131, 136.
(6) Ibid, pp. 115, 131f.
(7) Ibid, pp. 115, 116, 139.
(8) Ibid, pp. 37,114, 140.

وجدير بالذكر أن البيوت المقامة من القش والأخشاب كانت تنتشر أيضاً بكثرة عند سكان السهول التهامية، لاسيما في الجزء المتد من القنفذة شمالاً إلى جازان جنوباً. للمزيد راجع : ابن جريس. (عسير ١١٠٠-١٤٠٠)، ص٤٩-٥٠.

بمظاهر الأناقة الزخرفية رغم بساطة مظهرها الخارجي وذلك عندما دخل العديد من منازل الأمراء والمشائخ والوجهاء من رجالات المنطقة، بل أقام ساكناً بعض الوقت في بعض الدور ببيشة وخميس مشيط وأبها، فقال عن بيوت شاهدها في منطقة بيشة: " وكانت المنازل مزخرفة بأشكال هندسية أخاذه وبألوان المداد العديدة على كل الجدران وهذا النوع من الزخرفة خاص بهذه المنطقة، وبالمنطقة المحيطة بأبها..."[١] .

ويواصل فيليبي حديثه عن الحياة الاجتماعية في عسير فيشير إلى الألبسة والزينة عند سكان إقليم عسير فيذكر أنه شاهد في أسواق المنطقة العديد من الأقمشة والألبسة وكذلك بعض أدوات الزينة الخاصة بالنساء والرجال مثل : الكحل، وبعض الأشجار النباتية التي كان يضعها الرجال والنساء في رؤوسهن من باب التزين بها[٢] . أيضاً بعض أدوات الزينة عند الرجال مثل : لبس العباءات، والعمائم، والعقال، وكذلك الاحتزام ببعض الأسلحة كالخناجر والسيوف وما شابهها[٣]. ويشير إلى ألبسة بعض النساء فذكر أنه شاهد النساء في أسواق بيشة وهن يعملن في البيع والشراء، ثم قال : " وكان أغلبهن يرتدي الثوب الأسود الفضفاض، والبعض الآخر يرتدي الثوب الأحمر، وقليل منهن كان يرتدي الثوب الأصفر الأكثر جاذبية، والأقل فضفضة من الثياب السابقة، وقد لبسن جميعاً ذلك الخمار الأسود الذي يغطي الرأس والوجه حتى الصدر..."[٤] .

وينوه عن توفر الحبوب وبعض الأطعمة في أسواق المنطقة، كما يذكر أنه شاهد العديد من أنواع الفواكه المحلية مثل :- التفاح، والخوخ، والتين، والرمان، والعنب

---

(1) Ibid, pp. 29,37, 137ff.

من يشاهد القرى والمنازل القديمة في إقليم عسير اليوم يجدها مبنية من المواد المحلية ، والبعض منها لازال صامداً لم يصبها الخراب ، مع العلم أن تاريخ بنائها يعود إلى الوراء أكثر من ثلاثة قرون . انظر : ابن جريس ، بلاد بني شهر ، ص ٧٤ ومابعدها، ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص ٤٢ ومابعدها.

(2) Philby, Arabian, P. 113.

من يزور بعض البيوت القديمة في مدينة أبها ، وخميس مشيط اليوم ، بل من يشاهد بعض المتاحف المحلية في المنطقة فإنه سوف يلاحظ ما ذكره فيليبي ، وغالبية تلك الأشكال والألوان كانت مستمدة من عصارة بعض النباتات والأشجار المحلية. انظر: ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ ، ص٥١-٥٢، أيضاً تجربة الباحث ومشاهداته لأحوال وحضارة منطقة عسير خلال العشرين سنة الماضية.

(3) Philby, Arabian, pp. 36, 38, 116, 137.

(4) Ibid, p. 117.

وغيرها. ويذكر أن الفقر كان سائداً على أغلب السكان في منطقة عسير، وأغلب أطعمتهم من محاصيلهم الزراعية وكذلك من منتجات حيواناتهم[١] كما ذكر بعض الأطعمة التي أكل منها أثناء زيارته لمنطقة عسير، لكنه تناولها في بيوت الأعيان والوجهاء في المنطقة فيذكر أنواع الأطعمة التي شاهدها على مائدة الشيخ/ عبد الوهاب أبي ملحة في خميس مشيط حيث كانت مكونة من " خبز القمح المستطيل الرقيق، ولحم الضأن، والزبادي، وأطباق من المأكولات اللذيذة الأخرى، وأطباق كبيرة من الأرز في كل منها ملعقة، وأطباق كبيرة من الدهن، من ذيل مؤخرة الغنم، وزبادي الدجاج والصلصة، وزبادي من الخضروات، وأطباق من الحلويات المتعددة مثل : المهلبية والكعك المحلى المقلي بالسمن..."[٢] ويذكر بعض أنواع الأطعمة التي أكلها على إحدى موائد أمير منطقة عسير، تركي السديري وأخيه خالد فقال : " ... كانت من الأرز الجيد، ولحم الضأن الشهي، بالإضافة إلى المقبلات (الإدام) الذي وضع في زبادي وأطباق عديدة، وكل منها على انفراد، والخبز المحلى المصنوع من القمح على شكل مستطيلات وبسمك ربع بوصة... "[٣] .

وأشار فيلبي إلى عادات وتقاليد أخرى شاهدها في منطقة عسير، مثل زواج الشباب والشابات في سن مبكرة، حتى إنه رأى بعض الشباب في خميس مشيط يتزوجون وأعمارهم تتراوح ما بين (١٢-١٣) سنة[٤]، كما أن قيمة المهور تختلف من البكر إلى الثيب، فالمرأة التي سبق لها الزواج من قبل يكون مهرها يتراوح من (١٠-٢٠) ريالاً، في حين أن الأبكار تكون مهورهن أعلى[٥] .

ويذكر أنه شاهد بعض الاحتفالات الخاصة بختم القرآن، حيث كان يحضر الشباب الخاتمون لكتاب الله وعليهم ملابس جميلة، ويكون من حولهم أقاربهم وأهلوهم، كما أن بعض الأعيان والوجهاء في المدينة أو القرية يحضرون مناسبة الاحتفال بالختام، وذلك تعظيماً للقرآن واحتراماً لأولئك الخُتَّام وأهليهم[٦] .

---

(1) Ibid, p. 116, 131.
(2) Ibid, pp. 36,131, 139, 140.
(3) Ibid, p. 136.
(4) Ibid, p. 141.
(5) Ibid, p. 136.
(6) Ibid, p. 136.

وفي أثناء حديثه عن سكان المجتمع العسيري نجده يشير إلى أن أغلبهم من سكان القبائل والعشائر الساكنة في المنطقة، لكن في المراكز الحضارية الكبيرة مثل أبها، وخميس مشيط، وبيشة كانت توجد عناصر بشرية أخرى وفدت من خارج المنطقة للعمل في المؤسسات الحكومية الموجودة آنذاك[١]، وغالبية أولئك الوافدين كانوا من بلاد الشام ومصر والهند، وعناصر من بعض الدول الأفريقية للعمل في الزراعة والخدمة في بيوتات الأعيان والأمراء وشيوخ القبائل[٢] . بل ذكر أن عدد السكان في أبها والأحياء المحيطة بها، يوم أن جاء إليها، كان يتراوح بين (٨٠٠٠-١٠٠٠٠) نسمة[٣] وأشار إلى حضوره صلاة الجمعة في مسجد أبها الجامع فكان عدد المصلين حوالي(٥٠٠) مصلٍ[٤].

٥ - العناية بدراسة بعض مظاهر الحياة الاقتصادية. حيث يشير من خلال مشاهداته العينية إلى الطرق الواصلة بين رنية وبيشة إلى خميس مشيط ثم إلى أبها، ويذكر صعوبة تضاريسها، واستخدام أغلبية سكان هذه المناطق " للجمال والحمير " في تنقلاتهم ونقل بضائعهم واحتياجاتهم[٥] . كما يشير إلى وجود أعداد قليلة من السيارات الحكومية وبعضها تجارية تقوم بعملية نقل البضائع لمسافات أكبر وذلك من إقليم عسير إلى نجد والحجاز[٦] . كما تحدث عن الأسواق الأسبوعية وانتشارها في جميع أنحاء عسير فيذكر أسواق بيشة في كل من قريتي الروشن ونمران[٧]، ويذكر أسواقاً أخرى أسبوعية في الطريق المؤدية من بيشة إلى خميس مشيط ومدينة أبها، ويفيض في التفصيلات عن تلك الأسواق من حيث قدوم الناس إليها من كل مكان، وتوفر السلع المختلفة بها، من مواد غذائية،

---

(1) Ibid, pp. 39-40.

عندما جاء فيلبي إلى إقليم عسير (١٣٥١هـ/١٩٣١م) كان يوجد ببعض المراكز الحضارية الكبرى العديد من المؤسسات الحكومية السعودية المختلفة، انظر : ابن جريس. عسير في عصر الملك عبد العزيز ، ص٣١ ومابعدها؛ ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ٤٤٣ ومابعدها.

(2) Philby, Arabian, pp. 141,148.

(3) Ibid, pp. 153-154.

(4) Ibid, pp. 150-1 .

(5) Ibid, pp. 115, 116, 117, 139.

وللمزيد من التفصيلات عن الطرق التجارية في إقليم عسير، انظر ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص١٦٣ ومابعدها.

(6) Philby, pp. 138, 141, 148.

(7) Ibid, pp. 36, 38-9, 114.

وألبسة وزينة وبضائع أخرى مختلفة [١] . وقد سجل لنا مشاهداته لسوق خميس مشيط الأسبوعي، وما يدور فيه من حركة ونشاط تجاري، وتقسيم السوق إلى مناطق تعرف كل منطقة منها " بالمناخ " وهي مخصصة لبيع وشراء سلعة واحدة، كما قدم لنا من خلال هذا الوصف تسجيلاً لبعض أسعار هذه السلع المختلفة التي يضمها السوق في زمنه فيقول : " لقد كانت نشاطات السوق بوجه عام خاملة نسبياً، رغم وجود حوالي (٥٠٠) من الناس فيه، كانوا كلهم مشغولين بعمليات البيع والشراء.. وكانت كل سلعة تعرض في مكان منفصل عن المكان الذي تعرض فيه السلع الأخرى فيما يسمى (بالمناخ)، وهي مساحة معينة تنصب عليها الخيام لمزاولة النشاطات التجارية... لقد كانت معظم السلع تعرض مكشوفة، لكنني لاحظت أن هناك بعض السلع مثل الأقمشة والسلع التي تباع بالقطعة، وسلع البقالات كانت تعرض في الأكواخ التي تعلوها المظلات. وقد قمت بتسجيل بعض الأسعار الدارجة هناك، كأمر من الأمور التي عنيت بها، وكانت رخيصة في معظمها . فقد كان ثمن أربع تنكات من البلح (عادة ما يستورد من خيبر[٢] وبيشة) أو ما يعادل أربع سلات قصب (Habs) بنفس حجم التنكات (٢,٥ أو ٣ ريالات)، وكل (٦ أو ٧) صاع من القمح بريال، والدخن (٨) بريال، ... والقهوة صاع واحد بريالين، والقشر (٣) صاع بريال، والسمح (نبات بري يؤكل يشبه السمسم) أربعة جالونات بسبعة ريالات، وكانت الشاة الواحدة بثلاثة ريالات، والثور أو البقرة بعشرين ريالاً، والبعير بأربعين ريالاً..."[٣] .ويشير فيلبي أيضاً إلى بعض أسعار السلع التي شاهدها في أسواق بيشة، فيذكر أن كيس الأرز الذي كان يزن (٢٢) صاعاً بـ(٢١) ريالاً، وكيس السكر الذي يزن (٩١) رطلاً بتسعة ريالات، وعلبة من السمن (الزبدة المصفاة) بـ ٢٥ ريالاً وتزن (٣٧ر٥) رطلاً، وجالون من البارفين بثلاثة ريالات و (٨٨ر٥) ياردة من القماش الأبيض بـ (١٨) ريالاً، والجمل الواحد من (٢٠-٨٠) ريالاً، والشاة الواحدة من (٢-٣) ريالات[٤] .وأشار فيليبي أيضاً إلى بعض الأوزان التي شاهدها في الأسواق العسيرية فذكر أن الصاع والأقة كانت الأوزان السائدة في البلاد، ونوه إلى أن الأقة تعادل في وزنها (٤٥) ريالاً أو (٤٠٠) درهماً، ثم إن

---

(1) Ibid, pp. 116-7, 137.

(٢) خيبر قرية واقعة في منتصف الطريق بين بيشة وخميس مشيط.

(3) Philby, Arabian, p. 137.

(4) Ibid, p. 38.

كل (٣١٢) درهماً تساوي واحد كيلو غرام، أما الصاع فيساوي ثلاث أقات أو أربعة كيلو غرامات[١] .ويلاحظ أن المقايضة كانت من أهم أساليب التعامل في الأسواق العسيرية، إلاَّ أن ريال (مارياتريزا) الذي عرف محلياً باسم الريال الفرانسة كان متداولاً بكثرة بين العسيريين، وقد انتشر تداول هذا الريال في فئتين، الزلطه الواحدة، ونصف الزلطة[٢] .

ولم يغفل فيليبي عن ذكر ما شاهده في منطقة عسير من مدرجات زراعية وما كان يزرع فيها من الحبوب والثمار والفواكه، كما أشار إلى توافر أنواع متعددة من المحاصيل الزراعية على طول الطريق التي سلك من بيشة إلى أبها [٣]، كما ذكر توفر الآبار التي يتم حفرها في باطن الأرض إلى عشرات الأمتار، والتي كانت تستخدم في ري المزارع وكذلك في جلب مياه الشرب أيضاً[٤] . كما ذكر أسماء العديد من الفنون الصناعية (الصناعات اليدوية) الموجودة في الأسواق العسيرية، مثل صناعة الحصر والحبال من سعف النخل في بيشة، والصناعات الخشبية، والحديدية، والجلدية، والحجرية والفخارية وغيرها. وجميع المواد الأولية المستخدمة في إنتاج هذه الصناعات كانت متوفرة في البيئة العسيرية [٥] .

ثانياً : الدراسة المقارنة :

يجدر بنا قبل البدء في الدراسة التحليلية المقارنة للمادة العلمية الواردة في المصنفات الثلاثة موضوع هذه الدراسة، أن نلقي أولاً لمحة موجزة عن المؤلفين من حيث العمر والجنسية والمستوى الثقافي والفكري لكل منهم، وتوضيح الأهداف التي سعى من أجلها كل واحد من الثلاثة للدخول إلى إقليم عسير . ومما لاشك فيه أننا سوف نجد العديد من أوجه الشبه والاختلاف عند هؤلاء الرحالة الثلاثة سواء في مسيرة حياتهم الشخصية والعلمية، أو في آرائهم ومحاور دراستهم، وما دونوه عن المنطقة، كما سنجد أيضاً اختلافات واضحة بينهم في بعض الجوانب التي

---

(1) Ibid, p. 151.

(2) Ibid, p. 151.

وريال (مارياتريزا) عبارة عن قطعة نقدية من الفضة ضرب في النمسا عام (١١٩٥هـ/١٧٨٠م) ، وعرف من هذه العملة فئة أبو طاقية وقيمته عشرون قرشاً. ابن جريس، عسير١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص١٨٣ .

(3) Philby, Arabian, p. 147.

(4) Ibid, pp. 123, 124.

(5) Ibid, pp. 36, 116,137,141,151.

طرحوها أثناء كتابتهم عن الإقليم، وبناء على ذلك رأينا تقسيم الدراسة المقارنة إلى النقاط الآتية :-

١. خبرات وثقافات الرحالة الثلاثة .
٢. المصادر التي اعتمدوا عليها في تسجيل مدوناتهم.
٣. المنهج المستخدم في تصنيف الكتب الثلاثة .
٤. دراسة تحليلية نقدية مقارنة حول أهم روايات الرحالة الثلاثة وسنتناول فيها:-
   - الأحوال الجغرافية لمنطقة عسير.
   - التركيبة السياسية لسكان المنطقة .
   - التركيبة الاجتماعية لسكان المنطقة.
   - وصف القرى والمنازل.
   - اللباس والزينة والأطعمة والأشربة.
   - بعض العادات والتقاليد .
   - بعض جوانب الحياة العلمية والفكرية.
   - النواحي الاقتصادية .

وسنبدأ الآن بعرض ودراسة تفصيلية لهذه النقاط :-

أ - خبرات وثقافات الرحالة الثلاثة :-

- إذا تناولنا العمر الزمني لكل واحد من الرحالة الثلاثة، فسنلاحظ أنه يجمع ثلاثتهم الجنسية الأوروبية فتاميزيه فرنسي الجنسية، ومن أولئك الفرنسيين الذين وفدوا من فرنسا للإقامة والاستقرار في مصر ولانملك أي دليل قاطع على مكان مولده وهل كان ذلك في مصر أم في فرنسا، لكن القول الذي لاشك فيه أنه من أرومة فرنسية، وممن عمل في مهنة الطب التي قدم من أجلها مع جيوش محمد علي باشا التي جاءت من مصر لإخضاع منطقة عسير. ولم يكن هذا الرحالة بمفرده مع تلك الحملة وإنما كان معه عدد من الفرنسيين الآخرين الذين جاءوا مع الحملة من أجل المهمة نفسها التي جاءت بتاميزيه[1] .وهذا الرحالة دون كتابه الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة من باب حب الاستطلاع، وليس لأي هدف سياسي أو اقتصادي أو خلافه، لكنه حفظ لنا معلومات من الصعب أن نجدها

---

(١) انظر كتاب تاميزيه، رحلة ، ص ١٧ ومابعدها

في أي مصـدر عربي أو أجنبي خلال المدة التي قدم فيها في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشـر الميلادي)[١] ٠ أما كورنواليس وفيلبي فيختلفان عن تاميزيه حيث كانا يفوقانه في السن، وكذلك في التجارب والخبرات المتنوعة، ثم إن قدومهما إلى بلاد عسير كان تحت أهداف سياسية واجتماعية واقتصادية متعددة الأوجه[٢] ٠ فكورنواليس أرسـل إلى بلاد عسير قبل الحرب العالمية الأولى، من قبل الاستخبارات الانجليزية كي يكتب تقريراً متكاملاً عن المنطقة، ولم يكن يهدف إلى تأليـف الكتاب، ولكن تميز كتابه بجدة المعلومـات الواردة فيه جعلت المكتب العربي في القاهرة يسـعى إلى طبعه ونشـره في كتاب متداول بين النـاس[٣] ٠ كذلك فيلبي أرسـل إلى جنوبي شبه الجزيرة العربية بتكليف من الملك عبد العزيز آل سعود من أجل تدوين أكبر قدر ممكنٍ عن أحوال هذه المنطقة، وكانت بلاد عسير من الأجزاء المحظوظة التي نالت نصيباً جيداً مما دونه هذا الرحالة عنها٠

وإذا حاولنـا معرفة المسـتوى الثقـافي والفكري لكل واحد من هـؤلاء الرحالة، فإنهـم جميعاً كانوا على مسـتوى جيد من الوعي الثقـافي والفكري، بل إنهم جميعاً كانـوا يعرفـون اللغـة العربيـة[٤] ٠ وهذا ما وجدناه واضـحاً وصـريحاً بالنسـبة لتاميزيـه، وفيلبي، أمـا كورنواليس فلم نجد في كتابه ما ينصـ على أنه كان ملماً باللغة العربية ولكن المعلومات التي جمعها والتفصيلات التي أوردها تنم عن قدرته علـى التحدث باللغة العربية التـي جمع من خلالها معلومات كتابه[٥] ٠ وفيما يبدو أن تاميزيه وكورنواليس كانوا يدينون بالديانة المسـيحية، وكذلك فيلبي في العقود الأولى من حياته، ولكنه بعد أن صـار من رجال الملك عبد العزيز وأحد مستشـاريه اعتنق الإسلام وغير اسمه إلى (عبدالله)[٦] ٠

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٨ ومابعدها، و انظر كتاب جاكلين بيرين :- اكتشاف جزيرة العرب، ص٢٥١ ومابعدها٠

(2) Cornwallis, Asir, p.3;
الجاسـر، "فيلبـي رحلاته في بـلاد العرب" مجلة العرب، صـ١٠٥-١٠٨، جورج رنتـز "فيلبي مؤرخاً للمملكة ٠٠٠" ، ص٦٢ ومابعدها٠

(٣) انظر : Cornwallis Asir, pp. 3ff.

(٤) تاميزيه ، ص ١٥-١٦ ، Cornwallis, p.3ff.
ج٠ نورتون "فيلبي رجل الجزيرة العربية" ،ص١٥٢ ومابعدها ٠
E.Monroe, Philby of Arabia, pp. 1ff.

(٥) انظر : Cornwallis , Asir, pp. 7 ff.

(٦) الجاسـر "فيلبـي رحلاته في بلاد العرب" ،صـ١٠٦ ومابعدها ؛ ج٠ رنتز "فيلبي مؤرخاً للمملكة ٠٠" ، ص٦٣ ومابعدها ؛ ج٠ نورتون "فيلبي رجل الجزيرة العربية" ، ص١٥٣ ومابعدها٠

ب - المصادر التي اعتمدوا عليها في تسجيل مدوناتهم ٠

أما الطريقة الأساسية التي اعتمدوا عليها في جمع المادة العلمية لكتبهم، فتقوم على الرواية الشفوية، وأسلوب الحوار وإجراء المقابلات مع أهالي وسكان المنطقة، وإن اختلفوا في طريقة الجمع٠ فتاميزيه جاء مع الحملة العسكرية المصرية العثمانية الغازية لبلاد عسير، وبالتالي كان خروجه مستحيلاً إلى الأماكن العامة، وتجمعات الأهالي كالأسواق، والمناسبات الاجتماعية المختلفة وغيرها، وذلك لخوفه على نفسه من التعرض للقتل من قبل الأهالي، خصوصاً إذا تبينوا هويته الأجنبية، ومجيئه مع القوات الغازية، ناهيك عن أنه كان يدين بالمسيحية، وقد جعلنا هذا نستبعد احتمالية احتكاكه المباشر بعناصر المجتمع المدني المختلفة في عسير، وإنما تركزت طريقة جمعه لمعلوماته على المشاهدات العينية والانطباعات الشخصية أثناء تحرك الجيوش التي رافقها من بيشة إلى أبها، علاوة على التقائه أحياناً ببعض مشايخ القبائل والأعيان الذين كانوا يأتون من ديارهم لمقابلة قادة الجيش المصري، وذلك لتقديم الولاء والطاعة لهم، حيث اعتاد بعضهم الإقامة عدة أيام مع الجيش٠ ولعل ذلك من العوامل التي ساعدت تاميزيه على جمع معلوماته بدليل ذكره لبعض هؤلاء الأعيان والمشايخ واستعانته بهم من أمثال دوسري أبي نقطة العسيري، الذي قدم مع الجيش من مصر بهدف توليته منصب الإمارة في عسير بعد الاستيلاء عليها من قبل الجيش العثماني، كما أشار إلى بعض المشائخ في بيشة وخميس مشيط، مثل :- الشيخ مشيط،شيخ مشائخ شهران،وكذلك الشيخ علي الصعيري شيخ بني سلول في بيشة، حيث كانا من الروافد الرئيسة التي ساعدت تاميزيه في جمع معلوماته[1]٠

فأما فيليبي فقد خدمه الحظ حيث كان مدعوماً من قبل حاكم المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز، فبالتالي لم يكن يجد صعوبة في جمع المادة العلمية، حيث كان محتفىً به أينما نزل، وبذل رجال الدولة في بيشة وأبها، وكذلك مشايخ وأعيان القبائل جهدهم في تقديم العون وكافة المساعدات المطلوبة له٠أضف إلى ذلك تمتعه شخصيا بخبرات عملية جيدة إلى جانب ارتفاع مستواه الفكري والثقافي ٠ الأمر الذي مكنه من تدوين المعلومات المتنوعة، وإخراج كتابه القيم المعنون باسم "النجود العربية " وهو كتاب يمتاز برصانة أسلوبه، ودقة معلوماته ليس عن منطقة عسير فحسب، وإنما عن معظم جنوبي شبه الجزيرة العربية[2] ٠

(١) تاميزيه ، رحلة ، ص٢٥ ومابعدها ، كما انظر أيضاً ، ص٣٢ ومابعدها، ٣٤٨- ٣٥٠

(٢) انظر : Philby, Arabian, pp. 3ff.

جـ - المنهج المستخدم في تصنيف الكتب الثلاثة:

وهـذه الكتب الثلاثة تختلـف في طريقة التدوين والصـياغة ٠ فكتاب تاميزيه اعتمـد في أغلبه على أسـلوب الحوارات وإلقاء الأسـئلة على بعض الرواة وتدوين ما يسـمع، مع أن معظم الكتاب يتحدث عن الحملة التي جاء معها وطريقة سـيرها وتعاملها مع العشـائر والسـكان المارين عليهم مـن الطائف حتى أبهـا، أما كتاب كورنواليس فأسـلوبه تقريري محدد المعلومات مختصـر في التفصـيلات تحقيقاً للهـدف الذي جاء من أجله٠ أمـا طريقة فيلبي في تدوين معلوماته فكانت مكتوبة بأسـلوب فيلبـي الذي يمتاز بالجودة والرصـانة، مـع العلم أنه كان يسـأل أحياناً عـن بعض النواحـي التي يريد معرفة معلومات عنها، إلا أنـه غالباً كان يعتمد على المشـاهدة ودقة التفاصـيل في جزئيات معينة، وهذا مما يجعله أحياناً يفقد الربط بـين الأفـكار فتراه قد يكتب عن عشـيرة معينـة، لكنه أثناء حديثـه قد يخوض في تفصيلات دقيقة كأن يتحدث عن الطيور والنجوم والآثار وغيرها من الأشياء التي شاهدها أثناء إقامته أو حديثه عن العشيرة أو القبيلة التي يكتب عنها٠

د - دراسة تحليلية نقدية مقارنة حول أهم روايات الرحالة الثلاثة :-

وإذا حاولنا معرفة أوجه الشبه والاختلاف بين محتويات الكتب الثلاثة فيمكننا حصرها في العديد من النقاط الرئيسة أولها :

١ - الأحوال الجغرافية لمنطقة عسير :

تعرض الرحالة الثلاثة موضـوع الدراسـة للحديث في مصنفاتهم عن الأحوال الجغرافية في المنطقة المعنية بالدراسـة، فأشاروا جميعاً إلى تنوع تضاريس البلاد، ونوهوا إلى المناخ، وأنواع الرياح التي تهب على منطقة عسـير، والنباتات والأشجار المتوافرة في المنطقة، كما ذكروا بعض أنواع الحيوانات الأليفة والمفترسة والحشرات والطيـور[١]٠

وعلـى الرغم من إشـارتهم جميعـاً إلى هذه الجوانب، إلاَّ أنهـم لم يكونوا على مستوى واحد فيما دونه كل منهم من معلومات حيال هذه العناصر فتاميزيه أقلهم ذكراً لهذه النواحي فلم تأت في مدوناته إلا عرضاً وأثناء حديثه عن سكان المنطقة٠

(١) تاميزيه، رحلة، ٩٣، ٩٥، ١٠٩، ١١٦، ٢٠٨، ٢٣٦ ومابعدها٠

Cornwallis, Asir, pp.7 ff, Philby, Arabian, pp. 111f, 140,151, 161 ff.

وتحـركات الجيوش من محطة لأخرى في طريقهـا إلى مدينة أبها٠ أما كورنواليس وفيليبي فكانا أكثر اهتماماً بتدوين هذه الجوانب٠ فكورنواليس كان من أساسـيات مهمته التي قدم من أجلها إلى إقليم عسـير أن يدون تقريراً وافياً يشـمل كل شيء، والعناصر السالفة الذكر تعتبر في نظره وفي نظر قادته الذين أرسلوه في غاية الأهمية لهذا نجده يدون معلومات جيدة عنها، وتحت عناوين منفصلة، مثل :- التضاريس، الخصـائص الطبيعية والمناخية وغيرها [١]٠ أما فيليبي فقد اتصف بخبرة واسعة في علـم الرحلات، وإلى جانب دقـة ملاحظته وتعوده على التجوال، فلم تكن رحلته في الكتاب الذي نحن بصـدد دراسـته مقتصـرة على عسـير، وإنما شملت عسيراً وبلاد يـام، ونجران وجازان والقنفذة وغيرها، وهذه الرحلة الطويلة جعلته أحياناً يقارن بين تلك المناطق من حيث المناخ والتضـاريس والحياتان النباتية والحيوانية، وهـذه الطريقة في التدوين أكسـبت كتابه رصـانة وجودة، مع العلـم أن حديثه عن الأحوال المناخية والتضاريسية في منطقة عسير لم يكن مجموعاً في مكان واحد مثل كورنواليس، ولكنه كان موزعاً في أماكن عديده على صفحات الكتاب ٠

كما أشار إلى تنوع الحياتين الحيوانية والنباتية في المنطقة، وذلك أثناء عبوره الطريق التي سلكها تاميزيه من قبله مابين بيشة وأبها حاضرة عسير[٢] ٠

٢ - التركيبة السياسية لسكان المنطقة :-

دون رحالتنا الثلاثة معلومات نفيسة أثناء قدوم كل واحد منهم إليها، والشيء المميز في ذلك أنهم جاءوا إلى إقليم عسير في فترات زمنية متباينة ومتباعدة بعض الشـيء، فتايميزيه جاء إليها في منتصـف القرن الثالث عشـر الهجري (التاسـع عشـر الميلادي) ، يوم أن كان عائض بن مرعي العسيري أميراً على المنطقة الممتدة من شـمال نجران وجازان إلى بلاد غامد وزهران [٣] ، ويوم أن كانت الحجاز تحت ولاية الأشراف الذين يخضعون للدولة العثمانية في الاستانة ونفوذ محمد علي باشا

---

(١) انظر : Cornwallis, Asir, pp. 7 ff.

(٢) انظر:Philby, Arabian, pp.111,112,113, 123,124,140,151.

(٣) لمزيد من التفصـيلات عن الحياة السياسـية في عسـير أثناء مجيء تاميزيه إليها انظر : النعمي ، تاريخ ، ص١٣١ ، عسـيري ،عسير، ص١٢٤ ومابعدها ، ابن جريس٠ بلاد بني شهر، ص٥٢ ، مقدمة المترجم لكتاب تاميزيه (محمد آل زلفه) ، ص٧ ومابعدها٠

في مصر[١]، كذلك اليمن كان وضعها مثل الحجاز تخضع للقوى العثمانية[٢]٠ وبرغم أن عائض بن مرعي كان أميراً لعسير فإن القبائل داخل منطقة عسير لم تكن جميعها على وتيرة واحدة في ولائها للأمير عائض، وأكبر دليل على ذلك أننا نجد تاميزيه يدون في كتابه المعني بالدراسة أن القبائل التي كانوا يمرون عليها شرقي بلاد غامد وزهران، وكذلك بلاد بيشة وشهران كانت سريعة الانقياد والدخول تحت لواء الجيش العثماني الذي جاء تاميزيه معه، وربما يعود ذلك إلى رغبة بعض منهم في التخلص من إمارة عائض بن مرعي، وربما خوف بعض آخر من هذه الجيوش الغازية وفي حالة الدخول تحت لوائها فإن الخسارة والدمار في ديار تلك القبائل سوف يكون أقل[٣]٠ أما كورنواليس فيتميز على سابقه في هذه الناحية بحكم عمله في الاستخبارات البريطانية فكان من أهم النقاط المكلف باستيفائها من قبل رؤسائه وجعلته يقدم إلى المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/ ١٩١٤-١٩١٨م) هو التصوير الدقيق للقوى السياسية في إقليم عسير، وهذا بالفعل ما حصل، حيث ذكر أن المنطقة كانت مقسمة إلى أربعة أقسام هي :

١. النواحي المستقلة متمثلة في القبائل والعشائر البدويه المعتمدة على التنقل والترحال، وهذه القبائل كانت الأعراف والعادات القبلية هي الضابط الذي يضبط طريقة التعامل فيما بين أفرادها[٤]٠

٢. الأجزاء الشمالية من منطقة عسير مثل بلاد غامد وزهران وما حولها فكانت تدين بالولاء لشريف مكة ٠

٣. أما الأتراك فكان لهم نفوذ على مدينة أبها وما حولها، وربما امتد نفوذهم إلى بعض المراكز الحضارية شمالي أبها مثل : النماص في بلاد بني شهر، ومحائل والقنفذة في المناطق التهامية[٥]٠

٤. أما الأجزاء التهامية الممتدة من محائل شمالاً إلى صبيا جنوباً بما فيها السفوح الغربية لجبال السروات المطلة على أبها فكانت تحت سيطرة

(١) المصادر نفسها٠

(٢) المصادر نفسها، وانظر: عاكش٠ الدر الثمين، ص٦ ومابعدها، العقيلي، المخلاف السليماني، ط١، ص٤٤٧ ومابعدها٠

(٣) تاميزيه، رحلة، ص١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣ وما بعدها٠

(٤) انظر: Cornwallis, Asir, pp.25-31

(5) Ibid, pp. 25 ff.

الإدريسي[١]. بينما جاء فيليبي إلى إقليم عسير في ظروف كانت أفضل من الظروف التي جاء فيها سابقاه حيث كانت جميع منطقة عسير تحت لواء الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وكانت الأوضاع السياسية مستقرة بشكل كبير وأكثر ما يفسد الحياة السياسية آنذاك هو الطابع القبلي الذي يتصف به سكان البلاد، فقد توجد المشاكل بين أفراد القبائل المتجاورة على أماكن الرعي أو الحدود القبلية أو موارد المياه وغيرها[٢].

٣ - التركيبة الاجتماعية لسكان المنطقة :

ويناقش الرحالة الثلاثة بعض النواحي الاجتماعية في إقليم عسير، لكنهم يتفاوتون في ذكر بعض الجوانب، ويتقاربون في ذكر بعضها الآخر.

فنجدهم يشيرون إلى التركيبة السكانية من الناحية الاجتماعية التي كانت في المنطقة يوم قدوم كل واحد منهم فيجمعون على أن أغلبية السكان من العشائر والقبائل العربية التي قطنت هذه البلاد منذ زمن بعيد[٣]. ويتعرض كل واحد منهم لذكر القبائل التي شاهدها واختلط بسكانها، فكون تاميزيه وفيليبي قدموا إلى عسير من طريق واحدة، من بيشة إلى أبها، نلاحظ نقاط التشابه واضحة وواسعة في حديثهم عن القبائل التي مروا عليها في المنطقة[٤]. أما كورنواليس فقد فاقهم بكثير في هذه المعلومات، حيث ذكر أسماء قبائل كثيرة جداً تعيش في المرتفعات الجبلية وفي المنخفضات التهامية من منطقة عسير، ولم يقتصر على ذلك وإنما كان في كثير من الأوقات يذكر مواقع تلك القبائل وعدد سكان كل قبيلة أو عشيرة ذكرها[٥].وهذا التوسع في المعلومات عن منطقة يجهلها قد أوقعه في أخطاء كثيرة من حيث ذكر المواقع الدقيقة لبعض القبائل، وكذلك من حيث ذكر عدد السكان . وهذه مهمة صعبة جداً لأنه اعتمد في جمعه المعلومات على الرواة المحليين الذين يختلفون في الرغبات والأهواء، فربما كان بعضهم يعطي معلومات عن موقع قبيلة وعدد سكانها متعمداً الوقوع في الخطأ من أجل تضليل هذا الرحالة، ومن أجل

(1) Ibid, pp. 28 ff.

(2) Philby, Arabian, pp. 36, 123, 129, 161f.

(٣) تاميزيه ، رحلة ، ص٥٧ ومابعدها، ١٠٣ ، ١٥١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ومابعدها.
Cornwallis, Asir, pp.32ff, Philby, Arabian, pp. 123ff, 161ff.

(٤) انظر: (تاميزيه) و(Philby) الصفحات التي في الملاحظة السابقة (١٤٧).

(٥) انظر : Cornwallis, pp. 32-83.

إعطاء صورة معاكسة للحقيقة التي يتطلع إليها هذا الباحث، وأحياناً قد يعطي بعض منهم معلومات عن جهل وعدم معرفة بالحقيقة ٠ وهذا شيء قد لمسته أثناء تجوالي في نواح عديدة منٍ جنوبي شبه الجزيرة العربية، وذلك على مدار عقدين من الزمان، فكنت دائماً ما أقابل عقباتٍ عديدة، والتضليل أو الجهل في إعطاء المعلومة على رأس تلك العقبات ٠ أيضاً فإن كورنواليس رجل غريب عن منطقة عسيرٍ، وربما عدم التمكن من اللغة العربية والمعرفة باللهجات واختلافها كانت أيضاً من العقبات التي اعترضت طريقه، وهذا مما جعله يقع في أخطاء من هذا النوع، مع العلم أنه جاء بعده من أبناء العربية من كتب عن منطقة عسير، وخاصة عن قبائلها وسكانها فوقع في أخطاء قد تكون أكثر وأكبر من الأخطاء التي وقع فيها كورنواليس(١) ٠

أيضا نجد الرحالة الثلاثة يذكرون وجود عناصر أخرى في المنطقة غير العنصر القبلي٠ فتاميزيه يذكر أنه قدم مع الحملة التي جاء فيها إلى عسير العديد من الأوربيين،وأغلبهم من الفرنسين،وكذلك عدد من المصريين والمغاربة والأتراك(٢)، وإن كانوا جاءوا مع الحملةِ ورجع أغلبهم معها فإنه قد بقى بعض منهم في إقليم عسير حتى ماتوا، وأحياناً خلفوا ذريه لازال بعض منهم ومن أحفادهم يعيشون بها إلى الآن٠ وقد أشار الرحالة الثلاثة إلى وجود العبيد والجواري الذين جلبوا إلى المنطقة من أفريقيا من أجل العمل في المهن والخدمات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة٠ وقد أشار فيليبي إلى وجود عناصر عربية أخرى في إقليم عسير أثناء قدومه إليها، مثل السوريين وكذلك المصريين الذين كانوا يعملون في بعض المؤسسات الحكومية في المنطقة مثل :- المالية والصحة والتعليم(٣) ٠

---

(١) المصدر نفسه ، PP.32. ، وانظر : مراجع أخرى تحدثت عن القبائل في عسير، مثل: فؤاد حمزة ، في بلاد عسير، ص١٦٠ ومابعدها ، محمود شاكر، عسير، ص٤٣، وما بعدها ، الألمعي ، رحلات في عسير، ص٤٩، ومابعدها٠ أيضاً انظر: عمر العمروي٠ قبائل عسير في الجاهلية والإسلام، جـ١ ، ص٢٥ ومابعدها٠

(٢) تاميزيه ، رحلة ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٥، ٢٣٥، ٣٤٤ ٠

(3) Philby, Arabian, p. 141, 148

وعن بعض العناصر التي كانت تعمل في المؤسسات الحكومية أثناء زيارة فيليبي لمنطقةِ عسير، انظر : ابن جريس ، عسير في عصر الملك عبد العزيز، ص٣١ ومابعدها،وللمؤلف نفسه انظر أيضاً : تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤-١٣٨٦هـ/١٩٣٤-١٩٦٦م) جـ١. ص٥١ ومابعدها٠

وفي أثناء حديث هؤلاء الرحالة عن سكان المنطقة، كانوا غالباً ما يشيرون إلى علية القوم فيهم مثل : الأمراء والشيوخ والأعيان وغيرهم ٠ والفائدة التي جنيناها من هذه الدراسة هو التعرف على شخصيات لم نكن نعرف الكثير منهم في مصادر أخرى، وقد حفظها لنا هؤلاء الرحالة٠ فتاميزيه يذكر بعض التفصيلات عن بعض الأعيان الذين شاهدهم في بيشة وخميس مشيط وأبها، وقد جلس مع بعض منهم وسألهم عن بعض النواحي الحضارية والعلمية التي يريد معرفتها وتدوينها في كتابه[١]٠ كذلك كورنواليس وفيليبي أوردا معلومات قيمة عن شخصيات عديدة، فالأخير أورد أسماء أمراء ومشائخ وموظفين كانوا يعملون في أماكن عديدة، مثل الإمارة والقضاء، والمالية والتعليم وغيرها[٢] ٠ أما كورنواليس فقد أفاض في الحديث عن الشخصيات في منطقة عسير حتى إنه وضعهم تحت عنوان مستقل سماه : الشخصيات (Personalities) ، حيث أورد أكثر من (١٣٠) شخصية في أنحاء منطقة عسير ذكر أسماءهم ومراكزهم الاجتماعية وأحياناً صفاتهم الخِلقية والخُلقية [٣] ٠

٤ - وصف القرى والمنازل :

أشار كل من تاميزيه وفيليبي إلى طبيعة القرى في إقليم عسير، وإلى أنواع المنازل والمرافق المحيطة بها، وإلى نوعية مواد البناء، وذلك أثناء مرورهما في الطريق الواصلة بين بيشة وأبها[٤]٠ أما كورنواليس فلم يكن يركز على هذا الجانب بشكل واسع، وإنما أشار إليها أحياناً بشكل عرضي٠ ويفوق فيليبي تاميزيه في إعطاء تفصيلات أكثر دقة عن مساحات القرى في البلاد العسيرية، ونوعية المنازل، فيبين لنا الطريقة المتبعة في البناء والتي تعتمد على استخدامٍ الطين والحجارة، وأوضح أن أغلب مباني المنطقة من الحجارة، وإن كانت أحياناً تبنى الأجزاء السفلية من المنزل بالحجارة، ثم يستكمل الجزء العلوي من الطين، ويتراوح ارتفاع المنازل من

---

(١) تاميزيه ، رحلة ، ص١٣٥ ، ١٥١ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢١ ، ٢٦٤ ، ٢٨٤ ومابعدها [وانظر مقدمة المترجم لكتاب تاميزيه] (محمد آل زلفة) ، ص ٢٣ ٠

(2) انظر : Cornwallis, Asir, pp. 84 ff. -154
Philby, Arabian, pp. 36,37,112, 117, 123, 129, 136, 148.

(٣) انظر : Cornwallis, Asir, pp. 84-103.

(٤) تاميزيه ، رحلة ، ص٢٢٠-٢٢١ ، ٣٢٦ ، ٢٥٦ ، ٢٩٣ ومابعدها ،
Philby, Arabian, pp. 29, 37, 113, 117.

دور إلى دورين، ماعدا الأعيان والأمراء والشيوخ فأحياناً كانت منازلهم أوسع أفقيا، ويتراوح ارتفاع بعضها مابين أربعة إلى ستة أدوار، وقد شاهد ذلك في كل من بيشة وخميس مشيط وأبها. وكون فيلبي كان مدعوماً من قبل الملك عبد العزيز آل سعود، فقد استطاع دخول الكثير من بيوت أهل عسير، وبالتالي تمكن من إعطاء تفصيلات دقيقة عن الأقسام الداخلية التي تتكون منها منازل العسيريين، لا سيما منازل الأعيان والمشائخ، فأوضح انقسام بعضها إلى عدة أقسام، مثل :- قسم للضيوف، وآخر لأفراد الأسرة، وأقسام أخرى تستخدم كمستودعات، وأماكن للبهائم وغيرها[1]، كما شاهد طريقة تأثيث البيت العسيري، وخاصة عند علية القوم، إلى جانب ملاحظته ازدحام المنازل من الداخل بالزخارف المتنوعة وقد بهرته هذه اللمسات الجمالية فأثنى عليها، وذكر تفرد منطقة عسير بهذا النوع من الزخارف المعمارية [2].

٥ - اللباس والزينة والأطعمة والأشربة :-

ويشير رحالتنا الثلاثة إلى نوعية اللباس والزينة التي شاهدوا أهل عسير يلبسونها في مزارعهم وأسواقهم، بل أشاروا إلى نوعية الألبسة والأقمشة التي كانت تعرض في أسواقهم الأسبوعية، إلاَّ أن فيلبي يعتبر أكثرهم تفصيلاً من حيث ذكر بعض الألبسة التي كان يستخدمها النساء والرجال، وقد ذكر أنواعاً عديدة من اللباس وأدوات الزينة المستعملة عند العديد من السكان في أسواق بيشة وخميس مشيط[3] .

وأحياناً كان تاميزيه وكورنواليس يذكرون بعض الأطعمة والأشربة التي كانوا يشاهدونها في أسواق المنطقة، أو أثناء تناولهم لبعض منها. أما فيلبي فالظروف التي جاء فيها ساعدته على المكوث بعض الوقت في أجزاء عديدة من المنطقة، كما تم استضافته على أكثر من وجبة ووليمة في بيوت بعض الأمراء والأعيان في المنطقة، ومن ثم أعطى تفصيلاً لا بأس به عن بعض المأكولات التي كان يتم تناولها على الموائد في تلك البلاد[4]. وإذا كان ذكر بعض أسماء الأطعمة والأشربة في بيوت المقتدرين ماديا من الناس، فإن غالبية سكان المجتمع كانوا فقراء وكانت

(1) Philby, Arabian, pp. 38, 39,113-4, 117, 129, 131, 139, 151.
(2) Ibid, pp. 113-4.
(3) Ibid, pp. 36, 116, 117, 137,139,140.
(4) Ibid, pp. 136, 140.

أغلب أطعمتهم من الحبوب التي تنتجها أراضيهم، أو من منتوجات حيواناتهم التي يقومون على تربيتها [١].

٦ - بعض العادات والتقاليد :

ولم تكن تخلو منطقة عسير من عادات وأعراف متنوعة، مثل عادات الزواج، والختان، والمآتم، والصلح، والجوار وغيرها كثير [٢]، لكن هؤلاء الرحالة لم يتعرضوا لها كثيراً فيما عدا فيلبي الذي ذكر مشاهدته لعادة الزواج المبكر من الشباب والشابات في عسير، حتى إن بعضاً منهم قد يتزوج بين (١٢-١٣) سنة، كما نوه إلى أن صداق المرأة البكر كان عالياً بعض الشيء، في حين أن الثيب كان يتراوح مهرها من (٢٠-٣٠) ريالاً [٣]. ويذكر أيضاً أن التعليم بدأ ينتشر في عسير، والاهتمام بالقرآن وتلاوته كان من أهم الأمور التي يركز عليها السكان، حتى إنه قد شاهد حفلاً في بيشة يحتفى فيه بختام القرآن، وذكر أنه كان يحضره الشباب المحتفى بهم وعليهم ألبسة جميلة إلى جانب أنه يحضر مثل تلك المناسبة العديد من الأعيان والوجهاء وعلية القوم في المنطقة وذلك تكريماً لكتاب الله ثم احتفاء وفرحة بهؤلاء الشباب الذين ختموا كتاب الله [٤].

٧ - بعض جوانب الحياة العلمية والفكرية :

ومن النواحي التي أشار إليها كل من تاميزيه وفيلبي اهتمامهما بذكر بعض النواحي العلمية والفكرية في المنطقة، فقد أشارا إلى تعداد المواقع الأثرية والنقوش التي تقع على الطريق ما بين بيشة وأبها [٥]. كما أشرنا من قبل لاهتمامات فيلبي بملاحظة أنواع الطيور والحشرات الموجودة في المنطقة وإقدامه على جمع بعضها، كما تميز أيضاً باهتمامه بحركة النجوم وتتبعه للأنواء [٦]. ولم يغفل عن ذكر لمحة عن الحياة الصحية في البلاد فأشار إلى وجود مستوصف بأبها يعمل فيه طبيب هندي يعالج الأمراض البسيطة مثل: الحمي، والجروح الصغيرة وغيرها، ويذكر

---

(1) Ibid, pp. 36,131,139,140.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هذه العادات في منطقة عسير، انظر: ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠، ص٧٤ ومابعدها.

(٣) انظر: Philby, Arbian, p.136.

(4) Ibid, p. 39 - 40

(٥) تاميزيه، الرحلة، ص١٤٣، ٢٤٠، ٢٨٦، ٣٢٦،

Philby, Arabian, pp. 135, 136, 137, 138.

(6) Philby, Arabian, pp.111,112, 141,151.

أن إمكانات ذلك المستوصف كانت بسيطة جدا[١]. كما أشار إلى بعض الأمراض التي كانت تصيب الناس هناك ومن أشدها أمراض الحمى التي أصيب بها هو نفسه أكثر من مرة أثناء إقامته في عسير[٢].

٨ - النواحي الاقتصادية :

ويذكر رحالتنا الثلاثة النواحي الاقتصادية في الإقليم، وخاصة التجارة فيذكرون جميعاً الأسواق الأسبوعية الموجودة في المنطقة، وأهميتها في تجمع الناس وتبادل الأخبار والسلع التجارية، بل يذكرون ما كان لتلك الأسواق من أهمية عند أبناء القبائل، وما كان لها من أنظمة وقوانين لحمايتها وتعامل الناس فيها براحة وأمان. ولكن الرحالة الفرنسي تاميزيه يأتي أقل الثلاثة في الحديث عن هذا الجانب، أما كورنواليس وفيليبي فقد فصلوا الحديث عن أسماء بعض الأسواق، والسلع التي ترد إليها، والطرق الموصلة لها، والأسعار، والأوزان، وطرق التعامل. لكن كورنواليس أيضا يفوق فيليبي في الحديث عن هذه النقاط، حيث أفرد لبعضها عناصر مستقلة في كتابه، ولو أنها مختصرة بعض الشيء إلاَّ أنها قيمة وتشمل معلومات دقيقة ومركزة. ومن أجود العناصر التي تعرض لها ضمن الناحية التجارية الطرق التي تربط منطقة عسير بعضها مع بعض، حيث ذكر أسماءها ومحطاتها والسكان الذين يعيشون على أطراف تلك الطرق، مع الإشارة إلى بعض العقبات التي امتازت بها بعض تلك الطرق[٣]. وربما يساوي كورنواليس الرحالة فيليبي وأحياناً يفوقه في الحديث عن طبيعة الأسواق المحلية الأسبوعية والأسعار والعملات والأوزان التي كانت سائدة فيها[٤]، مع العلم أن فيليبي قد أشار إلى هذه الجوانب وخاصة في أسواق بيشة وخميس مشيط[٥]، ويجمع الرحالة الثلاثة على أن الوسائل الرئيسة لنقل الناس والتجارات كانت مركزة على الجمال والحمير، ولكن في عصر فيليبي أصبحت السيارات تعمل إلى جانب تلك الدواب، وخاصة فيما بين بيشة وأبها فقط[٦].

ويشير الرحالة الثلاثة إلى وجود مهن اقتصادية أخرى في إقليم عسير مثل الرعي والزراعة وبعض الحرف الصناعية التقليدية. ولكن كورنواليس يُعد

(1) Ibid, pp. 141,148.
(2) Ibid, pp. 136, 139.
(3) Cornwallis, Asir, pp. 104 ff.
(٤) انظر: Ibid, pp. 18-23. pp. 36,38,116,137,138,151-2.
(٥) انظر أيضاً إلى : Philby, pp. 38, 116,137, 138.
(6) Ibid, pp. 138, 148.

أفضلهم في ذكر هذه النقاط، حيث ذكر هذه المهن والفنون الصناعية التقليدية في أماكن مستقلة من كتابه رغم قصرها، ثم يأتي بعده فيليبي الذي أشار إلى وفرة المدرجات الزراعية في أنحاء منطقة عسير، كما أنه شاهد العديد من الصناعات الحرفية واليدوية التي كانت تباع وتتداول في الأسواق الأسبوعية في المنطقة [1].

و - الخاتمة :

وخلاصة القول أن هؤلاء الرحالة الثلاثة قد جاءوا في فترات متباعدة إلى منطقة عسير تحت أهداف وأغراض سياسية وحضارية مختلفة، وإذا كانت الظروف دفعت تاميزيه ليأتي مع جيوش محمد علي باشا إلى المنطقة، فربما لم يكن ذلك مدروساً ومخططاً له من قبل، ليدون رحلته عن هذه المنطقة. وذلك بخلاف كل من كورنواليس وفيليبي اللذين جاءا بدعم وتأييد من قوى سياسية مختلفة لجمع وتدوين معلومات عن المنطقة، حيث جاء كورنواليس بدعم من قوى استعمارية هي الإمبراطورية البريطانية، في حين أن فيليبي جاء بدعم من حاكم المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز . فكون الظروف مختلفة والأهداف التي جاء من أجلها كل من ذينك الرحالتين متنوعة، إلاَّ أننا معشر الباحثين قد استفدنا استفادة واضحة من المعلومات القيمة التي سجلها الرحالة الثلاثة، والتي قلما نجدها في مصادر أخرى سواء كانت عربية أم أجنبية، فألقت الكثير من الأضواء على نواحٍ مجهولة من تاريخ وحضارة هذه المنطقة من جنوبي البلاد السعودية خاصة وأنَّ منطقة عسيرٍ موضعِ الدراسة هي في حد ذاتها فقيرة في معلوماتها وفيما دون عنها سواء قديماً أو حديثاً، لكن الحصول على جزء من شيء أفضل من لاشيء.

ز - المصادر والمراجع:

أولا : المصادر العربية :

١. الألمعي، يحيى إبراهيم .رحلات في عسير (جدة : مطابع دار الأصفهاني، د.ت) ج١ .

٢. بيرين، جاكلين. اكتشاف جزيرة العرب (خمسة قرون من المغامرة والعلم) . ترجمة قدري قلعجي. (بيروت : دار الكتاب الغربي، د.ت).

٣. تاميزيه، موريس. رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية على عسير (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م). ترجمة محمد بن عبد الله آل زلفة (الرياض : مطابع الشريف، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م).

(1) Ibid, pp. 36, 116, 137, 141,151.

٤. الجاسر، حمد ٠ " فلبي : رحلاته في البلاد العربية " مجلة العرب (عام ١٤٠٩-١٤١٠هـ) مج٢٤، ص١٠٥ - ١٠٨ ٠

٥. ابن جريس، غيثان بن علي٠ "وثائق من عسير خلال الحكم العثماني (١٢٨٩-١٣٣٧هـ)٠ مجلة العرب، جـ٣-٤ (سنة/٢٨) (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٥٤-١٧٠ ٠

٦. ابن جريس، غيثان بن علي٠ صفحات من تاريخ عسير (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، (الجزء الأول) ٠

٧. ابن جريس، غيثان بن علي٠ " بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل " مجلة المؤرخ العربي، العدد الثاني، المجلد الأول (مارس/١٩٩٤م) ،ص٧٣-١٠٠ ٠

٨. ابن جريس، غيثان بن علي٠ عسير: دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ/ ١٦٨٨-١٩٨٠م) (جده : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)٠

٩. ابن جريس، غيثان بن علي ٠ تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤-١٣٨٦هـ/ ١٩٣٤-١٩٦٦م) (جده : دار البلاد للطباعة والنشر، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م) جـ١ ٠

١٠. ابن جريس، غيثان بن علي٠ أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (الرياض، مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ٠

١١. ابن جريس، غيثان بن علي٠ عسير في عصر الملك عبد العزيز (دراسة تاريخية في الحياة الإدارية والاقتصادية) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)٠

١٢. الحفظي، إبراهيم بن علي زين العابدين ٠ تاريخ عسير رؤية تاريخية خلال خمسة قرون٠ تحقيق وتعليق، محمد بن مسلط بن عيسى الوصال البشري (د٠ت ،١٤١٣هـ)٠

١٣. حمزة، فؤاد ٠ في بلاد عسير٠ ط٢ (الرياض، ١٣٨٨هـ/١٩٩٦٨م) ٠

١٤. درويش، مديحة أحمد ٠ تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ٠ (الرياض : دار الشروق ،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)٠

١٥. رنتز، جورج٠ "فيليبي مؤرخا للمملكة العربية السعودية "٠ ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي ٠ مجلة الدرعية (السنة الأولى، عدد (٢) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص ٦١-٨٦ ٠

١٦. شاكر، محمود٠ شبه جزيرة العرب- عسير٠ ط٣ (بيروت - دمشق : المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)٠

١٧. الصياد، محمد محمود ٠ " الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر "٠ دراسات تاريخ الجزيرة العربية٠ الكتاب الأول٠ مصادر تاريخ الجزيرة العربية٠جـ٢ (الرياض : مطابع جامعة الملك سعود- الرياض سابقا، ١٣٧٩هـ /١٩٧٩م) ص ٤٣٧ - ٤٤٤ ٠

١٨. عاكش، حسن بن أحمد ٠ الدر الثمين في ذكر المناقب والوقائع لأمير المسلمين

محمد بن عائض٠ تحقيق عبدالله بن علي بن حميد (د٠ن، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)٠

١٩. عبد القادر، عبد الشافي غنيم٠ "الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين" دراسات تاريخ الجزيرة العربية٠ الكتاب الأول٠ مصادر تاريخ الجزيرة العربية٠ جـ٢ (الرياض : مطابع جامعة الملك سعود- الرياض سابقا،١٣٧٩هـ/١٩٧٩م) ص ٤٢١ - ٤٣٦ ٠

٢٠. عسيري، علي أحمد٠ عسير من ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م-١٢٨٩هـ/١٨٧٢م٠ (أبها : نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ٠

٢١. العقيلي، محمد بن أحمد٠ تاريخ المخلاف السليماني (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) جـ١ ٠

٢٢. العمروي، عمر غرامة٠ قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام (أبها : نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩١م) (جزءان)٠

٢٣. الملكاوي ،حنان سليمان ٠ العلاقات بين أمراء الأدارسة في عسير واشراف مكة (١٩٠٨/١٩٢٥م)٠ منشورات لجنة تاريخ الأردن، سلسلة البحوث والدراسات المتخصصة رقم (١٢) (عمان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)٠

٢٤. النعمي، هاشم سعيد٠ تاريخ عسير في الماضي والحاضر (د٠ن / د٠ت) ٠

٢٥. نورتون، ج٠د٠ "فيليبي رجل الجزيرة العربية" مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (الكويت، العدد الثالث، جمادى الثانية، ١٣٩٥هـ)، ص١٥١-١٥٩ ٠

٢٦. الهمداني، الحسن بن أحمد ٠ صفة جزيرة العرب٠ تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ٠

٢٧. وهبه، حافظ٠ جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٥ (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م) ٠

ثانياً : المصادر الأجنبية :

1. Cornwallis, Sir Kinahan.
2. Asir before World I War (Handbook) (Cambridge, 1976).
3. Hogarth D.G. Hejaz before World War I (Handbook) (Cambridge, 1978).
4. Monroe, El.Zabeth. Philby of Arabia (London, 1973).
5. Philby, H. St. J.B. Arabian Highlands (New York, 1976).

٨- جنوب السعودية في كتاب : (مرتفعات الجزيرة العربية) لهاري سانت جون فيلبي

(دراسة تاريخية تحليلية)*

* نُشر في كتاب :
دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية
ط٢ ؛ ١٤٣٤هـ ، الرياض ، مطابع الحميضي ،
ص ص ٣٨٣ - ٤٣٦

جنوب السعودية في كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية لهاري سانت جون فيلبي (دراسة تاريخية تحليلية)

أولاً : مقدمة :

إن شبه الجزيرة العربية، جنوبيها بعامة، وبلاد عسير وجازان ونجران بخاصة من المناطق التي عانت، عبر العصور الإسلامية، قصوراً في تدوين تاريخها وتراثها، إنما كان ذلك لعدة أسباب منها :

١. بعدها عن مواطن الحضارات الإسلامية في كل من الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب وغيرها، فبعد خروج مقر الخلافة الإسلامية من شبه الجزيرة في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) شابها فقر في تدوين تراثها وحضارتها.
٢. إن صعوبة التضاريس في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية، مثل : بعض النواحي في جازان ونجران وعسير وما حولها، مما جعلها في معزل عن بقية بلدان العالم، كذلك وجعلها منسية في أغلب كتب التراث الإسلامي خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة[١] .

أما وضع جنوب البلاد السعودية في العصر الحديث والمعاصر فإنه أحسن حالاً من العهود الإسلامية السابقة، حيث بدأ الاهتمام بها من الناحية العلمية والفكرية، فظهر خلال القرنين الماضيين عدد من المؤرخين بدأوا الكتابة عنها وإبراز أهميتها السياسية والحضارية [٢]، ولم يقتصر هذا الاهتمام على المراجع والمصادر العربية فحسب، بل ظهر بعض الأوربيين الذين أدرجوها ضمن بعض مؤلفاتهم [٣]، ثم وفد بعض الرحالة الأوربيين إليها، فدونوا عنها كتباً لخصوا فيها رحلاتهم وتجاربهم ومشاهداتهم في تلك الربوع، كما سجلوا وجهات نظرهم عن تاريخ وآداب وحضارة هذه البلاد . وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الرحالة الأوربيين جاءوا إلى منطقتنا المعنية بالدراسة لأهداف معينة، لكنهم بدون شك

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن تضاريس جنوب البلاد السعودية انظر : عبد الرحمن صادق الشريف . جغرافية المملكة العربية السعودية . إقليم غرب جنوب المملكة . (الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م) ، جـ ٢ ، ص ٣٣ وبعدها .

(٢) حافظ وهبة . جزيرة العرب في القرن العشرين ، ط٥ (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ م) ، ص ٣٣ ، فؤاد حمزة . في بلاد عسير ، ط٢ (الرياض : مكتبة النصر ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) ص ١٤٥ ، ٢٦٣ – ٢٦٩ ، علي أحمد عسيري . عسير من (١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م – ١٢٨٩ هـ ١٨٧٢ م) (دراسة تاريخية) (أبها : مطبوعات نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م) ص ٢٣ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . صفحات من تاريخ عسير (الرياض : مطابع العبيكان ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) ، الجزءان الأول والثاني في مجلد واحد ، ص ١٧ وما بعدها .

(٣) جاكلين بيرين . اكتشاف جزيرة العرب (خمسة قرون من المغامرة والعلم) . ترجمة قدري قلعجي (بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت) ص ٢٥١ – ٢٧٣ .

جمعوا لنا مادة علمية قيمة صورت لنا مظاهر الحياة السياسية والحضارية في عموم جنوب السعودية، ثم إن مدوناتهم التي وصلتنا تعد حقيقة من المراجع الجيدة التي دونت تاريخ هذه البلاد في فترة لم يكن قد دون عنها الشيئ الكثير[١].

ولقد قصرت دراستي في هذه الورقة على كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية لهاري سانت جون فيلبي، وذلك لعدة اهداف منها :-

١. صلتنا القديمة بقراءة الكتاب في نسخته الأصلية (باللغة الإنجليزية) ثم الحديث عنه بشكل مختصر في ورقة قدمت : لندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة الممتدة من (٨ – ١٠ / شعبان ١٤٢٠ هـ – الموافق ١٦ – ١٨ نوفمبر / ١٩٩٩ م) تحت عنوان : ((إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين))[٢]. ثم وصول دعوة إلينا من أستاذنا الكريم الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس اتحاد المؤرخين العرب خلال عام (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) يخبرنا فيها بأن ندوة هذا العام التي يقيمها الاتحاد سوف تكون تحت عنوان : العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة، لهذا قررت الرجوع إلى هذا الكتاب بشكل عام، لأنه لم يقتصر على إقليم عسير فقط، وإنما شمل معظم الأجزاء الجنوبية من المملكة العربية السعودية، والممتدة من السليل شرقاً إلى الطائف، ثم إلى عسير وجازان ونجران جنوباً بالإضافة إلى المنطقة الساحلية الممتدة من جازان إلى مكة المكرمة[٣].

٢. رجوعنا هذه المرة إلى هذا الكتاب في نسخته العربية وليس في نسخته الأصلية، كما حدث معنا من قبل، لأن مكتبة العبيكان مشكورة قد قامت منذ زمن

(١) المرجع نفسه . وللمزيد انظر كتابات فيلبي المختلفة (غير هذا الكتاب الذي بين يدينا) ، والذي تعرض في أجزاء منها إلى نواح عديدة من جنوب شبه الجزيرة العربية مثل : مناطق جازان ، وتجران ، وعسير ، وأجزاء أخرى في بلاد اليمن الحديثة . وللمزيد انظر أيضاً . محمد محمود الصياد " الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر ". دراسات تاريخ الجزيرة العربية . الكتاب الأول . مصادر تاريخ الجزيرة العربية . (الرياض : مطابع جامعة الملك سعود – الرياض سابقاً ،١٣٩٧ هـ/١٩٧٩م) جـ٢ ، ص ٤٣٧ – ٤٤٤ ، عبد الشافي غنيم عبد القادر . " الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين " دراسات تاريخ الجزيرة العربية . الكتاب الأول . مصادر تاريخ الجزيرة العربية (الرياض : مطابع جامعة الملك سعود – الرياض سابقا، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٩ م) جـ ٢ ، ص ٤٢١ – ٤٣٦ .

(٢) هذا البحث ناقش ثلاثة رحالة قدموا إلى منطقة عسير في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) ، وهم : موريس تاميزيه الفرنسي ، والسيركيناهان كورنواليس ، وهاري سانت جون فيلبي ، ونشر ضمن بحوث الندوة في كتاب : العرب وأوربا عبر عصور التاريخ (بحوث ودراسات) . (القاهرة : منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م) ص ٤٠٩ – ٤٥٩ .

(٣) انظر كتاب فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية ، في طبعته العربية ، في مجلدين كبيرين (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م) .

بالعكوف على ترجمة بعض مؤلفات فيلبي[١]، وهذا الكتاب الذي نحن بصددة في هذا البحث يعد من أفضل كتب ودراسات فيلبي عن شبه الجزيرة العربية، وقد قام بترجمته على نفقة آل العبيكان الدكتور / حسن مصطفى حسن، ثم أوكل إلينا مراجعة الكتاب وتدقيق معلوماته وكتابة تقديم له، لهذا اضطررت العيش مع مادة الكتاب قرابة سنة كاملة راجعت النص الأصلي مع النصوص المترجمة، ثم ذهبت إلى جميع المناطق التي زارها فيلبي فاتضح لنا الكثير من الأخطاء العلمية واللغوية عند كل من صاحب الكتاب فيلبي، وكذلك في النسخة المترجمة، وقد عملنا ما بوسعنا من إصلاحات وتصويبات في معظم متون الكتاب وحواشيه، مع ذكر العديد من المصادر والمراجع التي رجعنا إليها أثناء مراجعة هذا السفر الكبير الذي يقع في مجلدين، وفي حوالي (١٥٠٠) صفحة [٢].

٣. الدعم غير المحدود الذي وجده فيلبي من الملك عبد العزيز، وقد لمسنا ذلك في هذا الكتاب، وفي كتب أخرى عديدة، فكان الملك عبد العزيز يعمل جاهداً على تسهيل جميع مهماته المادية والأمنية والاجتماعية بل يحث رجال حكومته في جميع المناطق التي زارها، على توفير جميع مطالبه، ودعمه بكل ما يستطيعون [٣].

٤. معظم دراسات فيلبي قائمة على الرحلات والتجوال في نواحي الجزيرة العربية، وهذا بدون شك أمر صعب جداً، لما يقابل من عقبات جغرافية، وسياسية، وأمنية واقتصادية، واجتماعية، ولكن هذا الرحالة تجاوزها

---

(١) قامت مكتبة العبيكان مشكورة بجهود عديدة في ترجمة العديد من مؤلفات المؤرخين والأدباء والنقاد الأجانب الذين تعرضوا في مصنفاتهم إلى الجزيرة العربية، وبخاصة المملكة العربية السعودية، ومنهم هاري سانت جون فيلبي الذي ألف هذا الكتاب، وكتب أخرى تم ترجمتها ومنها : العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء (الرياض : مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، و بنات سبأ : رحلة في جنوب الجزيرة العربية، (الرياض : مكتبة العبيكان / ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م)، وغيرها.

(٢) انظر الطبعة العربية من كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية، جزءان.

(٣) للمزيد عن رحلات فيلبي في الجزيرة العربية، وعلاقته بالملك عبد العزيز انظر : معلومات كثيرة في هذا الكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية، بالإضافة إلى حمد الجاسر. "رحلات في البلاد العربية" مجلة العرب عام (١٤٠٩ – ١٤١٠ هـ) مج (٢٤)، ص ١٠٥ – ١٠٨، عبد الله بن عبد الرحمن آل عبد الجبار. "دراسة تحليلية لكتاب (مرتفعات جزيرة العرب) لجون فيلبي" بحث مقدم في ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، المنعقد في الرياض بدارة الملك عبد العزيز (٢٤ – ٢٧ / رجب ١٤٢١ هـ /٢١ – ٢٤ / أكتوبر/ ٢٠٠٠ م) ص ١ – ٣٥، غيثان بن علي بن جريس، "بلاد عسير في كتابات فيلبي وفيليب ليبنز". قدمت هذه الدراسة في اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي في رحاب جامعة السلطان قابوس بعمان خلال شهر المحرم (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م)، وقد نشرت هذه الدراسة ضمن مداولات اللقاء السنوي للجمعية رقم (٣) (١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م) ص ٥٢٣ – ٥٩٤. كما أعيد نشره في كتابنا الموسوم : بـ : صفحات من تاريخ عسير، الجزءان ١+٢، ص ٢٧٥ – ٣٤٨.

بسبب حماية الملك عبد العزيز له ودعمه الكبير[١]، ثم صبره وعزيمته، وكذلك سعة معارفه وثقافته وإتقانه اللغة العربية، بالإضافة إلى دبلوماسيته سواء مع الملك عبد العزيز ورجال دولته، أو مع عامة الناس، كل هذه الأمور مجتمعة جعلته ينجح في معظم رحلاته، وبالتالي ترك لنا كنزاً معرفياً كبيراً أمثال هذا الكتاب الضخم الذي هو عنوان ورقتنا هذه .

ثانياً : التعريف بهاري سانت جون فيلبي (H.St.J.B. Philby) .

صاحب كتاب :مرتفعات الجزيرة العربية، هو هاري سانت جون فيلبي (H.St.J.B. Philby) الإنجليزي الجنسية ويدعى اختصاراً جاك أو (عبد الله فيلبي) والمولود في عام (١٨٨٥م) والمتوفى عام (١٩٦٠م)، فهو من معاصري أحداث القرنين (الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، والتاسع عشر والعشرين الميلاديين) . انخرط بداية حياته في وظائف عدة بالحكومة البريطانية، ثم قدم إلى شبه الجزيرة العربية في اليوم السابع عشر من تشرين الأول سنة (١٩١٧م)، حيث ذهب من البصرة إلى الأحساء ومنها اتجه إلى الرياض، حيث اجتمع لأول مرة بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وقد فصَّل ذلك في كتابه : أيام بلاد العرب .Arabian Days ، الذي قام بتلخيصه الأستاذ/ خيري حماد في كتابه عبدا لله فيلبي قطعة من تاريخ العرب الحديث، ونشره في بيروت عام (١٣٨١هـ /١٩٦١م) [٢].

ويختلف فيلبي عن جميع الرحَّالة الذين قدموا إلى الجزيرة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر؛ وذلك لغزارة مؤلفاته عن شبه الجزيرة العربية، بل نستطيع القول بأنه امتاز بالريادة في الكتابة التاريخية عن المملكة العربية السعودية بخاصة والجزيرة العربية بعامة، وقد ذكر عنه الشيخ حمد الجاسر قوله :

((الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن فيلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصَّر عن مدها إليها من سواه))[٣]. أيضاً ذكر جورج رنتز George Rentz)

---

(١) عاش فيلبي في الجزيرة العربية حوالي (٤٠) عاماً ، جميعها كانت تحت رعاية وحماية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

(٢) غيثان بن علي بن جريس . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة : دار العويفي للطباعة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م) ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٣) حمد الجاسر " فيلبي ... " ص ١٠٥-١٠٨ .

(في حديثه عن فيلبي ((أنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد)) [١] ويقصد بالبلاد، المملكة العربية السعودية، منوهاً في ذلك إلى أن السبب في تلك الغزارة يرجع إلى حصول فيلبي على مؤهلات الكتابة التاريخية عن هذه البلاد، ومن أهمها معرفته التامة بجميع نواحيها، فقد عاش في شبه الجزيرة العربية متنقلاً بين ربوعها أكثر من أربعين عاماً، أي منذ أن وطئت قدماه أراضيها لأول مرة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) إلى وفاته عام (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)[٢].

وإذا كان (عبد الله فيلبي) قد بدأ حياته العملية في خدمة الإمبراطورية البريطانية ككثير من أبناء جلدته، فإنه بعد أن جاء إلى شبه الجزيرة العربية، والتقى بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ثم دان بالإسلام صار عندئذ حميم العلاقة مع الملك عبد العزيز، وبالتالي أصبح من المقربين لدى الملك حتى إنه أرسله في عدد من المهام الخاصة بالدولة داخل البلاد وخارجها، وذكر فيلبي كثيراً من تلك المهام في مذكراته وكتبه ومقالاته الكثير [٣].

وقد ترك لنا المؤرخ والرحالة فيلبي عدداً من المؤلفات والمقالات المتنوعة في عناوينها وأطروحاتها، وجميعها دُوِّنت باللغة الرئيسة التي يتكلمها فيلبي، وهي اللغة الإنجليزية، وبعضها قد ترجم إلى اللغة العربية [٤]، ومن تلك المؤلفات. (حسب الطبعات التي وقفت عليها) .

١. كتاب : قلب الجزيرة العربية . طبع في نيويورك سنة (١٩٢٣م)
٢. كتاب : تاريخ الحجاز المعاصر . طبع في لندن سنة (١٩٢٥م).
٣. كتاب : العربية الوهابية . طبع في لندن سنة (١٩٢٨م) .
٤. كتاب : الجزيرة العربية . وقد نشرته دار(ارنست لتد) في سنة (١٩٣٠م) .

---

(١) انظر : جورج رنتز "فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية" ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي . بمجلة الدرعية (السنة الأولى، عدد (٢) ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م) ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦١-٦٤ .

(٣) المرجع نفسه . انظر أيضاً تفصيلات أكثر عن فيلبي في كتاب اليزبيث مونرو (Elezabeth Monroe) في كتابها الموسوم بـ . فيلبي العرب (Phily Arabia) ، والذي طبع في عام (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) ، ص ٣٠٧ – ٣١٣ . ومونرو نشرت في كتابها أوسع دراسة علمية شاملة عن فيلبي ، وقد قابلته لأول مرة عام (١٩٣٨م) ، وفي سبيل الكتابة عنه سافرت إلى كل بلد عمل فيه مثل : الباكستان ، والعراق ، والأردن ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ، وجزيرة العرب مستخدمة ما تضمنته أرشيفاتها من معلومات عنه .

(٤) البعض من كتب أو أبحاث فيلبي قد ترجمت في أماكن عديدة من العالم ، ولكن مكتبة العبيكان تعد أكبر من قام بترجمة ونشر كتب هذا الرحالة ، وبخاصة ما يدور في فلك تاريخ وحضارة وتراث المملكة العربية السعودية .

٥. كتاب : الربع الخالي . طبع في لندن سنة (١٩٣٣م).
٦. كتاب : النقوش في نجران . طبع في لندن سنة (١٩٤٤م).
٧. كتاب : ثلاثة نقوش في حضرموت . طبع في لندن سنة (١٩٤٥م)
٨. كتاب : أيام عربية . طبع في لندن سنة (١٩٤٨م).
٩. كتاب : الذكرى العربية . طبع في واشنطن سنة (١٩٥٢م).
١٠. كتاب : العربية السعودية . طبع في لندن سنة (١٩٥٥م).
١١. كتاب : أرض مدين . طبع في واشنطن سنة (١٩٥٥م).
١٢. كتاب : أربعون عاماً في القفر . طبع في واشنطن سنة (١٩٥٧م).
١٣. كتاب : صفقات الزيت العربي . طبع في واشنطن سنة (١٩٦٤م)
١٤. كتاب : بنات سبأ . طبع في لندن سنة (١٩٨١م).
١٥. كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية . طبع في نيويورك سنة (١٩٧٦م)[(١)].

وهناك كتب ومقالات أخرى عديدة لم نشر إليها ، والغالب على معظم الدراسات التي دونها فيلبي تميزها بوفرة المعلومات الجديدة في محتوياتها وطريقة تدوينها ، كما أن المشاهدة وتنوع الخبرة عند هذا الرحَّالة جعلته يصبغ كتبه وأبحاثه بصبغة يسودها العمق في التحليل والتدوين . حتى إننا نجده أحياناً يخوض في جزئيات وتفاصيل دقيقة لا تتأتَّى إلاَّ لمن كان كثير الرحلة والتجوال، وكان شاهد عيان لتلك التفاصيل، وعلى الرغم من أن جميع أبحاثه وموضوعاته تدور حول الجزيرة العربية، فإنها تميزت – كما سبق القول – بالتنوع [(٢)]، ولذا سوف نقتصر في هذه الدراسة على عرض المؤلف الخامس عشر من مؤلفاته، الآنفة الذكر، والموسوم بـ: مرتفعات الجزيرة العربية " (Arabian Highlands) .

---

(١) انظر : ابن جريس ، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر ، ١٢٦ – ١٢٨ ، جورج رنتز " فيلبي مؤرخاً للمملكة ... " ص ٦١ وما بعدها .

(٢) يذكر عن صفات فيلبي (Philby) أنه كان يطمع منذ ريعان شبابه في العظمة والشهرة ، وكان ذا مواهب متعددة ، وقدرة عجيبة في مجالات عدة كالإدارة والسياسة ، والتاريخ ، والرحلات ، والآثار ، وعلوم الطبيعة ، والاقتصاد والمال ، وكان يتقن كثيراً من اللغات القديمة والحديثة . للمزيد عن حياته وأعماله ، أنظر : كتاب فيلبي العرب (Philby Arabia) ، للأستاذة مونرو (الطبعة الإنجليزية) ، ص ٣٠٥ وما بعدها ، كما انظر أيضاً : ج . د . نورتون . " فيلبي رجل الجزيرة العربية " مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . (الكويت ، ١٣٩٥ هـ) عدد (٣) ، جمادى الثانية ، ص ١٥١ – ١٥٩ .

ثالثاً : التعريف بكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية، وأقسامه .

عنوان الكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية (Arabian Highlands) لمؤلفه سانت جون بريجر فيلبي أو " عبد الله فيلبي " كما عُرف بالمنطقة العربية، وقد طبع الكتاب باللغة الإنجليزية بمطبعة جامعة كورنل أثاكا في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦م . ويقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، وقامت على نشره جمعية الشرق الأوسط في واشنطن، دي٠سي, Washington) D.C)[١]. وقد اعتمدنا على الطبعة العربية المترجمه من قبل مكتبة العبيكان عام ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م) والتي تأتي في مجلدين كبيرين[٢] .

ونجد في بداية الطبعة الإنجليزية مقدمتين إحداهما مؤرخة بعام (١٩٤٤م) ، والثانية ترجع إلى عام (١٩٥١م)[٣]، أما المقدمة الأولى فيبدو أن فيلبي قد دونها أثناء انتهائه من جمع ثم تدوين معلومات هذا الكتاب، وقد أشار فيها إلى فضل جمعية الشرق الأوسط سالفة الذكر لقيامها بالدعم العلمي له، وتكفلها بنفقات نشر كتابه هذا . كما نلاحظ أنه نوه في ذات المقدمة إلى أهمية كتابه وكونه من أفضل الكتب الأجنبية التي صُنِّفت عن النصف الجنوبي الغربي من البلاد السعودية، ونحن نوافقه القول لما احتوى عليه هذا المصنف من معلومات متنوعة وقيمة يندر وجودها في مرجع آخر تناول هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال الفترة الزمنية نفسها وهي العقد الرابع من القرن الميلادي الماضي[٤].

أما المقدمة الثانية والمؤرخة بعام (١٩٥١م) ، فليست سوى تكملة للمقدمة السابقة، وقد أشار فيها إلى مرور سبع سنوات على كتابة مقدمة الكتاب الأولى وتوضح أنه خلال تلك السنوات بدأت أوضاع البلاد السعودية في التحسن والنمو، وأنه يتنبأ بمستقبل مشرق لهذه البلاد، كما ينوه إلى تطور العلاقات السياسية والحضارية بين الحكومتين السعودية والأمريكية، ويوضح تركيز الأمريكيين في

---

(١) ابن جريس ، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر ، ص ١٣٨ ، وللمؤلف نفسه أنظر " إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين " منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م) ص ٤١٠ وما بعدها .

(٢) انظر الطبعة العربية / مطبوعات مكتبة العبيكان (الرياض : ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)

(٣) في النسخة العربية المترجمة ، وضعت كلمة (مقدمة) على ما تم تدوينه في الأصل بلندن بتاريخ (٦/ مايو/١٩٤٤م) . وكلمة " تصدير " على المكتوب في الأصل أيضاً بمكة المكرمة ، بتاريخ ١٦/سبتمبر/١٩٥١م) .

(٤) وقد استغرقت هذه الرحلة حوالي عشرة شهور من (٢٢/أبريل/١٩٣٦م إلى ١٨/فبراير/١٩٣٧م) .

دراساتهم وبحوثهم الأكاديمية على شبه الجزيرة العربية [١] .

وهذا الكتاب الضخم، موضوع الدراسة، عبارة عن رحلة قام بها عبد الله فيلبي من بلدة السليل في أسفل وادي الدواسر، وذلك بعد الانتهاء من رحلته في الربع الخالي، والتي فصَّلها في كتابه : الربع الخالي(The Empty Quarter) الذي صدر في لندن عام (١٩٣٣م)[٢].

وانطلاقة فيلبي في هذه الرحلة من بلدة السليل نحو بيشة والطائف ومكة المكرمة، وقد أشار إلى ذلك في الباب الأول من كتابه الذي قسمه إلى ستة أبواب تحتوي على ثلاثة وثلاثين فصلاً خصص لكل باب منطقة جغرافية، ولكل فصل بلدة أو ناحية من جنوبي المملكة العربية السعودية [٣] ، كما سوف نذكر في الصفحات التالية، بالإضافة إلى عدد من الصور والرسوم والخرائط القيمة، وكذلك عدة ملاحق وفهارس بأسماء الأعلام والأماكن والقبائل[٤] ، كما يأتي في الصفحات الأولى من الجزء الأول . "كلمة الناشر" للطبعة العربية (مكتبة العبيكان) وضح فيها بعض الأسباب التي جعلته يسعى إلى ترجمة هذا الكتاب وغيره من كتب فيلبي الرائدة في موضوعاتها وتفصيلاتها [٥] . كما تلي هذه الكلمة سبع صفحات أخرى من تدوين المدقق والمراجع لهذا الكتاب، أوضح فيها أهمية هذا الكتاب لما احتوى عليه من معلومات دقيقة ورئيسة في جوانب تاريخية وحضارية عديدة [٦] .

رابعا : دراسة وصفية للكتاب :

يحتوي الباب الأول : على ثلاثة فصول ناقشت ذهاب فيلبي من أطراف الربع الخالي الشمالية الغربية إلى مكة المكرمة، وهذه الرحلة عبارة عن نهاية رحلته التي بدأها من الأحساء وانتهاء منها في مكة المكرمة بالحجاز[٧]. ذكر في الفصل

---

(١) انظر ما ذكره فيلبي في المقدمة والتصدير الواردة في الصفحات الأول من الجزء الأول (الطبعة العربية) ، ص ١٧ – ٢٥ .

(٢) والفصل الأول من كتابنا هذا يأتي تحت عنوان : ما بعد الربع الخالي ، جـ١ ، ص ٢٩ .

(٣) انظر العناصر الرئيسية في فهرس محتويات الكتاب .

(٤) انظر فهارس الملاحق في نهاية الجزء الثاني للكتاب .

(٥) الكتاب في طبعته العربية ، تظهر عليه معلومات النشر كالتالي : هاري سانت جون فيلبي . مرتفعات الجزيرة العربية . ترجمة الدكتور/حسن مصطفى حسن . تقديم ومراجعة وتعليق الأستاذ الدكتور / غيثان بن علي بن جريس (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م) (جزءان) . (وهو ما سوف نعتمد عليه في توثيقنا خلال هذا البحث) .

(٦) انظر : فيلبي ، مرتفعات الجزيرة العربية ، جـ١ ، ص ٩ – ١٥ .

(٧) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٢٨ – ١٤٨ .

الأول: ما يلي الربع الخالي، ودون فيه ما شاهده في وادي السليل وبلاد الدواسر من قرى وهجر، بالإضافة إلى وجود الكثير من النباتات والحيوانات وبعض الطيور المختلفة[١].

أما الفصلان الثاني والثالث : فحصرهما على بيشة، ثم البلاد الممتدة من شمال بيشة حتى مكة المكرمة، ذكر فيها ما رأى من قرى ومواطن استيطان، كما أوضح أهمية بيشة التجارية، وعلاقاتها الاقتصادية مع ما جاورها من البلدان مثل اليمن، وعسير، والحجاز . ولم يغفل ذكر مصبات بعض الأودية الرئيسة في هذه المناطق، مثل أودية بيشة، ورنية، وتربة التي تأتي مصباتها من قمم جبال السروات الواقعة إلى الغرب من هذه البلاد المشار إليها في هذين الفصلين[٢].

الباب الثاني تحت عنوان : " الوادي الثلاثي "، ويشتمل على سبعة فصول، أولها بعنوان ((الملك في معسكره)) ويقصد بذلك الحديث عن مخيم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي رآه والتقى به في حج عام (١٩٣٦ م)، كما ذكر فيلبي بعض الترتيبات التي قام بها من أجل بداية رحلته في جنوب البلاد السعودية والتي بدأها في (٢٢/ أبريل /١٩٣٦م)، وهي موضوع بحثنا هذا، كما ذكر أن ذهابه في هذه الرحلة بناء على توجيه من الملك عبد العزيز كي يقوم بدراسة هذه المنطقة التي تعد حلقة الوصل بين اليمن والحجاز، كما كان عليه لأن يقف على مواقع الحدود التي رسمت بين حكومتي اليمن والسعودية في عام (١٩٣٤ م)[٣].

أما الفصول : الخامس، والسادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، فقد شملت الحديث عن المناطق الشرقية الرئيسة لبلاد السروات الممتدة من الطائف حتى الحدود الشمالية لبلاد نجران، وهي الخرمة، ورنية، وبيشة، وخميس مشيط، ومرتفعات عسير وقاعدتها مدينة أبها، وأخيراً وادي تثليث . تم تدوين هذه الفصول الستة في حوالي (٢٢٧) صفحة [٤]، ناقش فيها المؤلف كثيراً من التفصيلات الجغرافية : كالتضاريس، والمناخ، وأشار إلى كثير من النباتات والحيوانات المتواجدة في هذه المناطق، كما تعرض لشروحات عديدة عن الزراعة، والتجارة، مع ذكر السلع والعملات التي كانت تتداول في الأسواق الأسبوعية وبخاصة

---

(١) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٢٨-٧٢ .
(٢) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٧٣-١٤٨ .
(٣) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٥١ – ١٦٨ .
(٤) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٩ – ٣٩٦ .

في بيشة، وخميس مشيط، وأبها، كما نوه إلى بعض الأحداث العسكرية التي حدثت في منطقة عسير خلال الحكم العثماني وحكم آل عائض على هذه البلاد[١]. ولم ينس الإشارة إلى كثير من الحرف والمهن التي كان يمارسها السكان مع الإشارة إلى كثير من العادات والأعراف التي كان يقوم بها أهل هذه المنطقة، ومنها ما يتعلق بالطعام والشراب، واللباس، والزينة، والبناء والعمران، وكذلك الزواج والاحتفالات والفنون العلمية والفكرية والشعبية . كما تعرض لذكر أسماء وأوصاف بعض الأمراء والشيوخ والوجهاء في معظم بلاد عسير[٢]، ولم يغفل الحديث عن بعض الآثار والنقوش والرسومات التي شاهدها في نواحي عديدة بالبلاد الممتدة من بيشة إلى أبها وتثليث[٣].

الباب الثالث، بعنوان : بلاد يام[٤]. ويحتوي على ستة فصول وأرقامها في فصول الكتاب من (١١ – ١٦)، وقد اشتملت جميعها على تاريخ وحضارة نجران في القديم والحديث، ففي الفصل الأول من هذا الباب والحادي عشر من فصول الكتاب العامة، الذي أسماه : عتبة نجران ناقش فيه وادي حبونا من الناحيتين الجغرافية والبشرية، وأشار إلى وجود بعض الآثار الدينية القديمة في هذا الوادي[٥].

أما الفصول الخمسة الأخرى : فقد وضع لكل منها عنواناً مستقلاً هي : كعبة نجران، أولى الخطى إلى نجران، الأخدود، الحياة في نجران، الزيارة الثانية إلى نجران[٦]. وتحدث في هذه الفصول عن كثير من آثار نجران القديمة، وتعرض للتاريخ السياسي القديم لهذه البلاد، وبخاصة أثناء قيام ممالك الجنوب مثل : دولة معين، وسبأ، وحمير[٧]، كما اهتم بذكر تفصيلات عن قبائل يام وفروعها

(١) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٣٩٧.
(٥) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٣٩٩ – ٤١٠ .
(٦) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٤١١ – ٦١٢ .
(٧) ذكر فيلبي الكثير من التفصيلات عن تاريخ نجران خلال العصور التاريخية القديمة ، معتمداً في تدوين معلوماته على النقوش والآثار التي شاهدها في المنطقة ، بالإضافة إلى رجوعه إلى بعض المراجع والمصادر القديمة . ولكن في اعتقادنا أنه يجب أخذ ما أورده هذا الرحالة حول هذه الجزئية بنوع من الحيطة والحذر ، لأن هذه المنطقة لازالت تحتاج إلى تضافر جهود الآثاريين للوقوف على التاريخ الحقيقي لها في عصور ما قبل الإسلام . للمزيد انظر . فيلبي ، مرتفعات الجزيرة العربية ، جـ١، ص ٤٩٠ وما بعدها .

ومشـيخاتها الرئيسـة، ولم يغفـل الإشـارة إلى بعض النواحـي الاجتماعيـة عند النجرانيين كالأطعمة والأشـربة، وكذلك بعض العـادات والأعراف القبلية . وذكر أيضاً بعض المعلومات عن المكارمة الإسماعيلية في بلدة خشيوة بنجران [١] .

وفي الفصل الأخير من هذا الباب المدون تحت عنـوان : الزيارة الثانية إلى نجـران، وذلـك بعد خروجـه من نجران حـوالي (٨٠) يومـاً ذهب فيهـا إلى مأرب وحضـرموت وشـبوة في بـلاد اليمن، وأفـرد هذه الرحلـة في كتاب آخر سـماه : بنات سـبأ[٢]، ثم عاد إلى نجران مرة ثانية وتحدث عن بعض النواحي التجارية في أسـواق نجران، وأورد في نهاية هذا الفصل ثلاث صفحات تحت اسم ((قرى نجران)) ذكر فيها عدداً من القرى والبيوت والمزارع التي كانت تابعة للفروع الرئيسة في قبيلة يام[٣] .

الباب الرابع الموسوم بـ : الهضـبة المرتفعة ، ويشـتمل على سـبعة فصـول، وتحتل الأرقام (١٧ – ٢٣) من فصـول الكتاب الرئيسـة، وعناوينها على النحو التـالي : الطريـق إلى حبونا ، وادي حبونا ، وطن السـفاحين، وتثليث الأعلى، المنابع العليا لحبونا ، تخوم الهضبة، عودة إلى شراقب[٤] .

عمل في تدوين هذه الفصول على نفس المنهج الذي سلكه في الفصول السابقة، معتمداً على المشـاهدة والمقابلات مع أعيان وبعض سـكان هـذه المناطق، ولم يغفل الحديث عن بعض الأحداث السياسـية والعسـكرية التـي وقعت في بلاد نجران مع بعض القوى اليمنية خلال العقد الرابع من القرن الميلادي الماضي [٥] .

الباب الخامس بعنوان : مرتفعات تهامة ويحتوي على خمسـة فصـول (٢٤ – ٢٨) من الفصـول الرئيسـة للكتاب، وهـي : وادي بيش، منطقة صـبيا ، جازان، مرتفعـات تهامـة، حدود المرتفعـات[٦] . وفي هذه النواحي كان فيلبـي قد انتقل من مرتفعات السـروات إلى سـهول وبعض جبال وهضـاب تهامة، وشـاهد الاختلاف بـين الأجـزاء التهامية والسـروية مـن حيث التضـاريس، والمنـاخ، وطبيعة الحياة

(١) المرجع نفسه ، جـ ١ ، ص ٥٣٣ .
(٢) انظر الكتاب في نسخته العربية (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) .
(٣) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة العربية ، جـ١ ، ص ٦٠٩ – ٦١٢ .
(٤) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦١٩ وما بعدها .
(٥) المرجع نفسه.
(٦) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٩٩ وما بعدها .

الاجتماعية والاقتصادية والفكرية . وهذا التباين يعود في الأساس إلى أوضاع واختلاف النواحي الجغرافية الطبيعية في المنطقتين[(١)] .

الباب السادس (والأخير) الذي يأتي في خمسة فصول (٢٩ – ٣٣) من فصول الكتاب والموسوم بـ : منخفضات تهامة ذكر فيه هذا الرحالة الكثير من المعلومات الخاصة بالمنطقة الممتدة على حدود اليمن والسعودية في النواحي التهامية، ثم عاد أدراجه من جازان إلى مكة المكرمة في الحجاز[(٢)] . وأشار إلى تفصيلات قيمة عن الطريق الساحلي الذي يربط بين مكة المكرمة وجازان، مع التوقف عند بعض المراكز الحضارية على هذا الطريق مثل : صبيا، وبيش، والدرب، والقحمة، والبرك، وحلي، والليث، والقنفذة[(٣)] . ومن بلدة الليث اتجه إلى مكة المكرمة ودخلها في (١٩٣٧/٢/١٨ م)[(٤)] .

خامسا : دراسة تحليلية للكتاب :

إن الموجز الوصفي الذي أوردناه عن هذا الكتاب الضخم يُعَرِّف القارئ الكريم على الإطار العام لمسيرة الرحلة التي بدأت فعلاً من مكة المكرمة، وانتهت في مكة، بعد حوالي عشرة شهور [(٥)] ، قضاها هذا الرحالة بين سكان نواحي عديدة من جنوب المملكة العربية السعودية . وفي الصفحات التالية نتوقف مع بعض المعلومات والروايات التاريخية التي حفظها لنا فيلبي، وقد نجد صعوبة في العثور عليها في مصادر ومراجع أخرى، وإن ذكرها غير فيلبي فإنها تكاد تكون مضطربة، أو ناقصة، وغير دقيقة . ويجب القول بأن هذا الكتاب جدير لأن يكون موضوع رسالة ماجستير أو دكتوراه، لما احتواه من معلومات وتفصيلات كثيرة تحتاج إلى التحليل والنقد والمقارنة، مع مصادر ومراجع معاصرة، أو متأخرة [(٦)] .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢١٦ – ١٣٢٣ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢٦٤ – ١٣٢٠ .

(٥) من الثلث الأخير من شهر أبريل عام (١٩٣٦ م) إلى (١٨/فبراير/١٩٣٧م).

(٦) إن من يقوم بدراسة هذا الكتاب ومقارنة معلوماته مع الوثائق غير المنشورة ، والرواية الشفهية ، وبعض الكتب التي خرجت عن جنوبي البلاد السعودية حتى الآن ، ثم الذهاب إلى المناطق التي زارها فيلبي ودراسة هذه الرحلة ميدانياً ، مركزاً على أساليب النقد والتحليل ، فإنه سوف يخرج لنا دراسة قيمة تفيد المكتبة العربية والإسلامية .

وسوف نتحدث عن عناصر عديدة شملها الكتاب وهي على النحو التالي :

١- الأحوال الجغرافية :

اتصف فيلبي بخبرة واسعة في علم الرحلات، فتراه دقيق الملاحظة عندما يدخل إلى منطقة جديدة فيذكر السمات العامة لتضاريسها ومناخها، وأشجارها ونباتها، وحيواناتها وطيورها وحشراتها، بل كان مولعاً بالخروج إلى الطبيعة وصيد الطيور والحشرات[١]، والتعرف على الأسماء المحلية لبعض الأشجار والنباتات. ويذكر أحياناً المناخ الذي امتازت به بعض المناطق ويقارن الأحوال المناخية في كل من الجبال والسهول وأثناء الليل والنهار، ويشير إلى بعض المعالم الجغرافية المهمة في كل منطقة مثل : الجبال والأودية والهضاب الكبيرة والهامة، ويدون تفاصيل دقيقة عن الطرق والمسالك والجداول المائية التي تتخلل بعض المدن والقرى والأرياف. كما نوه إلى سكان المناطق التي زارها وكيف كانوا يتكيفون في مساكنهم وملابسهم وطعامهم وشرابهم مع ظروف المناخ، واختلاف التضاريس، فالذين يعيشون في السهول التهامية الحارة يلبسون الملابس الخفيفة، بعكس الذين كانوا في المناطق الباردة في فصل الشتاء مثل : أبها، وتثليث، ونجران، فتجدهم يحرصون على لبس الملابس الثقيلة لمحاربة البرد الذي يحل عليهم عدة شهور من السنة[٢].

٢- الأوضاع السياسية والتاريخية :

إن القارئ لكتاب فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية، يجده يتحدث عن التاريخ القديم من خلال الحضارات التي ظهرت في اليمن في عهد دول : معين، وسبأ، وحمير، فذكر أقيالها وملوكها، وبعض أعمالهم، مع أن معلوماته في هذا الجانب يشوبها الكثير من الشكوك والخلط حول عصور وأسماء أولئك الملوك، ومن يطالع في هذه الجزئية يجب عليه أن يكون حذراً فيما دونه هذا الرحالة[٣]، كما أنه في معظم جولاته في أنحاء جنوبي السعودية يحرص على الوقوف على الآثار والنقوش

---

(١) يظهر اهتمام فيلبي بالحشرات والطيور واضحاً ، فكان إذا نزل في مكان وبقي فيه لبعض الوقت يخرج إلى بعض الأودية والجبال لصيد بعض الطيور والحشرات ، ثم تحنيطها وارسالها إلى المتاحف البريطانية .

(٢) للمزيد عن أوضاع التضاريس والمناخ في جنوبي السعودية ، ثم نوعية الملابس التي يرتديها سكان تهامة والجبال خلال فصول السنة ، أنظر : الشريف ، جغرافية المملكة ، جـ٢ ، ص ٣٣ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . عسير دراسة تاريخية حضارية (١١٠٠ – ١٤٠٠ هـ / ١٦٨٨ – ١٩٨٠ م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م) ص ٦٥ – ٧٤ .

(٣) انظر فيلبي ، مرتفعات الجزيرة العربية ، جـ١ ، ص ٤٩٠ وما بعدها .

والرسوم المتناثرة في أجزاء عديدة من تلك البلاد فيدرسها ويحللها، وأحياناً يرسل بعض الآثار إلى المتحف البريطاني، كما نشر بعض الدراسات عن تلك الآثار والنقوش وبخاصة ما وجده في بلاد نجران وعسير[1].

وهذا الكتاب يعد من المصادر المهمة عن أوضاع جنوب السعودية في فترة حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وبخاصة خلال العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجري (الرابع من العشرين الميلادي)، فيما يتعلق بالسيطرة الكاملة لابن سعود على مناطق عسير، وجازان، ونجران مع الإشارة إلى الأمراء المعينين على تلك البلاد، وكيفية اتصالاتهم وعلاقاتهم بالملك عبد العزيز وأبنائه (سعود وفيصل)[2] كما وقف على معظم الحدود السعودية اليمنية الممتدة من الساحل غرباً إلى حدود الربع الخالي شرقاً فذكر مواقعها، وتحديدها على الخرائط، وأشار إلى القبائل التي تعيش حولها من الجانبين (السعودي واليمني)، مع توضيح مواقف الدولتين من تلك الحدود والسكان القاطنين حولها . وأشار أيضاً إلى تركيبة القبائل السياسية، وبخاصة البدوية منها المعتمدة على التنقل والترحال، وكيفية الأعراف والعادات السائدة بينها، والتي كانت الضابط الإداري والسياسي الذي يضبط طريقة التعامل فيما بين أفرادها، مع ذكر أن حكومة الملك عبد العزيز كانت تسعى جادة إلى أن يكون جميع سكان البلاد يحتكمون إلى ضوابط مالية وإدارية ونظامية قائمة على منهج الشريعة الإسلامية[3].

---

(١) من يطالع سيرة فيلبي العلمية يجده نشر عدد كبير من الكتب بالإضافة إلى الأبحاث المتنوعة التي نشرها في المجلة الجغرافية البريطانية، وغيرها من المجلات العلمية في الجامعات والمراكز العلمية في بريطانيا وفرنسا وأمريكا . ومعظم تلك الدراسات تدور في محيط الجزيرة العربية وما جاورها من البحار والبلدان.

(٢) عنصر الشخصيات من الجوانب الهامة التي برزت في كتاب فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية ، فلم يكن حديثه دائماً محصوراً على الملك عبد العزيز وأولاده ، وإنما كان يذكر أسماء وصفات الأمراء ، والقضاة ، ورجال الدولة الذين يقابلهم في كل مدينة أو قرية ، بل كان أحياناً يتطرق إلى وصف أحوال المجتمعات وإلى نوعية وصفات بعض الأفراد من عامة الناس في الأسواق ، أو الطرق ، أو المزارع ، أو مواطن الرعي والصيد وغيرها من الأماكن العامة .

(٣) إن الأعراف والتقاليد القبلية كانت هي المهيمنة على تسيير أحوال الناس ، ولكن بعد قيام الدولة السعودية الحديثة ، بدأت المؤسسات الإدارية والنظامية تحل محل الأعراف في حل مشاكل الناس وضبط شؤونهم . أنظر ، ابن جريس عسير (١١٠٠ — ١٤٠٠ هـ) ، ص ٩٠ وما بعدها . وللمؤلف نفسه . عسير في عصر الملك عبد العزيز (دراسة تاريخية للحياة الإدارية والإقتصادية) . (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) ، ص ١٩ — ١٠٢ .

لم ينس هذا الرحالة توضيح الأحداث التاريخية السياسية التي مرت على المنطقة الجنوبية، فذكر إمارة آل عائض ونفوذها في منطقة عسير[١]، ونوه إلى سيطرت الحكم العثماني والإدريسي على بعض أجزاء المنطقة[٢]، كما تعرض للحديث عن معارك ابن سعود والأشراف في تربة عام (١٣٣٧ هـ / ١٩١٩م)، مع الإشارة إلى موقعها وما خلفت من آثار عمرانية وبشرية حتى أنه شاهد الكثير من الجماجم والعظام المتناثرة في أرض المعركة التي وقعت قبل عدة سنوات من رحلته هذه[٣]. وذكر أيضاً بعض الأحداث والحروب التي وقعت بين السعودية واليمن بخصوص الحدود عام (١٩٣٤ م)، وتحدث عن حملة الأمير سعود بن عبد العزيز على الجيوش اليمنية، وذكر بعض الآثار والطرق التي سلكتها تلك الحملة وما قابلها من مشكلات وصعوبات[٤].

٣- النواحي الاجتماعية :

أ - طبقات المجتمع :

يغلب الطابع القبلي على البلاد التي زارها فيلبي، فيذكر دائماً القبائل الرئيسة التي تسكن الحواضر والبوادي في جنوب السعودية ومن تلك القبائل السروية والتهامية، البقوم والسبعان في بلاد رنية والخرمة، وشهران، وقحطان، وقبائل عسير الرئيسة حول مدينة أبها مثل : بني مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك . كما تحدث عن قبيلة يام وفروعها وشيوخها وأفخاذها الرئيسة في بلاد نجران[٥]، وأشار إلى العديد من القبائل في بلدة ظهران الجنوب بمنطقة عسير، وفي بلاد فيفا، وجازان مثل : وادعة، وآل تليد، والعبادل، وبني حريص، والعليليين، وبني مران وغيرهم[٦]. وذكر بعض بيوت الأشراف الموجودة في نجران ومنطقة

---

(١) انظر ، فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ١ ، ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ، للمزيد عن الصراعات السياسية في عسير خلال الحكم العثماني ، انظر : ابن جريس ، صفحات من تاريخ عسير جـ١ ، ص ٩١ – ١٢٠ . جـ٢ ، ص ٢٣٥ – ٢٧٤ ، محمد أحمد العقيلي . تاريخ المخلاف السليماني (الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م) جـ٢ ، ص ١٠٣٥ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ، جـ١ ، ١٧٤ ، ١٧٤ ، ١٧٦ وما بعدها . للمزيد من التفصيلات عن معركة تربة بين الملك عبد العزيز والأشراف ، أنظر : عبد الله الصالح العثيمين . تاريخ المملكة العربية السعودية ، (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٧ هـ) ، جـ٢،ص ١٨٣ – ١٨٥ .

(٤) فيلبي / مرتفعات الجزيرة ، جـ١ ، ص ٤٣٢ – ٤٣٣ . للمزيد عن حملة الأمير سعود بن عبد العزيز على نجران عام (١٩٣٤م) ، انظر : العثيمين ، جـ١ ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

(٥) فيلبي الجزيرة ، جـ١ ، ص ٣٩٩ وما بعدها .

(٦) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

جازان [١] ، ولم ينس ذكر أسماء عشائر أخرى عديدة تقطن البلاد الساحلية الممتدة من صبيا جنوباً إلى القنفذة والليث شمالاً [٢] .

ونجده أحياناً يتعرض لأنساب بعض القبائل فيذكر بطونها وفروعها وسلالاتها النسبية، كما فعل مع بعض عشائر شهران، وعسير، ويام، وبني حريص، والعبادل، وغيرهم ،ولكنه لم يكن موفقاً في ذكر المعلومات الصحيحة حول أنساب بعض هذه العشائر، بل خلط بعضها ببعض، وأحياناً ذكر أنساباً خاطئة لفروع بعض القبائل، وهذا ما لمسناه أثناء مراجعة الكتاب وتدقيق معلوماته مع سكان تلك القبائل في مواطنهم الرئيسة [٣] .

والشيء الجميل في بعض صفحات الكتاب أن فيلبي ذكر بعض الأرقام والإحصائيات لعدد أفراد القبيلة أو المدينة أو القرية الواحدة، فقد أشار إلى أن عدد أفراد قبيلة يام يقدرون بحوالي ستة آلاف (٦٠٠٠) نسمة، معتمداً في معلوماته على بعض أعيان ووجهاء القبيلة [٤] . وعدد سكان وادي حبونا وما جاوره من القرى والأرياف بحوالي أربعة الآف (٤٠٠٠) نسمة من قبيلتي وادعة ويام . وتعرض لذكر بعض المواطن في منطقة جازان فأشار إلى أن سكان أبو عريش وما حولها يقدرون بـ (٢٢,٠٠٠) فرد، وكذلك كل من فيفا وصبيا يقدر عدد سكان كل ناحية من هذه المناطق بـ (٢٥٠٠٠) نسمة [٥] . وهذه الإحصائيات ربما لا تكون دقيقة جداً، ولكن ذكرها يعود إلى دقة ملاحظة هذا الرحالة واهتمامه بتدوين معلومات دقيقة وهامة .

كما كان العبيد والموالي ضمن طبقات المجتمع، وهؤلاء في الغالب ليسوا من عناصر عربية، وإنما قدموا إلى المنطقة مع الجيوش التركية التي جاءت إلى هذه البلاد في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) ، ووجدت عناصر أخرى إفريقية جُلبوا إلى هذه البلاد في هيئة خدم

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) هناك بعض القبائل المتداخلة في تضاريسها ومواطن سكانها، وبخاصة في منطقة عسير ، وجازان ، حتى أن أهل البلاد أنفسهم يقعون في الخطأ عند تحديد المواطن لبعض العشائر والقبائل . وهذا الاندماج ربما يكون أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت فيلبي يقع في بعض الأخطاء المتعددة التي أوضحناها في حواشي الكتاب أثناء مراجعته وتدقيق معلوماته .

(٤) للمزيد انظر ، فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ ١، ص ٤٦٧ — ٤٨٥ .

(٥) المرجع نفسه ، جـ٢، ص ٨٦٧ .

ورقيق، واستقروا في حماية بعض القبائل، أو الأمراء والوجهاء حتى تم إعتاقهم . وقد شاهد فيلبي العديد من العبيد الذين كانوا يخدمون في منازل ومزارع وأملاك سادتهم في عسير، ونجران وجازان[١] .

ومجتمع جنوب السعودية كان يتخلله بعض العناصر العربية وغير العربية المختلفة في مذاهبها وعقائدها . فعموم السكان كانوا ولا زالوا يدينون بالدين الإسلامي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل . لكن وجد هناك بعض الفئات اليهودية والإسماعيلية وبخاصة في نجران وبعض أجزاء من منطقة قحطان . كظهران الجنوب وما حولها . ونجد أن معظم المصادر والمراجع في التاريخ الحديث تتجاهل الحديث في مثل هذه الموضوعات فلا تُطرَح ولا تُنَاقش بسبب حساسيتها، وإن ذكرتها أشارت إليها بطريقة مختصرة جداً [٢]، لكن رحالتنا أشار إلى وجودهم . فذكر وجود مجموعة يهودية من حوالي ثمانين (٨٠) فردا يسكن أغلبهم في بعض قرى نجران، وقد أقاموا في تلك المواطن مستأجرين بسبب رفض ملاك الأراضي المحليين بيعهم أو تمليكهم أي عقار . وعمل معظم أفراد تلك الفئة في الصناعات الحديدية والفضية، ويذكر فيلبي أن أحد أفراد اليهود في نجران طلب منه المساعدة في الهجرة إلى فلسطين بسبب تقلص مصادرهم الاقتصادية، ثم الاستقرار والأمن الذي عم البلاد تحت حكم الملك عبد العزيز، مما أنتج قلة الطلب على صناعة الحديد التي كانوا يصنعون منه الأسلحة المختلفة [٣] .

كما ذكر وجود بعض الأسر اليهودية التي كانت تعيش في بلدة ظهران الجنوب من بلاد وادعة القحطانية، وكانوا يمارسون نفس المهن التي كان يمارسها اليهود في نجران، بل كان هذا الرحالة حريصاً على الذهاب إلى منازلهم والالتقاء بهم والسماع لآرائهم ووجهات نظرهم عن حكم الملك عبد العزيز الذي امتد إلى بلاد نجران وما حولها، ووجدهم متشوقين إلى الجلوس معه والحديث عن الصراع العربي الإسرائيلي الذي كان جارياً في أرض فلسطين [٤] .

---

(١) العناصر الأفريقية متواجدة في جنوب الجزيرة العربية منذ غزو الرومان والأحباش لبلاد اليمن في عصور ما قبل الإسلام . واستمرت الهجرات على مر التاريخ الإسلامي . ومن يتجول اليوم في أجزاء جنوب السعودية فإنه يشاهد بعض السكان من أصول أفريقية وغالبيتهم كانوا رقيقاً ثم أعتقوا مع مرور السنين واستوطنوا بين القبائل العربية حتى أصبحوا من أفرادها الذين ينتسبون إليها .

(٢) وبخاصة ما يتعلق بالعنصر اليهودي الذي كان يعيش في أجزاء عديدة من جنوب البلاد السعودية مثل نجران ، وبلاد قحطان ، وأبها ، وبيشة .

(٣) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ — ٥٤١ .

(٤) المرجع نفسه ، جـ٢، ص ٧٣٥ وما بعدها .

أمـا الإسـماعيلية فلم يتردد فيلبي في الحديث عـن تاريخ قدومهم إلى نجران واسـتقرارهم ونوعية الأعمال التي يمارسونها، وخصص الفصل التاسع عشر من كتابه للحديث عن مقر الإسـماعيليين المعروفـين بالمكارمة في نجران، والذي أطلق عليه : وطن السـفاحين، وكانت مدينة بدر مقر رئاسـة طائفة السفاحين من شيعة الإسماعيلية في نجران لأكثر من ثلاثة قرون وسط دعم وتأييد سياسي واقتصادي مـن قبائل يام العربية[١]. قـدم أول دعاة الإسـماعيلية إلى اليمن من الهند خلال القرن السـادس عشـر الميلادي . وفي عام (١٧٠٦ م) اسـتقر أحد دعاتهم في بدر مـن قـرى وادي حبونا بعد طردهم من اليمن بواسـطة أئمـة الزيدية، ونجحوا في فرض سيطرتهم على منطقة نجران خلال فترة حكم العثمانيين، وقبل أن يضعف نفوذهم الرسمي ويختفي خلال الحكم السعودي[٢].

وغالبية طبقات المجتمع في البلاد التي مر عليها فيلبي يعيشون عيشة الكفاف، وربمـا وجد الكثير منهم تحـت خط الفقر، لقلة الموارد الاقتصـادية التي يعتمدون عليها، ومعظمها محلية من زراعة ورعي وصـيد وتجارة . إلاّ أنه كان يوجد في هذا المجتمع وبخاصـة في المراكز الحضارية الأعيان والوجهاء وموظفو الدولة كالأمراء والقضـاة وغيرهم، وهم يعيشون في مستوى معيشـي أفضل من غيرهم، وقد أشار هـذا الرحالـة إلى العديـد منهم مثل : عبـد الله بن معمر أمير بيشـة، ومحمد بن ماضي أمير جازان، والسديري وحاشيته في أبها، وإبراهيم النشمي وبعض مرافقيه في نجران[٣]. كما أشـار إلى بعض الوجهاء والأعيان والشيوخ أمثال : عبد الوهاب أبو ملحة، وسـعيد بن مشـيط في خميس مشيط، وابن كدسة في بيشة، وابن منيف، وجابر أبو سـاق، وابن سـلطان في نجران، والبهلكي في جـازان[٤]. وهؤلاء الأعيان وأمثالهـم كانوا يمثلون طبقة المجتمع الأرسـتقراطي لما يمتلكونـه من وجاهة ومال وصلات اجتماعية مع عامة الناس، ومع الملك عبد العزيز ورجال حكومته

(١) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ٦٧٣ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) كما ذكرنا سـابقاً ، بأن حديث فيلبي عن كثير من الوجهاء والشخصـيات في جنوب البلاد السعودية جدير بالدراسة المستفيضة ، لما ذكر من معلومات تاريخية هامة عن أعمال ، وصفات ، وسلبيات وإيجابيات كثير من أولئك الرجال .

(٤) لمزيد من التفصـيلات عن أنماط العمارة في جنوب البلاد السـعودية انظر : ابن جريس ، عسـير (١١٠٠ – ١٤٠٠ هـ)، ص ٣٧ – ٤٩ ، للمؤلف نفسه . " العمران في إقليم عسير خلال القرون المتأخرة الماضية (دراسة تاريخية حضارية) " مجلة المنهل ، عدد (٥٧١) مج (٦١) عام (٦٦) (شوال – ذي القعدة /١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م) ص ٢٦ – ٤٩ ، آل عبد الجبار ، ص ١٩ – ٢٠ .

ب - معيشة المجتمع العامة :

١- وصف القرى والمنازل :

أشار فيلبي إلى طبيعة القرى في عسير وجازان ونجران، وإلى أنواع المنازل والمرافق المحيطة بها، وإلى نوعية مواد البناء، فذكر الطرق المتبعة في البناء والتي تعتمد على استخدام الطين والحجارة، أو القش والأخشاب، وأوضح أن معظم النواحي المرتفعة في نجران وعسير كانت تستخدم الطين والحجارة في بناء منازلها وقراها، وأحياناً كانت تبنى الأجزاء السفلية للمنزل بالحجارة ثم يستكمل الجزء العلوي من الطين، أما الأجزاء التهامية الساحلية فكانوا يستخدمون الأخشاب والقش في بناء بيوتهم وذلك لعدم توفر الأحجار الكافية للبناء، ثم حرصهم على توفير البرودة التي تلطف الحرارة الشديدة في تلك المناطق[١]، ويتراوح ارتفاع المنازلٍ من دور إلى دورين، ما عدا الأعيان والأمراء والشيوخ فأحياناً كانت منازلهم أوسع أفقياً، ويتراوح ارتفاع بعضها ما بين أربعة إلى ستة أدوار، وقد شاهد ذلك في بيشة، وخميس مشيط، وأبها، ونجران، وجازان، وصبيا [٢]. ولأن فيلبي كان مدعوماً من الملك عبد العزيز آل سعود فقد استطاع دخول الكثير من بيوت أهل المنطقة بجميع شرائحهم، وبالتالي تمكن من إعطاء تفصيلات دقيقة عن الأقسام الداخلية التي تتكون منها منازلهم، لا سيما منازل الأعيان والأمراء والوجهاء، فأوضح تقسيم بعضها إلى عدة أقسام، مثل : قسم الضيوف، وآخر لأفراد الأسرة، وأقسام أخرى تستخدم كمستودعات، وأماكن للبهائم وغيرها [٣]. وأشار إلى بعض المنازل والدور التي كانت تستخدم من قبل بعض المؤسسات الحكومية، كالإمارة والشرطة، والقضاء وغيرها، ومعظمها كانت مستأجرة من ملاكها[٤]. كما شاهد طريقة تأثيث بعض المنازل، وبخاصة عند علية القوم، إلى جانب ملاحظته ازدحام هذه البيوت من الداخل بالزخارف المتنوعة، وقد بهرته هذه اللمسات الجمالية فأثنى عليها، وذكر تفرد منطقة عسير بهذا النوع من الزخارف المعمارية[٥].

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) فيلبي أفاض الحديث عن نوعية وأشكال بعض المنازل التي دخلها في بيشة ، وخميس مشيط ، وأبها ، ونجران وبعض مدن جازان الرئيسة . ونستطيع القول أن دراسة الفن المعماري في هذه المناطق ، وبخاصة القديم منه ، جدير بالدراسة . حبذا لو تصدى لهذا الموضوع أحد طلاب الدراسات العليا في الجامعات السعودية .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع نفسه .

(٥) للمزيد عن اللباس والزينة والأطعمة والأشربة في جنوبي البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري وما قبله ، انظر : ابن جريس ، عسير ١١٠٠- ١٤٠٠ هـ ، ص ٥٨ — ٧٤ . كما انظر صفحات عديدة متفرقة من كتاب فيلبي موضوع البحث .

٢- الأطعمة والأشربة واللباس والزينة :

لقد فاق فيلبي غيره من معاصريه أو ممن سبقوه حول إعطاء تفصيلات عن نوعيات الأطعمة والأشربة التي كان يتناولها سكان المنطقة أثناء زياراته لها، والسبب الذي مكن هذا الرحالة من مشاهدة الكثير من الأطعمة والأشربة والكتابة عنها، أن الظروف ساعدته للمكوث بعض الوقت في أجزاء عديدة من هذه البلاد، كما تم استضافته على أكثر من وجبة ووليمة في بيوت بعض الأمراء والأعيان في المنطقة . ومن ثم أعطى تفصيلاً لا بأس به عن بعض المأكولات التي كان يتم تناولها على موائدهم . وإذا كان ذكر بعض أسماء الأطعمة والأشربة في بيوت المقتدرين مادياً من الناس، فإن غالبية سكان المجتمع كانوا فقراء، وكانت أغلب أطعمتهم من الحبوب التي تنتجها أراضيهم، أو من منتوجات حيواناتهم التي يقومون على تربيتها[١] .

كما أشار فيلبي إلى نوعية اللباس والزينة التي شاهدها عند سكان المنطقة، فذكر بعض الألبسة التي يستخدمها النساء والرجال في كل من بيشة، وخميس مشيط، وأبها، وأجزاء عديدة من بلاد تهامة الممتدة من جازان إلى مكة المكرمة[٢]، ونوه إلى توفر بعض الأقمشة المختلفة في أنواعها وأشكالها . والتي كانت تباع في معظم الأسواق الأسبوعية الموجودة في أنحاء البلاد [٣]. وكذلك توافر العديد من أدوات الزينة المستخدمة عند الرجال والنساء مثل : الحلي، والخناجر والأسلحة التي يتمنطق بها الرجال، وأدوات الصباغة كالنيلة وغيرها[٤]، وكثير من الأشجار والنباتات المحلية التي يتزين بها الناس في أفراحهم واحتفالاتهم كالكادي، والريحان، والبعيثران وما شابهها من هذه الأشجار العطرية[٥].

٣- بعض العادات والتقاليد :

ذكر فيلبي مشاهداته لعادة الزواج المبكر من الشباب والشابات في مناطق جازان وعسير حتى إن بعضاً منهم قد يتزوج بين (١٢ – ١٣) سنة . كما نوه إلى أن صداق المرأة البكر كان عالياً بعض الشيء، في حين أن الثيب كان يتراوح مهرها

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) فيلبي ، المرجع نفسه ، جـ١ ،ص ٥٢٩ وما بعدها . وللمزيد انظر ، فؤاد حمزة . في بلاد عسير ، ص ٧٦ – ٧٧ ، ١٣١ – ١٣٣ .

من (٢٠ – ٣٠) ريالاً . كما أكد على الطابع الاجتماعي للأسواق الأسبوعية في جنوب المملكة العربية السعودية والتي لم تكن مقتصرة على البيع والشراء، بل كانت فرصة مناسبة لاجتماع سكان القرى والمستوطنات البعيدة . وشكل انعقاد السوق في نجران، وربما في عسير وجازان فكان ذلك فرصة للفتيات والفتيان في البحث عن زوجات وأزواج المستقبل ضمن الأعراف والتقاليد المسموح بها، فكانت الفتيات الصغيرات يلبسن أجمل الملابس وينسقن شعورهن بصورة جميلة في إطار البحث عن أزواج المستقبل[١] .

وأشار فيلبي إلى الاختلاف الواضح بين السكان في المناطق الجبلية والساحلية، وبين نساء وسط الجزيرة وجنوبها، حيث تميزت نساء جنوب المملكة بقدر كبير من الحرية في التنقل والعمل بجانب رجالهن، وذكر أن عملية التحميل والنقل في جبال فيفا وبني مالك كانت شبه مقصورة على النساء [٢] .

ووصف هذا الرحالة عادات وتقاليد الضيافة في عدد من المناطق التي قام بزيارتها مثل حديثه عن مواسم الضيافة التي وجدها عند أمير تربة، وبيشة، وخميس مشيط، وأبها، وقبائل يام في نجران، وأمير جازان[٣] . كما أبدا استغرابه من سكان قرى الدرب وبيش التي لا يأكل أهلها البيض والدجاج [٤] . كما شارك في إحدى جلسات تعاطي القات في مدينة جازان، والتي تستمر لعدة ساعات، ولكنه لم يستسغ التجربة وقرر الخروج منها باكراً [٥] .

---

(١) فيلبي، مرتفعات الجزيرة ، جـ٢ ، ص ٩١٩ ، ٩٥٠ ، فؤاد حمزة ، ص ٨٠ ، ٨٢ ، ١٣٢ .

(٢) هذه القبائل التي زارها فيلبي من الطائف حتى جازان ونجران ، سواء في الأجزاء السروية أو التهامية ، تشتهر بالكرم وحسن الضيافة ، ولهم عادات وأعراف عديدة يمارسونها مع ضيوفهم أثناء القيام بإكرامهم وأداء الواجب تجاههم . (دراسة ميدانية قام بها الباحث خلال عام (١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ م) وللمزيد انظر ، ابن جريس ، عسير (١١٠٠ – ١٤٠٠ هـ) ، ص ، ٩٣ – ١٠٥ ، للمؤلف نفسه ، صفحات من تاريخ عسير ، جـ ١+٢ ، ص ١٨٧ – ٢٣٢ .

(٣) فيلبي المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٢٣٠ – ١٢٣١ .

(٤) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٨٩٠ – ٨٩١ . شجرة القات من الأشجار المنتشرة في أجزاء من منطقة جازان ، وكذلك بعض النواحي في البلاد اليمنية التهامية . وهي من الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها سكان جازان ، ولها شبكات من المهربين والمتورطين في تسويقها بين عامة الناس . والحكومة السعودية بجميع أجهزتها الأمنية تعاني من أحكام السيطرة على انتشار هذه الشجرة التي تصيب آكلها بالفتور العقلي والجسمي معاً ، بالإضافة إلى أضرارها المادية وارتفاع أسعارها ، حتى أن هناك أفراداً وأسراً عديدة قد تصاب بالإفلاس المادي بسبب تعاطيهم أكلها .

(٥) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ١ ، ص ٣٩ .

ويذكر أيضاً أن التعليم بدأ ينتشر في جنوب البلاد السعودية، والاهتمام بالقرآن وتلاوته كان من أهم الأمور التي يحث عليها السكان، حتى أنه قد شاهد حفلاً في بيشة يحتفى فيه بختم القرآن، وذكر أنه كان يحضره الشباب المحتفى بهم وعليهم ألبسة جميلة، إلى جانب أنه يحضر مثل تلك المناسبة العديد من الأعيان والوجهاء وعلية القوم في المنطقة، وذلك تكريماً لكتاب الله، ثم احتفاءً وفرحة بهؤلاء الشبيبة الذين ختموا كتاب الله [1].

وأشار لعادة الختان التي كانت تنفذ بطريقة قاسية عند بعض سكان المنطقة، وأورد وصفاً لهذه العملية في وادي الريث، وذكر أن تقاليد الختان كانت تقام في احتفال عام يسبق زواج الشخص، يتم خلالها سلخ جلد البطن من أسفل السراة وحتى العانة مع القضيب وحتى باطن الفخذين [2].

وتعرض فيلبي في أماكن عديدة من كتابه إلى المنازعات بين العشائر على بعض الحدود، وموارد الرعي والمياه، أو لأمر من الأمور التي يعيشونها في حياتهم اليومية، وقد يتدخل للإصلاح بين المتخاصمين بعض الأمراء والوجهاء في المجتمع، وأحياناً تقوم المؤسسات الحكومية بممارسة عملها في الضرب على يدي المعتدي [3]، ولكنه أشار إلى طريقة القَسَمْ الجماعي من قبل أحد الأطراف المتنازعة كأسلوب لحل

---

(١) كانت طريقة الختان في جنوب السعودية قاسية إلى درجة يصعب وصفها ، وبخاصة عند سكان البوادي والأرياف فلا يكتفي بقطع الجزء المطلوب في الختان الشرعي ، وإنما كانوا يذهبون إلى أبعد من ذلك فيقومون بسلخ الجلد من منتصف البطن إلى بطن الفخذين ، ومن يتألم أو يبكي من المختونين أثناء عملية الختان فهو جبان ، وينظر إليه من عموم أفراد قبائله نظرة ازدراء واحتقار . للمزيد أنظر ، فؤاد حمزة ، ص ١٠٩ – ١١١ ، ابن جريس ، عسير (١١٠٠ – ١٤٠٠ هـ) ، ص ٨٥ – ٨٧ .

(٢) النزاعات القبلية تكاد تكون من أكبر المشاكل بين أفراد القبائل وأماكن الرعي والصيد ، وموارد المياه والمزارع ، وبعض الملكيات العقارية الخاصة ، فتأتي على رأس القائمة بين المتنازعين ، وأحياناً يقوم وجهاء وأعيان القبائل بالتوسط في الإصلاح بين المتخاصمين ، وقد يحال أمرهم الى المؤسسات الحكومية ، كالقضاء ، والشرطة ، والأمارات لتفصل في أمورهم . وهناك مئات الوثائق التي تصور طبيعة مثل هذه النزاعات وكيفية التعامل معها من خلال بعض الأعراف والعادات القبلية . للمزيد من التفصيلات ، أنظر ، ابن جريس ، صفحات ، جـ ١+٢ ، ص ١٨٧ – ٢٣٣ .

(٣) يوجد الكثير من المعلومات التي ذكرها فيلبي طوال رحلته عن أنواع الطيور والحيوانات التي كان يشاهدها في معظم الأجزاء السرورية أو التهامية التي مر عليها . ومن يزور جنوب السعودية اليوم فإنه يشاهد الكثير من الغابات والبيئات المختلفة التي يعيش فيها الكثير من النباتات والأشجار المختلفة في أشكالها وفوائدها ، كما يجد الكثير من الطيور والزواحف والحيوانات التي تعيش في جنبات هذه البيئات المتنوعة . (مشاهدات الباحث وانطباعاته) .

المشكلات الكبيرة بين المتخاصمين حيث يقوم أفراد العشيرة أو القبيلة التي تقبل القَسَمْ فيختارون أشخاصاً يصل عددهم أحياناً إلى الخمسين فرداً من القبيلة الأخرى لإجراء القسم، وفي حالة عدم التزام الجميع بالقسم يسقط حق القبيلة المدعية أو المدعي عليها، وهذا إجراء صعب بسبب قوته والتزام القبائل المتنافسة به في حالة الاحتكام إليه[١].

٤- الأحوال الاقتصادية والإدارية والمالية :

إن العنصر الاقتصادي يأتي من أكبر الموضوعات التي ذكرها فيلبي في كتابه، فلا تخلو أي منطقة زارها من التفصيلات الجيدة في بعض الجوانب الاقتصادية المختلفة، فتجده يشير على طول طريقه من الطائف حتى نجران إلى بعض البدو الذين يمتهنون حرفة الرعي والصيد، بل كانت عماد معيشتهم، فيقومون برعي الإبل والضان والماعز، إلى جانب صيد الطيور والغزلان وما شابهها من الحيوانات . بل كان بعض أولئك البدو يجمعون الحطب من الجبال والأودية ويذهبون به إلى الأسواق القريبة منهم لبيعه والشراء بثمنه سلع أخرى[٢].

وذكر الإنتاج الزراعي وبخاصة الحبوب ومواسم زراعتها ومحاصيل كل منطقة، والزكاة التي تجبيها الدولة على الحبوب . ففي بلاد عسير تأخذ الدولة نصف العشر فقط، بسبب صعوبة الزراعة في المنطقة، وكان دخل الدولة من هذه النواحي يقدر بحوالي (٣٠٠,٠٠٠) صاع سنوياً من القمح والشعير . أما في نجران فقد كانت الدولة تأخذ العشر كاملاً، يقدر بحوالي (٣٦٠,٠٠٠) صاع في السنة [٣].

وكانت الدولة توزع عشر محصول الحبوب في بعض مناطق جنوب المملكة على النحو التالي :

(٢٠ ٪) لشيوخ القبائل الرئيسة والفرعية، و (٥ ٪) للعاملين على جمع العشور، ويبقى للدولة حوالي (٧٥ ٪) من إجمالي العشور . وذكر أن الداخل الصافي للدولة من الحبوب أثناء الفترة التي زار فيها منطقة عسير، يقدر بحوالي (١٦٠٠٠) ريال فرانسي سنوياً [٤].

---

(١) فيلبي مرتفعات الجزيرة ، جـ ١ ، ٢٩٠ – ٢٩١ ، ٤٣٣ .

(٢) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٢٩ .

(٣) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٩ ، ٨٧١ .

(٤) لمزيد من التفصيلات عن مصادر المياه في جنوب السعودية ، وأهميتها في مهنة الزراعة ، أنظر : الشريف ، جغرافية المملكة العربية السعودية ، حـ٢ ، ص ٥٣ وما بعدها .

ونوه إلى بعض المحاصيل الزراعية الرئيسة في المنطقة، فكانت بلاد عسير الممتدة من بيشة إلى نجران تقوم على زراعة القمح، والذرة، والتمور . أما سهل تهامة من جازان إلى مكة فمعظم السكان يشتغل في زراعة الدخن والسمسم والقطن وصناعة الملح وزيت السمسم . أما مرتفعات تهامة فكانت أبرز حاصلاتها الحبوب، والموز، والقات، والبن، والقطن، والتبغ [١]. وكانت المياه الجوفية والأمطار، والأودية، وبعض العيون، والجداول المائية هي المصادر الرئيسة في ري تلك المحاصيل الزراعية المختلفة [٢].

أما التجارة فكانت من أهم المهن التي يمارسها السكان، وقد أفاض هذا الرحالة في التفصيلات عن أسماء وأماكن الأسواق الأسبوعية فيها، وما كان يعرض فيها من سلع مختلفة، والطرق التجارية الداخلية والخارجية التي تربط أجزاء المنطقة بعضها مع بعض . كما ذكر الأسعار في بعض تلك الأسواق، وأنواع المكاييل والمقاييس المستخدمة، ووسائل التعامل التجاري، مع الإشارة إلى العملات المتداولة بين الناس، والى نشاط طريقة المقايضة بين مرتادي تلك الأسواق . وإلى دور العشائر والقبائل في حماية الأسواق التي تقام في مواطنها، وما كان لتلك الأسواق من أنظمة وقوانين لحمايتها، وتعامل الناس فيها براحة وأمان[٣].

توقف فيلبي كثيراً مع بعض الأسواق الرئيسة مثل : أسواق بيشة، وخميس مشيط، وأبها، ونجران، وظهران الجنوب، والقنفذة، فوصف حركة التعامل التجاري في تلك الأسواق، وأسماء كبار التجار فيها، وتواجد ممثلي الدولة من أمراء ومحتسبين وشيوخ قبائل يسعون جميعهم على أمن الناس وسير الحركة التجارية في هذه الأسواق بيسر وسهولة [٤].

---

(١) يوجد في كتاب فيلبي عشرات المواضع التي أشار فيها إلى الأوضاع الإقتصادية وبخاصة التجارية . وللمزيد عن الحوال التجارية في جازان ونجران أنظر : ابن جريس ، عسير ١١٠٠ – ١٤٠٠ هـ ، ص ١٦٣ – ١٨٩ ، للمؤلف نفسه ، عسير في عصر الملك عبد العزيز ، ص ١٤٨ – ٢١٥ ، فؤاد حمزة ، في بلاد عسير ، ص ١١٢ وما بعدها ، شرف عبد المحسن البركاتي . الرحالة اليمانية (دمشق وبيروت : المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٨٤هـ)ص٤٧ – ٤٨ ، محمد عمر رفيع . في ربوع عسير ، ذكريات وتاريخ (القاهرة : دار العهد الجديد للطباعة ، ١٣٧٣ هـ) ص ١٩٥ وما بعدها .

(٢) المراجع نفسها .

(٣) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ ١ ، ٢١٤ ، جـ٢ ، ٧٤٢ ، ١٢٦٢ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه .

وأشــار إلى قرار الدولة في جعل بلدة بيشــة المركز الرئيس لتجارة البن القادم من اليمن إلى الجزيرة العربية، والذي ساعد على نهوض المنطقة اقتصاديا، ولكنه أثر ســلبياً على وادي الدواســر والســليل المركز التقليدي لهذه التجارة . كما أصبح ســوق ظهران الجنوب أكبر أســواق المنطقة، بعد أن قــررت الحكومة جعلها المركز الأساســي لتجارة البن القادم من اليمن إلى غرب الجزيرة [١] . وذكر أيضــاً ســوق مدينة القنفذة على ســاحل البحر الأحمر، وكيف أثرت الرســوم الحكومية العالية على تجارة المدينة [٢] .

وذكر هذا الرحالة الرســوم التي كانت تتقاضــاها الدولة على واردات المنطقة من اليمن، بخاصــة واردات البن حيث تصــل الرســوم المفروضة إلى (٥٠ ٪) من قيمة السلع . وبين أن دخل الدولة السنوي للدولة من هذه التجارة يصل إلى حوالي (٧٠٠٠) ريال فرانسي سنوياً في ظهران الجنوب، وحوالي (١٢٠٠٠) ريال فرانسي ســنوياً في سوق الخوبة في منطقة جازان [٣] . وعند إشــارته إلى السوق التجارية في نجران ذكر معارضــة الأهالي والتجار محاولة الحكومة جعل التداول المالي قاصراً على الريال السعودي مما أدى إلى الغاء العمل به [٤] .

وتحــدث في صــفحات عديدة من كتابه عن بعض الحرف والصــناعات المهنية المحلية المختلفة، مثل صــناعة الفخار، والأحجار المستخدمة في البناء، والحبال من ألياف بعض الأشــجار [٥] ، وذكر صــناعة صــبغ النيلة من نبات الأندقو، وأصــباغا

---

(١) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٨٠٢ ، ١١٣٩ .

(٢) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٥٧١ . ولمزيد من التفصيلات عن التنظيمات المالية والإدارية في جنوب السعودية في عهــد الملــك عبد العزيز ، انظر : مبارك محمد الحرشــني المعبدي . التنظيــم الإداري والمالي في تهامة خلال الإشــراف السـعودي (١٣٤٥ – ١٣٥١ هـ) (جدة : شــركة دار العلم للطباعة والنشــر ، ١٤٠٥ – ١٤٠٦ هـ) ص ٨٥ وما بعدها ، محمد بن أحمد العقيلي . تاريخ المخلاف السليماني (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، جـ ٢ ، ص ٩٦٣ .

(٣) ذكر فيلبي كثير من الحرف والصــناعات المختلفة التي رآها في الجبال والســهول التهامية . وفي اعتقادي أن هذا الموضــوع جدير بالدراســة فينظر إلى المعلومات التي رواها هذا الرحالة نتيجة للتجوال والمشــاهد ، ثم تقارن مع ما ورد في الوثائق والمراجع المنشــورة وغير المنشــورة . وعن الحرف والصناعات المختلفة في منطقة عسير ، وأجزاء من تهامة أنظر ، ابن جريس ، عسير١١٠٠– ١٤٠٠ هـ،ص١٤٧– ١٦٣.

(٤) المرجع نفسه .

(٥) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ٢ ، ص ٧٢٩ ، ٩٤٩ وما بعدها .

أخرى من نبات القرظ والشث في جبال عسير وجازان[١]، وأشار أيضاً إلى صناعة عصر السمسم والملح في الأجزاء التهامية مثل : جازان وما حولها، وذكر احتكار الدولة لصناعة الملح وتسويقه على التجار المحليين[٢]. ونوه إلى عدد من الحرف التي كان يمارسها معظم سكان جنوب السعودية، كالنجارة، والحدادة، والصياغة، وصناعة القطران الذي تطلى به أبواب المنازل، ويعالج به جرب الإبل. وشاهد في الأسواق الأسبوعية المنتشرة في معظم البلاد التي زارها بعض الحرفيين كالحمالين الذين ينقلون السلع لمسافات بعيدة قد تصل عشرات الكيلومترات. بل كان في الأسواق من يمارس مهن البيع والشراء، والخياطة، والسمسرة وغيرها من الحرف، والجوانب الاقتصادية الأخرى التي يصعب حصرها في أوراق معدودة[٣].

وفي طيات الكتاب أشار فيلبي في مواقع كثيرة إلى سيطرة أمراء المناطق على النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية في البلاد، وهذا مما يدل على نفوذ دولة ابن سعود وسيطرتها على جميع البلاد التي زارها هذا الرحالة بل بدأ الوضع يحول البلاد من التفكك والتشرذم والصراعات القبلية إلى نظام سياسي إداري حديثٍ تشرفٍ عليهٍ الدولة من خلال مؤسساتها وأنظمتها الإدارية الحديثة[٤]. وصار هناك نظاما ماليا جيدا تشرف عليه وزارة المالية، ويمثلها في أغلب المناطق التي زارها فرع الوزارة في مدينة أبها، وعلى رأس هذا الفرع أحد رجالات المنطقة الذين اتصفوا بالحكمة والدقة في تسيير أعمال المال في هذا الجزء الجنوبي من السعودية، ألا وهو الشيخ / عبد الوهاب بن محمد أبو ملحة الذي كان على صلات مستمرة ومباشرة وقوية مع الملك عبد العزيز وبنيه سعود وفيصل، وكان يعمل معه نخبة من الرجال المخلصين أمثال عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بـ (ابن الياس) وغيره من الأشخاص الذين ذكر فيلبي بعضهم واحتفظت الوثائق الموجودة في وزارة المالية بأسماء العشرات منهم[٥].

---

(١) لا تخل أي ناحية جاءها فيلبي في هذه الرحلة من ذكر ما شاهده من مهن وحرف وصناعات يمتهنها سكان جنوب السعودية ، ومعظم المواد الأساسية لجميع تلك الصناعات تكاد تكون محلية ، وقليلا ما يتم استيرادها من خارج المنطقة .

(٢) لمزيد من التفصيلات عن ظهور المؤسسات الإدارية الحديثة في جنوب السعودية في عهد الملك عبد العزيز انظر : ابن جريس ، عسير في عصر الملك عبد العزيز ، ص ١٩ – ١٠٣ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) هكذا كان فيلبي في معظم رحلاته ، فهو لا يهتم بجزئيةٍ دون أخرى وإنما يدون معلومات متنوعة تشمل النواحي السياسية والحضارية المختلفة . وكما ذكرنا سابقا فإن كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية ، يعتبر نموذجاً جيداً لشموليته بالمعلومات الجيدة الجديرة بالدراسة والتحليل والمقارنة .

(٥) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ١ ، ٣١٠ ، ٣٢٠ ، وللمزيد انظر : عبد الله آل عبد الجبار ، ص ٢٤ وما بعدها ، ابن جريس . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر ، ص ١٥٩ .

ولم يغفل فيلبي ذكر أسماء بعض المسؤولين الآخرين في إدارة البلاد كأصحاب الشرطة في بعض الحواضر، وكذلك القضاة، والمرشدين والدعاة، والقائمين على جمع العشور والضرائب من المواطنين، وأشار إلى رواتب بعضهم، وإلى أجور البيوت التي كانت تُستأجَر لانشاء بعض المؤسسات وغيرها . وفصل الحديث أحياناً عن أسعار بعض السلع في الأسواق، وفي بعض التجمعات السكانية، كالمدن والقرى وغيرها[١] .

٥- بعض جوانب الحياة العلمية والفكرية :

من النواحي التي أشار إليها هذا الرحالة وجود المواقع الأثرية والنقوش المتناثرة في بلاد عسير ونجران، وبعض الأجزاء الساحلية التهامية . وكان من اهتماماته أيضاً جمع كثير من الطيور والحشرات وأنواع من الصخور والمواد الآثارية وأرسلها إلى المتاحف البريطانية، وقد أرسل في إحدى المرات (١٧) صندوقاً حصيلة ما جمعه خلال خمسة شهور [٢]. وامتاز باهتمامه بحركة النجوم وتتبعه للأنواء، وغالباً كان يحرص على النوم خارج المنزل كي يشاهد حركة الأفلاك عن طريق أجهزة الرصد والمشاهدة التي كان يصطحبها معه في جميع رحلاته.

أما الحياة العلمية والفكرية عند سكان البلاد التي زارها فيذكر أنها كانت شبه معدومة، فلا يوجد إلاّ عدد قليل من المتعلمين التعليم الشرعي، الذين يقومون بإرشاد الناس، وإمامتهم في الجمع والجماعات، ولم يكونوا متضلعين في العلوم التي يعرفونها، وإنما أغلبهم يغلب عليه السطحية، وكثيراً ما يقعون في أخطاء علمية وثقافية نتيجة الجهل الذي يسود البلاد[٣]. وفي أثناء زيارته كانت المدارس النظامية قد بدأت رحلتها في بيشة وأبها وجازان، وبدأ الناس يرسلون أولادهم إلى هذه المدارس كي ينهلوا من العلوم والمعارف التي تدرسها وتشرف عليها هذه المدارس، وكان معظم القائمين على هذه المدارس قد قدموا إلى المنطقة من مكة

---

(١) المراجع نفسها .

(٢) عن الحياة الفكرية والتعليمية في جنوبي البلاد السعودية خلال زيارة فيلبي لها ، انظر : غيثان بن علي بن جريس . تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤ هـ- ١٣٨٦ هـ / ١٩٣٤ – ١٩٦٦ م) . (جدة : دار البلاد للطاعة والنشر ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م) . الجزء الأول ، ص ٥٢ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه . دراسات في تاريخ وحضارة جنوب البلاد السعودية (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م) ص ٦١ – ٨٤ .

(٣) فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، جـ١ ، ص ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

المكرمة والمدينة المنورة، وضموا إليهم بعض المتعلمين في المنطقة، وبخاصة من كان يقوم على إرشاد الناس، أو يعمل في بعض الكتاتيب الفردية التي كانت موجودة في بعض المراكز الحضارية من قبل مجيء الحكم السعودي الحالي[١].

ولم يغفل ذكر لمحة عن الحياة الصحية في البلاد فأشار إلى وجود مستوصف في أبها يعمل فيه طبيب هندي يعالج الأمراض البسيطة مثل : الحمى والجروح الصغيرة وغيرها، ويذكر أن إمكانات ذلك المستوصف كانت بسيطة جداً [٢]، وأشار إلى بعض الأمراض التي كانت تصيب الناس هناك، ومن أشدها أمراض الحمى التي أصيب بها هو نفسه أكثر من مرة أثناء اقامته في عسير، ونجران، وجازان، وكاد أنٍ يفقد حياته مرات عديدة على أثر الإصابة بها [٣].

سادسا : الخاتمة :

والخلاصة إننا قد خرجنا من دراسة ومراجعة وتدقيق معلومات هذا الكتاب، بالعديد من النتائج، والانطباعات، والتوصيات نورد أهمها على النحو التالي :

١. أن هذا الكتاب غطى منطقة واسعة جداً تقدر بحوالي (١٥٠٠٠٠) ميلٍ مربع، كما ذكر فيلبي نفسه، حيث شملت البلاد الممتدة من الدواسر شرقاً إلى مكة المكرمة غرباً، ثم إلى الأطراف الجنوبية لبلاد نجران وجازان جنوباً، والشريط الساحلي الممتد من جازان إلى جدة، وهذه في اعتقادي مساحة تقدر بتسع مساحة المملكة العربية السعودية . وإذا قلنا من أهمية

---

(١) المرجع نفسه . ومن ينظر في كتاب فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية ، فإنه سوف يجده تحدث عن العديد من الأمراض التي كانت تفتك بالناس هآنذاك ومن أشهرها : الحمى ، الجدري ، الطاعون ، السعال ، وبعض الأمراض المعدية المختلفة .

(٢) انظر تقديمنا لكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية ، جـ ١ ، ص ١٣ .

(٣) ولمزيد من الإيضاح عن بلاد تهامة والسراة الواقعة بين اليمن والحجاز ،انظر : عبد الله الوهيبي " الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب " مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) جـ١ ، ص ٥٣ – ٧٠ ، غيثان بن علي بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق ١ هـ - ق ١٠ هـ / ق ٧ م – ١٦ م) (الرياض : مكتبة ومطابع العبيكان ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م) الجزء الأول ، ص ٣٦ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " ملامح النشاط التجاري لبلاد تهامة والسراة في العصور الوسطى " بحث قدم ضمن الندوة العلمية التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة من (٢٥ – ٢٧ / ٨ / ١٤٢١ هـ الموافق ٢١ – ٢٣/١١/٢٠٠٠ م) . ونشرت ضمن بحوث الندوة في كتاب : طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ . حصاد (٨) منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م) ص ١٥٧ – ٢٢٢ .

المساحة الجغرافية التي قطعها فيلبي، فإنه لا يمكن أن نتجاهل ما يوجد على هذه المساحة من تباينات واختلافات في التضاريس الجغرافية، والأحوال المناخية، والعناصر البشرية، والنواحي الحضارية الأخرى سواء كانت اجتماعية، أو اقتصادية، أو فكرية ودينية وثقافية . وهذا يؤكد على صعوبة المهمة التي قام بها هذا الرحالة .

٢. من ينظر في الكتاب ويدرسه يلاحظ الجهد الضخم الذي بذله مؤلفه، فهو لم يركز على ناحية علمية معينة، وإنما كان شديد الملاحظة، فإذا نزل منطقة معينة فهو يتحدث عن قضايا عديدة تشمل الملامح التاريخية والجغرافية لتلك البلاد، كما أنه يذكر الأخبار والقضايا المعاصرة التي شاهدها، وبالتالي فهو يدون الكثير من المعلومات الحضارية المتنوعة التي يصعب أن تجدها في مرجع آخر . ومن خلال تجوالنا في البلاد التي زارها ومقارنة أقواله وشروحاته بما شاهدنا وسمعنا تبين لنا شدة ملاحظته، ودقة معلوماته ومصداقيته في تدوين كثير من الأخبار والروايات ،

٣. من يطالع هذه المساحة الشاسعة التي زارها فيلبي في هذا الكتاب، فإنه يتضح أن هناك مناطق عديدة لم يزرها رجل أوربي من قبل، بل لم يكتب عنها أحد من الأوربيين أو العرب على الإطلاق . وأخص بذلك بعض أجزاء من مناطق قحطان مثل : طريب، والعرين، وأجزاء من وادي تثليث، وبلاد ظهران الجنوب، وعقبة شراقب الواصلة بين ظهران ووادي بيش في منطقة جازان، وبلاد بني مالك وفيفا، وأجزاء من وادي حبونا في نجران، ومناطق حدودية بين السعودية واليمن، وغيرها مناطق عديدة . وان ذكرت بعض هذه المناطق في مصادر ومراجع أخرى، فذكرها كان مختصراً جداً يختلف عن الكيفية والتفصيلات التي أوردها فيلبي في هذا الكتاب الكبير . ولا أجانب الحقيقة لو قلت إن هذا الكتاب يُعد اشمل وأفضل دراسة تكلمت عن الأجزاء الجنوبية للبلاد السعودية، وحتى هذه اللحظة لم تظهر دراسة أدق وأشمل منه .

٤. مما يظهر في صفحات كثيرة من الكتاب، أن من أهدافه رسم النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، وهذا مما شجع الملك عبد العزيز على

دعم فيلبي وتشجيعه، بل قدم له بعض الآراء والنصائح التي يتبعها أثناء ذهابه إلى تلك المناطق الحدودية . وقد عمل فيلبي كل ما في وسعه على رسم أغلب الحدود الممتدة من ساحل البحر الأحمر غرباً إلى أطراف الجبال الشرقية في نجران وبلاد قحطان، ولكن من يقارن فيلبي مع ما ورد في بعض الوثائق والمراجع الأخرى يجد بعض الاختلافات في تسمية بعض المواطن، وكذلك القرى والقبائل والعشائر التي تعيش على جانبي بعض النقاط الحدودية . وقد صححنا كثيراً من تلك الأسماء، وبخاصة أثناء زيارتنا لعدد من المناطق في عام (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) .

ونجد فيلبي يتميز على غيره، ممن كتبوا عن النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، فهو لم يقتصر على ذكر مواقع تلك النقاط ومسمياتها وإنما ذكر كثيراً من المعلومات عن طبيعة السكان الذين يعيشون حول تلك الحدود سواء كانوا من السعودية أو اليمن، فذكر أسماء قبائلهم وعشائرهم، وأشار إلى بعض أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية والفكرية، بل ذكر أحياناً نوعية ملابسهم وأطعمتهم، ومساكنهم، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يذكر بعض التفصيلات عن حياتهم الاقتصادية وبخاصة التجارية مثل الأسواق الأسبوعية التي كانوا يرتادونها، وأنواع السلع والأسعار والعملات التي كان يتم التعامل بها في تلك الأسواق، وأحياناً يذكر الطرق التجارية وطبيعتها الجغرافية، التي تربط بين بعض النواحي الداخلية والخارجية في تلك الجهات .

٥. إن الغالب على معظم الكتاب التنوع في مادته العلمية، إلا أن هناك جوانب عديدة تميز فيلبي في دراستها عن غيره، مثل : ذكر أنواع الطيور والنباتات التي كان يشاهدها في أغلب المناطق التي زارها، كما أنه كان حريصاً على دراسة النقوش والرسوم والآثار التي تقع عينه عليها، بالإضافة إلى أنه يشير إلى الأعيان والشخصيات البارزة في كل بلدة يزورها، كما أنه لم ينس ذكر حالة الفقراء والبؤساء الذين كان يشاهدهم من وقت لآخر، كما نوه إلى وجود بعض الأساطير والخرافات التي كانت سائدة في البلاد. والحقيقة أن هذا الكتاب جدير بالدراسة والتأمل إلى كل ما ورد فيه من

معلومات قيمة، وبخاصة أنه يعالج تاريخ وحضارة بلاد طواها النسيان والفقر العلمي لقرون طويلة .

٦. إن ضخامة الكتاب، وتنوع معلوماته جعلت مؤلفه أحياناً لا يواصل شروحاته في بعض الجوانب بتسلسل وانسيابية ولكنه في مواطن عديدة يقطع الموضوع الذي يتحدث عنه، ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة شاهدها، كحشرة، أو حيوان، أو طائر، أو نقش، وقد تأخذ هذه الجزئية سطوراً عديدة، ثم يعود إلى الموضوع الرئيس الذي كان يتكلم عنه . وهذه الطريقة تقطع أفكار القارئ، وتشوش عليه، وربما يجد صعوبة في لملمة نفسه والرجوع إلى صلب الموضوع الأساسي . غير أن هذه السلبية وهي محدودة لا تنقص من حسن الكتاب وقيمته العلمية .

٧. من المعلوم أن فيلبي قد أعلن إسلامه، فتراه في كثير من ثنايا الكتاب يتحدث عن نفسه مسلماً يؤدي شعائر الصلاة والحج وغيرها من أركان الإسلام . لكنه يتحدث أحياناً عن بعض مشاهداته متأثراً بثقافته وتربيته الأوربية . فمثلاً :رأى أحد رفاقه ومرشديه عند وصولهم إلى ناحية يوجد بها خطيبته وزوج المستقبل، وبعد رؤيتها ومقابلتها لم يسلم عليها بالتقبيل والجلوس معها . ومثل هذا الأمر يعد طبيعياً في الثقافة الغربية، ويختلف تماماً في العادات والأعراف بالبلاد العربية، وخاصة المناطق البدوية والريفية المحافظة التي لا تُمكّن الرجل من خطيبته أو زوجته إلاّ بعد المرور بالعديد من القوانين الاجتماعية المبني بعضها على منهج الشريعة الإسلامية، والبعض الآخر على مبادئ الإرث الاجتماعي . كما ذكر أن بعض البدو يختفي بنفسه في شهر رمضان فيأكل ويشرب في النهار معتقداً أنه لا يراه أحد . يورد أمثلة من هذا النوع دون أن ينوه إلى أن اللّه يرى الظاهر والخافي، وأن من يقوم بمثل هذه الأعمال ربما يدل على ضعف إيمانه وأحياناً إلى جهله بالدين ، ومواطن أخرى وردت في الكتاب ولها علاقة ببعض الأعراف والنظم الحضارية، كما لها صلات بالنواحي الشرعية، وأخطأ فيلبي في تفسيرها وتوضيحها، وقد عالجنا مثل هذه الأمور في حواشي الكتاب وأوضحنا الخطأ والصواب .

٨. إن هذه الدراسة التي نطرحها في هذه الأوراق ليست إلاّ مساهمة بسيطة عن أهمية هذا الكتاب، وأنه يحتاج إلى تضافر جهود كبيرة تقوم بدراسته وتحليله ومقارنة معلوماته مع العصور السابقة واللاحقة التي مرت على هذه البلاد الواسعة . وإنني من على صفحات هذا البحث أنادي الجامعات السعودية، أو المراكز والمؤسسات البحثية والعلمية، كدارة الملك عبد العزيز، أو مكتبة الملك فهد الوطنية، أو مكتبة الملك عبد العزيز العامة وغيرها، أن تسعى إلى عقد ندوة علمية عن إنجازات فيلبي العلمية عن الجزيرة العربية بشكل عام وعن المملكة العربية السعودية بشكل خاص، ومن يقوم بهذا المشروع فإنه سوف يضيف إلى المكتبة العربية والإسلامية والعالمية جهود علمية جيدة حول هذه البلاد من خلال التراث الذي تركه لنا هذا المؤرخ والآثاري والرحالة الكبير .

٩. كما سبقت الإشارة – إلى أن فيلبي ذهب من السليل ووادي الدواسر، إلى الحجاز، ثم عاد إلى مناطق عسير، وجازان، ونجران، وساحل البحر الأحمر الممتد من جازان إلى مكة المكرمة . والشيء المؤسف حقاً أن ذهابه من الطائف إلى نجران كان عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السروات ماراً بمدينتي بيشة وأبها في بلاد عسير، ثم عاد من نجران إلى ظهران الجنوب وسلك عقبة شراقب التي أوصلته إلى صبيا وجازان، وعند عودته إلى مكة المكرمة رجع من الطريق المحاذية لساحل البحر الأحمر . وبهذه الكيفية فإن أعالي السروات وسفوحها الغربية الممتدة من ظهران الجنوب في بلاد قحطان جنوباً (ما عدا مدينة أبها وما حولها) إلى مدينة الطائف شمالاً، قد خسرت وخسر أهلها الشيء الكثير لعدم مرور هذا الرحالة القدير على هذه المواطن . ومن يذهب في هذه البلاد قديماً وحديثاً فإنه يشاهد العديد من الجوانب العلمية والفكرية والحضارية الكثيرة، ويكفي أنها مكتظة بالقرى والسكان الذين نزلوا بها وعاشوا منذ الآف السنين، وكانوا ضمن المشاركين في التاريخ الحديث أثناء قيام الدولة السعودية الحديثة، ويوم زيارة فيلبي المعنية في هذا البحث . ومن خلال استقرائي تاريخ هذه المنطقة والسير في جنباتها لسنوات طويلة، وجدتها منسية، فلا تكاد تجد شيئاً مدوناً عن تاريخها القديم والوسيط، وأحياناً الحديث،

وإن وجد بعض الإشارات البسيطة في الكتب الكلاسيكية القديمة، أو مصادر التراث الإسلامي المبكرة فهي في الواقع محدودة جداً، وكثيراً ما يطَّلع الباحث على مئات المصادر فلا يخرج إلا بمادة علمية غامضة. وربما وعورة أرضها في الماضي، وصعوبة التعامل مع عشائرها وقبائلها لانغلاقهم على أنفسهم كانت من الأسباب التي تجعل العلماء وأرباب القلم والجيوش والحجاج بين اليمن والحجاز يسلكون الطرق الشرقية أو الساحلية العربية لهذه المرتفعات السروية . أما عدم مرور فيلبي بها فربما كان لديه سيارات تنقله من مكان لآخر، كما حدث معه من الطائف إلى بيشة، وكذلك في أبها، ونجران، وجازان، والقنفذة . وعند مجيئه إلى المنطقة في هذه الرحلة، لم يكن هناك طرق للسيارات في هذه المرتفعات الآنفة الذكر . ثم إن الملك عبد العزيز هو الذي رسم له خطة السير وقدم له العون مادياً ومعنوياً في جميع النواحي التي مر بها .

١٠. أما طريقتنا في مراجعة هذه الدراسة فقد ارتكزت على تصحيح أسماء الأعلام (سواء كانت مكانية، أو زمانية، أو إنسانية أو حيوانية) وهي كثيرة جداً، واعتمدنا في التصحيح على عدة أمور مثل :

زيارة أغلب المناطق التي جاءها فيلبي، والالتقاء بأعيان ومتعلمي تلك النواحي، ثم السماع منهم حول ما أورد هذا الرحالة عن بلادهم وتصحيح ما وقع فيه من أخطاء . الرجوع إلى أكثر من مائة مصدر ومرجع لمقارنة بعض ما ذكر فيلبي في كثير من القضايا، أو للقراءة والاستزادة من هذه المصادر والمراجع التي تعرضت لبعض الجوانب العلمية الخاصة بهذه البلاد المذكورة في هذه الدراسة . وطريقة رجوعنا إلى هذه المصادر والمراجع ثم توثيقها، ولذلك فإننا نورد المصدر أو المرجع بمعلومات كاملة عند أول مرة يرد معنا، وفي حالة تكراره نذكره باختصار.

وفي الختام فإنني أشكر القائمين على مكتبة العبيكان، وعلى رأسهم الأخ الأستاذ / محمد العبيكان، المدير العام للمطبعة والمكتبات، والعاملين معه في إدارة النشر أمثال : الأستاذ / عماد الريحاوي، والأستاذ / سارية الخطيب، والأستاذ / خالد البحيري الذين وثقوا في فمنحوني مراجعة هذا الكتاب القيم الذي استفدت منه كثيراً، بل تعاونوا معي بشكل كبير قرابة عام من الزمان أثناء مراجعته، وتدقيق

معلوماتــه، وإعادة إصــلاح مــا ورد به من أخطاء . كما أشــكر القائمين على اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة وعلى رأســهم رئيسه الأستاذ الدكتور/ سعيد عبد الفتاح عاشــور الذين سمحوا لي للحديث عن موضــوع هذا الكتاب أمام نخبة متخصصة من المؤرخين العرب الأفاضــل في بلاد مصر العظيمة، ثم نشره في مداولات الندوة التي عقدة تحت شعار : العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة .

ولا يفوتني أنٍ أشكر كل من تعاون معي في جميع المناطق التي زرتها وزارها فيلبي قبل ســبعين عاماً : في كل من بلاد عســير، وجازان، ونجران، فلقد قابلت عشرات الأشــخاص منهم، وهم يتفاوتون في مناصــبهم الاجتماعيــة، وألقابهم الوظيفية، وكذلك في ســنوات أعمارهم، وقد قدموا لي مســاعدات كثيرة يصــعب حصــرها وحصر أسمائهم في هذه الأوراق المحدودة، فلهم مني جزيل الشكر والعرفان .

كما لا أنســى شــكر طلابي في برنامج الدراســات العليا الذين تعاونوا معي في تصــحيح كثير من الأخطاء التي وردت في هذا الكتاب، وبخاصة في أسماء الأماكن والأشــخاص والقبائــل . ولا يفوتنــي شــكر جميع الأخــوة الزملاء في قســم العلوم الاجتماعيــة بجامعة الملك خالد، الذين حددوا لي محاضــرة في القســم حول هذا الكتــاب بعنــوان : وقفة مع جنــوب الجزيرة العربيــة في كتاب مرتفعــات الجزيرة العربية لهاري ســانت جون فيلبي، وأشكر أيضاً الأخ الزميل الدكتور / عبد اللّه بن حميِّد الذي قدم لي بعض الملاحظات الجيدة أثناء قراءة هذا البحث قبل نشره .

وأخيراً إنني لا أجامل أحداً، وإنما أقول كلمة الحق، فهذا الكتاب يعد من أفضل الكتــب التــي رجعت إليهــا على مدار ثلاثــين عاماً عن هذه البــلاد (جنوب البلاد الســعودية) ، من حيث شــموليته ودقة معلوماته إلى حد ما . واللّه أســأل أن يجزي من قام على ترجمته ثم طباعته ونشــره خير الجزاء، وأن يجعل أعمالنا وأعمالهم خالصة لوجهه الكريم، كما أسأله السداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

٩- بلاد عسير
في
كتابات (فيلبي) و(فيليب ليبنز) *

* نُشر في كتاب :

صفحات من تاريخ عسير

ط٢ : ١٤٣٤هـ - ١٤٣٥هـ، الرياض، مطابع الحميضي ، ص ص ٢٧٥ - ٣٤٨

بلاد عسير في كتابات فيلبي ، وفيليب ليبنز

أولاً : المقدمة :

إن شبه الجزيرة العربية،جنوبيها بعامة، ومنطقة عسير بخاصة من المناطق التي عانت،عبر العصورالإسلامية، قصوراً في تدوين تاريخها وتراثها؛ وذلك لعدة أسباب منها :

١. بعدها عن مواطن الحضارات الإسلامية في كل من الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب وغيرها، فبعد خروج مقر الخلافة الإسلامية من شبه الجزيرة في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) شابها فقر في تدوين تراثها وحضارتها.

٢. إن صعوبة التضاريس في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية، مثل: منطقة عسير وما حولها، جعلها في معزل عن بقية بلدان العالم، مما جعلها منسية في أغلب كتب التراث الإسلامي خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة.

أما وضع منطقة عسير في العصر الحديث والمعاصر فإنه أحسن حالاً من العهود الإسلامية السابقة، حيث بدأ الاهتمام بها من الناحية العلمية والفكرية، فظهر خلال القرنين الماضيين عدد من المؤرخين بدأوا الكتابة عنها وإبراز أهميتها السياسية والحضارية [١]، ولم يقتصر هذا الاهتمام على المراجع والمصادر العربية فحسب، بل ظهر بعض الأوربيين الذين أدرجوها ضمن بعض مؤلفاتهم [٢]، ثم وفد بعض الرحالة الأوربيين إليها، فدونوا عنها كتباً لخصوا فيها رحلاتهم وتجاربهم ومشاهداتهم في تلك الربوع، وكما سجلوا وجهات نظرهم عن تاريخ وآداب وحضارة إقليم عسير . وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الرحالة الأوربيين جاءوا إلى منطقتنا المعنية بالدراسة لأهداف معينة، فإنهم بدون شك جمعوا لنا مادة علمية قيمة صورت لنا مظاهر الحياة في بلاد عسير خلال الفترات التي جاءوا فيها . وسبب اختيارنا هذا البحث هو الشعور بأن ما دونه بعض أولئك الرحالة يحتاج إلى التوقف معه لكي نرى كيف رأوا إقليم عسير . ثم إن كتبهم التي وصلتنا

---

(١) حافظ وهبة . جزيرة العرب ، ص٣٣ ؛ فؤاد حمزة . في بلاد عسير، ص١٤٥، ٢٦٣-٢٦٩؛ محمود شاكر. شبه جزيرة العرب ، عسير ، ص١٤٢ومابعدها ؛ يحيى الألمعي. رحلات في عسير ، ص٣٤ - ٣٥؛ هاشم النعمي . تاريخ عسير ، ص٤ ومابعدها.

(٢) جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب ، ص٢٥١ - ٢٧١ .

تعدّ حقيقة مـن المراجع الجيدة التي دونت تاريخ وحضـارة إقليم عسـير في فترة لم يكـن قـد دُوِّن عنه الشـيء الكثير٠ ولهذا فقد قصـرت دراسـتي على اثنين من الرحالة الأوربيين الذين وفدوا إلى منطقة عسير خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)٠ وقد دوّنا عنها دراسات تم نشرها وتداولها فيما بعد . وعند الاطلاع على سيرتيهما نجدهما :[١]

١. هـاري سـانت جـون فيليبـي، أو (عبـد الله فيلبـي) الـذي سـطر كتاباً بعنوان : " نجود الجزيرة العربية" .
٢. فيليب ليبنز الذي ألف كتاباً بعنوان : " رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية" .

هذان الرحالتان هما محور حديثنا في هذه الورقة، وقد قسـمنا خطة الدراسة إلى محاور أربعة هي على الترتيب التالي :-

١. إعطاء فكرة عن المفهوم الجغرافي والسياسـي لإقليم عسير خلال القرنين التاسـع عشر والعشرين الميلاديين ، وبذلك يتضح لنا المسار الذي نستطيع أن نتحرك من خلاله أثناء فترة أولئك الرحالة .

٢. الإشـارة إلى نبذة تاريخية وسياسـية لإقليم عسـير خلال القرنين الثالث عشر الرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) .

٣. ترجمـة موجـزة لهذيـن الرحالتـين الأوربيين مـع الإشـارة إلى أعمالهما وظروف بعثهما إلى بلاد عسير .

٤. دراسة نقدية تحليلية لما دونه كلٌ منهما عن منطقة عسير، مع العناية بإجراء دراسـة مقارنة بين ما دونه كل منهما، وتبيان أوجه الشبه والاختلاف فيما بينهما٠ والخروج ببعض النتائج المهمة من وراء تلك الدراسة .

ثانياً - مفهوم إقليم عسير :

حتى تتضـح لنا الصـورة حول تسمية" عسـير" ، فإننا سوف نقدم نبذة يسيرة عـن مفهوم التسـمية لهذه البلاد وعـن المترادفات لها المسـتخدمة في أيامنا هذه،

(١) انظر فيليب ليبنـز ، رحلة استكشافية ، ص ٨ وما بعدها ،

Philby, Arabian Highlands, pp. 28 ff.

كإقليم عسير، وبلاد عسير ،ومنطقة عسير، وعسير قصد الاختصار، والذى يتبادر للأذهان، هل كانت عسير معروفة للجغرافيين والمؤرخين الأوائل بهذا الاسم؟ فإذا كان الجواب بالنفي ، فكيف ظهرت هذه التسمية ؟ وما الدافع في إطلاق التعميم عليها ؟ وهل حلت محل تسميات سابقة لها ؟

والثابت في المصادر الجغرافية والتاريخية، وكتب التراث الإسلامي، عدم ذكر هذه التسمية وبيان معالمها الجغرافية، باعتبارها وحدة مستقلة عن الحجاز أو اليمامة أو البحرين أو اليمن، التي تعد إدارياً تابعة لدار الخلافة بالمدينة المنورة، ثم دمشق وبغداد أيام الأمويين والعباسيين .

وفي هذا الصدد يشير الهمداني (٢٨٠-٣٣٤هـ) في كتابه : صفة جزيرة العرب، إلى اسم عسير، ويذكر ما نصه : ((ويصالي قصبة جرش أوطان حزيمة من عنز ، ثم يواطن حزيمة عن شاميها عسير، قبائل من عنز وعسير يمانية تنزرت، ودخلت في عنز، فأوطان عسير إلى رأس تيه، وهي عقبة من أشراف تهامة، وهي أبها وبها قبر ذي القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة، والدارة ، والفتيحا، واللصبة، والملحة، وطبب، وأتانة، وعبل، والمغوث، وجرشة، والحدبة، هذه أودية عسير كلها ...)[1] وفى موضع آخر يذكر الهمداني مايلي: (والدارة، وأبها، والحللة، والفتيحا، فحمرة وطبب، فأتانة والمغوث، فجرشة، فالأيداع أوطان من عسير من عنز وتسمى هذه أرض الطود...)[2].

والشيء المميز في هذه المعلومات التي أوردها الهمداني، هو قدمها الذي يعود إلى بداية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادي) ، وما عدا ذلك فإنها غير كافية في توضيح تسمية بلاد عسير، وإنما أوردها ضمن عنوان عام سماه (جرش وأحوازها) وبمعرفة موقعها من سياق الحديث في ذكر المواطن التي أشار إليها الهمداني، تجدها تشغل مساحة صغيرة من مخلاف أو (إقليم جرش) الذي كان يشمل أغلب أجزاء عسير في أيامنا، ولم تكن عسير في عهد الهمداني تشمل إلا جزءاً بسيطاً، هو الموقع القائم عليه الآن مدينة أبها وما حولها، أو ما يسمى بمواطن قبائل عسير المعروفة باسم : بني مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك.

---

(١) انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه .

وبعد الهمداني جاء عدد من الجغرافيين والرحَّالة المسلمين فتعرضوا لأجزاء من منطقة عسير دون تسميتها بهذا الاسم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : ابن خرداذبة، والإصطخري، وابن حوقل، والإدريسي، والبكري، وياقوت الحموي، وابن جبير، وابن المجاور وغيرهم ، فبعض منهم ذكر أقسام شبه الجزيرة العربية بما فيها أجزاء من منطقة عسير وضمها إلى بلاد الحجاز، وأحياناً يسميها بعضهم بسلسلة جبال الحجاز ، بخاصة القسم الجبلي من السلسلة، وسميت جزءاً من بلاد السراة، وأحياناً أخرى ينعتها بعضهم باسم السروات التي سميت بتسميات متعددة حسب أقسامها، ومنها : سراة جنب، وسراة عنز، وسراة الحجر، وسراة خثعم، وسراة دوس، وسراة بجيلة، ثم استمر في ذكر سروات أخرى حتى الطائف، وهذا التركيز من جانب بعض الجغرافيين، الذين أوردوا مسمى السروات، أوضح لنا مجموعة أسماء السروات التي تقع في إقليم عسير في عصرنا هذا، وهي سراة جنب (قحطان)، وسراة عنز (عسير)، وسراة الحجر (والمقصود بها بلاد بللحمر، وبللسمر، وبني شهر، وبني عمرو) وسراة خثعم (وهي أجزاء من بلاد بلقرن وشمران وخثعم)، دون أن يرد ذكر اسم عسير على وجه الإطلاق في التسمية، وفي روايات أخرى ذكر مصطلح (مخاليف) أو (نواحي) ،كأن يقال مخلاف جرش، أو تبالة، أو نجران أو حلي وغيرها من المسميات دون ذكر مسمى عسير على تلك النواحي أو المخاليف[1] .

والواقع أن ما يشتمل عليه مصطلح إقليم عسير لم يكن معروفاً لدى المؤرخين والجغرافيين الأوائل، وإنما جميع الولايات الكبرى في شبه الجزيرة العربية (كاليمن والحجاز، واليمامة والبحرين) كانت تابعة لدار الخلافة الإسلامية في دمشق ثم بغداد، وكثيرا ما كانت تشمل الأجزاء الداخلية في بلاد تهامة والسراة، أو البلاد الواقعة بين مكة المكرمة والطائف شمالاً، وحواضر اليمن الكبرى جنوباً كانت كلها تخضع في بعض الأحيان لسلطة شيوخ القبائل المحليين في تلك الأجزاء، وقد نستنتج أن بلاد عسير وما حولها من المناطق لم تكن لها حدود سياسية ثابتة

(١) للمزيد من التوضيحات عما ذكره الجغرافيون والرحالة المسلمون الأوائل عن بلاد عسير. انظر: ابن خرداذبة . المسالك والممالك ، والاصطخري. مسالك الممالك ، وابن حوقل . صورة الأرض، وابن جبير، رحلة ابن جبير، وياقوت الحموي. معجم البلدان، وابن المجاور. تاريخ المستبصر؛ علي عسيري. عسير، ص٢٣ومابعدها ؛ غيثان بن جريس " بلاد تهامة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل..." ، ص٧٣ ومابعدها ، وللمؤلف تفسه ، دراسات في تاريخ تهامة والسراة ، جـ ١ ، ص ٢١ وما بعدها .

وإنما كانت تعتمد على المفهوم الجغرافي، فعسير لم تكن معروفة وحدةً جغرافية وإدارية خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسطى، لكنها تمتعت باستقلال إداري دون غيرها من مناطق الجزيرة، وإن كان الأمر يتفق مع وحدتها الجغرافية في مأمن من الطامعين فيها من قبل حكام الإمارات المجاورة لها التي أعلنت استقلالها إبان العصور الوسطى، وقد حاول بعض منها بسط سيطرتها عليها، لكن هذه السيطرة سرعان مازالت بسبب شدة مراس أهلها وأنفتهم، وعدم خضوعهم لغيرهم إلى جانب كثرتهم، ووعورة المنطقة وصعوبة مسالكها[١] .

لقد ظهر اسم عسير مصطلحاً سياسياً وجغرافياً في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر للهجرة، وبخاصة عند الكتاب الغربيين، ومنهم البريطانيون، حيث كلفت الإدارة البريطانية القسم الجغرافي والمخابرات البحرية البريطانية، بإعداد بحث عن عسير يتضمن موقعها وحدودها، ومظاهر الطبيعة المختلفة، وأحوال السكان من حيث العادات وطرق العيش، إلاَّ أن ذلك البحث لم يوضح حدود قبيلة عسير بالنسبة لبقية القبائل الساكنة في هذا الإقليم، لكنه أشار إلى أن اسم عسير اقتصر على التلال الرئيسة والمنطقة التي تعيش فيها قبائل بني مغيد، وعلكم، وبني مالك، وربيعة ورفيدة، وجميعهم يسكنون حول العاصمة أبها بمسافات متفاوتة،وحتى ذلك الحين لا تعرف تلك القبائل حدودا معروفة وثابتة لعسير[٢] .

وتلا هذه الدراسة، دراسات عديدة، رسمت صورة أوضح للحدود الجغرافية للإقليم العسيري، فبعضها يشير إلى حدود عسير في نطاق محيط القبائل العسيرية الأصلية، وهي بنو مغيد، وعلكم، وبنو مالك، وربيعة ورفيدة، في حين أن هناك كتابات أخرى أضافت بلاداً أخرى إلى محيط القبائل السالفة الذكر، وأضاف آخرون بعض القبائل المجاورة والقريبة من بلاد عسير من الشمال فامتد إلى الليث وغامد وزهران وبيشة ومن الجنوب إلى ظهران الجنوب ونجران وجيزان٠ وهذا التباين نتج من الأحداث السياسية والعسكرية التي عاشتها منطقة عسير، فالإمارة في أبها امتد نفوذها إلى مناطق أبعد من المدينة نفسها، مما

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الإمارات التي ظهرت في اليمن والحجاز خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسطى ، ثم محاولة حكامها مد نفوذهم على بلاد عسير انظر، تاريخ مكة المكرمة ، للسباعي ، والمقتطف من تاريخ اليمن٠ جمع القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني ، غيثان بن جريس . نجران دراسة تاريخية وحضارية (ق ١ – ق ٤ هـ / ق ٧ – ق ١٠ م) الجزء الأول .

(٢) انظر : علي عسيري ٠ عسير ، ص ٣٥ ؛ غيثان بن جريس ٠ صفحات من تاريخ عسير ، جـ١، ص ٧-١١ ٠

أصبغ عليها وعلى المنطقة المحيطة بها اسم عسير، وبهذا تم تحديدها وتسميتها بهذا الاسم ليشمل المنطقة الممتدة من زهران شمالاً إلى ظهران الجنوب جنوباً، بناء على المفهوم السياسى والتاريخي للمنطقة دون المفهوم الجغرافي[١] .

وخلاصة القول أن (عسير) لم تكن معروفة بهذا الاسم في العصور الإسلامية الوسطى، وإنما هو مصطلح حديث لم يتجاوز تاريخ ظهوره أكثر من قرنين ونصف القرن .

ثالثاً- نبذة تاريخية وسياسية عن إقليم عسير خلال القرنين ١٩/ ٢٠م

منذ السنوات الأولى في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وعسير بجميع قبائلها كانت تُحكَم عن طريق رؤساء القبائل المحليين، فكانوا أصحاب النفوذ في إدارة شؤون بلادهم التي عمت فيها الفوضى والخلافات المتعددة، وفي الوقت نفسه كانت قد ظهرت دعوة الإصلاح التي قام بها الشيخ /محمد بن عبد الوهاب في نجد، ثم انتشرت مبادىء تلك الدعوة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، فلم يحل منتصف العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) إلاَّ وقد ظهر بعض المصلحين في بلاد عسير، كمحمد وعبد الوهاب أولاد عامر أبي نقطة اللذين انضما إلى دعوة الشيخ / محمد بن عبد الوهاب، فقاما بنشر مبادئها بين أهالي عسير، وعملا جاهدين على حكم البلاد العسيرية، تحت مظلة الدولة السعودية الأولى (١١٥٧- ١٢٣٣ هـ /١٧٤٤-١٨١٨م)[٢] .

وبعد عهد أولاد أبي نقطة (١٢١٥-١٢٢٤هـ/١٨٠٠-١٨٠٩م)، تولى الإمارة في عسير أحد أبناء عمومتهم ويدعى طامي بن شعيب فواصل سياسة أبناء عامر أبي نقطة في حكم البلاد، إلاَّ أن الظروف في عهده اختلفت عما سبقه، وذلك بظهور عدو جديد للدولة السعودية، وهذا العدو كان متمثلاً في والي مصر التابع للدولة العثمانية، محمد علي باشا، الذي كُلف من قبل الحكومة العثمانية في الآستانة، بأن يرسل جيوشه إلى شبه الجزيرة العربية لمحاربة ابن سعود هناك، وعلى أثر ما جاء محمد علي من أوامر أرسل الجيوش إلى كل من نجد والحجاز وكذلك الأجزاء العسيرية التي كان يحكمها طامي بن شعيب، فدارت معارك متعددة بين أهالي نجد والحجاز والبلاد العسيرية وبين جيوش محمد علي في الفترة مابين (١٢٢٦هـ

---

(١) المرجع نفسها .

(٢) انظر : علي عسيري. عسير، ص١٢١ ومابعدها ، النعمي . تاريخ عسير ، ص ومابعدها ؛ غيثان بن جريس . بلاد بني شهر وبني عمرو ، ص٤٣ ومابعدها.

/١٨١١م - ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م)، ولكن في عام (١٢٢٨هـ /١٨١٣م)قرر محمد علي باشا أن يذهب من مصر إلى شبه الجزيرة العربية لكي يقود جيوشه بنفسه ضد ابن سعود ومن والاه، وعند وصوله إلى بلاد الحجاز اشتبك في حروب عدة مع القبائل والجيوش الموالية لابن سعود، وكان من ضمن تلك الجيوش قبائل عسير التي كان يتزعمها ويقودها الأمير طامي بن شعيب، ومن أشد المعارك التي حدثت بين الطرفين معركة وادي بسل بأرض تربة ، جنوب الطائف ، في عام (١٢٣٠هـ /١٨١٤م)، حيث هزمت فيها الجيوش الموالية لابن سعود، ثم تعقب محمد علي باشا بعدها القبائل العسيرية متجهاً نحو الجنوب حتى وصل إلى مدينة أبها، فحاصر طامي بن شعيب بها حتى سيطر عليها وقبض على الأمير طامي وأرسله إلى تركيا ليُقتل هناك، ثم بقي بمدينة أبها شهرين وعدة أيام استقبل خلالها شيوخ قبائل عسير وأعيانها لتقدم له الولاء والطاعة[١]، ثم غادر بعد ذلك بلاد عسير راجعاً إلى مصر بعد أن ترك بها حامية عسكرية عثمانية، لكن هذه الحامية التركية لم تستمر أكثر من ستة أشهر في حكم بلاد عسير، لأن أحد أبناء عم الأمير طامى بن شعيب، ويدعى محمد بن أحمد المتحمي، قام بثورة محلية استطاع فيها أن يطرد تلك الحامية التركية ويسيطر على البلاد، غير أنه لم يتمتع بنجاح ثورته إلا فترة لاتزيد عن العام، لأن جيوش محمد علي باشا ذهبت من الحجاز إلى بلاد عسير مرة ثانية فسيطرت عليها وأعادت الحامية التركية التي طردها محمد أحمد المتحمي إلى مقرها في حكم البلاد[٢].

عندما لم يستطع محمد بن أحمد المتحمي التصدي لجيوش الأتراك، فرّ هارباً إلى منطقة جازان واتصل بأمير تلك البلاد حمود أبي مسمار (١٢١٦هـ /١٨٠١م- ١٢٣٣هـ/١٨١٧م) طالباً منه العون في طرد الأتراك من عسير، بل رحب به ليستولي عليها، فكانت فرصة الأمير حمود حيث استطاع طرد الأتراك وسيطر على بلاد عسير في عام (١٢٣٢هـ/١٨١٦م)، ثم خلفه في حكمها ولده أحمد بن حمود أبي مسمار، ثم وزيره الحسن بن خالد الحازمي[٣] . ولكن جيوش الأتراك في الحجاز مع شريف مكة،محمد بن عبد المعين بن عون، لم تتوانَ في محاربة" أبي مسمار" في عسير ومحاولة إعادتها إلى حظيرة الدولة العثمانية، وفعلاً تم لها ما كانت تسعى إليه حيث استطاعت أن تسيطر عليها عام (١٢٣٤هـ / ١٨١٨ م) .

(١) النعمي ، تاريخ عسير ، ص١٣٢ ومابعدها ، ابن جريس ، بلاد بني شهر ، ص٥٠-٥١ .

(٢) النعمي ، ص١٥٧-١٥٩ ، ابن جريس، بلاد بني شهر ، ص ٥١؛ عسيري. عسير، ص١٢٤ ومابعدها.

(٣) انظر تفصيلاً أكثر عن إمارة حمود أبي مسمار ومن خلفه على بلاد عسير. النعمي، ص١٥٩ مابعدها ، العقيلي ، المخلاف السليماني ، جـ١ ، ص٤٤٧ ومابعدها.

كان الشريف محمد بن عبد المعين بن عون يتزعم الجيوش التركية التي استردت بلاد عسير من يد الحسن بن خالد الحازمي، الذي خلف أحمد بن حمود أبي مسمار في حكم البلاد، وهو الذي قبض على سلالة أسرة آل المتحمي وأرسلهم إلى مصر ليتم القضاء عليهم هناك ؛ واستمر حكمه لبلاد عسير مدة أربع سنوات (١٢٣٤هـ /١٨١٨م ـ١٢٣٨هـ /١٨٢٢م) بعدها قام أحد رجال مغيد[١] ويدعى سعيد بن مسلط المغيدي، فطرد جيوش الأتراك وقوات الشريف محمد بن عون وتمت سيطرته على بلاد عسير .

وامتد نفوذ الأمير / سعيد بن مسلط المغيدي تجاه الشمال فوصل إلى بلاد غامد وزهران، لكنه لم يدم طويلاً في الإمارة، فخلفه أحد أبناء أسرته ويدعى علي بن مجثل المغيدي، الذي عرف بنصرته للإسلام وخدمته له، وقد استطاع أن يتصدى للشريف ابن عون والأتراك لفترة من الزمن[٢] .

وفي عام (١٢٤٩هـ /١٨٣٤م) توفي الأمير/ علي بن مجثل بعد أن أوصى بعائض بن مرعي المغيدي ليكون أميراً لبلاد عسير من بعده [٣] . لكن لم يكد عائض بن مرعي يتولى الإمارة، حتى قام الشريف محمد بن عون والقائد التركي في الحجاز أحمد باشا بشن هجوم على الأجزاء الواقعة جنوبي بلاد غامد وزهران فسيطرا عليها بعد أن كانت تحت نفوذ ابن مرعي المغيدي، وفي ظل هذه الظروف لم يستطع عائض بن مرعي رد هجومهما، لكنه عقد معهما اتفاقية في عام (١٢٤٩هـ /١٨٣٤م)، تنص على أن تكون تنومة وبلاد بارق من أرض بني شهر هي الحدود الشمالية لإمارته وبهذه الاتفاقية تكون الأجزاء الشمالية من بلاد بني شهر وجميع منطقة بني عمرو قد دخلت تحت حكم الشريف محمد بن عبد المعين بن عون وأحمد باشا التركي[٤] ومن الواضح أن عائض بن مرعي لم يوافق على هذه الاتفاقية إلاَّ لأسباب قد تكون داخلية، ومن المحتمل أنه أراد توطيد أوضاعه الداخلية وتقوية جيوشه، ثم يعود لمحاربة الشريف ابن عون، وهذا ما

---

(١) مغيد إحدى القبائل الكبرى في إقليم عسير.

(٢) ابن جريس. بلاد بني شهر، ص٥٢ .

(٣) انظر تفصيلات أكثر عن الأمير عائض بن مرعي وابنه محمد في كتاب ، عاكش. الدر الثمين ، ص٦ ومابعدها ؛ عسيري ، عسير، ص١٦٠ ومابعدها.

(٤) عسيري. عسير، ص ١٨٨ .

حدث بالفعل فلم ينصـرم عام واحد بعد تلـك الاتفاقية التي عقدها مع محمد بن عون وأحمد باشـا، إلاَّ ونراه قد عاود الكّرة لمحاربة جيوش الشـريف وأحمد باشـا، حتى اسـتطاع طردهـم من جميع المناطق الواقعة جنوبي بـلاد غامدٍ وزهران، وفي عام (١٢٥٣هـ /١٨٣٧م) أرسـل القائد التركي أحمد باشـا جيشـاً ليقابل جيوش ابـن مرعي في بـلاد غامد، فدارت المعـارك بين الطرفين حتى انتصـرت الجيوش العثمانية على جيش عائض بن مرعي وقَتلت وأسرت منهم أعداداً كبيرة [١].

استمرت بلاد عسير وامتداداتها حتى حدود بلاد غامد وزهران تحت حكم الأمير عائض بن مرعي، وعند وفاته عام (١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م) تولى إمارة البلاد من بعده ولده محمد بن عائض بن مرعي الذي عقد مصـالحة مع شريف الحجاز عبد الله بن محمد ابن عبد المعين بن عون، وافق فيها على التراجع عن السـيطرة على بلاد غامد وزهـران وأن يكتفـي بحدوده الشـمالية عند بلاد شـمران[٢]، ولكنه عاد فعزز من قواته في حاضـرة أبها، ثم ذهب لمحاربة الجيوش التركية نحو الجنوب، واسـتطاع الوصول إلى الحديدة في اليمن والتي كادت تقع في قبضته، لكن الحكومة العثمانية في الآستانة أمرت جيوشها في الحجاز بالتوجه إلى أبها والسيطرة عليها، وعندما سمع محمد ابن عائض بالتجهيزات التي أعدتها الحكومة العثمانية عاد مسرعا إلى عاصمته أبهـا للدفـاع عنهـا ووصلت في أثره الجيوشـ العثمانية عـام (١٢٨٩هــ / ١٨٧٢ م) التي استطاعت الاستيلاء على أبها وتعقبت الأمير / محمد بن عائض ومن كان معه حتى ألقت القبض عليه وتم قتله ووضع إقليم عسير تحت سيطرتها[٣] .

وهكـذا دخلـت بلاد عسـير بعد القضـاء على الأمير محمد بـن عائض تحت الحكم العثمانى، وصار يتولى أمرها منذ ذلك الحين والٍ تركيّ يقيم في حاضرة أبها وتتبعه ثمانية مراكز في أجزاء مختلفة من إقليم عسًـير[٤]، واسـتمرت البلاد العسـيرية ترزح تحت الحكم العثماني، الذي سـعى إلـى نشـر الفوضـى والسـلب والنهب بين أفراد القبائل، بل ساعد على نشر الجهل ومحاربة كل من يسعى إلى التصـدي للسـيطرة التركية، سواء من أفراد القبائل ومشـائخهم، أو من الأمراء المحليين، الذين كانوا يحاولون الحصـول على الاسـتقلال والتخلص من السيطرة

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩٣- ١٩٨، النعمي، تاريخ عسير، ص١٩٢-١٩٥ .

(٢) النعمي، ص٢٠٤، ابن جريس. بلاد بني شهر، ص٥٤ .

(٣) عسيري، عسير، ص٢٧٩، ٣٥٦ ؛ الحفظي، تاريخ عسير، ص٩٩ ومابعدها.

(٤) انظـر عدد تلك المراكز الإدارية في كتاب . النعمي، ص ٢١٦-٢١٧، محمود شـاكر، ص٢٢، ابن جريس . أبها حاضرة عسير، ص٥١-٥٥ .

العثمانية وبقيت الأحوال في هذه البلاد على هذا الوضع حتى مجيء العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، حيث انسحبت الجيوش التركية من إقليم عسير، ومن أجزاء شبه الجزيرة العربية الأخرى، وتركت الحكم للأمراء المحليين في البلاد [(١)] .

وفي عصر سيطرة القوات العثمانية على إقليم عسير (١٢٨٩- ١٣٣٧هـ / ١٨٧٢-١٩١٨م) نجد أن الإمام الإدريسي الذي ظهر في صبيا بمنطقة جازان[(٢)]، كان يسعى إلى مد نفوذه إلى البلاد العسيرية السروية والتهامية الممتدة من رجال ألمع جنوباً حتى بلاد غامد وزهران شمالاً، وكل ذلك كان في الأعوام التي كان يتولى فيها الولاية في إقليم عسير الوالي التركى سليمان شفيق باشا (١٣٢٦ -١٣٣١هـ/١٩٠٨-١٩١٢م)، وقد نجح الإدريسي في اقتطاع أجزاء من منطقة عسير، بل وصل به الطموح إلى أن يقضي على الأتراك في عسير ويسيطر على عاصمة ولايتهم في مدينة أبها، فذهب إلى حاضرة أبها وحاصرها عام (١٣٢٨هـ /١٩١٠م) لكنه لم يستطع إسقاطها لشدة مقاومتها، وكذلك لإرسال المؤن إليها من قبل الشريف حسين ابن علي في الحجاز[(٣)]، وعندئذ رجع الإمام الإدريسي إلى مسقط رأسه في صبيا بمنطقة جازان، وبقى هناك حتى دخلت منطقة عسير تحت سيطرة الدولة السعودية الحالية عام (١٣٣٨هـ / ١٩١٩م)، ومنذ ذلك الحين وإقليم عسير جزء من أجزاء المملكة العربية السعودية،ولازالت مدينة أبها هي حاضرة منطقة عسير[(٤)] .

رابعا - التعريف بهذين الرحالتين، وأعمالهما، وظروف مجيئهما إلى عسير :

إن هذين الرحالتين فيلبي وفيليب ليبنز هما اللذان سيدور حديثنا عنهما، وعن أعمالهما، وخاصة مادوناه لنا عن إقليم عسير، وقبل المضي في استعراض كتابيهما

(١) للمزيد من المعلومات عن إقليم عسير خلال سيطرة الحكم العثماني عليها٠ العقيلي، المخلاف ، جـ١، ص٥٢٦ ؛ النعمي ، ص٢٠٨ ومابعدها، ابن جريس ، صفحات، جـ١ ، ص٦٧-٩٠؛ ابن جريس " وثائق من عسير خلال الحكم العثماني (١٢٨٩-١٣٣٧هـ)٠ مجلة العرب، ص١٥٤ -١٧٠ ٠

(٢) الإمام الإدريسي ، هو :- محمد بن علي بن محمد بن أحمد الإدريسي ولد في بلدة صبيا بمنطقة جازان عام ١٢٩٣هـ ، وتعلم على بعض علماء الصوفية في كل من مصر وليبيا والسودان ، ثم رجع إلى مسقط رأسه في صبيا فلعب دوراً أساسياً كبيراً في تلك المنطقة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ٠ لمزيد من التفصيلات انظر :- محمود شاكر ٠ عسير، ص٢٣٣-٢٤٦؛ النعمي ، تاريخ ، ص١٨٢ ومابعدها٠

(٣) للمزيد انظر٠ النعمي ، ص٢٢٤ ومابعدها ؛ الملكاوي ، العلاقة بين أمراء الأدارسة في عسير وأشراف مكة ، ص١٧ ومابعدها ٠

(٤) انظر ابن جريس ، أبها حاضرة عسير ، ص١٤ ومابعدها ٠

حيث تعرضا فيهما لمنطقة عسير، فإنه من الأجدر التعرف على شخصيتيهما، وخلفياتهما التاريخية، في المقام الأول إلى جانب التعرف أيضاً على أعمالهما والظروف التي دفعت بهما للمجيء إلى إقليم عسير .

١- سانت جون فيلبي (H.St. J. Philby) :

هاري سانت جون بريجر فيلبي(H.St.J.B. Philby) ، إنجليزي الجنسية ويدعى اختصاراً جاك أو (عبد الله فيلبي) والمولود في انجلترا عام (١٨٨٥م)، والمتوفى عام (١٩٦٠م)، فهو من معاصري أحداث القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، والتاسع عشر والعشرين الميلاديين . انخرط بداية حياته في وظائف عدة بالحكومة البريطانية، ثم قدم إلى شبه الجزيرة العربية في اليوم السابع عشر من تشرين الأول سنة (١٩١٧م)، حيث ذهب من البصرة إلى الأحساء ومنها اتجه إلى الرياض، حيث اجتمع لأول مرة بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وقد فصَّل ذلك في كتابه (أيام بلاد العرب Arabian Days) ، الذي قام بتلخيصه الأستاذ/ خيري حماد في كتابه (عبدالله فيلبي قطعة من تاريخ العرب الحديث) ونشره في بيروت عام (١٣٨١هـ /١٩٦١م) .

ويختلف فيلبي عن جميع الرحَّالة الذين قدموا إلى الجزيرة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر؛ وذلك لغزارة مؤلفاته عن شبه الجزيرة العربية، بل نستطيع القول بأنه امتاز بالريادة في الكتابة التاريخية عن المملكة العربية السعودية بخاصة والجزيرة العربية بعامة، وقد ذكر عنه الشيخ حمد الجاسر قوله :

((الحقيقة التي يجب أن تقال هي أنٍ فيلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصَّر عن مدها إليها من سواه)) [١] . أيضاً ذكر جورج رنتز (George Rentz) في حديثه عن فيلبي ((أنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد)) [٢] ويقصد بالبلاد، المملكة العربية السعودية، منوهاً في ذلك إلى أن السبب في تلك الغزارة يرجع إلى حصول فيلبي على مؤهلات الكتابة التاريخية عن هذه البلاد ومن أهمها معرفته التامة بجميع نواحيها، فقد عاش في شبه الجزيرة العربية

(١) انظر، حمد الجاسر. " فيلبي : رحلاته في البلاد العربية " مجلة العرب (عام ١٤٠٩-١٤١٠هـ) مج٢٤، ص١٠٥-١٠٨ .

(٢) جورج رنتز " فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية " ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي. مجلة الدرعية (السنة الأولى ، عدد (٢) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ، ص٦١ .

متنقــلاً بين ربوعها أكثر من أربعين عاماً، أي منذ أن وطئت قدماه أراضــيها لأول مرة عام (١٣٣٦هـ /١٩١٧م) إلى وفاته عام (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)[١] .

وإذا كان (عبــد الله فيلبــي) قد بــدأ حياته العملية في خدمــة الإمبراطورية البريطانيــة ككثــير من أبناء جلدتــه، فإنه بعد أن جاء إلى شــبه الجزيرة العربية، والتقى بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ثم دان بالإسلام صار عندئذ حميم العلاقة مع الملك عبد العزيز، وبالتالي أصبح من المقربين لدى الملك حتى إنه أرسله في عدد من المهام الخاصة بالدولة داخل البلاد وخارجها، وذكر فيلبي كثيراً من تلك المهام في مذكراته وكتبه ومقالاته الكثيرة [٢] .

وقد تــرك لنا المؤرخ والرحالــة فيلبي عدداً من المؤلفــات والمقالات المتنوعة في عناوينهــا وأطروحاتهــا، وجميعها دُوِّنت باللغة الرئيســة التــي يتكلمها فيلبي، وهي اللغة الإنجليزية، وبعضها قد ترجم إلى اللغة العربية .

وهناك كتب ومقالات أخرى عديدة لم نشر إليها، والغالب على معظم الدراسات التــي دونها فيلبي تميزها بوفرة المعلومات الجديدة في محتوياتها وطريقة تدوينها، كما أن المشاهدة وتنوع الخبرة عند هذا الرحَّالة جعلته يصبغ كتبه وأبحاثه بصبغة يســودها العمــق في التحليــل والتدوين حتى إننــا نجده أحياناً يخوضــ في جزئيات وتفاصــيل دقيقــة لا تتأتَّــى إلاَّ لمــن كان كثير الرحلــة والتجوال، وكان شــاهد عيان لتلك التفاصــيل، وعلى الرغم من أن جميع أبحاثه وموضوعاته تدور حول الجزيرة العربية، فإنها تميزت – كما ســبق القول – بالتنوع[٣]، ولذا ســوف نقتصــر في هذه

---

(١) المرجع نفسه ، ص٦١ – ٦٣ ٠

(٢) المرجع نفســه٠ انظر أيضاً تفصيلات أكثر عن ســانت فيلبي في كتاب اليزبيث مونرو(Elezabeth Monroe) في كتابهــا الشــهير٠ Philby Arabia (فيلبــي العــرب) والــذي طبع في عام (١٣٩٣هــ/١٩٧٣م) ، ص٣٠٧–٣١٣ ٠ ومونرو نشــرت في كتابها هذا أوســع دراسة علمية شــاملة عن فيلبي ، وقد قابلته لأول مرة عام ١٩٣٨م، وفي ســبيل الكتابة عنه ســافرت إلى كل قطر عمل فيه مثل الباكستان والعراق والأردن ومصر وفلسطين ولبنان وجزيرة العرب مستخدمة ما تضمنته أرشيفاتها من معلومات عنه٠

(٣) ويذكــر عن صــفات فيلبــي (Philby) أنــه كان يطمع منذ ريعان الشــباب في العظمة والشــهرة، وكان ذا مواهب متعددة ، وقدرة عجيبة في مجالات عدة كالإدارة والسياسة ، والتاريخ، والرحلات ، والآثار، وعلوم الطبيعة، والاقتصــاد والمال، وكان يتقن كثيراً من اللغات القديمة والحديثة٠ وللمزيد من التفصيلات عن حياتــه وأعمالــه انظر : كتاب فيلبي العرب، للأســتاذه مونرو (الطبعة الانجليزيــة) ، ص ومابعدها ، كما انظــر أيضــاً : ج ٠د٠ نورتــون " فيلبي رجل الجزيرة العربية " مجلة دراســات الخليج والجزيرة العربية (الكويت ، العدد الثالث ، جمادى الآخرة ، ١٣٩٥هـ) ، ص١٥١–١٥٩ ٠

الدراسة على عرض المؤلف الرابع عشر من مؤلفاته، الآنفة الذكر، والموسوم بـ" نجود الجزيرة العربية" [Arabian Highlands] لأنه ركز في جزء جيد من هذا الكتاب على إقليم عسير، الذي هو موضوع دراستنا، وهذا الكتاب هو أحد الكتب التي سوف نناقشها فيما بعد مع كتابات فيليب ليبنز، ونقدم عنها في الصفحات التالية دراسة تحليلية نقدية .

٢- فيليب ليبنز :

أما فيليب ليبنز فهو رحَّالتنا الثاني الذي تشمله هذه الدراسة، وهو أحد الضباط البلجيكيين الذين كانت لهم عدة مغامرات في الصحراوات العربية اتصف بالجرأة والإقدام، منذ عمل ملاحظاً للأمم المتحدة في فلسطين[١]، وقبل مجيئه إلى أراضي المملكة العربية السعودية .

ويعدّ ليبنز واحداً من أهم الشخصيات التي تكون منها فريق الاستكشاف الذي قاده فيلبي للقيام برحلة علمية استكشافية ارتاد فيها وسط وجنوب وجنوب غرب الجزيرة العربية. وكان أحد كبار مساعدي فيلبي في هذه الرحلة، ويتضح ذلك من المهام التي أسندت إليه خلالها فقد كلف بوضع ملخص عن أعمال هذه البعثة يشمل الناحيتين الأثرية والاجتماعية، علاوة على تكليفه بتصوير بعض المواقع الأثرية التي تزدحم بها المنطقة، وكان ذلك من منطلق كونه خبيراً في تخطيط الرسوم وتصوير ونسخ الآثار القديمة والنقوش، كما قام بدور الطبيب لأفراد البعثة .

أما روح المغامرة التي اتسم بها فيليب ليبنز فقد عُرفت عنه منذ أن كان طيَّاراً، ثم تحول به المسار، حيث شغف بقراءة التاريخ ودراسته عندما عمل بمنطقة فلسطين، وقام على تنمية هذه الهواية، وتعمق في قراءة تاريخ منطقة الجزيرة العربية بوجه خاص، ثم تخصص في تصوير الآثار والنقوش القديمة، وساعدته إجادته لعدد من اللغات على التميز في هذا المضمار، فقد أتقن اللغتين الانجليزية والفرنسية، بالإضافة إلى معرفة جيدة باللغة العربية والتعامل بها. ويؤكد فيلبي كل ما سبق في معرض حديثه عن شخصية ليبنز وأهم صفاته فيذكر تميزه بالمثابرة والصبر مع التواضع والقدرة الهائلة على تحمل الصعاب، ويواصل وصفه له بقوله ((إنه بذل

---

(١) فيليب ليبنز : رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية ، ص١٥ .

مجهوداً ناجحاً في تقريب دلالة التجوال في هذه المناطق الصحراوية...)) ، وأنه ((تابع التطور اليومي لهذا السفر باهتمام بالغ بكل دقائقه، وبروح تفهمية نادرة عن غيره ممن أتيحت لهم فرصة زيارة المملكة العربية السعودية))[١]. أما عن تواضعه فيستطرد فيلبي قائلاً عنه ((إنه تحمل عدم استقرار مزاجي (أي مزاج فيلبي) بهدوء لايقارن، بل إنه كان يمدحنى ويصفني بالحنكة التي تجعل الشوك يبرز من بين الزهور))[٢]. ويتابع فيلبي وصفه لشخصية ليبنز قائلاً عنه إنه الأفضل ((فهو الطبيب الذي مارس الطب في صحراء المملكة، ولا نعرف عنه سوى أنه كان قد عالج أمراضاً عديدة سواء باطنة أو أمراض عيون في أنحاء عديدة من المملكة))[٣] .

وعن مثابرة ليبنز التي لفتت أنظار فيلبي وجعلته يختاره ضمن كبار مساعديه في هذه البعثة فيقول عنها : ((إن اللوحة التي تحضرها ذاكرتي عند استرجاعي لتجارب تلك الأيام الجميلة كانت تتضمن صورة فيليب ليبنز وهو يمسك مع زميله جاك (ريكمانز) برأس حبل ممدود من أجل الاقتراب من أحد النصوص التي سيصورانها أو يقومان على نسخها))[٤].

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد عُرف عن ليبنز معرفته الجيدة بالمنطقة ودروبها، ساعده على تلك الإجادة جرأته وإقدامه، وحبه للمغامرة في الصحراء، ولذا فقد جال في جميع أرجاء المنطقة، وتعرف على عادات سكانها سواء المستقرين منهم أو الرُحَّل، وألف الجو الشرقي إلى حد كبير مما ساعده على هذا التفهم[٥].

خامسا - دراسة نقدية تحليلية مقارنة لكتابات فيلبي وفيليب ليبنز :

أ - الدراسة التحليلية

١ - الكتاب الأول :

وعنوانه : " نجود الجزيرة العربية" (Arabian Highlands) لمؤلفه سانت جون بريجر فيلبي أو" عبد الله فيلبي" كما عُرف بالمنطقة العربية، وقد طبع الكتاب باللغة الإنجليزية بمطبعة جامعة كورنل أثاكا في نيويورك بالولايات

(١) فيليب ليبنز : المرجع نفسه ، ص ١٣ .
(٢) فيليب ليبنز : نفس المراجع ، ص ١٤ .
(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ١٤ ، ١١٦ .
(٤) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ١٤ .
(٥) فيليب ليبنز : المرجع نفسه، ص١٥، وللمزيد عن معرفة المصنف بهذه العادات راجع، ص ٧٣

المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦م٠ ويقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، وقامت على نشره جمعية الشرق الأوسط في واشنطن، دي٠سي (Washington , D.C) ٠ كما قامت مكتبة العبيكان مشكورة بترجمته إلى العربية ثم طباعته ونشره عام ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، وكان لي شرف مراجعة النسخة العربية والتعليق عليها .

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة الأصل المكتوبة باللغة الانجليزية عام (١٩٧٦م) ، علماً بأن هناك طبعة سابقة على هذه الطبعة، وهي الطبعة الأولى الصادرة عام (١٩٥٢م) . ونجد في بداية الطبعة المعتمدة في دراستنا مقدمتين إحداهما مؤرخة بعام (١٩٤٤م) ، والثانية ترجع إلى عام (١٩٥١م)، أما المقدمة الأولى فيبدو أن فيلبي قد دونها أثناء انتهائه من جمع ثم تدوين معلومات هذا الكتاب، وقد أشار فيها إلى فضل جمعية الشرق الأوسط سالفة الذكر لقيامها بالدعم العلمي له ، وتكفلها بنفقات نشر كتابه هذا . كما نلاحظ أنه نوه في ذات المقدمة إلى أهمية كتابه وكونه من أفضل الكتب الأجنبية التي صنفت عن النصف الجنوبي الغربي من البلاد السعودية، ونحن نوافقه القول لما احتوى عليه هذا المصنف من معلومات متنوعة وقيمة يندر وجودها في مرجع آخر تناول هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال الفترة الزمنية نفسها وهي العقد الرابع من القرن الميلادي الماضي[1] .

أما المقدمة الثانية والمؤرخة بعام (١٩٥١م) ، فليست سوى تكملة للمقدمة السابقة، وقد أشار فيها إلى مرور سبع سنوات على كتابة مقدمة الكتاب الأولى وتوضح أنه خلال تلك السنوات بدأت أوضاع البلاد السعودية في التحسن والنمو، وأنه يتنبأ بمستقبل مشرق لهذه البلاد ، كما ينوه إلى تطور العلاقات السياسية والحضارية بين الحكومتين السعودية والأمريكية، ويوضح تركيز الأمريكيين في دراساتهم وبحوثهم الأكاديمية على شبه الجزيرة العربية[2] .

وهذا الكتاب الضخم، موضوع الدراسة، عبارة عن رحلة قام بها عبد الله فيلبي من بلدة السليل في أسفل وادي الدواسر، وذلك بعد الانتهاء من رحلته في الربع الخالي، التي فصلها في كتابه : الربع الخالي (The Empty Quaiter) الذي صدر في لندن عام (١٩٣٣م) .

(1) Philby, Arabian Highlands, pp. Vii ff

(2) Ibid, p. VIII.

وانطلاقة فيلبي في هذه الرحلة من بلدة السليل كان في (١٩٣٢/٣/١٤م) (الموافق ١٣٥٠/١١/١٦هـ) ، وقد أشار إلى ذلك في بداية الفصل الأول من كتابه الذي قسمه إلى ستة أبواب تحتوي على ثلاثة وثلاثين فصلاً [١] . ففي الباب الأول الذي وضعه تحت عنوان : - استهلال (Prelude) ، ناقش فيه ثلاثة فصول هي: ما بعد الربع الخالي، وادي بيشة، وطريق الفيل[٢] . أما الباب الثاني، فسماه : الوادي الثلاثي (The Triple Valley) ، وتحدث فيه على امتداد سبعة فصول عن : مخيم الملك، الخرمة، رنيه، بيشة، خميس مشيط، مرتفعات عسير، وادي تثليث [٣]، وهذا الباب بالذات سوف يكون موضوع دراستنا لأنه شمل جزءاً كبيراً من إقليم عسير في عصر فيلبي . أما الأبواب الأربعة الأخرى فهي خارج نطاق إقليم عسير، حيث كان البابان الثالث والرابع عن بلاد يام ونجران [٤]، أما البابان الأخيران الخامس والسادس فقد ركزهما فيلبي على المرتفعات والمنخفضات التهامية، وبخاصة منطقة جازان وما حولها، وكذلك السهول الساحلية المطلة على البحر الأحمر، ثم منطقة القنفذة[٥] .

ومن يطالع الجزئية التي ناقشها فيلبي عن إقليم عسير، وبخاصة المنطقة الممتدة من بيشة إلى وادي شهران ومدينة أبها (حاضرة عسير) نجده تعرض لموضوعات عدة منها :-

١. جغرافية منطقة عسير واختلاف تضاريسها وثرواتها الطبيعية، فيذكر فيلبي أسماء جبال وأودية وهضاب عديدة في كل من بيشة، وخميس مشيط، وأبها، ويشير إلى الارتفاعات الشاهقة لبعض الجبال المطلة على مدينة أبها من جهة الغرب والشمال[٦] . كما تطرق إلى الحديث عن مناخ إقليم عسير واعتداله في الصيف، وكثرة الغابات فيه وبخاصة في المناطق المحيطة بأبها وخميس مشيط[٧]، أيضاً نجده يحرص دائماً على ذكر أسماء الطيور والحشرات

---

(1) Ibid, 3
(2) Ibid, pp. 3 - 41.
(3) Ibid, pp.75 - 174
(4) Ibid, pp. 213 - 419
(5) Philby. pp. 437 - 676
(6) Ibid, pp. 123 - 161 ff.
(7) Ibid, pp. 161 - 3, 195 ff.

التي تعيش في منطقة عسير، فذكر أعداداً كثيرة منها مثل : الخفافيش، والنسور، والحجل، والحمام، والهدهد، والبلابل، وطير الباز وغيرها [١] . ولم يكن فيلبي يكتفي بذكر أسماء هذه الطيور وبعض الحشرات وإنما كان مولعاً بصيدها وتربيتها في مقر سكنه يوم أن كان يقوم بهذه الرحلة حتى إنه ذكر أن الناس في أبها وما حولها قد لفت نظرهم هذا التصرف من قبله فيقول" وعن اهتمامي بعلم الطيور والحشرات ومراقبتي للنجوم وغيرها فكانت محور حديث الناس في المنطقة ..."[٢].

٢. الاهتمام بالمواقع الأثرية فنلاحظ اهتمامه بها من خلال إشاراته إلى كثرة النقوش والرسوم على الصخور والجبال الممتدة من بيشة حتى أبها، بل أحياناً يذكر بعض المواقع الأثرية في تلك المناطق ويجزم أنها تدل على وجود حضارات قديمة في هذه البلاد[٣] .

٣. الحديث عن أعلام المنطقة فيذكر فيلبي أثناء رحلته عدداً من الشخصيات والمشائخ والأعيان، وبخاصة في بيشة وخميس مشيط وأبها، فنجده يذكر في بيشة بعض موظفي الدولة الذين كانوا هناك مثل الأمير/ عبد الله بن معمر، والقاضي/ عبد الله بن الشيخ، وسليمان بن إبراهيم الرَّواف الذي كان يتولى الشؤون المالية وجباية الزكوات[٤] ، كما ذكر بعض مشائخ قبائل شهران مثل سعيد بن مشيط، وعبد الوهاب أبي ملحة الذي كان يتولى الشؤون المالية في جميع منطقة عسير، وكان يتنقل في مواطن استقراره ما بين أبها وخميس مشيط [٥]، أيضاً أشار إلى اسم تركي السديري الذي كان أميراً لمنطقة

---

(1) Ibid, pp. 111 , 112 f, 140

(2) Ibid, pp 151 ff

(3) Ibid, pp 135 - 137 ff

والمتجول في المنطقة الواقعة بين بيشة وأبها لايزال يشاهد الكثير من القرى المنتشرة والتي يعود تاريخها إلى مئات السنين ، بل سوف يلاحظ المقابر السطحية والتي يصل ارتفاع بعض القبور فيها إلى ثلاثة وأربعة أمتار فوق سطح الأرض، ناهيك عن النقوش والرسوم فهي أيضاً كثيرة في هذه المنطقة ، انظر: ابن جريس، عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ص٥٦، ابن جريس، بلاد بني شهر وبني عمرو ، ص١٤٧-١٥٢ .

(4) Philby, Arabian, pp. 112 - 3 , 117 , 118

(5) Ibid, pp 129 - 131 ff

عسـير ومقيماً في أبها، بل ذكر أخاه خالد السـديري، وبعض مشـائخ عسير وقحطان الذين كانوا يأتون إلى أبها لمقابلة أمير المنطقة[١] .

٤. الاهتمـام ببعض جوانب الحيـاة الاجتماعيـة فنجده يتحدث عن المسـاكن وطريقـة بنـاء البيوت وطـرق العيش فيها، فيذكـر أنه رأى في بلاد شـهران ومدينـة أبها وما حولها منازل تتكون من طابق وطابقين[٢]، بل شـاهد بعض الأعيـان والمشـائخ والوجهـاء يقتنون قصـوراً تتكون من عـدة أدوار[٣]، كما لاحظ فيلبي طريقة بناء بعض هذه القصـور فذكر أن الأحجار تستخدم في بنـاء أجزائهـا السـفلية، بينما يسـتخدم الطـين في الأجـزاء العلوية[٤]، وهنـاك بعض تلك القصـور والبيوت محاطة بسـياج من الأسـوار لحمايتها من اللصـوص والحيوانات المفترسـة وكذلك الأعداء في أوقات الحروب[٥]. وفي أثناء حديثه عن البيوت كان يشـير أحياناً إلى تقسـيمات المنزل الواحد، فعندما يكون قصـراً أو بيتاً مكوناً من طابقين فيكون هناك أقسـام لسـكنى أفراد الأسـرة، وأجزاء لاستقبال الضيوف وغالباً ما تكون في الطابق العلوي وأجزاء أخرى لخزن الحبوب ومبيت الحيوانات الأليفة التي كان يقتنيها أهل المنطقـة مثـل : الأبقار، والحمـير والأغنام[٦] . ومحلها الطابق السـفلي كما أشـار إلى وجود بعض البيوت في بيشة مبنية بالقش وسعف النخل، كما ذكر بيوت الشـعر التي كانـت معروفة لدى البدو الرحل في الأجزاء الشـرقية من منطقة عسير، وبخاصة البلاد الواقعة بين بيشة وخميس مشيط[٧] .

(1) Ibid, pp 136 - 148 ff
(2) Ibid, pp 29 , 115 , 131
(3) Ibid, pp 37 - 129
(4) Ibid, pp 131 - 136
(5) Ibid, pp 115 - 131 f
(6) Ibid, pp 115 - 116 , 139 ff
(7) Ibid, pp 37 - 114, 140

وجديـر بالذكر أن البيوت المقامة من القش والأخشـاب كانت تنتشـر أيضـاً وبكثرة عند سـكان السـهول التهاميـة ، لاسـيما في الجـزء الممتد من القنفذة شـمالاً إلى جـازان جنوباً . للمزيد راجـع : ابن جريس . (عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص٤٩-٥٠ .

ويشـير المؤلـف إلى مـدن أبها وخميس مشـيط وبيشـة فيذكر كـثرة القرى الصـغيرة الواقعة حول هذه المراكز الحضارية [١]، وتقارب البيوت في القرية الواحدة، وضـيق الأزقة الفاصلة بينها، كما أن جميع مواد البناء المستخدمة في إقامة المنازل بمنطقة عسـير كانت محليـة، مثل الحجارة والطين وكذلك الأخشـاب المسـتخدمة في السـقوف والنوافذ والأبواب[٢] . ويلفت نظر فيلبي ازدحام المنازل العسيرية من الداخل بمظاهر الأناقة الزخرفية رغم بساطة مظهرهـا الخارجي وذلـك عندما دخل عدداً مـن منازل الأمراء والمشـائخ والوجهـاء من رجالات المنطقة، بل أقام سـاكناً بعض الوقت في بعض الدور ببيشـة وخميس مشـيط وأبها، فقال عن بيوت شـاهدها في منطقة بيشـة : ((وكانت المنازل مزخرفة بأشـكال هندسـية أخاذة وبألـوان المداد الكثيرة علـى كل الجدران وهذا النوع من الزخرفـة خاص بهذه المنطقة، وبالمنطقة المحيطة بأبها ...))[٣] .

ويواصـل فيلبي حديثه عن الحياة الاجتماعية في عسـير فيشـير إلى الألبسة والزينة عند سـكان إقليم عسـير فيذكر أنه شاهد في أسـواق المنطقة عدداً من الأقمشـة والألبسة وكذلك بعض أدوات الزينة الخاصة بالنساء والرجال مثل : الكحل، وبعض الأشـجار النباتية التي كان يضـعها الرجال والنساء في رؤوسـهن من باب التزيـن بها [٤] . أيضـاً بعض أدوات الزينـة عند الرجال مثـل : لبس العباءات، والعمائم، والعقال، وكذلك الاحتزام ببعض الأسـلحة

---

(1) Philbly, Arabian, pp. 37 , 140 f.

(2) Ibid, pp. 29 , 37 , 137 ff.

من يشاهد القرى والمنازل القديمة في إقليم عسير اليوم يجدها مبنية من المواد المحليـة ، وبعض منهـا لازال صـامداً لم يصـبه الخـراب ، مـع العلم أن تاريخ بنائه يعـود إلى أكثر من ثلاثة قـرون ٠ انظر : ابن جريس ، بلاد بني شهر ، ص ٧٤ ومابعدها، ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص ٤٢ ومابعدها٠

(3) Philby, Arabian, P. 113

من يزور بعض البيوت القديمة في مدينة أبها ، وخميس مشيط اليوم ، بل من يشاهد بعض المتاحف المحلية في المنطقة فإنه سـوف يلاحظ ما ذكره فيلبي ، وغالبية تلك الأشـكال والألوان كانت مسـتمدة من عصارة بعض النباتات والأشـجار المحلية٠ انظر: ابن جريس، عسـير ١١٠٠-١٤٠٠هـ ، ص٥١-٥٢، أيضـاً تجربة الباحث ومشاهداته لأحوال وحضارة منطقة عسير خلال العشرين سنة الماضية٠

(4) Philby, Arabian, pp. 36 , 38 , 116 , 137

كالخناجر والسيوف وما شابهها[1] . ويشير إلى ألبسة بعض النساء فذكر أنه شاهد النساء في أسواق بيشة وهن يعملن في البيع والشراء، ثم قال : " وكان أغلبهن يرتدي الثوب الأسود الفضفاض، وبعض منهن يرتدي الثوب الأحمر، وقليل منهن كان يرتدي الثوب الأصفر الأكثر جاذبية، والأقل فضفضة من الثياب السابقة، وقد لبسن جميعاً ذلك الخمار الأسود الذي يغطي الرأس والوجه حتى الصدر ... "[2] .

وينوه عن توفر الحبوب وبعض الأطعمة في أسواق المنطقة، كما يذكر أنه شاهد كثيراً من أنواع الفواكه المحلية مثل : التفاح، والخوخ، والتين، والرمان، والعنب وغيرها . ويذكر أن الفقر كان سائداً على أغلب السكان في منطقة عسير، وأغلب أطعمتهم من محاصيلهم الزراعية وكذلك من منتجات حيواناتهم[3]، كما ذكر بعض الأطعمة التي أكل منها أثناء زيارته لمنطقة عسير، لكنه تناولها في بيوت الأعيان والوجهاء في المنطقة فيذكر أنواع الأطعمة التي شاهدها على مائدة الشيخ / عبد الوهاب أبي ملحة في خميس مشيط حيث كانت مكونة من ((خبز القمح المستطيل الرقيق، ولحم الضأن، والزبادي، وأطباق من المأكولات اللذيذة الأخرى، وأطباق كبيرة من الأرز في كل منها ملعقة، وأطباق كبيرة من الدهن، من ذيل مؤخرة الغنم، وزبادي الدجاج والصلصة، وزبادي من الخضروات ، وأطباق من الحلويات المتعددة مثل : المهلبية والكعك المحلي المقلي بالسمن...))[4]، ويذكر بعض أنواع الأطعمة التي أكلها على إحدى موائد أمير منطقة عسير، تركي السديري وأخيه خالد فقال : ((... كانت من الأرز الجيد، ولحم الضأن الشهي، بالإضافة إلى المقبلات (الإدام) الذي وضع في زبادي وأطباق عديدة، وكل منها على انفراد ، والخبز المحلي المصنوع من القمح على شكل مستطيلات وبسمك ربع بوصة...))[5] .

(1) Ibid, p. 117.
(2) Ibid, p. 116 , 131.
(3) Ibid, pp. 36 , 131 , 139 , 140.
(4) Ibid, p. 136.
(5) Ibid, p. 141.

وأشــار فيلبي إلى عادات وتقاليد أخرى شاهدها في منطقة عسير، مثل زواج الشـباب والشــابات في ســن مبكرة، حتى إنه رأى بعض الشــباب في خميس مشـيط يتزوجون وأعمارهم تتراوح ما بين (١٢-١٣) ســنة [١]، كما أن قيمة المهــور تختلف مــن البكر إلى الثيب، فالمرأة التي سـبق لها الزواج من قبل يكون مهرها يتراوح من (١٠-٢٠) ريالا، في حين أن الأبكار تكون مهورهن أعلى [٢].

ويذكر أنه شــاهد بعض الاحتفالات الخاصة بخَتْم القرآن، حيث كان يحضر الشـباب الخاتمــون لكتــاب الله وعليهم ملابــس جميلة، ويكــون من حولهم أقاربهــم وأهلوهــم، كمــا أن بعضــ الأعيان والوجهــاء في المدينــة أو القرية يحضرون مناسـبة الاحتفال بالخَتْم، وذلك تعظيماً للقرآن واحتراماً لأولئك الخُتَّام وأهليهم [٣].

وفي أثناء حديثه عن سـكان المجتمع العسيري نجده يشير إلى أن أغلبهم من أبناء القبائل والعشــائر الساكنة في المنطقة، لكن المراكز الحضارية الكبيرة مثل أبها، وخميس مشــيط، وبيشــة كان بها عناصــر بشرية أخرى وفدت من خــارج المنطقــة للعمل في المؤسســات الحكومية الموجودة آنــذاك [٤]، وغالبية أولئــك الوافدين كانوا من بلاد الشــام ومصــر والهند، وعناصــر من بعض الدول الأفريقية للعمل في الزراعة والخدمة في بيوتات الأعيان والأمراء وشيوخ القبائل [٥]. بل ذكر أن عدد السكان في أبها والأحياء المحيطة بها، يوم أن جاء إليها، ، كان يتراوح بين (٨٠٠٠-١٠٠٠٠) نسمة [٦]، وأشار إلى حضوره صلاة الجمعة في مسجد أبها الجامع فكان عدد المصلين حوالي (٥٠٠) مصلٍ [٧].

(1) Ibid, p. 136.

(2) Ibid, p. 136.

(3) Ibid, pp. 39 , 40.

(٤) عندما جاء فيلبي إلى إقليم عسير (١٣٥٠هـ/١٩٣٢م) كان ببعض المراكز الحضارية الكبرى العديد من المؤسســات الحكومية السـعودية المختلفة، انظر: ابن جريس. عسـير في عصر الملك عبد العزيز، ص٣١ ومابعدها؛ ابن جريس، أبها حاضرة عسير، ٤٤٣ ومابعدها.

(5) Philby, Arabian, pp 141 , 148.

(6) Ibid, pp. 153 , 154

(7) Ibid, pp. 150 , 1

٥. العناية بدراسة بعض مظاهر الحياة الاقتصادية٠ حيث يشير من خلال مشاهداته العينية إلى الطرق الواصلة بين رنية وبيشة إلى خميس مشيط ثم إلى أبها، ويذكر صعوبة تضاريسها، واستخدام أغلبية سكان هذه المناطق" للجمال والحمير" في تنقلاتهم ونقل بضائعهم واحتياجاتهم[١]. كما يشير إلى وجود أعداد قليلة من السيارات الحكومية وبعضها تجارية تقوم بعملية نقل البضائع لمسافات أكبر وذلك من إقليم عسير إلى نجد والحجاز[٢]. كما تحدث عن الأسواق الأسبوعية وانتشارها في جميع أنحاء عسير فيذكر أسواق بيشة في كل من قريتي الروشن ونمران[٣]، ويذكر أسواقاً أخرى أسبوعية في الطريق المؤدية من بيشة إلى خميس مشيط ومدينة أبها، ويفيض في التفصيلات عن تلك الأسواق من حيث قدوم الناس إليها من كل مكان، وتوفر السلع المختلفة بها، من مواد غذائية، وألبسة وزينة وبضائع أخرى مختلفة[٤]. وقد سجل لنا مشاهداته لسوق خميس مشيط الأسبوعي، وما يدور فيه من حركة ونشاط تجاري، وتقسيم السوق إلى مناطق تعرف كل منطقة منها" بالمناخ" وهي مخصصة لبيع وشراء سلعة واحدة، كما قدم لنا من خلال هذا الوصف تسجيلاً لبعض أسعار هذه السلع المختلفة التي يضمها السوق في زمنه فيقول :" لقد كانت نشاطات السوق بوجه عام خاملة نسبياً، رغم وجود حوالي (٥٠٠) من الناس فيه، كانوا كلهم مشغولين بعمليات البيع والشراء٠٠ وكانت كل سلعة تعرض في مكان منفصل عن المكان الذي تعرض فيه السلع الأخرى فيما يسمى بـ (المناخ)، وهي مساحة معينة تنصب عليها الخيام لمزاولة النشاطات التجارية التجارية ... لقد كانت معظم السلع تعرض مكشوفة، لكنني لاحظت أن هناك بعض السلع مثل الأقمشة والسلع التي تباع بالقطعة، وسلع البقالات كانت تعرض في الأكواخ التي تعلوها المظلات . وقد قمت بتسجيل بعض الأسعار الدارجة هناك، كأمر

(1) Ibid, pp. 115 , 116 , 117 , 139

وللمزيد من التفصيلات عن الطرق التجارية في إقليم عسير، انظر ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص١٦٣ ومابعدها٠

(2) Philby, pp. 138 , 141 , 148

(3) Ibid, pp. 36 , 38 - 9 , 114

(4) Ibid, pp. 116 - 7 , 137

مـن الأمور التي عنيت بها، وكانت رخيصـة في معظمهـا٠ فقد كان ثمن أربع تنكات من البلح عادة ما يستورد من خيبر[١]، وبيشة أو ما يعادل أربع سلات قصـب (Habs) بنفس حجم التنكات (٢،٥) أو (٣) ريالات، وكل (٦ أو ٧) أصواع من القمح بريال، والدخن (٨) بريال، ٠٠٠٠ والقهوة صاع واحد بريالين، والقشر (٣) صاع بريال، والسمح (نبات بري يؤكل يشبه السمسم) أربعة جالونات بسبعة ريالات، وكانت الشاة الواحدة بثلاثة ريالات ، والثور أو البقرة بعشرين ريالاً، والبعير بأربعين ريالاً٠٠٠"[٢]٠ويشير فيلبي أيضاً إلى بعض أسعار السلع التي شاهدها في أسواق بيشة، فيذكر أن كيس الأرز الذي كان يزن (٢٢) صـاعاً بـ (٢١) ريالاً، وكيس السـكر الـذي يزن (٩١) رطلاً بتسـعة ريالات، وعلبة من السـمن (الزبدة المصفاة) بـ (٢٥) ريالاً وتزن (٥ ، ٣٧) رطـلاً، وجالـون من البارفين بثلاثة ريـالات و (٥ ، ٨٨) ياردة من القماش الأبيض بـ (١٨) ريالاً، والجمل الواحد من (٢٠-٨٠) ريالاً، والشـاة الواحـدة من (٢-٣) ريالات[٣] . وأشـار فيلبي أيضـاً إلى بعض الأوزان التي شاهدها في الأسواق العسيرية فذكر أن الصاع والأقة كانت الأوزان السائدة في البلاد، ونوه إلى أن الأقة تعادل في وزنها (٤٥) ريالاً أو (٤٠٠) درهم، ثم إن كل (٣١٢) درهماً تسـاوي واحد كيلو غرام، أما الصـاع فيسـاوي ثلاث أقات أو أربعة كيلو غرامات[٤]. ويلاحظ أن المقايضة كانت من أهم أساليب التعامل في الأسواق العسيرية، إلاَّ أن ريال (مارياتريزا) الذي عرف محلياً باسـم الريال الفرانسـة كان متداولاً بكثرة بين العسيرين، وقد انتشر تداول هذا الريال في فئتين، الزلطة الواحدة، ونصف الزلطة[٥] .

ولم يغفل فيلبي عن ذكر ما شـاهده في منطقة عسير من مدرجات زراعية وما كان يزرع فيها من الحبوب والثمار والفواكه، كما أشـار إلى توافر أنواع متعددة من المحاصـيل الزراعية على طول الطريق التي سـلكها من بيشة إلى أبها [٦]، كما ذكر

(١) خيبر قرية واقعة في منتصف الطريق بين بيشة وخميس مشيط٠

(2) Philby, Arabian, p137

(3) Ibid, p.38

(4) Ibid, p.151

(5) Ibid, p.151

(٦) وريال (ماriaتريزا) عبارة عن قطعة نقدية من الفضة ضرب في النمسا عام (١١٩٥هـ/١٧٨٠م) ، وعرف

توفر الآبار التي يتم حفرها في باطن الأرض إلى عشرات الأمتار، وكانت تستخدم في ري المزارع وكذلك في جلب مياه الشرب أيضاً[1]٠كما ذكر أسماء عدد من الفنون الصناعية (الصناعات اليدوية) الموجودة في الأسواق العسيرية، مثل صناعة الحُصُر والحبال من سعف النخل في بيشة، والصناعات الخشبية، والحديدية، والجلدية، والحجرية والفخارية وغيرها . وجميع المواد الأولية المستخدمة في إنتاج هذه الصناعات كانت متوفرة في البيئة العسيرية [٢] .

٢ - الكتاب الثاني :-

وعنوانه" رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية" تأليف : فيليب ليبنز٠وهو في الأصل باللغة الفرنسية، وقام على ترجمته إلى العربية الأستاذ محمد محمد الحناش، وراجعه وعلَّق عليه د٠ فهد عبد الله السماري أمين دارة الملك عبد العزيز بالرياض" ، وقامت الدارة بنشره وإصداره بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة، وقدَّم له صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة الدارة، وقد صدر ضمن سلسلة مجموعة المكتبة المئوية للدارة .

وقام د . فهد السماري الذي راجع الكتاب في ترجمته العربية وعلَّق على محتوياته العلمية بإبراز أهمية هذا الكتاب من الناحية التاريخية، موضحاً في تعليقه ما يحويه بين دفتيه من معلومات أصيلة مهمة تميزه بالجدة والتفرد لاسيما فيما يتعلق بالمنطقة الجنوبية الغربية من المملكة وبخاصة فيما يتصل بمجال المواقع الأثرية والنقوش القديمة من عربية وغيرها [٣] .

وقد شملت الترجمة العربية لهذا المصنف أيضاً المقدمة التي سطرها فيلبي لأصل الكتاب في لغته الأولى، والتي قدم من خلالها ملخصاً لهذه الرحلة، وبيَّن بشكل واضح الدعم الذي لقيته الرحلة من قبل الملك عبد العزيز الذي شمل البعثة برعايته، نظراً لخصوصية العلاقة وأواصر الصداقة التي ربطت فيلبي بالملك، كما يعكس هذا الدعم بُعد النظر الذي تمتع به الملك عبد العزيز، ودليل وعيه الكامل

من هذه العملة فئة أبو طاقية وقيمته عشرون قرشاً٠ ابن جريس، عسير١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص١٨٣ ٠

(1) Philby, Arabian, p.147.

(2) Ibid, pp 123 - 124 .

(3) Ibid, pp. 36 , 116 , 137 , 141 , 151.

بأهمية مثل تلك الأعمال العلمية، والرغبة في الإفادة من خبرات المتخصصين في مجال التاريخ القديم والآثار والنقوش، كما أن الشروط التي فرضها الملك عبد العزيز على فيلبي وأعضاء هذه البعثة وغير ذلك من الالتزامات توضح بجلاء إدراك الملك عبد العزيز لنتائج مثل هذه البعثات العلمية؛ ولذا نجده يتحمل من ماله الخاص جميع تكاليف الرحلة من مأكل ومشرب، وتنقلات وغير ذلك من مصاريف الرحلة وكل ما يتعلق بها، علاوة على إصدار الأوامر إلى جميع أمراء المناطق التي ستمر بأراضيهم البعثة بتوفير سُبل الأمن والراحة وكافة التسهيلات لهم لإتمام عملهم على أكمل وجه (١).

كذلك تحدث فيلبي في مقدمته عن معاونيه في هذه الرحلة، وأفاض في الحديث عن ليبنز ووصف انطباعاته الشخصية عنه، والمميزات التي تفرد بها سواء على المستوى الشخصي، أو على المستوى العلمي، مما يبرز مكانة ليبنز في هذه البعثة كأحد كبار مساعدي فيلبي.

وقام جاك ريكمانز الأستاذ بجامعة لوفان ببلجيكا وأحد أعضاء البعثة باستكمال جوانب أخرى عن هذه الرحلة، سطرها بدوره في مقدمة هذا الكتاب موضوع الدراسة. كما ضمت هذه السلسلة من التقديمات أيضاً، مقدمة بقلم يوسف ياسين المترجم الخاص بالملك عبد العزيز، والتي كشفت عن أهمية هذه الرحلة وأسباب خروجها، وموافقة المقام السامي عليها وتقديمه الدعم المالي والمعنوي الكامل لها، والالتزام بجميع البنود الواردة في هذه الموافقة (٢).

ولعل سرّ إجراء هذه الدراسة (أي خروج البعثة العلمية) يكمن في كثرة الآثار والنقوش التاريخية الموجودة بأراضي المملكة مما لفت النظر إليها وتطلعت أنظار المتخصصين للكشف عن هويتها وفك طلاسمها، ويؤكد ذلك ليبنز في كتابه حيث يتساءل : ما هذه النقوش والآثار الموجودة في جنوب الجزيرة العربية ؟ وما اهميتها؟ وقد دفع هذا الثراء بعض العلماء المتخصصين إلى التقدم بأطروحات أكاديمية في هذا المجال، وأهم دليل على ذلك أن جاك ريكمانز ابن أخي فيليب ليبنز قد حصل على درجة الدكتوراه في العلوم الشرقية تحت عنوان ((المؤسسة الملكية في جنوب

---

(١) فيليب ليبنز : رحلة استكشافية، ص ٨.

(٢) فيليب ليبنز : المرجع السابق، ص٨، وعن الشروط والالتزامات المفروضة على أعضاء البعثة راجع / ص ١٢، ١٨.

الجزيرة العربية قبل الإسلام))[1] وقد شارك جاك بعد ذلك في تلك الرحلة الاستكشافية حيث عمل متخصصاً في الفيلولوجيا والتاريخ الحميري والسبئي[2] .

هذا وقد أوضح مؤلف الكتاب خطوات هذه الرحلة الاستكشافية بالتفصيل بدءاً من الخطوة الأولى حيث انطلقت الرحلة من جدة صوب الجنوب عبر جبال الحجاز وقد عني بذكر تفاصيل السفر ومشاهداته عبر هذه الجبال وسطر ذلك في حوالي عشر صفحات، ثم أفرد ما يقرب من عشرين صفحة للحديث عن الطريق الواصل من الطائف إلى بيشة، ثم تحدث عن الطريق من أبها إلى نجران في حوالي (٦٠) صفحة، وأفرد فصلاً قائماً بذاته لتفاصيل الإقامة في نجران، ثم ذكر تجوال أفراد البعثة في الربع الخالي، ثم تحدث عن سلوك أفراد البعثة من نجران إلى اللدام، ومن الأخيرة إلى الرياض، ثم ختام الرحلة في الرياض نفسها .

ومن المطالعة الدقيقة لمحتويات هذا المصنف يمكن القول بأنه تميز بعرض المعلومات المتنوعة بأسلوب يتسم بالرشاقة ويُبعد عن القارىء الملل كما يعترف بذلك مترجم الكتاب، علاوة على غزارة المعلومات الأثرية والتاريخية، وما يتصل بالحياة الاجتماعية في المناطق التي مسحتها البعثة . وعلى الرغم من أن معلومات فيليب ليبنز تتسم بالإيجاز عند مقارنتها بالمعلومات التي أوردها فيلبي في كتابه: (نجود الجزيرة العربية) عن هذه الرحلة، إلاَّ أن فيلبي رغم دقته واستطراده لم يستكمل كل المعلومات عن خطوات هذه البعثة، ولم يغطها بأكملها، ولذلك فإنه لاغنى أبداً عن الرجوع لذلك التقرير الذي وضعه فيليب ليبنز لاسيما فيما يتصل بالمعلومات الاجتماعية والأثرية بوجه خاص[3] .

---

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ١٨ ٠

(٢) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٩٤ ٠

(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص١٩؛ ومن المعروف أن (عسير) قد حظيت منذ فترة طويلة باهتمامات الحركات الاستكشافية، والتي بدأت عن طريق ثلاثة من التجار اليونانيين وهم باولو وسبيرو وإليا خلال القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم جاء بعدهم أحد الأوروبيين ويدعى تاميزيه إلى مدينة أبها ، ومن بعده كورنواليس وفيليبى عام١٩٣٦ ، ثم نوتشل عام ١٩٤٠م، وبعد ذلك الرحلة الاستكشافية التي شارك فيها فيليب ليبنز ، ومن الأرجح أن هناك رحلات استكشافية أخرى قد وصلت إلى أبها ، ولكن لم يكشف عنها النقاب بعد بسبب عدم خروج التقارير التي كتبت عنها إلى النور، يدلنا على ذلك رواية تواترت على ألسنة بدو منطقة عسير، وذكرها ليبنز في كتابه ومفادها أن هناك مجموعة من علماء الآثار الأمريكيين قد مروا بهذا المكان (عسير) قبل خمس سنوات من بعثة فيلبى وليبنز٠ راجع : رحلة استكشافية ، ص١٠٣. ولعل ما فتح الباب لهذا النشاط بمنطقة عسير هو اكتشاف أحد البدو لمخطوطة عبرية داخل مغارة قرب البحر الميت عام ١٩٤٧، ثم تمكن ضابطان من اللفيف العربى بعد عام ونصف من ذلك من دخول هذه المغارة، وعكف العالم جاك ريكمان على نشر نتائج هذا الاكتشاف وإخراجها للنور ليفتح البابٍ على مصٍراعيه لمحاولات أخرى استكشافية دعا إليها المستكشف الإنجليزي فيلبي الذي اختار بدوره فيليب ليبنز عنصراً أساسيا فيها٠ راجع عن ذلك : رحلة استكشافية، ص١٠٣

وعند مطالعتنا لما دونه فيليب ليبنز في تقريره عن الرحلة التي شارك فيها، وبصفة خاصة ماذكره عن إقليم عسير، نجده قد تعرض لعدد من الموضوعات المتنوعة منها :-

١. الاهتمام بالحديث عن الثروات الطبيعية بمنطقة عسير وأثر اختلاف التضاريس وتنوع المناخ في تعددها، كما أن تعدد الثروة الحيوانية من أهم مشاهدات أفراد هذه البعثة التي لم تكن تمر بمكان، إلاَّ وكان أفرادها يقومون على صيد العديد من قطعانها المختلفة، وإن كان يؤخذ على ليبنز أنه - أحياناً - لايحدد نوع الحيوانات التي كان يراها، وإن كان الباحث يستطيع الاستنتاج بأنها لاتخرج عما كان يشاهد في أرجاء المملكة إلى وجود الأبقار أو الجمال أو الأغنام والماعز، وقد تجمعت حول جنبات الآبار حيث المياه، كذلك أشار ليبنز إلى وجود الأبقار ذات السنام[١] .

كذلك تطرق ليبنز في معرض حديثه عن الثروة الحيوانية إلى دواب النقل ومنها الحمير والجمال وما تمثله من أهمية لأهالي عسير وسيلة مهمة من وسائل النقل للإنسان وحمل الأغراض[٢]، كما أشار إلى توافر نوع آخر من الحيوانات المفيدة للإنسان وهي الغزلان وذكر أنه رآها مرتين خلال مروره بأراضي عسير، وبخاصة في منطقة جبل سليمان ولكن لم يتمكن أحداً من أفراد البعثة من الإمساك بإحداها نظراً لسرعة فرارها. وتحدث كذلك عن استخدام الكلاب في حراسة قطعان الأغنام المملوكة لبدو عسير من مهاجمة الذئاب والثعالب وغيرها[٣].

ونلاحظ أن ليبنز قد شارك فيلبي اهتماماته وحرصه بذكر أسماء الطيور والحشرات الموجودة في منطقة عسير، فذكر عدداً منها ووصفه، كما أشار إلى أماكن وجودها وبعض عاداتها، فيشير على سبيل المثال إلى مشاهدته لأسراب من الطيور تخرج من الصحراء في وادي بيشة وتثليث وغيرهما، وهي في حجم طائر الزقزاق الذهبي اللون، وتشبه دجاج الماء في سلوكه، وهي لاتطير إلاَّ فجراً

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق، ص ٧٠

(٢) فيليب ليبنز : نفسه ، ص٥٤ ، ٦٢، ٧٨ .

(٣) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٧٨ .

وعند غروب الشمس وعلى ارتفاعات منخفضة حتى إنها لتكاد تلامس الرؤوس وتعرف بطيور القطا، وقد أثنى على حسن مذاقها حيث استطاع بعض أفراد البعثة صيد بعضها[١] . كما شاهد أيضاً أفراخ الحجل والأرانب بأعداد كبيرة، بالإضافة إلى طيور أخرى مثل القنبرة والسنونو والغراب وغيرها لاسيما من الجوارح وبخاصة في وادي تندحة[٢] . كما ذكر أسماء عدد من حشرات المنطقة بعضها معروف وبعضها الآخر غير معروف ومن أمثلتها حشرة اليعاسيب وهي ملكة النحل[٣] .

وقد لفت نظره أيضاً كثرة الزواحف وتعدد أنواعها لاسيما في الطريق من وادي بن هشبل إلى أبها، وهو الطريق القديم الذي كانت تسلكه القوافل المتجهة إلى أبها، كما شاهد أنواعاً أخرى في مدينة أبها ذاتها وأمعن في وصفها وصف شاهد عيان حيث ذكر أنها كانت ((جميلة تتدفأ بالشمس وتقف ساكنة فوق الصخور وتغير لونها بشكل مثير من اللون الأزرق المتوسطي إلى الأسمر الحديدي الذي يشبه الظل))[٤] وأشار أيضاً إلى وجود كثير من القردة مختلفة الأحجام وبخاصة على حدود وادي بن هشبل، علاوة على وجود حيوان الجربوع (اليربوع) والذي ولع رجالات البعثة بصيده ووصفه بأنه حيوان لايتعدى طوله (١٥) سم ويتسم بنعومة ملمسه وجلده بلون الرمل رمادي وأبيض، ورجلاه الخلفيتان تشبهان أرجل حيوان الكنغر، بينما يتجاوز طول ذيله طول الجسد[٥] .

كذلك لم يغفل ليبنز عن ذكر ما شاهده في منطقة عسير من تنوع الغابات نظراً لاختلاف الظروف المناخية والتضاريسية، فأشار إلى وجود أشجار الصنوبر بجبل شطبة في منطقة وادي بن هشبل، وكذلك أشجار البلوط التي تكثر في هضاب هذا الوادي ومعها أشجار الشري، كما ألمح إلى انتشار الأشجار الشوكية في منطقة الغابات الموجودة على حدود أبها[٦] .

---

(١) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٢، ١٠٤، ١٠٥، ١١٨ .

(٢) فيليب ليبنز : المرجع نفسه ، ص ٥٤ .

(٣) فيليب ليبنز : المرجع نفسه ، ص ٥٥، ٧٨، ١٠٠، ١٠٨-١١٠ .

(٤) فيليب ليبنز : المرجع نفسه ، ص ٦٨ .

(٥) فيليب ليبنز : المرجع نفسه ، ص ٥٩ ، ٦٧ .

(٦) للمزيد من التفصيلات راجع : المرجع نفسه ، ، ص ٦٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ .

٢. الاهتمام بالمواقع الأثرية والنقوش القديمة التي تزخر بها منطقة عسير، فأشار ليبنز إلى كثير من المواقع الأثرية في وادي بيشة ووأدي تندحة وتثليث وكلها تنتمي إلى عصور سابقة على الإسلام [١]، الأمر الذي يجزم بشكل قاطع بوجود حضارات قديمة في هذه البلاد، فعلى سبيل المثال تحدث ليبنز عن نجاح البعثة وبخاصة جاك ريكمانز المتخصص في التاريخ الحميري والسبئي في الكشف عن نقش صخري بالقرب من آبار مريغان شرقي تثليث، وهو نص تاريخي للملك أبرهة الذي ينتمي كما نعلم لأصول حبشية، ويتكون النقش من عشرة أسطرٍ بعرض خمسة أمتار، ويتضح من تفسير سطور النص أن هذا الملك كان مسيحياً بدليل أن النص يبدأ بشارة الصليب، كما تحدد الجملة الأولى من سطوره ديانة هذا الملك حيث تقرأ ((بقدرة الرحمن وبقدرة مسيحه ...))، ثم تتناول بقية سطور النص أخبار إحدى حملات أبرهة على القبائل الساكنة في جنوب الجزيرة العربية، ويسمى هذه الحملة ((غزوة ربيعية))، وقد ذكر النص قادة هذه الحملة، وتفاصيل انتصاراتهم، واتفاقية السلم التي وقعت بعد ذلك مع أهالي هذه المنطقة، وأرخ النص وقت الحملة بعام (٥٤٧م)[٢] .

كذلك أشار ليبنز إلى حصول البعثة على رسوم لمحاربين في منطقة أم رقيبة، كما جمعت كومة من الأحجار الرملية ذات الطابع الثمودي كانت منحوتة على الصخور الطبيعية وجميعها من المنطقة نفسها [٣] .

وقد دفعه تخصصه في مجال الآثار إلى الاستطراد في ذكر ما وجده من مواقع ونقوش أثرية، وربط بين بعض أسماء المناطق التي كان يمر بها أثناء دراسته للمنطقة وبين المصطلحات التاريخية مثال ذلك ربطه بين اسم بئر الفيل وبين الملك أبرهة[٤]، وقد خرج ليبنز بتأكيد من هذه الدراسات يقول إن الثموديين كانوا دائماً ما يقصدون منطقة وادي تندحة سواء بهدف ترصد بعض الأعداء أو للتمتع بالمناظر الجميلة، لذا خلّفوا وراءهم مئات النقوش موقعة بمادة بلون

---

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٥٨، ٦١، ٧٣ .

(٢) فيليب ليبنز :المرجع السابق ، ص٧٥ – ٧٨، ٧٩، ٩٤، ٩٨ .

(٣) فيليب ليبنز :المرجع السابق ، ص ٩٨ – ٩٩ .

(٤) فيليب ليبنز :المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

الحديد على الجهة السوداء من الصخرة التي تركوا عليها أحد نقوشهم، كما تعد منطقة وادي تثليث أيضاً من المناطق الغنية بالنقوش الصخرية وكذلك منطقة وادي منقع الحمام، حيث رصدت البعثة كثيراً من الآثار الثمودية المنقوشة على الأحجار هناك مما يقطع بكثرة ترددهم على هذه المنطقة [1] .

٣. ويشارك ليبنز رئيسه فيلبي الاهتمام بدراسة بعض مظاهر الحياة الاقتصادية وفي مقدمتها حرفة الرعي التي كانت تتصدر قائمة الحرف التي عني سكان المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية بالاشتغال بها بحكم البيئة التي كانت تعاني نقصاً في الموارد المائية . كذلك أبرز ليبنز اهتمامه بحرفة الزراعة وإن أشار إلى أنها لم تحظ بالانتشار مثل حرفة رعي الإبل، ومن ملاحظاته التي سجلها بدائية حرفة الزراعة وذلك من خلال وصفه لعملية درس الحبوب وبخاصة القمح والتي كان يستخدم فيها الجمل والحمار، حيث يدوران في حلقة على التبن ويجران خلفهما طفلا يلوح بقطعة من الخشب، وعندما يراد فصل الحب عن التبن يقوم الرجال بذر هذا الخليط في مواجهة الرياح بمذراة، حيث يتجمع التبن في مكان يتكوم فيه، بينما يسقط القمح تحت أقدام مذريه[2] .

وقد لاحظ ليبنز انتشار المزارع خارج نطاق القرى والمدن، وقربها من مصادر المياه، وقد أشار إلى بعض هذه المزارع وحدد مواقعها وأسماء بعضها ووصف عدداً منها، ومن أمثلة ذلك مزارع وادي بن هشبل والتي تتكون من عدة قرى[3]، ومزارع وادي تثليث التي ذاعت شهرتها في زراعة السمر والثمام[4]، علاوة على مزارع منطقة تندحة التي أحصيت بثلاثين مزرعة، بالإضافة إلى الواحات المنتشرة في جنبات الوادي التي بلغ عددها طبقاً لقوله (١٥٠) مزرعة مسيجة[5] .

---

(١) فيليب ليبنز :المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) للمزيد راجع : فيليب ليبنز : المرجع نفسه ، ص ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٢ .
وقد أشار تقرير ليبنز إلى أن البعثة قد وجدت آثاراً لم تنجح في فك رموزها وقراءتها ، أو وضع تفسير صحيح لها مثال ذلك الأثر الذي وصفه ليبنز بالغرابة ويقع بالقرب من وادي جربا وهو عبارة عن مثلث من الأحجار يمتد مسافة (٢٦٥م) في سهل هذه المنطقة ، راجع : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٣) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٤) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٥٨ ، ٦٠ .

(٥) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

كذلك أشار ليبنز إلى مصادر المياه بمنطقة عسير، وذكر أن البدو يعتمدون في حياتهم وري مزروعاتهم وسقى دوابهم على مصدرين للمياه أولهما : المياه الآتية من الأمطار حيث يبنون لها حواجز صغيرة يتم تخزين المياه فيها [١]، أما ثانيهما : فهو استخراج المياه من الآبار التي يحفرونها في باطن الأرض على أعماق مختلفة، ويستخرجون الماء منها باستخدام قرب من الجلد مصنوعة من جلود الأغنام، وقد عَدَّد لنا المؤلف كثيراً من أسماء هذه الآبار وحدد أماكن بعضها وعمق المياه فيها . ومن أشهر هذه الآبار بئر زيوة في وادي جربا قرب تندحة، وبئر حفيرة بوادي تثليث [٢]، وبئر الحصينة في نجران بالقرب من وادي حبونة، وذكر أن هذه البئر يحيط بها سهل عريض يتراوح عرضه ما بين (٧ ـ ٨كم)، وثمة مركز للشرطة في القمة يقوم على مراقبة هذه البئر ويبعد عنها حوالي (٢٠٠م)، وقد بُني بشكل متقن بأحجار متراكمة، وفوق فوهة البئر نصبت عدة دعائم تساعد الناس على جلب الماء منها بواسطة القرب، ويبلغ عمقها حوالي (٣٠) مترا ، مما يوضح أهمية هذه البئر من حيث الموقع وكمية المياه المتوافرة بها، وبالتالي مَثّل أهمية كبرى في حياة بدو هذه المنطقة سواء في إمدادهم بحاجتهم من مياه الشرب أو في تزويد قطعانهم بالمياه اللازمة لاستمرار حياتها، ولذا كثرت المنازعات حولها مما استلزم إقامة مركز للشرطة بجوارها لتنظيم عملية السقيا [٣] .

٤. الاهتمام ببعض جوانب الحياة الاجتماعية، حيث يتحدث ليبنز عن مساكن أهالي عسير البدو منهم والحضر، فيذكر أن البدو قد حددوا أماكن تجمعهم وفقا لنشاطاتهم فكانوا يقيمون مضاربهم قريبا من موارد المياه مثال ذلك بدو وادي بيشة وتندحة وكانت خيامهم تتسم باللون الأسود وذات سطح أفقى رمادي، وأقيم بعضها بين أكوام من الصخور، بينما كان بعضها الآخر يتكىء على أغصان الشجر القوية [٤] . كذلك لاحظ ليبنز أن سكان واحة خيبر في بيشة يسكنون في حصون مغلقة تتألف من ثلاثة إلى أربعة أدوار ومحاطة بأسوار قليلة

---

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ٧٣، ٨١ .

(٢) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٣) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ٨٢، ٨٤ ، ٩٠ .

(٤) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص١٢٥-١٢٦، وللمزيد عن أسماء الآبار الأخرى الموجودة بمنطقة عسير ووصف ليبنز لها راجع : المرجع نفسه ، ص٩٨-١١٦ .

الارتفاع [١] . كما شاهد طريقة بناء بعض المنازل، كبيوت وادي بن هشبل وذكر استخدام الطوب الطيني في إقامة جدرانها، بينما صنعت أسقفها من سعف النخيل . وكان كل مجمع سكني بخاصة في الواحات تحيط به قطعة أرض تابعة له، وتبتعد مئات الأمتار عن جارتها، وكلها مسيجة بسياج من النخيل، ومزارع الذرة التي يصل علوها لطول قامة الإنسان، بحيث تشكل الواحة ما يشبه جزراً صغيرة من النخيل مفصولة بعضها عن بعض بمناطق خالية من الزروع[٢] .

وفي أثناء حديثه عن البيوت أشار إلى تقسيمات البيت من الداخل فذكر أن بيوت الواحات كانت مقسمة داخليا بعدد من الغرف، تستخدم الأولى لاستقبال الضيوف، والثانية مقصورة على النساء، بينما خصصت الأخيرة لنوم أهل المنزل[٣] .

أما بالنسبة لبيوت الوجهاء والأعيان من سكان منطقة عسير فأشار ليبنز إلى أنه شاهد كثيراً من هذه القصور والدور الفخمة في تندحة وأبها، وقام بوصفها فذكر أنها كانت تتألف من ثلاثة أو أربعة أدوار. ونلاحظ على وصفه لقصور الوجهاء والأعيان مطابقته تقريبا للوصف الذي أورده فيلبي في رحلته عن نفس المنازل، فأشار الرحالتان إلى تقسيمات المنزل الواحد بقولهما إن أحد الأدوار ويكون عادة هو الطابق السفلي مخصص كمخازن للحبوب ومبيت الحيوانات التي يقتنيها أهل الدار من الماشية والأغنام ودواب النقل، بينما يخصص الدور الثاني للرجال، أما الثالث فيكون للنساء، ويستطرد ليبنز في وصفه فيذكر أن أسطح هذه المنازل تكون محاطة بأسوار قصيرة تتخللها فتحات مطلية بالجير الأبيض وعادة ما تستخدم الأسطح لمبيت الأبناء، واتسمت غرف النساء بالاتساع ووجود الأرائك ناحية جدران الغرفة وغالباً ما تبنى من التراب المدكوك، وتغطى بأقمشة ضعيفة[٤] .

ولم يغفل ليبنز الإشارة إلى بعض المدن العسيرية وأطال الحديث عن أبها، وبدأ بوصف المناطق التي تجاورها وتحيط بها [٥] . ثم تحدث عن تخطيط المدينة العمراني وعدد سكانها في ذلك الوقت وحدده بحوالي عشرة آلاف

---

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ٧٩ - ٩١ .
(٢) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٥٥ .
(٣) فيليب ليبنز : المرجع السابق ،ص ٥٥-٥٨ .
(٤) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٩١-٩٢ .
(٥) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٨٠-٨١ .

نسمة [١]، كما لفت نظره ازدحام مناطق المدينة بالنباتات المتنوعة، وكثرة الحدائق والأشجار[٢] . ووصف الأسوار المحيطة بمدينة أبها، ويتم دخول القادمين للمدينة عبر أبواب تفتح في هذه الأسوار التي كانت مبنية من الأحجار، ويبدو من وصفه أن تلك الأسوار في وقته لم تكن عالية بدليل أن بعض المارة والجنود السعوديين وبعض الزنجيات وغيرهم كانوا يقومون بالقفز من فوقها ودخول المدينة[٣]، كما أفاض في الحديث عن ممراتها الوعرة والمرتفعة، وأنواع الأشجار والفاكهة المنتشرة بين جنبات حدائقها وعلى رأسها أشجار الرمان والليمون والمشمش والتين الشوكي[٤] .

ولم يغفل ليبنز الإشارة إلى بعض المباني الخدمية والحكومية الموجودة في أبها آنذاك، ومنها مستوصف واحد يعمل به طبيبان من الشام وكان نشاطهما محدوداً نظراً لقلة الأدوية والمال، مما يشير إلى ما كانت تعانيه المنطقة آنذاك من النقص الشديد في الخدمات الطبية والصحية، ويؤيدنا ليبنز في ذلك بإشاراته إلى تعدد الأمراض التي كان يعاني منها أهل عسير أثناء هذه الرحلة الاستكشافية ومنها الحصبة، والحمى الصفراء، والكوليرا، والجذام، والتيفود، والملاريا، والتيتانوس وغيرها، مما استلزم من البعثة التزود بالأمصال اللازمة لمواجهة هذه الأمراض[٥] .

كذلك ذكر ليبنز من المرافق الحكومية المدارس، وإن كانت إشارته موجزة ، فلم يمدنا بمعلومات كثيرة عن الناحية التعليمية والفكرية في عسير، واكتفى بالإشارة إلى وجود بعض المدارس الابتدائية للبنين والبنات، وكان يتولى التدريس لهم أساتذة مصريون وسوريون وفلسطينيون[٦] . وختم الرحالة وصفه لمدينة أبها بالتعليق على جمال المدينة وبهائها وتنوع مناخها ما بين الجو الدافىء والمشمس أحياناً، والبرودة أحياناً أخرى حيث تصل درجة الحرارة في بعض الليالي إلى أقل من صفر مئوية[٧] .

---

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٦٢ .

(٢) فيليب ليبنز : المرجع نفسه والصفحة ونلاحظ أنه تطابق في هذا العدد مع ماذكره فيلبي في كتابه السابق الذكر .

(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص٦٣ – ٦٦ .

(٤) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٣ .

(٥) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٣ – ٦٥ .

(٦) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٢١، ٦٥-٦٦ .

(٧) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٧ .

ويواصل ليبنز حديثه عن المجتمع العسيري ومظاهر الحياة الاجتماعية به، فيشير إشارة مطولة إلى دور المرأة العسيرية الإيجابي في المجتمع، فذكر مثابرتها على مشاركة زوجها العمل، وأنه كثيراً ما شاهدها ترعى قطعان الماعز وتقوم على غزل الصوف وحراسة الجمال، لاسيما في تثليث[1] . كذلك كانت تشارك زوجها في رفع المياه من البئر، وقد أمدنا ليبنز بصورة طريفة عن هذا التعاون فيقول: ((إن الرجال والنساء كانوا يتقاطعون حول البئر رافعين قربهم منشدين أغاني قصيرة، أو صائحين بصوت عال، وكانت الأيدي تتتابع على الحبل في حركات متكررة، وكان أهم ما يشد الرجال إلى المرأة البدوية وهي تنشد أثناء العمل صوتها الهادئ الناعم الذي يشبه صوت خرير الماء البارد، رخيماً تعلوه نبرة حزينة، ورغم ذلك يتسم بمسحة جمالية ساحرة))[2] .

كذلك أشار ليبنز إلى مواد الزينة المستخدمة عند النساء العسيريات وكذا الفتيات والتي كانت تزيد وجوهن جمالا، ومنها الكحل الأسود، كما لاحظ استعمال الحناء الحمراء في تخضيب أظافرهن ولم يفته ملاحظة أزياء رجال القبائل حيث أشار لخصلات شعورهم الطويلة المشدودة إلى بعضها، واستعمال الغترة في تغطية رؤوسهم وكانت الغترات ذات لونين أحمر وأبيض، ويتمنطق الواحد منهم بحزام به مسامير نحاسية وضعت فيه خراطيش الرصاص لزوم الحراسة لاسيما آبار الماء[3] .

كما ينوه إلى بعض العادات والتقاليد الأخرى التي شاهدها في عسير، مثل تقاليد الزواج فقال إن العادة عندهم أن المرأة العربية لايمكنها أن تتزوج إلاّ برجل من عرقها، بينما تتزوج المرأة الأفريقية حسب رغبتها [4].

ورغم مشاركة المرأة الإيجابية في الحياة بعسير في ظل الظروف المعيشية القاسية آنذاك، فإنها لم تكن محل تقدير كامل من زوجها طبقاً لرأي ليبنز الذي أخذ على المجتمع العسيري إحدى عاداته ووصفها بأنها سيئة، حيث اعتاد الرجال امتطاء الحيوانات، تاركين المرأة تسير خلفهم على الأقدام حاملة فوق رأسها أحزمة الحطب أو السلال مملوءة[5]. ونوه ليبنز بإيجاز عن الأطعمة

(١) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٨ .

(٢) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٨٧ .

(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٨٠، ١٢٦ .

(٤) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٨٢ .

(٥) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٥٨ .

المتوفرة في منطقة عسير فأشار للأطعمة التي كانت تقدم لأفراد البعثة في مخيماتهم من قبل وجهاء المناطق الذين ينزلون عليهم لاسيما في أبها ويذكر أنها كانت تتكون من ((لحم الضأن اللذيذ المخلوط بالأرز، وبعض حبيبات العنب المجفف" الزبيب"))، واعتاد أفراد البعثة تناوله بالطريقة البدوية، وكان أشراف المدينة يشاركونهم الطعام (١) .

ويختتم ليبنز إشاراته عن الحياة الاجتماعية بالحديث عن الرياضات المنتشرة بين أفراد المجتمع العسيري فيذكر لنا ولع أعراب المنطقة بصيد الصقور، وأن هذه الرياضة كانت الرياضة الأرستقراطية المفضلة عند العرب، بالإضافة إلى صيد الحبارى والغزلان وإن كان صيد الأخيرة نادراً (٢) .

٥. لم يغفل ليبنز أيضاً الإشارة إلى النزاعات القبلية في مدن وقرى عسير، وكيفية معالجة الدولة لهذه النزاعات وبسط الأمن وإقرار القانون في البلاد، وقد أوضح أسباب هذه النزاعات التي انحصرت في الثأر، والسرقة، والنزاع على آبار المياه، ولكن كان لتزايد هيبة المسؤولين، وقوة الأعراف، وقوة النظام المركزي لحكومة الملك عبد العزيز – وبخاصة مع تطبيق الشريعة الإسلامية بكل جوانبها في حالة الخروج عليها– أثرها في انخفاض معدل الجريمة وتواريها، وقد لاحظ ليبنز بنفسه استتباب الأمن في أكثر المناطق التي مرت بها البعثة بدليل قوله أثناء المرور بوادي بيشة: ((أحب هذا الأمن الذي نشره ابن سعود على أراضيه، فقبل عشرين سنة، وفي مثل هذا المشهد كان من الممكن أن تجبر قافلتنا على التوقف والدخول في علاقة قد تنتهي بمعركة))(٣).

٦. الحديث عن أهم الشخصيات بالمنطقة الجنوبية، فيذكر ليبنز على مدار صفحات كتابه أسماء العديد من الشخصيات مثل بعض أمراء المنطقة وشيوخ القبائل والأعيان الذين استضافوا البعثة أثناء مرورها بمناطقهم لاسيما في تثليث وأبها وخميس مشيط، ويأتي في مقدمة من ذكرهم ليبنز الأمير تركي السديري أمير منطقة عسير، ومقر إقامته في أبها، والذي كان لقاؤه بأفراد البعثة عابراً حيث

---

(١) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٢ .

(٢) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٨ .

(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٨ ، ٩٣ .

كان في طريقه مسافراً إلى مكة، كما ذكر ابنه الأمير فهد بن تركي الذي ناب عن أبيه في تصريف شؤون الإمارة أثناء غيابه، وقام على استضافة الرحلة [١] .

ونجده يذكر أيضاً الشيخ عبد الوهاب بن محمد أبي ملحة المسؤول المالي لمنطقة عسير [٢]، والذي قام بدوره على استضافة البعثة بمقر إقامته، وأشار ليبنز أيضاً إلى بعض مشايخ وأعيان المنطقة مثل الشيخ سعيد بن مشيط شيخ مشايخ قبائل شهران وأثنى على كرمه، كما لفت نظره، قصره الحصين الذي يتخذه قصراً لسكناه [٣] . والأمير نصال بن هذال أمير الكهيف بمنطقة وادي تثليث [٤]، والأمير تركي بن ماضي أمير نجران [٥] .

وفي ختام دراستنا التحليلية النقدية لهذين المصنفين يمكننا الخروج ببعض الملاحظات عليهما :

١. تبويب كل كتاب : نلاحظ أن فيلبي بحكم تمرسه في التأليف عن المملكة، قد أحسن تبويب كتابه وتقسيم أبوابه وعناصره وفصوله، سواء من حيث ترتيب الموضوعات، أو تسلسل عرض محتوياته بشكل منهجي وعلمي سليم. بينما على الجانب الآخر، نجد أن ليبنز قد أخفق في هذا المجال، وجانبه التوفيق في تبويب موضوعات كتابه، ولم يحدد لنا العناصر الرئيسة التي سيتحدث عنها، فجاء كتابه سرداً للمعلومات المتنوعة والمختلفة في سياق واحد دون تنسيق، فكان يكتب وفقاً لظروف الرحلة ومشاهداته العينية أثناء السير والترحال، فجاءت أشبه باليوميات .
٢. يؤخذ على فيلبي اعتماده بصفة أساسية وكذلك ليبنز على المشاهدة ودقة التفاصيل في جزئيات معينة، مما يجعلهما أحياناً يفقدان الربط بين الأفكار، فنرى فيلبي على سبيل المثال يكتب عن عشيرة معينة، وأثناء حديثه قد يخوض

---

(١) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٥٣ ، ٦٣، ٦٧ .

(٢) عينه الملك عبد العزيز – رحمه الله – عام ١٣٤٢هـ رئيساً لمالية أبها وملحقاته ، وفي عام ١٣٥٩هـ ضم إليه الملك جميع ماليات المنطقة الجنوبية وقد ظل يقوم بتبعات هذا المنصب حتى توفى عام ١٣٧٤هـ. راجع : ليبنز : المرجع السابق، ص٧٣ ، ٧٥ .

(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٧٥ .

(٤) وقام هذا الأمير بدوره باستضافة البعثة على مائدته ، والتي ضمت إلى جانب أفراد البعثة عشرة من أشراف المنطقة ، ووصف ليبنز قصره فذكر أنه مبني من الطوب اللبني ، بينما استضافهم في مجمع صحراوي مقام من سعف النخيل ذكر الرحالة أنه مكون من ثلاث غرف الأولى يستقبل الأمير فيها ضيوفه، والثانية مخصصة للنساء، بينما يقيم الخدم في الغرفة الثالثة ، راجع : رحلة استكشافية ، ص ٩٢ . ويذكر فيلبي أن نصال بن هذال من وادي الدواسر ، انظر لبينز ، ص ٩٢ ، حاشية رقم (٢) .

(٥) فيليب ليبنز ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

في تفصيلات دقيقة كأن يتحدث عن الطيور والآبار وغيرها من الأشياء التي شاهدها أثناء حديثه عن العشيرة أو القبيلة التي يكتب عنها. كما يؤخذ على ليبنز من واقع الدراسة المتأنية والقراءة الدقيقة لمحتويات كتابه وقوفه - أحياناً- عاجزا عن تفسير بعض التصرفات الصادرة من سكان المنطقة، مثال ذلك عندما اقترب من منطقة وادي جربا، وأثناء انهماكه في محاولة فك غموض أحد آثار هذه المنطقة ومحاولة فحصه وقراءته، شاهدته امرأة فأخذت تهرول وتصيح رافعة ذراعيها نحو الخيام الملتصقة بالصخور، ففسر ذلك بكونه معتقدا وراثيا، دون أن يعرف أن ذلك تصرف طبيعي نتيجة الخوف من الغرباء[١] .

كذلك جانبه الصواب في ذكر كلمات إقامة الصلاة، وكان الأجدر به عدم التطرق إلى مثل ذلك مادام يفتقد الدراية الكاملة بهذا الأمر، أو أن يرجع إلى رئيس البعثة فيلبي الذي أسلم وكان يؤدي الصلاة مع القوم[٢]، ونفس الخطأ وقع فيه أيضاً عندما أقحم نفسه معلقاً على الشريعة الإسلامية بشأن إقامة الحد على مرتكب كبيرة الزنا[٣] . كما يؤخذ عليه انتهاك بعض الأعراف التي جُبل عليها أهل المنطقة، وعدم امتثاله لأوامر رئيس البعثة الذي حذر أفرادها من القيام بأي إزعاج للأهالي وبشكل يتعارض مع عاداتهم، ومنها تحذيرهم من التقاط صور للنساء، ولكنه رغم ذلك فعل هذا الأمر في منطقة تثليث وباعترافه أنه قام بالتقاط ما بين خمس إلى ست صور للنساء هناك[٤]، كما يؤخذ عليه أيضاً أسلوب التهكم والسخرية من حياة البدوي ووصفه بعدم اهتمامه بالوقت وأنه ليس بذي قيمة عنده، وإنما المهم الحفاظ على حياته وعدم التعرض للأخطار[٥] .

٢- الدراسة المقارنة :

أ- خبرات رحالتينا وثقافتيهما :

يعدّ سانت جون فيلبي رائداً للكتابة التاريخية عن المملكة العربية السعودية، وقد تميز عن جميع الرحالة الأوروبيين الذين قدموا إلى شبه الجزيرة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر، بما فيهم رفيقه ليبنز الذي يمثل المحور الثاني من هذه

---

(١) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٨٣ .
(٢) فيليب ليبنز : نفسه ، ص٨٥ .
(٣) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٩٢ .
(٤) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٩٩ .
(٥) فيليب ليبنز : المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٥ .

الدراسة؛ وذلك لغزارة معلوماته وتنوعها، ومعرفته بطبوغرافيا المملكة، وللصداقة القوية التي ربطته بالملك عبد العزيز بن سعود، فصار أكثر الغربيين إنتاجاً علمياً عن تاريخ المملكة وطبوغرافيتها، ويُعزى ذلك لإقامته الطويلة في الجزيرة العربية متنقلا بين ربوعها لأكثر من أربعين عاماً، لذا تقتضي الأمانة العلمية القول بأن المقارنة بين فيلبي وليبنز ليست عادلة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ما دونه ليبنز في كتابه عن تلك البعثة الاستكشافية يمثل نوعا لاغنى عنه من يوميات ومذكرات الرحالة، تميزت بالبساطة، ورشاقة العرض، وسهولة الاطلاع، وهذه النوعية من المدونات عادة ما تكون مطلوبة لدى شريحة كبيرة من جمهور القراء الذين يقبلون على هذا النوع من الكتابة .

وقبل الخوض في المقارنة بين مادونه كل من الرحالتين يمكننا القول بأن هذين الرحالتين كانا على مستوى جيد من الوعي الفكري والثقافي، وكانا على إلمام باللغة العربية لاسيما فيلبي، بينما يمكن القول بأن ليبنز بدوره كانت له معرفة هو الآخر بالعربية تمكنه من فهم ما يدور حوله، وتدوين المعلومات والتفصيلات التي جمعها وأوردها مما ينم عن قدرته على التحدث وفهم تلك اللغة التي جمع من خلالها معلوماته. وكما هو معروف أن فيلبي كان يدين بالمسيحية في العقود الأولى من حياته، ولكنه بعد أن صار من رجالات الملك عبد العزيز واحد مستشاريه، اعتنق الإسلام، وغير اسمه إلى (عبدالله) بينما ظل ليبنز على عقيدته المسيحية.

٢- الطريقة التي اعتمدا عليها في تدوين كتابيهما :

أما الطريقة الرئيسة التي اعتمد عليها الرحالتان في جمع المادة العلمية لكتابيهما، فترتكز في المقام الأول على الرؤية الشخصية، والرواية الشفوية، وأسلوب الحوار وإجراء المقابلات مع أهالي المنطقة، وأعيانها، وجدير بالذكر أن فيلبي وليبنز قد خدمتهما الظروف، إذ كانت بعثتهما مدعومة من قبل حكومة المملكة العربية السعودية، فلم يجدا صعوبة في جمع المادة العلمية، حيث كانا وأفراد البعثة الآخرون محلّ احتفاء من قبل أمراء المناطق ومشايخ وأعيان القبائل أينما نزلوا تنفيذا لتعليمات المقام السامي، وبذل رجال الدولة على اختلافهم في شتى الأرجاء التي وفدت إليها البعثة غاية الجهد في تقديم العون والمساعدة الجيدة، أضف إلى ذلك ما تمتع به كل منهما - كما سبق القول - من مستوى فكري وثقافي مرتفع، أهلهما لتدوين هذا الكم من المعلومات المتنوعة واخراج كتابيهما محل هذه الدراسة.

ويمكن القول بأن فيلبي وفيليب ليبنز قد اعتمدا في تدوين معلوماتهما على المشاهدة العينية كما ذكرنا، والعناية بدقة التفاصيل لاسيما عند الحديث عن الآثار والطيور والغابات، وغير ذلك من الأشياء التي شاهداها أثناء تجوالهما.

ومن قراءة هذين الكتابين يمكن القول بأن ليبنز قد أطنب في ذكر بعض المعلومات بشكل أكبر مما أورده فيلبي، مثال ذلك حديثه عن أنواع الغابات الموجودة في منطقة عسير، وكذلك عن النقوش والآثار القديمة والعناية بفك رموز النصوص التاريخية المدونة عليها مثل النقش الخاص بالملك أبرهة الحبشي وغيره. وأيضاً حديثه المسترسل عن المرأة العسيرية ودورها ومكانتها في المجتمع العسيري، واهتمامه الواضح بالآبار كأحد المصادر الرئيسة للماء في منطقة عسير، ويتجلى هذا الاهتمام في حرصه على ذكر أسماء الآبار التي كان يمر بها أثناء الرحلة، ووصفه لبعضها لاسيما الرئيسة منها كبئر فرعانٍ، وبئر الحصينية، واستطاع بأسلوب رشيق وصف كيفية استخراج المياه مسخراً رشاقة قلمه في وصف تعاون المرأة مع الرجل في هذا العمل.

ومن أهم ما يلفت نظر المتفحص لمصنف ليبنز أن هذا المؤلف لم يكن يكتفي بالوقوف موقف المتفرج مما يشاهده، فعلاوة على تعليقاته الساخرة أحيانا على بعض المشاهدات، فقد كانت له تعليقات منطقية على بعضها الآخر، منها على سبيل المثال تعليقه على مشاهداته عن منطقة خميس مشيط، وعن أعمال الزراعة والمستقبل الذي ينتظر المنطقة، وعلى سبيل التمنى ذكر أن المستقبل يتمثل في إعادة تشجير البلد، وأن ذلك يمثل مهمة ثقيلة ولكنها لو تحققت فإنها ستؤدي إلى إحداث تغيير جذري في الحياة؛ وقد حدث ما تمناه ليبنز بالفعل، حيث ارتقت الزراعة واستخدمت التقنيات الحديثة كما تمنى في تنميتها وازدادت مساحات التشجير في المملكة زيادة مطردة [١].

كذلك برهن ليبنز على أنه قوى الملاحظة ويتمتع بحس تاريخي عال، فقد لاحظ على سبيل المثال في منطقة تثليث أن عدد أفراد الشرطة قليل على الرغم مَن اتساع مساحة المناطق التي تشرف عليها، وأن الجرائم نادرة الوقوع، وأرجع ذلك إلى هيبة المسؤولين، بالإضافة إلى تربية الناس، وسيادة الأعراف القبلية واحترامها، علاوة على شخصية الملك القوية والمهيمنة على الجميع الأمر الذي يعكس قوة النظام المركزي للدولة [٢]

---

(١) فيليب ليبنز: نفسه، ص ٧٤.

(٢) فيليب ليبنز: نفسه، ص ٩١، ١٢٠ هـ (١).

.علاوة على ذلك كان ليبنز من الشجاعة بحيث وصف نفسه بالأنانية والاستعلاء، عندما وصف مشاعره بعد أن سقط أحد مرشدى البعثة من إحدى المرتفعات ميتا، على اعتبار أنه نفسه كان من الممكن أن يلقى مصير المرشد [١] .

٣- دراسة تحليلية نقدية مقارنة حول أهم روايات الرحالتين :-

أ - الأحوال الجغرافية لمنطقة عسير :

عند مقارنة الكتابين أمكن التوصل إلى نقاط اشتراك بين فيلبي وليبنز منها مثلاً ما نحن بصدده وهو الحديث عن جغرافية عسير، واختلاف تضاريسها وتنوع مناخها، ولكنهما لم يكونا على مستوى واحد فيما دونه كل منهما من معلومات حيال ذلك، فنجد فيلبي الذي اتصف بخبرة واسعة في علم الرحلات وكثرة التجوال، وامتاز بالدقة المتناهية يعقد المقارنات بين المناطق التي زارتها البعثة من حيث المناخ والتضاريس، وأثر ذلك على تنوع الحياة النباتية والحيوانية، وإن جاء هذا الحديث موزعاً على مدى صفحات الكتاب٠ بينما جاء حديث فيليب ليبنز عن ذات الموضوع في صورة أكثر إيجازاً دون الاستغراق في التفصيلات .

ب- وصف القرى والمنازل :

أشار كل من الرحالتين إلى طبيعة القرى في إقليم عسير، وأنواع المنازل الموجودة والمرافق المحيطة بها، وإلى نوعية مواد البناء المستخدمة في إقامتها، لاسيما في المنطقة الواقعة بين بيشة وأبها، فجاءت إشاراتهما تقريباً متماثلة حيث أوضحا لنا الطريقة المتبعة في البناء، والتي يستخدم فيها الطين والحجارة، فكان الجزء السفلي من المنازل غالباً ما يقام من الحجارة، ثم يستكمل الجزء العلوي من الطين، وأحياناً يقام المنزل كله أو القصر من الطوب اللبني٠ كما اتفقا في تقدير ارتفاعات المنازل التي تصل إلى أربعة أدوار وبخاصة منازل الأمراء والوجهاء ومشايخ المنطقة، وقد شاهدا ذلك في بيشة وخميس مشيط وأبها . كذلك أعطانا الرحالتان تفصيلات دقيقة عن الأقسام الداخلية التي تتكون منها منازل العسيريين وبخاصة منازل الأمراء وغيرهم من وجهاء المنطقة الذين استضافوا أفراد البعثة، فأوضحا انقسام بعضها إلى عدة أقسام منها قسم للضيوف، وآخر لأفراد الأسرة، وثالث وغالباً ما يكون الدور السفلي ويستخدم مستودعاً للحبوب،

(١) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ١٠٩ ٠

وأماكن لمبيت الماشـية والحيوانات الأليفة ودواب النقل . وقد زاد فيلبي في الحديث عـن ازدحام المنزل العسـيري من الداخل بالزخارف المتنوعـة، مبديا إعجابه بهذه اللمسـات الجمالية التـي تنفرد بها العمارة العسـيرية [١]، لاسـيما في مجال تزيين الجدران الداخلية للمنازل بالزخارف النباتية [٢] . ونلاحظ أن ليبنز قد اهتم أكثر من رئيسـه فيلبي بالحديث عن مساكن البدو ومضـاربهم، فتحدث عن خيام البدو المتسـمة باللون الأسود، وذات السـطح الأفقى الرمادى، وكيف تستند على دعامات صخرية أو خشبية حيث تتكىء على أغصان الشجر القوية، كما انفرد بالحديث عن مساكن أهل الواحات الشبيهة بالقلاع الحصينة المحاطة بالأسوار [٣] .

ج- الحياة الاجتماعية :

كذلـك اهتـم ليبنـز بالحديث عـن العـادات والتقاليد مثلـه مثل فيلبـي الذي ذكر مشـاهداته لعادة الزواج المبكر بين الشـباب والشابات في عسير، حتى إن بعضا منهم قد يتزوج بين (١٢- ١٣) سـنة، كما نوه إلى أن صـداق المرأة البكر كان عاليا بعض الشيء، في حـين أن الثيـب كان يتراوح صـداقها مـن (٢٠- ٣٠) ريالا . أما ليبنز فقد اسـتكمل معلومات فيلبي بما ذكره عن عادات الزواج أيضـا في المجتمع العسـيري، فأشـار إلى أن المرأة العربية لاتتزوج إلاَّ رجلا من عرقها، بينما المرأة الإفريقية تتزوج حسب رغبتها .

كمـا يفوق ليبنـز فيلبى بمـا قدمه لنا من مقارنة جيدة بـين العادات والتقاليد والأعـراف التي عرفها المجتمع العربى في شـبه الجزيرة، وبـين مثيلتها في المجتمع الأوروبـي الذي جاء منه، فيصـف العادات والتقاليد العربية بأنها عريقة وصـافية ولهـا جذور موروثـة على امتـداد الأجيال، وأنهـا تتكيف مع نمط العيش السـائد، وكان دقيقـا في مقارنته بين تلك العادات، وبين ما ألفه المجتمع الأوروبي من عادات مختلفـة تماما فيقـول : ((إن العربى يقبل يد أبيه، بينما الأوروبي يكتفى بلمسـة رقيقة على الظهر ، والعرب يسـتمتعون برشـف القهوة، بينمـا يتعاطى الأوروبيون الكحول، والعـرب يتعطرون بالبخور، والأوروبيون عندهـم الدخان، كذلك العرب عندهم خمس صلوات، بينما عند الأوروبيين أقل)) [٤].

---

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٨٠-٨١، ٩١ – ٩٢ ؛

Philby Arabian, pp.38 , 39 , 117 , 129 , 131 , 151

(2) Philby, Op.Cit, PP. 113 - 114.

(٣) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص ٥٥، ٥٨، ٧٩، ٩١ .

(٤) فيليب ليبنز : نفسه ، ص ٦٤ .

وقد أفاض فيلبي في الحديث عن بعض الاحتفالات التي أغفلها ليبنز ومنها حفل ختم القرآن الذي كان يحضره وجهاء القوم لهذه الاحتفالات تكريماً وتعظيماً لكتاب الله، وفرحاً وسروراً بهؤلاء الشبيبة الذين أتموا حفظ كتاب الله وختمه[١].

كذلك اشترك كل منهما في الاهتمام بالحديث عن سكان المنطقة، وبخاصة علية القوم فيهم مثل الأمراء والمشايخ والأعيان، ولعل الفائدة التي جنيناها من وراء ذلك هو التعرف على شخصيات لم نكن نعرف الكثير منهم في مصادر أخرى، فحفظها لنا هذان الرحالتان حيث أمدنا كل منهما ببعض المعلومات القيمة عن شخصيات عديدة، وإن كان فيلبى أكثر إسهاباً من ليبنز في هذا الجانب[٢]. كما اشتركا في الحديث عن العاصمة أبها، وإن كان حديث ليبنز أكثر استفاضة وشمولاً، كذلك اشتركا في ذكر أسماء الأودية والشعاب والآبار والمناطق المتعددة التي مرا بها، كذلك اشتركا في العناية بذكر أسماء بعض الطيور والحيوانات والحشرات التي كانا يشاهدانها في الرحلة، وعناية أفراد البعثة وعلى رأسهم فيلبى بصيدها وجمعها.

أما عن الزي وأدوات الزينة فقد اشترك الرحالتان بالاهتمام بالحديث عنهما سواء للرجال أو النساء حيث أشارا إلى ما يلبسونه أو يتزينون به في شوارعهم وأسواقهم، وكان فيلبى أكثر تفصيلاً من ليبنز في هذا المضمار، حيث ذكر بعض التفصيلات الممتعة عن الأزياء سواء الرجالية أو النسائية، وكذلك أدوات الزينة المستعملة عند كثير من السكان في أسواق بيشة وخميس مشيط[٣].

وتحدثا أيضاً عن الأطعمة والأشربة الشائعة في المجتمع العسيري ووصفا ما قدم إليهما منها في الولائم والمآدب التي دعوا إليها مع أفراد البعثة، وتناولوا بعضا منها في بيوت الأمراء والأعيان، وأشار ليبنز إلى تعلمهم كيفية تناول هذه الأطعمة بالطريقة التي اعتادها البدو، وجدير بالذكر أن هذه الأطعمة كانت تتوافر على موائد المقتدرين مادياً وهو ما ألمح إليه فيلبي، والذي زاد على ذلك بقوله إن غالبية سكان المجتمع كانوا من الفقراء، وأغلب أطعمتهم من الحبوب التي تنتجها أراضيهم، أو منتوجات حيواناتهم التي يقومون على تربيتها[٤].

---

(1) Philby, Ibid, PP. 39 - 40.

(2) Philby, Ibid, PP. 36 , 37 , 112 , 117 , 123 , 129 , 136 , 148

(3) Philby, Ibid, PP. 116 , 117 , 137 , 139 , 140

(٤) فيليب ليبنز ، ص ٦٢ Philby, Ibid, PP. 36 , 131 , 136 , 139 , 140

د- بعض جوانب الحياة الفكرية والعلمية :

اشترك أيضاً الرحالتان في الاهتمام بالحديث عن المناطق الأثرية التي تزدحم بها المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة، وما تزخر به هذه المواقع من نقوش ورسوم تنتمي لعصور مختلفة سابقة على الإسلام . ونلاحظ من خلال ما دوناه أن ليبنز قد فاق رئيسه في هذا المجال بحكم تخصصه الدقيق، فقدم لنا تفصيلات علمية طيبة عن هذا الجانب [١] . بينما تفوق فيلبي على ليبنز بملاحظة أنواع الطيور والحشرات الموجودة في المنطقة وإقدامه على جمع بعضها، كما تميز باهتمام ملحوظ بحركة النجوم وتتبع الأنواء[٢] .

كذلك نوه الباحثان إلى التعليم وانتشاره في البلاد، حيث أشارا إلى وجود المدارس في المدن الجنوبية وبداية إقبال أبناء هذه المدن على التعلم فيها وإلحاق أولادهم بنين وبنات بها[٣] . كذلك لم يغفل الكاتبان التنويه للحياة الصحية في بلاد عسير، فأشاراً إلى وجود مستوصف واحد بأبها، وذكرا أنه يعانى من نقص الإمكانيات العلاجية، ونلاحظ أنهما اختلفا في تحديد عدد الأطباء العاملين بالمستوصف وجنسياتهم، ففى حين أن فيلبى ذكر أنه طبيب واحد هندى الجنسية يقوم على علاج الأمراض البسيطة كالحمى والجروح الصغيرة[٤]، نجد أن ليبنز يذكر أن بالمستوصف طبيبين من الشام وكان نشاطهما محدوداً [٥] كذلك أشارا إلى أسماء بعض الأمراض الشائع انتشارها بين سكان المنطقة كالحمى الصفراء[٦]، والملاريا والحصبة وغيرها [٧] .

هـ - الحياة الاقتصادية :

ذكر الرحالتان النواحي الاقتصادية في الإقليم، وقد انصب اهتمام ليبنز في الحديث عن حرفتي الرعي والزراعة باعتبارهما الحرفتين الرئيستين عند معظم سكان عسير، وكان واضحاً أكثر بالزراعة والحديث عن موارد المياه اللازمة

(١) فيليب ليبنز : المرجع السابق، ص ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٤ .

(2) Philby, Ibid, PP. 111 , 112 , 141 , 151

(٣) فيليب ليبنز : المرجع السابق ، ص٦٧ Philby, Ibid, PP. 39 - 40

(4) Philby, Ibid, PP. 141 , 148

(٥) فيليب ليبنز : المرجع السابق، ص ٦١، ٦٥ ، ٦٦ .

(٦) جدير بالذكر أن فيلبى قد أصيب بهذا الداء أثناء اقامته بعسير Ibid, PP. 136 , 139

(٧) فيليب ليبنز ، المرجع السابق ، ص ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦ .

لهـا [١] ، بينما أفاض فيلبـي اهتمامه في الحديث عن التجارة والأسـواق التجارية المختلفة من يومية وأسـبوعية وأسماء أشهر هذه الأسـواق، وأنواع السلع المعروضة فيها، والطرق المسـتخدمة في نقل البضائع، بالإضافة لحديثه عن الأسعار والأوزان وطرق التعامل التجاري لاسيما في أسواق بيشة وخميس مشيط[٢] .

وفي ختام دراسـتنا المقارنة لمحتويات هذين المصنفين يمكننا القول بأننا أفدنا إفادة واضـحة من المعلومات القيمة والأصيلة التي وردت على مدى صفحات هذين السـفرين، والتـي نادراً ما نجدها في مصـادر أخرى عربية كانـت أو أجنبية، فقد ألقـى هذان الباحثان الضـوء على كثير من النواحي التي كانت مجهولة وغامضـة من تاريخ وحضـارة هذه المنطقة من جنوبي البلاد السعودية، وبخاصة وأن منطقة عسير موضع الدراسة هي في حد ذاتها جدُّ فقيرة في المعلومات المتوافرة عنها سواء ما دُوِّن قديماً أو في عصـرنا الحديث، ولكن كمـا يقول القول المأثور مالا يدرك كله لايترك جلّه .

---

(١) فيليب ليبنز: المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ١٠٠ .

(2) Ibid, PP, 36 , 110 , 137 , 138.



سيرة ذاتية مختصرة



أولا : معلومات عامة :

- **الاسم : محمد بن أحمد بن مُعَبِّر .**
- **تاريخ الميلاد : ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م (في نجران) .**
- **المؤهل الدراسي : المستوى الثاني في كلية الشريعة وأصول الدين ـ أبها (١٤٠٣هـ) .**

ثانياً : الوظائف العملية :

١. موظف في مطار أبها (١٣٩٩هـ ـ ١٤٠٢هـ) .
٢. موظف في ديوان الخدمة المدنية (فرع أبها) (١٤٠٢هـ ـ ١٤٠٣هـ) .
٣. موظف في كلية الشريعة وأصول الدين في أبها (١٤٠٣هـ ـ ١٤٠٥هـ) .
٤. أمين المكتبة المركزية في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (أبها) (١٤٠٥هـ ـ ١٤١٠هـ) .
٥. مشرف النشاطات الاجتماعية والثقافية في بيت الشباب في أبها (متعاون) (١٤٠١ـ ١٤٠٦هـ) .
٦. مساعد مدير مركز المعلومات والدراسات الصحفية في صحيفة المدينة (جدة) (١٤١٢ ـ ١٤١٥هـ) .
٧. صحفي مجلة (إقرأ) في جدة (١٤١٥هـ ـ ١٤١٦هـ) .
٨. موظف في الشركة السعودية للكهرباء (أبها) (١٤١٦هـ ـ حتى الآن) .

ثالثاً :الإنتاج العلمي :

١ـ الكتب والأبحاث المطبوعة وعددها حتى الآن (٧٦) منها :

(١) معجم التوقيعات المستعارة . (٢) التربية الإسلامية . (٣) الألقاب . (٤) مدينة جُرش من المراكز الحضارية القديمة . (٥) الصحافة العربية الساخرة. (٦) ضوابط إحياء الأرض موات الأرض في الإسلام . (٧) قصة البحث عن جُرش. (٨) لغة الألوان في منطقة عسير .(٩) المرأة في شارع الحرية الخلفي .(١٠) مناهج الأصوليين في التأليف . (١١) سراة عنز بن وائل .

٢ـ الكتب والأبحاث المعدة للطبع وعددها (١٢٠) منها:

(١) معجم الألقاب العلمية والأدبية . (٢) معجم الشِّعْر .(٣) إلى أمي (الأم والأمومة في الشعر العربي) .(٤) الأمثال العامية في عسير . (٥) الجسور في التاريخ والأدب .(٦) جزيرة العرب (مثلث التاريخ والحضارة) قراءة في أصول الأنساب العربية القديمة . (٧) حوليات خميس مشيط . (٨) الصحافة الإسلامية . (٩) موريتانيا (رحلة عبر التاريخ والأدب) . (١٠) أيش وأخواتها . (١١) فتش عن القرية . (١٢) الرقيق الأبيض .

٣ـ الكتب والأبحاث (قيد الإعداد) وعددها أكثر من (١٠٠) منها :

(١) معجم الأذواء والذوات . (٢) الحرف والصناعات في الشعر العربي . (٣) حكاية الأصوات . (٤) دليل الصحافة العربية (ببليوجرافيا) . (٥) الشعر في العهد النبوي (ببليوجرافيا). (٦) الصحافة في عسير . (٧) المتاحف في عسير .(٨) معجم الرحلات (ببليوجرافيا) . (٩) معجم النقل . (١٠) معجم المصطلحات العلمية والأدبية . (١١) اليتيم في الأدب العربي . (١٢) الأنساب في ضوء السنة.

